النص الكامل

رحلة إلى داخل الجزيرة العربية

يوليوس أويتنغ

ترجمة

محمود كبيبو

عماد غانم

مُراجعة

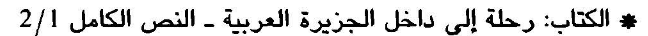
الشيخ ناصر محمد العليوي





رحلة إلى داخل الجزيرة العربية

النص الكامل


* الكتاب: رحلة إلى داخل الجزيرة العربية ـ النص الكامل 2/1
* العنوان الأصلي: يوميات رحلة داخل شبه الجزيرة العربية
* تأليف: المستشرق والرحّالة الألماني يوليوس أويتنغ
* ترجمة: محمود كبيبو ـ د. عماد الدِّين غانم
* مراجعة: الأستاذ ناصر بن محمد العليوي
* الطبعة الأولى: الورّاق للنشر 2014
* جميع الحقوق محفوظة
* تصميم الغلاف: دار الورّاق



www.alwarrakbooks.com

ISBN: 978-9933-521-21-9

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD-UK
Tel: 00442087232775
Fax: 00442087232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص.ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

شركة بيت الورّاق للنشر والتوزيع المحدودة
العـراق ـ بغـداد ـ شـارع المتنبي
تلفون: 009647702749792
009647801347076

شركة دار الورّاق ش.م.م
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي
هاتف: 00961-1-341927
فاكس: 00961-1-750053

رحلة إلى داخل الجزيرة العربية

النص الكامل

المستشرق والرحّالة الألماني

يوليوس أويتنغ

ترجمه عن الألمانية

محمود كبيبو **د. عماد الدين غانم**

مراجعة

الأستاذ ناصر بن محمد العليوي



Tagbuch einer Reise in Inner- Arabien

Von

Julius Euting

Erster Teil

1896

المحتويات

الجزء الثاني

تصدير

لقد حرصت الدار على ترجمة هذا الكتاب بشكل أمين مع المحافظة على النص الأصلي والكامل للرحلة وقد وردت في ثنيات الكتاب عبارات وكلمات غير لائقة، لذا فنحن غير مسؤولين عمّا ورد في النص من أسلوب ولغة الكاتب.

الناشر

الإهداء بالطبعة الألمانية

إلى صاحب الجلالة

أوسكار الثاني

ملك السويد والنرويج

بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة والعشرين

لتولّيه الحكم مع فائق الاحترام والخضوع.

مقدمة

منذ فتوتي، خلال فترة دراستي الجامعية، وضعت خطة لرحلة أجوب فيها شبه الجزيرة العربية وقدَّمت بهذا الخصوص في سنة 1864م مذكرة إلى وزارة الثقافة في ولاية فيتّنبرغ (الألمانية)، لكنَّني اضطررت إلى التخلي عن التنفيذ بسبب عدم توفر المال اللازم لذلك ونتيجة لانخراطي في هذه الأثناء في مشاغل الحياة اليومية. بعد عشرين سنة تقريباً تناولت الفكرة من جديد. وبعد أن رفضت وزارة الداخلية للرايخ الألماني في برلين، بسبب نقص التمويل، الطلب الذي تقدَّمت به للمساعدة، تمكَّنت من تنفيذ الرحلة خلال سنتي 1883م و1884م بفضل الدعم الكريم الذي قدَّمه لي الوالي القيصري لمقاطعة الإلزاس ـ واللورين المرحوم البارون إدفين مانتويفل. ولقد تكرَّم عليَّ أيضاً بنفس السخاء صاحب الجلالة الملك كارل فون فوتنبرغ الذي زوَّدني بكل ما يلزم من الأسلحة للقيام بهذه الرحلة.

كان رفيقي في الرحلة السيِّد كارل هوبر (اغتيل بالقرب من جدة في 29 يوليو/تموز 1884م)، المولود في الإلزاس وحامل الجنسية الفرنسية بالاختيار، والذي كان قد جاب هذه المنطقة قبل بضعة أعوام وكانت خبرته ومعرفته للمناطق والأمكنة عوناً كبيراً لي؛ وعلى الرغم من أنَّه كان لديه تكليف رسمي من الحكومة الفرنسية للقيام بالرحلة وحصل أيضاً على أموال مختلفة لهذا الغرض، فإنَّه كان ضيفي بدءاً من ستراسبورغ (22 مايو/أيار 1883م) وحتى انفصالنا بكل مودَّة (19 مارس/آذار 1884م) في العلا.

كان غرضي من الرحلة ينصبُّ في المقام الأوَّل على الآثار والكتابات والنقوش الأثرية القديمة. كنت أريد في هذه البلاد ـ التي توغل فيها قديماً

المحتلون الآشوريون والتي ظلَّت تجارة البلدان المشرقية والجنوبية إلى البحر المتوسط قروناً عديدة تنقل عبرها على ظهور الإبل ـ دراسة آثار التاريخ ما قبل الإسلام في صيغة الكتابات والتماثيل والشواهد التاريخية المتبقية من ذلك الزمان. ولقد نشرت النتائج العلمية في هذا الاتجاه بأهم أجزائها[1].

لكنَّني في هذا الكتاب أردت أن أُقدِّم للجمهور الأوسع[2] وصفاً لمشاهداتي وانطباعاتي الشخصية التي يمكن أن تكون ـ على الرغم من صبغتها الشخصية تماماً ـ ذات أهمية من جوانب مختلفة. ولمجرَّد الذِّكر لا أكثر ـ ولأنَّني لست مختصّاً بالدراسات اللغوية العربية ـ قمت بين حين وآخر بالتطرق إلى هذه المسألة أو تلك، الأمر الذي قد يرحب به المختصون باللغة العربية. كما أنَّه لم يكن من الممكن تفادي استعمال كمية من الكلمات والتعابير العربية التي تستعمل هناك على الدوام في الحياة اليومية. ولذلك أضع هنا في المقدمة قائمة بالكلمات العربية التي تتكرَّر كثيراً في العرض:

(يضع المؤلف قائمة مؤلفة من حوالي ثلاثين كلمة عربية، أو تعبير عربي، استعملها في النصّ بصيغتها العربية، ثمَّ يشرحها للقارىء الألماني، نذكر منها، على سبيل المثال: البدوي، العصر، الرديف، الغزو، الحمد لله،

---

(1) I. Euting, Nabataeische Inschriten aus Arabien. **كتابات نبطية من شبه الجزيرة العربية، برلين 1885م.**

D. H. Mulleer, Epigraphische Denhmarler aus Arabien **آثار كتابية من شبه الجزيرة العربية، فيينا 1889م.**

Th. Naeldehe, Altarawaeische Inschrift aus Teima (Arabien). **كتابة آرامية قديمة من تيماء (شبه الجزيرة العربية) (محاضر جلسات أكاديمية برلين 1884م رقم 35، ص813 ـ 820).**

S. Landauer, Ueber die Van Euting in Palmyra gefandene Synagogen- Insrhrift. **عن الكتابة في معبد يهودي التي عثر عليها أويتنغ في تدمر (محاضر جلسات أكاديمية برلين 1884م، رقم 39، ص934 وما بعدها).**

(2) لم أطبع حتى الآن سوى محاضرة صغيرة عن هذه الرحلة ألقيتها في 8 مايو/أيار 1886م أمام الجمعية الجغرافية في برلين (**انظر مقالات الجمعية، 1886م، رقم 5**).

إن شاء الله، السلام عليكم، . . .إلخ. . .، ولا نرى ضرورة لعرضها كاملة، المترجم).

فيما يتعلَّق بالصور والرسمات التي أضفتها إلى النص أرجو من القرَّاء إبداء قدر من التسامح لأنَّني لا أدعي أنَّني فنَّان في الرسم؛ بالمقابل آمل في أنَّها ستسهل فهم النص وتوضحه، وستوفر على أيٍّ حال كثيراً من الكلمات غير اللازمة.

وإذا ما كان الجزء الأوَّل من كتابي عن هذه الرحلة لم يصدر إلَّا الآن، أي بعد 12 سنة من قيامي بها، فأرجو أن يؤخذ بعين الاعتبار أنَّ عملي في المكتبة هنا لا يترك لي إلَّا ساعات قليلة من اليوم وأنَّني قد أنجزت الجزء الأكبر من الكتاب، بما في ذلك الرسومات، في ساعات متأخرة من اللَّيل أو في الصباح الباكر.

ستراسبورغ
في 28 مارس/ آذار 1896م
بروفسور د. ي. أويتنغ
أمين مكتبة

الجزء الأول

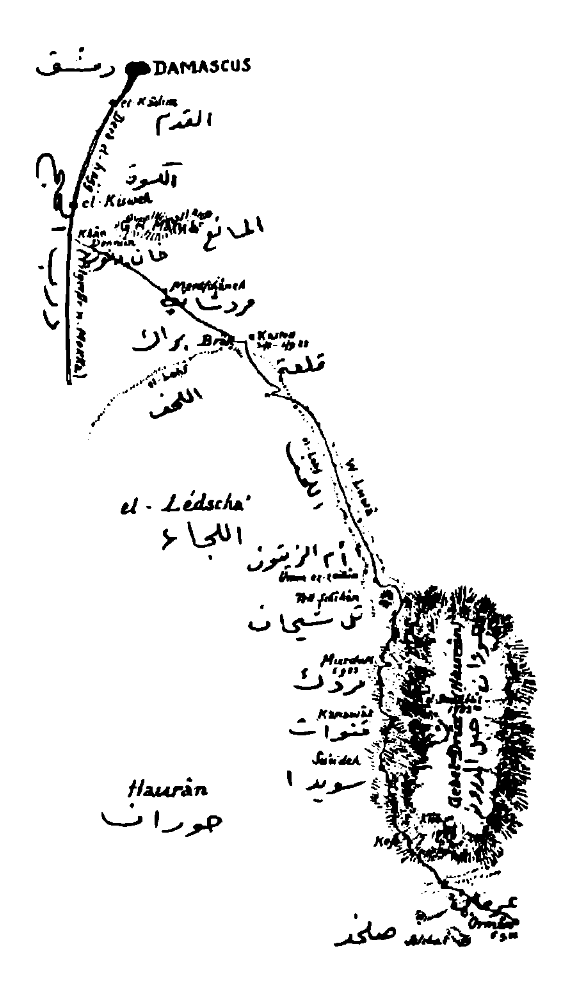
الفصل الأوَّل

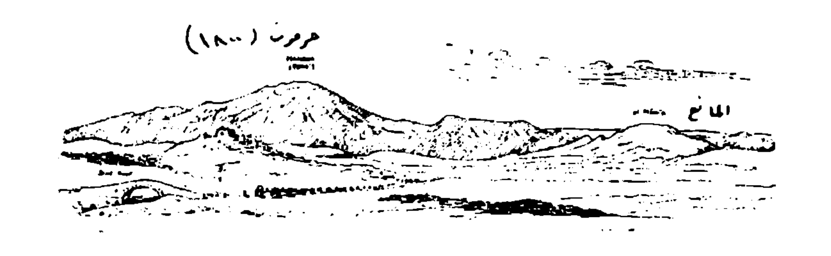
السفر من دمشق إلى الدروز في عرمان

31 أغسطس / آب ـ 6 سبتمبر / أيلول 1883م

في الصباح الباكر قبل طلوع الفجر وصل إلى فندقي في دمشق المكاري (سائق الخيول) عبدو الذي كنت قد استأجرته، وأبلغني أنَّه جاهز مع حصانين لإيصالي إلى براق. ولكم كان مدهوشاً عندما رأى أمامه «الخواجا» الذي كان قد رافقه قبل أسابيع قليلة عبر جبال لبنان، فجأة في ثياب رجل بدوي. «إلى أين تريد الذهاب يا شيخ؟» (لم يعد يستعمل كلمة «خواجا»). «أريد الذهاب إلى البدو؛ عليك مرافقتي فقط إلى آخر حصن تركي إلى براق». فتفحصني من رأسي حتى قدمي وهزَّ رأسه. وأنا كنت مستغرباً من نفسي مثل هذا المكاري. كانت ملابسي تتألف من قطع مختلفة ثبت فيما بعد أنَّها نوع من الفخفخة الزائدة التي لا لزوم لها. كانت تتألف أوَّلاً من قميص قطني طويل يصل حتى الأرض له كمَّان طويلان أيضاً يلامسان الأرض؛ وتحته، على اللحم مباشرة، سروالان قطنيان واسعان؛ وفوق القميص نوع من سترة نوم من الحرير (تُسمَّىٰ في سوريا قمباز وعند البدو زبون) تثبت ملفوفة على الجسم بواسطة زنَّار؛ على القدمين المجوربين زوج من الجزمات البدوية الحمراء النارية المدبَّبة قليلاً من الأمام والمزوَّدة عند الكعب بنضوة حديدية ذات ثلاث مسكات وقصبتاها مزينتان بشرابة حريرية زرقاء فخمة؛ ولحماية الرأس من حرارة الشمس وضعت على رأسي أوَّلاً قبعة بيضاء ضيِّقة من اللباد وفوقها كوفية مزدوجة، أي غطاء للرأس مطوي على شكل مثلث ومصنوع من قماش قطني بطبعة زرقاء اللون أحد أطرافه يتدلى حتى منتصف الظهر بينما طرفاه الجانبيان الآخران يتدليان من جهة الأمام فوق الكتفين؛ زينة الرأس (غطاء الرأس) بكاملها مثبتة بواسطة العقال البدوي الأسود المألوف المصنوع من الصوف المجدول والملفوف حول الرأس لفَّتين. بعد وداع قصير من صاحب فندق فيكتوريا بيترو بافليتشِفيتش صعدت إلى ظهر الحصان مع قولي «بسم الله» وانطلقت مع طلوع

الشمس عبر أزقة حي الميدان الطويل متوجهاً نحو الجنوب. ولم يفتني بأيّ حال كم كان الناس مدهوشين من هذا البدوي النظيف جداً في بذلته الجديدة الأنيقة؛ كما أنّني كنت أسمع بين حين وآخر المعلومات التي كان عبدو، الراكب على جواده خلفي، يعطيها لأيّ من معارفه الفضوليين. وعند وصولي إلى بوابة الله، الباب الجنوبي للمدينة، كنت قد تخلصت نهائياً من تعليقات الفضوليين وفي الوقت نفسه قلت للمدنيَّة وداعاً. وبمنتهى البهجة رحت أتمتع ببرودة الصباح.





فبعد الأيّام الحارة التي كنت قد شهدتها في تدمر قبل ذلك بوقت قصير، حيث كانت درجة الحرارة تصل إلى 44 درجة مئوية في الظلّ، بدا لي الضباب الذي يغطي الأرض مثل تحية شافية من الوطن. قبل أربعة عشر يوماً كنت قد شاركت في مشاهدة قافلة الحجّ وهي تعبر هذا السهل الأجرد أمام هذه البوابة تحت حرِّ الشمس اللاهبة. واليوم ها هو المكان، الذي يكون في العادة عامراً بالناس من مختلف الألوان، خالياً من الناس تماماً ولم يكن المرء يرى عبر الضباب الكثيف أي نقطة للتوجه. وبما أنَّ المكاري الذي يرافقني لم يكن يعرف الطريق المباشر إلى براق عبر نجهة اضطررت إلى اتباع طريق طويل نسبياً عبر الكسوة. حتى هذه القرية كنَّا نسير على درب الحجّ العريضة من كثرة المسير، وعندما بدَّدت الشمس الضباب نزلنا إلى مقهى على جانب الطريق لكي نتناول بعض المرطبات. بعد استراحة لمدة ساعة غادرنا الكسوة لكنَّنا انعطفنا عند خان دنّون نحو اليسار تاركين طريق الحجّ متجهين نحو الجنوب الشرقي عبر طبيعة متموجة إلى براق. في الطريق التقينا مع قوافل إبل مختلفة قادمة من حوران ومررنا، تحت حرارة النهار المتزايدة، في عدَّة قرى مبنية جميعها من أحجار «اللجا» البركانية الداكنة. وعندما خلَّفنا وراءنا مرجانة، آخر هذه القرى، ودخلنا في حوض وادٍ قليل العمق لكنَّه عريض رأينا على اليمين في الجهة المقابلة بعض خيام البدو التي انطلق منها بعد وقت قصير الرجلان اللذان تسبَّبا في حدوث الدراما التالية المشؤومة. كان من الواجب عليَّ في الحقيقة ألَّا أروي تلك القصة لأنَّها تعبِّر عن شهادة لا فخر فيها على تهوّري وقلَّة معرفتي بالناس، لكنَّني سأرويها لتكون تحذيراً لغيري. ما إن شاهدنا الخيام حتى ظهر فارسان مسلحان برمح وبندقية يتوجهان في السهل نحونا. عندئذٍ نصحني عبدو بإلحاح أن أعود إلى آخر

قرية؛ لكن هذه النصيحة بدت لي مهينة ومضحكة. ولكي يجعلني أتفهم مخاوفه فتح قميصه وأراني ندبتين ما زالتا طريتين على جهة أضلاعه اليمنى وقال: إنَّه قد تلقَّاها قبل أسبوعين من بدو قرب الكرك جنوب شرق البحر الميت؛ كما أنَّ الحصان الذي كان يمتطيه كان مصاباً أيضاً، الشيء الذي لم ألاحظه إلَّا الآن، بجروح في البطن وفي الفخذين الأماميين لم تشفيا تماماً بعدما ألحقتها به رماح البدو أنفسهم. لكنَّني أنا أصررت على السير قدماً وحاولت تشجيعه ورفع معنوياته. وبعد وقت قصير التقينا مع الفارسين وجهاً لوجه؛ كانت ملابسهما نصف بدوية وكانا أيضاً يغطيان بسبب الحر نصف وجههما بغطاء الرأس. بعد التحية المألوفة دار بيننا حديث في غاية اللطف؛ سألوني من أين أتيت وإلى أين ذاهب ولماذا أرتدي هذا الزي وما شابه؛ وسألوني أيضاً عمَّا إذا كنت أحمل معي مواد غذائية ثم طلبوا منِّي أخيراً إعطاءهم بعض الطعام، فقدَّمت لهم خبزاً وبعض التين الذي أكلوه شاكرين. في داخلي طلبت منهم السماح على كل المساوىء التي تنسب لهم ظلماً. وقلت في نفسي: إنَّ سكَّان دمشق ينسجون الأساطير حول ما يفعله الدروز والبدو خارج أسوار مدينتهم؛ فأنت لا تحتاج إلَّا إلى التحدث مع هؤلاء الناس بلغتهم لكي تنال ثقتهم. بعد الحديث قليلاً عن السياسة انتقل الحديث إلى المدافع والسلاح بصورة عامَّة. «ما هو المسدس الذي بحوزتك؟». إنَّه مسدس عادي. «دعنا نراه». أخ، إنَّه مسدس عادي تماماً. «ولكن دعنا نراه عن كثب». ولكنَّكما تعرفان طبعاً ما هو المسدس. «نعم، نعم، نعرف ولكن أرنا إيَّاه». ليس من سبب لديَّ ولا رغبة في ذلك. «هل تخشى أن نأخذه منك؟ لا تخف سنعيده إليك على الفور». دون أن ألاحظ كان أحد الرجلين مع بندقيته المزدوجة قد تأخر بمقدار نصف حصان بينما كان الآخر يطلب منِّي بمنتهى اللطف أن أريه المسدس. أمام هذا الإلحاح على شجاعتي والتأكيد على صدقهما وصفاء نيّتهما ضعفت مقاومتي واستجبت لطلبهما؛ وهكذا سلَّمته المسدس. وما إن صار في يده حتى جرَّبه بسرعة في الهواء ثم وجَّهه بلمح البصر نحوي، بينما وجَّه رفيقه بندقيته إلى صدري، وصرخا معاً: «أين نقودك؟ أعطنا نقودك». هل تفيان هكذا بوعدكما؟ لقد وثقت بالله

وصدقت ما وعدتماني به؛ أمَّا أنتما فقد خدعتماني. «دعك من هذه الثرثرة التقية وأعطنا ما لديك من نقود وإلَّا!». لن أعطيك أي شيء. خذ ما تجده في محفظتي. بينما كان أحدهما لم يزل مصوباً سلاحه نحوي فتش الآخر محفظتي وأخذ منها ما فيها ومقداره 4,5 مجيدي[1]. كما أنَّ المكاري أجبر على تسليم ما لديه من نقود. بعد ذلك حاولا عبثاً البحث عن مفتاح حقيبتي التي كانت تحتوي على 500 فرنك تقريباً. ولما لم يجداه، وبما أنَّهما كانا، كما يبدو، يريدان في المقام الأوَّل وضع سرقتهما المتواضعة بسرعة في مأمن، فقد أطلقا بعد وقت قصير لجواديهما العنان وفرَّا هاربين بسرعة الريح مطلقين ضحكة عالية ساخرة وبعض العيارات النارية من المسدس. لا أستطيع وصف غضبي العاجز ولا خجلي المعبر عن الإهانة والذلّ. أمَّا المكاري فقد أمطرني بوابل من الاتهامات التي مهما كانت محقة، أغضبتني أيضاً إلى أبعد الحدود. أمرته بأن يسكت ووعدته بأن أعوِّض له كل خسارته وأكثر. وهكذا تابعنا مسيرنا في السهل المنحدر قليلاً نحو الأسفل: في الخلفية ظهرت سلسلة جبال حوران (جبل الدروز)، وكان على يميننا السفح الشمالي (لحف) المغلق كالسدّ لمرتفعات اللجاء البركانية؛ على زاويته الشمالية الشرقية تقع قرية براق وحصنها وهي آخر محطة عسكرية تركية في اتجاه منطقة الدروز، الغاية منها السيطرة إلى حدٍّ ما على تحركات الجيران المشاغبين. قبل كيلومتر واحد من الحصن يوجد برج للمراقبة وإلى جانبه بئر جيد يسيطر عليه الجنود في النهار ويأخذون منه ما تحتاجه الحامية من ماء. وفي الوقت نفسه كان البئر محاطاً برعاة القطعان وسائقي القوافل الذين ينتظرون بصبر نصف نهار حتى يسمح لهم الجنود بسحب ماء من البئر بواسطة وعاءٍ ما. أمَّا أنا فقد اندفعت بين الجنود وطلبت الماء. وبعد أن رويت ظمئي الشديد طلبت التحدث إلى قائد الموقع العسكري. وبعد برهة من الزمن مثل أمامي اليوزباشي محمود أفندي. لم يكن ليعرف من لباسه أنَّه عسكري، إذ إنَّه كان يرتدي، تفادياً للحر وبسبب بعد الموقع عن المناطق

---

(1) المجيدي، أو الريال التركي = 4,5 فرنك تقريباً.

المأهولة، بذلة نوم ملونة. وما أن قرأ كتاب التوصية الذي أحمله من المشير حسين فوزي من دمشق حتى أصبح خاضعاً خضوعاً إلى أبعد الحدود مؤكداً لي كل الاحترام والتكريم وإلخ. . .

وقال لي: إنَّه يمكنني البقاء في الحصن قدر ما أريد وأن أطلب كل ما أشتهيه وأرغب فيه. في هذه الأثناء كان مرافقي عبدو قد بدأ بالتحدث إلى الجنود عن قصة تعرضنا للسلب على يد ذينك الرجلين. عبَّر قائد الحامية عن أسفه الشديد لأنَّه لم يكن يتوقع هذا الحادث، وقال: إنَّه رأى الرجلين (وهما على الأرجح درزيان من حوران) عندما مرَّا مسرعين على مقربة من البئر دون أن ينزلا إليه وكان في وسعه اعتقالهما أو ربَّما أسهل إعطاء أمر بقتلهما بكلِّ بساطة. خسارة، خسارة! عندما كان يعبِّر عن أسفه لما حدث لم يكن يستطيع إلَّا بصعوبة إخفاء دهشته من تهوري الذي لا يصدق ـ كيف يمكن لشخص أن يفكر بتسليم سلاحه الشخصي إلى رجل غريب. لكنَّه وعدني بالعمل على إجبار الرجلين على إعادة ما سلباه. ولكن كيف سيفعل ذلك؟ لم يكن واضحاً لي في بادىء الأمر وبدا لي وعده مجرَّد نوع من المجاملة الشرقية. دعيت إلى التوجه إلى الحصن لأخذ قسط من الراحة. وعند مغادرتنا للبئر حدثني الساعد الأيمن لليوزباشي محمود أفندي عن قرية البراق التي أصبحت مهجورة تماماً ولم يبق فيها إلَّا الشيخ خطَّار المتشبت في المكان بكلِّ عناد.

بنيت القلعة (الحصن) في سنة 1292هـ (1875/ 1876م) وهي على شكل مربع منتظم مع أربعة أجنحة ركنية (على الزوايا الأربع). على الجهتين الشرقية والغربية توجد منصَّة مع درابزون وعلى امتداد الجهتين الشمالية والجنوبية توجد قاعتان كبيرتان لعناصر الحامية؛ آنذاك كان عددهم 80 رجلاً تقريباً ومعظمهم من الأكراد. أخذت الأحصنة إلى الإسطبل ورافقني اليوزباشي (النقيب) عبر البهو صعوداً على الدرج إلى المنصَّة لكنَّه ما لبث أن تركني وحدي في غرفته التي يتقاسمها مع طبيب عسكري مريض بالسل من قبرص اسمه حسين صالح أفندي. هذا الرجل الشاب كان ودوداً ولطيفاً جداً لكنَّه لم يكن يتكلَّم اللغة العربية وإنَّما فقط التركية. ونظراً لجهلي كلياً اللغة التركية لم نتمكن من تبادل الأفكار. وبما أنَّني لم أتناول منذ تسع ساعات أي طعام فقد

كنت جائعاً إلى حدٍّ ما. كنت آنذاك لم أزل أتقيد بكثير من العادات الأوروبية. قدَّم لي الطبيب في بادىء الأمر القهوة، وفي وقت لاحق نوعاً من الحلوى مصنوعاً من الحليب والسكر والقرفة، وكان يتحدث في الاستراحات الطويلة التي تخلَّلت ذلك بعض الكلمات الفرنسية، التي كان لم يزل يتذكرها من أيَّام الدراسة، وذلك لكي يساهم من جانبه بقسط على الأقل من المحادثة. ولكي أتحاشى جحافل الذباب جلست على المنصَّة متمتعاً بنسيم المساء المنعش وجلس الطبيب إلى جانبي صامتاً ملفوفاً بمعطفه. وقبل غروب الشمس بوقت قصير عاد النقيب إلى القلعة برفقة خطَّار شيخ براق. كان خطَّار فاقداً في كلتا يديه بعض الأصابع. ورداً على سؤالي أراني أيضاً آثار طلقات أخرى على جسمه وقال لي: إنَّها علامات تذكارية نتيجة صراعه مع الدروز الذين أرغموا شيئاً فشيئاً، بما يقومون به من شغب وسلب ونهب، جميع سكَّان القرية على الهجرة، أمَّا هو فلن يستطيعوا، ما دام حياً، زحزحته من مكانه. وقال: إنَّه قد وضع أُسرته أيضاً في مكان آمن، لكنَّه هو لن يذعن، فهو كان وسيبقى شيخ براق. هو أيضاً كان قد رأى من بيته الرجلين الغاصبين، لا بل إنَّه شبه متأكد من أنَّه يعرف من هما. ولقد سمعت منه توبيخات صريحة على الغباء الذي أبديته في هذا اليوم؛ وكنت أصغي إليه صامتاً ثم أكَّدته له في النهاية.

حان الآن وقت الغروب؛ على المنصَّة الشرقية وقف ضابط صف وأدَّى دور المؤذن أي إنَّه ردَّد بصوتٍ عال أذان المغرب، أي النداء إلى الصلاة. فاستجابوا جميعاً لندائه بوقار احتفالي؛ بعد ذلك مباشرة جلب طعام العشاء. كان طعام اليوم يتألف من الأرز ولحم الغزلان التي اصطادتها كلاب النقيب السلوقية. وبعد الطعام قدّمت القهوة. وبينما طلبت أنا بسبب الحرارة الزائدة في الغرفة على الرغم من قوَّة الريح، وضع سريري على الشرفة في العراء، اجتمع في الداخل النقيب والطبيب العسكري والشيخ وأعدّوا رسالة إلى شيخ الدروز إبراهيم الأطرش في السويداء طالبوه فيها بالبحث عن الرجلين المعتديين ومعاقبتهما وإعادة الغنيمة التي سلباها بقوَّة السلاح. وما إن استلم الشيخ خطَّار الرسالة حتى قفز إلى ظهر حصانه الجاهز للانطلاق لكي يقوم برحلته إلى الدروز في هذه الليلة أملاً بالحصول على بخشيش ثمين. وبعد

خروجه أغلق باب الحصن الثقيل الملبَّس بالحديد مطلقاً صريراً حادّاً، وعلى المنصَّة كان البوَّاق يطلق إشارة الذهاب إلى النوم، وبعد ذلك كان كلّ شيء هادئاً. أمَّا أنا فلم يكن في وسعي النوم. إذ لم تكن مغامرة اليوم وحدها هي التي أبقتني يقظاً بل إنَّ الحشرات الصغيرة ـ البراغيث والبق ـ التي تشتهر بها حوران واللجاه كانت تفعل فعلها وبحماس لا يتوقف. هل يتعين على هذه الحامية الحدودية تحمُّل مثل هذا الامتحان طيلة العام كله؟ إنَّه لأمر مخيف! كما أنَّ الكلاب السلوقية التي بحثت عن الدفء عند نهاية سريري كانت في كل لحظة تحاول التمرُّد.

في الصباح الباكر (1 سبتمبر/أيلول) خرجت من فراشي الذي كان مبللاً بندى اللّيل. أحد الفتيان جلب لي في يده قطعة صابون وفي الأخرى إبريقاً طويل الرقبة فيه ماء للاغتسال، ولكن، طبعاً، بدون حوض غسيل. فالشرقيون يشمئزون جداً من طريقتنا في الاغتسال في حوض ولو مهما كان مملوءاً بالماء، ويقولون: نحن الغربيين نغتسل في وسخنا. لكن من اعتاد منذ الطفولة على الاغتسال في حوض للغسيل سيشعر دوماً بصعوبة الاغتسال عندما يضطر إلى القرفصة على الأرض والاغتسال بالقليل من الماء الذي يصبّه الخادم على يديه بصورة متقطعة بدلاً من القيام بهذا العمل بصورة مريحة في حوض مليء بالماء. نظام تناول الطعام في القلعة منتظم ومتشابه إلى أبعد الحدود: في الصباح عند النهوض من الفراش، قهوة؛ في حوالي الساعة 11 ظهراً وجبة الغداء: رغيفان من الخبز ولحم غنم (أو مقابل ذلك: بيضتان)؛ بعد غروب الشمس: أرز وصحن من الباذنجان أو البامياء، وبعد ذلك قهوة.

بعد تعويضه عن خسارته بسخاء ودعنا سائق الخيول عبدو معبّراً عن شكره العميق وعاد مع جواديه إلى بلده.

بعد الفطور أراني النقيب أوَّلاً حديقته لزرع الخيار، وبكل فخر شجيرات العنب التي غرسها قبل سنة ثم تربيته للديك الرومي، بعد ذلك امتطينا جوادينا وذهبنا إلى برج المراقبة ذي الإطلالة الرائعة على جبل حرمون (2563م)

المغطّى بالثلج، ثم أخذنا معنا من حراس البئر جندياً لمرافقتنا إلى آثار قرية براق.

جميع قرى منطقة اللجاه البركانية تتألف من الحجر البركاني الأسود ولعلَّ العدد الأكبر منها يعود إلى القرون الخمسة الأولى من الألف الأولى للميلاد. وهكذا هو الحال في براق أيضاً؛ ليس فقط الجدران والأدراج بل حتى دعامات السقف والأبواب المزدوجة المثبتة برزّات، جميعها من الحجر. في أحد البيوت لاحظت رموزاً مسيحية محفورة فوق الباب، وفي بيت آخر كان لم يزل هناك السرير الذي تركه آخر السكّان. وعند خروجي من إحدى الحجرات المظلمة لاحظت أنَّ ثيابي قد تبقعت فجأة بكاملها، أي إنَّها قد أصبحت مزروعة بالكامل بسرب من الذباب، كلا بسرب من البراغيث. ونظراً لمّا كانت البراغيث تعانيه من جوع انقضت علينا في حالة يائسة، لكنَّها بدت من شدَّة الجوع وكأنَّها مخدَّرة ولا حيل لها. عندئذٍ بدأ محمود أفندي والجندي بتنظيفي من الورطة التي وقعت فيها وهما يضحكان. أمَّا هما فلم يفاجآ بهذا الهجوم ولم يُسبِّب لهما أي قلق. بعد ذلك عدت إلى المعسكر منهكاً إلى حدٍّ ما من السير وشدَّة الحر. بعد تناول الطعام عوَّضت النوم الذي ضاع منّي في اللَّيل. ولما استيقظت اقتادني النقيب مفتخراً إلى إحدى القبب في الطابق الأسفل: هناك كان يسجن درزياً أسره الجنود كرهينة حتى يعود الشيخ خطّار سالماً وناجحاً في مهمته. بعد الظهر دعاني النقيب إلى زيارة حديقته الكبيرة. كانت الحديقة تقع على بُعد 20 دقيقة من القلعة خارجاً في السهل. ولذلك طلبنا خيولاً لنقلنا إلى هناك. فحصلت على حصان فتيّ لعوب عمره سنة ونصف السنة لم تكن على ظهره سوى سجادة بسيطة وعلى رأسه حبل فقط؛ أمَّا اللجام فلم يكن قد عرفه بعد. وأمَّا النقيب فقد أخذ أم الحصان الفتي، كما أنَّ الكلاب سمح لها بمرافقتنا. في الطريق عبَّر لي النقيب مراراً عن إعجابه بحديقته المؤلفة من حقل لزراعة القرع والذرة. كان بعض الجنود يشتغلون في المزرعة ويقطعون عرانيس الذرة الناضجة وطلبوا منّي تذوق بعض منها. كما قاموا بانتقاء عدد من ثمار القرع المتميزة كي نأخذها معنا إلى المعسكر. أمَّا الخيول فقد تركت في المزرعة تسرح وتمرح على

هواها. وعلى مسافة غير بعيدة من المزرعة كان هناك كثير من الإبل مع رعاتها. كان معظمها قادماً من حوران، وأيضاً من الجهة الشرقية لجبل الدروز، وكانت محمَّلة بالحبوب إلى دمشق. فذهبت إلى هؤلاء الناس لكي أتحدث معهم. وبعد أن نلت ثقتهم بأن قدَّمت لهم التبغ رووا لي مختلف أنواع القصص والحكايات. ولم أغادرهم مع غروب الشمس إلَّا على مضض لكي ألبي مطالبة النقيب لي بالعودة إلى المعسكر. وإذا ما كان لجم الخيول، التي ازداد نشاطها نتيجة الغذاء المتوفر بكثرة، قد كان صعباً بما فيه الكفاية فإنَّ قيادتها كانت أكثر صعوبة وتحتاج إلى كثير من المهارة والفن: فما إن امتطيت ظهر جوادي الفتي حتى انطلق مسرعاً وراح يقفز فوق العيدان والحجارة وينزل في الجداول المائية الشديدة الانحدار والتي كانت جافة الآن ثم يخرج منها إلى أعلى، وكان مستعداً لفعل كل شيء إلَّا العودة إلى داخل أسوار القلعة الجرداء. بلا حول ولا قوَّة على ظهر الحصان المنطلق بدون لجام، وبعد تجاوز المعسكر إلى مسافة بعيدة، لم يكن في وسعي إلَّا أن أنتظر من النقيب أن يتمكن من تهدئة الحصان وإعادته بالكلمة الطيِّبة إلى صوابه. لكنَّه عندما كان يقترب منه كان حصاني يعتبر نداءاته دعوة إلى السباق وزيادة السرعة، وكان يردّ على نباح كلاب الصيد بصهيل عالٍ. وأخيراً وجَّه النقيب فرسه إلى القلعة وصرخ بالكلاب طالباً الكف عن النباح والمطاردة ثم وقف أمام البوابة. عندئذٍ بدا لمهري أنَّ الجري وحيداً في السهل الأجرد مع حلول الظلام لم يعد مجزياً: تسمَّر فجأة في مكانه، ورفع رأسه عالياً واستدار بسرعة البرق وتوجَّه بخطّ مستقيم نحو المعسكر ودخل مسرعاً إلى الباحة عبر طريق البوابة المرصوف بالحجارة بحيث إنَّني فقدت السماع والرؤية. وهناك وقف. فقفزت عن ظهره وكنت سعيداً بهذه النتيجة؛ سمعت من محمود أفندي عبارات الثناء على مهارتي غير المتوقعة في ركوب الخيل. أمَّا المهر فقد انقاد الآن بكل سهولة إلى الإسطبل والبخار ينطلق منه وقلبه يخفق ـ إلى الدرزي الأسير. يا إلٰهي، هذا الرجل المسكين كان لم يزل هنا. لكن النقيب أمر بناءً على مطالبتي الملحة بإطلاق سراحه في الليلة نفسها، لكنَّه قال له: إنَّه في الحقيقة كان يستحق أن يقطع رأسه.

الأحد 2 سبتمبر/أيلول 1883م. نتيجة رش كميات كافية من مسحوق ضد الحشرات تمكنت اليوم من النوم بعض الشيء، ولكن دون أن أتمكن من التخلص كليّاً من البق. جلب صباح هذا اليوم للطبيب المريض خمسة مرضى من رجال الحامية لديهم حرارة مرتفعة فأعطاهم بعض المسحوق والشراب. بهذه المناسبة اكتشفت في صندوق الأدوية بوتقة بدت لي وكأنَّها قد نزلت من السماء لكي استعملها كحوض للاغتسال، وقد وضعت تحت تصرفي بكل سرور؛ فعملت فوراً على استغلال هذه الطريقة المريحة في الاغتسال وأَثَرْت؛ بآخر ما تبقَّىٰ لديَّ من وسائل الرفاه الفرنجي، وهو قطعة صابون طيب الرائحة وقليلاً من الكولونيا، أعلى درجات الدهشة. طلب منِّي الطباخ عبدو ومساعده أحمد، اللذان فرزا لخدمتي الشخصية وكانا في غاية اللطف والترتيب، أن أرسم لهما أيضاً صورة لكنَّهما كانا مستاءين إلى حدٍّ كبير عندما أريتهما الصورة التي رسمتها، ليس لأنَّهما كانا يشكان في أنَّ الصورة لا تشبههما ـ فهما لم يكونا يملكان موهبة التمييز ـ وإنَّما لأنَّني لم أرسمهما بالبذلة الرسمية. ففي ثياب المطبخ البسيطة وكونهما حافيين بطبيعة الحال بدت لهما الصورة مهينة تماماً، ولم يستعيدا سعادتهما إلَّا بعد أن وعدتهما بأن أرسمهما مرَّة أخرى بالبذلة العسكرية مع الجزمة والسلاح. نفذت لهما جميع طلباتهما، وخاصة تلك النقاط التي علَّقا عليها أهمية كبيرة، ورسمت لكل منهما صورة ملونة أظهرت فيها بطريقة نمطية جميع تفاصيل الجندي إلى جانب خصائص الجمال الشخصية لصاحب الصورة ومنها شاربان قويان بصورة مبالغ فيها ونظرة عابسة. ولكم كان الرجلان سعيدين وممتنين! وكانا يريدان إرسال الصورة إلى أهلهما في أوَّل فرصة سانحة لكي يُسكتا كل من يشكك في ما لديهما من مزايا ولربَّما لكي ينعشا ذكرى مهدَّدة بالنسيان أو شوقاً في نفس شخص عزيز. ولكي يعبرا عن شكرهما غمراني بالاهتمام وقدَّما لي عرانيس ذرة مشوية على الفحم وغسلا لي جواربي وقمصاني المبقعة.

قضيت فترة ما بعد الظهر في الخارج عند البئر. كان هناك عشرة جنود مكلفين بسحب الماء. كانوا يستخرجون الماء بواسطة وعاءين للنفط سابقين مصنوعين من الصفيح (التنك) مربوطين بحبلين لإنزالهما في البئر. وبسبب كثرة

الاستعمال كان شكلهما الأصلي قد تشوَّه إلى حدٍّ كبير؛ فعندما كانا يسحبان إلى الأعلى وهما مملوءان بالماء كانت تتدفق من الشقوق والثقوب نوافير ماء غريبة عجيبة. ولم يخطر على بال أحد إجراء حتى أبسط الإصلاحات عليهما؛ بل توبع العمل بهما بلا مبالاة، وكان على أيِّ حال يبقى فيهما بعض الماء عند وصولهما إلى أعلى. كان هناك حصان يقف صابراً إلى جانب البئر حتى تمتلىء القربتان الجلديتان الكبيرتان المحمَّلتان على ظهره ثم يأخذ الحمولة دون مرافقة إلى المعسكر. وبعد تفريغ القربتين في المعسكر كان الحصان يعود إلى البئر دون مرافقة أيضاً. وحتى في فترات الاستراحة كان العربان والدروز الباحثون عن الماء يعاملون أشنع معاملة من قبل الجنود ويرفض طلبهم بحيث إنَّ سخط هؤلاء الناس على الجنود يصبح مفهوماً حقاً. وقد حاولت التوسط مراراً وتكراراً، كما أنَّني تحدثت مساءً مع النقيب لكنَّني لم ألق أي تجاوب لأنَّ هذه المماحكات كانت متبادلة من الجانبين ومن يكون السجل في يده يستغله أيضاً. في ذلك اليوم كان النقيب منشرح الصدر ومرتاحاً وأمر بعد تناول العشاء جندياً كردياً بأن يغني له أغنية كردية لطيفة كان لحنها وكلماتها أكثر حيوية من الأغاني العربية، كما أنَّ الرجل كان له، خلافاً للمغنِّين العرب صوتاً جيداً يخرج من الصدر ويعطي في هدوء اللَّيل بين جدران القلعة العالية لحناً جميلاً. كانت الأغنية تتحدث، كما قيل لي بالترجمة، عن النهاية المأساوية للبطل الكردي براهو (إبراهيم) الذي كانت بطولاته يحتفى بها بصور كلها حيوية ونشاط.

الاثنين 3 سبتمبر/أيلول 1883. في الصباح أرسل أكثر من عشرين رجلاً لجلب الحطب. وبما أنَّ المنطقة القريبة من المعسكر كانت قد أخليت من الحطب منذ زمن طويل فقد تعين على الرجال البحث عنه بعيداً عن القلعة ولذلك لم يعودوا حتى الظهر، لكنَّهم عادوا محملين بكميات كبيرة. خلال النهار بكامله كنت أتطلع بمنظاري باتجاه دمشق لكي أرى ما إذا كان رفيقي في الرحلة شارل هوبر قد جاء أم لا. كان على السيِّد هوبر أن يستكمل في الأيَّام الأخيرة من وجودنا في دمشق كثيراً من التحضيرات اللازمة لرحلتنا المشتركة إلى داخل شبه الجزيرة العربية وكان يريد إرسال أمتعتنا المشتركة (في الحقيقة

أمتعني أنا) على ظهور الإبل لتصل قبلنا إلى عرمان ثم جلبي أنا نفسي من قلعة براق عندما تكون هذه الأعمال قد أنجزت بالكامل. ومن أجل محاربة الملل كنَّا أنا والدكتور نشوي عرانيس الذرة بالتناوب، وأكلنا إلى جانب ذلك بقية التين واللوز التي كانت باقية ممَّا جلبته معي من دمشق. أمَّا قائد المعسكر فلم نره اليوم طيلة النهار، كان قد ظهر لفترة قصيرة لتناول طعام الغداء ثم اختفى بعد ذلك على الفور. وسوف لن أظلمه إذا ما افترضت أنَّه كان قد تناول الكحول؛ فقد جاء مساء اليوم منشرح الصدر بشكل خاص، وجلس فترة من الزمن على السرير لكنَّه بعد وقت قصير سكت عن الكلام كلياً ولم يشرب القهوة التي كانت قد طلبها للتو وإنَّما استلقى في السرير وغطَّ بسرعة في نوم عميق مسموع. والآن فهمت أيضاً لماذا استفسر على الفور عند وصولي عمَّا تحتويه مطرتي، وعلى الرغم من فحصها بأنفه لم يكن واثقاً عندما أكدت له أنَّها لا تحتوي إلَّا على الماء.

الثلاثاء 1 سبتمبر/أيلول 1883م. بما أنَّ البئر هنا كان المكان الوحيد للتسلية والتحادث قضيت النهار بكامله هناك وكنت أريد أيضاً الاستحمام بالقرب منه لكنَّني اضطررت إلى اختصار عملية الاستحمام بأقصى سرعة لأنَّني هوجمت من سرب من الدبابير الشريرة ولم أستطع التخلص من تلك الحشرات الغاضبة إلَّا بمساعدة الجنود الذين سارعوا لنجدتي. اليوم أيضاً كنت شاهداً مرة أخرى على المعاملة السيِّئة التي كان يتعرَّض لها الناس العابرون الذين كانوا يطلبون الماء على يد الجنود. كان بينهم رجل عطشان اسمه عيسى، كان ممتناً للغاية عندما ساعدته على الحصول على جرعة من الماء، وقد حدثني عن قريته شقَّا (شمال شرق جبل الدروز) التي كنت أعرفها من تقرير رحلة فتسشتاين ومن كتاب البارون دو فوغيه[1] والتي كانت مشهورة بسبب بيوتها وأبراجها الحجرية. ووعدني، إذا ما زرته في قريته، بأن يؤمِّن لي موفيات (سوريا قديمة) من أبراج القبور لم يسمع بها أي أوروبي من قبل. في الساعة الرابعة بعد الظهر وصل أخيراً شارل هوبر. في ثيابه البدوية لم أعرفه في بادىء

---

(1) Melehior die Vogüé, Syrie centrale, Architecture civile et religieuse, paris 1865.

الأمر. كان لم يزل عنده سائقان للخيول وحصان جلبه لي من دمشق. من الطبيعي أنَّه طلب أوَّلاً الماء ليشرب واستفسر فوراً عن مغامرتي التي بولغ جداً في الحديث عنها في دمشق ونسبت لها إضافات أسطورية. وبعد ذلك أبلغني أنَّ الأمتعة الثقيلة قد حُمِّلت على الإبل وأرسلت قبل يومين إلى عرمان برفقة الخادم محمود الذي استأجرناه للرحلة العربية بكاملها، وأنَّ علينا أن نسرع ونصل إلى عرمان في الوقت المناسب لأنَّه قد علم أنَّ قافلة ستنطلق من هناك إلى كاف خلال ثلاثة، أو على أبعد حدّ، أربعة أيَّام، وأنَّها القافلة الوحيدة القادرة على إيصالنا بأمان مضمون نسبياً عبر هذه المرحلة من رحلتنا الذي تُعدُّ من أخطر المراحل.

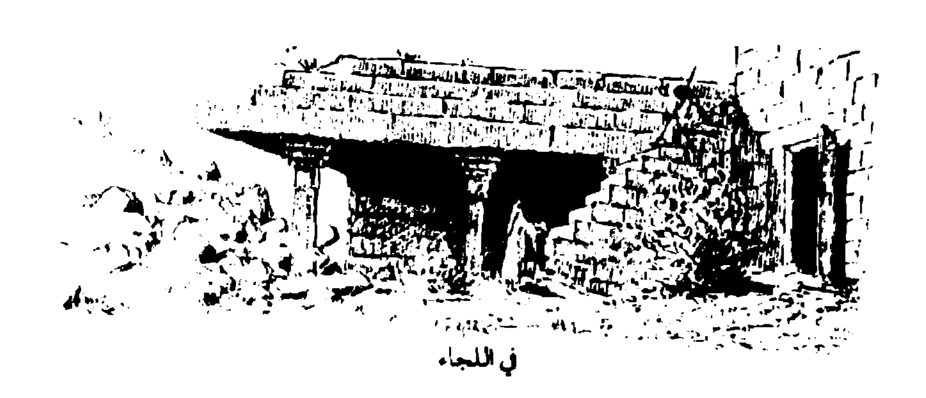
بعد تناول طعام العشاء جمع قائد المعسكر الحامية بكاملها على شرفة القلعة حيث قدَّم الأكراد أغاني متفرقة جميلة. وفي الختام أدَّت مجموعة من الجنود رقصة غريبة عجيبة حيث كانوا، وكتف أحدهم ينضغط على كتف الآخر وهم يحملون السلاح أمامهم، يتحركون بخفَّة إلى الأمام والخلف ويُشكِّلون، على وقع نغمات على وتيرة واحدة لمزمار مصنوع من القصب، تارة حلقة ضيِّقة على شكل كبَّة وتارة أخرى أفعى متلوية. وكانت الكلاب السلوقية ترافق ما يجري بعواء مثير للألم.

الأربعاء 5 سبتمبر/أيلول. إلى أن انتهينا من مأدبة الفطور والوداع التي أُقيمت على شرفنا واستعدَّ الجميع للانطلاق كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحاً. وبعد أن تمنَّى لنا مضيفونا السلامة والتوفيق في رحلتنا ركبنا خيولنا وانطلقنا في الاتجاه الجنوبي الشرقي على أطراف اللجاء نحو جبل الدروز (أو جبل حوران). تُعدُّ منطقة اللجاء وحوران بتربتها البركانية المتفتتة من أخصب الأراضي وتُشكِّل مخزن الحبوب بالنسبة لمدينة دمشق وضواحيها. وما أن صعدنا إلى لحف التيارات البركانية الجبَّارة القديمة حتى ظهرت أمامنا إطلالة بعيدة على الطبيعة النمطية للأراضي هناك: مساحات صغيرة للرعي محاطة بسياج، أو حقول زراعية منقاة من الحجارة ومحاطة بأسوار من الحجارة نفسها؛ ثم كلّ شيء مزروع بالصخور البركانية وفيما بينها العديد من القرى المهجورة كليّاً في أغلب الأحيان لكنَّها تخبىء في

آثارها السوداء كالغربان بعض الكنوز الغنية بالهندسة المعمارية الرائعة. لا يستطيع المرء التقدُّم بسرعة في هذه المنطقة، إذ لا يوجد سوى عدد قليل من الدروب التي يجب أن يعرفها المرء ولا يمكن السير فيها إلَّا بصعوبة. وإذا ما خرج المرء عن الدرب يضيع في متاهات من الحجارة والحصى المستديرة. ولذلك كانت اللجاء على مرِّ الأزمان ملجأً ومخبأً للملاحقين من جميع الفصائل: للفارين من الجندية، وللمتهربين من الضرائب، وللمجرمين، وغيرهم. بعد انطلاقنا بوقت قصير ظهر من بعيد فارس على ظهر حصان أبيض(*): كان فعلاً خطَّار، شيخ براق، وهو يلوح بيده من بعيد رافعاً المسدس إلى أعلى. كيف استطاع استعادته يا ترى؟ سنرى بعد قليل عندما يصل إلينا ويشرح لنا الأمر. بكل رضى روى لنا كيف ذهب إلى السويداء بأقصى سرعة وتوجَّه على الفور إلى عند القائمقام إبراهيم بك الأطرش الذي أعرب في بادىء الأمر عن انزعاجه من إشغاله بمثل هذه التوافه؛ وزعم أنَّ السرقة في براق لا علاقة لها بمنطقته، جبل الدروز؛ وعلى أيِّ حال لا يفهم كيف يمكن أن يكون المرء متهوراً إلى هذه الدرجة ويُسلِّم سلاحه الخاص إلى شخص لا يعرفه، وهو في الحقيقة لا يمانع إذا ما أخذ السلاح من مثل هذا الشخص. ولكن بعدما أوضح له الشيخ خطَّار أنَّ القضية يمكن أن تؤدِّي إلى حدوث تعقيدات لا تحمد عقباها مع الحكومة في دمشق وأنَّه هو، أي الشيخ خطَّار، لن يهدأ حتى يقبض على ثلاثين درزياً على الأقل ويودعهم السجن، أعرب إبراهيم الأطرش عن استعداده للبحث عن الجُناة. لكن الجُناة لم يكن من الممكن العثور عليهم على الفور. وعندما أحضروا أخيراً تبيَّن أنَّ المتهم الرئيسي كان رجلاً اسمه حامد النُماد ومرافقه اسمه فندي. عوقب الأوَّل بالجلد على أسفل قدميه مائة جلدة وتعيَّن عليه إعادة الـ 4,5 مجيدي، وفوق ذلك وضع في الحفرة، بينما كانت عقوبة الآخر أخف بعض الشيء. استلم خطَّار راضياً الأشياء المسلوبة (المسدس والنقود) وانطلق، بعد تناول الطعام، على الفور على طريق العودة. أمَّا أنا

(*) باصطلاح العرب المعاصرين لا تُسمّى الخيول البيضاء بيضاء وإنما تُسمّى صفراء. (المراجع).

فقد كنت مسروراً باستلام مسدسي، تمثال الخزي والعار الذي وقعت فيه، وتركت لذلك للشيخ خطّار بكل رضى كل النقود، لا بل وأعطيته في وقت لاحق مجيدياً آخر، وهذه مكافأة لم يكن يحلم بها على الإطلاق. وتعبيراً عن الشكر والامتنان شرح لي درساً عمّا يجب أن أفعله في مثل هذه الحالات: «انظر، إذا ما التقيت في المستقبل مرة أخرى مع شخص اعتبرك مبتدئاً وطلب منك أن تريه مسدسك فقل له: على رأسي ثم اسحب مسدسك وجهزه للإطلاق ثمّ ضع إصبعك على الزناد ودع الطالب ينظر إلى فوهة السبطانة مباشرة قدر ما يشاء؛ وعندما يقول لك بعد ذلك: إنّه قدر أي ما فيه الكفاية، يمكنك إعادة المسدس إلى مخبئه». كان عليَّ أن أعده بأنّني سأتقيّد بتعليماته بمنتهى الدقة. لم يقبل الشيخ إلّا أن يرافقنا مسافة من الطريق مصرّاً على دعوتنا إلى منزله. في واحدة من أكوام الخرائب السوداء اختار أفضل بيت حجري قديم وأسكن فيه أسرته المؤلفة من زوجته وابنه حامد وابنته ميتيلّ. وبينما كانت زوجته تحضر لنا القهوة بحثت في الآثار عن كتابات قديمة لكنّني لم أجد سوى صلبان مختلفة فوق عتبات الأبواب. كان هناك على السطح فوق الجزء الأكبر من المبنى المزيّن بالعديد من الأعمدة، شرفة محاطة بالأدراج كان الشيخ يستعملها لإقامة الصلاة.



في اللجاء

بعد أن ودعنا الشيخ خطّار توجهنا نحو الطرف الشرقي لمنطقة اللجاء ومررنا من الشمال إلى الجنوب قرب 14 قرية كانت كلها مهدمة جزئياً أو

كليّاً. وعند أم الزيتون، آخر هذه القرى، انعطفنا نحو اليسار إلى قرية واقعة في وادي اللوا[1] لكي نتفادى من هناك تل شيحان الواقع على الجهة الشمالية الشرقية. هذا المخروط البركاني المغطّى من الأعلى إلى الأسفل من جميع الجهات بمجار مائية حادة يبرز كترس حراسة على الزاوية الشمالية الغربية لجبل الدروز. ومن فوهته البركانية الواقعة على الجهة الغربية تدفقت الحمم البركانية التي غمرت بعد ذلك منطقة اللجاء. أمَّا قمته فمتوَّجة بمزار إسلامي.

عند أسفل الجبل مباشرة صعدنا بسرعة إلى أعلى عبر ممر مجوف عريض وبعد ساعة وجدنا أنفسنا في منطقة الغرارهس، وهي مخروط بركاني يطبع المنطقة بكاملها بطابع متميز ملفت للانتباه: ظننت أنَّني أسير في مستودع للفحم لا حدود له؛ لم تستطع العين التي بهرتها الشمس الغاربة التمييز في أكوام الحمم البركانية المسامية السوداء المتكدّسة حولنا إلَّا بين الأضواء الساطعة بلون سنجابي فاتح وكتل الظلّ الداكنة تماماً. مروراً من على يسار آثار شهبا سقنا خيولنا، والعطش يؤلمنا بسرعة أكبر لكي نصل إلى مُرْدُك قبل حلول الظلام. كانت الشمس قد غربت عندما تمكنا بصعوبة من الحصول على شربة ماء من النبع المتسخ الواقع تحت القرية. وتحت الظلام الدامس صعدنا على سفح الجبل ونزلنا في الخان. كان هذا الخان عبارة عن قاعة مربعة الشكل وفيها مقاعد حجرية عند الجدران وموقد في الخلفية. وكان هناك من جهة المدخل ثلاثة أعمدة قديمة حاملة للسقف. وكان هناك شجرة جوز كبيرة تطغى على كل شيء.

كان الناس الذين التقينا بهم عند النبع قد نقلوا إلى القرية خبر وصولنا ولذلك توارد، على الرغم من تأخر الوقت، عدد متزايد من السكَّان لكي يشبعوا فضولهم. ولكن أصحاب الخان احتاجوا إلى زمن طويل نسبياً حتى

---

(1) في هذا الموقع خسر إبراهيم باشا سنة 1839م عند محاولته تجنيد عسكر جدد كتيبة من أفضل فرسانه. فقد أبادها الدروز عن بكرة أبيها ولم ينج منها أحد.

جهزوا لنا عشاء فقيراً مؤلفاً من حبوب الذرة المسلوقة. وفوق ذلك حرمتنا أسراب البراغيث من التمتع بالنوم.

الخميس، 6 سبتمبر/أيلول 1883م. ما إن انبثق أوَّل شعاع من الضوء حتى خرجت من سجادتي لكي أتخلص من جلَّاديّ البراغيث ولكي أنتقم منها بتعريضها للبرد على الأقل. وبعد وقت قصير نهض أيضاً صاحب الخان وبدأ بتحضير القهوة. خرجت من الخان في ضباب الصباح الرطب ورحت أراقب الخان من الخارج فلاحظت في غبش اللَّيل كتابة إغريقية محفورة على الحائط وكتابة أخرى على حائط البيت المجاور؛ وبعد ذلك أراني صاحب البيت في الداخل أيضاً حجراً على الأرض عليه كتابة؛ ولكن كان الوقت لم يزل ظلاماً ممَّا جعلني لم أتمكن من تمييز الحروف بشكل جيد. في الساعة الخامسة والنصف انطلقنا، في بادىء الأمر عبر الضباب الكثيف. وكانت نسمات قادمة من السهل تحاول تبديد الغطاء الضبابي الرطب، ولكن مضى أكثر من ساعة إلى أن أصبحت الشمس سيِّدة الموقف. على يسارنا كانت هناك كتلة جبلية صاعدة وعلى يميننا نحو الأسفل سفوح كثيرة التشعب، وبعد وقت قصير أطلَّ علينا من بعيد سهل اللجاء، من مقطع وادي الأردن الأوسط حتى جبل حرمون. عند اقترابنا من قرية قنوات بدت الطبيعة لطيفة وحيوية: مروج، وأدغال، وأشجار، وبينها معابد قديمة وقبور، وأماكن لصلاة الدروز، وبين حين وآخر قوافل كبيرة أو صغيرة من الحمير والإبل، وقرب البيوت كان السكَّان منهمكين في الأعمال الزراعية. وعند دخولنا إلى القرية كنَّا نشاهد أكواماً كبيرة من محاصيل الحبوب المكدَّسة وبينها على البيادر المكشوفة نوارج الدراس تجرُّها الثيران في الدائرة. وكم كنت متحسِّراً لأنَّني لم أستطع بسبب لعنة السرعة التمتع بمشاهدة آثار المعابد والكنائس الرائعة إلَّا من بعيد. فهنا بالذات لم يتغيَّر أيّ شيء؛ إلَّا أنَّنا كنَّا لا نريد بأيٍّ ثمن التخلُّف عن الالتحاق بالقافلة المتوجهة إلى عرمان. في حوالي الساعة العاشرة أطلَّت علينا مدينة السويداء، على طريق روماني عريض لم يزل معبَّداً بشكل جيد صعدنا الهضبة الجبلية التي تقع عليها هذه المدينة. في وسط المدينة توجد المضافة، أي البيت المخصَّص لضيوف المدينة. ربطنا الخيول في الخارج وصعدنا على درج

عريض إلى داخل هذا المبنى القديم. يتألف المبنى بكامله من قاعة واحدة مع مقاعد عالية على طول الجدران؛ المقاعد والأرض مغطّاة بحصائر من القش. كان القائمقام إبراهيم بك الأطرش بالصدفة غائباً عن المدينة وهكذا كان بإمكاننا ـ دون القيام بزيارة المجاملة والترحيب ـ تناول وجبة الطعام البسيطة بسرعة ومتابعة السير عند الظهر. وكما هو الحال عند الدخول إلى المدينة شاهدنا عند مغادرتها البقايا المختلفة لكثير من المباني القديمة الرائعة. مع تزايد حرِّ النهار كنَّا نسير في منطقة جبلية بين غابات صغيرة من أشجار السنديان الدائمة الخضرة وأشجار الفستق والزعرور باتجاه كفر الواقعة على الزاوية الجنوبية الغربية لجبل الدروز. هنا كان المكاريان (سائقا الخيول) اللذان يسيران على الأقدام لا يريدان متابعة المسير على الرغم من أنَّ الساعة كانت الثانية والنصف فقط، ولم يتقبلا إلَّا على مضض قرارنا غير القابل للتغيير وهو الوصول هذا اليوم إلى عرمان. بعد وقت قصير مررنا في منطقة قاحلة ولم نلتق بأحد، كان هناك فقط جملان وحيدان يبحثان عن مرعى. بعد مرورنا عبر تشكيلة معقدة من الأسيجة الحجرية الطويلة الامتداد نزلنا نحو الأسفل إلى مخيم للقطعان بدا من أرضه المتصلبة من كثرة الدوس أنَّه مطروق كثيراً، وهذا ينبىء عن أنَّ ماء وفيراً موجوداً بالقرب منه. وفجأة انفتح من فجوة في الجبل مدخل إلى واد غني بالمرعى؛ كان هناك على طرف الوادي بعض الخيام البدوية. وعند وصولنا رحّبت بنا بنباح ممجوج الكلاب التابعة للخيام، وعند مغادرتنا لاحقتنا حتى المرتفع الواقع على طرف الوادي. وعند النظر إلى الوراء تبيَّن لنا أنَّنا قد غادرنا جبل الدروز: كانت القمة الجنوبية، قمة قليب، وهي كما يبدو أعلى قمة[1] في السلسلة الجبلية (1720م)، لم تزل تتوهج بجميع ألوان الشمس الغاربة، وفي اتجاه الشرق وكان قد حلَّ الغبش، شاهدنا العديد من قطعان الإبل والماعز التائهة؛ وأمامنا، في الاتجاه الجنوبي الغربي، كان يمتدّ سهل مرتفع مزروع بالحجارة تخرج منه هضبة كبيرة تُسمَّى تل العشائر. تركنا هذا التل، وتل الخضر الذي يليه، على يميننا. كان هناك

---

(1) أعلى قمة هي في الحقيقة قمة جويليل (1782م) الواقعة أبعد نحو الشمال ولكنَّها أقل بروزاً.

عدد لا حصر له من الأسيجة الحجرية والجدران[1] التي يبلغ ارتفاعها 2 ـ 3 أمتار والتي تحيط بالحقول الزراعية والمراعي. ومع تزايد الظلمة بدت الكتل المتصلبة وكأنَّها قد تنامت في العدد والاتساع. في هذه الأثناء كان سائقا الخيول قد بلغا أشدّ درجات التعب والإعياء ولم يكن من الممكن تهدئتهما إلَّا بصعوبة بالغة؛ كما أنَّ الخيول كانت قد أنهكت وكان يتعيَّن علينا حثّها على المسير باستمرار. وأخيراً في الساعة الثامنة مساءً دخلنا في أزقة مغبرة محاطة بالأسوار ووصلنا منهكين في الظلام الدامس إلى عرمان. نزلنا عن ظهور خيولنا عند بيت صالونه مظلم. وعلى الفور نهض من الفراش عدد من الناس النائمين وسلَّموا على هوبر الذي كانوا يعرفونه من السابق. كما أنَّ الخادم الدمشقي محمود الذي استأجرناه للرحلة بكاملها جاء وأخبرنا أنَّ الأمتعة الثقيلة، التي كان قد جاء معها قبلنا، قد سلمت للبدو في الخارج لحفظها وسوف يأتي غداً الخبر متى ستنطلق القافلة إلى كاف. على ضوء مصباح نفطي صغير نقلت أمتعتنا الصغيرة على الدرج إلى الأعلى وقُدِّم العلف للخيول. وشيئاً فشيئاً امتلأت الصالة بمختلف الناس الذين لم أكن راغباً في التعرُّف عليهم جميعاً هذا المساء. اكتفيت بأن عرفت أنَّ الشيخ الكبير نجم الأطرش، الذي كنت قد أرسلت له قبل أشهر رسالة من ستراسبورغ، نائم وأنَّه لن يحضر اليوم. وبعد انتظار طويل محرج قدَّموا لنا وجبة طعام تتألف من القهوة والتمر في السمن واللبن في الصحون والأقط. كان الوقت قد تجاوز الساعة الحادية عشرة حتى انفض جميع الفضوليين ولم يبق سوى الأشخاص القلائل الذين سيناموون في الصالة نفسها. عليَّ أن أعترف أنَّني كنت مسروراً باللجوء إلى النوم المستحق، فاستلقيت في معطفي ولففت نفسي بسجادتي. إكراماً لعادات غريبة في بلد غريب؛ ولكن عادة وحيدة، أو لنقل عادة قبيحة وحيدة، لم أستطع آنذاك التعوّد عليها وهي الثرثرة الليلية التي لا تحتمل، ودون مراعاة الأشخاص الآخرين النائمين. فهؤلاء الناس الطبيعيون عصبيون ولا يدركون أنَّ

---

(1) انظر فتسشتاين:

A. J. G. Wetastein, Reisebericht Ueber Hauraan, Berlin 1860, S. 16 Anm.

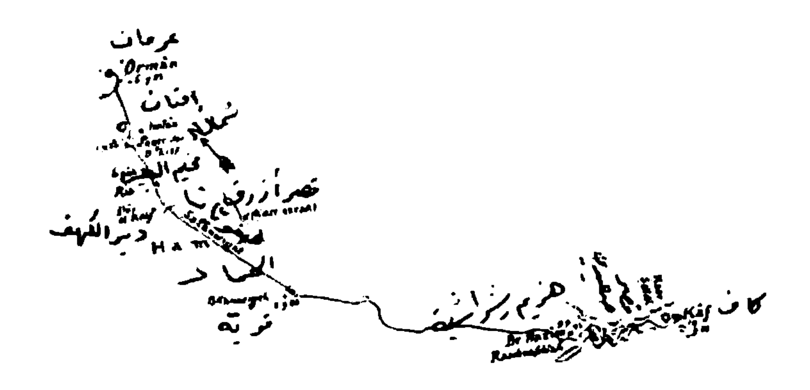
ثرثرتهم يمكن أن تشكل إزعاجاً لنوم الناس الآخرين. وأخيراً نفَّست عن غيظي الذي كنت قد كظمته طويلاً، وصرخت بغضب: «اسكتوا». فتساءل الناس مندهشين عمَّا أريد ولم يبدوا أي تفهم لمطالبتي ولا لتوضيحي. وبعد توقف قصير عادوا ثانية إلى الثرثرة ولكن هذه المرة بصوت منخفض. ولم يسكتوا إلَّا بعدما حاولت نقل سريري إلى الشارع والنوم هناك، عندئذٍ طلبوا منِّي أن أبقى ووعدوني بأنَّهم لن يتكلَّموا بعد الآن.

الفصل الثاني

من عرمان مع القافلة إلى كاف

7 ـ 10 سبتمبر/أيلول 1883م

الجمعة 7 سبتمبر/أيلول 1883م. عند طلوع الشمس أصبحت الحياة نشطة بكل ما في الكلمة من معنى. الناس والعادات والبيوت وكل شيء يحمل طابع الطائفة الدرزية. أودّ هنا أن أذكر بعض الكلمات عن هذا الشعب.



إنَّ الدروز ليسوا شعباً متميزاً وإنَّما طائفة دينية. فبانتمائهم إلى الخليط السكَّاني العربي السوري كانوا نسبياً الأكثر محافظة على الدم السوري القديم. يُقال عادة إنَّ مقرهم الأصلي كان في لبنان وجزئياً أيضاً في جبال لبنان الشرقية، من بيروت حتى صيدا، وكذلك بالقرب من دمشق، ثم هاجر جزء منهم نتيجة الصراعات المستمرة مع جيرانهم الشماليين الموارنة إلى سهول حوران والجبل المجاور (ولذلك يُسمَّى جبل الدروز). إلَّا أنَّ هذه الفرضية غير صحيحة. فالسيطرة على هذا الجبل هي دون شك قديمة جداً. ولكن يجب الاعتراف بأنَّ هذا الجبل الواقع جنوب دمشق كان له في الآونة الأخيرة، وخاصة بعد مذابح المسيحيين في دمشق في يوليو/تموز 1860، كمعقل مغلق للدروز، قوَّة جذب على فلول هذه الطائفة الملاحقة أكثر من لبنان الأيسر والأسهل جغرافياً. وهكذا احتل الدروز خلال الثلاثين سنة الأخيرة عدداً كبيراً

من القرى الواقعة على السفح الشرقي للجبل، والتي كانت مهجورة منذ زمن طويل، وأعادوا بناءها.

يُقدَّر العدد الإجمالي للدروز بحوالي 80,000 نسمة. في أواخر القرن السادس عشر أجبروا على دفع ضريبة للأتراك. لكن بعض أمرائهم الحربيين، مثل فخر الدِّين في المقام الأوَّل والأمير بشير، استطاعوا رغم ذلك في بداية القرن الحالي حماية شعبهم من هجمات الأتراك وإعطائه سمعة مهابة. أمَّا اليوم فلم يعد تنظيمهم السياسي موحداً بصرامة كما في السابق: فالقبائل المنفردة تتبع لشيوخ مختلفين، لا بل إنَّ بعض هؤلاء الشيوخ يحملون ألقاباً تركية. وإذا ما كان الأتراك الذين يستخدمون الدروز ضدّ الموارنة لا يتجرأون على وضع حاميات عسكرية في منطقة الدروز المغلقة أو القيام بحملات لتجنيد الشباب في الخدمة العسكرية فإنَّهم يجبون من هناك الضرائب بصورة منتظمة. أمَّا ديانة هؤلاء الناس فيمكن وصفها بأنَّها إسلام غنوصي، خليط غريب مؤلف من أفكار وثنية قديمة، ومسيحية، وإسلامية، وثنائية فارسية، مجموع في ستة أو سبعة كتب مقدَّسة. ويعتبر التقمُّص، أي انتقال الرُّوح من شخص إلى آخر، أحد تعاليمهم الرئيسية. ولا يمكن أن يتعرّف على جوهر الله إلَّا المطلعين على السِّر وذلك من تشخصه في هيئة بشرية، وعلى الأخص من تجسده الأخير في شخص الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996 ـ 1020م) الذي كانت روحه في السابق ساكنة في جسد عيسى المسيح. وليس لديهم طبقة خاصة من رجال الدِّين، وإنَّما ينقسمون إلى عقَّال، أي العارفين أو المطلعين على السِّر ولهم مراتب مختلفة، وجهَّال، أي غير العارفين. يرتدي العقَّال عمامة سائبة ويتعيَّن عليهم الامتناع عن ارتداء الملابس الفخمة وأيضاً عن شرب الخمر والتدخين، وهم يديرون الشؤون السياسية لأبناء طائفتهم. أمَّا الجهَّال فلا يهتمون بشؤون الدِّين، لا يلتزمون بالصيام ولا بقواعد الطعام، يرفضون الختان ويتزوجون من أقرب أقربائهم.

كان ينتمي إلى هذه الطائفة جميع الأشخاص الذين جاؤوا الآن مع طلوع الشمس إلى الصالة دفعة واحدة: على رأس الجماعة كلها دخل شيخ جميع الدروز، الشيخ المسن نجم الأطرش، وهو شخصية محترمة وقورة ذو

لحية بيضاء كالثلج وعينين متواضعتين مرتابتين بعض الشيء؛ كان له مرافق لا ينفصل عنه أبداً هو كاتبه أو سكرتيره أبو القاسم؛ بعد ذلك جاء ابن الشيخ، إبراهيم، الذي لم يتجاوز عمره سبعة عشر عاماً، سمين بعض الشيء ويشبه الطواشي؛ ثم حفيده، ابن الشيخ حسين الأطرش في مِلَح، فيما عدا ذلك لفت انتباهي رجل مسنّ يدخن الغليون اسمه أبو سليم الذي كان قد زار لندن ولكنَّه لم يكن في وسعه التحدّث عن هذه الزيارة إلَّا أشياء مبهمة وغير مفهومة. بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك عدد كبير من الناس الذين تجمعوا داخل القاعة وخارجها وكانوا يشاهدون ما يجري بمنتهى الأدب. جميعهم كانوا حليقي اللحى وكانوا، حسبما استطعت الرؤية، مسوِّدين عيونهم بالكحل.

ما إن جلس الشيخ في مكانه حتى تبعت ذلك زوبعة من التحيات والمحادثة. وبعد ذلك أثنى على الرسالة الجميلة التي كنت قد أرسلتها له من ستراسبورغ، لكنَّه أضاف: «كان في وسعك الاستغناء عن عبارة بسم الله الرحمن الرحيم التي بدأت بها رسالتك؛ فهي زائدة لا لزوم لها». أجبته على سؤاله عن جنسيتي بأنَّني «ألماني» ثم شرحت ذلك بقولي «بروسي»، إلَّا أنَّه أبدى شيئاً من الارتياب تجاه هذا الشرح. بالمقابل تقبّل الهدايا التي جلبتها له معي بكل سرور وخاصة مسدس الماوزر؛ غير أنَّه قال: إنَّه كان يريد عياراً أكبر من 11مم، لكنَّه أعرب في النهاية عن موافقته على أنَّ رصاصة كهذه يمكن أن يكون لها مفعول جيد أيضاً. أما آلية العمل وطريقة الفك والتركيب فقد تعيَّن عليَّ شرحها لرجل شاب استدعي لهذا الغرض واستوعب الشرح بسرعة كبيرة وعبَّر عن إعجابه الشديد بالمسدس. بعد ذلك قدَّمت الهدايا الأخرى التي كان الشيخ قد طلبها عند زيارة هوبر الأخيرة وفي مقدمتها أدوية من ضمنها إبرة لتنظيف الأمعاء.

ممَّا كان بالنسبة لي خبراً غير محبوب إعلان الشيخ أنَّ القافلة تجمَّعت على بُعد ثلاث ساعات إلى الجنوب من هنا وسوف تنطلق إلى كاف غداً في الصباح الباكر. لكنَّه وعدنا بأنَّه سيهيىء لنا فوراً الإبل اللازمة وسيزودنا بما يلزم من الماء والطعام. أمَّا أنا فقد شكوت من أنَّني لن أستطيع زيارة مدينة صلخد القريبة ولكنَّني يجب أن أسرع لكي أشاهد، على الأقل، الكتابات

الإغريقية الثمان[1] الموجودة في الخان وفي البيوت المجاورة. فتبرع أبو سليم لمرافقتي وقادني بجولة داخل المدينة وأطلعني من الداخل على العديد من البيوت. وأراد أن يتباهى بمرافقتي فقدَّم لجماعته وصفاً خرافياً عن شخصي ممَّا جعلهم يخاطبونني تارة بلقب قنصل وتارة أخرى بلقب بك. وفي أحد البيوت، على الأرجح بيت مرافقي، ألحوا عليَّ لتناول فنجان من القهوة وكان النساء يجلسن إلى جانبنا دون حجاب ويشاركن في الحديث. إحدى هؤلاء النساء شكت من ألم في العينين، وبما أنَّني لاحظت عند فحص عينيها أنَّ أهداب الجفنين السفليين يتجهان نحو الداخل قمت بسحب هذه الأهداب المتمردة بواسطة ملقط صغير. وبعد إزالة هذه الإزعاجات المؤلمة غمرتني بتعابير الشكر والامتنان. وفي الختام طلب منِّي أبو سليم أن أرسم السيدات أو البنات الثلاث فهن يردن الاحتفاظ بهذه الصورة للذكرى. وعلى الرغم من أنَّني لست رساماً ماهراً فقد قمت خلال زمن قصير برسم صورة للسيدات الثلاث تقبلنها بسرور بالغ وبكثير من الإعجاب والشكر.

إلى حين عودتي إلى الخان كان الشيخ نجم قد أملى على كاتبه رسالة إلى شيخ الكاف عبد الله بن خميس دعاه فيها إلى استقبالنا استقبالاً حسناً من جميع الجوانب وخاصة فيما يتعلَّق بإعطائنا سعراً منخفضاً لأجور الإبل من الكاف إلى الجوف وإلَّا فإنَّنا «سنخرب بيتك».

علاوة على ذلك كان الشيخ نجم قد اشترى لنا ناقتين للركوب بسعر إجمالي قدره 31,5 نابوليون (= 510 مارك) واستأجر لنا خمسة حمير للحمولة لمرافقتنا حتى كاف بمبلغ 300 قرش (= 60 ماركاً) ثم 2 مجيدي (= 7 مارك) كمافأة لمرافقينا. وأخيراً تكرَّم علينا بأن أعطانا مواد غذائية مختلفة، قهوة وأرزاً وتمراً وزبدة من حليب الإبل في قربة جلدية، من مؤونته الخاصة. انطلق الخادم محمود مع الإبل الخمسة والأمتعة الثقيلة في حوالي

(1) من القرن الثالث والرابع الميلادي. وأودّ أن أشير هنا إلى أنَّ هذه المدينة كانت تحمل اسم «فيليبوبوليس» نسبة إلى القيصر الروماني «فيليبوس آرابس» المولود هنا والذي جلس على عرش روما.

الظهر بينما أردنا نحن الاثنين اللحاق به فيما بعد. ولقد ساورني بعض القلق عندما كنت أراقب كيف أحضروا جملينا وأسرجوهما وحمَّلوهما. تعيَّن عليَّ الآن، شئت أم أبيت، أن أتعرف على جملي عن كثب وأصادقه، فهو الذي سينقلني إلى هدفي عبر جميع أهوال الصحراء ويساعدني على أداء مهمتي.
ينتمي الجمل الموجود في سوريا وشبه الجزيرة العربية إلى فصيلة الجمل ذي السنام الواحد. ويميز البدو عادة بين نوعين يُسمّون النوع الأوَّل «جمل» أو «بعير» وهو المستعمل لنقل الحمولات ويُسمّون النوع الثاني «ذلول»(*) وهو الجمل السريع المستعمل للركوب. وسواء أكانت الإبل طليقة في الصحراء أو في رحلة فهي لا تتلقَّى أي غذاء بل يتعيَّن عليها الاعتماد على نفسها في الحصول على غذائها من الأعشاب والنباتات البرية خلال المسير وعلى الأخص خلال فترات الاستراحة. فقط في حالات نادرة جداً، بالقرب من المستوطنات الثابتة القليلة حيث يكون السكَّان قد جمعوا، أو قرضوا، على مسافة أميال عديدة جميع الأعشاب والنباتات، وكذلك في أعوام الجفاف الشديد وبالتالي القحط، يجب تقديم الغذاء للإبل ويحصل ذلك غالباً بأن يقدم لها بعض التمور المنزوعة البذور. في الفصول الحارة يجب إسقاء الإبل بعد خمسة أيَّام على أبعد تقدير وإلَّا فإنَّها ستنفق. جميع المعلومات المخالفة لذلك غير صحيحة؛ فبدون ماء تصبح في اليوم الرابع غير قادرة إلَّا بصعوبة على الأكل ولا تسير إلَّا بالضرب وإساءة المعاملة. بالمقابل أستطيع أن أؤكد من تجربتي الشخصية أنَّ الإبل عند تناولها علفاً أخضر لا تطلب الماء حتى ولا بعد 24 يوماً وترفضه بإصرار إن قدم لها. ولذلك يمكن القول، كما يتباهى بعض الناس، أنَّها لا تشرب الماء إلَّا في حال الضرورة. لكن هذه الضرورة

(*) ذلول، الجمع ذُلُل. تجمع الذلول كما وضع وإنما جمعها على جيش ولا جمع لذلول من لفظها.
قال الشاعر يصف معركة:

لو كثرنا كثركم جِنًّا	لما وردتم المتاريس
الجيش ثلثيه ما ثنَّا	والزلم نصفه مفانيس

(المراجع).

هي في شبه الجزيرة العربية، للأسف، الحالة الطبيعية السائدة. وما الحكايات التي نقرأها في جميع كتب الأطفال وفي أمكنة أخرى عن أنَّ الجمل يمكن في حالات اليأس ذبحه واستخراج ماء صالح للشرب من معدته، ما هي إلَّا خرافات لا أصل لها. وما علينا للتأكد من ذلك إلَّا أن ننظر إلى معدة جمل مفتوحة ولم تزل طرية: أنا أريد أن أرى الشخص الذي يستطيع عند رؤية وشمّ رائحة هذه العصائر الهضمية، التي انحلَّت فيها الأعشاب والأشواك وتحوَّلت إلى خليط سائل كريه، أن يروي عطشه منها وينقذ حياته ولو مهما كان مضطراً. يشترط في الذلول أن تكون نحيلة وبالتالي خفيفة الخطى، وأن تكون ذات سنام قاس، وأن تكون قادرة، حتى أثناء المسير السريع، على تبيّن الغذاء مسبقاً على يمين ويسار الطريق والتهامه دون أن تتوقف، وأن تكون أيضاً قادرة، حتى في أحرّ فصول السنة، على تحمُّل العطش لمدة تصل إلى خمسة أيَّام. كان طول خطوة ذلولي 1,95 متراً وكانت تخطو 5500 خطوة وتقطع ما يقرب من خمسة كيلومترات في الساعة أي إنَّها تقطع عند المسير 15 ـ 18 ساعة حوالي 80 كيلومتراً في اليوم. ومع هذه السرعة، أو الطريقة في السير، يجب أن تكون الذلول الجيدة قادرة إلى جانب ذلك على الأكل أثناء المسير.
ومن المهارات الرئيسية للسائق (للراكب) أن يجعل الجمل يزيد عدد خطواته إلى 7500 خطوة في الساعة دون أن يسير الخبب (العدو السريع). فقط تلك الإبل التي تتغذَّىٰ وتنمو على النباتات الصحراوية المغذية ولكن القاسية تتحمَّل هذه الطريقة في السير أيَّاماً لا بل وأسابيع. فبعد القيام بغزوة لمدة أربعة أسابيع تتعرَّض خلالها الذلول لأقصى درجات الإرهاق نتيجة السير خلال الأيَّام 7 ـ 10 الأولى 20 ـ 22 ساعة كل يوم، تصبح الإبل العائدة من الغزو غير قادرة على القيام بأي نشاطات قاسية أخرى خلال العام بكامله ويجب أن يسمح لها لكي تتعافى بأن تلتهم كل شيء حتى حلول الربيع واكتساء الصحراء بالأعشاب الخضراء. يتحدث بدو نجد باحتقار عن إبل العراق ذات السنام المحشو بالدهن؛ فهي تروض بسرعة بحيث إنَّها تتخاذل وتفشل عندما تتعرَّض للإجهاد. من الصعب تقدير عدد الإبل الموجودة في شمال ووسط شبه الجزيرة العربية. وأنا أميل في ضوء المعلومات المتناثرة المتوفرة لديَّ إلى تقدير عددها

بما لا يقل عن 600,000 رأس. يملك، حسب تقديري، أمير حائل (حايل) وعائلته نحو 120,000 رأس يتولّى المسؤولية عن رعايتها شخص يُسمَّىٰ «راعي الجيش».

تشكل المحاولات التدريبية الأولى للركوب على الجمل، حسب ما خبرته على الفور منذ البداية، فترة تدريبية مفعمة بالعذاب، فحيثما يضطر المرء إلى استخدام الجمل لا ينزل عن ظهره قبل 12 ساعة. إلَّا أنَّ الرأي السائد عن إصابة راكب الجمل بمرض دوار البحر ما هو إلَّا خرافة. فأنا حقاً لست من أبطال البحار لكن ركوبي على الجمل لم يذكرني لحظة واحدة بضحايا بوسايدون إلٰه البحار؛ فالآلام الناجمة عن ذلك هي آلام ميكانيكية بحتة. بما أنَّ طريقة سير الجمل، خلافاً لطريقة سير الحصان، لا تتمثل في الدفع من الأسفل إلى الأعلى وإنَّما في دفع إلى الأمام والخلف، وبما أنَّ الراكب في وضعية الجلوس المألوفة لا تتأثر الجهة الداخلية من فخذيه وإنَّما الجزء الأعلى من مؤخرة مقعده، فإنَّ الاحتكاك المستمر سيؤدِّي إلى انسلاخ الجلد وبعد ثلاثة أسابيع إلى تشنجات لا تمرُّ دون ألم. عندما كانت تتسنى لي الفرصة في وقت لاحق، بعد أن أصبحت أنا نفسي ماهراً في ركوب الذلول وعرفت كيف أقفز إلى أسفل ثم إلى أعلى أثناء مسير الجمل وصرت لا أشعر بالتعب الشديد بعد ركوب لمدة 18 أو 20 ساعة، لمراقبة راكب مبتدىء كنت لا أستطيع مسك نفسي عن العطف عليه وفي الوقت نفسه عن الضحك من الوضعيات التي يجربها بين الركوب والقرفصة والركوع والاستلقاء. كان هناك شاب مصري رافقته في نهاية رحلتي من القصير إلى قنة في صعيد مصر ولمدة أربعة أيَّام، حيث قام متحاشياً لآلام كان قد عاناها سابقاً، بالركوب في سرير نسائي يُسمَّى «شبريَّة» وسهَّل بذلك على نفسه مشقة السفر. ولكن سيبدو سخيفاً لمن يعرف ظروف السفر على ظهور الإبل عندما يقرأ ما جاء في تقرير مخصص للصحف الأوروبية عن الحملة العسكرية الإنجليزية الأخيرة على الخرطوم: «قواتنا في حالة ممتازة، لا بل إنَّ بعض الجنود ينزلون عن ظهور جمالهم ويتقدَّمون إلى جانبها سيراً على الأقدام». أمَّا الأسباب التي دعت هؤلاء الجنود إلى السير طواعية على الأقدام فيمكن استخلاصها ممَّا ذكرناه أعلاه.

ولكن لنعد إلى عرمان بعد هذا الخروج القصير عن الموضوع. مرّ وقت ما بعد الظهر وصار السفر ملحّاً وتعيَّن علينا وداع مضيفينا. وعندما اقتربت من ناقتي (ذلولي)، ناقة وضحا عالية الشداد (الرحل)، معلَّق عليه الخرج ذو الجيب المزدوج وفي كل جيب وضعت حقيبة وفوق كل منهما كيس صغير (مزوَّدة) وفوق كل هذا سجادتي وبطانية لاستعمالهما كفراش للنوم، وعلى العلَّاقة الخلفية للسرج بندقيتي الماوزر في جراب بدوي، وعلى الجهة الأخرى محفظة للسيف والعصا، وعلاوة على ذلك نرجيلة في جراب من الجلد، عندما رأيت هذا شعرت بشيء من الارتباك؛ في بادىء الأمر لم يكن واضحاً لي كيف سأعتلي السرج فوق كل هذه المؤن والأمتعة. إلَّا أنَّ صاحب الذلول أناخها وداس على عضدها الأمامية اليسرى المطوية ثم أمسك بالرسن وطلب منِّي القفز بسرعة إلى الشداد. ففعلت ذلك متمسكاً على الفور بغزالة الشداد وما أن لاحظت الذلول فعلي حتى انتفضت بساقيها الخلفيتين واقفةً وعرَّت بصوت مخيف ممَّا جعلني أفقد كل شجاعتي. لكن الرجل صرخ بي قائلاً، ما عليَّ إلَّا أن أجلس في الشداد وأتثبت - أي جملة واحدة، وبعد ذلك فلت اللجام فنهضت الذلول مسرعةً بقوائمها الأربع حيث تلقيت أنا في أثناء ذلك، تارة من الأمام وتارة من الخلف، صدمات لا تنسى من غزالتي الشداد الخشبية ولكنَّني كنت قد صرت متثبتاً في الشداد. اعتدلت في جلستي بقدر ما هو ممكن من الوقار ووضعت قدمي على الوسادة الجلدية («الميركة») فوق عنق الذلول وأمسكت الرسن بيدي اليسرى وقضيب سوق الذلول باليد اليمنى ورفعت يدي مودعاً الدروز مرة أخرى ثم انطلقت خلف مرافقي الذي كان قد سبقني. سار معنا رجل مسن بعض المسافة. كان عليه أن يدلنا على الطريق وعلى الجبل الذي سنلتقي بالقافلة عند أسفله. كان منظراً مسائياً رائعاً بكل معنى الكلمة؛ فعلى اليمين في الجهة المقابلة خلف صلخد كانت الشمس تميل إلى الغروب وتظهر القلعة من خلالها كتلة داكنة بخطوطها العريضة. ومن المنطقة الصحراوية المضاءة أمامنا كان يرتفع مخروط خضر إمتان مع مزار على قمته والمباني السوداء لقرية إمتان نفسها، لكن كل هذه المناظر ما لبثت أن بدأت بعد وقت قصير تتوهج بألوان حمراء. ومع غروب الشمس تراجعت إلى بعيد أزرق وبدا التل متبعداً عنَّا بصورة متزايدة. ولم يكن هناك أي أثر لمخيم. عند

السرعة البطيئة التي سرنا بها حتى الآن كانت مهاراتي في ركوب الإبل كافية، لا بل إنَّ الحركة الجديدة كان لها بعض المتعة، ولكن لما غربت الشمس ولم يظهر أمامنا المخيم ألحَّ مرافقي على الإسراع. عندئذٍ أجبرت بطريقة غير مريحة تماماً على تعلُّم المستوى الأعلى من فن الركوب وعلى محاولة الخبب. لكن هذه الطريقة في السير غير محمولة على المدى الطويل لا للجمل ولا للراكب، وعلاوة على ذلك ما لبثت الأرض غير المستوية وحلول الظلام فجأة أن خفضت من عزيمتنا وحماسنا. وفجأة ظهرت في البعيد بعض الأضواء الخافتة ولكنَّها ما لبثت أن اختفت بسرعة؛ مرَّت من أمامنا قاطعة طريقنا أسراب إبل مختلفة ممَّا دلَّ على أنَّنا لم نعد بعيدين عن المخيم الذي نقصده. وكان القمر الطالع للتو وذو النُّور الضعيف يعيق تعرفنا على هدفنا أكثر ممَّا يساعد. كنَّا في هذا الوقت قد تركنا تل خضر إمتان إلى اليمين وراءنا وفجأة وصلنا إلى الخيام الأولى حيث كانت مجموعات كثيرة من الإبل تخيم على اليمين واليسار. ولكن أين خادمنا محمود مع الأمتعة وأين خيمة الشيخ؟ توجَّهنا إلى إحدى الخيام أمامنا وسألنا عن خيمة الشيخ فقيل لنا: إنَّها لم تزل بعيدة من هنا ولكن ما علينا إلَّا أن نتابع مسيرنا في هذا الاتجاه بين الخيام. إلَّا أنَّ السير بين الخيام لم يكن سهلاً بأيِّ حال: كانت الخيام منصوبة بصورة غير منتظمة ومتناثرة على مساحة واسعة ومن المعروف أنَّ الخيمة العربية تثبت بأوتاد مدقوقة في الأرض ومربوطة بحبال تمتدّ في جميع الاتجاهات على مسافة تزيد أربع مرَّات على الأقل عن حجم الخيمة نفسها، وهذه الأذرعة الطويلة يجب تحاشيها بحذر لكي لا تتعثر بها الإبل. بعد بحث طويل هنا وهناك وأسئلة لا نهاية لها أخذنا معنا أحد الصبيان الذي اقتادنا عبر هذه الفوضى العارمة من البشر والحيوانات والخيام والحبال إلى خيمة الشيخ. كانت الخيمة التي نزلنا عندها خيمة كبيرة مقسمة إلى ثلاثة أجنحة. وعلى الرغم من أنَّ رحلتنا لم تدم سوى أربع ساعات كنت قد أصبحت مشلولاً تماماً نتيجة الوضعية غير المألوفة على ظهر الجمل، ولما لامست قدماي الأرض لم أستطع ببساطة المحافظة على توازني، لا بل ولا تجليس ساقاي بشكل مستقيم، وإنَّما ترنحت أربع أو خمس مرَّات إلى هنا وهناك واستطعت بجهد جهيد الوصول إلى المكان الفخري المخصص لي دون أن أثير الضحك في نفوس الحاضرين. رحَّب بنا

الشيخ عبدان، شيخ بني عيسى، وهم فرع من قبيلة بني صخر، وطلب منّا الجلوس. كانت هناك حلقة كبيرة من البدو الجالسين على الأرض الذين نهضوا جميعاً عند دخولنا. بالقرب من مكاننا الذي فرشت فيه على عجل سجادة، كانت هناك نار شبه مطفأة. وبإشارة من الشيخ جلب أحد الحاضرين في معطفه كومة من بعر الإبل الجاف[1] ورماه إلى جانب كومة الرماد المتوهج. وإكراماً لنا من جهة، وللتمكن من مراقبة هؤلاء الضيوف الغرباء عن كثب من جهة أخرى، كانت تُضاف إلى الجمر قطع جديدة لكي تبقى النار متوهجة. في بادىء الأمر تَمَّ تحضير القهوة أمام أعيننا وبعد ذلك جلب من قسم النساء وعاء ضخم مليء بالبرغل. ولأنَّني كنت جائعاً جداً فقد كان في وسعي هذه المرة فهم عادة البدو. فوجبة الطعام هي عند البدو قضية قائمة بذاتها؛ إذ إنَّ عملية الأكل مهمة وجدية جدّاً إلى درجة أنَّ المشاركين في تناول الطعام لا ينطقون بكلمة واحدة. وأثناء تناول الطعام لا أحد ملزم بالترحيب لمن يدخل ولو مهما كان وجيهاً ولا يترك أحد أحداً يلهيه عن الأكل. كما أنَّ لا أحد من الحاضرين يقول كلمة أو يطرح سؤالاً. بل إنَّ كل ما يحدث هو أنَّ المضيف يحثّ الآكلين على تناول المزيد وعلى عدم التوقف عن الأكل. أمَّا ضيوف الشرف فيحصلون من صاحب المائدة أو من أحد الضيوف المهذبين المشاركين فيها دائماً على أفضل اللقمات، من قطع اللحم أو غيرها، وذلك بدفعها إلى أمامهم في الصينية المشتركة. وعندما ينتهي أحدهم من الطعام يلحس أصابعه ويتجشأ بصوت مسموع تعبيراً عن الشكر ثم ينهض قائلاً: «الحمد لله» ويذهب إلى حيث يغسل أصابعه، ولحيته إن أمكن، وبعد ذلك يعود إلى مجلس الجماعة العام. بعد الصمت الذي ساد أثناء تناول الطعام وبعدما شبعوا جميعاً دار نقاش حاد فيما بينهم وكان يتعلَّق اليوم بمسائل سياسية. وكان كلَّما دخل شخص جديد يسألنا عن بندقياتنا ونحن نجيب على الأسئلة مرة تلو الأخرى ولم نستطع الذهاب إلى النوم حتى انقضاء نصف اللَّيل.

السبت 8 سبتمبر/أيلول 1883م. مع طلوع الفجر كانت هناك فوضى عارمة لا مثيل لها: قطعان مختلفة تُساق إلى المراعي. وبينما كان البعض هنا

(1) ويُسمَّىٰ بعر، الجمع، وقطعة واحدة، «جلّة».

وهناك ما زالوا يحزمون أمتعتهم كانت مجموعات أخرى تتحرك وهي تغني لحناً ذا وتيرة واحدة؛ ومن جميع الجهات كانت تأتي أرتال من الإبل المحمَّلة وتشغل في المسير الكيفي مساحة تصل إلى أربعة أو خمسة كيلومترات مربعة. ولقد عددت فيما بعد ما بين 600 و700 رأسٍ من الإبل، معظمها محمَّلة بأكياس مملوءة بالحبوب؛ وكان يرافقها نحو 170 رجلاً، مسلحين تسليحاً سيِّئاً، ولكنَّهم مزودون بإبل الركوب الرشيقة، وكان معهم، فضلاً عن ذلك، 20 امرأة شابة. هذه هي إذاً القافلة التي تذهب مرة كل عام من حوران إلى كاف حاملة الحبوب لكي تبادلها بالملح الذي يتم تهريبه بعد ذلك بموافقة الدروز إلى المنطقة التركية. ولذلك كان في وسع نجم الأطرش تهديد شيخ الكاف (كما ذكرنا أعلاه) لأنَّ هذا الأخير كان متوقفاً بيعه للملح على الدروز. وبنو صخر يتولّون في هذه المبادلة عملية النقل فقط.

تبلغ المسافة بين عرمان وكاف مسير يومين ونصف وتعتبر الطريق خطيرة للغاية وتُسمَّى بحقّ «درب الغزوات». إذ ليس فقط العناصر الإجرامية المنبوذة من قبائلها (البوَّاق) وإنَّما مجموعات كثيرة من الأنذال يجربون حظهم في هذه المنطقة وهم لا يتورعون عن اللجوء إلى العنف أو القتل. ولذلك من المفهوم جداً أن نستغل هذه الفرصة الآمنة الوحيدة ولا نفوتها مهما كان الثمن.

شيئاً فشيئاً بدأت الحركة في الكتل الكبيرة تصبح أكثر انتظاماً وتوحداً. في البداية كان الاتجاه المتبع جنوب ـ جنوب شرق تقريباً ثم تحوَّل بعد ذلك إلى جنوب ـ شرق. لم تعد الأراضي القاحلة التي نسير فيها تنتمي إلى الجبال البركانية ذات اللون الأسود الأحمر التي سرنا فيها في الأيَّام الأخيرة وإنَّما فتحت المجال للدخول إلى منطقة الحماد البيضاء (صحراء صخرية). بعدما تركنا إمتان خلفنا على اليسار، تبعها على الجهة اليمنى عدد من القرى المهجورة كلياً وبعض الآثار القديمة من الحجارة السوداء: عناق، غاب، ودير الكهف. وعلى مسافة غير بعيدة عنها صعدنا إلى سهل مرتفع يُسمَّى صفويَّات فتح أمامنا في انخفاض متدرج بطيء مجال الرؤية إلى مسافة بعيدة لا تقل عن 80 كيلومتراً. والآن لنلق نظرة أخيرة إلى الوراء! لم يعد لي أي صلة بالعالم المتمدن. وكنت أقف على بوابة بلاد تقت إليها كثيراً ومنذ زمن طويل. فهل

ستتحقَّق جميع آمالي وأحلامي؟ وهل أنا قادر فعلاً على إنجاز المهمة الكبيرة التي تصديت لها؟ وألن تأتي ساعات ضعف تجعلني أغرق في حالة من اليأس والقنوط؟ وهل سأعود أبداً إلى وطني وأرى أهلي وأحبائي؟ صلَّيت إلى الله لكي يمدّني بالشجاعة والصبر والأمل. عندما وصلنا إلى طرف السهل المرتفع كان في وسعنا رؤية، لأوَّل مرَّة، القافلة بكاملها: كنَّا نحن في نهاية القافلة تقريباً؛ وكانت تنتشر أمامنا المجموعات الأخرى على مساحة يبلغ عرضها نصف كيلومتر وطولها 2 ـ 3 كيلومتر. كانت الإبل تحافظ على خطاها على وقع أنغام على وتيرة واحدة، وكان هناك بعض الإبل الفتيَّة التي تخرج عن خط السير بحثاً عن لقمة دسمة فيصطادها الرجال ويعيدونها إلى السرب؛ ولقد أبدى النساء بشكل خاص كثيراً من اللباقة والمهارة؛ فدون أي تفكير كنَّ يقفزن إلى ظهر أقرب وأفضل ذلول ويقمن بجولة على شكل قوس كبير لكي يصطدن التنابل والويل للمتطفل الذي يقع في مجال هراواتهن المرفوعة. ومن أجل التسلية قام الرجال بحركات قتال وهمية بسيوفهم ورماحهم الطويلة. ولكي أمتحن ذلولي وأتأكد من أنَّها لا تخاف من صوت الرصاص أطلقت من بندقيتي عدَّة عيارات نارية فوق رأسها فلم توجف ولم تبال وكأن شيئاً لم يكن. وهذا ما جعلني أطمئن لتصرفها في حال وقوع حادث جاد لا بُدَّ من أنَّني سأتعرَّض له عاجلاً أو آجلاً.

وهكذا سرنا النهار بكامله دون توقف حتى غروب الشمس. وردّاً على سؤالي عن القصر الأزرق المجهول الأصل (روماني أم من صدر الإسلام؟) قالوا لي: لقد تركناه قبل الظهر على يسارنا على مسافة ساعتين من هنا دون أن نراه. وكم كنت مسروراً عندما لاحظت عند دخولنا في حوض عريض، يُسمَّى «بقاويَّة»، أنَّ السائرين في المقدمة بدأوا بالتخييم. أمَّا نحن فقد تابعنا مسيرنا إلى مسافة بعيدة قدر الإمكان إلى الأمام وبحثنا عن مكان في الخلفية نستريح فيه. وخلال وقت قصير أُنزلت الحمولة عن ظهور إبلنا السبعة وتُركت بعد تحررها من الحمل تبحث عن مرعى جيد. ثم مدّ السجاجيد والبطانيات على الأرض ومن بقية الأمتعة أقيم نوع من المتراس للحماية. استلقيت على طولي ورحت، وأنا أدخن النرجيلة، أتمتع بالهدوء في ذلك المساء المنعش. وبما أنَّه

لم يكن لدينا خيام كان من السهل رؤية المخيم بكامله وما يجري فيه من حركة ونشاط. عشرات النيران كانت تلعلع مطلقة دخانها إلى عنان السماء. وكان الخادم محمود قد استأجر بدويين لمساعدته، وبينما كان أحدهما يرعى الإبل قام الآخر ببناء موقد من الحجارة وجمع كمية من المواد القابلة للاشتعال. ثم قام قبل كل شيء بتحضير القهوة وطبخ إلى جانب ذلك في قدر حديدي الأرز في الماء المملح. ومن أجل إطفاء عطشي كنت قد شربت خلال النهار من مطرتي آخر قطرة من الماء النقي الذي كنت قد ملأتها به في عرمان. الآن كانت قد انتهت أيَّام العز والرفاه ولم يبق أي خيار إلَّا أن أشرب من «القربة». هذا الوعاء المهم عند البدو يصنع بصورة عامة من جلد الغنم أو الماعز حيث تطلى جهة الصوف أو الشعر بالقطران وتُوجَّه نحو الداخل. يتخذ فيه الماء، الذي يكون في الأصل غير نظيف، لوناً عكراً أسمر. ولكن عندما يتعرَّض مدة يوم أو أكثر للخضّ خلال النقل تتجمَّع الأوساخ الموجودة فيه وتُشكِّل كتلاً تبقى عالقة في الشعر أو الصوف. وبعد يومين أو ثلاثة يصبح لونه أكثر سمرة لكنَّه يصبح أكثر صفاءً ونقاءً. وعلى مضض أمرت بفك عنق القربة وبإملاء طاستي النحاسية من مائها وشربت هذا الماء وعيناي مغمضتان. برّرَّرر! في هذه الأثناء كان الأرز قد نضج وصُبَّ عليه السمن. على هذا الموضوع أيضاً أودّ إلقاء بعض الضوء: طالما ينمو في الصحراء علف أخضر (أعشاب وما شابه)، أي خلال الأشهر ديسمبر/كانون الأوَّل حتى مارس/آذار، تعطي النوق والأغنام والماعز حليباً جيداً لا يختلف طعمه إطلاقاً. في هذه الفترة تستخرج الزبدة من حليب الغنم والماعز (نادراً من حليب النوق) للسنة بكاملها. في الفصول اللاحقة يصبح هذا غير ممكن لأنَّ الحليب يكون ماوياً جداً عندما تتغذى الحيوانات على الأشياء اليابسة. في البداية تكون الزبدة متماسكة، لكنَّها اعتباراً من أبريل/نيسان تتخذ في القُرب المحفوظة فيها شكلاً غليظاً ورائحة لا شبيه لها. وبناءً على ذلك كان عمر السمن لما جئت إلى الصحراء في سبتمبر/أيلول لا يقل عن ستة أشهر؛ وعلى الرغم من ذلك تعلَّمت بعد وقت قصير كيف أقدّر عالياً طعمها وأعتبرها أكلة شهية. أمَّا اليوم، عند المقابلة الأولى، فلم يكن في استطاعتي تقبلها بأيِّ حال، ولذلك اقترحت على مرافقيَّ التضحية

اليوم بإحدى علب الطعام المحفوظ الستّ التي جلبناها معنا للحالات الطارئة جداً. وهكذا فتحنا إحدى العلب وأفرغنا ما فيها فوق الأرز. واعتباراً من الآن صرنا نعتبر البدويين المساعدين اللذين استأجرهما محمود تابعين لمجموعتنا وصارا يشاركاننا في جميع الوجبات بالتساوي ودون تمييز. وعلى الرغم من فظاظة تذوقهما للطعام سرعان ما لاحظا أنَّ ما وضع هنا على المائدة هو شيء أفضل من لحم الغنم وسألا عمَّا كانت هذه الأكلة الرائعة. فقلت لهما: هذا «دجاج هندي» ولسان ثور وعجل وشرحت لهما أنَّ أشياء جيدة كهذه وغيرها موجودة بكثرة في البلدان المسيحية. لكن هذه الملاحظة الأخيرة جعلت أحدهما يشك في الأمر. فتوقف عن مضغ الطعام واكفهر وجهه من الخوف وأكَّد أنَّه يشعر فجأة بألم في بطنه. ولما ضحكت ساخراً من كلامه ازدادت شكوكه وصرخ قائلاً: «إنَّه بالتأكيد لحم خنزير». وعلى الرغم من نفيي لذلك مراراً وتكراراً فلم يقتنع. في حالة من الشعور بالاستياء والإهانة انسحب جانباً وراح يتجشأ. ثم غسل فمه بالماء وهو يكرر: «يا غافر الذُّنوب أرجو من الله المغفرة». شعرت حقاً بالأسف على حالته لكنَّه لم يعد يتحرك من الزاوية التي تكوَّر فيها ولا يتناول أي طعام آخر.

بما أنَّه كان بين المؤونة التي نحملها معنا كيسان من الطحين فقد كان في وسعنا السماح لأنفسنا بالتنعم. بتحضير كمية من الخبز. وقد حدث هذا على الشكل التالي: في بادىء الأمر مدَّت على الأرض قطعة دائرية من الجلد تُسمَّى «سفرة». كان قطر هذه القطعة نحو 2,5 قدم وكانت مزوَّدة على أطرافها بحلقات لكي يمكن استعمالها عند الحاجة بواسطة خيط ممدود عبر الحلقات كجراب أو كيس. وكان من الممكن استعمال هذه القطعة لأغراض أخرى مختلفة، تارة كأرضية للمائدة، وتارة أخرى كوعاء لحفظ الطعام، ثم كدلو للشرب، واليوم كوعاء لتحضير العجين. وبعد أن قام محمود بغسل يديه صبَّ كمية من الطحين والماء والملح في الحفرة المتشكلة في الجلد ثم بدأ يعجن الكتلة، وعندها أصبح العجين جاهزاً قام بتشكيله بين راحتي اليد إلى قطع صغيرة بحجم سماكة إصبع أو إصبعين ثم وضع هذه القطع مباشرة في النار ولكن بحيث يحيط بها الجمر من جميع الجهات. وكان بين حين وآخر يدق بقطعة من الخشب على قطع الخبز؛

بعد حوالي ست دقائق فهم من الصوت الناجم عن الدق أنَّ الجهة العليا قد نضجت. عندئذٍ قام بقلب القطع على الجهة الأخرى لكي تنضج أيضاً الجهة التي ما زالت طرية. ولما نضجت الجهتان أخرج القطع من النار ونظفها بصعوبة ممَّا علق بها من الرمل وقطع الفحم والخشب ثم قام بتوزيعها ساخنة على الأشخاص المشاركين في المائدة. وبعد ذلك بوقت قصير طالب النوم بحقِّه، فخلدنا إلى الراحة مع أسلحتنا تحت السماء المزروعة بالنُّجوم المتلألئة.

الأحد 9 سبتمبر/أيلول 1883م. كان الظلام لا يزال حالكاً (الساعة 4,40) عندما تحركت القافلة. ولما طلعت الشمس دبَّت الحياة في الناس الذين كانوا يتسلون بالغناء والنكات. في حوالي الساعة الحادية عشرة انعطفنا في ممر بين الجبال حيث بدأ الطريق في الصعود بين صخور كلسية بيضاء كانت أحجارها السوداء قد تراكمت فوقها. وفي المكان الذي أصبح فيه الممر في أضيق وضع انطلق صراخ شديد من طليعة القافلة وكأنَّ هجوماً قد شنّ عليها ممَّا أدَّى إلى حدوث اضطراب شديد بين الحيوانات. أمَّا حصاني فقد جفل وقفز فجأة إلى الجانب ولم يبق بيني وبين السقوط في الوادي الصخري إلَّا مقدار شعرة واحدة. وبينما كنت لم أزل أهدىء الجواد ظهر فجأة من خلفي فوق رأسي رمح طويل؛ وصرخ بي صاحب الرمح قائلاً: «هل تستسلم أم لا؟»، وطعنني برأس الرمح («الشَّلْفَة») عدَّة مرَّات في معطفي قبل أن أتمكن من أخذ سلاحي بيدي. وبما أنَّني لم أكن أستطيع إنكار أنَّني قد صرت كلياً تحت سيطرته طلب منِّي مبلغاً كبيراً لقاء تحريري. لكنَّني اشتريت حريتي بكمشة من التبغ وأنا أبتسم. فلفَّها هذا البدوي في طرف كمّه الطويل ولوَّح في الهواء علامة النصر وأطلق العنان لجواده، وهو يغني مازحاً ورفاقه يحسدونه على ما حقَّق، وتقدَّم إلى رئيس القافلة.

شيئاً فشيئاً أدَّت حرارة الشمس اللاهبة إلى إسكات هذا الهرج الصاخب. واقتداء بغالبية الرجال غطيت وجهي بكوفيَّتي ورحت أنظر إلى الأمام بين حين وآخر، وأنا شبه نائم، فقط من خلال ثقب ضيِّق لأشاهد المحيط القريب منِّي. وكان أمامي رجل شاب راكباً على ظهر جمل للحمولة. لغرض التوازن استند على السيف الموضوع بشكل عرضاني أمامه والتفت عدَّة

مرَّات إلى اليمين واليسار وأخيراً قرَّر الاستلقاء عرضانياً فوق الأكياس والخلود إلى النوم. وبينما كنت أفكر فيما إذا كنت سأصبح في يوم من الأيَّام قادراً على النوم بهذه الوضعية تسلَّلت امرأة شابة، كانت كما يبدو تراقب أيضاً تصرف الرجل الشاب، إلى الجمل ونشلت بكل جرأة من الرجل النائم الوديع الكوفية والسيف وشدته بقوَّة من ناصية شعره ثم ولَّت هاربة وهي تضحك بصوت عال ضحكة ملؤها السخرية والتحدي. وفي غضبه، الذي ازداد شدَّة بسبب الضحك المتعالي من رفاقه، من هذه الإهانة التي لحقت به قرَّر الرجل الشاب بذل كل طاقته لإزالة العار الذي حلَّ به. إلَّا أنَّ المرأة البدوية كانت بدورها غير مستعدة لإعادة ما نشلته هكذا بكل بساطة وكانت قد حسبت مسبقاً ما ستقوم به بكل دقة. فبينما حثَّ الرجل جمله لملاحقتها، كانت هي قد جهزت قبل ذلك ذلولاً للفرار. وبرشاقة تثير الإعجاب حقاً أمسكت بالحبل المتدلي من مسكة السرج الأمامية وقفزت بإحدى ساقيها في الهواء وبالأخرى على رقبة الذلول وهكذا اعتلت بسرعة البرق على ظهر الجمل. كيف ستسير الأمور الآن؟ راح الرجال والنساء يتابعون السباق المثير مع ما يتخلَّله من تحولات وتبدلات وخدع حربية بالتصفيق والسخرية. في النهاية لم يستطع الرجل الشاب الحاسر الرأس تحقيق أي شيء، فما لبث أن قفز من على ظهر جمله على الأرض وراح يجري مسرعاً ورمحه ممدودة خلف اللصة الوقحة إلى أن تمكن من اللحاق بها. لكنَّه الآن أيضاً لقي مقاومة عنيدة. إلَّا أنَّه استطاع في نهاية المطاف خطف السيف من يدها وإجبارها على الاستسلام. ويبدو أنَّ الذلول نفسها لم تكن راضية عن انتصار الرجل ولم تسمح له بالركوب عليها إلَّا بعد مقاومة شديدة ورغاء وحيث ركبت المرأة خلفه كرديفة على الذلول نفسها. أتاحت لي هذه المغامرة الفرصة لأوَّل مرَّة لأن أرى رأس رجل بدوي مكشوفاً، ولم أكن قبل ذلك قد فكرت بهذا الأمر على الإطلاق، ولم يكن اندهاشي قليلاً عندما كنت أسمع أنَّ البدوي له عادة أربعة قرون، اثنان في الأمام، أي على الصدغين، واثنان في الخلف في النقرة.

كان السهل المنحدر قليلاً الذي عبرناه بعد الظهر غنياً بنباتات الزعتر ذات الرائحة العطرة وبمختلف أنواع الأعشاب والشجيرات، وقد أشاد به

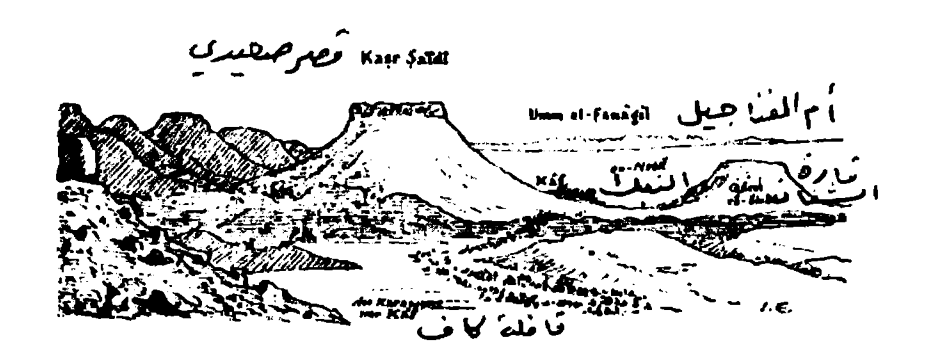
المرافقون كمنطقة ممتازة لصيد الأرانب والحجل. وبالفعل رأيت خلال المسير حبارى نجت من المطاردة بالعصي والحجارة. في خلفية الأرض الممتدة أمامنا ظهر جبل نصفه الأعلى أسود كالغراب ونصفه الأسفل مخطط بطبقات بيضاء. قيل لي: إنَّ اسمه «رشيَّة» أو «رشرشيَّة». وعند أسفل هذا الجبل وصلنا في المساء إلى مكان استراحتنا عند بئر هزيم. يتألف البئر في الصحراء، عادة من 20 ـ 30 حفرة عميقة تكون منتشرة غالباً على مساحة واسعة. وممَّا يدلُّ على وجود بئر قريب الأرض المتيبسة من كثرة الدوس ومواقع قديمة لإشعال النار وأكوام من روث الإبل. كان الواصلون الأوائل قد أنزلوا حمولتهم. وراحت الإبل تعر وتتزاحم في ضيق خانق على الحفر المائية التي يبلغ عمقها 3 ـ 4 أمتار والتي كان النساء يسحبن منها الماء بدلاء جلدية ويقدمنها للحيوانات. أمَّا الرجال فراحوا يسحبون الماء بدلاء جلدية ثقيلة مربوطة بحبال طويلة من الحفر الأكثر عمقاً والأكثر انحداراً وهم يغنون ويطلقون صيحات إيقاعية منتظمة، ثم يصبونه بواسطة شقوق محفورة في الأرض في حفر قليلة العمق.

استمر سحب المياه المتواصل وإسقاء الإبل نحو ثلاث ساعات وظلَّ مستمراً جزئياً حتى وقت متأخر من اللَّيل. وممَّا يجدر ذكره أنَّ الماء كان سيِّئاً إلى أبعد الحدود. وكانت برودة المساء، وبسبب القرب من الماء، مريحة جداً إلى درجة أنَّني تدثرت بلحافي بعد تناول الطعام ودخنت من هنا نرجيلتي.

الاثنين 10 سبتمبر/أيلول 1883م. على الرغم من أنَّني لم أدفأ طيلة اللَّيل رحبت بسرور بالغ، رغم شعوري بالتعب، بقيام محمود بتسخين القهوة بينما كان الظلام لم يزل حالكاً (الساعة الرابعة والنصف). وينتهي الصمت وكالأشباح تقريباً مرَّت بقربنا مجموعات مختلفة تحت الضوء الومضات الأخيرة التي كانت تنطلق من نارنا.

ركبت على ذلولي وسرت وحيداً في الاتجاه نفسه الذي بدا لي أنَّ الآخرين قد ساروا فيه. ولكن بعد وقت قصير شعرت بشيء من عدم الارتياح: لا صوت، ولا أي علامة على كل تلك الكائنات الحية التي كان من المفترض

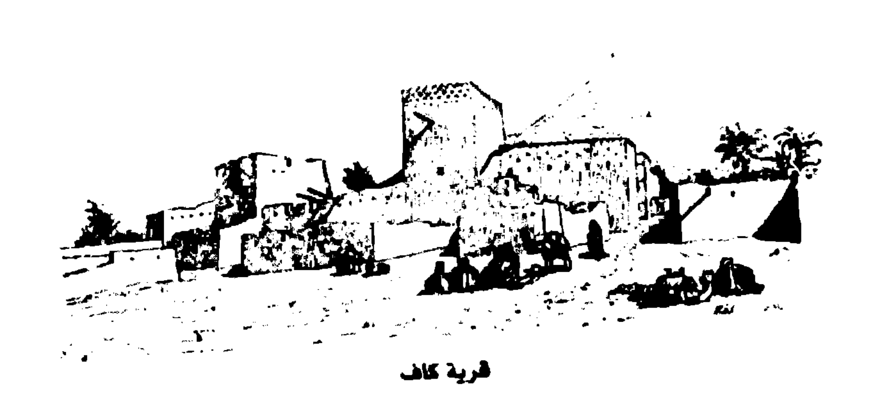
أنَّها تسير على الطريق نفسه بالقرب منِّي. كما أنَّ مرافقيَّ لم يتبعوني. وبقليل من الانقباض والخوف صرخت بأعلى صوتي في ظلام اللَّيل الحالك. لا جواب! فأنا إذاً ضللت الاتجاه بين الأدغال العالية. انحرفت أكثر من اللازم نحو اليمين أم نحو اليسار؟ ولكي أتمكن من الإصغاء بشكل أفضل حاولت إيقاف ذلولي عن السير لكنَّني بذلك جعلتها تنفر وتضطرب بحيث إنَّها راحت تدور حول نفسها وجعلتني بالتالي أفقد نهائياً كل قدرة على التمييز بين الاتجاهات. ومع ارتفاع دقات قلبي أخذت أفكر في عواقب تصرفي غير المدروس. لم يكن هناك أي أثر بعد لبزوغ الفجر. لعلَّ ذلولي لديها نصيحة أفضل ممَّا لديَّ؟ من الواضح أنَّها لا تعرف أيضاً أي مخرج. لعلي قد سرت خمس أو ربَّما عشر دقائق بلا هدف وأخيراً سمعت فجأة جملاً يرغو على بعد 200 خطوة تقريباً. وبسرعة البرق سرت في هذا الاتجاه وكنت سعيداً إلى درجة لا توصف أنَّني تمكنت من اللحاق بآخر الركب. في غبش الصباح دخلنا صعوداً في معبر ضيِّق وفي الأعلى ظلَّ الطريق عدَّة ساعات يتلوى تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار لكي يتحاشى المعابر الضيِّقة شديدة الانحدار. ودفعة واحدة انفتح أمامنا منظر جديد: تفرَّقت الكتل الجبلية وظهرت مخاريط متوَّجة بالصخور كالمحارس في السهل الملحي الأبيض كالثلج. وخلف أحد الجبال، قصر صعيدي والذي كان محصناً في يوم من الأيَّام، ظهرت أشجار النخيل الخضراء الغامقة التابعة لكاف.



عند ظهور الهدف هرع الناس والحيوانات نحوه وكأنَّهم في سباق. وحتى ذلولي الغليظة، التي لم تتناول اليوم، اعتزازاً أو مزاجاً، أي طعام بعد، وكان يتعيَّن عليَّ أن أحثّها على السير دوماً، بدأت بالعدو بصورة لم تكن متوقعة، الأمر الذي لم يكن ليروق لي بأيِّ حال. وبعد أن تجاوزنا عند أسفل قصر صعيدي عدَّة آبار جافة لم يتبق علينا سوى اجتياز كثيب رملي واحد، وأمامنا على اليسار كانت تقع كاف. تعين علينا الالتفاف حول بساتين النخيل حتى المنتصف لكي نأخذ المدخل إلى القرية. نزل الجزء الأكبر من القافلة خارج البيوت في سهل النبك. أمَّا نحن فكنَّا نريد النزول في بيت الشيخ. كان باب كاف منخفضاً جداً إلى درجة أنَّنا لم نستطع البقاء جالسين على ظهور إبلنا بل اضطررنا إلى الدخول سيراً على الأقدام. من الصعب جداً إقناع الإبل بالدخول بين الجدران أو عبر باب، فهو يقاوم ذلك بكل عناد ولا يفعله إلَّا بالشكوى والهدير والممانعة. وهكذا كان الحال هنا أيضاً. فكل جمل كان يجر إلى الأمام بواسطة حبل منفرداً ويضرب من الخلف كي يمر عبر الباب. وعند حدوث أقل احتكاك للحمولة بجدران الباب كانت الإبل تجفل من هذا الصوت غير المألوف وتتعثر فوق عتبة الباب الضيق. لا بل إنَّ ذلولي العالية اصطدم سرجها بدعامة الباب العليا فطار قرن السرج الجميل وسقط أمامي على الأرض. اجتزنا الساحة المكشوفة التي تمتد في الخلفية إلى زقاق مغلق وأنزلنا هناك حمولتنا أمام بيت الشيخ عبد الله الخميس المميز بالبرج الذي يرتفع فوقه.

تمَّ على عجل تنظيف البيت الذي خصص لنا والمؤلف من غرفة واحدة كبيرة مظلمة. تمَّ أوَّلاً تكنيس الأرض ورشها بالماء ثمَّ مُدَّت عليها بعد ذلك حصرٌ من القش، وبعدها أدخلت أمتعتنا إلى الغرفة وعلقت الأخراج (جمع خُرْج وهو حقيبة مزدوجة) والأسلحة على أوتاد في الحائط. ووضعت سجاجيدنا قرب موقد النار وأرحال الإبل إلى جانب مكان الجلوس للاستناد عليها. قرأ محمود للشيخ عبد الله الخميس، الذي لا يحسن القراءة ولا الكتابة، رسالة التوصية الدرزية التي أرسلها له نجم الأطرش واستمع إلى نصِّها الكامل دون أن ينبس ببنت شفة. بعد الانتهاء من قراءتها أكَّد لنا أنَّه سيقدم لنا

كل ما في وسعه وما علينا إلَّا أن نطلب ما نريد ونجعل إقامتنا مريحة قدر الإمكان. أمَّا الإشباع الملحّ لفضول الناس المتجمعين في الخارج فقد تولَّاه محمود وبذل في سبيل ذلك أقصى المستطاع. فلكي يجعلهم يدركون إلى حدٍّ ما وجاهتنا قال لهم: إنَّنا أعلى من الباشوات الأتراك وإنَّنا من أقوى بكوات (المفرد بك) المسيحية. وقال أيضاً: إنَّهم لم يقدِّروا هوبر بِكْ خلال زيارته السابقة إلى هنا حقّ قدره، وأنَّ البك الآخر (أي أنا) أعلى مرتبة. ولأنَّه لم يكن يعرف ما سيسميني سألني عن الاسم الذي سأختاره لنفسي في المستقبل. وكان سيؤدِّي إلى طرح أسئلة لا نهاية لها، لا بل وكان سيكون بلا معنى لو قلت لهم أو حاولت إفهامهم أنَّ اسمي أُوْيتِنْغ. وهل يمكن أن يكون هناك شخص اسمه أويتنغ؟ ولذلك اخترت ـ نظراً لخططي الوهابية آنذاك ـ اسم عبد الوهاب. وقد تفهم الجميع ذلك ولم يصدر عن أي منهم أي تعليق أو استهزاء.



قرية كاف

الفصل الثالث

كـاف

10 سبتمبر / أيلول ـ 3 أكتوبر / تشرين الأوَّل 1883م

تقع قرية كاف[1] في سهل ملحي يُسمَّىٰ «النبك وعقيلة» يمتد نحو الغرب والجنوب الغربي مسير يوم كامل تقريباً. ويحيط به من الجهات الأخرى امتدادات سلسلة جبلية بلا اسم مشترك[2]. يُقال عادة إنَّ وادي راجل الذي ينبع من جنوب شرق جبل الدروز، والذي يحمل أيضاً اعتباراً من قصر أزرق اسم وادي سرحان، يمتد بصورة متصلة حتى هنا. ولكنَّني أودّ هنا أن ألاحظ أنَّ مرافقيَّ من البدو قالوا: إنَّ وادي سرحان يبدأ بعد مسير ثمان ساعات جنوب شرق على الجانب الآخر من إثرة. بيوت القرية، وعددها ثلاثون بيتاً تقريباً مقسمة إلى مجموعتين رئيستين لا صلة بينهما إلَّا بساتين النخيل. يقدر عدد سكَّان القرية الذكور بما لا يزيد عن 90 فرداً. القسم الشرقي الأقل أهمية له مدخل عريض بدون باب وفيه عدد أقل من البساتين والآبار. في القسم الغربي يسكن الشيخ عبد الله الخميس. مجموعة بيوته ضخمة وفيها العديد من الساحات والفناءات. وعلى الرغم من أنَّ استخراج الملح وبيعه يجلب له المال ويمكن وصفه بناءً على ذلك بأنَّه غني، فإنَّه يميل جداً إلى البخل ويصف نفسه بأنَّه فقير. لا شكَّ في أنَّه يتعيَّن عليه دفع أتاوات ليس فقط لأمير حائل (حايل) وإنَّما أيضاً للدروز وفوق ذلك للعديد من القبائل البدوية. ولو تخلَّف اليوم عن دفع هذه الأتاوات ولو لواحد فقط من هؤلاء المتنفذين أو الحلفاء

---

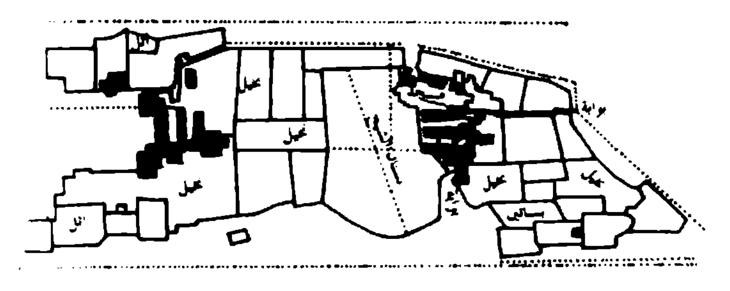
(1) سمعت في وقت لاحق من بدو شمّر اسماً ثانياً لكنّني لم أعد أستطيع إيجاد تلك الملاحظة الغريفة أو الخريشة؟ وإذا ما كان الاسم الأخير صحيحاً فإنَّ القرية يجب أن يكون قد استوطن فيها بدو القبيلة التي تحمل هذا الاسم، وهي فرع من بني صخر.

(2) رسمتُ الخريطة (في الصفحة التالية) بمساعدة البوصلة استناداً إلى المنظر العام الذي يشاهد من قمة «قصر صعيدي». ولم يكن من الممكن رسم الامتدادات الجبلية الفرعية إلَّا كصورة أولية غير دقيقة. وعن حلقات الوصل بين القمم الجبلية البعيدة لا أستطيع إعطاء أي معلومات أخرى، كما أنَّ المسافات تقديرية لا أكثر.

لسقطت زعامته خلال وقت قصير ولخسر كثيراً من أرباحه في تجارة الملح.
بساتين القرية ملك لأصحابها وهي لذلك محاطة كلٌ بمفرده بأسوار خاصة.
وبما أنَّ البساتين الكبيرة منها تحتوي على بئر أو أكثر، وأنَّ كل بئر مزودة بحوض ومجار للسقي، فإنَّه من الممكن إرواء جميع أشجار النخيل؛ لا بل ويبقى فائض من الماء يستفيد منه الملَّاكون الصغار، وفي السنين الأكثر هطولاً يتيح للمزارعين الساكنين على أطراف القرية زراعة بعض الحبوب والخضار.
يملك بدو كاف المستقرون (حضر) 400 ـ 500 شجرة نخيل وبذلك تُعدُّ من القرى الغنية. ولذلك سأعرض هنا بالتفصيل مخططها النمطي.



كاف والقرى المحيطة بها



مخطط بلدة كاف

تختلف لغة كاف اختلافاً كبيراً عن اللغة العربية الشعبية في سوريا. ويمكن اعتبار لفظ الحروف الحلقية كدليل أكيد على اللهجة العامية البدوية: قبل الياء والكسرة تلفظ الكاف والقاف، دوماً، وقبل الألف، أحياناً (ولا تلفظ قبل الواو أبداً)، تس؛ في حال اللفظ بهذا الشكل لا يمكن التمييز أبداً بين الكاف والقاف[1]. وأمَّا الحرف التعيس جيم فيلفظ بأربع طرق مختلفة: لقد سمعتهم يلفظون كلمة جبل: 1 ـ بالطريقة المألوفة «جبل»؛ 2 ـ يبل؛ 3 ـ تجبل؛ 4 ـ شبل. وقبل الحرف الصوتي واو يلفظ «جي»، على سبيل المثال: جوع تلفظ جيوع، الجوف تلفظ الجيوف، جوهر تلفظ جيوهر، وهكذا. علاوة على ذلك فإنَّ التعابير الشائعة عموماً تختلف كلياً عنها في المدن السورية: ما هذا؟ «وشو؟» (وأي شيء هو؟) وأيضاً «شنو؟»؛ كيف هو؟ «شلونه؟» (أي شيء لونه)؛ غداً صباحاً: «باكر»؛ بعد غد: «عقب باكر»؛ هذا العام: «ها السنة»؛ في هذا البلد: «بها الديرة»؛ جميل، حسن: «زين»؛ لا بأس؛ لا اعتراض: «ما يخالف»؛ لا أعرف: «ما أدري والله»؛ العبارة المؤدبة المألوفة: «الله يسلّمك»؛ وما شابه.

تستعمل لتوجيه الحيوانات وقيادتها نداءات خاصة كلياً: تطرد الإبل بكلمة «داه! داه!»، والخيول بكلمة «جش، جش!»، والحمير والشياه بكلمة «خرّ، خرّ!»، والماعز بكلمة «خ، خ!»؛ وينادى للإبل بكلمة «هُويْت

(1) مثلاً التحية المألوفة عند البدو: «كيف أنت» تلفظ «تسيف أنت»؛ «كم»؟ تلفظ «تسم»؟ «اركب» تلفظ «ارتسب»؛ «قرّب على النار» تلفظ «تسرّب على النار»؛ «قربة» تلفظ «تسربه»؛ «قليب» (بئر) تلفظ «تسليب» (الجمع: قلبان)؛ سكّان المناطق الواقعة أبعد إلى الجنوب (القصيم، غرب الدواسر) يلفظون كلمة «كبير» مرّة «تسبير» ومرّة «تشبير».

هويت!»، وللشياه بكلمة «ترّ، ترّ!»، وينادى للإبل التي ابتعدت كثيراً بكلمة «هِرّتسبو!» مع تكرارها عدَّة مرَّات؛ وتساق الإبل، أي تحثّ على السير، بكلمة «هيك، هيك!». ولجعلها تبرك يُقال لها، مع ضربها بلطف على عنقها، «خلّ، خلّ!».

بخصوص طبيعة ومنشأ بعض الأصوات العربية اكتشفت هنا وكأنَّ غشاوة قد سقطت عن عينيَّ. فمن التعامل مع الإبل ولو لفترة قصيرة من الزمن فقط يجب أن تتولد لديك على الفور القناعة الأكيدة بأنَّ الأصوات المتميزة في اللغة العربية مأخوذة من الجمل أو هي تقليد له. وسيكون من السهل على عالم الأصوات النبيه أن يثبت أنَّ الأصوات الحشرجية والأنفية وخاصة الحلقية كالعين والغين كانت في صيغتها الأصلية مأخوذة من الجمل. وأنا أستغرب حقاً أنَّ هذه الملاحظة المكشوفة لم ينتبه إليها من قبل أي شخص آخر.

قام الشيخ بتقديم الطعام لجميع المشاركين في القافلة مجموعة بعد أخرى، الغالبية في الساحة المكشوفة الواقعة عند البوابة مباشرة وآخرون في الغرفة الأمامية الواقعة أمام البيت. أمَّا نحن، الضيوف المميزون، فقد حصلنا على قهوتنا وعلى التمر والخيار في الديوان الذي سبق ذكره، أو القهوة (ولفظها البدوي «قيهاوة»)، وهو غرفة طولها حوالي 12 خطوة وعرضها 4 خطوات لا يدخل إليها الضوء، باستثناء بعض الفتحات الجدارية العالية، إلَّا من الأبواب. أمَّا فرشها فكان يقتصر على موقد ومنفاخ وجرن حجري؛ وعلى الجدران دُقَّت بعض الأوتاد الخشبية وعلى الأرض مُدَّت حصائر من القش؛ وهذا كل شيء. كانت صناديقنا الكثيرة وأمتعتنا تشغل الجزء الأكبر من الغرفة بحيث لم يتبقَّ مكان واسع للزوَّار. ومع ذلك فقد تزاحم أهالي القرية، سواء أولئك الذين رافقونا حتى الآن أو غيرهم، طيلة النهار دخولاً وخروجاً على أمل أن نريهم بنادقنا. كان السؤال المتكرر دوماً عمَّا إذا كانت البنادق «مارته» (مريتي)، أي من نظام المرتيني أو السلاح العسكري التركي. الجواب: كلا، ماوزر! «ما هو الماوزر؟». هكذا أنظر! وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما كانت الطلقات التسع تقفز، عند تفريغ المخزن، تباعاً واحدة تلو الأخرى. وكان على الدوام يدخل أُناس جدد، يقرفصون ساعات طويلة أو يتكئون على

الأرض وهم ينظرون بتأمل وإعجاب إلى البنادق المعلَّقة على الحائط. وسعيد من كان يتمكن من إلقاء نظرة على الأغلفة.

بعد مطالبتي بالخضوع لعملية استحمام جذرية خرجت إلى الحديقة للقيام بذلك، وخرج معي أحد العبيد لكي يقدِّم لي المساعدة، وحينما همَّ بصبّ أوَّل سطل من الماء عليّ اكتشف أنَّ قرادة ضخمة قد تثبتت على ذراعي اليسرى وقال ضاحكاً: لا شك في أنَّني يجب أن أكون قد شعرت بها. لكن هذه الحشرة اللعينة لم تكن لتضايقني بقدر ما كان يضايقني ذلك الالتهاب المؤلم الذي نجم عن جلوسي ثلاثة أيَّام متتالية على ظهر الجمل عند سفرنا من عرمان إلى كاف. لم يكن العبد ليصدق على الإطلاق أنَّ الجروح الظاهرة في مؤخرتي قد نجمت عن هذا الحدث البسيط وأعرب عن استغرابه الشديد بمنتهى التهذيب والأدب. وعندما انتهيت من الاستحمام تجوَّلت في الحديقة وشاهدت ما فيها من الآبار وغيرها ثم بدأت بالرسم. بعد العشاء جاء زوَّار آخرون، أو لعلَّهم كانوا هم أنفسهم ـ بدوا لي جميعاً متشابهين لا يختلف أحدهم عن الآخر ـ على أيِّ حال لم أستطع في البداية التمييز بين الأشكال التي لا تعنيني؛ ولم يخلُ المكان إلَّا في ساعة متأخرة من اللَّيل. بسبب الحرّ الشديد في القهوة نقلنا مكان نومنا إلى الباحة الخارجية لكنَّه تعيَّن علينا تقاسم المكان مع حصان الشيخ. كان الحصان قلقاً طيلة اللَّيل وعلى الرغم من أنَّه كان مربوطاً بحبل فقد كان يستطيع التحرك في كامل الباحة؛ لا بل إنَّه قرض مراراً وتكراراً سريري.

الثلاثاء 11 سبتمبر/أيلول 1883م. قبل نهوضي من النوم كانت القافلة قد أخذت طريق العودة إلى عرمان، ولكن ليس دون أن تترك ذكرى غير حميدة. ذلك أنَّه مع اختفائها اختفى أيضاً كيسان من الملح وثلاثة مسدسات.

خصصنا يوم الاستراحة الحالي للعناية بأجسامنا. من أجل النظافة والراحة طلبنا من الخادم محمود أن يحلق لنا بالموسى كل ما على رأسنا من شعر باستثناء اللحية ـ وهو إجراء لم يكن خالياً تماماً من الألم. ذلك أنَّ موسى الحلاقة أيضاً لم تسلم من عواب هذا الإجراء: فالغبار الكثير والرمل

الذي كان عالقاً في الشعر وفي جلد الرأس أحدث أثلاماً كبيرة في الشفرة. إلَّا أنَّ منظر رؤوسنا البيضاء الصلعاء وإحساسنا بالنظافة جلبا لنا كثيراً من السرور والارتياح. كما أنَّ اللحى تمَّ تقليمها بما يتناسب مع العادات الشرقية. وخاصة الشوارب يجب أن تسمح للشفة العليا بالظهور لأنَّ بروز الشعر فوق الفم أو دخوله في الفم يُعدُّ تصرُّفاً مكروهاً بسبب المضايقة عند تناول الطعام. وهم محقون في ذلك دون شك. إذ ليس من المقبول، على سبيل المثال، أن يقوم رجل، حسب العادة المنتشرة لدى الإنجليز والأمريكيين ومن يحذون حذوهم، بتمرير جميع المأكولات والمشروبات أوَّلاً عبر مصفاة شعره ثم يلحس بعد ذلك، بين حين وآخر، بقايا الطعام بشفته السفلى أو لسانه، لا بل وإنَّه يمسح بها لحيته بواسطة منديل. علاوة على ذلك كانت هناك حاجة ملحة إلى تبديل القمصان؛ فقد كانت تستعمل خلال الثمانية أيَّام الماضية إلى جانب وظيفتها الأصلية كمنشفة ومنديل وما شابه.

بعد الظهر جاء إلى القهوة شاب عمره 15 أو 16 سنة اسمه علي ولم يكن يرتدي قميصاً ولا غطاء رأس وإنَّما فقط مغطفاً مهترئاً، ألقى التحية على العموم وجلس في الزاوية البعيدة. ورداً على سؤالي عمَّا يريد هنا أجاب إنَّه يريد مجرَّد رؤيتنا ويدخن بهذه المناسبة نرجيلته. ولما سألته مستنكراً عمَّا إذا كانت هنا في كاف عادة أن يقوم المرء بزيارات كمثل الوحش دون ثياب، أجاب إنَّه لا يملك أية ملابس غير ما يرتديه وأنَّه لا يستطيع فعل شيء ضد هذا الواقع.

وكما تبيَّن فيما بعد كان قد تيتَّم في وقت مبكر وهو لا يملك طبعاً المال وهو لم يزل فتياً لكي يشنّ غزوة أو يشارك في غزوة؛ فكيف سيستطيع إذاً الحصول على الثياب؟

قبل غروب الشمس قمت بجولة حول القرية. وعلى العشاء قدم لنا صحن من الحليب مع الخيار والباذنجان والخبز. استغنيت عن هذا الخليط واكتفيت بتناول التمر. في اللَّيل تحرَّك حصان الشيخ مرَّة أخرى وفوق كل هذا جاءت بعض العنزات وراحت تشمشم بفضول في مخيمنا.

الأربعاء 12 سبتمبر/أيلول 1883م. كان من المقرر أن نقوم اليوم بزيارة قرية إثرة المجاورة. ركب الشيخ عبد الله على ظهر حصانه وركبنا نحن على إبلنا. على الطريق فوق العديد من المرتفعات والمنخفضات التقينا بعدد من الصبيان المشردين الذين كانوا كما يبدو يبحثون عن صيد. بعد مسير ساعتين ظهر في السهل قصر وشواش المؤلف من عشرة بيوت مزوَّدة بآبار ويسكنها 12 رجلاً. على بعد نصف ساعة من هنا تقع في خليج في السهل الملحي الأبيض قرية إثرة التي يبلغ عدد سكَّانها 120 ـ 130 نسمة.

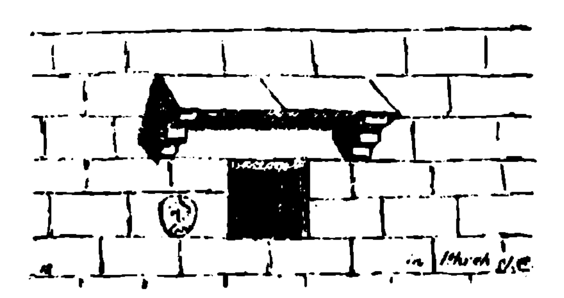
كانت هناك بضع خيام منصوبة خارج القرية. في إحدى الخيام كانت هناك سجادة فارسية كبيرة مستعملة كحاجز فاصل كانت فيما مضى دون شك سجادة فخمة (من الممكن أن تكون من الغنائم التي أخذها الوهابيون من كربلاء سنة 1801) ولم تزل حتى اليوم، في حالتها المزرية الآن، تشع بألوان في غاية الجمال. عند دخولنا إلى القرية لاحظت في الأرض حجراً فيه ثقب في الوسط؛ قيل لي: إنَّ الناس هنا يحضّرون فيه البارود. نزلنا أمام بيت شيخ قرية إثرة ذي الشعر الأحمر. كان يسكن في بيت أو قصر قديم مبنيّ، خلافاً لجميع بيوت القرية الأخرى، من حجارة سوداء داكنة جيء بها دون شك من حوران. قدَّم لنا الشيخ تمراً أصفر غير ناضج (بسر) مع القهوة، وفيما بعد باذنجاناً وبامية وخبزاً؛ ثم استدعى رجلاً قام بإصلاح سرج جملي المكسور بأن ثبته بالغراء وبقطعة من الصفيح. أعطيته لقاء عمله هذا ربع مجيدي (1 فرنك). بعد تناول الطعام ذهبت إلى بستان النخيل. وبينما استلقيت عند أحد الآبار أو الأحواض المائية لكي آخذ غفوة الظهيرة تجمَّع عدد من الفتيان لكي يستحموا في البئر. وما لبثت أن جفلت من نومي بسبب سماعي أصوات إطلاق رصاص من بندقية، إذ إنَّ الفتيان كانوا قد اصطادوا زوجاً من الزرزور الأصفر. قام الفتيان بشك الزرزورين نصف أحياء بسيخ من الخشب وشويهما على نار من سعف النخيل دون نتف الريش ودون استخراج الأحشاء. أمَّا النتيجة فكانت كتلتين سوداوين يشبهان حبَّتي بطاطا مشويتين في الرماد.

عندما تفحصت بيت الشيخ عن كثب لاحظت فوق الباب المؤدِّي إلى الباحة على العتبة الحجرية العليا هلالاً مشغولاً بشكل بارز بديع وإلى جانبه

بعض الوشم (علامة القبيلة عند البدو) المحفور في الحجر وفوقه مكتوب على الحجر بالخط الكوفي الصيغة التي كانت تكتب على القطع النقدية المعدنية العباسية.

«بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلّا الله وحده لا شريك له محمَّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون».

على الحائط الشرقي للبيت القديم كان محفوراً إلى جانب النافذة رأس خشن وفوق كل هذا بروز حجري أُفقي جميل مع حاملين.



على الرغم من أنَّ الشمس كانت تميل إلى الغروب لم يبد عبد الله أي استعداد للعودة إلى كاف وقال بكل اهتمام: من الممكن أن يأتي هذا المساء ضيوف آخرون من الجيوف[1]. قمنا بجولة أخرى في الخارج حول القرية وزرنا مقالع الملح ثم أردنا زيارة آثار بيت أسود يقع خارج القرية فشاهدنا خمسة فرسان مسلحين تسليحاً جيداً يركبون على جمال رشيقة مسروجة بشكل

(1) هكذا بالضبط يلفظ هنا اسم هذه الواحة.

جيد قادمين من الجنوب الشرقي ومتوجهين صوبنا مباشرة. مدهوشين من رؤية هؤلاء الغرباء غير المتوقعين أوقفوا جمالهم وهيأوا أسلحتهم. أنا وهوبر تناولنا أيضاً سلاحنا ووقفنا مقابلهم وجهاً لوجه. هل هم لصوص أم أصدقاء؟ كانوا يغطون وجوههم بغطاء رأسهم. وفجأة صرخ أحدهم كالمجنون: هوبر!هوبر! وعلَّق سلاحه على نتوء السرج وقفز من على ظهر جمله ثم اتجه إلى هوبر وعانقه وأمطره بوابل من الأسئلة. وقبل أن أتمكن من فهم ما يجري أرغمت أنا أيضاً على الانخراط في مشهد التحيات. فبدون أي توضيح انقض عليَّ ببساطة البدوي الطويل النحيل وكاد أن يخنقني بقبلاته المفعمة برائحة المسك وبسؤاله المتكرر أربع، خمس مرَّات: «تسيف إنت، تسيف إنت؟».

وبعدما هدأت عاصفة السلامات علمت أنَّه حمود المجراد[1] من حائل (حايل) أرسله شيخ شمر الأمير محمَّد بن رشيد خصيصاً لكي يجلبنا من دمشق. من أجل فهم القصة يجب أن أذكر هنا أنَّني كنت قبل انطلاقي من ستراسبورغ قد أرسلت رسالة[2] في أوَّل مارس/آذار 1883م إلى أمير حائل (حايل) أخبرته فيها عن عزمي أنا وهوبر على السفر إلى بلاد شمر وأعلمته في الوقت نفسه أنَّنا سنجلب له معنا كل ما يشتهيه (أي من سلاح)، لكنَّه يجب أن يتكرَّم بإرسال رجل موثوق، ويفضل أن يكون حمود المجراد الذي كان هوبر يعرفه من رحلته الأولى، لملاقاتنا في دمشق. هذه الرسالة مع رسالة أخرى موجهة إلى ابن عم الأمير، حمود العبيد، كنت قد أرسلتها مع الكتاب الموجه إلى شيخ الدروز نجم الأطرش، في أبريل/نيسان، مع المراسل السريع لنائب القنصل القيصري الألماني في دمشق لوتّيكه لكي يوصل كل رسالة إلى صاحبها. ولكن يبدو أنَّ رسالة الأمير بقيت زمناً طويلاً في عرمان إلى أن وجد شخص مستعد للمغامرة بحياته وإيصالها إلى حائل (حايل) بعد رحلة مدتها أربعة عشر يوماً. وعلى أيِّ حال فإنَّ هذا المراسل لم يكن مستعجلاً جداً، وكان بالتأكيد ينزل في الطريق ضيفاً على كبار القوم مستغلاً إلى أقصى الحدود

(1) اسمه الكامل: حمود بن إبراهيم بن موسى المجراد.

(2) قام بتحسين أسلوب الصياغة العربية صديقي آ. سوسين.

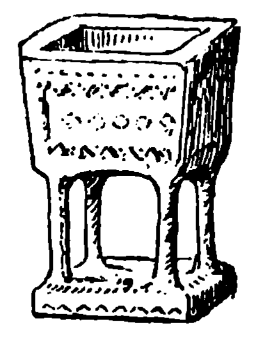
كونه يحمل رسالة إلى الأمير. علاوة على ذلك فإنَّ «الشيوخ»[1] لم يكن موجوداً في حائل (حايل) عند وصول المراسل، وإنَّما، حسبما علمنا الآن، في غزوة وراء منطقة عنزة، أي على مسافة عشرة أيَّام على الأقل إلى الجنوب من عاصمة حائل (حايل)، واستلم هناك رسالتي[2]. وكان حمود المجراد مشتركاً أيضاً في هذه الغزوة وتلقَّىٰ هناك الأمر من الشيوخ بالسفر فوراً إلى دمشق لإحضارنا. قضى في حائل (حايل) يومين فقط لكي يُحضِّر مهام مختلفة لدمشق؛ ومن حائل (حايل) إلى هنا استغرقت رحلته أربعة عشر يوماً. كان يرافقه في رحلته شبه الزنجي إبراهيم أبو خليل ورجل اسمه محيثل أبو حامد من الجوف وتاجر إبل دمشقي اسمه حسين ورجل من أهالي إثرة انضمَّ إليه أيضاً في الجوف: كان محملاً بكمية كبيرة من الرسائل والمهام إلى دمشق. بناءً على ذلك تعيَّن عليَّ أن أعود معه إلى دمشق وهذه فكرة مخيفة لأنَّها كانت تعني ببساطة تأخراً مدته ثلاثة أسابيع. لم تكن لديَّ رغبة في العودة مرَّة أخرى إلى دمشق وإذا ما كان هوبر مستعداً لمرافقة حمود إلى هناك فلم يبق أمامي سوى الانتظار عدَّة أسابيع في قرية كاف المقفرة.

مثل هذا المبعوث الرفيع للأمير سيستقبل، بطبيعة الحال، بطريقة مختلفة عمَّا استقبلنا به هذا الصباح: في البدء قدَّموا لنا تمراً ناضجاً (وليس بسراً كما في السابق) ومعه زبدة. ثم قام الشيخ على الفور بذبح عنزة ودُهنت بدمها جمالنا على الرقبة والفخذ الأيمن. ويُعدُّ هذا عند البدو تكريماً للضيف لكي يعرف كل من يمرُّ في الطريق أنَّ هؤلاء مسافرين وجهاء تُقدَّم لهم الذبائح. بعد الانتهاء من هذا الطعام نهضت المجموعة بكاملها وانتقلت إلى بيت الرجل المقيم في القرية الذي جاء إلى هنا مع حمود من الجوف. وهناك تكرَّر الأمر مرة أخرى. وجبة طعام ثانية كاملة لا تستطيع هضمها بعد وجبة أخرى مباشرة إلَّا معدة رجل بدوي. حاول صاحب البيت كما يبدو أن يبز الشيخ في الكرم: كل شيء كان أوفر وعلى أيِّ حال أنظف ممَّا كان عند الشيخ. بينما كانت تحضر القهوة

(1) بصيغة الجمع الملوكية هذه يخاطب الأمير عادة من رعاياه عندما يتكلَّمون عنه بصيغة الشخص الثالث.

(2) كان هذا حسبما قيل «في اليوم الثالث بعد العيد» (بعد نهاية رمضان) أي في 7 أغسطس/آب 1883م.

أحضرت مبخرة مصنوعة من الخشب وملبَّسة بصفيح من النحاس الأصفر المزخرف. ثم ألقيت على الجمرات الموجودة فيها قطع من البخور (عود أو ورد) بحيث تشكل دخان ذو رائحة عطرة. الأشخاص الوجهاء لا يبخرون بها إلَّا لحاهم وذلك بأن يمسكوا الوعاء بيدهم اليمنى ويضعونه تحتها ثم يحركون لحيتهم في الوقت نفسه باليد اليسرى. أمَّا البدوي العادي فيبخر أيضاً الجهة الداخلية من الكفّيَّة (غطاء الرأس) ويضع الوعاء تحت المعطف حتى باطن الكتف. عند الحاجة يعبَّأ وعاء التبخير مرة أخرى ويتم تدويره مرَّة أو مرتين على الجالسين.



ظلَّ بعضهم حتى وقت متأخر من اللَّيل يتناولون القهوة خارج القرية عند تاجر الإبل حسين ويتبادلون الحديث عن أهم الأخبار السياسية في نجد بعدما أصبحوا هنا مجموعة مختارة. من أجل فهم الأوضاع السياسية الحالية في نجد (وسط شبه الجزيرة العربية) ينبغي أن أُقدِّم الآن نبذة تاريخية قصيرة عن الوهابيين الذين تحدَّثت عنهم بالتفصيل في الفصل السابع من هذا الكتاب. أودّ هنا أن أشير فقط إلى أنَّ هناك اليوم أسرتين تتصارعان على الحكم في وسط شبه الجزيرة العربية تعتنقان كلاهما، من الناحية الدِّينيَّة، الصيغة الوهابية من الإسلام، وهما: في النصف الجنوبي والجنوبي الشرقي أسرة ابن سعود (ومقرها: الرياض) وفي النصف الشمالي والشمالي الغربي أسرة ابن رشيد (ومقرها: حائل (حايل)). وكان الأخيرون، أي الرشيديون، قد صعدوا منذ عشرينيات هذا القرن من ولاة ومتصرفين تابعين للسعوديين إلى حكَّام شبه مستقلين ومنذ الحملات العسكرية المظفرة لمحمَّد بن رشيد، أي منذ العشرينيات الأخيرة، يتجه نجم ابن سعود بصورة متزايدة نحو الأفول[1]. لكنَّه من الصعب جداً الآن الحصول على أخبار موثوقة عن الظروف والأحداث

(1) أفادت الأخبار التي وصلت مؤخراً من نجد أنَّ ابن رشيد قد انتصر نهائياً على ابن سعود وأخضعه.

الحقيقية في داخل الجزيرة العربية. وما يصل إلى أوروبا عن هذه الأحداث يمرُّ غالباً عبر مصفاة تركية. وإذا ما سمع المرء روايات بدو مستقلين يجب عليه أوَّلاً، عندما يتعلَّق الأمر بالأرقام، حذف كثير من المبالغات (عند ذكر معلومات عن الغنائم والخسائر) ويجب عليه ثانياً أخذ موقف الراوي بعين الاعتبار، إذ إنَّ الروايات المنقولة عن الحدث نفسه من معسكرين متعاديين تصل بصورة مختلفة كلياً حسب الموقف الشخصي للراوي، أي حسب كونه مع هذا الجانب أو ذاك. وهكذا كنَّا قد سمعنا، على سبيل المثال، قبل بدء رحلتنا إلى شبه الجزيرة العربية، خبراً مقلقاً جاء من اسطنبول أنَّ محمَّد بن رشيد قد مُني في حملته العسكرية على خصمه الجنوبي بعدَّة هزائم على يد عبد الله بن سعود. وبما أنَّنا كنَّا ننوي في خطتنا الذهاب من حائل (حايل) إلى الرياض فقد كان يهمنا جداً أن نحصل على أخبار موثوقة عن الوضع هناك. وقد حصلنا في مخيم بني عيسى قرب إمتان على خبر مشابه. فقد حدثنا أحدهم أنَّ ابن سعود كتب رسالة إلى ابن رشيد قال له فيها: إنَّ نجد لا يمكن أن يحكمها إلَّا حاكم واحد («إمَّا أنا أو أنت») وأنَّ هذا يجب أن يتقرر في معركة حاسمة. وفي هذه المعركة التي دارت رحاها جنوب مدينة عنيزة هزم ابن رشيد شر هزيمة وخسر قطعاناً كبيرة من الإبل والكثير من الخيول. إلَّا أنَّ الشيخ عبد الله قال لنا عند وصولنا إلى كاف: بأنَّ العكس هو الصحيح، أي إنَّ ابن رشيد هو الذي هزم ابن سعود وأخذه أسيراً لكنَّه بسماحته وكرمه أطلق سراحه وأرسله إلى الرياض مع ناقتين أصيلتين. أمَّا الآن وبعد وصول الرجال من حائل (حايل) فمن الممكن أن نحصل على تقرير صحيح عمَّا يجري هناك: ولذلك يجب أن يوضح لنا حمود المجراد حقيقة الأمر. لكن حمود خدعنا في بادىء الأمر وقدَّم لنا الصورة التالية: لقد أجبر ابن سعود بسبب الاستياء الكبير في أوساط أتباعه على القيام بعمل حربي ما، ولهذا الغرض تحالف مع قبيلة العتيبة. لكن ابن رشيد الذي كانت تصله أخبار دقيقة عن كل ما يجري انقض فجأة وبمنتهى العنف على العتيبة وألحق بهم هزيمة نكراء بحيث لم يبق لهم قِدْر ولا خيط. وفي آخر لحظة تمكن ابن سعود من الفرار وتوجَّه إلى وادي نجران لكنَّه في الطريق وقع في أيدي قبيلة حرب. فأبلغ بنو حرب ابن رشيد بأنَّ ابن سعود أسيراً عندهم وأنَّهم مستعدون لتسليمه. إلَّا أنَّ

ابن رشيد لم يرد الحصول عليه من تحت رحمة الغرباء وقدَّم لهم النصيحة بأن يطلقوا سراحه وبأن يعطوه بعض الإبل للعودة إلى دياره. صحيح أنَّ عرض الحدث الأخير مع قبيلة حرب بدا منذ البداية غير محتمل على الإطلاق لكنّني مع ذلك احتفظت لنفسي بما لديَّ من شكوك وفي وقت لاحق قال لي الرجل المسنّ خلف[1]: إنَّ الرواية بكاملها أسطورة من صنع الخيال. وإذا ما كنت لم أستفد كثيراً ممَّا سمعت فقد استخلصت من الأخبار المتناقضة أنَّ الحملة العسكرية ضد ابن سعود وعتيبة لم تسفر عن نتائج باهرة بالنسبة لابن رشيد ولم تؤدِّ إلى حسم الصراع بين الخصمين المتحاربين.

الخميس 13 **سبتمبر/أيلول** 1883م. في الصباح الباكر قدّمت لنا مرة أخرى وجبة طعام وافرة، وبعد ذلك توجَّهنا في الساعة السابعة والنصف إلى قصر وشواش المجاور. في الحقيقة لم نكن نريد المكوث طويلاً هنا ولكن دون أن نشعر كانت الإبل قد دهنت مجدداً بالدم. وهذا يعني أنَّهم قد أعدوا لنا الذبائح مرة أخرى. في الساعة العاشرة انتهينا أيضاً من هذه الوجبة وفي الساعة الثانية عشرة عدنا مع جمع من قصر وشواش في موكب حافل إلى كاف. وكان رجلان قد سبقانا إلى هناك لكي يخبروا الناس عن وصول هذا العدد الكبير من الضيوف. في باحة البيت وقف أبناء الشيخ في ثياب نظيفة. وخلال وقت قصير تجمَّع جميع رجال وصبيان القرية بعضهم في «القهوة» (صالون الشيخ) وبعضهم في باحة داره. قدِّم للضيوف تمر طازج وبعد ذلك خيارة طولها متر كامل. وبعد الظهر اصطاد أحد الصبيان عصفوراً[*] بلون رمادي وأصفر. وكعلامة على سعادته بهذا الصيد دهن بندقيته بدم العصفور وريشه ثم شواه على النار حتى تفحم.

الجمعة 14 **سبتمبر/أيلول** 1883م. عند تناول القهوة درس لا مثيل له إلَّا هنا: قام الشيخ عبد الله يحثُّ ابنه خميس البالغ من العمر ثلاث سنوات على تدخين النرجيلة وعلَّمه كيف يفعل ذلك.

---

(1) انظر ص80.

(*) الاسم المعروف محلياً صعوة واحدة الصعو.

بسبب سرقة كمية من الملح في الليلة الماضية حدثت هذا الصباح في ساحة القرية معركة حقيقية بكل معنى الكلمة. هجم الخصمان الرئيسيان على بعضهما بالمعاول واللكمات وتدخل آخرون بالهراوات («علق») والسيوف. وكاد الفريقان أن يصطدما فعلاً، لا بل إنَّ صبياً زنجياً وقحاً تلقَّى ضربتين من الشيخ عبد الله وسال منه الدم. وأخيراً أُبعد المذنبون الرئيسيون إلى حديقة الشيخ وهكذا سويت المسألة بما يرضي جميع الأطراف.

دعينا إلى الفطور عند رجل اسمه منصور يسكن في النصف الشرقي من القرية. وهو ثاني أغنى رجل في كاف بعد الشيخ، لديه حصان ويتباهى جداً بعباءة حمراء كالنار لا بُدَّ أنَّه قد غنمها في إحدى الغزوات في مكان ما. وممَّا يدلُّ على أنَّه قد شارك في العديد من المشاجرات آثار الجروح الظاهرة على وجهه وعدد من أسنانه المكسرة. أمَّا اليوم فقد أراد التميز بأنَّه مضيف كريم، وبالفعل فقد فاق الشيخ في كرمه وحسن ضيافته. في مساء اليوم نفسه دعينا مرة أخرى لتناول الطعام عنده.

تحدَّثنا اليوم مع حمود المجراد عن خططنا المستقبلية؛ ففتح لنا آفاقاً جيدة إلى أبعد الحدود بقوله: طالما نحن في منطقة شمر علينا ألَّا نهتم بأيِّ شيء. فالشيخ سيرسل معنا أفضل المرافقين إلى أي مكان نشاء ويزودنا بكل ما نريد من المؤن والحاجيات. وقال: إنَّه من الممكن جداً أن يأتي ابن سعود بنفسه إلى حائل (حايل) في الوقت نفسه الذي نصل فيه إلى هناك وعندئذٍ ستكون رحلتنا إلى الرياض قد تأمنت أيضاً على أحسن ما يرام. وإذا ما وصل إلى حائل (حايل) في وقت نكون فيه بعيدين عنها فإنَّ «الشيوخ» سيحاول إقناعه بالبقاء هناك حتى عودتنا، وفي جميع الأحوال سيحدثه عن زيارتنا المزمعة للرياض ويحصل منه على وعد بأن يحرص على سلامتنا ويهتم بنا.

في المساء جلسنا معاً طويلاً تحت ضوء القمر. واحتاج الأمر إلى زمن طويل حتى تمَّ إقناع أحد الحضور بأن يحضر ربابته، وهي آلة موسيقية ذات وتر واحد يعزف عليه بأربع أصابع بواسطة القوس. على نغمات الربابة قرأ رجل مسنّ قصيدة لم أستطع فهم سوى جزء يسير منها. كان جميع الناس

متحفظين قليلاً أو كثيراً بسبب وجود حمود القادم من حائل (حايل) التي يسود فيها المذهب الوهابي الذي يعتبر كل تعبير عن الفرح وخاصة الموسيقى عيباً وكفراً.

السبت 15 سبتمبر/أيلول 1883م. قبل طلوع الفجر بدأت الاستعدادات لعودة هوبر مع حمود ورفاقه إلى دمشق. واستعرض حمود جميع ما يحمله من رسائل لكي يتأكد من عدم فقدان أي منها. كان بينها رسائل إلى صلخد وأخرى إلى محمَّد بن دوخي بن سُمَيْر من عشيرة ولد علي (عنزة) ورزمة كاملة إلى دمشق. طلب حمود من هوبر أن يعده بأن يرسل برقية إلى السفير الفرنسي في القسطنطينية يسأله فيها للتدخل لدى الباب العالي لكي تعيد الدولة للشيوخ مدينة خيبر التي احتلها باشا المدينة منذ فترة طويلة من الزمن؛ وبعد ذلك حسب المشتريات التي سيقوم بها في دمشق، وأعرب عن أمله في أن يتمكن من البقاء في دمشق أربعة أسابيع[1] ـ وأنا آمل ألّا يبقى كل هذا الوقت. كما أنَّه استعار ذلولي للرحلة ولم يكف عن الإلحاح حتى وافقت على إعطائه بندقيتي المزدوجة التي كنت قد سلمتها لمحمود للحماية والزينة. ومن أجل زيادة تسلحه كان يريد أيضاً أخذ مسدس محمود. لكنَّه هنا لقي معارضة شديدة وباءت جميع جهوده بالفشل. واعتباراً من الآن كرهه محمود كرهاً لا حدود له وصار يتحاشاه في كل مناسبة. وفي اللحظة الأخيرة جاءت أيضاً النساء مع بعض الطلبات. فطلبت فهيدة، إحدى زوجات عبد الله، سواراً فضياً وخواتم وما شابه. لكن حموداً طلب منها بكل صفاقة، ولكن بطريقة مازحة، أن تدفع له الثمن مسبقاً. وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلتها ومحاولات الاستدانة من النساء الأخريات لم تستطع جمع المبلغ اللازم ممَّا أزعج حموداً وجعله لم يهدأ إلى أن تبرعت أنا بمجيدي واحد (3,5 مارك) لسدّ النقص. وفي الساعة السابعة انطلقوا أخيراً مع تمنياتنا لهم بالتوفيق.

الآن جلست هنا وحيداً مع الخادم محمود وشعرت كأنَّني أسير. فما

---

(1) كانت الغيمة الوحيدة التي ستعكر صفو حياته في دمشق البراغيث الكثيرة الموجودة هناك. فأعطيته كمية من البودرة المضادة للحشرات والتي سيتعجب من مفعولها.

الذي يمكن أن أفعله وكيف سأمضي هذا الوقت الطويل في كاف بشكل مفيد؟ كانت خطتي أن أتعرَّف على العادات البدوية التي كانت لم تزل غريبة بالنسبة لي وعلى اللهجة العامية البدوية التي لم أكن أفهمها. إلى جانب ذلك أردت التمرن على القساوة الجسدية وعلى السير حافياً حساباً لأسوأ الاحتمالات. بسبب إقامتي الإجبارية في كاف شعرت بعد فترة من الزمن وكأنَّني من سكَّان القرية وأتيحت لي الفرصة للاطلاع على أسلوب الحياة في قرية بدوية متواضعة. فبعد ذهاب جميع الناس الغرباء ظهرت النساء والأطفال أكثر من ذي قبل وأتيح لي المجال لمراقبة الأشغال المنزلية أيضاً عن كثب.

في البدء تمتعت جداً بالهدوء الذي حلَّ بعد صخب الأيَّام الماضية وحاولت أن أجعل من القهوة مكاناً مريحاً قدر الإمكان: صنعت من غطاء أحد الوسائد ومن رحلين (شدادين) للإبل نوعاً من الطاولة بحيث صرت أستطيع الكتابة والرسم بشكل أسهل ممَّا على ركبتي؛ ومن أجل التخلص من الذباب صنعت مروحة من سعف النخيل.

زارني اليوم رجل من الجوف اسمه خلف[1] وروى لي تفاصيل مهمة ـ لم أفهمها للأسف آنذاك جميعها لا لغوياً ولا موضوعياً ـ عن إخضاع مدينته لسلطة أمير حائل (حايل) الشمري. إذ إنَّ واحة الجوف كانت بعد حملة إبراهيم باشا في سنة 1817م قد تمتعت بنوع من الاستقلالية لكنَّها لم تتمكن، نتيجة صراعات داخلية، من المحافظة عليها زمناً طويلاً بل أصبحت شيئاً فشيئاً خاضعة لنفوذ بدو الرولة. إذ إنَّ طلال، أمير حائل (حايل)، استغل الخلافات بين العائلات والقبائل، وبعد أن عامل الناس برفق في البداية أرسل في سنة 1855م (حسب مصادر أخرى 1853م) عمّه عُبِيْد[2]، المُسمَّى «الذيب»، مع مدافع[3] إلى هناك وهدم الأسوار والبيوت وقطع رؤوس 85 رجلاً وقطع أشجار النخيل العائدة للمعارضين، وحتى لمن يشتبه بهم فقط، وحقَّق بهذه

---

(1) انظر الصفحة 77.

(2) أبو حمود العبيد الوارد ذكره كثيراً أدناه عند حائل (حايل).

(3) من المدافع التي خلفها إبراهيم باشا عند انسحابه من نجد.

الطريقة حالة من الهدوء والنظام. ومنذ ذلك الحين أصبحت الجوف تابعة لمنطقة شمر. وكان بين الذين نجوا من حمام الدم خلف المذكور أعلاه. وكان بعد ذلك قد نقل مع 65 رجلاً آخر من وجهاء المدينة الباقين على قيد الحياة إلى حائل (حايل) حيث ظلّوا ستّ سنوات مقيدين بالسلاسل ثم أطلق سراحهم فيما بعد. وكان خلف مدهوشاً جداً عندما تبيَّن له أنَّني كنت على علم بالواقعة الأخيرة (من ف. غ. بالغرافة)[1] وكان شغوفاً جداً لمعرفة ما أعرفه عنها ومن أين لي هذه المعلومات. واعتباراً من الآن كان الرجل يأتي إلى عندي كل يوم لتسليتي والتحدّث معي.

بدأ الشيخ عبد الله يظهر شيئاً فشيئاً طبعه الحقيقي المتمثل ببخله المخجل. وبما أنَّه قد أصبح واضحاً الآن أنَّني سأبقى في بيته ثلاثة أو أربعة أسابيع فقد رأى، كما يبدو، أنَّه لم يعد من الضروري أن يراعيني كضيف وحرَّر لذلك نفسه من جميع المصاريف. ولكي يتحاشى سلفاً أي خيبة أمل أو أي شكوى صامتة أبلغني شاكياً متباكياً أنَّه لم يعد لديه، للأسف، طحين ولا أرز في البيت. لكنَّني أنا وقيته من التورط في مزيد من الكذب وقلت له: لا بأس عليه في ذلك وإنَّني راض تماماً عن استضافتي في منزله. وفي الحقيقة كانت العلاقة الجديدة التي وضعني فيها مناسبة تماماً بالنسبة لي، لأنَّه كان لديَّ مؤونة كافية من الطحين والأرز والقهوة. وبعدما أصبح لم يعد يرى من الضروري أن يقدم لي حتى ولا فنجاناً من القهوة طيلة النهار صرت أشعر بأنَّه يأويني رفع عتب لا أكثر، ولذلك أعطيت أمراً للخادم محمود بأن يفصل نهائياً أكلنا عن أكله وطبخنا عن طبخه.

تتألف وجبات الطعام اليومية الاعتيادية بالنسبة لطريقة الحياة المستقرة[2] ممّا يلي: عند طلوع الفجر يشربون القهوة. في حوالي الساعة التاسعة يتناولون طعام الغداء المؤلف عادة من التمر مع الزبدة أو الأرز المشبع بالسمن بينما

---

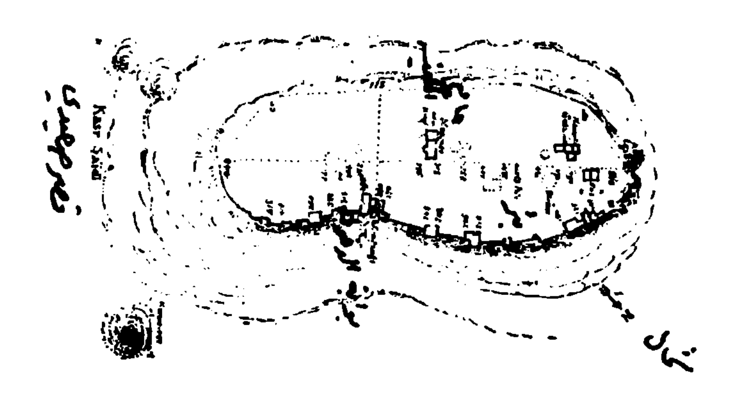
(1) رحلة إلى شبه الجزيرة العربية (لايبزيغ 1867م) الجزء الأوَّل، ص84.

(2) في حال المسير لا يوجد سوى وجبة طعام واحدة قبل حوالي ساعة واحدة من طلوع الشمس. أما تناول القهوة في الصباح الباكر أو تناول وجبة فطور نظامية فيُعدُّ من الكماليات.

توضع في أسفل الصينية الخشبية أو النحاسية أرغفة الخبز. وبعد غروب الشمس مباشرة تأتي الوجبة الرئيسية، وجبة العشاء: أوَّلاً قهوة، وبعد ذلك الأرز مرة أخرى أو البرغل، وفي بعض الحالات يُضاف إلى ذلك اللحم وإن أمكن بعض الخضار (بامياء، باذنجان، خيار). في ساعات اللَّيل الأولى تقدم القهوة مرة أخرى. وإذا ما جاء ضيف في مجرى النهار بعد الغداء لا تقدم له وجبة كاملة وإنَّما فقط قهوة وبعض التمر، وعليه انتظار الوجبة الحقيقية حتى حلول اللَّيل. جلست اليوم بعد طعام العشاء في الباحة المظلمة لكي أتمكن من الإصغاء لحديث الضيوف وأنا أدخن النرجيلة. قام زنجي بتحضير القهوة وتقديمها للضيوف؛ وكنت أنا آخر من قدم له القهوة. مع إبداء الملاحظة بأنَّني لست معتاداً على أن تقدم لي القهوة كآخر واحد نهضت مسرعاً وعدت إلى «القهوة» (غرفة الضيوف). عندئذٍ حدثت ضجة كبيرة في الجمع استيقظ على أثرها الشيخ الذي كان نائماً مقابلي على الجهة الأخرى وتبعني مسرعاً ومعتذراً بإلحاح عن الإساءة التي لحقت بي؛ وقال: إنَّ العبد رجل خشن جداً لا يعرف أنَّني أنبل البكاوات بين المسيحيين جميعاً؛ وأنَّه هو كان نائماً ولم تكن له دراية بما جرى، وعليّ أن أكون واثقاً من أنَّ مثل هذا الأمر لن يتكرَّر أبداً. وبناءً على طلبه ورجائه عدت إلى مكاني في الخارج وقبلت من يده فنجاناً من القهوة التي قام بتحضيرها بنفسه. كان عليّ أن أتصرف هكذا لأنَّ هؤلاء الناس يتمادون في تصرفهم إذا لم يوضع لهم حدّ ولأنَّهم لا يستطيعون تقييم الآخرين إلَّا حسب المكانة الظاهرية التي يعطيها المرء لنفسه.

الأحد 16 سبتمبر/أيلول 1883م. على الجهة الشمالية الغربية للقرية يرتفع إلى علو يصل إلى 300 قدم تقريباً جبل «قصر صعيدي» المذكور أعلاه والذي كان محصناً في يوم من الأيَّام. وهو يتألف في ثلثه الأسفل من ركام بركاني رملي هش قاتم اللون؛ ومن التكوين نفسه يتشكَّل أيضاً بشكل منتظم مخروط مدبَّب يبرز على النهاية الشرقية للقاعدة الركامية ويُسمَّىٰ «قويرة الزعل». ومن القاعدة الركامية نفسها يرتفع ظهر الجبل البيضوي الشكل ممتداً من الاتجاه الجنوبي الجنوبي ـ الشرقي في الاتجاه الشمالي الشمالي ـ الغربي؛ وتتألف نواته من حجر رملي أبيض تتخلَّله عروق جبسية بلورية متعدِّدة وتتوَّج كل هذا طبقة من الحجارة تبلغ

سماكتها 10 ـ 15 قدماً بدت لي مثل طبقة من الحجر الرسوبي الرملي الرمادي. أمَّا السطح الأعلى للجبل فمحاط بالجدران والأبراج. وبما أنَّ المرء يطلُّ من القمَّة على مسافة بعيدة من المساحات الواسعة فقد طلبت من الشيخ أن يرافقني إلى الأعلى ويشرح لي المشهد. خلف القرية مباشرة مررنا بالمقبرة الخالية من كل زينة أو زخرفة. أراني الشيخ قبور عائلته وطلب منِّي الانتظار بضع لحظات فقط كي يؤدِّي ركعتين على أرواحهم. في هذه الأثناء رحت أراقب القبور؛ كانت عليها أحجار سوداء ارتفاعها 1 ـ 2 قدم، وهي جميعها غير منحوتة ولا تحمل أي كتابات ـ فلا أحد هنا يعرف القراءة والكتابة. كانت على بعض القبور أغصان من جذوع النخيل وشاهدت على قبر إحدى النساء بقايا قميص أزرق وجديلة من الشعر يبدو أنَّهما نجما عن هجوم للضباع. استغليت صعود الجبل للتدرب لأوَّل مرة على السير حافياً؛ ولقد سارت الأمور بشكل جيد لأنَّني كنت في النهار أستطيع اختيار الطريق؛ وبما أنَّه لم يكن من الممكن تفادي دخول الرمل والحجارة الصغيرة إلى الحذاء فإنَّني أستطيع القول إنَّ السير حافياً كان أكثر راحة بالنسبة لي لأنَّ التباينات في سطح الأرض لم تعد تضغط على المواقع نفسها من القدم. خلال 25 دقيقة وصلنا إلى القمَّة؛ عبر باب لم يزل سليماً صعدنا إلى أعلى فوق درجات حجرية عالية ومررنا بجانب غرف قديمة للحراس على اليمين واليسار ووصلنا أخيراً إلى السطح السهلي للقمَّة. على الجهة الجنوبية الغربية كان الجدار غالباً غير موجود كلياً بينما كان على الجهة الشمالية والشمالية الغربية باقياً بشكل سليم ومقوَّى أيضاً بواسطة أبراج مربعة الشكل بارزة إلى الأمام.



كانت بقايا البيوت بلا أهمية. وكان أكبرها في النصف الشمالي الغربي مع العدد من الغرف الصغيرة المظلمة وإلى جانبها بركة قليلة العمق، وبعدها باتجاه جنوب شرق بئر مردوم. في وسط كل هذا كان هناك ما يُسمَّىٰ الجامع مع «محراب» نصف دائري؛ وبما أنَّ المحراب لم يكن متجهاً بشكل دقيق باتجاه القبلة (أي باتجاه مكَّة) فمن الممكن أن تكون قد كانت هنا في الأصل كنيسة مسيحية. من الطبيعي أنَّ الشيخ لم يكن يعرف أي شيء عن تاريخ القلعة ولا عن مصيرها؛ ولم يكن هناك أي آثار أو بقايا من العصر القديم: في البئر رأيت حجراً نقش عليه هلال وشمس، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك سوى بعض العلامات وهي، كما يبدو، من زمن حديث؛ كان هناك في أحد البيوت العلامة ⁂ والعلامة ⅄ وغيرهما من أشكال الوسم عند القبائل البدوية وكان بعضها مرسوماً باللون الأحمر. ويزعم ف. بلونت أنَّ إبراهيم باشا قد دمَّر القلعة سنة 1834م (خلال الحملة العسكرية المصرية على شبه الجزيرة العربية).

كانت الرؤية من الأعلى تمتد إلى مسافة بعيدة وكان رسم الإطلالة الدائرية يستحق الجهد فعلاً[1]. على أعلى ثلاثة جبال واقعة إلى الشمال الشرقي من هنا وهي: جبل مَقِّل، وجبل شميسانة، وجبل إبْغيِّث (يُسمَّىٰ أيضاً جبل شامة)، يسقط بعض الثلج في بعض الأحيان[2]. ولقد حدثوني أيضاً عن طير[3] لا يعيش إلّا على هذه الجبال العالية وفي فصول الشتاء الباردة جداً ولكن فقط في أحيان نادرة. ينطبق تقريباً هذا الوصف غير الدقيق على نوع من الرهاء أو على طير مشابه. في الجنوب الغربي كان السهل الملحي (النبك وعقيلة) الذي تتخلّله بعض الطرق يضيع في خطّ أُفقي عليه آثار أقدام، ومن جهة الجنوب كان ينتهي بشكل متعرج بجبال أم الفناجيل[4] ذات اللون الأزرق الفاتح. وعلى مسافة ساعتين أو ساعتين ونصف اكتشفت نقطة سوداء متحركة؛

(1) بناءً على هذه الرؤية رسمت الخريطة ص66.

(2) «كمثل خيمة».

(3) كانوا يسمونه «إنعجة الطرفة».

(4) تلفظ أيضاً «فناجير».

فقال لي عبد الله: إنَّ هذا عبد تابع له يقوم عند «قليب الملح» يصبُّ الماء من البئر على الأرض الملحية لكي يغسل التربة. أمضيت فترة ما قبل الظهر بكاملها بتكرار أسماء الجبال والمواقع التي كان الشيخ يذكرها أمامي ثم تسجيلها. مع ذلك بقيت أشك في صحة فهمي لتلك الأسماء لأنَّ أذني كانت آنذاك لم تزل غير قادرة على التمييز بصورة أكيدة بين الأصوات المتقاربة.

في المساء تابعت التدرب على المشي حافياً وعلَّقت حذائي بعد ربطه بخيط على كتفي. خلف القرية كانت هناك بعض الخيام الفقيرة لرعاة الغنم والماعز وإلى جانبها كان يستلقي عدد من البدو. ولما شاهدوني نهض أحدهم ثم توجَّه نحوي وطلب منِّي أن أكتب له حجاباً. وبما أنَّني لم أكن أعرف كيف أتصرف تجاه هذا الطلب المفاجىء قلت له: عليه أن يأتي إليّ غداً في الصباح الباكر وسأرى ما الذي يمكن أن أفعله. ثم جاء بدوي آخر وسألني: «لماذا تسير حافياً؟»؛ وأضاف: «لقد رأيتك هذا الصباح تسير حافياً. فأنت بلا شك رجل وجيه وغني ولديك بالتأكيد حذاء». نعم! ولكن إلى متى؟ حتى تسرقوه منِّي؛ تحسباً لهذه الحالة أريد التدرب على الجري حافياً وراء اللص وأنتزع الحذاء من مخالبه. «انظر! إنَّه متواضع، إنَّه يعرفنا!».

كان طعام العشاء يتألف اليوم من البيض والتمر مع السمن. وبعد ذلك جاء لتناول القهوة كثير من الزوَّار ولم يكن بينهم زائر واحد إلَّا وطلب منِّي تبغاً ومسدساً. لكنَّني لم أعط أيّاً منهم أي شيء. وبعد ذلك هبَّت عاصفة قوية من الجهة الجنوبية الشرقية وجلبت معها موجة كثيفة من الغبار ممَّا جعل الجماعة اللَّيلية تغادر السهرة خائبة الأمل.

الاثنين 17 سبتمبر/أيلول 1883م. في الصباح الباكر أخذت معي إلى قصر الصعيدي ابن الشيخ البالغ من العمر ستة عشر عاماً واسمه سالم وطلبت منه أن يُكرِّر لي مرَّة أخرى أسماء جميع النقاط التي يعرفها في المنطقة. عندما عدت من الجبل كان بدوي الأمس، غيران، ينتظرني في الطريق وطلب منِّي الحجاب. لم تكن لديَّ رغبة في الحقيقة لجرِّي إلى مثل هذه السخافات وحاولت التملص منه بأي طريقة. ولكن دون جدوى. فقد قال: إنَّني لا

أستجيب إلى طلبه لأنَّه رجل فقير لا يستطيع إعطائي كثيراً من النقود لقاء ذلك. فأجبته إنَّ النقود هي آخر ما يمكن أن يجعلني ألبي له طلبه، وعلى أيِّ حال عليه أن يشرح لي مشكلته بصورة أكثر تفصيلاً. فقال لي: إنَّه صياد غزلان لكنَّه منذ زمن طويل لم يصطد أي شيء، وإنَّه قد تعرَّض أيضاً في كثير من الأحيان إلى مغامرات خطيرة وأنَّ أقصى ما يتمنَّاه أن يصبح منيعاً على الرصاص. كان واضحاً لي أنَّ أي خطأ سيعرضني للضرب وخاصة عندما يكتشف عدم مفعول حجابي، ولذلك نبَّهته إلى عدد من الشروط الأخلاقية والشروط الأخرى غير القابلة للتحكم والتي بدونها لا يكون الحجاب غير شافٍ وحسب بل يجلب المصائب لحامله. وبعد أن أكَّد لي أنَّه يتمتع بجميع الصفات المطلوبة وأنَّه في حال تعرّضه لمشكلة أو مصيبة لن يعتبرني مسؤولاً بأيِّ حال، ألحَّ بصورة متزايدة على أن أكتب له هذه «الكتيبة» المفعمة بالأسرار. وهكذا كتبت له على قصاصة من الورق باللغة الألمانية الأمنية التالية:

اللَّه

(أيُّها الفقير! بارك الله لك في عقيدتك، وإذا ما كنت رجلاً صادقاً فإنَّني أتمنى لك أن تخرج الرصاصات من فروتك كما دخلت إليها.

كاف في 16/ 9/ 1883م
ي. أويتنغن
اللَّه)

ولكن قبل أن أسلمه هذا الكنز (الحجاب) طلبت منه أن يعدني بأنَّه عندما سيصطاد أي شيء سيقدمه لي لأقليه مقابل هدية جيدة. بشيء من الاحتفالية طويت الورقة على شكل شريط قليل العرض ثم حوَّلتها إلى شكل مسطح خماسي الأضلاع. وعند سؤاله عن كيفية حمله للحجاب أعطيته تعليمات محدَّدة بأن يضعه مع المحافظة على شكله الخماسي، ضمن قطعة نظيفة من جلد الغزال ثم يثبته بواسطة خيط من الجلد على عقال الرأس وبالتحديد على الجهة اليمنى من الرأس. انتهى! وما إن استلم البدوي

الحجاب حتى نهض واقفاً، أدَّى التحية وانصرف حسب عادة آبائه دون أن ينطق بأيِّ كلمة شكر.

كان مضيفي الشيخ عبد الله الخميس يجلس صامتاً خلال هذا الحديث بكامله ولكنَّه كان يراقب ما يجري. وبالطبع تحرَّكت لديه مشاعر الحسد والغيرة. فما أن انصرف البدوي حتى عبَّر عن رغبته في الحصول على حجاب أيضاً هو وابنه الأصغر. فما الذي كان في وسعي فعله؟ من أجل منع أي طلبات أخرى من هذا النوع في المستقبل كتبت للشيخ على ورقة بعض العبارات المسيئة وسلَّمته إيَّاها بكل احترام. أمَّا بالنسبة لابنه البالغ من العمر ثلاث سنوات، المُسمَّى خميس، والمتسخ إلى أبعد الحدود فقد كنت أكثر لطفاً وكرَّمته بحجاب ـ خماسي الأضلاع أيضاً ـ بالنصّ التالي:

«أيُّها الصبي القذر! اغتسل، وهكذا ستصبح شاباً لستَ سيِّئاً على الإطلاق. وإن شاء الله ستتعلَّم في يوم من الأيَّام أُصول كرم الضيافة خيراً من أبيك. وحتى ذاك الحين أتمنى لك كل الخير مع وافر المودة.

كاف في 16/ 9/ 1883م

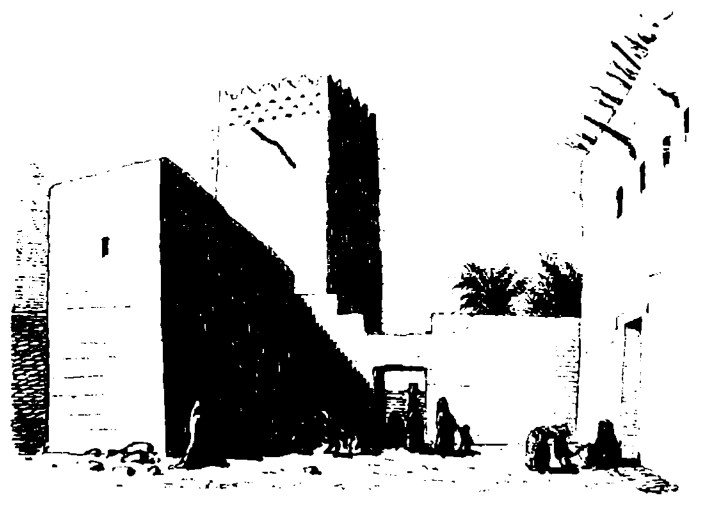
ي. أويتنغن

عبد الوهاب

الله»

من أجل طعام الغداء طلبت أرزاً مع الذرة والدراق المجفَّف (قمر الدِّين) ثم خلدت بعد ذلك للنوم في القهوة المظلمة. في حالة اليقظة كنت قد اعتدت على تحمُّل 20 ـ 30 ذبابة على وجهي ويديّ وقدميَّ دون أن أطردها. لكنَّني اليوم غطيت جسمي بالكامل بناموسية بيضاء مربعة الشكل طولها متران وأملت في أنَّني بذلك سأكون في منأى عن مضايقات هذه المخلوقات المزعجة. كان عبد الله شاهداً على هذا العزل الكامل عن جميع الكائنات الحية ولم يكن لديه ما يفعله سوى القيام بأقصى سرعة بدعوة الرجال والنساء والأطفال ليشاهدوا من الباب المفتوح هذا التصرف العجيب. وهكذا تجمَّع الناس مدهوشين كالأطفال، عندما يرون أميرة الثلج نائمة في التابوت الزجاجي. كان مجرَّد المنظر يكفي لإثارة الدهشة. لكن الفضوليين من

الجمهرة كانوا يقتربون منِّي أكثر وأكثر؛ ذلك أنَّ الأعجوبة يجب أن تفحص بالأيدي وأن ترفع إلى الأعلى. وعند رفعها أتيحت الفرصة لدخول بعض الذبابات لكي تنتقم منِّي شرَّ انتقام. تحت هذه الظروف كان من الأفضل أن أنهض من تحت هذا الغطاء الشفاف وأسمح لهم بتلمسه وفحصه بلا حدود. جلست في العراء لكي أدخن نرجيلتي وكان عليَّ أن أجيب على جميع الأسئلة التي طرحتها النساء وما أكثرها. وبذلك تعرَّفت على سكَّان كاف من النساء وخاصة على عائلة الشيخ.



فناء منزل الشيخ عبدالله في كاف

تتألف ملابس النساء من قميص قطني أزرق غامق («ثوب») له أكمام طويلة وذيل طويل أو أقل طولاً؛ فوق الرأس تعلق من القماش نفسه قطعة صغيرة تُسمّىٰ «بوشيَّة» يغطَّى بها الوجه عند اقتراب رجال غرباء. ومن الحلي يعلقن في الجناح الأيمن من الأنف زراً ما أسود اللون أو فيروزياً، أو زهرة مؤلفة من عدَّة أحجار؛ ومن الخواتم كثير قدر الإمكان، وإن لم تكن من الفضة فمن الرصاص عند الحاجة. يُضاف إلى الخواتم أساور من الزجاج أو المعدن، والبنات الصغيرات يرتدين خلاخل(*) في أرجلهن. لم تخجل النساء

(*) **فقه اللغة وسرّ العربية** للثعالبي: ص250، طبعة 1392هـ، 1962م. (المراجع).

منّي أبداً بل بالعكس أصبحن أنيسات تماماً شيئاً فشيئاً. ففي كثير من الأحيان كنت أذهب إلى الباحة الداخلية وأراقب الأعمال المنزلية التي يقمن بها: طحن الحبوب، وإعداد الخبز، والطبخ، والخياطة، وما شابه. هناك كانت تجلس عادة ثلاث زوجات لعبد الله: فهيدة، ومقبولة، وفضّة، وكان لكل منهن حجرة خاصة قابلة للقفل. أما الزوجة الرابعة، حاكمة، فكانت لم تزل شابة وجميلة وفوق ذلك مورّدة الخدين، وكان الشيخ يتركها غالباً مخبأة في بيت خاص. ولم أشاهدها سوى مرة واحدة؛ وكانت تأمل في أنّها بجمالها ستؤثر عليَّ وتشحذ منّي خاتماً ذهبياً. لكنّني صددتها على الفور ولم أستجب لطلبها. وأمّا الأخريات فقد كنت أقدم لهن بين حين وآخر بعض الهدايا الصغيرة التي تبعث السرور في قلب المرأة. ثم هناك أيضاً أخت الشيخ القبيحة، طريفة، تنّين البيت غير المحبوبة من أحد وذات الصوت الذي يشبه الزعيق؛ كانت متزوجة من رجل بدوي لكنّه اختفى منذ ست سنوات ولم يعد يراه أحد. أمّا ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاماً فكان شاباً وسيماً قوي البنية. كانت فهيدة أُمّاً للطفل المدلّل خميس البالغ من العمر ثلاث سنوات ولأخيه الأكبر سالم. وعند سؤالها عن عمر هذا الأخير قالت: إنّه ولد في سنة الجوع. بذلنا بعض الجهد لكي نحسب هذا التاريخ وفي النهاية تبيَّن أنّه قد ولد قبل اثني عشر عاماً. في تلك السنة لم تثمر أشجار النخيل واضطر البدو إلى ذبح إبلهم، وكانوا يدفعون مجيدياً (3,5 مارك) ثمن «صاع» التمر. عند عدّ أولادهم لا يعدّون البنات. فالأهل الذين لهم عشر بنات يجيبون عند سؤالهم عمّا لديهم من أولاد بكل حسرة وألم: للأسف لا شيء. أمّا الصبيان فيجلسون مع الكبار منذ طفولتهم. لكن الصبي لا يحقّ له الكلام إلّا عند الإجابة على سؤال. وليس من السهل توجيه الكلام إلى الأطفال. فمن الأفضل تحاشي مجرَّد النظر إليهم ناهيك عن التعبير عن الإعجاب. وإلّا فمن الممكن بسهولة الاشتباه في أنَّ المرء يصيب الطفل بالعين ويلحق به الضرر. وعلى أيِّ حال ما الذي يمكن أن يقوله المرء للأطفال؟ فإذا ما سألتهم عن أعمارهم، كما هو مألوف في أوروبا، فإنَّ هذا السؤال سيكون غير مفهوم للصغار كما هو غير مفهوم للكبار أيضاً. كلاهما لم يهتم بذلك أبداً. حتى الكبار لا يستطيعون تحديد أعمارهم

إلَّا بخطأ لا يقل عن أربع أو خمس سنوات. يستطيع المرء التعرُّف على مراتب الأشخاص الذي يعيشون في بيت واحد، على أفضل وجه، عند إقامة موائد احتفالية، أي عند الذبح: في البدء يأكل الذكور، إمَّا كمجموعة واحدة أو كمجموعتين متدرجتين تتألف الأولى من الضيوف والرجال البالغين، وعندما يشبعون يترك ما بقي للصبيان الذين يأكلون «الأخضر واليابس» ويعيدون الصينية الفارغة إلى قسم النساء. أما النساء فيحتفظن من الذبيحة، كحق لهن، بالمقادم (الكراعين) والكرشة والأحشاء (ولكن دون الكبد). وفي نهاية المطاف لا يصل إلى «الممتلكات»، أي العبيد والحيوانات المنزلية، إلَّا الجلد والعظام.

كنت أتمتع كثيراً بالجلوس مع زنجية اسمها فلوة كانت تجلس أيضاً في العادة في باحة الدار بينما كان زوجها يعمل خلال النهار في منجم الملح. في أحد الأيَّام طلبت منِّي أن أرسمها وأعربت بمنتهى الأدب، مع النساء الأخريات. عن سرورها عندما سلَّمتها الصورة. ولكن بعد بضع دقائق، لما عدت من القهوة إلى باحة الدار، رأيت فلوة غارقة في البكاء والشكوى. ما الذي حدث؟ كان محمود الخبيث قد قال لها: الآن بعد أن رسمت لها صورة أصبحت بلا حماية تحت سيطرتي. في أي وقت، عندما يخطر على بالي، أستطيع جلبها في الهواء إلى بلاد المسيحيين. وقام أمامها بحركة متميِّزة لكي يعبِّر لها عن الطريقة التي ستنتقل بها عبر الهواء وكيف أنَّها ستنقلب بصورة متواصلة ـ والله وحده يعرف ما الذي ينتظرها هناك ـ. وعلى الرغم من محاولاتي المتكررة لتهدئتها اعترفت بأنَّه لن يغمض لها جفن طيلة اللَّيل من شدَّة الخوف. ولكي أوضح لها أنَّ الرسم أمر عادي لا يحتوي على أي شرّ أو أذى أحضرت عدداً من الصور الأخرى لأشخاص وحيوانات. عندئذٍ لاحظت التأثير المتبدِّل الغريب الذي تحدثه صور الأشخاص على هؤلاء الناس العائشين على الفطرة. في البداية كانوا يمسكون الصور في يدهم دون أن يعرفوا ما هي. وفجأة تفتحت عيونهم، فتغيَّرت تقاطيع وجوههم وتركوا الصور تسقط من يدهم وهم يصرخون؛ كما لو أنَّهم يقفون أمام مخلوق مخيف. واحتاج الأمر إلى كثير من الاقتناع بأنَّ عليهم أن يمسكوا الصور بلا خوف أو حرج ويتأملوها عن كثب. عندئذٍ انقلبت القشعريرة مباشرة، بعد معرفة مضمون

الصورة، إلى ضحك صاخب وكان الاندهاش لا نهاية له: «يا عبد الله، اركب اركب، شوف». بعد ذلك كان يتعيَّن عليَّ أن أجلب الصور مراراً وتكراراً كل يوم عندما يأتي زوَّار جدد: «المرأة مع الطفلين والبنات». كان يدور حوار لا نهاية له حول اللباس الغريب، وحول تسريحات الشعر والأحذية والقفازات، وفي كثير من الأحيان كان يتعيَّن عليَّ جلب القمصان المخاطة في أوروبا. كانوا يندهشون من الخياطة الناعمة المنتظمة ومن الخيط الدقيق ويشيدون بما يشاهدونه بمنتهى الإعجاب. وعندما أردت التحدث معهم عن آلة الخياطة لاحظت أنَّهم لا يصدقون ما أقول، لا بل وكأنَّني أسخر منهم. فهم لا يعرفون الخياطة إلَّا بالإبرة الغليظة والخيط الغليظ. ومن أجل تثبيت قطعة القماش لا يوجد لديهم وسادة للخياطة ولا دبابيس بل يضعونها بين إصبع الرجل الكبيرة والإصبع الثانية ويشدونها بهذه الطريقة. ومن أجل أعمال الخياطة الخشنة يصنعون هم نفسهم خيطاً صوفياً أسود ولكنَّه متين إلى حدٍّ ما؛ ولقد شاهدت عند الخيام المنصوبة خلف القرية مراراً وتكراراً استعماله لنسج قماش الخيم وقماش العباءات.

جاءت لزيارة الشيخ فتاة جميلة عمرها 17 سنة اسمها لهود وهي قريبة له من إثرة. وأعربت دون خجل أو حرج عن رغبتها في أن أتزوجها. كما أنَّ النساء الأخريات كن يلاحقنني بإلحاح كي أتزوجهن. فكيف كان عليَّ أن أتعامل مع هذا الموقف دون أن أقطع الصلة بهن أو أحرم من الحديث معهن؟ قلت للفتاة الجميلة: سأسافر الآن في بلاد البدو إلى هناك وهناك دون توقف أو استراحة ولن يكون في وسعي أخذ امرأة معي، وإلَّا لكنت جلبت معي امرأة من بلدي. «نساؤكم غير معتادات بالتأكيد على ركوب الإبل، أمَّا أنا فإنَّني قادرة على ركوب الناقة ليلاً نهاراً كالرجل». لكنَّه ليس لديَّ سوى جمل واحد كما تعلمين! «لا يهم، سأركب خلفك كرديفة وأتمسك بالغزال الخلفي من الشداد [الرحل][*]. وأنا لا أحتاج حتى إلى حبل لا من أجل الجلوس ولا من أجل الصعود». حسناً، ولكنَّني لا أستطيع قضاء حياتي بكاملها في بلادكم الموحشة بل إنَّني

(*) ينظر **عجم الخيل والإبل** لسعد الجنيدل، طبعة دارة الملك عبد العزيز 1425هـ. (المراجع).

سأعود في يوم من الأيَّام إلى بلاد المسيحيين وأنت لا تستطيعين الذهاب معي إلى هناك. «ولِمَ لا؟ فهل سيقتلني المسيحيون لأنَّني امرأة؟ أفلا تستطيع حماية زوجتك؟ وأنت دون شك غني بما يكفي لأن توفر لي البرغل أو حفنة من الأرز وعدداً قليلاً من حبَّات التمر التي أحتاجها لحياتي اليومية، ولأن تشتري لي قميصاً عندما أحتاج». هذا سيكون أقل ما يمكنني تقديمه لك؛ ولكن أنا أعلم أنَّك عندما تأتين إلى بلدي، حيث لا تفهمين اللغة وتجدين نفسك بين أُناس كثر غرباء، ستمضين اليوم كله بالبكاء والعويل وتصرعينني بالمطالبة بالعودة إلى أُمّك وأبيك. «أنت تعتبرني غبية! لماذا لن أكون قادرة على تعلُّم لغتكم، فممَّن يتعلمها أطفالكم؟ إذا ما تزوجتني سأكون أيضاً هكذا، ومهما فكرت بأُمِّي وأبي وإخوتي فإنَّني أعدك بأنَّني لن أشكو بكلمة واحدة». وهكذا كانت تردّ بطلاقة على كل حجَّة من حججي. لكن تحفظها الوحيد على الذهاب معي هو أنَّه في بلدي لا يوجد تمر ولا جمال وأنَّ الشمس تبقى نصف السنة أو أكثر مختبئة خلف الغيوم والضباب. على هذا الشكل تقريباً كانت تفاوضني كل يوم على موضوع الزواج. لا بل إنَّ أقوالها الصريحة والساذجة كانت مسلية. وأنا أعترف بأنَّني لا أعرف فتاة بهذه الجرأة وبهذا القدر من المرونة والصراحة. ومن يعلم، لعلَّني كنت ربَّما لن أندم على زواجي منها. فبيترو ديلَّا فالَّه لم يندم.

الثلاثاء 18 سبتمبر/أيلول 1883م. كانت السَّماء صباح هذا اليوم، كما مساء البارحة، مغطَّاة بالغيوم وكانت تهبُّ رياح جنوبية شرقية ساخنة. وبينما كنت أهمُّ للقيام بزيارة منصور ذي العباءة الحمراء[1] وصل إلى الباب خمسة رجال من البدو من قبيلة حوازم[2](*) لكي يتزوَّدوا بالملح من قرية كاف. وعلى

(1) انظر ص77.

(2) فخذ من بني صخر، الشيخ: سطَّام الفائز.

(*) ذكر بيك في كتابه **تاريخ شرق الأردن وقبائلها** ص220 ويتبع الهقيش فريق يُقال لهم العوازم وهم فرع من عشيرة العوازم (العزام) من الشرارات من بني كلب كما ذكرهم الدكتور أحمد عويدي العبادي في كتابه **العشائر الأردنية** ص39، القسم الرابع من الهقيش العوازم وهم يتبعون الهقيش. (المراجع).

الفور جاء إليَّ عبد الله شاكياً من أنَّه لا يستطيع تقديم حتى ولا فنجاناً من القهوة لهم وطلب مني أن أعيره كمية من القهوة غير المطحونة. ولما جاء قبل غروب الشمس بعض الناس من قصر وشواش، الذين كانوا قبل بضعة أيَّام قد ذبحوا لي أنا شخصياً[1] استعمل زوجته فهيدة لكي تتوسط لديَّ لأعيره مرَّة أخرى بعض القهوة. عند حلول الظلام كانت الرياح الجنوبية الغربية قد تحوَّلت إلى عاصفة غربية حرَّكت الأوساخ المتراكمة في الباحة ونبشتها حتى أسفل طبقاتها. لم يكن في وسع المرء الوقوف في هذا الجو في العراء. ولذلك دعوت الجماعة بكاملها للجلوس عندي في القهوة. أودّ بهذه المناسبة أن أصف تحضير القهوة حسب الطريقة المتبعة عادة عند البدو. ليس لمشروب القهوة البدوي أي صلة بما يُسمَّى عندنا القهوة «التركية» المحضرة من البن المحروق، بل يفوقها جداً بالطعم والقوَّة الإنعاشية على حدٍّ سواء. وبينما يريد المرء في أوروبا الحصول على فنجان القهوة جاهزاً على الطاولة، ولربَّما التمتع مع شربه بتدخين سيجار أو سيجارة، فإنَّ البدو يتمتعون بمراقبة إجراءات التحضير الطويلة والمملَّة والتي تتخذ بصورة احتفالية، بينما يكاد يكون شرب الكمية القليلة جداً التي يقدمونها للضيف مسألة ثانوية تماماً. في بادىء الأمر تشعل النار بواسطة الحطب في الحفرة المخصصة لذلك في الأرض أو بواسطة الفحم في الموقد[2] الموضوع في الزاوية على ارتفاع قدم ونصف تقريباً ثمَّ تحمَّىٰ إلى درجة التوهج بواسطة منفاخ[3]. بعد ذلك تُرمى حبوب البن المنتقاة في مقلاة[4] قليلة العمق لها مقبض طوله قدمان ثم تحرّك خلال التحميس بواسطة ملعقة معلَّقة على سلسلة حديدية وبعد ذلك تصبّ على صحن التبريد[5]. بعد ذلك يطحن البنّ

---

(1) انظر ص77.

(2) أجاق أو كور، وأيضاً كير؛ مبني من الحجر ومدهون باللون الأبيض ومزيَّن بخطوط سوداء. قطر حفرة الاحتراق 2 إنش وعمقها قدم واحد تقريباً.

(3) منفاخ أو منشب، مصنوع من الجلد وله ذراعان خشبيان لتحريكه.

(4) محماسة.

(5) مبرادة.

المحمَّص في الجرن[1] بواسطة مدق حجري[2] ثمَّ تؤخذ القهوة الناعمة من الجرن بواسطة ملعقة حديدية ذات مقبض قصير[3]. في هذه الأثناء يتمّ تحضير الدلّال[4] الثلاث (وهي أوعية نحاسية مسنَّنة مع مقبض وغطاء). توضع أوَّلاً الدلَّة الأولى وهي الأكبر، وهي تحتوي على الماء الصافي أو على ماء مع رواسب القهوة القديمة، على النار وتسخن حتى الغليان. بعد ذلك يصبّ محتواها في الدلَّة الثانية المحتوية على القهوة المطحونة. ثم توضع هذه الدلَّة الثانية على النار لمدَّة عشر دقائق تقريباً وتغلى القهوة، مع الحرص على ألّا تفور من الدلَّة، حتى ينعدم تشكل الرغوة وتترسَّب الشوائب والرواسب بالكامل. في هذه الأثناء يُحْضِر صاحب البيت من القصير[5] بضع حبَّات من الهيل[6] ويضعها في الجرن لسحقها. يوضع الهيل بعد ذلك في الدلَّة الثالثة ويصبّ فوقه محتوى الدلَّة الثانية. وهذه الدلَّة الثالثة أيضاً توضع لفترة قصيرة على النار مرَّة أخرى لكنَّها بعد وقت قصير توضع جانباً كي يترسَّب بهدوء ما في القهوة من هيل لم يرسب. الآن، بعد 30 ـ 40 دقيقة بالإجمال، تصبح القهوة جاهزة[7]. هناك شخص يحمل الفناجين الصغيرة (بدون أذن وبدون

(1) جرن أو نجر. يصنع لدى البدو والرُّحل من الخشب القاسي وفي حالات نادرة من النحاس الأصفر، ولدى البدو المستقرين من الحجر. يبلغ وزن الجرن الموجود في بيت عبد الله نحو 50 كيلوغراماً وهو مصنوع من الحجر الأحمر الرمادي (من مقالع مارد في الحوف) ومزوَّد بحزام وحلقات.

(2) إيد، ميل.

(3) مغرافة.

(4) تُسمَّى الدلة (الجمع دلال) الأولى «مصفَّى» والدلَّة الثانية «مطباخة» والدلَّة الثالثة «مبهارة».

(5) القصير عبارة عن فجوة في الحائط لها باب قابل للإغلاق.

(6) يجلب الهيل (مَلَبَر) من الهند. ويُعدُّ تقديم القهوة عند البدو بدون هيل أو أي نوع من التوابل المشابهة (قرنفل، عنبر، مسك) نوعاً من البخل وإهانة للضيف.

(7) يُسمَّى حب القهوة «بنّ» ويكون «يمنياً» أو «حجازياً» عندما يستورد عن طريق البر من جنوب شبه الجزيرة العربية أو من المدينة، أو «بحرياً» عندما يستورد من الهند عن طريق الكويت. أمَّا «القهوة» فهي اسم المشروب فقط. وهي تعطى في مراحل تحضيرها المختلفة أسماء مختلفة: في الدلَّة رقم 1 (المصفَّى) تُسمَّىٰ «شربة» أو «خمير»، وتُسمَّى في الدلَّة الثانية (المطباخة) «عشرة» أو «ثنوي» وتُسمَّى القهوة الطرية الجاهزة في الدلَّة الثالثة (المبهارة) «رأس» أو «بكر».

صحفة) جميعها بيده اليمنى، 6 ـ 8 فناجين متداخلة في بعضها، ويقدِّم للضيوف حسب الوجاهة فنجاناً لكل واحد مملوءاً إلى نصفه تقريباً. في الأحوال العادية يدور على الضيوف مرتين فقط. وطالما أنَّ المرء يشرب أو يريد طلب المزيد يمسك الفنجان بيده اليمنى. وعندما يريد التوقف عن الشرب يهزُّ الفنجان قليلاً ويعيده شاكراً إلى المضيف.

الأربعاء 19 سبتمبر/أيلول 1883م. الرجل الشاب الذي يتولَّى تحضير القهوة في بيت عبد الله، وهو رجل سيىء اسمه مطيلق، عاد صباح اليوم إلى البيت بقميص عليه آثار دم وهو يرتدي بعض قطع الثياب الغريبة. وقد توقع محمود، الذي كان يصفه دوماً بأنَّه لص محترف، أنَّه قام خلال اللَّيل بمغامرة ما وقتل رجلاً فقيراً، وكان مصيباً في توقعه هذا ـ كان عبد الله قد خرج في اللَّيل مع رجال وشواش إلى الصيد. أمَّا أنا فقد أمضيت فترة ما بعد الظهر في حديقة فاضي، صاحب الربابة، وتوجب عليَّ هناك الحديث عن الحرب والمدافع والبنادق وما شابه.

الخميس 20 سبتمبر/أيلول 1883م. جلب عبد الله معه من الصيد ستة حجلان وكرَّمني باثنين منها لكي أطبخهما مع الأرز. علاوة على ذلك سنحت لي الفرصة لأن أشتري بيضاً، كل خمس بيضات بقرش واحد (16 فنيك)؛ يدفع المرء ثمن الدجاجة 3 ـ 6 قروش (50 فنيك ـ 1 مارك). وتجدر الإشارة إلى أنَّ تلك البيضات كانت البيضات الأخيرة التي شاهدتها خلال الرحلة بكاملها. كان الهواء هذا اليوم قوياً ومليئاً بالغبار وكانت السَّماء داكنة اللون وبدت الجبال وكأنَّها مغطَّاة بوشاح. ولكي أتخلَّص من البعوض ذهبت في المساء حافياً إلى سهل الملح (السبخة). وكانت الأرض المشبعة بالملح والمغطَّاة بطبقة تشبه الغشاء الثلجي الرقيق تتكسَّر تحت أقدامي عند كل خطوة. وبمنتهى المتعة تمدَّدت على الأرض القاسية ونظرت إلى الغيوم وتركت أطرافي تتبرد بفعل الريح القوية القادمة من جهة الشمال الغربي. في المساء تجمَّع حولي الربابة أمام نار القهوة جمع مرح من الناس. وبمنتهى الغباء انسقت وراء إلحاح الضيوف وشربت كمية كبيرة من القهوة ممَّا جعلني لا أستطيع النوم. فجاملني محمود بأن حدثني ساعتين عن الحجّ. وكان محمود، بصفته كاتباً

عند محمَّد سعيد باشا[1]، قد حجَّ سبع مرَّات، كما كان قد خدم عند سلفه أحمد باشا بوظو خلال فترة ولايته التي دامت أربع سنوات وكذلك عند سلف هذا الأخير محمود باشا عجليقين، الذي بقي في منصبه سبع سنوات. وقد سجل بالتفصيل معلومات كاملة عن الحجّ ونظامه («ترتيب» الحج) وعن المحطات التسع والأربعين بين دمشق ومكّة. في صباح اليوم التالي كتبت ما لديه من معلومات وعلى الأخص الملاحظات الطبوغرافية عن مسار الطريق. وقد أقوم يوماً ما بنشر هذه المعلومات، التي لا تهم إلَّا المختصين.

الجمعة 21 سبتمبر/أيلول 1883م. جاء اليوم غيران، الصياد الذي لا يؤثر فيه الرصاص، وبعد أن اعترف بأنَّه لم يصطد أي حيوان منذ سنتين، ومعه غزال وأرنب. وانطلاقاً من قناعته الراسخة بأنَّ الفضل في هذا الحظ السعيد يعود إلى التميمة التي كتبتها له فقد قدَّم لي ما لديه من صيد بكل سرور وحصل منِّي لقاء ذلك على هدية بمبلغ 15 قرشاً (1,5 مارك).

في المساء أخرجت من حقيبتي «بومرانغ» (قطعة خشبية مصممة بحيث أنَّك عندما تقذفها تعود إليك) وقذفته في الخارج في الهواء فرسم قوساً جميلاً وعاد إليَّ. من الطبيعي أنَّ هذه اللعبة أثارت لدى الحضور تعجباً لا حدود له وكانت غالبيتهم تميل إلى اعتبار ذلك نوعاً من السحر وخاصة عندما أعطيته لمن يريدون تجريبه بأن جعلتهم يمسكونه من النهاية الأطول أي النهاية الخطأ: صحيح أنَّ القطعة الخشبية طارت في الهواء لكنَّها لم تعد إلى قاذفها بسبب قذفها بطريقة خاطئة. تدفق جميع سكَّان القرية لكي يشاهدوا هذه المعجزة الجديدة. وعند وصول بعض النساء إلى البوابة قذفت البومرانغ للمزاح نحوهن وهن على بعد مائتي خطوة؛ فصرخن بصوت عالٍ وارتمين على الأرض، ولما تجرأن على النظر إلى الأعلى صعد البومرانغ عمودياً فوقهن ثم عاد وهو يرسم حركات متلوية هادئة إلى نقطة انطلاقه. «ما شاء الله! ما شاء الله!». وشاءت

(1) ظلَّ 18 سنة مسؤولاً، بصفته أمير الحجّ، عن مرافقة قافلة الحجيج القادمة من سوريا وعن حماية الجنود المرافقين لها وما تحمله من مؤن وأموال.

الصدفة الغريبة والنادرة أنَّ البومرانغ أصاب عند عودته خمس مرَّات الرجل نفسه، وهو وحده بالذات، وكانت الإصابة الأخيرة قوية إلى درجة أنَّه أحدث ثقباً في معطفه وقميصه المهترئين. فزعم أنَّني قد وجَّهت إليه عن قصد هذه القطعة الخشبية الشيطانية، لكنَّه ما لبث أن هدأ أملاً في تعويض مناسب عمَّا لحق به من ضرر؛ إلَّا أنَّه أراد استلام التعويض من يدي وليس بواسطة محمود لأنَّه بخيل و«غير جيد».

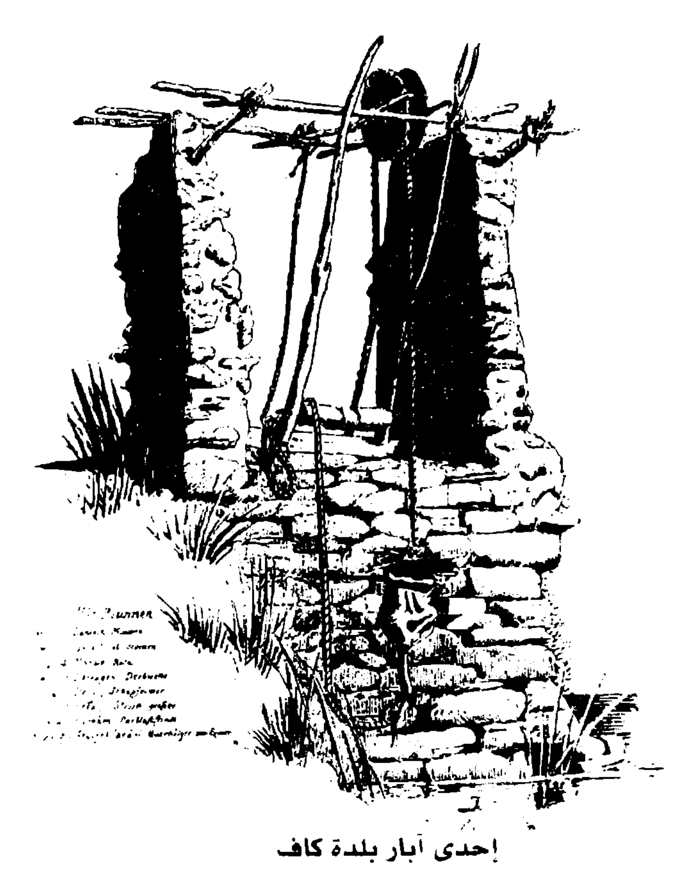
كان طعام العشاء هذه اللَّيلة غنياً بصورة غير مألوفة: أرز مع الحجل ولحم الغزال والماعز. أرسلت بواسطة محمود من اللحم الفائض بعض القطع إلى النساء في الفناء المجاور. وكالعادة قمت شخصياً بدعوة الشيخ عبد الله إلى العشاء؛ وحسب الاتفاق الضمني بيننا كان يرفض دائماً ولا يجلس إلى المائدة إلَّا بعدما أنتهي أنا، عندئذٍ يأكل مع ابنه خميس ومحمود ممَّا يبقى من طعام.

السبت 22 سبتمبر/أيلول 1883م. قبل طلوع الشمس جاء الرجل الذي تضرَّر من البومرانغ البارحة لكي يأخذ تعويضه. وعندما أعطيته «زهراوي» (= 0,25 مجيدي = 1 فرنك) بدا راضياً كل الرِّضا؛ إذ قال تعليقاً على ذلك: إنَّ الآخرين يتمنون جميعاً لو تضرروا أيضاً مثلي.

كانت صحتي على أحسن ما يرام؛ فقط عيناي تلتهبان باستمرار من كثرة الغبار والرمل، لا بل إنَّهما يكونان ملتصقتين في الصباح من القيح ويحتاجان إلى العلاج بمحلول الزنك الحمض ـ كبريتي. ليس للعيون ولكن للحالة الصحية بشكل عام كانت محمولة جداً الحمامات التي اعتدت على أخذها يومياً في البئر الرئيسي للحديقة. كان شكل البئر وبنيته أصليان جداً وخشنان كما يتبيَّن من الصورة التالية؛ كان يوجد في الحديقة نفسها عدد من الآبار المشابهة ولكنَّها كانت في حالة متداعية إلى حدٍّ بعيد.

بناءً على طلبي تمَّ اليوم تنظيف الباحة أمام القهوة. كثير من السلال والغبار والقاذورات تمَّ رميها في الحديقة، وعندما انكشفت أخيراً الأرض بعد زوال الأوساخ التي تغطيها برز موقعان جديدان لإشعال النار وتمَّ

تسويرهما. وفي القهوة ذاتها أمرت أيضاً بتنظيفها ورش الأرض بالماء. خلال هذا الانشغال غير السار لبَّيت دعوة شخص اسمه شاهر لتناول القهوة. بالإضافة إلى القهوة كان هناك نوعان من الدبس، نوع مصنوع من العنب المجفَّف (الزبيب) ونوع مصنوع من «المصع» أي من ثمار حمراء ذات نبتة صغيرة صحراوية. وممَّا كان يزعجني عادة الناس أن يصرخوا بصوت عال عندما كنت أطلب منهم تكرار جملة لم أفهمها، أو لم أفهمها بشكل صحيح، ظنّاً منهم أنَّ التكرار بصوت عال يجعلني أفهم أكثر.



إحدى آبار بلدة كاف

بعد الظهر انتظر جمع غفير من الناس حتى أحضرت «البومرانغ» مرَّة أخرى. وللأسف لم تدم الفرحة طويلاً لأنَّ البومرانغ سقط، بعد عدَّة رميات، على حجر وانكسر خشبه ممَّا أحزن جميع السكَّان.

الأحد 23 سبتمبر/أيلول 1883م. لماذا يستيقظ الناس هنا في وقت مبكر جداً. في الظلام الحالك، على الأقل قبل ساعة من طلوع لشمس، يكون غالبية الناس قد نهضوا. لا يمكن أن يعود السبب في ذلك إلى مجرَّد التمسُّك بالدِّين، أي لكي يؤدّوا، مثلاً، صلاة الفجر، ولا إلى القيام بأعمال ملحَّة. أنا أعتقد أنَّ أغلب الناس ينهضون مبكراً لأنَّهم يشعرون بالبرد. إذ إنَّ ثلاثة أرباعهم ليس لديهم أي نوع من الأسرَّة، ولا أي نوع من السجاد، وبعضهم ليس لديه باستثناء القميص سوى غطاء الرأس، وفي أحيان نادرة، معطف. فهم ينامون بقميصهم طوال اللَّيل على الأرض العارية في إحدى الزوايا. وعندما يكون الجو دافئاً فليس أجمل من التحاف السَّماء في اللَّيل تحت ضوء القمر. ولكن قبيل طلوع الشمس عندما تزداد الرطوبة وتصل الحرارة إلى أدنى درجة لها يشعر هؤلاء المساكين بالبرد؛ فينهضون ويسيرون في كل اتجاه.

بعد الفطور طلبوا منِّي القيام بدور ذوَّاق الماء والباحث عن الينابيع، يابرز[1]! قمت بجولة حول قصر صعيدي وراقبت بعناية بنية الأرض وبحثت عن تشكلات أرضية تشبه الحفرة وحدَّدت بعد وقت قصير للشيخ ومن معه أربعة مواقع يمكن أن يؤدِّي الحفر فيها إلى ظهور ماء. وقد أكدوا هم أنفسهم في وقت لاحق أنَّ موقعين من المواقع الأربعة كان قد حفر فيهما بئر في الماضي لكنَّه ما لبث أن امتلأ بالرمل والتراب. المكان الواقع خلف القرية مباشرة أعجب الشيخ بشكل خاص لأنَّه قريب من حديقته، ولم يهدأ له بال حتى رسمت له بالعصا دائرة كبيرة في الرمل لتحديد حجم الحفرة. وكان يريد، طبعاً، معرفة عمق الحفرة التي سيحفرها. ولكي أكون متأكداً قلت له: إنَّ عمق البئر يجب ألَّا يقلّ عن ارتفاع البيت، ثم أضفت قائلاً: لو لم تكونوا مهملين لما تركتم الآبار التي حفرها آباؤكم تتردم مرة أخرى بل لقمتم بحمايتها بأسوار. استغليت المزاج الطيب لدى الناس لكي يعدِّدوا لي مواقع المياه، أي الآبار والينابيع، الموجودة في البلد. فذكروا لي المواقع التالية:

---

(1) اسم شخص مشهور في البحث عن الينابيع.

1 ـ مياه بين جبل الدروز وحائل (حايل)[1]:

1 ـ الأزرق (نهر)
2 ـ العمري
3 ـ الهزيم
4 ـ الرقبان (؟)
5 ـ كاف
6 ـ إثرة
7 ـ الوشواش
8 ـ قصيبة (عين)
9 ـ البيضة (عين)
10 ـ عدوانة
11 ـ المحيضر
12 ـ إشقيق الذيب
13 ـ الأمغر (؟)
14 ـ إمغيرة
15 ـ فاي شمال
16 ـ القدير
17 ـ العصبي
18 ـ أويسط
19 ـ الميسري
20 ـ النباج
21 ـ شيبه
22 ـ جليقيم
23 ـ النبك أبو قصر
24 ـ الجراوي
25 ـ شغار
26 ـ صبيحة
27 ـ ميقوع
28 ـ الجوف
29 ـ الشقيق
30 ـ جبَّة
31 ـ قناء
32 ـ اللقيطة
33 ـ الوقيد
34 ـ حائل (حايل)

2 ـ مياه بين حائل (حايل) والمشهد (= نجف) على طريق لينة:

1 ـ الخاصرة
2 ـ بقعة (بقعا)
3 ـ شعيبة
4 ـ خضرا
5 ـ لينة
6 ـ السلمان
7 ـ السيِّد
8 ـ المشهد

3 ـ مياه بين الجوف والمشهد:

1 ـ الحزل
2 ـ الشبيكة
3 ـ الترهيمة
4 ـ المشهد

4 ـ مياه بين كاف ومعان:

1 ـ غطِّي
2 ـ بائر
3 ـ الجفر
4 ـ معان

---

(1) من الملفت للانتباه أنَّ القائمة لا تتضمَّن بئر «قراقر»، بين رقم 8 ورقم 11 تقريباً.

5 ـ مياه بين كاف وتدمر (مسافة سبعة أيَّام):

1 ـ غصين السعادة (ماء جارٍ) 2 ـ ضمير (ماء جارٍ) 3 ـ تدمر

6 ـ مياه بين تدمر ودمشق:

أ ـ على الجهة اليسرى (جنوب شرق الطريق):

1 ـ تدمر 2 ـ عين الدعول 3 ـ القائط
4 ـ البصير 5 ـ حفير 6 ـ الزبيدي
7 ـ لفاعي

ب ـ على الجهة اليمنى (شمال غرب الطريق):

1 ـ أبو الفوارس 2 ـ جزل 3 ـ جحار
4 ـ الجبا 5 ـ القريتين

7 ـ مياه بين تدمر وجبل ملوزة[1]:

1 ـ المبطح (8 ساعات) 2 ـ الهيل (4 ساعات) 3 ـ المربَّعة (12 ساعة)
4 ـ الصقري (12 ساعة) 5 ـ القعرة (12 ساعة) 6 ـ وركة (يومان)

بهذه المناسبة أبلغت بخبر غير سار وهو أنَّ الشقيق (الموقع المائي رقم29 في القائمة رقم 1)، وهو أهم بئر على طريقي المقبلة والبئر الوحيد في المسافة التالية من المياه والممتدة مسير خمسة أيَّام في صحراء النفود بين الجوف وجبَّة، قد ردم بأمر من شيوخ حائل (حايل) بالحجارة والرمل وأصبح غير صالح للاستعمال[2] لكي يمنع هجمات جيرانه وأعدائه الشماليين (وخاصة الرولة والصقور) من هذه الجهة على الأقل. ولما أنَّ البئر الذي يبلغ قطره مترين وعمقه 68 ـ 70 متراً محفور في الصخر، أي إنَّ المرء لا يصل إلى الماء إلَّا على هذا العمق، وبما أنَّ هذا البئر، علاوة على ذلك، لا يوجد عليه، خلافاً للآبار الأخرى في الصحراء العربية، أي أدوات[3] لسحب الماء،

---

(1) في منتصف الخط المستقيم بين دمشق وحيط على الفرات.
(2) يُقال بأنَّه قد ردم في السابق عدَّة مرَّات في الأوقات المضطربة.
(3) في حال وضع أي أدوات كالحبال والسطول وما شابه ستسرق في اليوم نفسه.

فقد جلبت معي من أوروبا، لهذا البئر بالذات، أربعة حبال من القنَّب (طول كل منها 25 متراً) وأربعة سطول من الكتان. نتيجة ردم البئر أصبحت هذه الاحتياطات لا لزوم لها؛ مقابل ذلك تعيَّن عليَّ تأمين قرب إضافية للماء من الجوف على أبعد تقدير لاجتياز هذه المنطقة الخالية من الماء.

جلب لي اليوم صياد اسمه ذيبان أرنباً مقتولاً وطلب منِّي لقاء ذلك أن أكتب له حرزاً. وفيما عدا ذلك اضطررت، بعد أن تورطت في الاستجابة إلى هذه السخافات، إلى أن أكتب لعدد من الناس الآخرين تمائم سحرية لأغراض سخيفة مختلفة. في كثير من الأحيان كنت أختلق القصص والحكايات وأنا أعتقد أنَّه لو جاء أحدهم إلى البدو بعد 200 عام وجمع ما لديهم من تمائم سينفجر ضحكاً. سيكون هنا في القرية عمَّا قريب كثير من الرجال الذين يحمل كل منهم على عنقه محفظة جلدية صغيرة تحتوي على تميمة لا معنى لها. أمَّا أنا فيجب أن أبقى متماسكاً وأحافظ على جديتي في هذه اللقاءات.

بسبب مجيء عدد من بدو الرولة استرحت قليلاً من كثرة الزوَّار. بعد الترحيب المبالغ فيه وتبادل القبلات مع الضيوف جلسوا معاً في الباحة وكان واضحاً تماماً أنَّ قائدهم إكريم بن دغمي كانت لديه أخبار هامة سيبلغهم بها. كانوا يريدون الذهاب إلى الجوف والبقاء هناك بعض الوقت. وحتى عودتهم في الشتاء تركوا هنا أكياساً مختلفة لكي يأخذوها معهم عند العودة.

يشعر المرء شيئاً فشيئاً بحلول الخريف؛ فأنا أستطيع الآن الساعة الثالثة ظهراً التجول تحت الشمس في السهل الرملي حافياً وبدون غطاء رأس دون أن يحترق جلدي؛ الأمر الذي لم يكن ممكناً قبل 14 يوماً. عند الطرف الخارجي للقرية رأيت لهود[1] جالسة خلف أحد الجدران ومعها فتاة أخرى محلولة الشعر وكانت كل منهما تضع في حضنها وعاء فيه سائل أصفر اللون. ردّاً على سؤالي عمَّا يفعلانه هنا أجابتا ضاحكتين إنَّهما يريدان غسل شعرهما. فطلبت منهما المتابعة لكي أرى ما يفعلان. فقالتا: ليس لديهما مشط وهما مضطرتان لانتظار صديقة لهما لديها مشط وهما يأملان في أن تجلبه معها. أوضح لي

(1) انظر ص91 ـ 92.

محمود فيما بعد أنَّ السائل ليس سمناً، كما ظننت أنا بناءً على منظره، وإنَّما بول ناقة. وقال لي: إنَّ بول الناقة محبوب جداً، فعندما تبول تتسابق البنات بأقصى سرعة لوضع رؤوسهن تحته، وأنَّ البول مادة لها فوائد كثيرة فهي تشفي من الأمراض ومريحة في الوقت نفسه، مثلها مثل الحمام الساخن عندنا وهي تنوب عن الصابون والكولونيا[1]. في معان يدهن النساء شفاههن وأسنانهن بعصير النيكوتين الخارج من الغلايين. بينما كان الرولة يجلسون في الخارج جلست في القهوة وتركت محموداً يحدثني عن «العيلة» (العلا) وعن «الحجر» (= مدائن صالح). وصف لي البيوت المنحوتة في الصخر (الكهوف) لبني ثمود (الأنباط) وقال: يوجد في الحجر حجارة صغيرة بحجم القرش عليها كتابة، وأنَّه قد وضع في جيبه مرة قطعة منها لكنَّه فقدها فيما بعد لأنَّه لم يكن مهتماً بها. لا شك في أنَّها قطع من الخضار المشوي كتلك الموجودة بكثرة في تدمر.

الاثنين 24 سبتمبر/أيلول 1883م. مع طلوع الضوء جاءت مجموعة جديدة من الرولة، من فرع الحوازم[*]، والكواكبة، والنصير، والدغمان. وبما أنَّ الجماعة القذرة لم تكن تهمني، قضيت اليوم النهار بكامله في القهوة وطلبت من محمود أن يُعدِّد لي أسماء الأسلحة النارية وأجزائها المنفردة بالتفصيل. أراد مطيلق[2] الدخول إلى عندي والجلوس في إحدى الزوايا لكنَّني طردته من القهوة لأنَّه كان غاضباً جداً وقلت له: عليه أن ينفس عن غضبه في مكان آخر. فقد كان منزعجاً جداً لأنَّ ابن عبد الله، سالم، كان قد انتزع منه سيف أبيه عبد الله الذي كان قد تقلَّد به للتباهي أمام النساء. لا بل من شدَّة الانزعاج لم يأت لتناول الطعام.

جاء إلى القرية اليوم بدوي رث من الشرارات اسمه حوران صاحب نحو

---

(1) ينطبق هذا الشيء على أمريكا الجنوبية أيضاً كما جاء في تقرير بعنوان: البلاد والناس في بوليفيا، هـ. يوت بنايفر، 1988م.

(*) الحوازم ليست من الرولة وإنما هي قبيلة مستقلة بذاتها. (المراجع).

(2) انظر ص66.

40 نعجة كان يتنقل بها طوال السنة عبر الصحراء لكي يكتسب منها رزقه ومصادر عيشه. وشكا من أنَّه قد هوجم يوم أمس بالقرب من القرية وأنَّ المهاجمين قد أسروه فترة من الزمن وسلبوه جميع شياهه. وقال: إنَّ اللصوص كانوا من صقور، وعددهم 16 رجلاً على ظهور الإبل، جاؤوا من الحزل الواقعة وراء الجوف.

بعيد غروب الشمس سمعت أصوات طلقات نارية؛ فانطلق الناس إلى خارج القرية لملاقاة القافلة التي كانت قد انطلقت قبل 10 أيَّام من هنا والقرى المجاورة حاملة الملح إلى حوران وعادت الآن حاملة الحبوب. وقد تقرَّر الاحتفال بعودة الرجال الذين رافقوا القافلة وعددهم 50 ـ 60 رجلاً وتقديم القهوة لهم. أمَّا أنا فقد فضلت الانسحاب مبكراً إلى القهوة والخلود إلى النوم. لكن هدوئي أزعج مراراً وتكراراً: جاء أوَّلاً سيىء السمعة مطيلق لكي يأخذ أدوات تحضير القهوة. لكن محمود ردَّه على أعقابه، وبعد وقت قصير جاء مرة أخرى باحثاً عن الفانوس الذي طالبت منذ وصولي بتزويده ببعض النفط ولكن، وعلى الرغم من الوعود، لم أحصل على أي شيء منه. ثم جاءت بعد ذلك طريفة وأثارت كثيراً من الشغب بسبب الفانوس نفسه. وبينما كنت أكاد أن أغفو ظهر تحت الباب صبي يحمل سعفة نخيل مشتعلة لكي يبحث مرة أخرى عن الفانوس. فطلبت من محمود أن يطرده على الفور ويلاحقه بالعصا.

الثلاثاء 25 **سبتمبر/أيلول** 1883م. نهضت اليوم صباحاً قبل طلوع الشمس بزمن طويل. راقبت مشاهد التحية والترحيب وتبادل الأخبار الجديدة. كان طعام الفطور يتألف من «السمح» المعجون مع السكر والسمن والذي لم يكن طعمه سيئاً على أيِّ حال.

في الليلة الماضية اصطادوا ضبعاً علق في فخ حديدي. وأرادوا تقديمه لي لكي أستخرج منه شرائح للقلي. وقد عثر في معدة الضبع على يد لجثة. قام محمود بطرد هؤلاء السفهاء. دعاني عبد الله اليوم إلى القيام بجولة في بيوته لكي أطلع على شكلها وطريقة بنائها. بنيت البيوت من قطع الآجر

المجفَّف تحت الشمس، وهي تتألف غالباً من طابق واحد وتبلغ سماكة جدرانها قدمين إلى ثلاثة أقدام وأسوارها متوَّجة بقطع الآجر المسنَّنة ممَّا يجعلها تبدو من بعيد وكأنَّها قلعة لكنَّها تبدو من قريب بمنتهى البساطة. تُسمَّى المسنَّنات البسيطة «حمام» وتُسمَّى المجموعات ذات الدرجتين أو الثلاث «شمروخ» الجمع «شماريخ».

حجرات البيوت، وخاصة غرف الاستقبال (القهاوة) عالية جداً، ويبلغ ارتفاعها عادة 4 ـ 6 أمتار. ويتشكَّل السقف، الذي هو سطح أيضاً، من قضبان مصفوفة أُفقياً من الأثل (أشجار الطرفة) تأتي فوقها طبقة سميكة من سعف النخيل وفوق الكل طين وكلس. يزوَّد السطح الناتج بهذه الطريقة بمزاريب لتسرب مياه المطر. بين البيوت تترك باحات مختلفة كبيرة أو صغيرة وتحيط بالباحة الداخلية الكبيرة حجرات منخفضة تتألف من المطبخ وغرف المؤونة وغرف الاستخدامات المنزلية المختلفة. وأعتقد أنَّني قد لاحظت أنَّ كل امرأة من الزوجات لديها مع أطفالها، على الأقل، حجرة واحدة تبقى مغلقة على الدوام. أمَّا شكل البيوت العربية الغنية فسوف أتحدَّث عنه بالتفصيل، مع توضيح بالرسومات، عندما سأصف لاحقاً الإقامة في حائل (حايل).

اليوم طلب منِّي بدوي[1] من مشهد علي على الفرات أن أعطيه بعض النقود زاعماً أنَّه وزملاؤه قد تعرضوا لهجوم في «الحرَّة»[2] وسلب منهم كل ما يملكونه من الإبل. أعطيته ربع مجيدي (فرنك واحد)؛ وبعد ستة أيَّام سمعت أنَّ مزاعمه كانت كاذبة بالكامل. لا بل بالعكس فقد قيل: إنَّه ورفاقه قد سرقوا على الجهة الشرقية من جبل الدروز 25 رأساً من الإبل. فكيف يمكن أن تصدق ما يقوله لك الناس هنا؟ جميع الناس هم في الوقت نفسه سادة ومتسولون ولصوص وسراقون.

بعد أن سافر عبد الله في المساء مع مطيلق إلى إثرة لمدة يومين تعيَّن

(1) من قبيلة «عنزة» فخذ الدهامشة؛ شيخ العشيرة: ابن هذَّال.
(2) صحراء صخرية بركانية.

عليَّ أن أحمل وحدي عبء ضيوفه. عند تناول القهوة في المساء تمَّ في وقت متأخر من اللَّيل العزف على الربابة والغناء. طلبت وضع سريري في الباحة بمحاذاة أحد الجدران واستلقيت للنوم. أحد الفتيان غير المؤدبين، واسمه نسَّال، كان وقحاً جداً إلى درجة أنَّه دسَّ قدميه على السجادة بيني وبين الحائط. فأمسكت به من قدميه وألقيته خارجاً مع بعض الشتائم. وكان هذا إشارة للآخرين لكي يستلقوا أيضاً في إحدى الزوايا. لكن الثرثرة حول هذا الموضوع لم تتوقف رغم اعتراضي. وفجأة جاءت أيضاً فوق كل هذا شاة إلى مخيمي فقفزت وتناولت سيفي الذي كان في بادىء الأمر في غمده. ظنَّ الصبيان أنَّ تناول السيف موجه ضدهم، وما إن سمعوا استلال السيف من غمده حتى ولوا هاربين تاركين معاطفهم خلفهم ولزيادة الارتباك والفوضى قفز محمود أيضاً حاملاً هراوة ومسدساً لكنَّه فقد خلال الملاحقة قضيب دك السلاح. وأطلق شتائم لاذعة ضد البيت وساكنيه وهدَّد بنقل مقر سكني إلى إثرة الأكثر احتراماً للضيوف. خرجت طريفة وفهيدة مسرعتين من بيتهما. وبعد شرح قصير انتقلت طريفة إلى الطرف الآخر وقالت لهم دون تكليف من أحد: إنَّني سأطلق النار من مسدسي وأردي قتيلاً كل من يدخل إلى الباحة في اللَّيل.

الأربعاء 26 سبتمبر/أيلول 1883م. نهضت قبل طلوع الشمس بوقت طويل. أحد الذين لوحقوا مساء أمس أعاد، كرجل أمين، قضيب الدك المفقود. اليوم جلبوا مرة أخرى ضبعاً إلى القرية. كان الضبع قد وقع في الفخ المنصوب عند المقبرة الواقعة خلف القرية فقلع الفخ ودار به ـ كما يتبيَّن من الجروح المصاب بها ـ حول النهايتين الغربية والجنوبية لقصر صعيدي عند أسفل جبل أمّ الجراص حيث عثروا عليه وضربوه حتى الموت.

بقي الصباح ساعة كاملة بعد طلوع الشمس بارداً جداً ومريحاً. لذلك وضعت سلاحي على كتفي وقمت بجولة على قمَّة «سمرة أُرَيْك» (جنوب شرق كاف). كان الجو صافياً بحيث إنَّ الجبال العالية الواقعة في الشمال الشرقي، جبل الشميسانة، والمقّل، والإبغيّث، كانت تبدو واضحة جداً وقريبة. اعتباراً من الساعة التاسعة يتشكَّل الآن في السهل كل صباح السراب، حيث تبدو

الصحراء فعلاً كبحيرة ماء وينخدع بها حتى الشخص غير العطشان ويشعر برغبة جامحة في أن يسرع إلى هذه البحيرة الجميلة. يدوم هذا المشهد كل مرة نصف ساعة أو أكثر إلى أن يضع التسخين المتساوي لطبقات الهواء حدّاً لهذا المنظر الخادع.

عند العودة من أُرَيْك التقيت مع ذيبان جالب الأرنب ومع غيران الذي لا يؤثر فيه الرصاص. كانت البنادق الملطخة بالدم تشير إلى الغزال الذي قتلاه قبل قليل. دفعت له مجيدي (3,5 مارك) لقاء الغزال على شرط أن أحصل منه أيضاً على أرنب. وبالفعل فقد جلب لي بعد بضعة أيّام أرنباً حيّاً. عند الظهر جاءت مجموعة من النساء من إثرة كن قد سمعن بالصور وأردن رؤيتها. وهكذا تكرَّرت المشاهد نفسها كما في المرة الأولى.

بما أنَّ عبد الله لم يعد بعد فقد سادت في القرية قلَّة الأدب وانعدام النظام كيوم أمس.

الخميس 27 سبتمبر/أيلول 1883م. لا يجوز أن يعتب المرء على شفابي (سكَّان منطقة شفابن في جنوب ألمانيا) إذا ما كان في الغربة، سواء في أمريكا أو البلاد العربية، وتذكر بحسرة يوم عيد ميلاد الملك فيلهلم فون فورتمبرغ الاحتفال الشعبي في كانشتات. تذكرت مكان الاحتفال بكامله ـ سراب شفابي ـ بكل ما فيه من أكشاك خشبية ومغنين ومهرجين وعشرات آلاف وجبات الطعام المؤلفة من النقانق والكرنب المخلَّل. من أجل الاحتفال بهذا اليوم، الذي قلت للناس لكي يفهموا معناه أنَّه عيد ميلاد سلطاني، ارتديت ملابسي الرسمية، زبوني الحريري الأحمر الطويل وتقلَّدت بما لديَّ من أسلحة، وفتحت جميع أبواب كرمي على مصراعيها لمن يستحق ولمن لا يستحق. فمن حضر الحفل حصل على قهوة، أو شاي، أو شوكولا، أو تبغ أو تمر أو سمن أو خبز، وما شابه. كما أنَّ النساء أيضاً حصلن دون توقع على هدايا سخية. وعبد الله، الذي عاد عند الظهر من سفره، كان متأثراً بهذه الضيافة التي لم يشهدها من قبل وتلقَّىٰ أيضاً بعض الأطعمة اللذيذة كما أنَّني دعوته ليكون، بصورة استثنائية، ضيفي على طعام

المساء، كان الطعام يتألف من حساء البازيلا والأرز مع لحم الغزال ومربى الدراق.

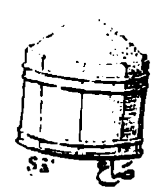
عند طلوع الشمس كان نسران يحومان عالياً في الجو، فاستنفر جميع أصحاب البنادق؛ أشعلوا الفتائل وراحوا يركضون متعطشين إلى إطلاق النار. لكن النسرين لم يكونا مستعدين للهبوط في كاف أو قربها بل انسحبا بهدوء في دوائر كبيرة نحو الشمال.

الجمعة 28 سبتمبر/أيلول 1883م. يتعيَّن على عبد الله أن يبني مسكناً جديداً لامرأته حاكمة التي تزوجها مؤخراً. صحيح أنَّه قد أكَّد لي مؤخراً أنَّه سيتخلَّى عن هذه المرأة لكن هذا ما هو إلَّا نفاق. فهي التي انتزعت منه كل هذه «التجهيزات الجديدة». في الباحة الداخلية هناك الآن كومة من أخشاب الأثل الغليظة لتغطية الغرف الجديدة. والحزمات الكبيرة من الجريد التي جلبها من إثرة ما هي إلَّا معدات جديدة لهذا الغرض.

أردت رؤية الموقع الذي كانوا يوم أوَّل أمس قد اصطادوا فيه الضبع في الفخ وذهبت لهذا الغرض إلى الطرف الشمالي لقصر صعيدي. في سهل «ساس القف» جلست عند أنقاض بيت متهدم بالقرب من بئر مردومة لكي أرسم جبلاً أبيض ذا طابع متميز قيل لي فيما بعد: إنَّه معروف باسم «قصر الضبع». عند النظر إلى هذا الجبل يستطيع المرء أن يلاحظ بكل وضوح كيف نشأت الصحراء هنا: الحجارة التي تتساقط من جبهة الجبل تصل إلى الأسفل كقطع صغيرة أو كبيرة ثم تتفتَّت شيئاً فشيئاً متحولة إلى رمل.

في ذروة الحر بعد الظهر ذهبت إلى سهل النبك للتنزه حافياً والتقيت هناك في عدة مواقع بصبيان عراة وبرجل مسنّ يقومون بعمل لم أفهم مغزاه في بادىء الأمر: كانوا يقفون في الماء الذي يغمرهم حتى وسطهم ويغرفون بواسطة دلاء جلدية الماء من حفر عمقها 5 ـ 6 أقدام ثم يصبونه في أحواض عمقها قدم واحد. وبالقرب من هذه الأحواض كانت هناك أكواخ منخفضة من الطين بسقف أو دون سقف. ظننت أنَّ هذا العمل له علاقة باستخراج الملح ولكن قيل لي: كلا، إنَّه يتعلق بصيد العصافير. في فترة الجفاف هذه تضطر

العصافير إلى البحث عن مشرب وهنا ينتظرها الصيادون في الأكواخ ليل نهار لكي يطلقوا عليها النار عندما تقترب من الماء. كان الماء كله مالحاً؛ كما أنَّ الطين المستخرج من الأرض تغطى تحت الشمس على الفور بحلَّة بيضاء.





عملية استخراج الملح بالقرب من بلدة كاف

عن استخراج الملح في المنطقة استطعت جمع المعلومات التالية: تحتوي القاعدة العريضة لوادي سرحان مع خلجانها الكثيرة في ثلثها الأعلى على طبقات واسعة من الملح تشكل في الأعوام الماطرة بحيرات أو مستنقعات ملحية، ويظهر الملح فوق الأرض، أكثر ما يظهر، بالقرب من قريتي إثرة وكاف اللتين يعود الفضل في وجودهما إلى الملح. ولكن في أمكنة أخرى أيضاً، عندما تتشبع الغدران (المفرد: غدير) بالماء، يخرج الملح بكثافة من الأرض، يستطيع كل بدوي أن يأخذ من هذه الثروة الطبيعية المشاع الكمية التي يريدها، لكن ما يأخذه يكون لم يزل طرياً ويحتاج إلى تجفيف خاص. ويشتهر الملح المستخرج من هنا بأنَّه «حلو» وليس «مرّاً» كالملح المستخرج من منطقة تدمر. وبالقرب من القريتين المذكورتين يستخرج الملح بصورة منهجية وعلى مدار السنة. على مسافة ساعتين من كاف في الجنوب الشرقي يرتفع في سهل النبك جبل «سمرا غطّي» وجبل «قليب الملح». وعند أسفل الجبلين المذكورين حفر عبد الله شيخ الكاف قناة وبنى حوضاً مستغلاً المياه الجوفية المسحوبة من باطن الأرض لإغراق الأرض بالماء فترة من الزمن ممَّا يؤدِّي إلى خروج الملح إلى السطح. وهناك زنجي، زوج فلوة، يذهب كل صباح إلى هناك ويعود في المساء، يعمل خلال النهار على استخراج الماء وحقنه وعلى قش الملح العائم. ثم يجري تجفيف الملح وتنقيته في حجرات منخفضة مسوَّرة ويخزن عند مدخل القرى. يستخرج بدو سرحان وبنو عيسى كل عام 3000 ـ

4000 شحنة[1] لبيعها في حوران. وتتم عملية البيع بالمقايضة حيث إنَّهم يبادلون عادة كمية من الملح بمثل وزنها من الحبوب. ويجري القياس بواسطة مكيال خشبي يُسمَّى صاع يتسع ملآناً لحوالي 6,5 ـ 7 كيلوغرامات من الملح. ولكي لا يخطىء صاحب الكيل يكرِّر خلال العمل الرقم الأخير، وبصوت عال، 20 مرَّة أو أكثر ـ ويعتبر البدو الذين يلاقون صعوبة في العد والحساب وقوف بعض الأصدقاء إلى جانبهم أثناء البيع خدمة مشكورة. بعد 15 صاعاً، أي ما يساوي نصف شحنة أو ما يكفي لتعبئة كيس واحد، يبدأون بتشكيل كومة جديدة. خلال الاحتلال التركي المؤقت لوادي سرحان في سنة 1870م[2] ثم تعيين موظف لجباية الضرائب المفروضة على الملح في كاف. كان يجبي مجيدياً عن كل شحنة وكان يترك نصفه للشيخ ويحتفظ بالنصف الآخر لصالح الحكومة تحت اسم «ميرا». وبعد أن غشه كاتبه وسرق منه بعض النقود ونجا من الموت على طريق العودة إلى دمشق قدَّم الموظف الشريف للسراي (دار الحكومة) مبلغاً محترماً قدره 2000 مجيدي قام الأفندية المدهوشين، الذين لم يكن لديهم علم بوجود جابي ضرائب في كاف، بوضعها في جيوبهم دون أن يقدِّموا له أي مكافأة.

في المساء شاهدت في ساحة القرية رجلاً جالساً لفت انتباهي لون بشرته الفاتح. كان يرتدي قميصاً فقط ويضع على رأسه قطعة قماش بيضاء بسيطة ويحمل في يده هراوة ولم يكن لديه أية أمتعة. ولما سألته من أين جاء وماذا يفعل هنا، رفض في بادىء الأمر الإجابة بسبب لون بشرتي إلى أن أشار إليه عبد الله وأفهمه أنَّه ليس هناك ما يخشاه منِّي. وشيئاً فشيئاً علمت منه أنَّه منشق من الحامية التركية التي تشكل في الحديدة وصنعاء معاً أربع كتائب ضعيفة. وقال: إنَّه قد فرَّ مع عدد من زملائه الآخرين قبل ستة أشهر وعاشوا على التسول من البدو حتى وصولهم إلى ابن رشيد في حائل (حايل) الذي قدَّم لهم الطعام والمأوى عدَّة أيَّام وأهدى كلاً منهم قميصاً وغطاء رأس وربع مجيدي، وهم اليوم نائمون في إثرة. والآن يريد هو ورفاقه الذهاب إلى منطقة دمشق ويأمل في

---

(1) تساوي الشحنة 80 رطلاً = 160 أقة = 205 كيلوغراماً = 30 صالحاً ويبلغ ثمنها 1 مجيدي = 3,5 مارك.

(2) انظر الفصل المتعلق بالجوف أدناه.

أن يعبروا هذا الجزء الأخير من الطريق بسلام. وكسبب لفراره من الجيش قال: الحر الشديد ومياه الشرب الملوثة التي تُسبِّب الحمَّى وأمراضاً أخرى. وأضاف عبد الله إلى ذلك قائلاً: مثل هؤلاء المتسولين يمرّون من هنا كل أسبوعين أو ثلاثة ولكن الشيء المستغرب هو أنَّه لم يزل يوجد في اليمن جندي تركي. وفور فرارهم يتخلصون من جميع الإشارات الدالة على أنَّهم جنود، وعلى الأخص السلاح، وبعد ذلك لا يضايقهم أحد بل بالعكس يلاقون عند البدو المعروفين بمعاداتهم للدولة (الحكومة التركية) معاملة حسنة وينقلون من قبيلة إلى قبيلة إلى أن يصلوا إلى أوطانهم وجميعهم يذهبون إلى حائل لأنَّهم يحصلون هناك دون أن يراهم أحد على الهدية المذكورة ويستريحون بعض الوقت. ولقد التقيت بمجموعة كاملة منهم فيما بعد خلال إقامتي. ظهر نجل عبد الله بكل جلاء هذا اليوم: كان قد وعدني هذا الصباح أنَّه سيقوم في المساء بتحضير الخبز. ولكن وبما أنَّني دعوت الجندي المنشق إلى طعام العشاء خشي أنَّه سيضطر إلى تقديم رغيف من الخبز لهذا الضيف أيضاً. وهكذا أنكر في المساء وجود أي خبز لديه. ولكن لما أخرجت من حقيبتي السحرية، دون الاستماع إلى أكاذيبه، بعض البسكويت وقدَّمت له بكل أدب شيئاً منه نهض خجلاً من فعلته و«استعار» ـ من نفسه طبعاً ـ بضعة أرغفة من الخبز.

السبت 29 سبتمبر/أيلول 1883م. في الصباح الباكر وصل المنشقون الأربعة الآخرون في حالة يرثى لها. بعد أن قدَّمت لهم بعض الطعام والشراب وأعطيت كلاً منهم ربع مجيدي (فرنك واحد) استعملت جميع الوسائل لكي أنتزع منهم وصفاً للطريق التي قطعوها. وعلى الرغم من جميع الوعود التي أعطيتها لهم في حال إعطائي معلومات وافية عن المواقع التي مروا بها خلال رحلتهم التي استغرقت ثلاثة أشهر لم يتذكروا سوى عدد من الأسماء التي عددوها بتسلسل غير مؤكد: صنعاء، ملح، جبل يام، مأرب، وادي خب، مخلف (بدو سبيع)، جبل عسير، قلعة بيشة، تربه، الطائف[1]، وادي الدواسر (كثافة سكانية عالية)، شقراء، بريدة، حائل (حايل)، الجوف.

---

(1) أشك في أنَّهم قد تجرأوا على الظهور فعلاً هناك.

في ساحة القرية خيَّم بدو السرحان، المتآخين مع بني صخر في المنطقة الواقعة بين البلقا والصلط في شرقي الأردن، وقد جلبوا إلى هنا حمولة 46 جملاً من الحبوب لكي يخزنوها هنا لفصل الشتاء ويأخذوا منها ما يحتاجونه عند الحاجة. دخلت بين المجموعات المنهمكة في العمل وألقيت بمحض الصدفة نظرة على ساحة ما يُسمَّى الجامع. فرأيت في إحدى الزوايا منشقاً آخر متكوراً على نفسه من شدَّة البؤس. لم يهتم به أحد ولم يقدم له أي طعام. فطلبت منه أن يتبعني وكان منهكاً من الحمَّى ولديه فوق ذلك «ديدان المدينة»[1] في قدميه بحيث إنَّه لم يكن قادراً إلَّا بصعوبة على السير 200 خطوة إلى مكان إقامتي. بعد أن قدَّمت له الخبز والحساء ولحم الغزال والقهوة تحسَّن وضعه بعض الشيء، وكان قد تناول في الطريق بعض «القناقينا» التي كان يعرف قيمتها حق المعرفة. كان الرجل ممتناً جداً لهذه المساعدة وقد عبَّر عن شكره بكلمات لم أسمعها منذ زمن طويل: «الله يطوِّل عمرك ويخليك».

بعد الظهر بدأت تتشكل غيوم كثيفة وعند غروب الشمس هبَّت رياح جنوبية شرقية ساخنة. خلال عشر دقائق أخرجت العاصفة الغبار في زوابع شديدة من الحي وحرَّكت بشدَّة تيجان النخيل المتأوهة. وفجأة حلَّ الهدوء، وهطلت من جهة الغرب قطرات مطر باردة عبر الهواء الساخن. يا إلٰهي، أية بهجة! فمنذ أبريل/ نيسان لم أر قطرة مطر تسقط على الأرض. إلَّا أنَّ التبرد كان طفيفاً. ففي المساء الساعة التاسعة كانت درجة الحرارة لم تزل 34 درجة مئوية. وبقيت طويلاً لا أستطيع النوم من شدَّة الحر. وفي الصباح الباكر أيقظتني تحية أمل شافية: من السماء التي بدت صاحية سقطت على مخيمي قطرات ناعمة.

---

(1) فيلاريا مدينسيس أو دراكونكولوس مدينسيس هي دودة خيطية منتشرة بكثرة في أماكن مختلفة في الشرق وخاصة في الحجاز واليمن. وهي تدخل إلى الجسم بطريقة غير معروفة بعد عن طريق ماء الشرب الملوث وتثقب العضلات، وبعد 6 ـ 10 أشهر حيث يكون قد وصل طولها إلى 60 ـ 90 سنتيمتراً تدخل تحت النسج الرابطة للجلد مفضلة الأطراف السفلية ثم تثقب نحو الخارج عبر الورم المتشكل. وعندما يظهر رأسها يعلق بواسطة قطعة خشبية وتسحب الدودة من الجسم ببطء شديد وبمنتهى الحذر، وإذا ما أبدت أي مقاومة يجب التوقف عن سحبها لأنَّها إذا ما انقطعت تتشكل تقرحات خبيثة وتقيحات.

الأحد 30 سبتمبر/أيلول 1883م. طلب منِّي الشيخ عبد الله ألَّا أخرج للتنزه هذا اليوم، على أيِّ حال ألَّا أخرج وحدي وألَّا أخرج بدون سلاح لأنَّ كثيراً من البدو ينتشرون في الطرق، كما أنَّ ضيوفه يسرحون مع إبلهم في المراعي. وحسب أقوال بدوي من قبيلة الشرارات يوجد خارجاً في السهل ما لا يقلّ عن 200 شراري مع إبلهم. وهم يقومون بأعمال الدورية في الليل أفراداً أو مجموعات، وقد جاؤوا هذه الليلة أيضاً إلى القرية لكي يأخذوا ماء. وقال الشيخ عبد الله: إنَّه يدفع للشرارات كما يدفع لغيرهم من بني عيسى والرولة لا بل والحويطات؛ لكن الظروف تغيَّرت في هذه الأيَّام ولم تعد خالية من المشاكل كما كان الحال في السابق، وأنَّ غرور بني عيسى يتصاعد مع تزايد عدد البنادق الموجودة لديهم. وهم يملكون الآن حوالي 40 بندقية (مرتينة) أو أكثر.

بذلت كثيراً من الجهد لكي أقنع الشيخ بإنهاء القذارة التي تدور في داره. فقبل أن أتخذ مكاني حول موقع إشعال النار لتناول فطوري كان بدوي قد جلس على سجادتي ولم يستطع محمود طرده إلَّا باللجوء إلى القسوة. ولم يبخل محمود في الردّ على شتائمه ولعناته[1]. وكان لدى هذا الرجل جراب غريب للسمن مصنوع من جلد ضب. وزعم أنَّ هذا الحيوان يصل طوله إلى ما يقرب الذراع وهو يعيش في الأرض الرملية الصخرية ويضع بيوضاً، لحمه أبيض يشوى على النار بعد رشه بالملح.

بعد الظهر انطلق فجأة صراخ من جناح النساء في البيت؛ تلقت لهود خبراً بوفاة أخيها في إثرة فانفجرت بالبكاء والعويل بينما تعاطفت معها النساء الأخريات وشاركنها في الولولة. في المساء توجَّهت إلى بلدها والدموع في عينيها؛ فودعتها باليد ولم أرها بعد ذلك أبداً.

بعد غروب الشمس جاء من المرعى مجموعة من الضيوف بلغ عددهم 35 رجلاً. شكلوا في الباحة دائرة واحدة وقدمت لهم ثلاثة أطباق كبيرة مليئة بالتمر بينما كان هناك عبد يضيء وجبة الطعام بسعفة نخل مشتعلة. وكان في

---

(1) «الله يقطع النصارى».

وسعي تحت ضوء النار مراقبة الوجوه والحركات بكل وضوح. وبما أنَّني كنت لم أزل «نعساناً»[1] من الليلة الماضية فقد انسحبت بعد وقت قصير ولم أنتظر تقديم القهوة ولم أستمع إلى عزف الربابة الذي لم يتوقف حتى بزوغ الفجر.

الاثنين 1 أكتوبر/تشرين الأوَّل 1883م. كان الصباح بارداً إلى حدٍّ ما. مبكراً رحل بنو عيسى إلى حوران وأخلوا المكان للشرارات. على الرغم من أنَّ هذه القبيلة كثيرة العدد فإنَّها لا تتمتع بمكانة متميزة. وعليَّ أن أقول: إنَّني لم أر حتى الآن بدواً بهذه الحالة الرثَّة والقذرة. جلدهم القاتم غير نظيف، مسامه مملوءة بالغبار الأبيض، ووجوههم مملوءة بالتجاعيد والانتفاخات. كانوا يعلقون أسلحتهم البائسة على الحائط أو يضعونها أمامهم على الأرض. وكانوا بانتظار الطعام يجلسون القرفصاء وكان بعضهم منبطحاً على بطنه سانداً رأسه بذراعه أو يلعب بعصا قيادة الإبل في الرمل. وقد مضغ أحدهم من أجل قتل الوقت عشرين بذرة تمر بالسهولة نفسها التي نمضغ بها نحن حبات البن المحمَّصة. وعندما لاحظ أنَّني أراقبه جاء إليّ وطلب بعض التبغ. وفي الوقت نفسه أخذ بيده جمرة من النار ونقلها إلى مكان جلوسه وهو يقذفها تكراراً في الهواء لكي لا يحترق. بالقرب من مكاني المعتاد كان المدخل إلى حديقة الشيخ. في الحديقة[2] كان هناك شابان، بقَّان وسعود، يعملان حراساً ويمكثان فيها ليل نهار. ولذلك كانت هناك حركة متواصلة، دخولاً وخروجاً، طيلة النهار كما في عش الحمام ولم أر أبداً أحداً مُنع من الدخول. والباب الذي لن أنساه أبداً كان يدقّ ويُرجّ كل ساعة ثلاث إلى أربع مرَّات، وبما أنَّه كان مغلقاً على الدوام كان القادمون ينادون في كثير من الأحيان «يا بقَّان، يا سعود!». ولكن ولأنَّ المفتاح لم يكن ليعمل إلَّا نادراً، لأنَّ أسنانه الستة أو الثمانية المصنوعة من الخشب القاسي إمَّا قصيرة أو طويلة، وفي كثير من الأحيان تكون مكسورة، فقد كان يضيع كثير من الوقت في تركيب سنّ جديد وفي تقويم السِّنّ المعوج بعضّه بالأسنان. كنت أضّجع في كثير من الأحيان

(1) بلغة البدو: «رقلان» بدلاً من كلمة «نعسان» المعتادة.

(2) «حوطة».

ساعات طويلة في الحديقة لأنَّ هذا كان مسلياً للغاية. كانت الحفر الصغيرة التي تروى منها أشجار النخيل تفتح وتغلق عدَّة مرَّات في اليوم أو تنظف، وكلَّما جاء ضيوف، وحتى ولو ضيف واحد، كان أحد الحارسين يتسلق، دون أي وسائل مساعدة، على إحدى أشجار النخيل لكي يجلب بقميصه كمية طرية من التمر. وكم كنت أعجب من المهارة والسلاسة التي كانت تُنفّذ بها هذه المهمة. فعلى النخلة المكتملة النمو والتي يتراوح ارتفاعها بين 50 و70 قدماً يوجد تحت التاج الورقي معلقاً على ساق طويلة 6 ـ 10 أقناء[*] كبيرة من التمر وكل قنوٍ يحتوي على مائتي تمرة تقريباً بوزن إجمالي قدره 300 كيلوغرام، في يونيو/حزيران تكون لم تزل خضراء كحبات البازلاء الفتية وفي أغسطس/آب تتخذ الثمار، التي تكون قد أصبحت متطاولة، لوناً أصفر[1] وتصبح في المنطقة التي أتحدث عنها بلون أحمر قاتم في سبتمبر/أيلول. وهي لذيذة جداً عندما تؤكل طرية ويبدو أنَّها في حالة النضج تمتلىء بالدبس بحيث إنَّها عندما تقطف ينسلخ اللحم عن البذرة. ولعلنا لا نخرج عن الموضوع إذا ما أشرنا إلى أنَّ أشجار النخيل وحيدة الجنس، أي إنَّها تكون مذكرة أو مؤنثة، وهناك مقابل كل 1000 شجرة مؤنثة نحو 5 ـ 6 شجرات مذكرة. والأشجار المؤنثة فقط تحمل الثمار ولكن يجب أن تلقح اصطناعياً بيد الإنسان. ولهذا الغرض يتسلق أحدهم على الشجرة المؤنثة ويقطع بالبلطة دائرة الأوراق القديمة ثم ينظف التاج بعناية. عن طريق قصّ ساق الورقة العائد لكوز الأزهار الذكري الذي يحمله المتسلق معه في حزامه تنكشف بذور التلقيح البيضاء الموجودة داخله والتي تشبه زهر القرنبيط ثم يرش جزء صغير جداً من الغبار

(*) ينظر كتاب **النخل** لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ص86، طبع مؤسسة الرسالة 1402هـ ، بيروت، ودار اللواء بالرياض. (المراجع).

(1) تُسمَّى عندئذٍ «بسراً». عند قطفها في هذه المرحلة نصف الناضجة تقاوم بسهولة التعفن. معظم الثمار التي تأتي إلى عندنا تقطف قبل نضجها، وإلَّا فإنَّها لا تتحمَّل مشقة النقل. أمَّا الثمار الناضجة (تمر أو سحَّة) فتعبأ للاستهلاك المحلي في أكياس مصنوعة من جلود الماعز أو الغنم وترصّ بقوَّة بحيث إنَّ الثمار تشكل مع البذور كتلة متراصَّة قاسية. وإذا ما بقيت في الكتلة بسبب عدم الانتباه فراغات تتخمَّر الكتلة بكاملها وتفسد وتصبح غير صالحة للأكل.

على الزهور الأنثوية لتلقيحها. وقد شاهدت هذه العملية فيما بعد في تيماء عدَّة مرَّات في شهر فبراير/شباط.

لا يمكن لأشجار النخيل أن تنمو إلَّا في مكان تستطيع فيه امتصاص الماء ذاتياً بواسطة جذورها أو تحصل على الماء اللازم عن طريق الري الاصطناعي: «قدمها في الماء ورأسها في النار». وهذا يعني أنَّنا حيث نجد أشجار نخيل فلا بُدَّ من أن يكون الماء اللازم موجوداً في أعماق قريبة أو في الأمكنة الجانبية المجاورة. فقصيدة (الشاعر الألماني) هاينريش هاينه «تلك النخلة القابعة على أرض صخرية حارقة في بلاد الشرق البعيد حزينة وحيدة وصامتة»، بقدر ما هي جميلة فهي في الواقع غير ممكنة. فأشجار النخيل البرية التي تنمو بدون عناية ولا صاحب لها غير موجودة في البلاد العربية بأسرها. وإذا ما شاهد المرء في مكان ما بعيداً عن البيوت السكنية للناس مثل هذه الأشجار فإنَّ مالكها يكون غير موجود بمحض الصدفة. ولكن ما أن تظهر الثمار الأولى وتصبح بحجم حبة البازلاء فلا تترك أي شجرة نخيل واحدة ولا ساعة واحدة، بل تحرس ليلاً نهاراً من اللصوص الذين لا يتورعون عن سرقة حتى الثمار غير الناضجة. ومن الجدير بالذكر أنَّ قطع أشجار النخيل لا يحدث إلَّا نادراً، وحتى في أشد العداوات بين القبائل، ويُعدُّ فعلاً همجياً مرفوضاً.

في الساعة الخامسة مساءً عاد هوبر وحمود مع عدد أكبر من المرافقين من دمشق. وكانوا قد قاموا بمسيرات شاقة وطويلة واصطدموا عند قصر الأزرق مع مجموعة للغزو من قبيلة الرولة؛ بفضل معرفة هوبر للرولة من زمن سابق انتهت هذه المقابلة بسلام. ذكر هوبر عن قصر الأزرق أنَّ الكتابة الوحيدة التي رآها هناك بدت له أنَّها كتابة كوفية رديئة. وكان حمود قد اشترى من دمشق بضاعته التافهة، ومن ضمنها كمية كبيرة من الذخيرة وما لا يقل عن ثلاث حقائب فارغة. لقد صار يضايقني بفضوله الطفولي والملحّ وبتسوله الدائم وكذلك بالروائح الطافحة التي كان قد دهن بها جسمه ورشها بغزارة على ثيابه. ولم يكفّ عن المطالبة إلى أن اطلع على نصف محتويات حقيبتي الشخصية على الأقل ولمس معظمها بيديه. وكم كان يتألم عند كبته للأمل في

أن يخلصني هذه الحقيبة الثقيلة على الطريق سواء بالتسول أو بالقوَّة. أما أنا فقد تصرفت وكأنَّني لم ألحظ الصراعات النفسية التي تدور في داخله ورفضت جميع محاولاته للمبادلة أو التوريث بطريقة غير شرعية وغير أخلاقية.

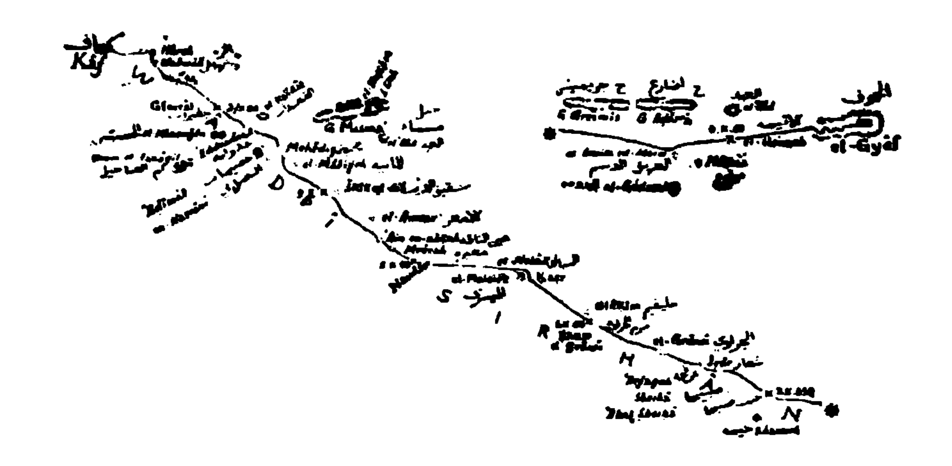
تناولت طعام العشاء، الذي كان سيئاً جداً، بعد فترة طويلة من الزمن مرَّة أخرى عند الشيخ بحضور الرجال الآخرين، وتناولنا القهوة حول النار المتقدة واستمعنا إلى العزف على الربابة والثرثرة التي لا نهاية لها حتى منتصف اللَّيل.

الثلاثاء 2 أكتوبر/تشرين الأوَّل 1883م. منذ بضعة أيَّام تشكلت في قدمي اليمنى بين الإصبعين الأولى والثانية بثرة متقيحة مؤلمة أعاقت قدرتي على السير. وخلافاً لكل النصائح كنت أضع قدمي كل يوم عدَّة مرات في الحديقة تحت قناة صغيرة للماء الجاري. لكن هذا لم يفد كثيراً ولذلك تركت الأمر يأخذ مجراه. وهذا مرض له علاقة بالتعود على المناخ الجديد وعلى طريقة الحياة المتغيرة. وقد زعم الشيخ، ولعلَّه كان محقاً في ذلك، أنَّ جميع الناس الذين لم يولدوا في شبه الجزيرة العربية نفسها، وحتى لو انحدروا من المناطق المجاورة (صلخد، دمشق)، يصابون بهذه الأورام التي يُسبِّبها الماء، وقال: إنَّها قد تكون مزعجة وتعيق السير لكنَّها ليست خطيرة بأيِّ حال، بل بالعكس فهي علامة صحة جيدة، ولكن ينبغي عليَّ ألَّا أقوم بأي تصرف تجاهها. ويبدو أنَّ الجسم القوي يتخلص من المواد الفاسدة التي تصل إلى الدم عن طريق الماء الملوث عن طريق الأطراف بهذا الشكل. لذلك تركت هذه الجروح وغيرها من الجروح الأخرى التي تشكلت في وقت لاحق مكشوفة على الدوام أسابيع طويلة، وإن كان الرمل والغبار قد أدَّى إلى تزايد الالتهاب.

الفصل الرابع

عبر وادي سرحان إلى الجوف

3 أكتوبر/تشرين أوَّل ـ 9 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م



طريق الرحلة من كاف إلى الجوف

الأربعاء 3 ـ الأحد 7 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. بعد طلوع الشمس مباشرة أحضرت الإبل وبدأ تجهيز الحمولات والأمتعة للسفر عبر وادي السرحان إلى الجوف. ولم يكن هوبر قد أبلغني بكلمة واحدة أنَّ الانطلاق سيبدأ اليوم. وعليَّ أن أعترف أنَّني قد فوجئت بهذا القرار ـ ليس لأنَّ وداع كاف كان قد أصبح صعباً عليَّ وإنَّما لأنَّني كنت أنتظر منه، على الرغم من أنَّني أعطيته كامل الحرية في أن ينظم الرحلة كما يشاء، أن يبلغني باتفاقه مع حمود. عند الوداع تكرَّمت على النساء ببعض الهدايا الصغيرة وسألت الشيخ عبد الله عمَّا إذا كنت أستطيع أن ألبي له أي رغبة خاصة. فرجاني أنْ أقرضه بعض المجيديات وقال: إنَّه سيعيدها لي عند عودتي. فأعطيته خمس مجيديات (حوالي 18 ماركاً) وقلت له عليه أن يحتفظ بها

حتى نلتقي في الجنَّة، تجمَّع أهالي القرية جميعاً في الخارج أمام البوابة لكي يتمنوا لنا رحلة سعيدة. كانت الساعة الثامنة والنصف عندما تحرَّكت قافلتنا باتجاه إثرة. كان هناك 24 رجلاً على 23 من الإبل بالإضافة إلى زنجية معها طفلان. وبطبيعة الحال كنَّا، أنا وهوبر، الشخصين الرئيسيين في القافلة. لكن قائد الرحلة الحقيقي، الذي تنفذ تعليماته بكل دقة ولا يردّ له طلب، كان حمود المجراد(*). لم أتعرَّف على هذا الرجل وأعطيه حق قدره إلَّا في وقت لاحق وتبيَّن لي أنَّه بعد أمير حائل (حايل) أفضل من جميع البدو. فيما مضى كانت صفاته البدوية الصارخة وخصائصه الشخصية تجعلني أنفر منه. كان عمره، كما يزعم، 47 عاماً وكان طويلاً ونحيفاً وله عينان ثاقبتان وأنف مدبَّب. كان جشعه كبيراً لا حدود له؛ فما كان يراه كان يريد الحصول عليه أيضاً، وعندما لا يحصل عليه كان لا يكفّ عن المحاولة على الأقل، أمَّا حبّه للحقيقة فلم يكن ليصمد دائماً أمام اختبار صارم، وإن كان لم يكن تماماً كما زعم الخادم محمود بأنَّ كل كلمة تخرج من فمه تحتوي على كذبة. إذ إنَّه كان قد اعتاد منذ فتوته على عدم قول الحقيقة توخياً للحذر وعلى أن يردّ على السائل بجواب يقوده إلى الطريق الخطأ. ولذلك كان قد أدَّى مهام عويصة وبعثات دبلوماسية صعبة (ومنها مثلاً: إلى إسماعيل باشا نائب ملك مصر آنذاك) بشكل مرض لأميره. لم يكن ينقصه بأيِّ حال الذكاء ولا الشجاعة وكان قد تميَّز بذلك في العديد من الغزوات؛ كانت على جسمه علامات مختلفة ناجمة عن طلقات نارية أو طعنات. ولكن مقابل ذلك كان معجباً بنفسه إلى درجة مضحكة ومدمناً على النظافة؛ كان ينظر كل يوم مراراً عديدة إلى المرآة الصغيرة التي كان يحملها في جيبه ويراقب وجهه بعناية ومحبة. كان يكحل عينيه بالإثمد الأسود لكن العناية الأكبر كان يوليها للحيته المتشيبة التي كان يصرف عليها وقتاً أطول، لا أعرف المواد التي يصبغ بها الشرقيون شعرهم باللون الأسود فقد كان يصبغ لحيته، مثل غالبية الشرقيين، باللون الأحمر، ويتم هذا بواسطة أوراق نبتة الحنَّاء. كل يومين أو ثلاثة كان

(*) قارن هذا المدح بالسب والشتم في ص144 و145 من هذا الكتاب. (المراجع).

يحضر في صحن الحساء السنجابي الأخضر ثم يلصق هذه الخلطة المقرفة على لحيته وجدائله الأمامية. بعد ساعة يجفّ كل شيء ويصبح من الممكن نفض الغبار من الشعر. عندما رأيته لأوّل مرَّة يفعل هذا تملّكني الضحك ولم أستطع كبت الملاحظة، بأنَّ منظره يشبه منظر المنحوس الذي سقط على روث البقر الطري. لم يسامحني أبداً على هذه المزحة. كان بالنسبة إلى البدو نظيفاً جداً. فلم يكن يستطيع رؤية ماء غير مستعمل، بل كان يصبّه فوراً على يديه ثم ينظف يديه بمسحها بجدائله أو بغطاء رأسه أو، وأيضاً، بإحدى سجاداتنا. كقائد للقافلة وعارف للطريق كان لا يضاهى وكان استبدادياً جداً في إعطائه للأوامر والتعليمات. كان لا يكفّ عن حثّ الناس على السرعة ويهتم شخصياً بجميع التفاصيل. فقط من محمود كان لا يقترب أبداً منذ أن أعطاه هذا الأخير، وكان محقاً في ذلك، درساً قاسياً عندما حاول التدخل في طريقة شدّ رحالنا لإبلنا: إذ إنَّ هذا الطفيلي الكذّاب يجب أن يكون ممتناً لأنَّه يتغذّى من طعامنا الجيد وكان عليه ألّا يفرض على محمود، الذي حجَّ إلى مكَّة سبع مرَّات، التعليمات عن كيفية وضع الشداد (الرحل) على ظهر الذلول وربطه. أمَّا أنا فلم يعد ينظر لي منذ عودته من دمشق بتلك الريبة كما كان الأمر قبل ذلك. فقد كان يدَّعي أنَّه حصل في كل مدينة على معلومات مرضية عنِّي ومشيدة بي.

الشخصية الثانية التي احتككت بها الآن كانت محيثل أبو حمد من الجوف؛ فقد كان منذ سبعة أيَّام، حتى وصوله إلى موطنه، رديفي أي الشخص الذي يركب خلفي على ظهر ذلولي. وكان قد لفَّ حبلاً من نهاية الشداد حول مؤخرة ذلولي وبينما كان يتثبَّت بيده على غزالة الشداد كان يسند أسفل قدميه على الحبل أو يجلس بين حين وآخر في الأنشوطة نفسها. وكان حريصاً على جعل مقعدي مريحاً قدر الإمكان لكي يُخفِّف من الآلام الناجمة عن ركوبي على الذلول وأنا المبتدىء في هذا المجال. لكن ما كان يزعجني كان فقط صراخه الحاد على مسافة قريبة من أذني «هيك»! «هيك»! حيث كان يحثّ ذلولي على السير بخطى أسرع. فيما عدا ذلك أخص أيضاً بالذكر نصف الزنجي إبراهيم أبو خليل من حائل (حايل) ثم شرارياً قحاً اسمه صلبوخ (أي الحجر الناري) الذي

كان قد أجَّرنا جمال الحمولة إلى حائل (حايل)[1]. يُضاف إلى هؤلاء شخصان يبدوان على قدر من الوجاهة يركبان على ذلولين أنيقتين، وهما تجَّار إبل من دمشق، يُسمَّى أحدهما حسين، وكان أبوه يمارس المهنة ذاتها منذ ثلاثين عاماً، والآخر أحمد. هذان الرجلان يأتيان بانتظام منذ عشر سنوات إلى جبل شمر لكي يشتريا إبلاً من هناك، وكانا حتى الآن يسافران دوماً برفقة قوافل الحجّ ثم ينفصلان عنها عند وصولهما إلى مقصدهما، أمَّا هذه المرة فقد التحقا بقافلة حمود. وكان هناك أيضاً رجل مريض من مواليد القصيم؛ بعد الإقامة 22 سنة في دمشق قرَّر العودة إلى وطنه ليقضي فيه بقية عمره. كان يرتدي ثياباً رثَّة ويرتجف من الحمَّىٰ ولم يكن قادراً على ركوب الذلول وحده. كان رفيق له يمسكه بين ذراعيه وإلَّا لكان سيسقط عن ظهر الذلول. أمَّا بقية المشاركين في الرحلة فلم يكن لديَّ أي اهتمام بهم. ولكي نزيد حالة الأمان من جهة ولتخفيف الحمولة عن الإبل من جهة أخرى قمنا بتوزيع نصف البنادق، التي كان صاحب الجلالة الملك كارل فون فورتمبرغ قد تكرَّم بإعطائها لي، على المرافقين بعد تذخيرها. ولم يشعروا بها كعبء وإنَّما كانوا يحملونها بكل فخر واعتزاز خلال الرحلة إلى حائل (حايل) التي استغرقت 20 يوماً. وعلى الرغم من أنَّه لم يكن لديهم أدنى شك في أنَّ تسليمهم البنادق كان لفترة مؤقتة، فقد كان يحدوهم الأمل في أنَّها قد تؤول إليهم في يوم من الأيَّام.

لا أريد أن أتعب القرَّاء بتعداد الآبار الواقعة على الطريق خلال المسيرة التي دامت سبعة أيَّام ولا بتعداد قمم الجبال في وادي سرحان (لا يوجد أي قرية في هذا المقطع) وإنَّما أكتفي بالإشارة إلى الخريطة المرسومة على الصفحة 121 وإلى الصفحة 99 وما يليهما. وادي سرحان هو عبارة عن منخفض عرضه 5 ـ 10 ساعات يمتد من الشمالي الغربي نحو الجنوب الشرقي محاط بصخور كلسية بيضاء ولكنَّه مغطَّىٰ بأحجار لمَّاعة قاتمة مخلوطة ببلورات جصية (جبسين). وبصرف النظر عن السبخات الملحية المذكورة في

(1) حصل لقاء جماله الخمسة عن الرحلة من كاف إلى الجوف والتي استغرقت سبعة أيَّام 20 مجيدياً (70 ماركاً). أمَّا الرحلة من الجوف إلى حائل (حايل) فكان سيؤمن جمالاً أخرى وسنتفق على أجورها عند تقديمها.

الصفحة 71 والصفحة 109 أعلاه فإنَّ التربة خصبة وغنية بالأدغال. ومن السهل المتموج المليء بالأخاديد ترتفع مخاريط جبلية تسطحت بفعل العوامل الطبيعية تكسر الأرض الصخرية أحياناً والرملية أحياناً أخرى. وكل ساعتين أو ثلاثة يوجد موقع مائي يعرف من بعيد من النباتات والأدغال العالية المحيطة به. فقط بالقرب من الآبار الكبيرة تكون الأرض قاسية من دوس المخيمات وتكون جرداء من شدَّة الرعي. المياه حلوة ومليئة بالديدان والحيوانات الصغيرة التي يستخلص العرب من وجودها أنَّ الماء صحي أيضاً. خلال الطريق وضعنا مراراً المريض المصاب بالحمَّى والمعالج بالكينين (الكينا) في بئر كهذا لكي نخفض درجة حرارته. كانت درجة حرارة الجو تصل في هذه الأيَّام إلى 37 درجة لكنَّها كانت تنخفض في الصباح الباكر إلى 10 درجات ممَّا كان يبدو بارداً بشكل محسوس. كنَّا نشاهد مراراً وتكراراً الزوابع أو الأعاصير وكذلك السراب. النباتات الرئيسة على الطريق كانت الحلفا والسبط والنصي[1] والمصع وأنواع مختلفة من الزعتر الذي تملأ رائحته الطيِّبة، وخاصة عند الاحتراق، الجو بكامله. المرأة الزنجية مع أطفالها، التي كنت أقدم لها بين حين وآخر بعضاً من الطعام الوافر لدينا، أرادت أن تعمل لي معروفاً كما نفعل نحن في مثل هذه الحالات بأن نقدِّم للآخر باقة ورد؛ كان ما قدَّمته لي كرات تشبه حبات الفاصولياء ممَّا تضعه[*] الغزلان لكنَّها كانت ذات رائحة كرائحة الزعتر. على كثير من الشجيرات الصغيرة كنت أرى عيداناً وأغصاناً كاملة مغطَّاة بطبقة صلبة من الرمل والغبار الذي كان يتطاير مع الريح عند تعرق مرضي. سمَّى حمود هذا المرض «أرضة» بينما سمَّاه محمود «أرمة». من الحيوانات التي شاهدناها في الطريق، فيما عدا أفعى واحدة، العديد من الغزلان وأرنب واحد دفع حياته ثمناً لعدم حذره. وقد طبخ مساء ببساطة في الماء. ومن

---

(1) عشب طري يُعدُّ من العلف المفضَّل للإبل.

(*) لعلّه يقصد ما أشار إليه المتنبي بقوله:

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإنَّ المسك بعض دم الغزال

(المراجع).

الجبال الملفتة للانتباه شاهدنا في طريقنا الجبال التالية: في اليوم الثاني شاهدنا جانباً على اليمين في السهل هرمين أبيضين يُسمِّيان «الخصيين»؛ وفي اليوم الثالث شاهدنا على جهة اليسار سلسلة جبال «مسمأ»[1] مع جبل قاتم اللون بارز إلى الأمام[2]؛ وفي اليوم الثامن شاهدنا إلى اليسار جبل جريميس وجبل الأضارع وإلى اليمين على مسافة يوم كامل في الجنوب جبل الطويل الشاهق عالياً في صحراء النفود. لم نشاهد أي أثر للحركة؛ إلّا أنَّنا تقاطعنا على مسافة قصيرة قبل بئر تباك مع آثار سير لخمسين حصاناً من الغزوة الأخيرة للرولة أو الصقور الذين يجب أن يكونوا قد مروا من هنا قبل 20 يوماً.

كان نظام الرحلة اليومي منتظماً إلى حدٍّ ما: الانطلاق ساعة قبل طلوع الفجر أي في حوالي الساعة الخامسة؛ كنَّا نسير بلا فطور حتى الساعة السابعة والنصف؛ بعد ذلك طعام الفطور مع توقف لمدة ساعة ونصف. ومن الساعة التاسعة حتى الرابعة بعد الظهر مسير دون توقف؛ بين الساعة الرابعة والساعة السادسة توقف لتناول طعام العشاء ولإقامة الصلاة. وبعد ذلك نتابع السير في الظلام حتى الساعة التاسعة. وعند كل تخييم كنَّا نضع مركزاً أو مركزين مسلحين للحراسة.

هناك بعض الأشياء المريحة أثناء السفر في الصحراء أذكر منها: الاستقلال التام، وعدم الحاجة إلى النقود، والهواء النقي جداً، والبرودة المنعشة في اللَّيل، والغياب الكامل للذباب والبعوض والبراغيث[3] والبق، ووفرة الحطب، والنار ذات الرائحة الطيِّبة أثناء التخييم، والسرير الرائع في الرمل الذي يشبه اللآلىء[4].

---

(1) يجب عدم الخلط بينه وبين الجبل الذي يحمل الاسم ذاته والواقع إلى الغرب من حائل (حايل) في منتصف الطريق إلى تيما والملاصق لجبل عنجة.

(2) يُسمَّى «العبد»، والمقصود بذلك «الأسود» لأنَّ العبيد هم دوماً سود.

(3) الممثل الوحيد لهذه الفصيلة والذي رافقنا في الرحلة من دمشق تمَّ اكتشافه في اليوم الثالث عند فتح أحد الحقائب ومات حرقاً على النرجيلة.

(4) انظر الفصل السادس، وصف صحراء النفود.

لكنَّني كوني مبتدئاً في هذا المجال فقد كنت أعاني من الجروح المتشكلة في مؤخرتي بحيث لم أكن أستطيع خلال الأيَّام العشرة الأولى النوم أثناء الاستراحة إلَّا على جنبي. ومع مرور الزمن صرت أعتبر الرمل والحجارة الناعمة التي كانت الرياح تنقلها إلى الطعام أمراً طبيعياً تماماً، وحتى تجاه الضرب الذي لا معنى له للحيوانات والصراخ المتواصل «هيك» «هيك»! أصبحت، للأسف، شيئاً فشيئاً عديم الإحساس. ولكن هناك شيئاً آخر شديد البشاعة، لا يذكره أحد في أوروبا المتمدنة، ويلعب دوراً كبيراً عند البدو ولا يمكن أن نتجاهله هنا ألا وهو - وأرجو عزيزي القارىء ألَّا ترتعب عند ذكر اسمه - المرافق الدائم والوفي لجميع البدو: القمل[1]. هذه الحشرة التي أصبحت ولله الحمد في أوروبا الوسطى - باستثناء الحملات العسكرية - بالنسبة للناس العاديين من أساطير الماضي، كان الرحَّالة ذوو الخبرة قد حذَّروني منها قبل زمن طويل؛ أي إنَّ المفاجأة لم تكن كبيرة جداً عندما تعرَّفت شخصياً عليها في نهاية المطاف. عندما شعرت في اليوم الثاني بعضَّة وحكَّة في رقبتي طلبت من الشخص الراكب خلفي على الجمل، أي من محيثل، أن ينظر ما في الأمر. وبنوع من الشعور بالمشاركة - لأنَّني كنت قد تلقيت منه هذا الضيف - قال بصوت رخيم: «آها، إنَّ عبد الوهاب لديه قميلة»[2] ومنذ تلك اللحظة لم يعد يرى بي الرجل الغريب وإنَّما المسافر الرفيق المتساوي وابن القبيلة ذاتها. ودون أن أطلب منه حررني على الفور من هذا الزائر المتطفل الأوَّل وهدأني بقوله: «ما يخالف!». في الثياب البدوية تكون المسألة فعلاً غير سيِّئة إلى هذه

(1) يبلغ طول القملة 3 - 4مم، يجب التمييز بينها وبين قمل الرأس وقمل العانة. تكون الذكور أصغر من الإناث وعددها أقل. تضع الإناث نحو 60 بيضة بيضوية الشكل لمَّاعة بطول 0,8 - 1مم وبعرض حتى 0,5 مم تلتصق بطيَّات الثياب وأماكن خياطتها. جسمها رمادي متسخ ورأسها دائري متطاول وفي فمها أدوات للثقب والامتصاص. حساساتها نحيلة وقوائمها مزوَّدة بمخالب. منطقة الصدر ملتصقة مباشرة بجسمها الخلفي الأكثر عرضاً. جسمها مسنَّن في أطرافه الخارجية وله نهايتان مدبَّبتان. تفضل المناطق من الجسم القليلة الشعر أو العارية - الرقبة، وجدار البطن، والظهر. وهناك حشرة أخرى مختلفة كل الاختلاف هي القراد، الذي لا يهاجم الإنسان إلَّا نادراً، وكذلك «الحلمة».

(2) تصغير قملة.

الدرجة؛ بما أنَّ الثوب الواسع، ومع غياب النطاق، لا يلامس الجسم إلَّا عند الرقبة فإنَّ تلك الحشرات لا تستقر إلَّا عند ياقة الثوب وتعضُّ من هناك في الجلد. وهناك لهذا الغرض دواء بسيط مجرَّب منذ أربعة آلاف سنة؛ يبحث المرء عن هذه الكائنات كل صباح ثم يلقي النماذج السمينة منها في النار؛ بعدئذٍ يرتاح المرء من إزعاجاتها النهار بكامله لأنَّ اليرقات الفتيات تحتاج إلى يوم كامل على الأقل قبل أن تتمكن من التعبير عن وجودها بالعضّ. وبهذه المناسبة أودّ الاعتراف بأنَّني خلال الأشهر السبعة التالية لم أخل أبداً ولا يوماً واحداً من القمل. بالمقابل لم أُزعَج أبداً من البراغيث والبق. وفي وقت لاحق صرت قادراً على فهم حمود عندما عبَّر قبيل سفره إلى دمشق عن براغيث وبق تلك المدينة بمنتهى القرف والخوف، بينما كان يغني ابتهاجاً بقملاته المتوارثة. فإذا ما كان لدى المرء متسع من الوقت لتعليق ثيابه في العراء وتعريضها للريح يستطيع أن يكون متأكداً من أنَّه سيبقى على الأقل آمناً من هجمات هؤلاء السكَّان المزعجين. خلال النصف الثاني من رحلتي استفدت من عادة عائلية وخاصة لدى الإقامة في مخيم؛ فكما يطلب الناس عندنا من الضيف أن يغتسل لكي ينتعش ويستعيد حيويته ويسألونه عمَّا إذا كان ربَّما يريد تسليم قميصه وجواربه ومناشفه للغسيل والكوي، دعيت مراراً عديدة لتبديل قميصي؛ عندئذٍ يؤخذ القميص القديم إلى حجرة النساء لكي ينقَّى هناك من القمل بمنتهى العناية ثم يُعاد إلى صاحبه ـ ولكن لنكتف بهذا القدر من الحديث عن هذا الموضوع ـ.

في صباح اليوم السابع (الثلاثاء 9 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م) كان طريقنا ينحدر بشدَّة نحو الأسفل باتجاه واحة الجوف الواقعة في مكان منخفض ـ عبر ممر ضيق بين صخور كلسية وصلنا إلى شرفة متموجة حيث توجد صخور فضية رمادية (مثل كلس الصدف المتشظي)[1] اخترقت الجص والرمل على شكل فقاعات كبيرة ودرنات متفجرة. في الأسفل تقع بساتين النخيل الخضراء

(1) الكلس المائل إلى الأزرق لا يظهر إلَّا على الجهة الغربية، وفيما عدا ذلك حجر رملي في كل مكان. أمَّا بالقرب من «المارد» فيوجد حجر كلسي رخامي يميل إلى اللون الأحمر يستعمل لصنع الأجران.

الغامقة تحيط بها سلسلة متدرجة من جبال الحجر الرملي يبلغ ارتفاعها 400 ـ 500 متر، وتنتشر فيها البيوت التي يطغى عليها البرج الداكن «مارد» و«القصر» الجديد قلعة الرشيديين. في الخلفية البعيدة على الجهة الشرقية تبرز صحراء النفود (مثل جدار ثلجي يبهر البصر)[1] وهي صحراء رملية متحركة خالية من الماء تمتد في الجنوب حتى جبل شمر. حسب العادة البدوية قمنا أمام المدينة بتنظيف أنفسنا وارتداء أفضل ما لدينا من ملابس واتخذنا جميع الإجراءات الرسمية لكي يكون دخولنا احتفالياً قدر الإمكان. وأرسلنا أمامنا رجلين لكي يخبرا الناس بقدومنا. وفي حوالي الساعة التاسعة ترجلنا من على ظهور إبلنا لكي نحل ضيوفاً على أمير حائل (حايل) ونقضي عدَّة أيَّام عند متصرفه في الجوف.

---

(1) انظر الفصل السادس.

الفصل الخامس

الجوف

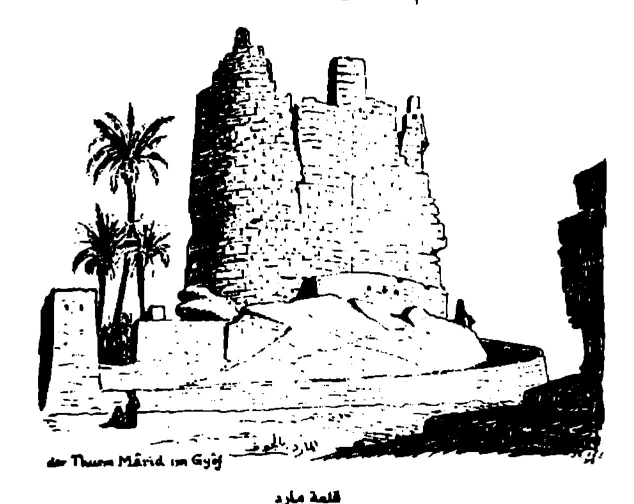
9 ـ 14 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م

كانت الجوف، وهي إلى جانب تيماء أكبر واحة في شمال شبه الجزيرة العربية، مأهولة منذ قديم الزمان وكان اسمها في الأصل دومة. ويعود هذا الاسم إلى الاسم القديم لإحدى القبائل التي كانت تحمل اسم زعيمها وهو من أحفاد إسماعيل[1]. وأنا سأعتبر نبوءة يسّى (21، 11) عن «دوماه» أنَّها تنطبق على مدينة الجوف الحالية حتى يصلنا دليل أفضل عن بلاد إدوم. والرأي القائل بأنَّ الكتابات المسمارية الآشورية تذكر الجوف تحت اسم «دوماته» هو رأي لا يمكنني اعتماده. وينطبق هذا أيضاً على الدليل النبطي الوارد في الكتابات القديمة عن «الحجر». أمَّا المراجع الكلاسيكية فتذكر مراراً عديدة اسم «دومايته»، أو «دوماته». وأمَّا الجغرافيون والمؤرخون والشعراء العرب فيضيفون إلى الاسم كلمة أخرى ليصبح «دومة الجندل». صحيح أنَّ هذا الاسم لم يزل معروفاً حتى الآن في المنطقة لكنَّه لم يعد يستعمل على الإطلاق بل إنَّ الاسم الوحيد اليوم للمدينة هو «الجوف». في عهد النَّبي محمَّد كان هنا ملك مسيحي من قبيلة كندة اسمه أكيدر ما لبث، مثله مثل الأمراء العرب الآخرين، أن رضخ لمسيرة الإسلام المظفرة ودخل في الدِّين الجديد. يتبع إلى واحة الجوف بالمعنى الواسع للكلمة عدد من القرى الواقعة على بُعد حتى مسير يوم واحد باتجاه الشمال الشرقي في مناطق نائية ولكنَّها تعيش على الحوض المائي نفسه. وهي قرية سكاكة (8000 نسمة) وقرية قارا (1000 نسمة) وقرية الطوير (300؟ نسمة)؛ أمَّا القرى التي ذكرها رحالة آخرون وهي سهارة، وجُف (؟)، وهاسية، وجاوه، ومؤيزن، فيبدو أنَّها مهجورة. لكن الموقع الرئيسي هو الجوف بالمعنى الضيق التي يبلغ عدد سكَّانها نحو 12000 نسمة. يبلغ طول الحوض مسير ساعة ونصف إلى ساعتين وعرضه ثلاثة أرباع الساعة وهو غير مملوء إلَّا إلى ثلثه بالبيوت والبساتين التي

---

(1) الكتاب الأوَّل، موسى 25، الإصحاح العاشر.

تتسلق من جهة الجنوب إلى أطراف الهضاب المجاورة. حتى إخضاع البلدة للحكم الشمري كانت أحياؤها (أسواقها، المفرد: سوق) الاثنا عشر[1] يشكّل كل منها حصناً مستقلاً في حالة الحصار المتبادل. أمّا السكّان[2] المخلوطون دون أي شعور بالانتماء المشترك فكانت بينهم عداوات مريرة ولم يكن من الممكن إحداث تحول هنا إلّا بفضل القبضة الحديدية كقبضة عبيد والسياسة التي لا تراعي أحداً كسياسة طلال. وإذا ما كان الآن يسود الأمن والنظام فإنّه مع ذلك لا وجود تقريباً للتجارة أو الحرف. إذ لا وجود للحوانيت أو أسواق البيع. وهناك عدد محدود جداً من الورشات الحرفية للصناعة الجلدية (الصنادل وعدّة الأرحال) والحدادة وحياكة العباءات. الأزقة الضيّقة تمرُّ بين أسوار الحدائق العالية ومجموعات البيوت ولا تسمح بإلقاء نظرة على الداخل. البيوت الجيدة لها جميعها تقريباً برج ارتفاعه 30 ـ 40 قدماً مزوَّد بمسنَّنات ونوافذ بُني في الأصل لأغراض حربية كنقطة للدفاع وكملجأ أخير، أمَّا الآن فلم تعد له وظيفة إلّا للزينة وكعلامة على الرخاء. لم يعد هناك الكثير من المباني القديمة. في النهاية الغربية لحوض الوادي، تحت رجم البرج، كان يحجز المدخل جدار عرضاني حجري، عمارة الأكيدر مع بوابة ضيّقة. أمّا الأهم من كل هذا فهو بقايا القلعة القديمة أو برج «مارد».



قلعة مارد

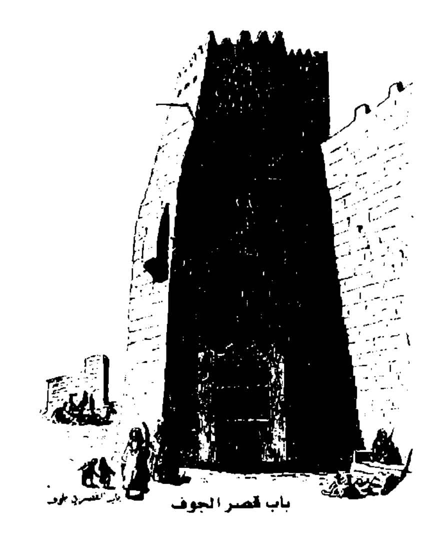
(1) يبلغ عددها اليوم 14 أو 15.

(2) رولة، تميم، سرحان، شمري، بنو لام، شرارات، متولدين (نصف زنوج).

هذا البرج مبني بحجارة مقصوصة ومؤلف من ثلاثة طوابق وفيه درج داخلي حلزوني ومحاط بجدران وسور وقد فقد منذ قصفه على يد عبيد في سنة 1855م نصف ارتفاعه تقريباً وهو اليوم خربة أثرية تسكنها فقط عائلة فقيرة. في الماضي نسج حوله كثير من الأساطير. ولقد زعم يوسف الملكي[1] في سنة 1808م أنَّه أعلى مرتين إن لم يكن ثلاث مرَّات من أعلى مئذنة في القدس، أمَّا اليوم فقد يصل ارتفاعه إلى 50 قدماً. بين المارد والقصر يقع «القصير» الذي هدم أيضاً في الحصار المذكور أعلاه.

القصر هو الأحدث وهو مبني في حي خزام في موقع مسيطر على ما حوله.

يرتفع الحصن المخيف بالنسبة للبدوي مع جدرانه وباحاته وأبراجه ونوافذه البارزة ونوافذه المعدَّة لإطلاق النار. على الزاوية الجنوبية الشرقية يوجد برج الدخول المربع الشكل والذي يضيق نحو الأعلى. وهناك من أجل الدفاع بعض «الكاتولات» (المفرد: كاتولة) (البروزات التي يصبّ منها القير الساخن على المهاجمين) وفتحات إطلاق النار. الباب الخشبي الثقيل مزوَّد بفتحة للمراقبة عليها شبك من السلاسل ويحرسه عبد من جهة الداخل. للزوَّار العاديين لا يفتح الباب بكامله وإنَّما فقط فتحة صغيرة تُسمَّى «شوكة» (في دمشق تُسمَّىٰ «خوخة») يمرُّ منها المرء بصعوبة: وهي في الحقيقة عبارة عن باب ثان مربع الشكل يبلغ طول ضلعه قدمين وموجود على ارتفاع قدم ونصف عن الأرض.



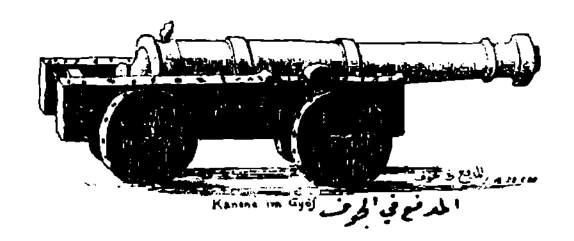
باب قصر الجوف

(1) Ritter, erdhunde XIII, 391, 395.



قصر الجوف

عند وصولنا (يوم الثلاثاء 9 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م) كان الباب بطبيعة الحال مفتوحاً على مصراعيه. تحت الازدحام الناجم عن تجمُّع عدد كبير من الناس الفضوليين تمَّ إنزال أكياسنا وتكديسها في حجرة مغلقة، أمَّا السجاجيد والأمتعة اليدوية فقد تمَّ وضعها على سطح نصف مفتوح لأحد البيوت. عند الدخول إلى القاعة كان على عيوننا، التي لم تتمتع بالظل منذ سبعة أيَّام، أن تعتاد على الظلام، جانباً في الظلمة كان هناك مدفع حديدي



قديم ضخم مركَّب على عربة لها عجلات من خشب الأثل. وكانت هيبة المدفع والقشعريرة المنطلقة تزداد شدَّة بسبب الظلمة ممَّا كان يجعل البدو يتحاشون الاقتراب منه. اقتادنا جنود الشيوخ[1] عبر تعرجات ممرات مكسرة

(1) «رجاجيل الشيوخ». يوجد منهم في قصر حائل (حايل) على الدوام نحو 200 رجل؛ وهناك نحو 300 ـ 400 رجل آخرين يتولون القيام بمهام خارجية. وهناك فصيلة من هؤلاء تبقى في حركة دائمة طيلة العام، فهي ترافق الإبل البالغ عددها عدَّة مئات، والتي يرسلها الأمير كل 5 ـ 6 أسابيع إلى النجف على الفرات لكي تجلب من هناك الأرز إلى البلد. وهناك آخرون يرافقون الحجَّاج الإيرانيين من مشهد إلى مكَّة وبالعكس، وهذا يعني أنَّهم يغيبون 6 ـ 7 أشهر أيضاً. هنا في الجوف كان هناك عشر رجال وفي قرى أخرى أصغر يتوزع عادة أربع أو خمس رجال كحدّ أقصى. لا يلبسون، طبعاً، بذلة رسمية. إلَّا أنَّ المرء يميزهم عن الآخرين من قمصانهم البيضاء النظيفة نسبياً ومن كوفياتهم القطنية الحمراء ومن عقالهم الصوفي الأبيض المزدوج. أمَّا تسليحهم فيتألف عادة من سيف فقط، لكنَّهم لا يتقلدونه وإنَّما يحملونه دوماً في يدهم. يندر أن يرتدي أحدهم معطفاً والقليلون يملكون حذاء للمهام الخطيرة يحصلون من حائل (حايل) على بنادق =

إلى القهوة (قاعة الاستقبال). دخلنا والسيف في يدنا فوق عتبة غرفة مظلمة لا نوافذ فيها وحيينا بعبارة «السلام عليكم»، فجاء من الظلمة صوت مجلجل: «عليكم السلام». عندما تقدمنا بضع خطوات إلى الأمام، جاء نحونا متصرف الشيوخ وهو زنجي اسمه جوهر. وبمنتهى اللطف مدَّ لنا يده[1] وقبَّل ـ لم أعد أعرف الآن إن كان قد قبَّل خدودنا أم كوفياتنا ـ وخاطب كلاً منَّا، علامة المشاركة المؤدبة، أربع أو خمس مرَّات متتالية وبصوت عالٍ، تقريباً لاذع، بعبارة «كيف أنت؟». كلّفنا جهداً كي نُخفِّف شيئاً فشيئاً من شدَّة اندفاعه بعبارة «طيِّب، الحمد لله». جلسنا على سجاجيد فارسية، مستعملين أرحال إبلنا كمساند، ووضعنا سيوفنا أمامنا وحيينا بانحناءة خفيفة للرأس كلاً من الضيوف الحاضرين بعبارة «أسعد الله صباحكم».

بعد ذلك سُئلنا بالتفصيل عن مجرى رحلتنا. وفي الوقت نفسه قدّمت لنا، إلى جانب التبخير المعتاد[2]، القهوة الحلوة[3]، وبعد ذلك جاءت القهوة الحقيقية، وأخيراً التمر من النوعية الفاخرة، الحجم الكبير والطعم الرائع، ومعه السمن السائل وأرغفة الخبز. أمر جوهر أحد الجنود أن يجلب له غليونه[4] ويشعله بينما بدأنا نحن ندخن النرجيلة. وأكَّد لنا جوهر مراراً

= بدائية ذات الفالة. لا بل إنَّهم صاروا في الآونة الأخيرة يحصلون على بنادق مرتيني حديثة التي يُقال: إنَّ الأمير صار لديه نحو 700 ـ 800 قطعة منها. السيوف التي رأيتها هنا كانت ذات مقبض فضي وشفرة فضية وكانت جميعها من صنع ورشة الحدادة «غانم» في حائل (حايل) المشهورة في شبه الجزيرة العربية بأكملها. كان أحد أبناء هذا «الغانم» موجوداً هنا بالصدفة بين الجنود في الفصيلة التي سيجري تبديلها الآن ويسمح لها بالعودة إلى حائل (حايل).

(1) لا يُعدُّ مهذباً مسك اليد كاملة ولا هزّها؛ فهم يضعون الكفين فقط على بعضهما ثم يسحبونهما بأقصى سرعة.

(2) انظر: ص75.

(3) «قهوة حلو» هي ماء مغلي محلّى بالسكر ومضاف إليه قليلاً جداً من الشاي والليمون الحامض أو أي نوع من التوابل، وهي تشكِّل دوماً عند البدو مدخلاً إلى الضيافة المحترمة.

(4) «غليون»، رأس من الفخار الأحمر أو الأسود (في حال تجهيزه بغنى يزوَّد بغطاء منسوج من الأسلاك وبلسان فحمي («مليقط») وبقلم من النحاس معلّق على سلسلة صغيرة، يدخنه البدو دون أي أنبوب ـ ببساطة لأنَّه ليس لديهم أنبوب. أكثر النماذج تواضعاً ثمين جداً إلى درجة أنَّ بعض الأشخاص لا يأنفون من التدخين من نصف رأس غليون (بدون رقبة). قد =

وتكراراً أنَّه مسرور جداً بزيارتنا التي يعتبرها شرفاً عظيماً له. لعلَّ شفرات السيوف الرائعة من سولنجن (مدينة ألمانية مشهورة بصناعة النحاسيات والأدوات المنزلية، م.) التي وضعناها أمام قدميه، وتكريمه بإهدائه ثلاثة جنيهات تركية (أكثر من 50 ماركاً)، قد أثرت على مزاجه وجعلته يبدو مرتاحاً كل الارتياح، لكنه كان يبدو صادقاً وغير متكلف في تصرفه. كانت ترتسم على وجهه علائم الوقار والرضا. وكان كل همه منصباً حصراً على جعل إقامتنا مريحة قدر الإمكان وعلى تلبية جميع رغباتنا.



جوهر

حسب وصف الليدي آ. بلونت كانت تختبىء في جلد جوهر الأسود روح سوداء أيضاً وكانت سلطته غير المقيدة تمنحه طابع الحاكم المستبد المخيف. أمَّا أنا فلم أجد شيئاً من هذا القبيل. ويبدو أنَّ سيِّده في حائل (حايل)، المترفع حقاً عن كل اتهام بالظلم، راض عنه أيضاً، وخاصة لأنَّه منذ أن تولَّى جوهر زمام الأمور في الجوف وصار يشرف شخصياً على كل تقدير لعدد أشجار النخيل[1]، أصبحت العائدات الضريبية التي ترسل من هناك إلى القصر في حائل (حايل) ضعف ما كانت عليه في السابق. أن يوكل إلى عبد مثل هذا المنصب

= يكون دافئاً بشكل جيد! في وقت لاحق شاهدت في تيماء رؤوس غلايين من الحجر الرملي الرمادي مقصوصة بالسكين. كان غليون جوهر يتألف من رأس من الفخار الأحمر مركَّب على أنبوب قصير جداً؛ كان الرأس من جهة الفم عبارة عن كرة غليظة مغطَّاة بالقماش وملفوفة بصفيحة فضية مثقبة.



(1) يذكر أنَّ عدد أشجار النخيل بلغ، بعد التعداد الصحيح الأخير، 60,000 شجرة. أودّ أن أذكر بهذه المناسبة أنَّ الشيوخ (الأمير) لا يجبي من رعاياه سوى الضرائب المترقبة سنوياً ومقدارها: مجيدي واحد (3,5 مارك) عن كل أربع أشجار نخيل والمبلغ نفسه عن كل أربعة جمال أو 20 نعجة أو عنزة. يتعيَّن على واحة تيماء أن تدفع 4000 مجيدي كضرائب.

المسؤول والمتمتع بسلطة مطلقة فهذا أمر لا يضير أحداً هنا على الإطلاق. فطالما ظلَّ العبد ملكاً لسيِّده يُعدُّ بحق خاضعاً ولا يبتغي مكسباً شخصياً. في وقت لاحق في حائل (حايل) سنتحدث عن عبد آخر اسمه عنيبر كان الأمير يكلفه بأن ينوب عنه عند غيابه عن العاصمة: لكن هذا كان مدللاً بعض الشيء منذ زمن طويل وكان، انطلاقاً من الشعور بما لديه من سلطات، يتصرف بشيء من الغرور (تجاه دوتي، على سبيل المثال) وكان مختلفاً عن جوهر الطيب اللطيف.

عندما اجتزنا فترة الاستقبال الرسمي، وتمكَّنت من الانسحاب دون أن ألفت انتباه أحد، عزمت على إنعاش جسمي بعد عناء السفر؛ في إحدى الباحات طلبت من محمود أن يصبُّ عليَّ بعض الدلاء من الماء وأن يحلق لي شعر رأسي بالكامل. وبعد ذلك ارتديت ملابس نظيفة. وكالمولود من جديد خرجت إلى العراء أمام القصر وأردت الرسم؛ لكنَّني استلقيت أوَّلاً على الأرض ـ يا إلٰهي كم كان هذا مريحاً ـ وغطست في نوم عميق.

قدَّم لنا على العشاء أرز مبهَّر ولحم الغنم. وتحت ضوء القمر صعدنا إلى مقرنا الليلي الذي كان قد أعدَّ لنا على السطح نصف المكشوف المذكور سابقاً لبيت مؤلف من طابقين وناقشنا مع تدخين النرجيلة خططنا للأيَّام التالية.

الأربعاء 10 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الساعة الثامنة صباحاً انطلق هوبر مع محارب، دليله السابق عبر صحراء النفود، في رحلة مدتها يومان إلى القرى الواقعة في شمال شرق الواحة، إلى سكاكا، وقارا، والطوير، ومراعاة للجروح التي أصبت بها في قدمي والتي كانت تزداد سوءاً مع الزمن فضَّلت عدم الاشتراك بهذه الرحلة. وأنا أعترف أيضاً بكل صراحة أنَّني كمستجد في هذه الرحلة كنت لم أزل أميل إلى الهدوء والراحة. علاوة على ذلك طلبت من خادمنا محمود أن يعيد لي تقريره الغريب العجيب عن الاحتلال المؤقت للجوف على يد الأتراك والذي كان قد رواه لي في كاف خلال ليلة لا نوم فيها وكان في وسعه الآن أن يسرده لي في الموقع نفسه الذي جرت فيه الأحداث. وبما أنَّ هذا الحدث لم يصل عنه أي خبر إلى أوروبا، أريد أن أعيد هنا بالتفصيل أقوال محمود.

في نهاية عام 1869م أو بداية عام 1870م جاء إلى دمشق سطام بن شعلان، شيخ مشايخ قبيلة الرولة، إلى عند صبحي باشا ومحمد سعيد باشا، رئيس قافلة مكّة، وأخبرهما بأنّه يعرف أرضاً خصبة خالية من السكّان ولا حاكم لها وغنية بالمياه وهي تصلح لبناء العديد من القرى التي ستجلب كثيراً من «الميري» (الضرائب). فسأل التركيان الشيخ بمنتهى الدهشة والجشع عن مكان هذه الأرض المجهولة والثمينة، فأجابهما إنّها وادي سرحان، وقال: إنّهم، أي قبيلة الرولة، مستعدون للاستقرار ولبناء هذه القرى ودفع الضرائب. وما على الأتراك، إذا ما وافقوا على الفكرة، إلّا أن يحتلوا الجوف أوّلاً وهذا أمر ليس صعباً على الإطلاق. إذ بدون تغطية قوية في الظهر لن يستطيع قبيلة الرولة في القرى مواجهة جيرانهم البدو. اقتنع الأتراك بالاقتراح وقاموا ـ كما هي العادة هناك للتصرف في الحالات العويصة ـ ببدء التنفيذ بمنتهى الصمت وبدون تكليف رسمي. فإذا ما فشل المشروع تكون السلطة بريئة ممّا جرى؛ وإذا ما نجح سيكون هناك متسع من الوقت للإشادة علناً بحكمة الحكومة ولغمر أصحاب المشروع بأشكال التكريم والمكافآت. وبدون أي ضجّة وبعيداً عن دمشق تجمّعت الحملة، وفي نهاية فبراير/شباط 1870م انطلق محمّد سعيد باشا من قلعة معان. كان لديه من الجنود النظاميين 200 فارس و600 رجلٍ من المشاة، بالإضافة إلى 80 رجلاً من بدو عقيل بقيادة الشيخ محمّد الروّاف ومدفع صغير. وكان من المقرر أن يتولّى منصب القائمقام في المنطقة المحتلة حسين بك الشركسي صهر صبحي باشا في إسطنبول. وبما أنّ هذا لم يكن يفهم كلمة عربية واحدة فقد تمّ إعطاؤه خادمنا الحالي محمود آغا ككاتب ومترجم. عند انتهاء الشتاء وبعد هطول كميات كبيرة من المطر كان في وسعهم شقّ طريقهم عبر الصحراء بلا مبالاة أو عناء. وبعد ثمانية أيّام وصلوا إلى الجوف. ولكي يجدوا قاعدة لهم بين السكّان كان الأتراك قد اتصلوا مسبقاً بالعناصر[1] غير الراضية عن الوضع القائم هناك. وقد جاء هؤلاء مسافة نصف يوم لاستقبالهم عند جبل العبد[2] وساروا على رأس

(1) كانت بينهم أيضاً عائلة رديفي في السفر محيثل ص123.

(2) انظر: (ص126، الهامش 2).

المسيرة الاحتفالية. تمركز الأتراك في حي مارد وحي خزام ونصبوا مدفعهم الصغير على إحدى الهضاب وكانوا مصممين على أن يتصرفوا في بادىء الأمر كمراقبين. ولكن في اليوم التالي وصلت إلى الجوف طلائع جيش ابن رشيد من حائل، وهم مجموعة رجال بقيادة المحارب القديم صالح بن رخيص نزلت في حي سوق ابن درع. ردّاً على السؤال الساذج الذي وجَّهه له الأتراك وهو عمَّا يفعل هنا أجاب ابن رخيص بمنتهى اللامبالاة أنَّه لا يفعل ولا يريد أي شيء بل إنَّه جاء فقط لكي يرى ماذا يجري هنا. وفي اليوم الثالث وصل محمَّد بن رشيد شخصياً على رأس جيش جمعه بسرعة مدهشة قوامه 8000 فارس على ظهور الإبل ومع عدد كبير من الخيول. وفي الصباح الباكر أرسل مع عبد اسمه إبراهيم رسالة إلى الأتراك طلب منهم فيها مغادرة الجوف على الفور. وبما أنَّهم لم يحرِّكوا ساكناً شنَّ الهجوم عليهم بعد نصف ساعة فقط من توجيه الإنذار. وعلى الرغم من أنَّ رجال ابن رشيد تقدَّموا بأعداد كبيرة لم يكونوا قادرين على إخراج الأتراك، المتمركزين بشكل جيد والمسلحين بشكل جيد، من مواقعهم. ولذلك قدَّم ابن رشيد، بين الظهر والعصر، اقتراحاً بإجراء لقاء شخصي مع الجانب التركي. فوافق الأتراك فوراً على هذا الاقتراح. جاء من الجانب النجدي ابن رشيد ومعه ثلاثة مرافقين وجاء من الجانب التركي محمَّد سعيد باشا وخورشيد آغا ودرويش آغا ومحمود آغا (خادمنا الحالي).

انتهت المحادثة، التي ضحك ابن رشيد خلالها عدَّة مرَّات بصوت عال، بعد ربع ساعة. فلماذا هذه المحادثات الحمقاء؟ ركب الشيوخ على ظهر حصانه وعاد مع رجاله عن طريق سكاكا إلى حائل (حايل). وبعد إقامة دامت سبعة أيَّام في الجوف انسحب أيضاً محمَّد سعيد باشا مع 120 جندياً ورجال العقيل إلى الصلط في شرقي الأردن وترك فقط حسين بك الشركسي مع حوالي 80 جندياً، جميعهم من المغاربة (الجزائريين)[1]، كقوَّة احتلال. بقيت هذه الحامية الصغيرة دون التعرُّض لأي مضايقة أو أذى؛ لا بل إنَّ القائمقام المعيَّن

(1) كان هذا فرصة مريحة لإيواء أتباع عبد القادر الذي كان قد استقر في دمشق والذين صاروا شيئاً فشيئاً يشكلون عبئاً على الأتراك. ولم يزل جزء كبير منهم حتى اليوم يشكل حاميات القلاع التسع والأربعين على طريق الحجّ بين دمشق ومكّة.

حديثاً تجرأ على السفر إلى سكاكا وقارا والطوير لكي يتفقد منطقة سلطته الجديدة. ولكن لما بدأ بجباية ضرائب عالية وجديدة تماماً، على الشعير والملح مثلاً، اشتدّ بعد شهرين الاستياء وبلغ درجة خطيرة من المرارة. ولذلك تقرَّر معاملة الأتراك على طريقتهم ودعوتهم إلى مأدبة طعام يقيمها لهم رجل اسمه حسن أبو درع ثم قتلهم هناك. صحيح أنَّ الضحايا نجوا من القتل لأنَّهم شعروا بالخطة المدبَّرة لكنَّهم منذ ذلك الحين ما عادوا يتجرأون على الخروج من مقراتهم. في هذه الأثناء وصلت رسالة من محمَّد سعيد باشا طلب منهم فيها الصمود مهما كان الثمن وقال: إنَّه سيصل عمَّا قريب مع تعزيزات عسكرية. إلَّا أنَّ هذه الرسالة كانت غير رسمية وإنَّما ممهورة فقط بخاتمه الخاص. وفي الوقت ذاته عرض ابن رشيد على حسين بك 1000 ليرة تركية (18500 مارك) إذا ما انسحب الآن طواعية وسمح له فوق ذلك أن يأخذ معه جميع حاجيات السفر وكل ما يحتاجه من الإبل وضمن له الطريق حتى بصرى في حوران. وأنا أظن أنَّ التعالي والاعتزاز بالنفس كان، أكثر من الشعور بالواجب، هو الذي جعل هذا الأحمق المغرور لا يوافق على العرض. أمَّا محمود فقد نصحه بإلحاح أن ينسحب؛ وأوضح للقائمقام كيف أنَّ محمَّد سعيد باشا قد تخلَّى عنه بطريقة مشينة وكم هو عديم المعنى ترك الناس هنا محاطين بأعداد لا حصر لها من الأعداء يموتون جوعاً دون دعم أو مساندة. وفي الشهر الرابع أوضح له بكل صراحة أنَّه لن يبقى هنا بعد الآن وغادر الجوف بكل هدوء مع رجل من الشرارات اسمه عوَّاض الوطة على ظهر أحد الإبل. وفي اليوم الخامس وصلا إلى معان. أمَّا حسين بك فقد بقي هناك أربعة شهور أخرى. لكنَّه لم يعد ينتبه إليه أحد ولا يتعرَّض لأي مضايقة غير أنَّه لم يعد لديه في نهاية المطاف مواد غذائية وندم على أنَّه لم يقبل الشروط الجيدة التي قدّمت له سابقاً. ومثل اللص غادر أخيراً تحت جنح الظلام، وهو في حالة مزرية مع العدد القليل ممَّن بقوا معه، الموقع الذي دخل إليه قبل ثمانية أشهر فخوراً ومعللاً بالآمال. وهكذا أجبره الشيوخ على الاعتراف بأنَّ الجوف لا يمكن أن يحكمها على المدى الدائم إلَّا حكومة بدوية وأنَّ الأتراك سيضطرون إلى الخروج منها بملء إرادتهم ودون طردهم بقوَّة السلاح. وهي بصورة

مصغرة التجربة نفسها التي خاضها قبل ثلاثين عاماً المصري محمَّد علي باشا في نجد ودفع الثمن غالياً[1]، معلومات محمود المذكورة أعلاه أكَّد لي أحد الأشخاص المولودين في الجوف أنّها صحيحة تماماً؛ وعن الوقت قال هذا الأخير: إنَّه كان في السنة التي سبقت سنة الجوع (ص88 ـ 89)، في السنة الثانية لتولي ابن رشيد الحكم. وعند مجيء الأتراك كانت الحبوب لم تزل صغيرة (بداية مارس/آذار)، وعندما غادر محمود الجوف كانت التمور لم تزل خضراء معلقة على أشجار النخيل (يوليو/تموز) لكنَّها كانت قد قطفت (أكتوبر/تشرين أوَّل) عندما انسحب آخر الأتراك من الجوف.

في المساء دار نقاش سياسي طويل في «قهوة» جوهر وشكل عجز الباب العالي («الدولة») وسقوطه القريب ـ حيث سيحصل البدو طبعاً، على حصَّة كبيرة من الغنيمة ـ مركز الثقل في الحديث. وكما سمع حمود المجراد عن المدافع الكثيرة لدى المسيحيين فقد رأى اللحظة مؤاتية لكي يقول لي كم سيكون مناسباً لو أنَّني أرسلت إلى الشيوخ مدفعاً أو عدَّة مدافع كهدية. وبما أنَّه كان الآن في سبيله إلى التسوّل فقد أسرَّ إليَّ، وهو يلقي نظرة جانبية على السيوف السولنجية (نسبة إلى مدينة سولنجن في ألمانيا، م.)، بألمه الشخصي وهو أنَّه يكاد أن يخجل أمام البدو من أنَّه، وهو دليلنا وقائد رحلتنا، لا يملك حتى ولا زبوناً أو عباءة ولا قطعة سلاح كعلامة على رضانا عنه. فاستمهلته حتى وصولنا إلى حائل (حايل) ولبَّيت له رغبة أخرى محبَّبة إلى قلبه: سمحت له بأن يلقي نظرة على النصف الثاني من حقيبتي اليدوية[2] الذي ظلَّ حتى الآن محجوباً عنه كلياً.

الخميس 11 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الساعة الثامنة صباحاً وصل عشرة رجال من رجاجيل الشيوخ من حائل (حايل) لكي يحلّوا محل الحامية الموجودة هنا التي قضت في الجوف أربع سنوات. وبما أنَّه كان قد وصلني خبر بأنَّ رديفي محيثل قد سقط مغمياً عليه عند وصوله إلى أمام بيته

(1) انظر الفصل السادس أدناه عن الوهابيين.

(2) انظر: ص124.

وبأنَّه يعاني من حمَّى شديدة فقد قرَّرت زيارته بعد الظهر. كان بيته في «سوق الهويدي» البعيد إلى حدٍّ ما. ولذلك لم يقبل جوهر أن أذهب إلى هناك سيراً على الأقدام وإنَّما أمَّن لي حماراً[1]. فركبت عليه دون سرج ولا رسن. سار أمامي إبراهيم الأسود، الذي كان يحمل سيفي، وإلى جانبه محمود ومعه مجموعة من الأدوية، وسار خلفي جنديان. من القصر كان الطريق ينحدر بشدَّة نحو حوض الوادي. وبين أسوار الحدائق التي لا نهاية لها ومروراً أمام أشجار إثل مغرقة في القدم، كنَّا نلتقي هنا وهناك بمجموعات من البشر كانوا يحيّوننا بمنتهى اللطف. في الطريق دلَّني محمود على ساحة مكشوفة وفي وسطها تل صغير وقال لي: إنَّه الموقع الذي نصب فيه المدفع التركي والذي جرت فيه أيضاً المحادثة بين ابن رشيد ومحمَّد سعيد باشا. بعد مسير نصف ساعة وصلت إلى أمام بيت محيثل. كان يقع في حديقة غنية بالظلال ومرويَّة بشكل جيد. عند دخولي وجدت رفيقي في السفر في حالة سيِّئة. كان مستلقياً على سرير ترابي بلا قميص ولا غطاء رأس ملفوفاً فقط بعباءة وشبه فاقد الوعي؛ لم يكن قادراً على الوقوف ولا على الكلام وردَّ على تحيتي بنظرة امتنان. طلبت منه التحلي بالشجاعة والصبر وبدأت بفحصه. كان يسعل باستمرار وحرارته مرتفعة، طحاله حسَّاس وبطنه قاس ممَّا يدلُّ على أنَّه مصاب بمرض التيفوس. ولذلك أعطيته مسحوق الكالوميل (مادة مسهّلة، م) وتركت كمية ثانية لوقت الحاجة. وشرحت لابنه الطريقة التي سيتبعها لإعطائه جرعات الكينا الست خلال ثلاثة أيَّام. وبعد انقضاء هذه المدة يمكنه إحضار جرعات أخرى من عندي. وفي الوقت نفسه طلبت منه أن يغسل أباه أربع مرَّات في اليوم بخرق باردة قدر الإمكان (الإسفنج غير معروف هناك) وأن يسقيه مشروبات مبردة، وحليب أيضاً، ولكن لا يجوز إطعامه أي نوع من الأطعمة الجامدة فضلاً عن ذلك عليهم أن يوفروا له كثيراً من الهدوء ويتركوه ينام أطول زمن ممكن. وبينما كان يجري تحضير القهوة أعربت عن رغبتي في الاطلاع على الحديقة

(1) يوجد هنا من هذه الحيوانات فقط أربعة رؤوس. وهناك نحو عشرة رؤوس من البقر صغيرة الحجم ولها سنام في ظهرها، وقد تنتمي إلى العرق نفسه كالأبقار الحبشية. أمَّا الخيول فغير موجودة في الجوف إطلاقاً، فقط جوهر كونه ممثلاً للشيوخ لديه حصان واحد.

المعتنى بها أكبر الاعتناء. بالإضافة إلى أشجار النخيل هناك أيضاً أشجار التين والعنب والرمان والدراق والمشمش والخيار والبطيخ وغير ذلك من الخضراوات. وعند وداعي لمحيثل شرحت لابنه مرَّة أخرى بمنتهى الدقة والتفصيل الطريقة التي يجب أن يتبعها في العناية بأبيه. وبعد عدَّة أشهر علمت في حائل (حايل) أنَّه قد شفي من مرضه.

في المساء أتيحت لي الفرصة لأوَّل مرَّة لتناول لحم الإبل: لا يختلف طعمه مسلوقاً عن طعم لحم الغنم أو الماعز لكن أليافه أخشن قليلاً وقد يكون لونه أغمق. بعد العشاء تناولنا القهوة أمام القصر عند تاجر الإبل حسين[1]. خلال ذلك أعرب جوهر عن شعوره بالقلق على هوبر لأنَّ هناك غزوة في الطريق تتألف من 200 رجل من بدو عنزة، ولكن في الساعة الثامنة وصل هوبر الذي كنَّا نظنه في خطر وحدَّثنا عن رحلته الموفقة.

الجمعة 12 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في اللَّيل هبَّت رياح شديدة طيَّرت ما لدينا من أشياء وأغراض على السطح.

نالت الصورة التي رسمتها لجوهر بالألوان المائية وبكل هدوء إعجاباً شديداً لديه إلى درجة أنَّه كان مستعداً للجلوس أمامي دون أي متاعب. ولقد شعر بالرضى عندما رسمت جلده بلون فاتح وظلَّ طيلة النهار مسروراً جداً من أنَّني خلَّدت غليونه في تلك اللوحة. وكم كنت مدهوشاً عندما علمت في وقت لاحق مدى انتشار الخبر في الصحراء عن هذه اللوحة؛ وفي حائل (حايل) وبعد ساعة واحدة من وصولنا إلى هناك طلب الشيوخ رؤية الصورة التي رسمتها لمتصرفه ولاحظ مازحاً: «لقد بالغت في جعله أبيض». وبعد ذلك في تيماء أيضاً وعند القبائل الراحلة طلبوا منِّي أن أريهم صورة جوهر ومفرّج.

مع بدوي من معارف حسين تاجر الإبل مسافر إلى دمشق أرسلت رسالتين إلى القنصلية كي يرسلوهما إلى الوطن ولكنَّهما لم تصلا أبداً.

استعداداً لعيد الكبير[2] غداً (في العاشر من ذي الحجَّة، آخر شهر في

---

(1) انظر: ص124.

(2) عيد الكبير، يُسمّيه الأتراك «قربان بيرم».

السنة القمرية، حيث يضحّي الحجّاج بآلاف الخرفان في وادي منى عند جبل عرفات قرب مكّة) ذبح هنا جمل. وقد قطع عنقه بالسيف بينما كانت الإبل الأخرى تقف جانباً متيبسة دون أن تبدي أي انفعال. مرَّ وقت طويل حتى سقطت الضحية على جنبها ومع تحريكها رأسها إلى هنا وهناك وهي تزفر لفظت أنفاسها الأخيرة.

في كل الناس، وحتى أكثرهم قذارة وبؤساً، دبَّت روح من العناية الحقيقية بالنظافة: فحيثما نظر المرء وفي أي زاوية كان هناك أناس يغسلون رؤوسهم وآخرون يحلقون لحاهم ويبدلون ملابسهم ويظهرون في مظهر الاحتفال بالعيد. وعلى أيٍّ حال فقد فاقني خادمنا محمود في الجمال. بعد طعام العشاء تجمَّع الناس مرَّة أخرى في الخارج أمام البوابة عند تاجر الإبل حسين. وقام جوهر نفسه، مرتدياً عباءة سوداء جديدة وكفيَّة صفراء مقلمة بخطوط حمراء، بتكريمه بزيارة. أكثر من 50 رجلاً جلسوا في دائرة واسعة خلف أحد الأسوار حول موقد النار حيث كانت تحضر القهوة الحلوة («قهوة حلو») ثم القهوة العادية (المرة). وكذلك الجنود العشرون الذين كانوا في البداية يقفون خلف جوهر تلقوا إشارة بالجلوس؛ قاموا بفرز سيوفهم أمامهم في الرمل بشكل عمودي. وكان ضوء اللهب المتراقص، المنطلق من النار التي وقودها سعف النخيل[1]، ومع ضوء القمر المتلألىء، يضفي على المجموعات المظلمة تعبيراً حيّاً من الضوء، والضوء المعاكس. اختتم الجمع بصلاة احتفالية طويلة. لكن القهوة التي تناولت منها كميات كبيرة حالت، للأسف، دون تمكني من النوم في تلك اللَّيلة.

السبت 13 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الصباح الباكر تلقّى جوهر في «القهوة» التحيات والمباركات لمناسبة العيد[2]. ثم قدمت صينيات نحاسية كبيرة (قطر الواحد 2,5 ـ 3 قدم) مطلية بالقصدير ومملوءة بالأرز ولحم الإبل يحمل كل واحدة منها أربعة عبيد. وخلال فترة قصيرة من الزمن ملفتة للانتباه

(1) ذؤابة، خوص، جريد، سعف.

(2) الصيغة المألوفة في المعايدة: «مبارك عيدك كل سنة وأنت سالم».

انتهت الأجواء الاحتفالية. فنهض الناس الشبعانون مع قولهم: «الحمد لله» وهم يتجشأون بصوت مسموع تعبيراً عن الشكر[1] وودعوا جوهر بقولهم: «أنعم الله عليك» وكان هو يجيبهم في كل مرة بقوله: «ينعم عليك».

كنَّا ننوي متابعة السفر غداً. لكن تأمين الإبل المستأجرة واجهته بعض المصاعب. ففي الجوف نفسها لا تربى إبل بسبب عدم توفر الغذاء الكافي لها. وعندما تصل إلى هنا جمال جائعة تقدم لها أوراق البطيخ أو ما شابه ولكن يُحرص على إرسالها في أقرب وقت ممكن إلى الصحراء حيث يوجد غذاء بكميات وافرة. وهكذا كانت إبلنا قد أرسلت إلى المراعي في صحراء النفود على مسافة يوم كامل من هنا. لكن تاجر الإبل حسين لم يرسل جماله إلى هناك وتعيَّن عليه دفع ستة مجيديات (21 ماركاً) عن الأيَّام الخمسة لقاء تأمين العلف لها. ولم يكن جوهر راض عن جمال الحمولة التي قدَّمها الشرارات وقال: إنَّ السروج غير صالحة وإنَّ الإبل نفسها ضعيفة وغير قادرة على حمل متاعنا. ولكن لم يبق لنا أي خيار آخر. وتعيَّن على صلبوخ أن يتدبَّر الأمر. وكانت هناك صعوبة أيضاً في إيجاد قربتين جلديتين إضافيتين للماء لأنَّه لم يعد من الممكن الاعتماد على بئر الشقيق[2] ولأنَّنا كنَّا سنسير خمسة أيَّام في منطقة خالية من المياه.

بما أنَّ جمالنا عادت من المرعى عند الظهر قررنا القيام بعد العصر بجولة على ظهورها عبر أسفل الوادي وحتى الجدار العرضاني في الغرب. وعلى طريق العودة، عندما كانت الشمس تميل إلى الغروب شاهدنا رقصة متميزة لم تتح لي الفرصة لمشاهدتها مرة ثانية في كامل الرحلة. في السهل في ساحة واسعة حيث تشكل أسوار الحدائق زاوية منفرجة، كانت تقدم رقصة غريبة عجيبة. على مسافة عشرين خطوة من بعضهما كان هناك صفَّان يقفان في مواجهة بعضهما البعض، على الجهة الأولى حوالي اثنتي عشرة فتاة وعلى الجهة الأخرى عدد مماثل من الشباب. وفي الوسط بين الصفين كانت ترقص

(1) انظر: ص52 ـ 53.

(2) انظر: ص100 ـ 101.

فتاتان مكشوفتا الرأس وشعرهما مسرح نحو الخلف وهما تنظران بأدب إلى الأرض. وبخطوات قصيرة راقصة وذراعين مفتوحتين كانتا تتقاربان وتتباعدان. وفجأة أدارت كل منهما ظهرها للأخرى وألقت برأسها بإيقاع إلى الخلف بحيث إنَّ الشعر الطويل لكل منهما صار يتأرجح قبالة شعر الأخرى. في هذا الوقت كان صف البنات الصديقات يصفقن لهما بإعجاب بحيث كن يضعن أيديهن بصورة عمودية أمام صدورهن ويضربن بإيقاع يداً على الأخرى، بينما كان الشباب المقابلون لهن يقفون متراصين كتفاً على كتف يغرزون سيوفهم أمامهم ويحركون أجسامهم جيئة وذهاباً وهم يغنون لحناً متسارعاً. لم أفهم وأنا عابر كلمات القصيدة لكن لحنها كان كما يلي:

قيل لي: إنَّ اسم هذه الرقصة هو «لعب الدحَّة». وكان يوهان بوركهارت قد ذكر في كتابه «ملاحظات عن البدو» رقصة مشابهة[1]. كما أنَّ فتسشتاين قدم في «مجلة الجمعية الألمانية لبلاد الشرق» 1868م، وصفاً جيداً لمثل هذه الرقصة. أما الاسم «سمجة» فلم يذكر لي هنا. كما أنَّ الأشخاص هنا في الجوف لم يشكلوا حلقة وإنَّما كما ذكرنا صفين منفصلين متقابلين. ولقد ذكر لي الدوق لاندبرغ أنَّ هذا النوع من الرقص معروف في سوريا أيضاً تحت اسم «دبكة».

بما أنَّ الرحلة التي ستدوم خمسة أيَّام عبر صحراء رملية خالية من المياه كانت ستبدأ غداً باكراً فقد قدم للجمال في المساء كمية كبيرة من الماء. إذ من المتعارف عليه في مثل هذه الحالات الصعبة بشكل خاص أن تسقى الإبل كفايتها من الماء قبل تحركها بوقت قصير.

---

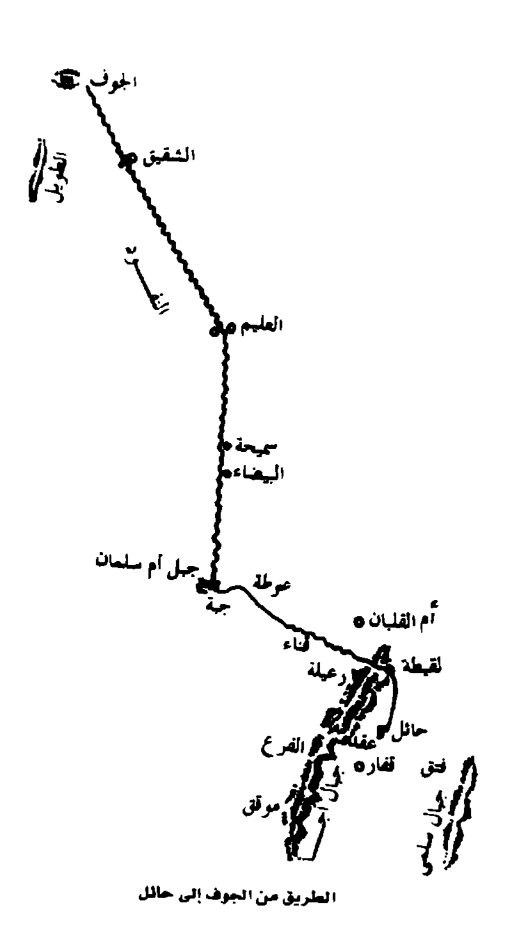
(1) **ملاحظات عن البدو**، فايمار 1831م، ص203.

الفصل السادس

عبر النفود في الحبل
من الجوف إلى حائل (حايل)

14 ـ 21 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م

الأحد 14 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. قبل بزوغ الفجر تمَّ تجهيز كل شيء للانطلاق. وبعد تناول الفطور كرَّمنا جوهر، علامة على ما قدَّمه لنا من خدمات، بإهدائه سكِّيناً جميلة سُرَّ بها أبلغ السرور. وفي الساعة الثامنة تمَّ الانطلاق. ولما توجَّهنا نحو الأسفل من على تل القصر نادى جوهر بصوت عالٍ «في أمان الله» متمنياً لنا الوصول بالسلامة. ورافقتنا في المنخفض إلى مسافة تزيد عن النصف ساعة مجموعة كبيرة من الناس. ولما وصل الطريق الصاعد بين الجبال ذات الصخور الرملية إلى السهل المرتفع تناقص عدد الناس



الطريق من الجوف إلى حائل

المرافقين بعض الشيء. ولم ألاحظ إلَّا عند الوداع أنَّ المرافقة لم تكن لنا وإنَّما لمجموعة من الناس مؤلفة من 12 شخصاً يمتطون عدداً مماثلاً من الإبل، بعضهم يريد مرافقتنا حتى جبَّة والبعض الآخر حتى حائل (حايل).

وكان لدى بعضهم إبل ضعيفة بشكل ظاهر وهي علاوة على ذلك محمَّلة فوق طاقتها وكان حمود يرى أنَّ الأمور يجب أن تكون ميسرة إلى أبعد الحدود، وإلَّا فإنَّ هذه الإبل ستنفق على الطريق. عند وصولنا إلى طرف الجبل ألقينا نظرة إلى الوراء على الواحة الجميلة ثم توجَّهنا إلى الصحراء الرملية. على مدِّ النظر في الطبيعة المبهرة لا يوجد سوى الحبال[*] الرملية ولا أثر للأعشاب ولا للأخشاب ولا لأي نوع من النبات. فهل هذا هو طابع الصحراء العربية؟ كلا إطلاقاً. فقط في المناطق المحيطة بالمستوطنات البشرية تكون جميع النباتات منقرضة؛ فيما عدا ذلك فإنَّ الصحراء العربية (خلافاً للصحراء المصرية بين النيل والبحر الأحمر) أرض خصبة لا يمكن أن يشتهي مربو قطعان الإبل اللاحصر لها أفضل منها.

ما نتصوره عادة هنا في أوروبا تحت كلمة «صحراء» يُسمِّيه العرب «نِفود» (الجمع: نُفود). في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية لا يوجد سوى صحراوين رمليين كبيرين لكنَّهما منفصلان عن بعضهما. عن الصحراء الجنوبية (المُسمَّاة في الخرائط: الربع الخالي) لم أستطع الحصول على أي معلومات موثوقة. فقد سألت في حائل (حايل) قحطانيين مختلفين من وادي الدواسر عن طبيعة واتساع الصحراء الجنوبية لكنِّي لم أتلق سوى معلومة واحدة وهي أنَّها غير صالحة للحياة وأنَّهم لم يسمعوا أبداً أن قام إنسان بعبورها ذهاباً وإياباً. من الممكن أن نتوقع أنَّ ظروفها المطرية وبالتالي العلفية لا تسمح للإنسان حتى ولا بمساعدة الإبل بعبورها. لكن الأمر مختلف في صحراء النفود الشمالية الواقعة بين الجوف وجبل أجا وبين تيماء ولينة. فهي تتألف من خليط من الجبال والهضاب التي يصل ارتفاعها إلى 100 متر أو أكثر وتتألف من رمل الكوارتز[1] الناعم والخالي من التراب أي الناتج عن تفتُّت الصخور الرملية. وعندما يقترب المرء القادم من الحماد (الصحراء الصخرية) من

(*) المرتفعات الرملية تُسمّى حبالاً.

ينظر **بلاد العرب** للأصفهاني، تحقيق: حمد الجاسر وصالح العلي. (المراجع).

(1) رمل ناعم طيّار بلون أبيض يميل إلى الأصفر خلافاً للرمل الخشن باللون الأحمر ـ الأصفر المُسمَّى «بطحة»، أو الرمل الصواني.

صحراء النفود تبدو هذه الأخيرة من ناحية التأثير الضوئي مثل حقل مغطّىٰ بالثلج: بلون أبيض فاتح مع لمعان ضوئي خافت باللون الأصفر أو الزهري



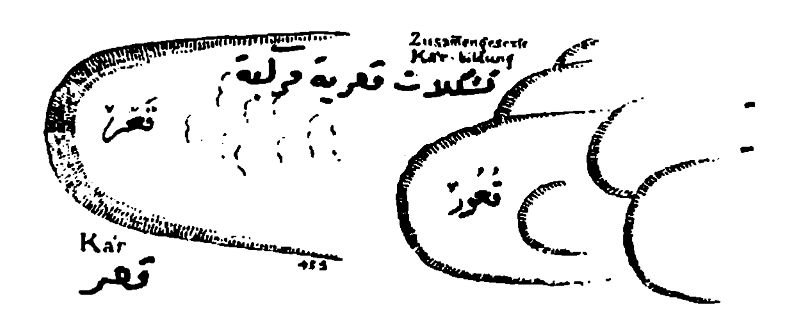
قعر في النفود

الخفيف. وإذا ما صعد المرء إلى «فلق»[1] ما، أي إلى ظهر أحد الكثبان الرملية، يولد العالم الرملي الانطباع وكأنَّ قطيعاً من الخيول العملاقة قد عبرته من جهة الشرق إلى جهة الغرب وتركت فيه آثار دوسها. آثار الحوافر المُسمَّاة «قعر»[2] (الجمع: قعور) هي الطابع المميز لصحراء النفود، وهي عبارة عن ثقوب كبيرة يبلغ عمقها 30 ـ 50 متراً أو أكثر ذات جدران حادة تنحدر بزاوية 50 ـ 60 درجة وتظهر على جهتها الغربية في القاع صخور عادية، وتصعد ببطء في محورها الطولاني نحو الشرق. وكلَّما تقدَّم المرء في النفود نحو الجنوب تصبح القعور أكبر؛ وأنا أُقدِّر طول القطر الطولاني لأكبر قعر بحوالي

(1) العديد من الرحَّالة يستعملون خطأ هذا الاسم («فلق»، «فلج»)، الذي يعني فقط الجدران الفاصلة بين قعر وآخر للتعبير عن الثقب نفسه.

(2) يبدو أنَّ التشكلات التي وصفها الجغرافيون العرب والموجودة في مناطق أخرى والمُسمَّاة «دارة» لها شكل مشابه (انظر فتسشتاين، في **مجلة الجغرافيا**، برلين 1865م، العدد 18، ص271). أمَّا أنا فلم أشاهدها.

2 كيلومتر[*]. ولكن مع ازدياد الحجم يتناقص وضوح التشكل وشفافيته: الاستدارة المتساوية والانحدار الشديد في الغرب يبقى واضحاً إلى حدٍّ ما لكن الرمل المقذوف نحو الشرق يبدي باستمرار قدراً متناقصاً من التساوي ثم يتفرع مرة أخرى، لا بل إنَّه يتشتَّت، وهناك بعض القعور التي تتداخل وتتقاطع كأمواج الحلقات المائية وحتى تمحي معالم الشكل الذي تقوم عليه.



ويبدو أنَّ أطراف هذه الثقوب لم يطرأ عليها أي تغير ظاهر؛ هذا ما أكَّده لي مرافقاي من البدو، على الأقل، الذين قالوا: إنَّها تبقى على الدوام دون تغيير. كما أنَّ «الحطب» القوي الذي تمتدّ جذوره فيها يشير إلى ثبات الشكل. عن نشوء هذه التشكلات الغريبة الفريدة من نوعها كتبت في حينها مقالاً[1] عبرت فيه عن تكهن ما لبث أن تراجعت عنه لأنَّه لا يمكن الدفاع عنه. فكما أثبت يوهانس فالتر يعود نشوء الثقوب (القعور) والكثبان القوسية (فلق) إلى تأثير الرياح أي إلى العواصف الشديدة بشكل خاص[2].

فبعد ردم بئر الشقيق المذكور سابقاً أصبحت صحراء النفود بكاملها خالية من الماء لكنَّها لم تصبح غير صالحة للسكن على الإطلاق. ولكن في

(*) ما يكون بهذا الطول يُسمّى خِبَّة وجمعها خِبَب. ينظر **معجم اليمامة** لابن خميس، ج1، ص648، وفي الفصحى صريمة وجمعها صرائم. (المراجع).

(1) انظر: **أبحاث الجمعية الجغرافية في برلين**، 1886م، الجزء 13، ص267.

(2) انظر مقاله: «التعرية في الصحراء ومدلولها الجيولوجي» لايبزيغ 1891م، ص165 وما بعدها في: **مقالات الطبقة الرياضية الفيزيائية للجمعية القيصرية السكسونية للعلوم**، العدد 16، ص509 وما بعدها.

فصل الجفاف لا يمكن الإقامة زمناً طويلاً في النفود، التي تصبح مثل بحر من النار، ولا يمكن عبورها في هذه الحالة إلّا بصعوبة بالغة وعلى إبل جيدة وقوية. في الأحوال العادية يكون هذا العالم الرملي الواسع مليئاً بكميات لا تنتهي من الحطب، أي من الأشجار القابلة للاحتراق، التي يصل ارتفاعها إلى 2 ـ 3 أمتار بينما تصبح الأغصان بثخانة الذراع أو أكثر. حول الأشجار (أو الشجيرات) تتشكل أكوام من الرمل بفعل الريح الذي يجبر الشجيرات على النمو نحو الأعلى طلباً للهواء والضوء. النباتات الأخرى غير الحطب يلخصها البدوي جميعها تحت اسم «حشيش»[1]، أي أعشاب مختلفة للحيوانات. جميع أنواع الحشيش تنمو تحت تأثير المطر بسرعة هائلة. في السنين الجيدة يتطلب الأمر هطول المطر خلال اثني عشر شهراً عشر مرَّات ولمدة نصف ساعة كل مرة. وإذا لم يهطل المطر، أو إذا ما كان الهطول شحيحاً، ينشأ نقص في الغذاء الحيواني وتحدث مجاعة. مثل هذه الكميات من الأمطار التي هطلت خلال وجودي في حائل (حايل) ـ مطر متواصل على مدى ثلاثة أيَّام بحيث تشكل سيل عرضه 200 قدم وعمقه 7 ـ 8 أقدام وظلَّ عدَّة أيَّام يزحف إلى مسافات بعيدة عبر التربة الرملية ـ نادرة جداً ولا تحدث إلّا مرة واحدة كل ثلاثين سنة. ولذلك تولد لدى الناس في حائل (حايل)، الذين كانوا يروننا في كثير من الأحيان نشتغل بموازين الحرارة وبمقاييس الضغط وبأدوات جلب المطر، الاعتقاد الراسخ بأنَّ الفضل في هذه الفترة الغنية بالمطر يعود إلى الجهود الشخصية التي بذلناها ردّاً للجميل لقاء هذه المعاملة الحسنة التي لقيناها عند الأمير ابن رشيد، وأكدوا لنا أنَّ هذه السنة ستبقى راسخة في ذاكرتهم باسم «سنة النصارى». ما أن يسقط المطر حتى تبدأ الحياة تدبُّ في النفود: من الأرض ينبت في كل مكان العشب وبأقصى سرعة ينتشر البدو مع قطعان إبلهم وأغنامهم. والآن يبدأ بالنسبة لسكَّان الصحراء زمن منعم لا همَّ فيه ولا غم. فهم يتنقلون إلى هنا وهناك كما يشاؤون. إذ إنَّ الهمّ الكبير على

(1) بخصوص الأنواع والأسماء المختلفة للحطب والحشيش أوجه عناية القارىء إلى القائمة الموجودة في الملحق.

الماء زال وصارت الناقة تعطي الآن فجأة الحليب الذي يعيش منه الناس. وبينما لا تعطي النوق في الفصل الحار ومع العلف الخشبي الجاف أي كمية من الحليب تقريباً وتحتاج إلى سقاية كل خامس يوم كحدّ أقصى. فهي لا تحتاج عند أكل العشب الأخضر لأي قطرة ماء. وأنا أستطيع التأكيد من تجربتي الخاصة أنَّ إبلنا خلال الرحلة التي دامت 24 يوماً عبر الصحراء وحيث كانت تأكل العشب الأخضر، وعلى الرغم من أنَّها مرَّت مراراً أمام غدران مكشوفة من الماء، لم تكن لديها أدنى رغبة في تناول حتى ولا جرعة واحدة من الماء. كانت تنظر إلى الماء ثم ترفع نظرها عنه وتتابع سيرها. ولكن هذا الفصل الشتوي الربيعي له أيضاً جانبه المظلم: فعندما تزول عن صاحب القطيع جميع الهموم المتعلقة بتوفير الطعام والشراب لقطيعه ويصبح لديه الوقت ليتجول طليقاً كما يشاء، فإنَّ هذا الوضع ينطبق على أعدائه أيضاً؛ وهكذا يكون فصل الربيع، في ذات الوقت، العصر الذهبي للغزوات اللاحصر لها التي يقوم بها شباب منفردون جريئون أو عصابات كاملة من الرجال الباحثين عن الغنائم.

في السنين الجيدة يظهر «الغزاة» بسرعة البرق: دون اهتمام بالزمن أو المنطقة ولا بالجوع أو النوم، ومجهزون بأسوأ المعدَّات ـ فقط الأسلحة وحيوانات الركوب يجب أن تكون جيدة قدر الإمكان ـ يجربون حظهم، ينهبون المواشي ويعرّون البشر ويأخذون ما ييسره لهم الله ثم يختفون معبرين عن رضاهم بقولهم «الحمد لله» إلَّا أنَّ هذا النعيم لا يدوم زمناً طويلاً. أسابيع قليلة فقط ثم تشتد حرارة الشمس فتحرق جميع النباتات الغضَّة ولا تبقى سوى العيدان اليابسة البارزة في الهواء. أمَّا النباتات التي تصمد في الصيف وتكتفي في غذائها بالندى فتشبه بعدئذٍ بمنظرها الأبيض أعشاب المروج المغطَّاة بالصقيع. وعلى الرغم من اقتراب فصل الشتاء كانت الحرارة بعد الظهر لم تزل 40 درجة (مقاسة في الظل الاصطناعي)؛ لكن هذه الحرارة العالية لم تكن مزعجة كثيراً لأنَّه، أوَّلاً، كانت تهبّ منذ الساعة التاسعة صباحاً وحتى قبيل غروب الشمس رياح قوية، ولأنَّ، ثانياً، الهواء كان جافاً جداً إلى درجة أنَّ العرق لم يكن يبقى على الجلد لحظة واحدة،

بل كان منذ خروجه من المسام يتبخر على الفور. بالمقابل كانت الحرارة الزائدة الجافة غير مؤاتية لقُرَب مياهنا. كنَّا نشاهد بهلع تناقص ما لدينا من ماء، وكنَّا نستعمل دوماً القربة المفتوحة أخيراً لسدّ التناقص اليومي في القرب المملوءة. لا وجود للطرق في صحراء النفود ولذلك يحتاج الأمر إلى معرفة مدهشة بالمكان للمحافظة على الاتجاه عند السير صعوداً ونزولاً على الحبال الرملية وعند الالتفاف على القعور (النُّقَر). وتقدم مخلفات الإبل من الروث والبول بعض المؤشرات التي تدلُّ على الطريق لأنَّ هذه المخلفات أعطت على مدى آلاف السنين الرمل على أقصر خط يصل بين بئرين، وإن كانت قد طحنت وأصبحت ناعمة بفعل الدوس، لوناً متميزاً لا تخطئه العين وخاصة بالنسبة للبدوي[1]. في اليوم الأخير الذي وصلنا فيه إلى جبَّة أصبح الطريق نوعاً من الدرب المنتظمة المتميزة، وكانت أيضاً الآثار القديمة لأقدام البشر والحيوانات ظاهرة بشكل واضح. ولكن لنذكر الآن الأحداث القليلة التي شهدناها خلال هذه الرحلة.

في مساء اليوم الأوَّل من الرحلة (14 أكتوبر/تشرين أوَّل) نزلنا في الظلام في منخفض عميق، وكان هذا منطقة بئر الشقيق المردوم. أمَّا البئر نفسه فلم أشاهده.

الاثنين 15 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. كان يوم صيد وافر: اصطدنا أرنبين. وقبضنا على سحلية تختبىء في الرمل «صقنقور»[2] ووضعناها في السبيرتو. وشاهدنا أيضاً عدَّة جرابيع وعلى مسافة بعيدة بقرة الوحش (نوع من الغزلان الكبيرة ذات القرون المستقيمة) وتُسمّى المها. وكان على يميننا على مسافة 20 كيلومتراً تقريباً سلسلة مرتفعات جبل الطويل.

---

(1) لم أستطع في البداية فهم السبب في أنَّهم كانوا في اللَّيل يأخذون بين حين وآخر كمشة من الرمل ويمررونها بين أصابعهم مرتاحين للنتيجة؛ كانوا بذلك يتأكدون من أنَّه ليس رملاً صافياً، وإنَّما رمل مخلوط بجزئيات ناعمة من مكونات التبن والخشب. وبعد ذلك صرت أنا نفسي ألاحظ، في النهار الفرق.

(2) يُعدُّ الصقنقور عند العرب والفرس بعد تجفيفه ودقِّه مادة ممتازة لتقوية القدرة الجنسية.

الثلاثاء 16 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الصباح الباكر أطلَّ في الأُفق الجنوبي الشرقي الحبلان اللذان يشبهان الهرم والمُسميان «العُليم»(*) فحيَّتهما القافلة بصوت عال تعبيراً عن السرور بمشاهدتهما. فما تعنيه المنارات بالنسبة للبحارة هكذا هما حبلا العُليم بالنسبة للمسافر في شمالي النفود. يمرُّ الطريق في الوسط بين المخروطين الحبلين اللذين يبعدان عن بعضهما نحو 250 متراً. يتكون المخروط اليساري الأعلى (80 ـ 90 متراً تقريباً) من حجارة قاتمة، أمَّا اليميني فمن الأحجار الرملية الحمراء المألوفة. وخلال فترة ما بعد الظهر أطلَّ ظهر الحبل المُسمَّى «أُمّ سلمان» (الواقع قرب جبَّة مباشرة).

الأربعاء 17 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. انطلقنا في الساعة الثالثة و50 دقيقة صباحاً. وفي الساعة الرابعة صباحاً وتحت ضوء القمر سقط أحد مرافقينا، وهو زنجي، وهو نائم على ظهر الجمل. ظننت في بادىء الأمر أنَّه صندوق أو بالة لأنَّه بقي على الأرض بلا حراك فترة طويلة من الزمن. لقد ظهر على البعض إرهاق الأيَّام الماضية. عند الظهر لم أستطع مقاومة النعاس إلَّا بصعوبة وبذلت جهداً لكي أبقى جالساً بشكل مستقيم في الرحل الشداد. كما أنَّ ذلولي ظلَّت، عندما حان موعد انطلاقنا، باركة بهدوء ورقبتها ممدودة ولم أكن بحاجة إلى مهارة أو حيلة لكي أقفز على ظهرها في الرحل الشداد. وبعض الحيوانات الضعيفة جداً سقطت مراراً على الطريق أثناء السير ولم يكن بالإمكان سوقها إلَّا بالضرب وسوء المعاملة، لا بل إنَّ أحد الإبل تخلَّف في الليلة الماضية عن القافلة ولم يعثر عليها إلَّا بعد بحث طويل. بعد انطلاقنا للمسير الليلي الأخير أردت، لأنَّنا كنَّا سنصل ظهر اليوم التالي إلى بئر جبَّة، إسقاء ذلولي نصف صحفة من الماء الزائد لدينا؛ لكن حمود سحبها من أمامها وغسل يديه ببعض ما فيها من ماء ثم رمى الباقي على الأرض، قائلاً: إنَّ ملء فم الجمل بالماء لا يطفىء عطشه ويجعله في أحسن الأحوال كسولاً. لم أعترض على ذلك فهو الأكثر خبرة في هذا المجال. عند الظهر مررنا بالقرب

(*) ينظر **المعجم الجغرافي لشمال المملكة**، للشيخ حمد الجاسر، ج3، ص939، وقد ذكر الجاسر أن القمّتين كلتيهما من الرمل بنفس المرجع. (المراجع).

من تل اسمه سميحة، سُمِّي هكذا باسم فتاة من شمر يُقال: إنَّها أُهينت هنا من بدو معادين لقبيلتها.

في المساء عند حلول الظلام التقينا ببدوي وحيد يريد قطع الطريق من جبَّة إلى الجوف سيراً على الأقدام ولم يكن لديه سوى قربة صغيرة من الماء ولم أر معه أي طعام. وبما أنَّه كان يعرف بعض البدو الذين يرافقوننا فقد استدار إلى الوراء وسار معنا مسافة من الطريق حتى تبادل مع معارفه جميع الأخبار والمستجدات.

الخميس 18 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. قضينا اللَّيل في أعلى موقع في صحراء النفود (860 متراً فوق سطح البحر) وعلى مسافة ساعتين تقريباً إلى الجنوب من مرجل عميق ذي أرضية من الحجر الكلسي الأبيض (ولذلك سُمِّي «البيضا»). قيل لنا: إنَّ محاولات كثيرة قد جرت لحفر بئر هنا، ولقد سألنا الأمير صراحة في وقت لاحق عمَّا إذا كان هناك احتمال للعثور على الماء في هذا الموقع. في الساعة الرابعة صباحاً تابعنا مسيرنا مرَّة أخرى. وقبل طلوع الشمس ظهر أمام أعيننا منظر طبيعي أثارت روعته إعجابنا. في المقدمة تنخفض الكتلة العريضة لصحراء النفود والمزروعة بعدد لا حصر له من القعور. في الوسط يبرز داكناً جبل أُمّ سلمان يرافقه من جهة اليسار جبال متقدمة منخفضة، وفي أقصى اليسار في الخارج جبل الأوطة مع توابع مخروطية الشكل؛ أمَّا الأُفق فيحيط به جدار أزرق فاتح، وكان جبل أجا لم يزل يبعد عنَّا مسيرة يومين. وبعد وقت قصير أضفت إشراقة الصباح على قمم الجبال لوناً ذهبياً رائعاً ثم ظهرت الشمس بكل عظمتها بادئة النهار بوجهها الشديد.

الحيوانات التي كانت منذ الأمس لم تعد راغبة في تناول الطعام صارت اليوم ترفض نهائياً كل غذاء. وكم كنت أشعر بالألم عندما كنت أرى كيف كانت هذه المخلوقات البائسة تجلد وتعذب لكي تتابع سيرها ولا تقع على الأرض من شدَّة التعب. بدت المسافة مديدة لا نهاية لها. وفي النهاية حيث كان الطريق يتجه نحو الأسفل فوق صخور وأرض طينية بدت حتى الحيوانات

تدرك أنَّ الفرج قريب. كان السهل يمتد تحت أقدامنا بلون فضي رمادي مثل أرضية بحيرة جافة. ولما ظهرت القمم الأولى لأشجار النخيل باللون الأخضر المائل إلى السواد شعر الجميع بفرحة منحتهم القدرة على الإسراع. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف عندما توقفت القافلة أمام أسوار جبَّة في ظلّ أشجار الأثل. لقد قطعنا الطريق عبر صحراء النفود خلال 4 أيَّام وساعتين واحتجنا في المجمل إلى 51 ساعة من المسير الصافي. وكان فالّين قد احتاج، ولكن على ذلول شبه مشلولة، إلى 87 ساعة، واحتاج بلغريف، إذا ما كنت قد فهمت صحيحاً، إلى 85 ساعة، وكان هوبر قد قطع المسافة في رحلته الأولى خلال 76 ساعة، وغرماني خلال 50 ساعة، وحامد[1] مصدر معلومات فتسشتاين في 52 ساعة، والليدي بلانت (على ظهر حصان) خلال ستة أيَّام (120 ساعة).

تركت الإبل بعد أن أُنزلت حمولتها لتستريح أكثر من نصف ساعة قبل أن يقدم لها الماء. بعد ذلك اقتيدت إلى حفرة صغيرة كانت قد ملئت بالماء قبل ذلك. وقد كان مدهشاً أن يرى المرء السرعة العالية التي شربت بها الإبل كمية الماء المقدمة لها. وفي المساء، قبل متابعة السفر، قدم لها الماء مرة أخرى. وفي هذه الأثناء قدمت لها كميات وافرة من العلف.

يبلغ عدد سكَّان جبَّة، التي أطلق عليها بطليموس[2] الاسم الآرامي «عينة» (أي عين)، في الوقت الحاضر نحو 500 نسمة وفيها حوالي 90 بيتاً، وهي تقع في منخفض بيضوي الشكل يبلغ طوله 8 ـ 9 كيلومترات ذي أرضية مالحة وهو أخفض 150 ـ 200 متر من أطراف النفود المحيطة به. لقاء استعمال البئر، الذي توجد ماؤه على عمق 12 ـ 15 متراً، يدفع المسافرون للشيخ مبلغاً من المال ـ وهو أمر لم أسمع[*] به أبداً في شبه الجزيرة العربية إلَّا هنا. وبما أنَّنا كنَّا نعتبر أنفسنا ضيوف الأمير رفضنا هذا التطاول على أنَّه غير مفهوم. على

(1) **مجلة الجغرافيا العامة**، العدد 18، ص412، برلين 1865م.

(2) آ. شبرنفر، **الجغرافيا القديمة للجزيرة العربية**، برن 1875م، ص171.

(*) لم تسمع به ولم يسمع به غيرك وإنما هو افتراء وكذب من ضمن مفترياتك. (المراجع).

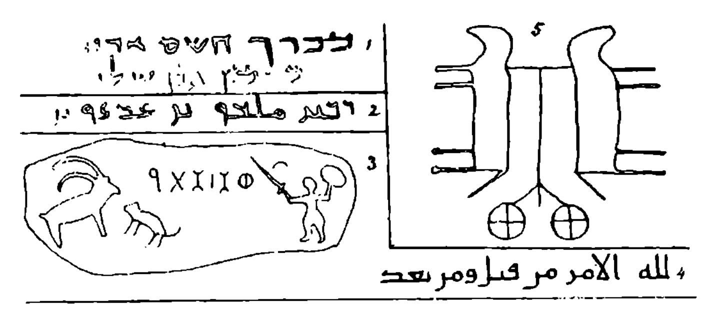
الجهة الغربية من المرجل، وعلى بُعد ما يزيد على كيلومترين من أسوار القرية، يبرز جبل أُم سلمان الذي يبلغ ارتفاعه نحو 400 متر والشديد الانحدار عند أطرافه، وهو كتلة ضخمة متطاولة من الحجر الرملي الملون وينتهي في الأعلى بحافة ضيِّقة جداً. على كتل وجدران الصخور في أسفله توجد كتابات كثيرة قديمة وصور منحوتة بصورة خشنة كان فالّين قد لاحظ وجودها.

قبلنا دعوة الشيخ نايف لتناول القهوة فقط، أمَّا وجبة طعامنا فقد قمنا بتحضيرها عند أسوار الحدائق في ظلِّ أشجار الأثل. وكان أزيز الريح الخفيف في الأغصان النحيلة يولد شعوراً، خادعاً على الأقل، ببرودة الجو. في الساعة الواحدة والنصف امتطينا أنا وهوبر جملينا وذهبنا برفقة أحد البدو إلى أسفل الجبل أُمّ السلمان. في الطريق شاهدنا ثعلباً رمادياً. وإلى جانب الطريق في الجهة المقابلة كان هناك بعض الفتيان الذي يتسلون على طريقتهم؛ كانوا قد خلعوا قمصانهم ليحموها من الأذى ويجلسون على سطح صخرة مائلة ومنحدرة إلى حدٍّ ما ثم ينزلقون إلى الأسفل بمهارة فائقة. بعد نصف ساعة وصلنا إلى جدران الصخر. كان على الصخر مئات الكتابات، لكنَّها كانت غالباً متآكلة ولا تتضمن سوى أسماء أشخاص. أمَّا الكتابات الأكثر غرابة فكانت كتابة باللغة العبرية (رقم 1)[1]، ثم كتابة باللغة النبطية (رقم 2)[2]؛ وكثير من الكتابات العربية القديمة (على سبيل المثال: رقم 3)، التي لم تكتمل بعد الأبحاث المتعلقة بأبجديتها المنحدرة من الجنوب؛ وأخيراً كتابة كوفية (رقم 4)[3]. وبين هذه الكتابات كان هناك عدد من المشاهد المعبِّرة عن الحرب والصيد والعديد من صور الإبل وذكور الماعز. ومن الصور الغريبة أيضاً صورة لعربة ذات عجلتين تجرها الخيول (رقم 5). الفنان الذي لا بُدَّ من أنَّه اقتدى، على أيِّ حال، برسومات رآها بعيداً خارج حدود نجد، سهَّل صعوبات المنظر بالتحول الذكي إلى جهتين.

(1) على الأرجح: «الحمد لله» الاسم!... تحية»؛ حسب الخط تعود إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد.

(2) «لنتذكر مليهر بن أديبّو (؟)»...

(3) «لله الأمر من قبل ومن بعد».



نقوش جبل أم سلمان

في الساعة الخامسة عدنا إلى مخيمنا. والآن سقيت الإبل للمرة الثانية. وبعد تناول طعام العشاء تحركنا مرة أخرى في الساعة الثامنة والنصف، في بادىء الأمر باتجاه الشرق تماماً. بعد ساعة ونصف صار جبل عوارض في ظهرنا وخيمنا في حوالي الساعة العاشرة ثانية على ارتفاع الجبال الرملية.

الجمعة 19 **أكتوبر/تشرين أوَّل** 1883م. كان سيرنا عبر صحراء النفود يتجه طيلة النهار في الاتجاه بين الشرق والجنوب الشرقي؛ في هذه المنطقة كانت القعور أكبر حجماً وأكثر عمقاً، لكنَّها لم تعد منتظمة التشكل كما كانت في النصف الشمالي من الصحراء. وكان هناك كميات كبيرة من الحشيش والحطب وهكذا أشعلنا في المساء وداعاً لصحراء النفود ناراً هائلة إلى درجة أنَّ حمود صار يولول من غرورنا وتبذيرنا.

السبت 20 **أكتوبر/تشرين أوَّل** 1883م. في الصباح الباكر نزلنا إلى القرية الصغيرة قنَّا[1]. في الخلفية يرتفع الجدار الصواني لجبل أجا مع الرعيّلة[2][*]

(1) قنَّا، عند فالّين: قناه؛ غرماني: غنا، جنا، بلانت: إجنه. هي قنا.

(2) لست متأكداً من كتابة الاسم باللغة العربية، رعيلة؟.

(*) الرعيلة: قال الشاعر رضا بن طارق الشحري:

....	**ما أنساه كرد البدو تنسى المطاريش**
وإلا الرعيلة عن محله تزولي	**ويطق له بجبال سلمى شرابيش**

وقال فهد بن صليخ:

كريم يا برق شلع ثم ناخي	**عساه من خشم الرعيلة اليا النير**

(المراجع).

وهي جرف شديد الانحدار في النهاية الشمالية الشرقية. البيوت القليلة تحيط بها أشجار النخيل العالية. وكم كانت مفاجأتنا كبيرة عندما وجدنا هنا بعض الحقول المزروعة بالشعير. وهناك العديد من الآبار المزوَّدة بدواليب خشبية والتي يستخرج فيها الماء اللازم للزراعة. نصبنا مخيمنا على الجانب الآخر من القرية لكي نطبخ في العراء ونقوم في الوقت نفسه بعملية غسيل كبيرة.

في الساعة العاشرة انطلقنا من جديد. بعد اجتياز ظهر رملي صغير دخلنا نزولاً في طبيعة مختلفة كلياً: سهل خصب مؤلف من البطحة (رمل غرانيتي) يرعى فيه عدد من الإبل المتفرقة؛ بذلك كنَّا قد دخلنا فجأة في «الجبل». هذا هو اسم المنطقة الواقعة بين النفود في الشمال والقصيم الأخفض منها في الجنوب. إنَّها بالتأكيد ألطف، وبفضل موقعها المرتفع (نحو 1000 ـ 1200 متر وسطياً فوق سطح البحر) أكثر المناطق صحية في شمال شبه الجزيرة العربية بالكامل؛ وهي تُسمَّى أيضاً نجد العليا، على عكس القصيم أو نجد السفلى. بقينا عدَّة ساعات نسير بين قطعان الإبل. وفجأة ودون مقدمات تغطت السماء بالغيوم وبدأ الرعد يدوي أمامنا في الجبال السوداء. وبسرور بالغ رحَّبنا بالقطرات القليلة التائهة التي سقطت من الغيوم على الخليقة المتشوقة. إلَّا أنَّ العاصفة المتوقعة لم تحدث، بل إنَّ السماء ما لبثت أن صحت ثانية، وعندما مالت الشمس إلى الغروب انصبَّت أشعتها اللطيفة على الجبال والسهول.

قبل وصولنا إلى المضيق الجبلي توقفنا لتناول طعام العشاء تحت مجموعة من أشجار الطلح (أكاسيا). كان منظر السهل الخصب مع الحيوانات التي ترعى فيه بسلام، والأشجار النامية بشكل حر، وعظمة الجدار الجبلي المهيب في الخلفية، يُضاف إلى ذلك الشعور بالأمان الشخصي وعدم الحاجة إلى الاهتمام بالطعام والشراب، والتفكير بأنَّنا سنصل غداً إلى المقصد التالي، كل هذا كان من شأنه أن يمنحنا شعوراً بالارتياح ويرفع من معنوياتنا.

الأضلاع الغرانيتية العارية، التي كانت متكوِّمة أمام الكتلة الرئيسة للجبل، كانت ذات بنية جسمية فقيرة بشكل ملفت. كانت تقف خلف بعضها

كالكواليس؛ كان طولها يتراوح بين 200 ـ 300 قدم وارتفاعها يصل إلى 60 ـ 70 قدماً، بينما كانت سماكتها لا تزيد على 25 قدماً بحيث إنَّها كانت تبرز كالشظايا من الأرض الرملية. كما أنَّ الجبال الرئيسة لها كشكل مماثل. وأنا أعتقد أنَّني لن أكون مخطئاً إذا ما زعمت أنَّ سلسلة جبل أجا لا يزيد عرضها في أي موقع على 10 ـ 12 كيلومتراً. فالمشط، أو بالأحرى الأمشاط الممتدة بشكل متواز، لا يزيد عرضها على عدَّة خطوات. بعد مسير لمدة ثلاث ساعات بسرعة عالية أصبحت سلسلة الجبال خلفنا. كان الظلام حالكاً جداً بحيث إنَّني لم أتمكن من تكوين تصور عن هيئة الجبال. على ظهر مرتفع رملي أجرد نصبنا مخيمنا لقضاء الليل، لكنَّنا لم نتمكن من النوم بسبب الرياح القوية والمطر.

الأحد 21 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الساعة الخامسة صباحاً كان الانطلاق. كان المطر ينهمر بغزارة شديدة لكنَّه لم يؤثر على الحالة النفسية السعيدة لدى الجميع، لأنَّنا كنَّا نتوقع الوصول إلى حائل (حايل) خلال ثلاث ساعات. كان طريقنا يتجه بخط مستقيم نحو الجنوب. وكان على يميننا جبل أجا: كانت الجدران الغرانيتية الملساء المائلة تتلألأ كالفضة من خلال الغشاء المطري الذي يلفّها؛ إلى اليسار في الخارج في السهل الرملي الأحمر كانت تمتد سلسلة طويلة من أشجار الأثل، وبينها جدران آبار متداعية وبيوت مهجورة. ومن بعيد ظهر أمامنا بملامح قاتمة جبل «الفتق»، وهو جبل يقع في السهل بين جبل أجا وجبل سلمى. وفي غمرة انهمار المطر، وقبل نصف ساعة من المدينة، نزلنا من على ظهور الإبل وبدلنا ثيابنا في العراء. وبعد ذلك مباشرة توقف المطر. وبعد عبورنا ظهراً صخرياً صغيراً ظهرت تحت أقدامنا، في بهاء شمس الصباح، مدينة حائل (حايل)، مقر الأمير ابن رشيد.

ما أن شاهدنا المدينة حتى انطلقنا بسرعة الجري وبخط مستقيم نحو الأسوار الطينية الطويلة مارّين بالقرب من خيام بدوية مظلمة. كان الحي القديم إلى اليسار يقع مخبّأً خلف بساتين النخيل. ومن الحي الحديث برز بهيئته

الجبَّارة القصر الغني بالأبراج. بين الجدران تمنعت الحيوانات، بطبيعة الحال، مرَّة أخرى[1] عن المسير ولم تتقدم في الأزقة الضيِّقة إلَّا بالقوَّة. في ساحة مكشوفة كبيرة تُسمَّى «مسحب» ترجلنا عن ظهور إبلنا بينما كان هناك جمع غفير من الناس يحملق فينا، ثم روفقنا عبر سلسلة من الفناءات إلى قاعة الاستقبال في القصر.

---

(1) انظر: ص65.

الفصل السابع

الحركة الدِّينية الوهابية، السعوديون والرشيديون

قبل أن أتابع حديثي عن مشاهداتي الشخصية عليّ، من أجل الفهم الكامل لمجريات الأمور، التحدث قليلاً عن الحركة الدِّينية الناشطة في شبه الجزيرة العربية منذ قرن ونصف وعن الأحداث السياسية المترقبة عليها.

قبيل منتصف القرن الماضي ثار في قلب شبه الجزيرة العربية رجل بسيط كان يشعر بأنَّه مهيأ لإصلاح الإسلام اسمه محمَّد ولقبه عبد الوهاب(*)، ابن راع فقير اسمه سليمان(**) من قبيلة بني تميم. ولد محمَّد في سنة 1115 هجري، الموافق سنة 1696م حسب التأريخ المسيحي، في القرية الصغيرة «العُيينة» ودرس العلوم الدِّينيَّة في البصرة وبغداد ودمشق وحجّ إلى الأماكن المقدَّسة في مكَّة، لكنَّه كان، نتيجة تواصله الشخصي مع أركان الأُصولية الإسلامية ونتيجة مشاهداته لما يجري في أقدس الأماكن، يشمئز جداً من الممارسات والتجاوزات الدِّينيَّة. اختزال اللاهوت الإسلامي شيئاً فشيئاً إلى مجرَّد عبارات ميكانيكية، وشكلية الممارسات الدِّينيَّة المنتشرة على نطاق واسع وخاصة عند الأماكن المقدَّسة في مكَّة والمدينة، وتقديس الأولياء المحليين إلى درجة الصنمية، كل ذلك أثار في نفسه الغضب والقرف، وقرَّر الثورة عليه علناً. أقام في حريملا وكان هناك غير محبوب بسبب تشدّده الدِّيني، وفي قريته العيينة أيضاً كان مكروهاً جداً إلى درجة أنَّه اضطر إلى الهرب إلى الدرعية. كان هذا في سنة 1750م، وعلى الأرجح قبل ذلك. في الدرعية نجح في جعل الشيخ محمَّد بن سعود من قبيلة ولد علي (من عنزة) يعتنق أفكاره، ونجم عن هذا الارتباط بين الدِّين والسياسة حركة هزَّت العالم الإسلامي بأسره. كانت القواعد الرئيسة لتعاليمه، التي لم تكن، حسب رأيه، لتختلف بأي شيء

(*) عبد الوهاب هو والد الشيخ محمد. (المراجع).

(**) جده سليمان ابن أشهر العلماء في وقته. (المراجع).

عن شكل الدِّين الخالص كما طبَّقه النَّبيّ محمَّد، كما يلي: لا يوجد سوى إلٰه واحد فقط وليس هناك أي حاجة لأي وسيط بين الإنسان وخالقه. جميع الأنبياء لم يكونوا إلَّا ناقِلين للرسالة الإلٰهيَّة لكنَّهم ليس لهم أي حقّ في التقديس الشخصي؛ لا وجود للقديسين؛ الأحقية الشرعية لرجال الدِّين مرفوضة، وكذلك جميع الطقوس والشعائر الدِّينيَّة الفخمة والمعابد الباهظة التكاليف. كاتدرائيات القبور مع ما يتجمَّع فيها من كنوز هي أماكن لخدمة الأصنام ولذلك يجب هدمها. التدخين ولبس الحلي والثياب الفاخرة، وخاصة الحرير، حرام، وكذلك كل تعبير عن الشهوة والرقص على الموسيقى واللعب. بالمقابل فرض على المسلمين إقامة الصلاة خمس مرَّات كل يوم وصوم رمضان والحجّ إلى مكَّة وإيتاء الزكاة (في الأصل واحد بالمائة من الدخل) والجهاد ضد جميع المسلمين المزيفين الذين لا فرق بينهم وبين الكفَّار والمشركين[1].

عرف الشيخ محمَّد بن سعود ذو النزعة الحربية كيف يترجم هذه الدوغما (العقيدة الصارمة) إلى الواقع العملي. فبعد 15 سنة من الحروب الصغيرة تمكن من إخضاع منطقة العارض الواقعة في داخل البلاد وكذلك الشريط الساحلي الحسا الواقع على الخليج العربي، وترك لابنه وخليفته سلطة متينة بالمعنى الكامل للكلمة.

عبر غزوات ناجحة متتالية وسع هذا الأخير، عبد العزيز، المولود سنة 1721م والمتوفى سنة 1803م (حاكم من 1765 ـ 1803م)، نطاق حكمه إلى ما وراء حدود نجد. وكلَّما شنَّ حملة حربية كان يطالب الخصوم مسبقاً باعتناق الوهابية والخضوع لسلطته. تحت إغراء الغنائم الكبيرة تنامت جماعات الوهابيين بطريقة لم تخطر على بال أحد وكانوا، محتقرين الموت، يقومون بأشجع الحملات. لا أريد تعداد الحملات الكثيرة التي قاموا بها في جميع الاتجاهات بالتحديد والتفصيل. وكانت هذه الحملات ستضيع بكل هدوء في خبايا التاريخ لو بقيت مقتصرة على داخل شبه الجزيرة العربية. إلَّا أنَّ العالم

---

(1) كتاباته موجودة بخطّ يده في لايدن، انظر كاتالوغ لاندبرغ.

الإسلامي اهتزَّ بالكامل(*) عندما هاجم الوهابيون قوافل الحجَّاج. حدث هذا لأوَّل مرَّة سنة 1783م لكنَّه تكرَّر فيما بعد عدَّة مرَّات. استمر الوضع على هذه الحال فترة من الزمن حتى تدخَّل الباب العالي الحامي الاسمي لجميع المسلمين ليضع حدّاً لأعمال السلب والاغتصاب. فلا التقدُّم في العمر ولا فقدان البصر الذي أصيب به مؤسس الفرقة محمَّد عبد الوهاب (الذي توفي سنة 1791م عن عمر ناهز الخامسة والتسعين) أثرا قيد أنملة على حماسه وتحريضه لأتباعه. كما أنَّ خليفته، ابنه الضرير أيضاً حسين، عرف بخطبه النارية كيف يبقي حماس أنصاره يقظاً. في ربيع 1801م شنَّ ابن عبد العزيز وولي عهده المقبل سعود حملة نهب وتدمير على كربلاء الواقعة على نهر الفرات. هناك عند قبر الحسين، ابن الخليفة علي، أقدس المقدَّسات عند الشيعة كانت تتجمع منذ مئات السنين كنوز باهظة الثمن من الهدايا والهبات. ولا عجب في أنَّ حملة إلى هناك كانت مغرية جداً. في يوم عيد الأضحى، في 20 أبريل/نيسان 1801م، ظهر الوهابيون أمام مشهد الحسين فدمَّروا المقدَّسات وقتلوا حرَّاس القبر ومشايخه. وفعلوا ذلك بسرعة فائقة إلى درجة أنَّهم لم يتركوا أحداً حيّاً ليدلهم على الكنوز المخبأة تحت الأرض. إلَّا أنَّ الغنائم المكشوفة كانت ثمينة بما فيه الكفاية: 20 سيفاً مرصعاً بالجواهر كانت معلقة حول قبر الحسين، كثير من المزهريات الذهبية والسجاجيد الثمينة كانت تزين القبر، 500 صفيحة نحاسية وذهبية كانت تغطي القبَّة منذ عهد نادر شاه، 4000 شال كشميري، 2500 بندقية ثمينة، 6000 كفادروبل إسبانية، 350,000 دوكان ذهبي بندقياني، 400,000 دوكات هولندي، 25000 دولار إسباني، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من العبدات والعبيد. كل هذه النفائس نقلت إلى الدرعية. تمَّ تسجيل الغنائم، التي جمعت خلال فترة قصيرة من الزمن لم تتجاوز ثمان ساعات، على طريق العودة في مساء اليوم الأوَّل عند بئر الأخيضر. في سنة 1802م فشلت الحملة التي شنَّت على مكَّة، لكنَّها أُعيدت

(*) بل اهتزت له دوائر المخابرات بالدول الاستعمارية وخاصة البريطانية والفرنسية فأوفدوا رجالاتهم للتعرّف على هذا الناشط الديني والسياسي. (المراجع).

في السنة التالية وانتهت بنهب المدينة وقطع رؤوس 20 شريفاً؛ لكن الأماكن المقدَّسة بقيت هذه المرَّة سليمة ولم تتعرَّض لأيِّ أذى. في العام نفسه 1803م في 14 أكتوبر/ تشرين الأوَّل اغتال شيعي متعصب الحاكم عبد العزيز، البالغ من العمر 82 سنة، بينما كان يصلي في جامع الدرعية، انتقاماً منه عن نهب وتدمير مشهد الحسين في كربلاء.

بعد مقتل عبد العزيز تولَّى زمام الحكم من سنة 1803 حتى 1814م ابنه سعود القائد العسكري المشهور. في سنة 1804م استولى على المدينة (المنوَّرة) وأمر بأخذ جميع النفائس الموجودة على قبر النَّبي محمَّد. في ذلك الوقت توقفت قوافل الحج الكبيرة، القافلتان الرسميتان التركية والمصرية وكذلك القافلتان الفارسية واليمنية. لم يحدث هذا لأنَّ الوهابيين كانوا يريدون قمع عملية الحج نفسها، وإنَّما لأنَّ الحجَّاج كانوا يدخلون إلى الأرض العربية بمرافقة جنود أجانب غير مخولين بالدخول. إذ إنَّ الشعور القومي العربي، مجسداً في الوهابيين، كان يريد عدم الإذعان للوصاية التركية والمصرية وكان أيضاً لا يسمح بأي تدخل مسلح. في عامين متتالين 1806 و1807م تمَّ نهب القافلة المكاوية بالكامل. وفي سنة 1809م قام سعود نفسه بالحجّ إلى المدينتين المقدَّستين، وفي سنة 1810م قام في المناسبة نفسها بفتح قبر النبي محمَّد في المدينة وبأخذ جميع المجوهرات والسيوف والمصابيح وغير ذلك من النفائس ونقلها إلى الدرعية، كما قام بتحطيم الحجر الأسود في الكعبة(*). وإذا ما كانت الحركة الوهابية في ذروة قوَّتها قد أخضعت بالدم والعنف شبه الجزيرة العربية بكاملها وأثارت الذعر والخوف في البلاط الملكي في إسطنبول وطهران، فإنَّها كانت تحمل أيضاً في ذاتها بذرة سقوطها. ذلك أن تجميع كنوز لا حصر لها في العاصمة كان سيؤدِّي بالضرورة إلى فساد العادات والتقاليد الأخلاقية البسيطة: أصبح الترف والمحسوبية والغرور جزءاً من الحياة اليومية. فلم يأنف سعود، على سبيل المثال، من أن يرتدي عباءة مرصعة بالذهب بقيمة 200,000 قرش (= 35000 مارك). الضغط والامتصاص والضرائب الباهظة أدَّت إلى نشوء

(*) أكبر كذبة وهي تحطيم الحجر الأسود بينما هو لا يزال بركن الكعبة سليماً معافى. (المراجع).

حالة من عدم الرضى لدى القبائل ودفعت بعضها إلى الهجرة. فقط التهديد الخارجي الجديد كان من الممكن أن يحافظ على تماسك الدولة الوهابية. وهذا التهديد كان قد حان أوانه. ذلك أنَّ نهب الأماكن المقدَّسة، وانتهاك حرمة قبر النَّبي محمَّد، وقتل كثير من المسلمين، والخسارة الوشيكة للأقاليم الآسيوية، كل هذا كان لا بُدَّ من أن يوقظ الباب العالي من لا مبالاته ونومه العميق. محمَّد علي باشا في مصر ونائب الملك فيما بعد كان السوط المناسب بالنسبة للبدو واستجاب طواعية لهذا الطلب. فقد أتاحت له هذه المناسبة الفرصة لأن يستعمل هذه الحملة العسكرية كمدرسة لتدريب جيشه الناشىء على أساليب القتال والذي كان لا غنى عنه لتنفيذ خططه السرية الأخرى. إلَّا أنَّ ما جرى للرومان في حملتهم العسكرية المزرية على الجنوب العربي بقيادة أليوس غالّوس (في سنة 25 ـ 24ق.م) ـ ولربَّما ما واجهه قبل ذلك المحتلون الآشوريون ـ الشيء نفسه ذاق طعمه أيضاً المهاجمون المصريون: الجوع والعطش، وعدم مناسبة المناخ والأرض، والأوبئة، والاستهلاك السريع للدواب والبشر، وصعوبة الإمداد والتموين، وعدم جدية القادة، كل هذا أثبت أنَّه عدو أخطر كثيراً من شلل القوات البدوية.

في أكتوبر/تشرين أوَّل 1811م انطلق الجيش البري المصري، مدعوماً بأسطول بحري تمَّ تشكيله بصعوبة، إلى شبه الجزيرة العربية. كان على رأس هذا الجيش الابن الشاب لمحمَّد علي باشا طوسون باشا البالغ من العمر 16 عاماً. الهجوم الأوَّل على الأعداء فشل فشلاً ذريعاً. إلَّا أنَّ الأمور كانت أفضل في سنة 1812م حيث تمَّ احتلال المدينة والحناكيَّة وجدة ومكَّة. في سنة 1813م قدم محمَّد علي شخصياً إلى ساحة المعركة وأقام صلواته ـ ليس دون حسابات ماكرة ـ كحاج بسيط عند الكعبة وعند قبر النبي محمَّد. تعيَّن على الجيش المصري أن يجلب من مصر تعويضاً لخسائره من الجنود والخيول والإبل وبعد أن وجَّه نائب الملك (في 10 يناير/كانون الثاني 1815م) بجيش قوامه 3000 رجل للوهابيين قرب بسّل ضربة على الرأس، صار من الممكن التفكير بالتقدم نحو الداخل. في هذه الأثناء كان سعود قد توفي في أبريل/نيسان أو مايو/أيار 1814م وحلَّ محله ابنه عبد الله (1814 ـ 1819م). وبينما

كان هذا الأخير راغباً في التوصل إلى تسوية سلمية. رفض نائب الملك بكل صلافة أي شكل للمفاوضات قائلاً: إنَّها قد فات أوانها. إلَّا أنَّ شؤون الحكم والسياسة استدعت عودة محمَّد علي إلى مقره في القاهرة وعند انسحابه أبلغ ابن سعود بأنَّه سيرسل ابنه إبراهيم باشا مع جيش كبير إلى الدرعية لتدمير البلاد بأسرها وإرساله حيّاً أو ميتاً إلى اسطنبول. ولقد أوفى بكلامه فعلاً. لن أتحدث عن الحالات المتبدلة للحرب 1816/ 1817م، التي أُديرت من كلا الطرفين بمنتهى المرارة والوحشية ولم يوفر فيها إبراهيم باشا المال لرشوة وكسب ودّ الخاضعين له، بل سأكتفي بإبراز الكارثة الختامية التي تمثلت في الاستيلاء على الدرعية وتدميرها. في 17 أبريل/نيسان 1817م بدأت القوات المصرية بقصف العاصمة الوهابية. وبدا في أوَّل الأمر وكأنَّ السماء تقف إلى جانب المدافعين، الذين كانت النساء تحمسهم وتدعمهم، تحت وابل من الرصاص، بتزويدهم بالبارود والرصاص وبتقديم الماء لهم في الجرار، وضدّ محاصريهم. ففي 21 يونيو/حزيران هبَّت على المعسكر المصري عاصفة هوجاء غير عادية أدَّت إلى اشتعال النيران وانتشارها بسرعة خاطفة ثم انتقالها إلى مستودع البارود ممَّا أدَّى إلى حدوث انفجار كالرعد دمَّر 200 برميل من البارود و250 صندوقاً مليئاً بالذخيرة والقنابل. أودى هذا الانفجار بحياة كثير من البشر والحيوانات وأتلف أيضاً نصف جميع المؤن ولكن لا هذا الحادث الرهيب، ولا نقص المواد الغذائية، ولا الأمراض الفتاكة وذات النتائج الوخيمة، كانت قادرة على إركاع رجل مثل إبراهيم باشا. بل صدَّ جميع هجمات الأعداء بمنتهى البراعة. وبعد تجديد المؤن وحشد قوَّة جديدة قوامها 1600 رجل استأنف الهجوم مرة أخرى بعد 25 يوماً. وبينما كان خليل باشا في الطريق مع 3000 رجل من القوات المساندة، بذل كل ما لديه من جهد لكي يحتل المدينة دون مساعدة أجنبية. وبعد دفاع بطولي أجبر عبد الله بن سعود، الذي لم يبق لديه في نهاية المطاف إلَّا حرس شخصي مؤلف من 400 رجل من العبيد، في 9 سبتمبر/أيلول 1817م على الاستسلام. أشاد إبراهيم باشا بشجاعة خصمه ونبله وأبدى له كل احترام. أمر بنقله إلى القاهرة وبدا أنَّ محمَّد علي كان ميَّالاً إلى العفو عنه. لكن الباب العالي في اسطنبول أصرَّ على

تسليمه وأمر بإعدامه شنقاً سنة 1819م. بعد نهب وتدمير الدرعية انسحب إبراهيم باشا مع جيشه وعيَّن موظفاً جشعاً متصرفاً على نجد. وترك في البلد جميع المواد الثقيلة التي لم يكن في حاجة ضرورية لها على طريق العودة: وأرسل إلى حائل (حايل) بعض البقايا من ضمنها المدافع القديمة وسندان مع مشغل الحديد العسكري المصري.

لا أستطيع إعطاء معلومات عن مدى الاحتلال المصري ولا عن المناطق التي شملها ولا عن التقلبات التي مرَّ بها لأنَّ المصادر المتعلقة بهذه الأمور شحيحة وغير موثوقة. إلَّا أنَّ الشيء المؤكد هو أنَّه في سنة 1849م على أبعد تقدير كان قد اختفى آخر بصيص لأي نفوذ مصري في وسط شبه الجزيرة العربية ولم يبق هذا النفوذ إلَّا في المناطق القريبة من الحملات العسكرية التي شنَّتها القوات التركية المصرية سنة 1824 ـ 1827م وسنة 1833 ـ 1836م في جنوب الحجاز وفي جبال اليمن ضدّ القبائل المحاربة في عسير.

خلال الثلاثين سنة بين تدمير الدرعية والجلاء الكامل للقوات الأجنبية عن المناطق الداخلية من البلاد تمكَّن الوهابيون من تجميع قواهم مرة أخرى. وممَّا أدَّى إلى تجمعهم وتكاتفهم كان كرههم للأتراك والمصريين؛ ويعود هذا الكره لدى جميع البدو، الذين لا يمكن أبداً نكران نبلهم وفروسيتهم، إلى اشمئزازهم الشديد ممَّا يتصف به الآخرون غالباً، حسب تجربتهم، من عدم وفاء وغدر ونكصان للعهود.

إذا ما كان الوهابيون قد توصلوا إلى القناعة بأنَّه كان من الخطأ والإفساد الاشتباك مع جيوش مدربة خارج حدود الصحراء، فقد تعيَّن بالمقابل على المصريين أن يعترفوا بأنَّهم لا يستطيعون الاحتفاظ بداخل شبه الجزيرة العربية دون ضحايا لا جدوى من تقديمها، وأنَّ احتلال البلد غير مجدٍ تحت أي ظروف كانت. أي إنَّ الصحراء للبدو والمدن المحصنة للجنود والموظفين! ولم يزل الحال هكذا حتى اليوم. والرأي القائل بأنَّ الشريط الساحلي من شبه الجزيرة العربية يشكل مناطق تركية منظمة ومترابطة هو خطأ فادح؛ هناك فقط عدد قليل من الحاميات مع المحيط المجاور لها مباشرة حيث يستطيع الأتراك إعطاء الأوامر،

أي فقط بمقدار ما تطال بنادقهم ومدافعهم. أمَّا فيما وراء ذلك، في الأرض المنبسطة أو في الجبال المكشوفة، فلا وجود للنفوذ التركي إلَّا على الخرائط.

إذا ما كنَّا على اطلاع جيد نسبياً على المرحلة الأولى من الحكم الوهابي الذي انتهى بتدمير الدرعية (1817م) فإنَّ ما نعرفه عمَّا جرى بعد ذلك في داخل شبه الجزيرة العربية من أحداث محدود جداً. ذلك أنَّ لا مبالاة البدو بأعداد السنين تجعلنا هنا غير متأكدين على الإطلاق. فإذا ما سألهم المرء عن بيانات تاريخية يمكن أن يستخلص في أحسن الأحوال يوم الأسبوع ومعلومات عن العيد المجاور، أمَّا عن السنة فمن النادر الحصول على معلومة أو على تطابق في المعلومات، بحيث إنَّ المعلومات التي تُعطى لك عن أحداث حتى غير بعيدة تكون متباينة عدَّة أعوام. يُضاف إلى ذلك إرباك آخر يتمثل في تكرار الأسماء عبر عدَّة أجيال وعبر درجات القرابة دوماً وأبداً، أسماء عبد الله، عبد العزيز، سعود، فيصل، وما شابه، مع ذكر التسمية العامة: الأسرة الحاكمة ابن سعود. عليَّ أن أتخلَّى مؤقتاً عن التصحيح ولا أستطيع أن أسجل إلَّا نقلاً عن طرف ثالث أنَّ الأمير الوهابي الخامس تركي، ابن عبد الله الذي أعدم في اسطنبول[*]، هو الذي حافظ من سنة 1820م حتى سنة 1832م على تماسك الوهابيين. يُقال: إنَّ ابنه فيصل (الحاكم رقم 6) قد حكم من سنة 1836م حتى سنة1866م (؟) ثمَّ تولَّى الحكم بعده عبد الله (الحاكم رقم 7). ومنذ ذلك يحول خلط معقد من الأسماء والأرقام دون توصلي إلى معلومات مؤكدة[1].

هناك شيء واحد مؤكد هو أنَّ الدولة الوهابية مع عاصمتها الجديدة الرياض أخذت تتقلص بصورة متزايدة نحو الخارج والداخل، بينما أخذ ينبت من الجذور المطمورة تحت الأرض وبكل هدوء فرع جانبي جديد مؤهل لأن يصبح مركزاً لفكرة قومية أكثر قوَّة وأكثر صحة.

(*) فيما يلي هناك تعارض في المعلومة بين هذه الصفحة والصفحة التي تليها حيث يذكر هناك أنه اغتيل وهو يصلي في الجامع والقول الثاني هو الصحيح. (المراجع).

(1) بخصوص آخر المستجدات انظر ص73 وما بعدها أعلاه.

في نجد العليا، في الجبل، أي في المنطقة الواقعة بين جبل أجا وجبل سلمى كانت عائلة بيت علي، المنتمية إلى قبيلة شمّر الكبيرة، في مدينتي حائل (حايل) وقفار في بداية هذا القرن تحت الحكم الوهابي، أقوى وأوجه عائلة. لكن حزباً آخر كان يحاول التفوق عليها في المرتبة وسحب السلطة من أيديها. كان يقف على رأس هذا الحزب شاب طموح قوي الشكيمة والعزيمة اسمه عبد الله بن رشيد من قبيلة عبده التي هي أيضاً فرع من قبيلة شمّر. لكن حملاته ضدّ بيت علي لم تكن موفقة على الإطلاق وكان ما حدث له في مطلع حياته يبشر بحظّ سعيد. في سنة 1818م أو 1820م اضطر إلى الهرب والتخفي. ذهب أوّلاً إلى الجوف لكنَّه لم يجد هنا مستقراً فراح يجول مع عدد من رفاقه في وادي سرحان. هناك هاجمتهم جماعة من قبيلة عنزة وقتلتهم جميعاً وبقي هو مطروحاً في الصحراء وبلعومه مقطوعاً. في ذلك الوقت مرَّ في المكان تاجر من دمشق ولاحظ أنَّه لم يزل فيه رمق من الحياة، فضمد له جراحه وأخذه معه إلى سوريا. مع العناية به استعاد عافيته وقرر، بعد حصوله من منقذ حياته على كثير من الهدايا، العودة إلى موطنه. لم يكن يستطيع العودة إلى حائل (حايل) ولذلك عاد إلى عاصمة الوهابية الجديدة الرياض. هناك تميَّز بشجاعته وقيامه بغزوات حربية مختلفة. في حوالي سنة 1830م شارك مع فيصل بن تركي[1] في حملة على الحسا. وبينما بدأ فيصل في محاصرة مدينة الهفوف وصله خبر مفاده أنَّ الأمير الحاكم تركي قد اغتيل وهو يصلي في الجامع[*] على يد ابن عمه مشاري وأنَّ القاتل قد نصب نفسه حاكماً. بناءً على نصيحة عبد الله رفع الحصار مؤقتاً وعاد فيصل مع كامل الجيش بالمسير السريع إلى الرياض. لم يكن لدى مشاري، الذي لم يكن مستعداً لمثل هذا التصرف السريع، أي دفاع سوى القصر المتين والحرس الشخصي. استمر حصار القلعة الحصينة عشرين يوماً دون أي نجاح. بعد ذلك تمكّن عبد الله

---

(1) انظر الصفحة 176 أعلاه.

(*) ذُكر في الصفحة السابقة أنه أعدم في اسطنبول.

مع رفيقين جريئين له، عن طريق خيانة، من النزول في الليل بواسطة حبل في داخل القصر ومن قتل مشاري في غرفة نومه بعد دفاع مستميت. وهكذا تمَّ الاستيلاء على القصر دون سفك مزيد من الدماء وهتف الشعب مرحباً بالحاكم الجديد.

لم تكن الخدمات التي قدَّمها عبد الله لتبقى دون مكافأة: فقد طلب من فيصل تعيينه محافظاً في الجبل ولبَّى له فيصل طلبه على الفور؛ عندئذٍ لم يتردَّد في الدخول، بصفته محافظاً، مع قوَّة عسكرية كبيرة إلى مدينته حائل (حايل). أراد أوَّلاً، بطبيعة الحال، تصفية حساباته مع بيت علي وأسند هذه المهمَّة لأخيه عُبيد الملقب بالذيب. وهذا ما فعله عبيد بمنتهى الجذرية والعنف. وما لبثت القرى والبلدات الصغيرة في الجبل أن شعرت بوجود السلطة الجديدة؛ لكنَّها كانت غير قادرة على إبداء أي مقاومة. كان عبد الله ماكراً بما فيه الكفاية لينال رضا سيِّد نعمته، وذلك بأن يطبق بمنتهى الدقَّة التعاليم الوهابية الصارمة ويرسل إلى الرياض بانتظام الزكاة المفروضة عليه. وإذا ما كان حتى الآن قد سكن في وسط بيوت عائلات وجيهة أخرى فقد بدا له الآن أنَّه سيكون من الأفضل، لرفع وجاهته ولإبراز مكانته السلطوية الفعلية، السكن في قصر كبير محصَّن يبنى في حي جديد. وفوق ذلك كان بناء قلعة حصينة ضرورياً للمحافظة على أمنه وأمن عائلته. كان يتعيَّن عليه أن يحسب حساباً لأي محاولة اغتيال لأنَّ ولاء رعاياه، الذين لم يزل يجري في عروقهم دم بدوي حرّ، كان غير مضمون بأيِّ حال. لم يكن بناء القصر قد انتهى حتى توفي عبد الله[1] فجأة «يوم الجمعة» من سنة 1845م (أو 1843م؟). ترك وراءه ثلاثة أبناء: طلال، ومتعب، ومحمد. لم يكن لأخيه عبيد، الذي لا يحبه إلَّا القليلون ولكن الجميع يهابونه، أي فرصة ليخلف أخاه في الحكم، وهكذا اتفقت جميع الأحزاب على الاعتراف بابنه طلال، البالغ من العمر 20 عاماً، خليفة له. كان طلال ليس فقط بدوياً أصيلاً، أي ليس فقط محارباً شجاعاً ورجلاً كريماً ولطيف المعشر، بل كان لديه فعلاً، بالإضافة إلى ذلك، صفات

(1) على قبره، أمام أسوار حائل (حايل)، كتبت فقط العبارة التالية: «عبد الله بن رشيد رحمه الله».

رجل الدولة. عمل على فرض نظام في مداخيل المملكة، وسعى إلى إلغاء العادة السيِّئة المتوارثة لدى شعبه وهي عادة الثأر، ومارس شخصياً سلطة القضاء وإحقاق الحق، وبنى في العاصمة حياً من المحلات التجارية، وجلب إلى البلد حرفيين من المدينة (المنوَّرة) وتجاراً من العراق (معظمهم شيعة) بإعطائهم بعض الامتيازات، وحرص على فرض الأمن على الطرق. ومن أجل إرضاء الخطباء الوهابيين بنى جامعاً كبيراً مقابل القصر وأمر بحفر آبار جديدة وبإقامة الحدائق وتمتين الأسوار، لا بل وبناء المدارس. أمَّا توسيع حدود منطقة شمّر وإغناء الرعايا فكانا من مهام عمّه عُبيد، المحارب الذي لا يستريح، والذي لم يكن يستطيع الجلوس في البيت: فقد أجبر خيبر وتيماء والجوف، على التوالي، على الخضوع له وعلى إرسال الزكاة إلى حائل (حايل). وأمَّا طلال، الذي كان يمقت سفك الدماء، فقد أرسل أخاه متعب مع عمه عبيد لكي يُخفِّف بعض الشيء من عنفه وبطشه. وكاد لطفه وتسامحه أن يجعلا فيصل يشتبه في أنَّه فاتر عديم الحماس، لكنَّه عرف كيف يحافظ على مظاهر الإيمان الوهابي الحقيقي. فعلى الرغم من أنَّه شخصياً لم يكن يهتم بهذه الأمور، فقد منع الترف في الملابس وحظَّر بيع التبغ واستهلاكه وشدَّد الدعوة إلى الذهاب إلى المساجد. وأزيلت جميع الشكوك في استقامته وولائه بواسطة الضرائب الوافرة التي كان يرسلها بانتظام إلى الرياض، كما أنَّ وجود التجار الشيعة في حائل (حايل) برَّره بأنَّه معونة ضرورية وبأنَّهم قد اعتنقوا الدِّين الوهابي. ولم يكن سلوكه تجاه الباب العالي أقل لباقة. فعلى الرغم من أنَّه لم يرسل أبداً قرشاً واحداً من الضرائب إلى اسطنبول، كان خطباء المساجد يدعون كل جمعة للسلطان بالصحة وطول العمر. بالمقابل عندما كان يأخذ من الحجَّاج الأتراك كل عام ضريبة عند عبورهم الحدود الغربية للملكة شمّر، كان يعتبر ذلك أمراً بديهياً لقاء حمايتهم من هجمات بدو آخرين. وليس مستبعداً أن يكون طلال قد أجرى مفاوضات دبلوماسية مع نائب الملك في مصر لكي يضمن سنداً خارجياً في حال اصطدامه مع الباب العالي.

خلال حكمه الذي دام عشرين عاماً أسس دولة بدوية نموذجية منحت إدارتها المنظمة والعادلة الرعايا شعوراً بالأمان لم يكونوا يعرفونه من قبل وجعلت

الجيران يتمنون لو استطاعوا الانضمام إلى هذه الدولة. كان الحكَّام في الرياض ينظرون بحسد وخوف إلى تنامي قوَّة أتباعهم السابقين الذين لم يعودوا يجارونهم في القوَّة والجاه وحسب بل صاروا أيضاً يشكلون خطراً عليهم. وضع الضغط الخانق للتعصب الدِّيني، الغريب في الحقيقة عن الرُّوح البدوية، أفضل القوى في مملكة ابن سعود في أسر مقيت ولم يستطع وضع حدّ لسقوط نجمه. على إثر إصابته بمرض لا شفاء منه (تسمّم؟) دخل طلال في حالة من الكآبة ممَّا جعله يضع حدّاً لحياته بطلقة من مسدس في السابع عشر من ذي القعدة 1284هـ (؟) الموافق 11 مارس/آذار 1868م.

كان أخوه وخليفته متعب بن عبد الله حاكماً لطيفاً ومتفهماً وكان محبوباً جداً من الشعب، لكن حكمه لم يدم إلَّا فترة قصيرة من الزمن. كان طلال قد خلف أربعة أبناء: بندر، وعبد الله، ونايف، وبدر، فتآمر الأوَّل والأخير على قتل متعب: اقتناعاً منهما بأنَّ لديه تميمة تحميه من الرصاص قاما بصبّ طلقات فضية وأطلقا النار على عمهما الطيِّب النيَّة وهو في ساحة السوق فأردياه قتيلاً. كان هذا في الثاني من ربيع الثاني 1285هـ (؟) الموافق 23 يوليو/تموز 1868م. وبما أنَّ متعباً لم يكن له سوى ابن صغير كان عمره آنذاك سنتين اسمه عبد العزيز كان من الممكن أن يصبح، في أسوأ الأحوال، أخوه محمَّد بن عبد الله (الأمير الحالي) خطيراً.

كان بندر بن طلال الذي تولَّى الحكم وعمره 17 أو 18 عاماً قليل الحظ. إذ إنَّ خشونته وتعسفه وعناده كانت صفات غير مناسبة لتثبيت عرشه؛ الوضع الاقتصادي السيىء والمجاعة غذيا الاستياء الشعبي ضدّه. وزاد من قلقه غياب عمه محمَّد الذي كان قد هرب إلى الرياض إلى عبد الله بن سعود. وكان محمَّد، الذي رافق قافلة الحجّ الفارسية من بغداد إلى مكَّة ثلاث عشرة مرَّة، قد أصبح ثرياً من وراء هذه المرافقة التي كانت تدرُّ كثيراً من الأموال. وفضلاً عن ذلك كانت له صلات واسعة وكان اسمه مشهوراً لدى الكبار والصغار عند الفرس والبدو. جميع العيون كانت متوجهة إلى هذا الرجل؛ وكان هذا غير خافٍ على بندر. ولذلك كان بندر يعتقد أنَّه سيكون أكثر أماناً لو أعاده بأيِّ طريقة إلى مقربة منه. في بادىء الأمر لم يكترث محمد بالرسائل

والهدايا. ولكن بعد وساطة عبد الله بن سعود تمكن بندر من إقناع عمه، بواسطة الرسائل الودية والتصالحية، بأن يعود إلى حائل (حايل) ويتولّى قيادة قوافل الحجّ الفارسية. نفذ محمَّد المهمة وكان عليه في الوقت نفسه أن يجلب معه على طريق العودة من الفرات حمولة 1000 جمل أرز إلى حائل (حايل). وبما أنَّه لم يكن هناك قبيلة أخرى بالقرب من النجف أبرم محمَّد عقداً مع بدو معادين من قبيلة ظفير لنقل الشحنة إلى حائل (حايل) وضمن لهم حرية الدخول والخروج. عند الاقتراب من حائل (حايل) أرسل محمَّد، كالعادة، رسولاً قبله كي يبلغ تحيَّاته. غضب بندر من تصرف محمَّد وشك في قدومه مع قبيلة معادية ولذلك أمر على الفور بسرج الخيول وبإغلاق أبواب المدينة. ثم خرج بنفسه مع أخيه الأصغر، وكذلك مع حمود بن عُبيد ومجموعة صغيرة من أتباعه، إلى أمام الأسوار لملاقاة محمَّد. وبدلاً من التحيات والسلامات تبادل مع محمد بعض الكلمات القصيرة والاتهامات. وبناءً على إشارة سريعة عبَّر فيها حمود، من وراء ظهر بندر، أنَّ الأمر يتعلق بقطع رأسه، قفز محمَّد من على ظهر ذلوله على ظهر حصان أحد المرافقين ثم هجم على بندر ومسكه من جدائله الأمامية وشقَّ بالخنجر بسرعة البرق بطنه بحيث إنَّ أحشاءه سقطت على الأرض. وبينما هرب بندر(*) على حصانه إلى الجبال ولوحق، سار محمَّد مع حمود في الشوارع الخالية من الناس إلى القصر. كل من تمَّ الوصول إليه من أسرة طلال، ومن ضمنهم أربعة أولاد من أخت محمد نفسه، بالإضافة إلى العبيد وجميع الأتباع تمَّ ذبحهم في الساعة نفسها. يُقال: إنَّ 70 رأساً قد سقط في ذلك اليوم. حدث هذا في 20 رمضان 1286هـ الموافق 25 ديسمبر/كانون أوَّل 1869م. وعندما فتحت في صباح اليوم التالي أبواب القصر أخذ أسد اليوم الجديد مكانه على كرسي الحكم وإلى جانبه حمود مع بعض الزنوج المسلحين. في المسحب (ساحة السوق) أمام القصر لم يكن هناك إلَّا عدد من البدو الغرباء الذين كانوا قد انحصروا في المدينة عند إغلاق أبوابها. شهود

(*) كيف يهرب بندر وقد سقطت أحشاءه على الأرض يبدو أن المقصود بدر وليس بندر. (المراجع).

المشاهد البشعة من اليوم السابق كان لم يزل يطنُّ في آذانهم صراخ الضحايا وقد ظنُّوا وقتها أنَّ ساعتهم الأخيرة قد جاءت. فيما عدا هؤلاء لم يتجرأ سوى عدد قليل من سكَّان حائل (حايل) على المجيء إلى الساحة لتقديم التهاني والمبايعة. أمام هذا التجمع الهزيل برَّر محمد بجُمل متقطعة وبحركات سريعة تصرفه. في أثناء هذا المشهد وصلت الجماعة التي لاحقت بدراً وأسرته. بكلمات ملؤها التباهي والتشفّي أعلن قائدها أنَّه قضى على بدر. بدلاً من الثناء المنتظر صرخ محمد في وجهه قائلاً: «من أمرك بأن تقتله؟ هل أمرتك أنا؟ اغرب عن وجهي يا ابن الكلب!». ومع هذه الكلمات رفع سيفه وضربه على عنقه فسقط رأسه على الأرض[1]. ويُقال: إنَّ محمداً، اعتباراً من ذلك اليوم، لم يسفك، خلال فترة حكمه الذي دام أربعة عشر عاماً، قطرة دم واحدة. وبينما كان اسمه لا يذكر في البداية في الصحراء العربية بأسرها إلَّا مقترناً بالخوف والرعب فإنَّ جميع الأفواه لا تتحدث اليوم إلَّا عن عدله وعن شجاعته وكرمه وحكمته. فالشيوخ، أو كما يُسمِّي هو نفسه شيخ المشايخ[2]، هو معبود البدو لأنَّهم يرون فيه تجسيداً للفضائل القومية. وكم هو مؤسف أنَّه بلا أولاد. فرعاياه مستعدون للسير في النار في سبيله: وليس هناك فرد واحد بينهم يريد له السوء. «الله يطوِّل عمره!».

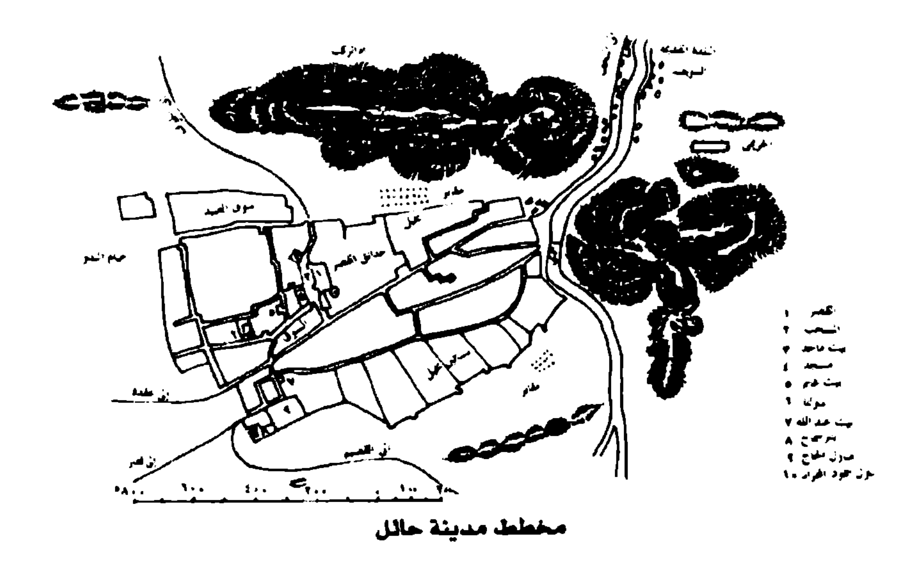
(1) من لا يفكر هنا بالمشهد المشابه الوارد في التوراة؟.

(2) «الشيخ» يتحدث البدو عنه، عادة، باسم «الشيوخ» ولكن أيضاً «الأمير» أو «ابن رشيد». أمَّا في المخاطبة فيستعملون اسمه الأوَّل فقط «يا محمَّد».

الفصل الثامن

حائل (حايل)

24 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م ـ 23 يناير/كانون الثاني 1884م



مخطط مدينة حائل

كنّا بطبيعة الحال متشوقين جداً لمشاهدة حاكم شمال شبه الجزيرة العربية الذي تحدَّثنا عنه آنفاً والذي سيكون مصيرنا في يده خلال الفترة القادمة. وبينما أخذت أمتعتنا إلى البيت المخصص لنا أُخذنا نحن إلى القصر عبر باحة مكشوفة، مروراً بالقرب من مدافع قديمة، في بادىء الأمر إلى صالة الاستقبال («المضافة») حيث قدّمت لنا القهوة الحلوة («قهوة حلو») ثم القهوة المرة. كان يضبط الأعداد الكبيرة من الناس، الذين كانوا يدخلون ويخرجون لتحيَّتنا والحملقة بنا، رجل عجوز وقور له لحية طويلة بيضاء كالثلج. كان هذا العجوز مفرّج مدير التشريفات في القصر. بقينا في المضافة نصف ساعة تقريباً لكي يتفرَّج علينا الناس، قدّم خلالها قائد رحلتنا حمود المجراد للأمير تقريراً أوّلياً عنَّا وعن الرحلة ـ بعدئذٍ دخل مفرج وأخبرنا بأنَّ الأمير يريد استقبالنا. اقتادنا عبر ممر مظلم طويل مروراً بالقرب من غرفة الحرس في باحة نصف مكشوفة فيها في الجهة المقابلة على اليمين عدد من الكراسي الأوروبية الهزيلة

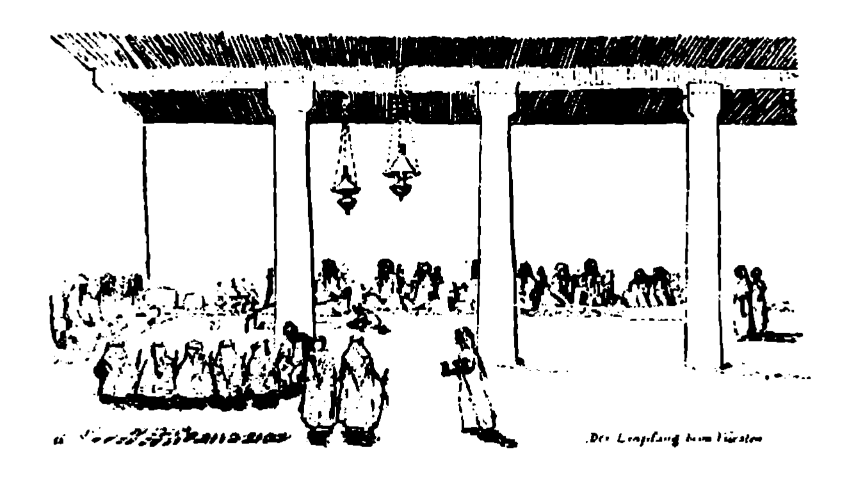
ذات المساند (العرش؟) وعدد من مفروشات الحدائق المذهَّبة وغير ذلك من الأشياء السخيفة المستوردة من أوروبا، إلى «القهوة» أي صالة استقبال الأمير. بعد أن تركنا عند المدخل أحذيتنا وصنادلنا تقدَّمنا نحو الأمير دون انحناءة وبلا أي مراسم مكتفين بالتحية البسيطة «السلام عليكم». وما أن شاهدنا حتى نهض واقفاً وردَّ التحية بقوله: «وعليكم السلام» ثم توجَّه نحونا ماداً لنا يده، وبينما كنَّا نقبِّله يميناً ويساراً كان يسأل مراراً وتكراراً وبحيوية ظاهرة: «كيف إنت، كيف إنت؟». وكان يفعل الشيء نفسه حمود العبيد ابن عم الأمير. «تفضلوا»، كانت إشارة الدعوة إلى الجلوس. وبعد ذلك التحية العامة «صباح الخير». على يسار الأمير جلست أنا وهوبر بالإضافة إلى الرجل المحارب صالح بن رخيص[1] وبعده جلس الأمراء الشباب. وعلى يمينه جلس حمود العبيد وبعض الأقرباء الكبار في السِّنّ. وعلى الحائط في الجهة المقابلة (على يسار المدخل مباشرة) جلس ـ حسب مصطلحاتنا ـ الوزراء وموظفو القصر، وأيضاً جنود مع سيوف مسلولة. وبما أنَّ هوبر من معارف الأمير وضيفه سابقاً فقد تعيَّن عليه أن يجيب على كثير من الأسئلة قبل غيره من الحضور. في هذه الأثناء كان لديَّ متسع من الوقت لإلقاء نظرة على ما حولي. كانت صالة الاستقبال عبارة عن غرفة كبيرة مستطيلة الشكل مطلية باللون الأبيض طولها 16 متراً وعرضها 10 أمتار وارتفاعها 4 أمتار تقريباً. السقف مكوَّن من خشب الأثل وتحمله ثلاثة أعمدة طينية ومعلَّق عليه أربعة مصابيح تُضاء بالبترول[2]، والأرض مغطَّاة بحصائر من سعف النخيل وعلى طول الحيطان مدت سجاجيد فارسية كدِّست عليها وسائد لاستعمالها كمساند للذراع. أمام مكان الأمير توجد حفرة طولها متران تشتعل فيها نار متقدة طيلة الوقت. وهناك أمام النار طاولة صغيرة منخفضة عليها ثلاثة مصابيح بترولية وفانوس زجاجي. وهناك مصباح آخر معلَّق في الزاوية المظلمة على اليمين حيث تحضر القهوة. خلال

---

(1) (انظر ص140 أعلاه).

(2) يجلب البترول الأمريكي إلى البلد من البصرة أو بغداد. وبعد تفريغ العبوات (الصفائح المعدنية وصناديق الخشب) تجد لها استعمالات كثيرة ولذلك هي من السلع المطلوبة. فالصندوق الخشبي يُباع بمجيدي (3,5 مارك).

النهار لا يدخل إلى الغرفة بكاملها إلَّا قليل من الضوء لأنَّه فيما عدا الباب لا يوجد سوى عدَّة فتحات جدارية ضيِّقة في الحائط الطويل المقابل.



الأمير محمَّد بن عبد الله الرشيد رجل عمره حوالي 48 سنة، ولون بشرته، مثل جميع الأمراء الآخرين من عائلته، فاتح إلى حدٍّ ما وله لحية سوداء اللون (أو، على أيِّ حال، مصبوغة باللون الأسود بشكل جيد)، تعابير وجهه توحي بالقوَّة والتصميم، وله عينان حيويتان ومتحركتان على الدوام[1]. لا يلبس، في العادة، فوق القميص القطني الأبيض الخالي تقريباً من الزينة إلَّا عباءة صوفية سوداء مطرزة عند الرقبة، ويضع على رأسه كوفية قطنية حمراء مع عقال مذهَّب، وتظهر من تحت الكوفية جديلتان، أو بالأحرى، أربع جدائل مضفرات بشكل حلزوني جميل، يمشي بدون جوارب بحذاء جلدي عادي (صندل). أما ترفه الوحيد فهو الأسلحة الجميلة: السيف المسنود إلى جانبه على الحائط يحتوي على غمده وعلى مقبضه ذهباً بقيمة 2000 ـ 3000 مارك. وهو من الناحية الفكرية والأدبية يشمخ عالياً كالبرج ليس فقط فوق رعاياه وإنَّما أيضاً فوق أقربائه. وعلى الرغم من أنَّه متدين فهو يتعامل دون أحكام مسبقة مع أصحاب المعتقدات

---

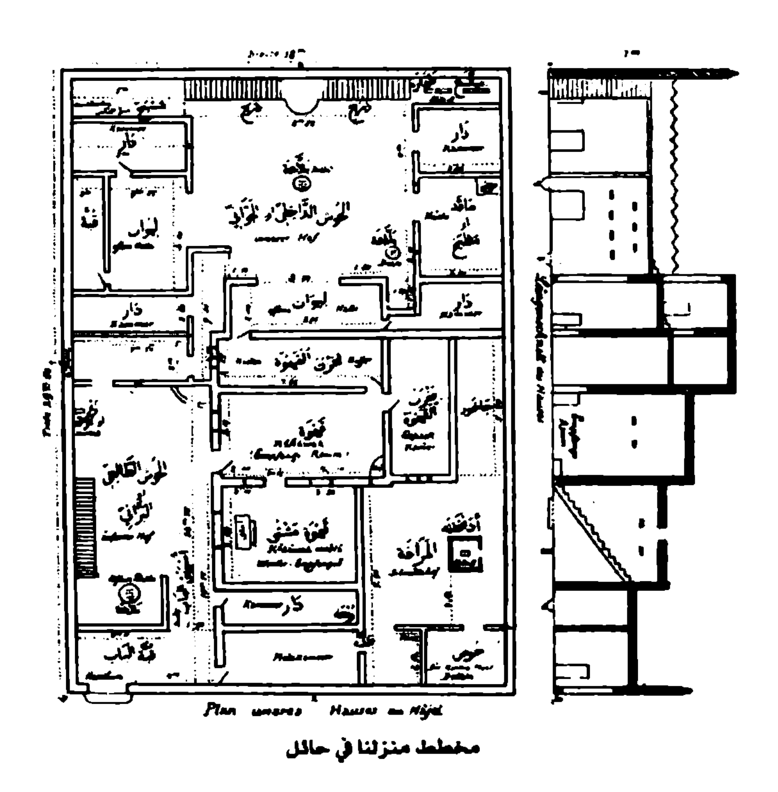
(1) هل هو عادة أم ارتياب أنَّه عند أقل حركة أو تغيير لوضعية جلوس أي شخص من الحاضرين يلتفت فوراً نحو الرجل ثم يثبت نظره عليه؟.

الأخرى الذين سنحت له الفرصة مراراً وتكراراً لمشاهدتهم ومراقبتهم في بغداد. وهو يتكلّم بطلاقة العربية والفارسية والتركية؛ ويعرف عن ظهر قلب معظم الشعراء العرب القدامى وجميع القصائد الهزلية القديمة والحديثة والأغاني البدوية الماجنة. حادثنا بطريقة ممتعة مدة نصف ساعة قُدِّمت خلالها مراراً القهوة الحلوة والقهوة المرة. من هنا اقتادنا مفرج إلى قسم آخر من القصر إلى مضافة عبد العزيز بن متعب. وهذا هو أمير شاب يشبه البنت تقريباً لا يزيد عمره على 16 سنة له حاشيته الخاصة واقتصاده الخاص. وهنا قُدِّمت لنا مرة أخرى القهوة الحلوة والقهوة المرة. عليَّ أن أعترف بأنَّني تناولت الآن أكثر من كفايتي من هذا المشروب الشهي وكنت تواقاً إلى شيء آخر أسند به معدتي. في تلك اللحظة خطرت على بالي عفوياً قصة «ماير في القسطنطينية» التي وصف لي أحد أصدقائي زيارته للسلطان بشكل جميل جداً. وأخيراً جاء الخلاص من مفرج الذي أعلن النبأ بأنَّ الطعام صار جاهزاً. على الجانب الآخر من الباحة حيث كانت مجموعة من البدو تتناول الطعام صعدنا على الدرج إلى صالة مخصصة للضيوف المتميزين. جميع الناس الذين جاؤوا معنا في الرحلة من الجوف إلى هنا منحوا شرف تناول الطعام مثلنا في الصالة الخاصة. وما أن أخذنا مكاننا في الممر الضيق حول المائدة حتى أحضر الطعام على الفور: كل أربعة عبيد كانوا يحملون صينية نحاسية مطلية بالقصدير قطرها أكثر من متر مملوءة بالأرز ولحم الإبل. كانت الصينية نفسها موضوعة على حصيرة دائرية مصنوعة من خوص النخل ولها أربع مسكات لحملها. ولما أردنا البدء بالطعام اضطررنا إلى فسح المجال مرة أخرى حتى نقلت الصينيات الأخرى إلى الجانب الآخر لأنَّ الصالة كانت ضيِّقة جداً إلى درجة أنَّ العبيد كانوا يلامسون كومة الأرز في صينيتنا بحواشي قمصانهم وبنهايات أكمامهم عند المرور. لا شكَّ في أنَّ شهيتي كانت كبيرة، ولكن ما التهمه مرافقونا [. . . .] من الصينية المجاورة لنا يفوق كل وصف. مع التفكير المؤلم في أنَّهم لن يحظوا عمَّا قريب بوجبة مشابهة مرَّة أخرى، التهموا كل ما في استطاعتهم وبالفعل أفرغ كل عشرة منهم صينية كاملة تحسب عادة

لإشباع خمسة عشر رجلاً مهما كانوا جائعين. قبل وبعد الطعام قُدِّم للضيوف ماء لغسل أيديهم ثم قدّمت لهم مناشف للتجفيف، الأمر الذي يُعدُّ نوعاً من الترف. لكن المناشف كانت قذرة جداً إلى درجة أنَّ هوبر لم يستطع السكوت بل سأل قائد الرحلة عمَّا إذا كانوا ما عادوا يستطيعون في القصر تقديم مناشف نظيفة؛ وكان لهذا السؤال مفعوله؛ إذ على الفور جلبوا مناشف نظيفة. بعد الطعام طلب منَّا أن نبدي إعجابنا بستة مدافع موجودة تحت في الساحة، وهي بواري حديدية قديمة كتبت عليها الأعداد الأوروبية 1793، 1794م، كان إبراهيم باشا قد تركها آنذاك في القصيم. كانت عربات هذه المدافع في حالة مزرية بحيث إنَّه لم يعد من الممكن إطلاق طلقة واحدة منها دون خطر على السدنة. علاوة على ذلك لم يعد هناك ذخيرة لمثل هذه المدافع في أيِّ مكان في شبه الجزيرة العربية.



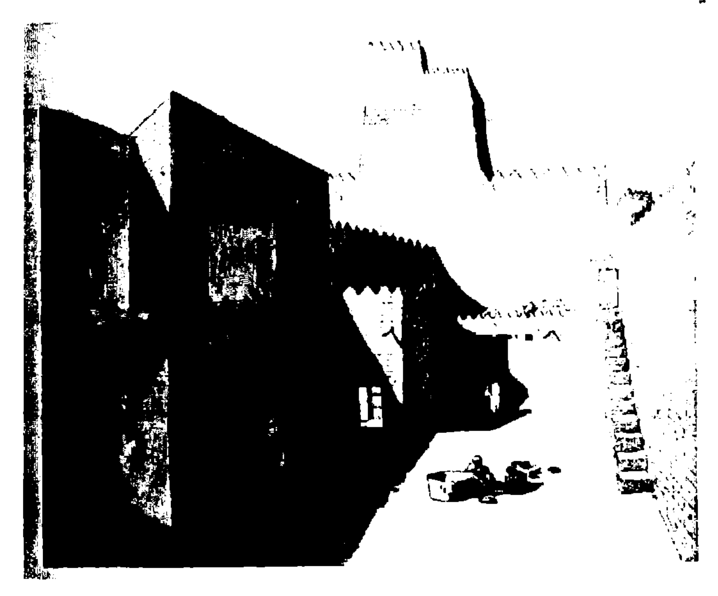
الآن سمح لنا بالذهاب إلى البيت الذي وضعه الأمير تحت تصرفنا. وكان حمود المجراد قد قال لنا عند لقائنا الأوَّل في إثرة إنَّ الأمير ترك لنا الخيار للسكن في القصر أم في بيت خاص بنا. فضلنا، طبعاً، الخيار الثاني لأنَّنا اعتقدنا أنَّنا سنعيش فيه بلا كلفة أو رسميات. كان هذا البيت الواقع في الحي المشهدي ملكاً لرجل من مشهد عاد إلى مدينته الأصلية. فقام وكيله بتأجيره للأمير بستة مجيديات (20 ماركاً) سنوياً ويأمل في أنَّه سيشتريه منه فيما بعد. من أجل إعطاء فكرة عن التصميم المعماري لبيت عربي أريد هنا رسم مخطط ومقطع للبيت ومحاولة ترك القارىء يلقي نظرة على الحوش الداخلي.



مخطط منزلنا في حائل

عبر ممر منحن بزاوية يمينية يصل المرء في بادىء الأمر إلى الحوش الأمامي أو الخارجي («الحوش الطالعي أو البراني») الذي في وسطه على اليمين باب الدخول إلى «القهوة»، أي غرفة الاستقبال، التي هي في الوقت نفسه غرفة سكننا ونومنا. الجدران والأرض تتألف من الطين المدكوك. وكان الخادم محمود قد أزال بالمكنسة جميع الأوساخ والنفايات ورتَّب الحصر التي حصل عليها من القصر وكذلك السجاجيد وأرحال الإبل (الأشدَّة). ووضع جميع الأمتعة في مخزن القهوة المجاور والقابل للإغلاق لكي يبعدها عن فضول الزوَّار وشهوتهم. إلى جانب القهوة العادية كانت هناك قهوة شتوية («قهوة مشتى») خاصة أعطيت لمحمود كي يستعملها كغرفة نوم. من الحوش الأوَّل المفصول بجدار عرضاني بارز إلى الأمام يصل المرء إلى الحوش الثاني الداخلي والأكبر («الحوش الداخلي أو الجواني») الذي وضعت بجواره جميع الحجرات المخصصة لأغراض الطبخ. هنا كان عادة مكان إقامة العبيد الذين وضعهم الأمير تحت تصرفنا، وهم مطر البالغ من العمر 16 عاماً وأخته

فريحة، وفي وقت لاحق جاءت عبدة أخرى. وكانت مهمة هؤلاء مساعدة الخادم محمود في المطبخ وجلب الماء من بئر «سماح» وجلب الحطب والأرز واللحم والتمر وأي شيء نحتاجه من القصر. لم يكن هؤلاء العبيد يسكنون في بيتنا بل كانوا يعودون كل مساء بعد طعام العشاء إلى أهلهم، الذين كانوا يسكنون في سوق العبيد.



كنَّا بطبيعة الحال نريد قبل كل شيء أخذ راحتنا في المسكن وإخراج ما نحتاجه بصورة ملحة من الحقائب. إلَّا أنَّ الفرصة لم تتح لنا للقيام بذلك. فقد كان الزوَّار، اليوم وفي الأيَّام اللاحقة، يدخلون ويخرجون بلا انقطاع كما في عش الحمام. كانت الغاية الحقيقية من كل هذه الزيارات، تسوّل حقيقي بكل معنى الكلمة، الحصول منَّا على هدايا كثيرة قدر الإمكان وتحريرنا بطريقة سلمية ممَّا في أمتعتنا من أشياء وأشياء. تعيَّن عليهم في بادىء الأمر أن يقتنعوا محزونين بأنَّهم قد جاؤوا مبكرين جداً وأنَّ كلاً منهم يقف عائقاً في طريق الآخر. فلم يحصل أي منهم على هدايا لا في اليد ولا في النظر. أي إنَّهم كانوا جميعاً، دون أدنى شك، خائبي الأمل جداً، وبينما كان كل منهم يتمنى في نفسه أن يذهب الآخرون إلى الشيطان وينتظر عبثاً انسحابهم، بقوا جميعاً

جالسين بلا كلل أو ملل وهم يشربون فنجان قهوة بعد الآخر. كانوا في الأساس نفس المتسابقين، إذ كانوا كل صباح يتنافسون على الترتيب ويحرص كل منهم على المجيء قبل الآخر أي قبل ساعة من طلوع الشمس. وهذا توقيت مناسب جداً للزيارات هنا. هذا اليوم تخلصنا من إزعاجات عصابة المتسولين لأنَّ الأمير دعانا مع غروب الشمس لتناول طعام العشاء عنده في القصر.

استقبلنا الأمير بمنتهى اللطف في إطار عائلي ضيِّق بحيث كان مجموعنا ثمانية أشخاص. بعد غسل الأيدي دعانا بكلمة «سمّوا»[1] إلى الجلوس على الأرض والبدء في تناول الطعام. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت أنَّ الأمير الحاكم وبقية الأمراء لا يختلفون عن رعاياهم في بساطة أكلهم: جاءت صينية واحدة كبيرة، وضعت على قاعدتها أرغفة من الخبز، مملوءة بالأرز المطبوخ الغارق في السمن وفوقه كومة من لحم الضأن. ومن يعطش كان يستطيع طلب الماء[2] الذي يُقدّمه له أحد العبيد في طاسات من النحاس. حثَّنا الأمير مراراً وتكراراً على الأكل دون خجل مؤكداً كل مرة أنَّنا يجب أن نكون جائعين وما شابه، وكان في أثناء ذلك ينتقي قطع اللحم المدهنة ويضعها بيده أمام كل واحد منَّا في الحلقة الدائرية حول المائدة. في ختام وجبة الطعام أحضر، كما هو شائع في الشرق الممتد طشت لغسل الأيدي: يصبّ الماء على الأيدي من إبريق نحاسي له عنق نحيل، أمَّا الطشت فله أرضيتان، الأرضية العليا مثقبة تسمح بتسرب الماء المتسخ إلى بطن الوعاء. وكان هناك صابون، وهذه المرة، مناشف نظيفة. استغرق تناول الطعام ربع ساعة وبما أنَّه ليس مستلطفاً البقاء بعد الأكل دون مطالبة خاصة بذلك، عدنا مع الغسق إلى بيتنا. وبينما كنَّا نتهيأ للاستراحة ونناقش مسألة الهدايا التي سنقدمها غداً للأمير

(1) «سمّوا بالله» عبارة يبدأون بها كل طعام وبصورة عامة كل تصرف وهذا يعمّ جميع المسلمين.

(2) يصرخ المرء ببساطة بصوت عال، ودون أن يقصد شخصاً معيناً، «هات ماء»! يجيب الخادم لكي يثبت أنَّه سمع الطلب «سمْ» ثم يجلب ما طلب منه. بعد الشرب يعيد الشارب الطاسة قائلاً: «الحمد لله» فينظر إليه جميع الحاضرين ويقولون له واحداً بعد الآخر: «هنيّاً» فيجب في كل مرة «هنَّاك الله». بالإيمان.

سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب، وإذا به حمود المجراد يطلب منّا الذهاب مرة أخرى إلى القصر. من البنادق[1] الأربع والعشرين ذات القدح الحجري، التي كان صاحب الجلالة الملك كارل فون فورتمبرغ قد كرَّمني بها، أخذنا معنا 12 قطعة بالإضافة إلى مسدس ماوزر ذاتي التلقيم وشفرة سيف من سولينجن. حملها محمود والعبد مطر وساروا خلفنا. في قهوة الأمير كان هناك جمع غفير من الناس وكان البيت مضاءً بصورة احتفالية. وبينما كنّا نأخذ مكاننا أوعز الأمير بأن توضع البنادق أمامه، وبإعجاب ظاهر تناول قطعة منها في يده لكي يجرب المغلاق. وعند ذلك وقعت عينه على الخادم محمود، الذي كان في تلك اللحظة يريد الانسحاب إلى الوراء: «قف إنت قف! آ ـ ها! والله، إنَّني أعرفك من الجوف! همّ؟ أليس صحيحاً؟». اصفرَّ وجه محمود، فهو يعرف جيداً أنَّه كان آنذاك يشارك في الحملة المشؤومة للأتراك على الجوف بصفة مترجم، أي إنَّه لم يكن في وسعه إنكار ذلك. ولذلك تلعثم ببعض الكلمات. تمتع الأمير لحظة من الزمن بمراقبة حالة الخوف التي حلَّت به ثم ناداه: «إيه، لا تخف، لا تخف!»، وأعطى إشارة إلى أحد الجالسين حوله تمَّ على أثرها تحرير الرجل المذعور، في جو ملؤه المرح، لقاء دفع 15 مجيدياً (52 ماركاً). تفحص الأمير مسدس الماوزر بإعجاب وكان مسروراً جداً ببساطته وطريقة تأمينه. أمَّا شفرة السيف السولنجي فقد أعطاها لحدَّاد الأسلحة غانم، الذي استدعي على عجل، وأعطاه أمراً بأن يجعلها جاهزة فوراً وبينما سمح لبقية الحاضرين بأن يشاهدوا أيضاً، واحدٌ بعد الآخر، الأسلحة ويتفحصوها، التفت الأمير إلينا، نحن الاثنين، وسأل: «ما رأيكما؟ قبل وقت قصير كان عندي طبيب فارسي ووصف لي علاجاً لحالتي. فهل هذا مفيد لي؟». وبينما كان يتكلَّم كشف عن ذراعيه الاثنين اللذين كانا ملفوفين بمشبكين فضيين ضيقين. جاء عبدان وفتحا الغطاء البسيط. تحت الرباط ظهرت أوراق نباتية خضراء كانت تغطي يافوخاً مملوءاً بحبات البازلاء. فقال له هوبر: إنَّ العلاج غير ضار ولكنَّه إرهاق لا فائدة منه ويمكنه التخلي عنه؛ مع ذلك أراد الأمير

---

(1) اشتراها لي صاحب الجلالة من بلدية شتوتغارت.

متابعة تجريب العلاج، وأوعز بوضع حبات بازلاء جديدة في الجروح الاصطناعية ثم غطاها بأوراق طرية وأعاد ربطها بشرائط فضية. في الساعة العاشرة ليلاً كان في وسعنا أن نعود أخيراً إلى مكان إقامتنا.

الاثنين 22 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. بعد استراحة ليلية طويلة ومنعشة جاء حمود المجراد قائد رحلتنا سابقاً ومرافقنا الدائم الآن خلال إقامتنا هنا. وبما أنَّه قد ترعرع منذ طفولته مع الأمير وأنَّه وفيّ له فهو منذ طفولته يدخل إلى القصر ويخرج منه متى شاء. وعلى الرغم من أنَّه لا يشغل أي منصب رسمي فإنَّه يستخدم، بسبب ذكائه الفطري وما لديه من حدس، لبعض المهام الاستثنائية. لكنَّه مع ذلك لا يستطيع أن يتحاشى غضب الأمير عليه بين حين وآخر بحيث إنَّه في هذه الحالة لا يسلّم عليه حتى ولا العبيد. إلَّا أنَّه يعود مرة بعد أخرى إلى الأعلى، وخاصة الآن حيث أعطي لنا كمرافق وكمعاون شخصي فهو يتمتع بمكانة مرموقة. أمَّا خادمنا محمود، عدوّه اللدود، فكان يزعم أن نصيبه من الوجاهة ضئيل جداً؛ وهو يُعدُّ طفيلياً («محروم») لا يأكل في بيته من شدَّة البخل ويبحث في كل مكان في الخارج عن وجبة طعام. وعلينا أن نحذر منه لأنَّ تودّده زائف وهو يحاول بمنتهى الوقاحة وقلَّة الحياء استغلالنا لصالحه ولصالح «القصر» (العائلة الحاكمة). إلَّا أنَّ استغلاله لمركزه عندنا لم يكن بلا جدوى. فقد شكا وبكى اليوم فور دخوله ودون أي مقدمات من أنَّه يخجل من الناس الذين يسألونه عن الهدايا التي حصل عليها. إذ إنَّه يقول لهم دوماً: إنَّه لم يحصل حتى الآن على أي هدية، ولا شك في أنَّنا لسنا غير مبالين بما يقوله الناس عنا. استجابة لشكواه وولولته أعطيناه في بادىء الأمر البندقية ذات القدح الحجري التي كان قد حملها أثناء الرحلة برسم الإعارة فأصبحت الآن ملكاً له. ولكن، وبما أنَّه كان يحتفظ بهذه البندقية في بيته، فلم يشعر بأنَّها هدية جديدة. وكما تبيَّن من تصعيده للشكوى فقد بدا أنَّه غير راض عن النتيجة. فالجشع يأتي في المقدمة لدى البدو مهما كانوا طيبين ولا يحاولون إخفاءه أو تمويهه. ولكن إذا ما كان المرء يستطيع الحصول على شيء ما فلماذا لا يأخذه؟ بعضهم يأخذه بالقوَّة، وبعضهم بالحيلة، والبعض الآخر بالتسول. ومن الصفات المميزة للبدوي أنَّ حمود

المجراد بعدما حصل خلال النهار، وكعلامة على رضانا، على مسدس ماوْزر سأل على الفور عمَّا إذا كان لم يزل لدينا أيضاً بندقية مزدوجة له.

كان اليوم الحالي مخصصاً للقيام بالزيارات الأكثر ضرورية. قبل كل شيء أخذنا حمود المجراد إلى الأمير. وما لبثت أن عرفت بعد وقت قصير سبب إلحاح حمود على هذه الزيارة. إذ إنَّه قد أبلغنا ونحن في الطريق أنَّ الأمير قد استفسر منه باهتمام شديد عن بندقياتنا المتعدِّدة الطلقات. وأنَّه لن يبقى أمامنا أي خيار آخر إلّا أن نكرمه بواحدة منها. وعندما استقبلنا الأمير فاتحنا بقوله: إنَّه متشوق جداً لرؤية بنادقنا لأنَّه قد سمع عنها حكايات عجيبة. على الفور أرسلنا أحد العبيد لكي يجلب إحدى البندقيتين. وبعد أن نزعنا عنها الغلاف الجلدي تعيَّن عليَّ شرح آلية عملها. شرحت أوَّلاً طريقة عملها كسلاح ذي طلقة واحدة ثم كسلاح متعدِّد الطلقات، أو «أبو تسعة» كما عبَّر الأمير، لمعت عيناه من شدَّة الإعجاب، وكيف خرجت في الختام الطلقات التسع، بكبسة واحدة، واحدة بعد الأخرى. تعيَّن عليَّ إعادة العملية بكاملها مرة أخرى ثم وضعت البندقية أمام مكان جلوسي. ولكن المسألة لم تكن لتنتهي ببساطة بهذه الطريقة الأكاديمية البحتة. إذ إنَّ حمود المجراد الذي كان يجلس بجانبي همس في أذني: «عليك أن تقدمها له هدية!». فأجبته وأنا أغلي من شدَّة الغضب، ولكن مع السيطرة على نفسي: «هل أميركم شحَّاذ؟ ألم أهده مساء أمس اثنتي عشرة بندقية؟ وهل ينتظر من ضيوفه بندقية أو أكثر كل صباح؟» بحركة معبِّرة، واضعاً إصبعه على جبهته، قال لي: «عندك عقل؟». «نعم عندي عقل يكفي لأن أعرف أنَّني أنا نفسي في أمسّ الحاجة إلى بنادقي». «حسناً! ولكن أنت لديك بنادق أخرى وهي تكفيك انظر! أنا ولدت في الليلة نفسها التي ولد فيها وأنا أعرف تعابير وجهه منذ الطفولة. ألم تر عينه عندما كان يتفحص البندقية؟ فأنا أقول لك: إنَّه يريدها ويجب أن تعطيه إيَّاها». سكتُّ. لعلَّ حمود قد شعر أنَّ الأرض قد ارتخت بعض الشيء، ثم تابع الكلام بعد استراحة قصيرة: «عندك عقل؟ ماذا تريد في بلادنا؟ وما الذي تستطيع أن تفعله دون موافقة الشيوخ؟». «أنت تعلم أنَّني أريد مشاهدة آثار تيماء، والحجر، والعُلا، وفيما عدا ذلك لا أريد أي شيء!». «جميل! وهل

تعتقد أنَّك ستشاهد تلك المناطق في يوم من الأيَّام إن لم تلبِّ له طلبه؟ سيستقبلك كضيف قدر ما تشاء ولكنَّك لن تتوصل أبداً إلى الغرض الحقيقي من رحلتك ولذلك أعطه البندقية وخلصنا!». دار في داخلي صراع خطير؛ فبالنسبة للحالات التي يجب أن أكون مستعداً لها ليس سيَّاناً نوع السلاح الذي أحمله. ومع بندقية متعدِّدة الطلقات أو بدونها فإنَّ حياتي كانت مهدَّدة على الدوام. والسؤال المطروح هو فقط: هل أسهِّل على نفسي تحقيق الغاية من رحلتي، أم أصعبها، أو أجعلها غير ممكنة على الإطلاق؟ حمود، معك حق! وهكذا أخذت البندقية ـ وشعرت أنَّ قلبي يخرج من صدري ـ ووضعتها، قائلاً: «خذ»، أمام قدمي الأمير. فتناولها ووضعها، دون أن يبدي أي حركة ودون أن يقول أي كلمة شكر، إلى جانبه على الحائط. عندئذٍ قلت له: إنَّ الطلقات المعدنية التابعة للبندقية، وعددها 300 طلقة، ستصله خلال النهار. بعد ذلك سأل ابن عمه حمود العبيد عمَّا إذا كانت البندقية الثانية مماثلة تماماً لهذه التي هنا. تفاهمت مع هوبر بغمزة عين قصيرة وبعد عشر دقائق وضعت البندقية الثانية أيضاً، وهي البندقية الأخيرة التي لدينا من البنادق المتعدِّدة الطلقات، إلى جانب الأولى. وبذلك يكون حمود المجراد قد عمل جيداً لصالح سيِّده.

بعد استغنائي عن أهم سلاح لحماية حياتي أصبحت الآن مرتاح البال لأنَّ حقائبي لم يعد فيها، بصرف النظر عن تجهيزاتي العلمية، أي شيء يمكن أن يؤدِّي فقدانه إلى شعوري بالألم. وكم كنت صائباً لما تركت بعض الأشياء في البيت في ألمانيا التي كان فقدانها سيؤلمني جداً. فقد كنت على سبيل المثال، أنوي في الأصل أن آخذ معي السيف الشرقي الرائع الذي كان صاحب الجلالة الملك كارل فون فورتمبرغ قد أهداني إيَّاه كعلامة على أقصى درجات التكريم خصيصاً لهذه الرحلة. خوفاً من أن أفقد خلال الرحلة بطريقة أو أخرى هذه التحفة الرائعة، التي كان نائب الملك محمد علي قد أهداها للملك فيلهلم فون فورتمبرغ[1]، فقد تركتها في البيت. نعم، لو أنَّ الأمير رأى

(1) هذا السيف يحمله الملك فيلهلم في الصورة المنتشرة على نطاق واسع في فورتمبرغ، حيث صُوِّر واقفاً في السترة الروسية الطويلة، وفي الخلفية صيادو الحقول ـ وكذلك في التمثال البرونزي على ظهر الجواد في القصر في شتوتغارت.

هذا السيف لحصل معه كما حصل مع البندقيتين. لكان أراد حتماً الحصول عليه ولكان حصل عليه فعلاً بالغصب أو الرضا. ولكان قد قدم لي لقاءه سيفاً جميلاً آخر، بالإضافة إلى ثلاثين رأساً من الإبل، أو ربما أكثر إن شئت ـ ولكن ما الذي كنت سأفعله بالإبل في ستراسبورغ أو شتوتغارت؟ كنت سأضطر إمَّا إلى القبول بالصفقة وبالتالي الاستغناء عن السيف، أو أنَّني كنت سأكون أحمقَ إلى درجة أنَّني أرفض طلبه[1] بلطف، وعندئذٍ سأكون على الأرجح، كما أوضحت أعلاه، قد أضعت بالكامل الغرض من رحلتي؛ وإن لم يكن هذا على يد الأمير نفسه ـ فأنا أريد إعفاء الأمير من هذا الاشتباه ـ فسيكون على يد ابن عمه حمود العبيد الذي سأتحدث عنه لاحقاً. كان هذا الأخير لن ينام الليالي من شدة الجشع وكان سيجد الوسيلة المناسبة لقتلي خلال رحلتي وعندئذٍ سأكون قد فقدت حياتي، وبالتالي أيضاً السيف. وعلى هذا الأساس كنت سعيداً لأنَّني تركت السيف في ستراسبورغ بعيداً عن الخطر.

بعدما ودَّعنا الأمير وهو في مزاج طيب أخذنا إلى قسم آخر من القصر لزيارة ابن عمه حمود العبيد. إنَّه ابن عبيد الملقب «الذيب»[2] وقد ورث عنه بعض الصفات، لكنَّه قد يكون أقل من أبيه حباً للعنف والحرب. وكونه وهابياً متعصباً فهو يظهر للآخرين إيمانه بطيب خاطر ولديه خلال ذلك العادة الكريهة وهي أنَّه عند كل توقف في الحديث يتمتم ببعض العبارات الدِّينيَّة[3]: يقول على سبيل المثال بسهولة وسرعة 50 مرَّة «سبحان الله، سبحان الله، إلخ...» أو «أستغفر الله، أستغفر الله، إلخ...» يتضمن هذا التكرار للعبارات الدِّينيَّة، إلى جانب مجرَّد العادة، قدراً كبيراً من النفاق الذي يشكل المظهر المحترم المقابل لاحتياله وخبثه. يمدحه الفقراء لكرمه وقد رأى فيه دوتي حامياً طيباً. وهو اليد اليمنى للأمير ويبقى دوماً بالقرب منه. وكونه الرجل الثاني في المملكة لا يجرؤ أحد

(1) كلف هذا الرحَّالة إدوارد فوغل تسوفارا في وادي في أفريقيا حياته عندما رفض إعطاء الحاكم هناك حصانه الأسود.

(2) انظر ص80 و178 أعلاه.

(3) لقد تعرَّفت في وقت لاحق في قلعة الحجر على شخص من هذا الصنف أكثر إزعاجاً.

على مخالفة رأيه أو رفض أي طلب له. أمَّا جشعه فلا حدود له وهو صبياني إلى حدٍّ كبير؛ يُقال: إنَّ لديه في منزله 200 ساعة جيب قام بتخريبها جميعها بسبب اللعب الدائم بها. عليَّ أن أعطي الأمير شهادة على أنَّه، بعد حصوله على البندقية المتعدِّدة الطلقات، لم يطلب منَّا أبداً أي شيء، بينما ابن عمه الذي لا يشبع أبداً لا يستحي من أن يتسول عندنا يومياً شخصياً أو بواسطة أشخاص آخرين. لا يهتم الأمير، باستثناء السلاح، بأي شيء من السلع أو المنتجات الأوروبية ويعتبرها زخارف تافهة لا قيمة لها؛ أمَّا ابن عمه، وإن ملك جميع السلع الأوروبية المعروفة، فإنَّه سيفكر بوجود ما لم يخترع بعد ويشحده وإن كان لمجرَّد المحاولة على الأقل. ولذلك كان من الصعب عليَّ في كثير من الأحيان أن أخفي استيائي من هذا الإنسان الذي لا تخفف ابتسامته البشوشة من وطأة صفاته الكريهة. يُضاف إلى كل هذا أنَّه كان لي غالباً شرف ومتعة الجلوس إلى جانبه مباشرة. وعلى عكس الأمير لديه كثير من الأبناء وقد اختير أكبرهم سنّاً، ماجد، ليكون ولياً للعهد. وبما أنَّه يفترض أنَّ الأمير قد ترك لابن عمه بندقية ماوزر المتعدِّدة الطلقات فلم نقدم لهذا الأخير عند زيارته لنا اليوم سوى مسدس ماوزر وسيف سولنجي (من مدينة سولنجن الألمانية) وقارورة من تبغ النشوق[1] من معمل التبوغ الملكي في ستراسبورغ.

من هنا غادرنا الأمير عبد العزيز بن متعب[2] الذي لم تكن لدينا هدية له. كانت غرفة استقباله مضاءة ومريحة؛ وكان فيها ساعة قائمة مصنوعة بالأسلوب الفني الروكوكو وسماور (لتحضير الشاي) من البرونز ممَّا يشهد على شيء من التحضر. ضيفنا القهوة الحلوة والشاي.

لم أشعر بالراحة إلَّا بعدما خرجت من باب القصر وصار في وسعي تحديد حركتي حسبما أريد وأشتهي. كنت متشوقاً إلى زيارة حداد السلاح غانم بن باني، الرجل الذي كان اسمه لدى البدو في منطقة نجد بأسرها وفيما

---

(1) كان قد طلبها من هوبر عند وجوده الأوَّل في حائل (حايل) ليجلبها له معه في حال عودته.
(2) انظر: ص187.

ورائها، رمزاً للمهارة الفنية الفائقة. التقيت به مع ابنه محمد البالغ من العمر عشرين سنة أثناء عمله في ورشة الحدادة؛ هناك كان جالساً وعلى أنفه نظارتان مكبرتان وهو يعمل بعدَّة بائسة على تزيين غمد فضي لسيف. أراد بطبيعة الحال النهوض فوراً لاستقبالي في غرفة الضيوف ولم أستطع إلَّا بصعوبة إقناعه بأنَّني أفضل مراقبته أثناء العمل. لقد كان غباءً منِّي أنَّني أبديت تجاهه كل هذا الاهتمام وكل هذا الإعجاب لكن الأدهى من ذلك أنَّني قلت له: إنَّ لدي عدَّة من جميع الأنواع أفضل وأكمل عشر مرَّات من العدَّة التي يعمل بها وأنَّني مستعد لإهدائه بعض القطع. ومنذ ذلك الحين بقي الرجل متعلقاً بي كالقراد على الرغم من تقديمي له العديد من الهدايا مراراً وتكراراً، إلى أن قلت له بصريح العبارة إنَّني لا أريد أي زيارة منه بعد الآن وإنَّني لم يعد لدي أي شيء لأهديه له. أمَّا ابنه محمَّد فقد ورث عنه جميع المهارات ما عدا فن التسول، ففي هذا المجال لم يزل هناك الكثير ليتعلمه من أبيه. هذا الرجل الشاب ذهب معي إلى البيت، بتكليف من الأمير، لإحضار



غانم بن باني

الطلقات، 300 طلقة لكل بندقية من البندقيتين المتعدِّدة الطلقات. تعلّم على الفور تعبئة الطلقات المعدنية الفارغة وتزويدها بكبسولة جديدة بحيث إنَّ كل غلاف يمكن استعماله عشر مرات على الأقل. كما وفهم أيضاً بسرعة كبيرة، أسرع منِّي على أيِّ حال في حينه، آلية عمل البنادق. بعد شرح قصير فهم كيف يفك المغلاق وينظفه ويعيد تركيبه. وفي الوقت نفسه سلَّمته أدوات مختلفة تابعة للبنادق. فقط فرشاة التنظيف رفض استلامها بذلك الشعور المعنوي والقرف الذي يبديه جميع المسلمين تجاه أي فرشاة (بسبب شعر

الخنزير) ووعدني بأنَّه سيحافظ على البندقية، بدون فرشاة أيضاً، نظيفة وخالية من الغبار (؟). ولم أستطع إقناعه باستعمال دهن الخنزير الجيد لغرض التشحيم إلَّا بعد أن أكدت له أنَّه دهن ثمين من الغزال. وبعد أيَّام قليلة قام بصب قالب من النحاس لصب الطلقات المناسبة لعيار البنادق وكان تنفيذه جيداً بدرجة مدهشة.

بما أنَّ عدداً كبيرة من الزوَّار والمرضى من مختلف الأنواع توافدوا إلى البيت عند عودتنا إليه هربت إلى السطح، فور الانتهاء من محمد بن غانم، لكي أسجل هناك دون إزعاج بعض الملاحظات الضرورية جداً عن البارحة واليوم. في اليومين الأخيرين رأيت وعشت كثيراً من الأحداث الجديدة بحيث إنَّني خشيت أن أفقد التسلسل الصحيح أو أن أنسى بعض التفاصيل.

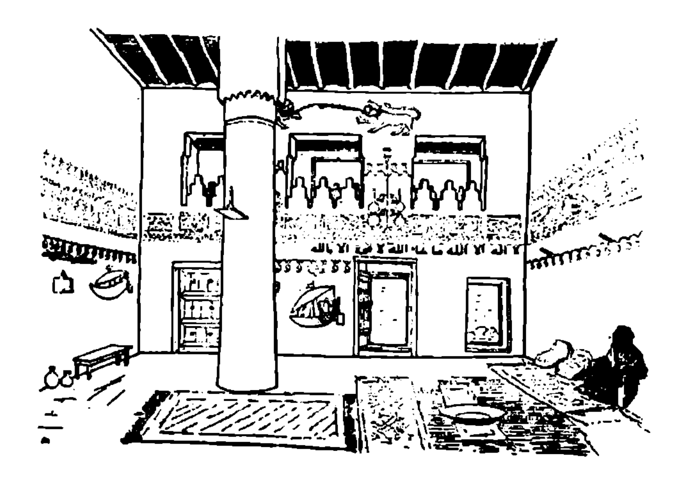


بعد الظهر خلا البيت من الزوار فاستغلينا هذه اللحظة لزيارة صديق لهوبر من رحلته السابقة وهو عبد الله المسلماني. كان عبد الله المسلماني(*) في الأصل يهودياً اسمه إليا بن رحمين وكان قد جاء من بغداد إلى حائل (حايل) قبل 15 عاماً حيث اعتنق الإسلام. وكان كتاجر كبير ذي خبرة واسعة في الشؤون التجارية يحظى بمكانة رفيعة عند العبيد الأب المحارب لحمود: كان يدير له أملاكه وضاعف له ثروته، وكان لديه جميع مفاتيح بيته ولم يكن يبتغي شيئاً لنفسه وكان يحظى بثقة غير محدودة عند «الذيب». وعندما

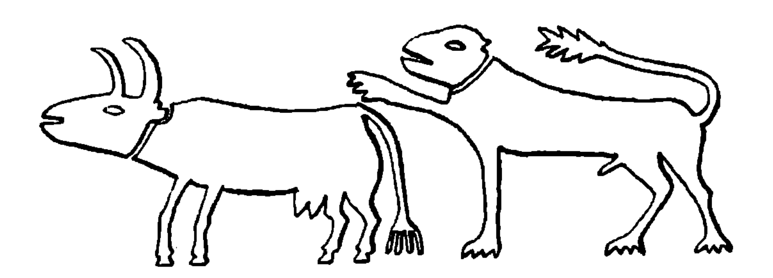
(*) هذا يتعارض مع ما ورد في كتاب **الخيل عند العرب عز وكبرياء** للمؤلف أحمد محارب الظفيري حيث ذكر أنه برطاني مسيحي. ينظر ص264 من الكتاب واسمه قبل إسلامه وليم ريتشارد ويليامسون وإن كان أوتنج معاصر للحدث وسجله قبل قيام دولة اليهود بفلسطين. (المراجع).

كان العُبيد يذهب إلى قفار كان عبد الله يرافقه على ظهر جواد له سرج أنيق مع غطاء مطرَّز. ولا عجب في أن كان له كثير من الحسَّاد. ولكن مع وفاة العُبيد انتهت أيضاً أمجاد عبد الله: ففي الدقيقة التي أغمض الأب فيها عينيه انتزع ابنه حمود المفاتيح من عبد الله وطرده من القصر. وبعد ذلك ما عاد يسلِّم عليه الكبار ولا الصغار ولم تعد له أي قيمة. وأصبح كما كان تاجراً صغيراً بسيطاً. لكنَّه كان خلال الـ13 عاماً قد عمل بكل هدوء وصمت لنفسه أيضاً: عن طريق اجتهاده في عمله ومنحه القروض النقدية والعينية للبدو المستقرين ضاعف ثروته عدَّة مرات إلى درجة أنَّه صار عنده في قفار وعقدة شيئاً فشيئاً بساتين كبيرة وبيوت يمكن أن يعتبرها ملكاً له. وللأسف لا يستطيع التمتع بثروته إلَّا بمقدار محدود. وهو يتحاشى إظهار ما لديه من أملاك ولا يستطيع بيعها، وإذا ما باعها فما الذي سيفعله بالنقود وماذا سيستفيد منها في حائل (حايل)؟ فلا الأمير ولا ابن عمه حمود سيسمحان له أبداً بإخراج الأموال من البلد. إذ إنَّ أموال البلد يجب أن تبقى في البلد. كان يستطيع أن يأمل في أنَّه سيسمح له بمغادرة منطقة شمّر إذا ما تخلَّى عن ملكياته الثابتة. كان ميَّالاً جداً إلى النساء كما يتبيَّن من الأحاديث التي رواها شخصياً عن مغامراته وهو من القليلين في حائل (حايل) الذين لديهم زوجتان. نظرته إلى العالم أوسع كثيراً من النظرة البدوية وعاداته أرقى وأرحب، وأفضل ما فيه أنَّه لا يشحذ. وكونه قد ولد وترعرع في مدينة كبيرة لا يقتصر سكَّانها على العرب وإنَّما فيها أيضاً فرس وأتراك وهنود، لا بل وحتى أوروبيون، فقد رأى وسمع الكثير الذي لم يزل يحتفظ به في ذاكرته ويجب التطرق إليه في الحديث. ولذلك كان هوبر خلال إقامته الأولى قد تعامل معه كصديق قدَّم له بعض الخدمات الصغيرة والمسرات ولذلك كنَّا نودّ ردّ الجميل له هذه المرة: جلبت له معي بناءً على طلب هوبر ساعة فضية وضعتها في جيبي لما ذهبنا اليوم لزيارته. وبعد انقطاع طويل استعاد هذا الرجل بواسطتنا مكانته واحترامه: جميع الناس الوجهاء، وعلى رأسهم عبد الله العبيد، الذين يتسولون عندنا ولم يصلوا إلى هدفهم يحاولون الآن التقرب من عبد الله فيدعونه لزيارتهم ويقدمون له الهدايا على أمل تحسن

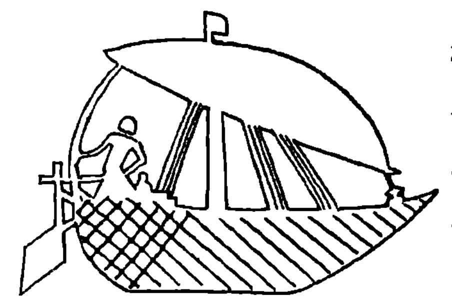
وضعهم عندنا. المعلومات التي يقدمها لنا أكثر موثوقية وأكثر حياداً من تلك التي يمكن أن نحصل عليها من أي مصدر آخر.



بيته غير بعيد عن بيتنا لا يتميَّز من الخارج بأيّ شيء عن البيوت العادية في المدينة ولكن في الداخل دُهشت من البذخ غير المعتاد في زخرفة غرفة الاستقبال. فوق الأرضية البنية للجدران الطينية وُضعت طبقة كلسية بسماكة الإصبع ثم حُفرت في هذه الطبقة التزيينات. وقد استعملت في هذه التزيينات

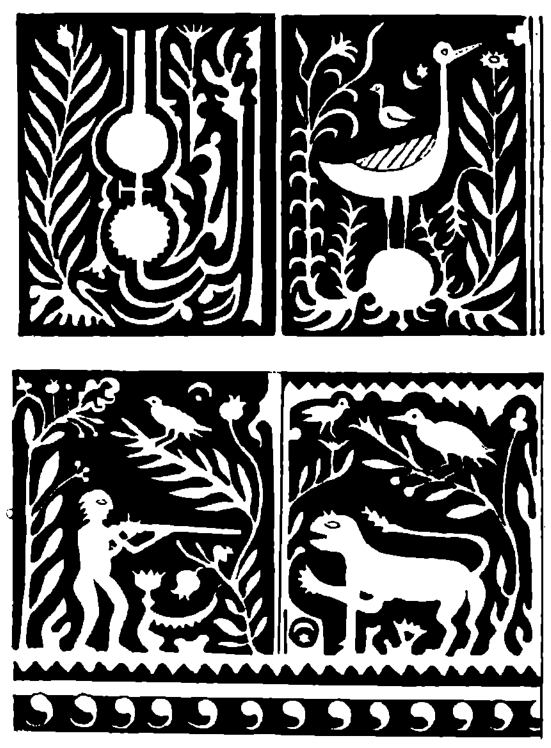


أقوال مأثورة وأشكال رياضية ومصابيح وطيور وحيوانات ذات أربع قوائم وأشخاص. وكانت الحيوانات الكبيرة جميعها مقطوعة الرأس لتفادي التصور بأنَّها حية وبالتالي لتفادي خطيئة التصوير. كان ربّ البيت مسروراً جداً بزيارتنا وبالساعة التي جلبتها له معي. لم نبق سوى فترة قصيرة هناك، شربنا فنجاناً من القهوة ودخَّنا النرجيلة.



عند غروب الشمس لبَّينا دعوة لتناول الطعام في بيت حمود المجراد وحضر المأدبة، بالإضافة لنا، لغرض الوداع، جميع الرجال الذين رافقونا في رحلتنا من الجوف إلى هنا.

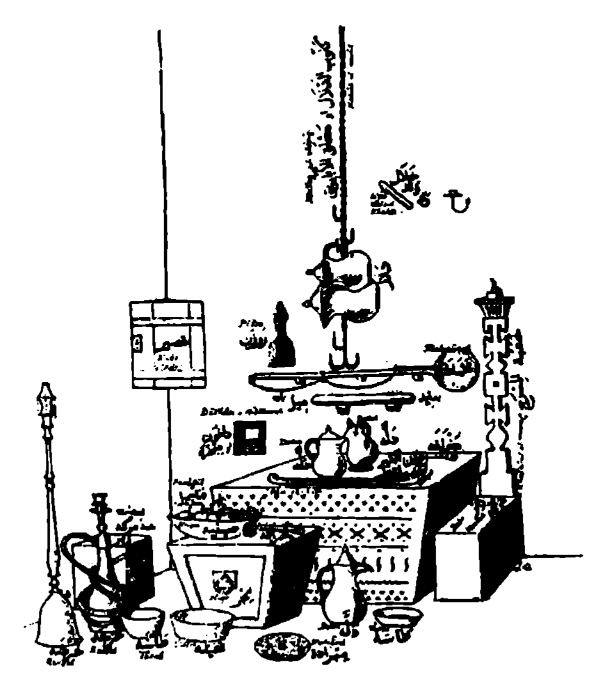
أهديت المضيف قالباً لصب الطلقات؛ وبدلاً من الشكر سألني عمَّا إذا كان من الممكن أن أعطيه البندقية المناسبة لذلك. قلت له: إنَّها موجودة لديه، إذ إنَّ الطلقات التي سيصبها تناسب سبطانة البندقية ذات القدح الحجري التي أهديته إيَّاها سابقاً.



سنة 1394

كنَّا نأمل في أن نقضي المساء بهدوء في البيت ولكن عبثاً: فما إن وصلنا إلى البيت حتى جاء حمود المجراد وأخذنا إلى القصر. سألنا الأمير

عمّا إذا كان لدينا أي رغبات أو حاجات. فطلبت منه واحدة من كشاشات(*) الذباب المعلقة على الحائط؛ فأهدانا، بالإضافة لها، أشياء أخرى كانت في تناول يده، ومنها، على سبيل المثال، ثمانية قضبان لسوق الإبل مصنوعة من خشب الأثل، ومسبحتان من الخشب، وثلاث سلاسل جميلة من الكهرمان، وصحفة من النحاس. وكاد أن يعطينا أيضاً سيفين مرصعين بالذهب والفضة لكنَّه لم يفعل ذلك لأنَّهما، حسب قوله، لم يكونا من قيمتنا، ولذلك وعدنا بأن يعطينا في وقت لاحق سيفين أجمل منهما، لكنَّه نسي وعده. لبيّت طلبه بمشاهدة صور بأن أريته عدداً من اللوحات المحفورة على الخشب التي كنت



قد جلبتها معي لاستعمالها كنماذج للرسم خلال الرحلة. إلّا أنَّ الرسومات كانت بالنسبة للعين التي لا ترى عن قرب صغيرة جداً وبالنسبة لما اعتاد عليه الأمير معقدة بعض الشيء.

أمَّا ابن عمه حمود العبيد فقد كان ضعيف الإدراك إلى درجة أنَّه كان،

(*) هذا الاسم لم يكن معروفاً في وقته وإنما هي مروحة يدوية لتحريك الهوى. (المراجع).

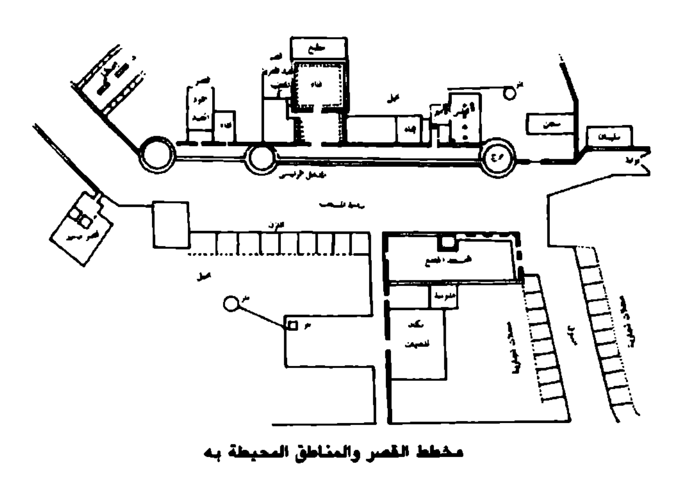
دون أن تكون لديه أي فكرة عن موضوع الصورة، يمسك معظم اللوحات بيده بالمقلوب ويعبر عن إعجابه بها.

كان الوقت قد تجاوز التاسعة مساءً عندما غادرنا القصر. وعند خروجي شاهدت في سماء اللَّيل احمراراً ملفتاً للانتباه بدا لي في بادىء الأمر كضوء الشمال (القطبي) وكان، كما تبيَّن لي في اليوم التالي، قادماً من جهة الغرب. ظلَّت هذه الظاهرة، التي لم أجد لها تفسيراً، 14 يوماً قوية بصورة منتظمة ثم صارت تضعف شيئاً فشيئاً فيما بعد. لم يكن لديَّ آنذاك أي علم بانفجار بركان كراكاتاو (في أندونيسيا) 27 أغسطس/آب 1883م) ولا بما تبعه من مظاهر الشفق الليلي.

عندما انعطفنا في شارعنا كان غانم يترصدنا على الزاوية لكي يقوم بزيارتنا. وظلَّ عبثاً يأمل في أنَّني قد وجدت خلال الفترة المنصرفة متسعاً من الوقت لفتح الصندوق الذي يحتوي على عدَّة العمل التي وعدته بها. بقي عندنا حتى الساعة الحادية عشرة.

الثلاثاء 23 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. قمت في الصباح الباكر، قبل ساعة من طلوع الشمس، بزيارة حمود العبيد ابن عم الأمير. وعند العودة إلى البيت التقينا في الطريق بالأميرين ماجد وعبد العزيز. ولما ابتعد الأميران ذهبنا إلى عبد الله المسلماني الذي قدَّم لنا خبزاً رقيقاً مخبوزاً على الطريقة البغدادية. وما أن وصلنا عائدين إلى البيت حتى تلقينا دعوة من حدَّاد السلاح غانم بن باني. اعتذرت عن الحضور بسبب الجروح في قدمي التي كنت قد عالجتها للتو بماء القاربول (حامض الفنيك) ولكنَّهم كرموني بأن أرسلوا لي الطعام. خلال النهار زيارات متواصلة لقتل الوقت من جميع الأنواع وأيضاً لمرضى كانوا قد طلبوا أدوية من هوبر. هربت كيوم أمس إلى السطح لكي أتمكن من تسجيل ملاحظاتي دون إزعاج ولو لبضع دقائق فقط ـ طلبنا من حمود العبيد أن يزودنا ببعض الأغطية والمساند. وبما أنَّني كنت أنوي تزيين حيطان غرفة استقبالنا (القهوة) ببعض الأقوال المأثورة والرسومات، طلبت طلاء جدران الطين البنيَّة بالكلس الأبيض من الأسفل وحتى ارتفاع مترين.

في المساء طلبنا الأمير لكي يرينا قصره وخيوله. أنا لا أعرف الكثير عن الخيول ولذلك لن أنسج الأساطير عن الخيول العربية الأصيلة التي كُتب عنها الكثير ممَّن هم أهل لذلك وممَّن هم ليسوا أهلاً. إلَّا أنَّني أريد فقط التصدي لبعض الأخطاء المختلفة والمنتشرة على نطاق واسع. قبل كل شيء أرجو أن تصدقوني: إنَّ عدد الخيول في شبه الجزيرة العربية قليل جداً لدرجة مفاجئة. إذ لا يزيد عددها في نجد بأسرها على 500 رأس جميعها، باستثناء 30 ـ 40 رأساً، موجودة في ملكية الأمير وعائلته. قبل 10 سنوات كان في نجد 100 رأس زيادة عن هذا العدد، لكن عبَّاس باشا المصري، وهو من عشَّاق الخيول



مخطط القصر والمناطق المحيطة به

الأصيلة، أرسل تجَّاره إلى هناك لكي يشتروا له كل ما يعثرون عليه من الجياد الجيدة ويدفعون أعلى الأسعار. إلَّا أنَّ الخيول الثمانين التي نقلت إلى مصر شذت، للأسف، كلياً عن نوعها وحصلت ـ نتيجة التغذي على الحشيش الأخضر المتوفر بكثرة في دلتا النيل ـ على عنق غليظ ثم فقدت في نهاية المطاف كثيراً من الشمائل والصفات التي تشتهر بها. لا يمكن الحديث عن تربية خيول حقيقية في نجد. بل إنَّ الخيول تترك على طبيعتها ويتم الحرص فقط على نقاء شجرة النسب. إنَّ شهرة الخيول العربية نشرها في الحقيقة الشعراء وهم المسؤولون عنها. فما يُتغنى به هو النادر، الثمين، المتميز. وهنا يجب التفكر في أنَّ ميزات الحصان العربي هي في المقام الأوَّل ميزات نسبية تجاه الإبل التي يصل عددها إلى عدَّة آلاف. في الحروب وعند الهجوم

والمطاردة، أو كمنقذ عند الهرب، فإنَّ الحصان يتفوق على أفضل أنواع الإبل ليس في الجلد والمثابرة وإنَّما في الأداء اللحظي والسرعة وقابلية التحكم. ولذلك تتناول مخيلة الشعراء إنجازاته بالثناء والإطراء وتبالغ في وصفها في أغلب الأحيان. تبقى خيول(*) الأمير، التي يصل عددها إلى عدَّة مئات، كامل السنة في أفضل المراعي وأغناها بالمياه الواقعة على بُعد 5 ـ 10 أيَّام إلى الشمال (أو الشمال الشرقي) من قصر حائل (حايل) وتتغذى هناك بالأعشاب الصحراوية العادية مثلها مثل الإبل والأغنام. ولكن ما أن يُبلّغ عن غزو ولو على أقصى حدود المملكة، أو يظن أنَّ غزواً وشيك الوقوع، حتى تُقرَّب الخيول على الفور عدَّة أيَّام من القصر. وإذا ما قرَّر الأمير نفسه القيام بغزو عندئذٍ تغذى الخيول يومياً، ولمدة عدَّة أسابيع قبل ذلك، بكميات كبيرة من الشعير؛ وعندما يبدأ الغزو ويشارك فيه نحو 3000 ـ 4000 رجل يكون الرجال راكبين على ظهور الإبل. أمَّا الخيول فتبقى خلال فترة الغزو الذي يستغرق 8 ـ 10 أيَّام، مع مسير 20 ـ 22 ساعة يومياً، طليقة تتحرك بحرية كاملة إلى جانب الإبل التي يتعيَّن عليها، فوق ذلك، أن تحمل لها المؤونة من الماء والشعير، ولا يمتطي الرجال الخيول إلَّا في لحظة الهجوم أو للمطاردة. إلَّا أنَّ الأمر مختلف تماماً عند البدو خارج منطقة نجد، على سبيل المثال، لدى عنزة، والرولة، وولد علي، الذين يعيشون في البادية السورية وعلى ضفاف الفرات ولديهم ظروف أفضل سواء من ناحية العلف أو من ناحية الماء. يوجد لدى هؤلاء ثروات كبيرة من الخيول ولكنَّها خيول أقل نقاء من ناحية النسب. غير أنَّني ليس لدي الكفاءة التي تؤهلني للحديث عن هذه النقطة الأخيرة.

والآن إلى الحديث عن خيول الأمير. في الحي الكبير بكامله مع مجموعة الأبنية من القصر ذات الأسوار المتصلة يوجد على الجهة الشمالية عدد من الفناءات مع الإصطبلات. إلى هناك توجَّهنا بقيادة الأمير الحاكم

(*) لعلَّ المقصود إبل الأمير لأنه في الصفحة السابقة قدّر عدد الخيول في الجزيرة كلها بعدد 500 من الخيل ومن 30 ـ 40 رأساً من الخيل هي ملكية الأمير نفسه وعائلته. (المراجع).

وبرفقة عدد كبير من الأمراء. فرأينا الخيول مفصولة عن بعضها حسب العمر والجنس ومربوطة في أقدامها ومغطَّاة بقطع ثقيلة من السجَّاد. بإشارة من الأمير رفعت السجاجيد وطلب منَّا الأمير إصدار حكمنا. كان الانطباع الأوَّل يوحي بأنَّ حالة الخيول غير جيدة؛ كانت نحيلة إلى درجة تثير الشفقة، منظرها قميء وغير معتنى بها. وبشيء من نفاد الصبر تجاه إحجامنا ألحَّ الأمير على إبداء الرأي. أوضحت له قبل كل شيء أنَّني لا أفهم كثيراً عن الموضوع ولكن تبدو لي الخيول أنَّها أصيلة نقية النسب. مؤكداً رأيي شرح لي بعض العلامات الرئيسة المميزة للخيول النجدية. ولما طالبني بإجراء مقارنة مع الخيول الأوروبية سمحت لنفسي بأن ألاحظ أنَّ الخيول في بلاد المسيحيين تتفوق على أيِّ حال من ناحية الحجم. «نعم إنَّ هذا ممكن، لكنَّها مقابل ذلك تحتاج إلى طعام أكثر ولا تستطيع تحمُّل العطش؛ فنحن لا نحتاج في بلادنا إلى الخيول الرخوة المكتنزة، ولقد كان مصيباً في ذلك. فالخيول في نجد، وكذلك أصحابها البدو، لا تجارى في الصلابة والقدرة على التحمُّل. وفي ساحة أخرى كانت تسرج الخيول وتمَّ اقتياد جواد كبير أسود إلى أمامنا فعبَرتُ عن إعجابي الشديد به. لكنَّهم قالوا لي: إنَّه «صقلاوي» ينحدر في الأصل من بلاد الرافدين. وفي مكان منفصل عن هنا كانت هناك صالة كبيرة فيها أكثر من اثني عشر مهراً. وحسب العادة المتبعة هنا كانت شعور أذنابها، مثلها مثل جميع الخيول التي لم تكمل الثالثة من العمر، مقصوصة بالكامل بحيث لم يبق سوى القرمة العارية. فما هو الغرض من ذلك، لا أعرف. على أيِّ حال فإنَّ منظرها بالنسبة لمن لم يعتد عليه مضحك. وفي النهاية أخذنا إلى فناء صغير فيه الذلول المحبَّبة لدى الأمير وفرسه الأصيل من السلالة العُمانية(*) لعلَّ الفرس التي كانت تحمل منذ اليوم حلية جديدة، ألا وهي خرزة فيروزية ملبَّسة بالفضة مثبَّتة في الجناح الأيمن لأنفها، قد توصلت شيئاً فشيئاً إلى القناعة بأنَّ هذه الحلية جميلة جداً، لكنَّها لم تكن قد تعوَّدت بعد على هذا الشيء الجديد، ولذلك

(*) الوصف بالعمانية للناقة الذلول ليس للفرس. (المراجع).

كانت تدير رأسها بين حين وآخر إلى الجانب لكي تتمكن من النظر بطرف عينها إلى الخرزة الفيروزية الضخمة.

من الخيول انتقلنا إلى حدائق القصر المهملة. بين أشجار النخيل كانت هناك، لمجرَّد الزينة، أشجار أخرى متفرقة من ضمنها أشجار التين والليمون والبرتقال والرمان والدراق. يستخرج الماء اللازم للسقاية من بئر عمقه 17 باعاً بواسطة ثلاثة جمال. في أوقات أخرى كان لدى الأمير في جزء مسوَّر من الحديقة بعض الحيوانات المختلفة كالغزلان وتيس الجبل (الوعل) وأيضاً بقر الوحش (نوع من الظباء البيضاء الكبيرة)، لكنَّه تخلَّى عنها لأسباب عديدة وعلى رأسها الإصابة بالعين.

بعد ذلك أرونا باعتزاز مطبخ القصر الذي كان فيه سبعة قدور نحاسية ضخمة يتسع كل منها لسلق لحم جمل كامل. يطعم عادة كل يوم نحو 150 ـ 200 شخص في القصر ويقدم لهم لحم الغنم والرز[1] المستورد من العراق. ولكن هناك أوقات، على سبيل المثال: قبيل الانطلاق إلى الغزو أو عند مرور قافلة الحجَّاج الفارسية، يطعم فيها عدَّة أيَّام متتالية 800 ـ 1000 شخص. مروراً من عند السجن[2]، وهو عبارة عن بناء عادي من الآجر الطيني، لا يحتوي خلف الباب المفتوح إلَّا على بعض الكتل الخشبية المحززة (لكي يتم ربط المجرمين بالكتلة)، غادرنا القصر من باب على الزاوية الجنوبية الغربية. في كامل الجولة إلى الخيول والآن عند صعودنا إلى قهوة الأمير كان الأمير الشاب عبد العزيز يمسكني في يدي يبدو أنَّه قد أصبح يودني جداً ودعاني بإلحاح لزيارته في أقرب وقت. هذا المساء بقينا، وبطريقة ملفتة للانتباه، دون مضايقة من الزوار.

الأربعاء 23 **أكتوبر/تشرين أوَّل** 1883م. صباح هذا اليوم أخذنا حمود المجراد إلى «المسحب»، أي إلى الساحة الكبيرة المكشوفة أمام القصر. هناك كان ينعقد «المجلس»، أي الاجتماع العام أمام الأمير. على طول جدار القصر

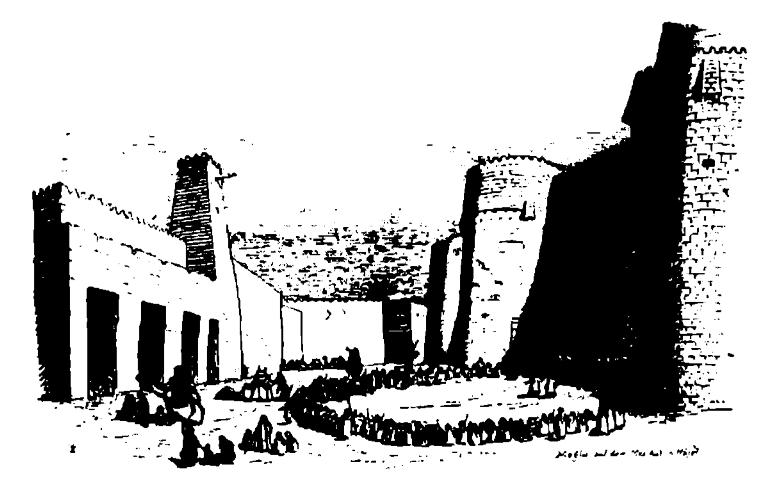
(1) «ضمن»، فقط الأرز المستورد من الهند يُسمَّى «رز».
(2) «الحبس».

وعلى مقاعد طينية مرتفعة كان يجلس الأمير وحاشيته، ثم جلسنا نحن، وفي مكان أخفض قليلاً في الساحة كان يجلس على شكل نصف دائرة المشاهدون والمستمعون، جميعهم مقرفصون على الأرض وكل منهم يضع أمامه سيفه أو، على الأقل، عصا سوق الإبل. يأتي إلى المجلس بانتظام وبلا دعوة جميع الناس الموجودون في المدينة الذين يعتبرون أنفسهم، حسب مفاهيمنا، من المجتمع المحترم، أو من لديه سبب خاص يستدعي حضوره، أو من يريد أن يعرض شخصياً قضية أو يقدم شكوى أو يطلب التماساً وما شابه. ينظر الأمير إلى الناس ويستقبل الرُّسل ويفتح الرسائل ثم يبلغ الحضور بصوت عال ما يستحسنه وما يرفضه، ويستلم الكثير من الهدايا ويلبي الكثير من طلبات التسول، ويتوسط لفض الخلافات ويصدر الأحكام القانونية دون أي ملفات أو مراسلات لأنَّ جميع الإدانات والعقوبات السابقة لأي شخص تكون معروفة لدى جميع أفراد الشعب. بين المخالفات القانونية تأتي السرقة على رأس القائمة: يتقدم أحدهم ويقول: إنَّ فلاناً وفلاناً سرقوا له بعض الأغنام أو الإبل. فيعده الأمير بأنَّه سيعمل على إعادتها أو تعويضها ثم يأمر بإبلاغ شيخ القبيلة التي ينتمي إليها السارق بأنَّ عليه تسوية القضية. هذه الشكوى البسيطة تحتوي ضمناً على التهديد بأنَّ الشيخ المقصود سيحرم، في حال التقاعس عن التنفيذ، مع قبيلته بكاملها، عند توزيع المراعي في العام القادم، من المراعي الخصبة ويعطى المنطقة الأسوأ.

في اجتماع اليوم تقدَّم رجل كان قد تلقَّى مساء أمس ضربة بالعصا فوق عينه اليسرى فأصيب بجرح وقدَّم قميصه الملوث بالدم كدليل على أنَّ الجرم يستدعي تشديد العقوبة. فعلَّق الأمير على ذلك بقوله: إنَّه على علم بذلك، وانتهى الأمر. وبعد ذلك جاء العديد من الشباب السوريين المنشقين عن الحامية التركية في صنعاء في اليمن. كانوا يلبسون بدلاً من جميع الثياب الأخرى فقط قمصاناً وأغطية للرأس مهترئة كلياً؛ فأعطوا ملابس جديدة وهدية نقدية ووعدوا بتقديم الطعام لهم هنا عدَّة أيَّام[1].

---

(1) انظر الصفحة 110 وما يليها.



مجلس المسحب في حائل

بعد نصف ساعة انتهى المجلس. فنهض الأمير ودعانا لأن نتبعه. ذهبنا إلى منزل وزير المالية سبهان المجاور للقصر مباشرة. هناك صعدنا إلى الطابق العلوي إلى قاعة («رُوشِن») لا توجد فيها إلَّا فتحات ضيِّقة بارتفاع الأرضية في الجهة المطلة على الشارع. وما أن سمع الأمير شيئاً خاصاً في الأسفل حتى استدار فجأة ونادى شيئاً ما عبر الفتحة في الشارع. وبعد فترة قصيرة اقتيد عبر السوق ذلك الرجل الذي كان مساء أمس قد ضرب رفيقه وجرحه. فأعطى الأمير أمراً بجلده. وهذا ما حصل فعلاً على الفور. لم أستطع من مكاني مشاهدة تنفيذ العقوبة ولكنَّني سمعت الجلد والصراخ. إلَّا أنَّ المذنب استطاع بعد عدد قليل من الجلدات الإفلات والهرب. بعد ذلك انتقل الأمير إلى الحديث عن كتاباتي الأثرية وكتب لي بخطّ يده في دفتر ملاحظاتي عدداً من أسماء الأماكن التي أجد فيها كتابات على الصخور؛ ووعدني بأنَّه سيوعز في وقت ما بإيصالي إلى هناك.

بناءً على دعوة ملحَّة ذهبنا من هناك إلى بيت حمود العبيد[1] لنجلس في محضر ممل. فهذا المنافق الدنيء أخذ مرة أخرى يمرر حبات المسبحة بين أصابعه ويتمتم ببعض العبارات الدِّينيَّة. ولقد أزعجني اليوم بطريقة شائنة بشكِّه في مصداقيتنا إلى درجة أنَّني قرَّرت عدم تلبية أي دعوة بعد الآن إلى هناك؛

(1) انظر: ص196 وما بعدها.

فهو لم يكتف بسؤالنا نحن، بل سأل أيضاً خادمنا محمود، الذي دخل بمحض الصدفة، عمَّا إذا كانت الطلقات التي أعطيناهم إيَّاها لبندقيتي ماوزر المتعدِّدة هي فعلاً جميع الطلقات الموجودة لدينا[1]. غمزت هوبر بطرف عيني لكي ننصرف ثم ودعناه وعدنا إلى البيت. عند وصولنا شكوت إلى مرافقنا حمود المجراد هذه الطريقة في الاستجواب وكأنَّنا كذابون. وتساءلت أمامه عمَّا إذا كنَّا سنحمل الطلقات الرصاصية في رحلتنا البعيدة ثم نعيدها معنا بسبب البخل أو التسلية؟ فشرح لنا حمود، والدموع في عينيه، صعوبة موقفه. فهو لا يتلقَّى من كلا الطرفين إلَّا الاتهامات. في القصر يرى من واجبه، كونه رفيقنا في الرحلة، الدفاع عنَّا بينما يهاجمه حمود العبيد دوماً ويتهمه بأنَّه لم يأخذ منَّا كفاية من المكاسب لصالح القصر (أي لصالحه هو)، والآن أنثال عليه أنا بمثل هذه الشكاوى. بدا لي حمود في هذا التناقض في الواجبات مثل الدوق روديغر فون بشلارن في ملحمة النيبلونغن[*]. وضعت نهاية لهذا الحديث غير السار بواسطة سلسلة من الزيارات المتواصلة. في أوَّل الأمر جاء وزير المالية سبهان مع ابنه ناصر، وبعد ذلك جاء الأمير الصاخب ماجد مع حاشيته. لم يكن لدي متسع من الوقت لأضع «مزودتي» جانباً بعيداً عن الأنظار وهكذا رمى جميع محتوياتها على السجادة وفتشها قطعة قطعة منتظراً أن أقدمها له هدية. إلَّا أنَّني بقيت جامداً كالتيس. عند الظهر حلَّ أخيراً الهدوء.

بعد الظهر رسمت على حيطان «القهوة» (غرفة الاستقبال)، على أرضية بيضاء أعددتها بنفسي، باللون الأحمر بحروف عربية كبيرة الآية القرآنية التالية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

حوالي المساء خرجت وحيداً إلى أمام المدينة لكي أرسم صورة لمدينة حائل (حايل).

---

(1) انظر صفحة 195 وما بعدها.

(*) قصائد ألمانية قديمة من العصر الوسيط كتبها شاعر غير معروف سنة 1198 ـ 1204م، المترجم).

(2) الآية 62 من سورة البقرة.

في الطريق التقيت ببعض أبناء حمود العبيد ومعهم صقران للصيد كلاهما مقيدان وعلى رأسيهما غطاء الرأس الجلدي («البرقع»). كان جميلاً منظر الجبال التي كانت تهبّ عليها في تلك اللحظة عاصفة قوية.

بعد العشاء جاء مرة أخرى غانم الذي لم يعد تفاديه ممكناً والذي صار يشكل شيئاً فشيئاً عبئاً علينا[1]. وبعد ذلك مباشرة جاء الحدَّاد حسين. تسليت معهما بطرح «السؤال الشرقي». حلقتان نحاسيتان نصف مفتوحتين مزوَّدتان بمقبض وإحداهما داخلة في الأخرى. حاولا حلّ اللغز، طبعاً، بالقوَّة ـ وهذا غير مسموح ـ ولم أستطع ثنيهما عن ذلك إلَّا بعد أن هدَّدتهما بأنَّني سأسحب منهما القطعة الفنية دون شرح. وأخيراً جاء مرافقنا في الرحلة عبر صحراء النفود الزنجي إبراهيم[2] الذي كان قد جنَّ في الأيَّام الأخيرة من الرحلة ولم يعتن بشكل صحيح بالإبل والأمتعة. وكان قبل سفره إلى دمشق مع حمود المجراد قد طرد زوجته وحصل على وعد من الأمير بأنَّه سيعطيه امرأة جديدة عند عودته من السفر. واليوم مساء سيكون العرس. وها هو الآن قد جاء ليأخذ منَّا هدية العرس التي وعدناه بها.

الخميس 25 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الصباح وقبل طلوع الشمس طرق زوارٌ باب بيتنا بعنف وإلحاح. وبالإصرار نفسه تركنا من جانبنا الباب مغلقاً. في حوالي الساعة التاسعة جاء فجأة، ودون إشعار مسبق، الأمير لكي يزورنا. فلاحظ على الفور الآية القرآنية المكتوبة على الجدران وهزَّ رأسه باستحسان ثم قرأ الآية بصوت عال. أهديته محفظة جلدية صغيرة للحاجيات الصغيرة أثناء السفر وطلب إضافة إلى ذلك علبة صغيرة تحتوي على حبر أسود للأختام. ثم طلب منّي هوبر أن أهدي الأمير مصحفي المغلف بغلاف جلدي أحمر والمحلّى بالذهب، بعد ذلك أعرب الأمير عن رغبته في أن يرى أيضاً ما جلبناه معنا من كتب أخرى. وإذا ما كنَّا قد تلقينا اليوم زيارة الأمير فهذا أمر يستحق منَّا تقديراً أكبر لأنَّه مشغول جداً بالتحضيرات اللازمة للغزو الذي

(1) انظر ص198، 205 وما بعدها.

(2) انظر الصفحة 141، 144.

سيحدث في الأيَّام القادمة. ولكن إلى أين ستتجه الغزوة هذه المرة فهذا لم يزل سرّاً حتى الآن، على الأرجح إلى منطقة ابن سعود في الرياض. دعانا الأمير بصورة غير متوقعة للمشاركة في الغزوة ممَّا جعلني أشعر بانفعال شديد: إذ على الرغم من جميع المشقات والحرمان فإنَّ هذه الغزوة البدوية التي لم يشارك في مثلها أي أوروبي من قبل ستطلعنا على الكثير من الأشياء الجديدة والهامة. تأرجحت كثيراً بين القبول والرفض لكنَّني اضطررت أخيراً إلى الامتناع عن المشاركة مراعاة للجروح الأليمة في قدمي. أمَّا هوبر فقد احتفظ لنفسه بحق المشاركة. خلال هذا الحديث تمَّ تقديم الشاي في فنجانين لهما أذن وفنجانين يابانيين صغيرين. بعد الظهر جاء الأمير ماجد لكي يطلب الفنجانين اليابانيين لأبيه (حمود العبيد). كما أنَّه أراد أيضاً الحصول على مسدسي الصغير. هؤلاء اللصوص اللطفاء! وما شاء الله، لم يمض زمن طويل حتى جاء بعد العشاء الشحاد المفوَّه حمود المجراد لكي يسأل (حسبما زعم بتكليف من الأمير) عمَّا إذا كنَّا ننوي إهداء الأمير الكتاب الجغرافي لياقوت الحموي معجم البلدان(*) المؤلف من ستة مجلدات وكتاب البكري معجم ما استعجم المؤلف من مجلدين. ولما أكَّدت له أنَّنا لم نكن أبداً ننوي ذلك قال لعلّني أستطيع إهداءه مجلداً ما من هذه المجلدات. وعندما أوضحت له بمنتهى الحزم أنَّني أحتاج إلى هذين الجغرافيين العربيين كحاجتي للخبز اليومي خطر على باله أنَّه قد رأى عندنا كتباً أخرى. نعم، لدينا كتاب ألف ليلة وليلة، وهو كتاب موجود لدى الأمير، وكتاب آخر عن حياة محمد للقسطلاني. اعطونا إذاً كتاب حياة محمد وأعيرونا، على الأقل، المجلدات الأخرى واحداً بعد الآخر لقراءتها. في المساء استرحنا في بادىء الأمر من الزيارات. ولكن بعد وقت قصير جاء حمود المجراد مرة أخرى لكنَّه تلقَّى هذه المرة موعظة

(*) تملك الأمير حمود العبيد الرشيد كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي وصار يقرأ عليه به جار الله الحماد ولما توفي جار الله عام 1320هـ قال الأمير حمود العبيد هذين البيتين:

يا معجم البلدان هبيت والويت — من بعد أبو حماد ما بك شفاتي
من بعد ما أنت عنبر صرت حلتيت — لو نجلبك بالسوف ما حللوك الشراتي

ينظر كتاب **زهر الخمائل في تراجم علماء حايل** لعلي الهندي ص11. (المراجع)

مدروسة جيداً عن جشع الشمّريين بحيث بقينا هذا اليوم سالمين من أي تطاولات أخرى. عليَّ أن أُعبِّر دوماً وأبداً عن مدى سروري من أنَّني لم أجلب معي السيف الذي حصلت عليه من صاحب الجلالة الملك كارل[1]. لا أظن أنَّني كنت سأستطيع إنقاذه من هذه المخالب.



حايل من جهة الجنوب

في وقت متأخر من اللَّيل جلبت لنا الصنادل التي كنَّا قد طلبناها من أحد الحذَّائين. كانت مصنوعة بشكل جيد وجميل وثمن الزوج منها ثلاثة أرباع مجيدي. في حذائي كنت قد أوصيت الإسكافي أن يخيط على الكعب قطعة نقود، كنت قد أخذتها معي، لكي أستطيع إيجاده عند المغادرة في حال القيام بزيارة، إلى القصر مثلاً، حيث يوضع هناك في الحجرة الأمامية 40 ـ 50 زوجاً من الأحذية المتشابهة. بعد أن هطلت خلال النهار زخَّات قصيرة مختلفة من المطر، حدث في اللَّيل برق عنيف مرافق برعد شديد وفي وقت لاحق هطل مطر غزير.

الجمعة 26 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. بسبب الاستعدادات الجارية للقيام بالغزو كان جميع الناس في المدينة مشغولين جداً بحيث إنَّ بيتنا ظلَّ اليوم نظيفاً إلى حدٍّ ما. استغليت هذه الفرصة لكي أرسم على أحد جدران غرفة استقبالنا منظراً طبيعياً بالألوان المخلوطة بالغراء: رسمت في المقدمة غابة عالية من أشجار النخيل، ورسمت حول النبع المتدفق بينها بدواً مخيّمين ومزينين بالسلاح، وفي الخلفية إبلاً ترعى في مرعى حافلٍ بالحشيش الأخضر.

---

(1) انظر: ص193، 196.

في الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبنا إلى «المسحب». وبسبب الانطلاق القريب إلى الغزو كانت الساحة، على الرغم من هطول مطر خفيف، تعج بحركة غير عادية. من مقعد جيد وجاف طردنا رجلين بدويين وأخذنا مكانهما لكي نتمكن من هناك من مراقبة ما يجري بارتياح. كان الناس ينقلون الأكياس، ويكدّسون المؤن الغذائية وينظفون الأسلحة، ويصلحون (الأشدة) الأرحال والملابس، ويمدون الحبال، ويطعمون ويسقون الحيوانات. وعلى الرغم من أنَّ «المسحب» كان مكتظّاً بالإبل فقد كان نظيفاً جداً لأنَّ روث الإبل الطري كانت تجمعه على الفور فتيات في زنابيل لكي لا يضيع شيء من هذه المادة الثمينة القابلة للاشتعال. فبما أنَّ المنطقة المحيطة بحائل (حايل) ولمسافة عدَّة ساعات قد أصبحت خالية تماماً من أيِّ نوع من النباتات فإنَّ الناس الفقراء في المدينة صاروا يلاقون صعوبة كبيرة في تأمين الحدّ الأدنى من حاجتهم إلى الوقود. صحيح أنَّ شحنات من الحطب تنقل على ظهور الإبل من الصحراء وتطرح للبيع في السوق، لكن حمل البعير الواحد تُباع بنصف ريال وحتى ريال كامل. إلّا أنَّ هذا المبلغ لا تستطيع دفعه سوى عائلات قليلة في حائل (حايل). ولذلك يُحثّ الأطفال في كل مناسبة على جمع البعر المتساقط من الإبل.

على أحد أبواب القصر كانت توزع النقود على المحتاجين من المشاركين في الغزو (1 ـ 20 ريالاً) لكي يشتروا بها ما يلزمهم من تجهيزات ضرورية أو دعماً لعائلاتهم التي ستبقى خلال فترة الغزو بلا معيل. وفي مكان غير بعيد عنّا كان يقرفص بدوي غريب يلفت الانتباه بلون بشرته الأسمر الغامق. فتوجَّه إلينا حمود المجراد، الذي كان منهمكاً في غمرة الناس بإعطاء الأوامر هنا وهناك، وأبلغنا بأنَّ الرجل الغريب بدوي قحطاني اسمه سالم بن فتنان من القصيم، الجزء الجنوبي من نجد، وأنَّه قد احتجز في المدينة عن قصد، لأنَّ أبناء القبائل الغريبة، وحتى لو كانت من القبائل الصديقة، لا يسمح لهم بالعودة إلى أوطانهم إلَّا بعد بضعة أيَّام من الانطلاق إلى الغزو. طلب هوبر منه معلومات عن القبائل وعن تفرع قبيلة قحطان. لكن الرجل لم يبد، طبعاً، أية رغبة في الاستجابة لهذا الطلب، ولم يعط في بادىء الأمر أي

جواب ثم أعطى بعد ذلك جواباً ملتوياً وغير مفهوم، إلى أن أفهمه حمود أنَّنا ضيوف الشيوخ وأنَّه يمكنه إعطاءنا أية معلومات نريدها. لكي لا يزعجنا أحد، ولكي نجعله يتكلَّم بحرية أكبر، دعوناه إلى الطعام وضيفناه بسخاء. وقد عبَّر عن امتنانه بالتجشؤات المعهودة وتهيأ للقيام في القهوة ذاتها بغسل كامل لجسمه. إلَّا أنَّنا عرضنا عليه، من أجل راحته، إجراء عملية الاستحمام المنعشة في الخارج في الفناء. وبعد فترة من الزمن عاد إلى البيت مقوَّى ومنظفاً وبدا مستعداً إلى حدٍّ ما للحديث عن جميع التفاصيل المتعلقة بقبيلته. فسجل خادمنا محمود، الذي يجيد القراءة والكتابة، أقوال الرجل القحطاني في دفتر مذكرات هوبر، كما جرت العادة حتى الآن. لكن الصفقة لم تكتمل بسهولة كما أملنا لأنَّ القحطاني ما أن ذكر بعض الأسماء حتى توقف وشكا من الماء الموجود في رأسه وطلب منَّا الدواء المناسب. تصورات الناس هنا عن الأمراض والأدوية الشافية منها بسيطة وساذجة في آن واحد. فهم يعتقدون أنَّ كل مرض يستقر في عضو محدَّد من الجسم، ولكل عضو من الجسم يوجد دواء خاص لا يحتاج الطبيب إلَّا لإخراجه من العلبة وإعطائه للمريض. وهم لا يرون أي ضرورة لوصف المرض أو لإحضار المريض شخصياً. فقلنا له: إنَّنا سنتحدث معه فيما بعد عن ماء الرأس، أمَّا الآن فعليه أن يتابع كلامه ويعدِّد لنا زعماء القبائل والعائلات. مضت أكثر من ساعة حتى انتهى من ذكر المعلومات المطلوبة توقف خلالها مرة تلو الأخرى ليشكو من معاناته من ماء الرأس. عند وداعنا أعطيناه كمية من أوراق الزانا (المسهِّلة). بعده جاء تاجر الإبل حسين[1] وعرض علينا نقل رسائل إلى دمشق بواسطة الحجَّاج عن طريق المدينة (المنوَّرة) وقال: إنَّه سيأتي في الأيَّام القادمة كي يأخذها.

السبت 27 **أكتوبر/تشرين أوَّل** 1883**م.** في وقت مبكر جداً جاء عبد الله المسلماني وقال لنا أمام باب بيتنا توجد بقعة كبيرة من الدم. وبعده مباشرة دخل تاجر الإبل حسين وأكَّد ذلك ثم أضاف أنَّ الدم موجود أيضاً على عتبة الباب كما أنَّ الباب نفسه ملوث بالدم. كان الرأي العام السائد في المدينة يتهم

---

(1) انظر: ص145، 146، 147 أعلاه.

المشهديين (التجار الفرس المهاجرين من مشهد الذين كان بيتنا واقعاً في حيّهم) بهذا الفعل بسبب انزعاجهم من أنَّنا لم نفتح لهم الباب رغم قرعه مراراً وتكراراً. وكان يحمل الرأي نفسه محمَّد ابن الحدَّاد غانم. وبعد وقت قصير من ذهاب الرجل الشاب محمد بعد إهدائه أربع علب من أفضل أنواع البارود، جاء أبوه غانم لكي يشحذ أيضاً باروداً. ولما قلنا له: إنَّنا قد أعطينا ابنه للتو أربع علب كاملة أجاب بغضب شديد: إنَّ ما نعطيه لابنه لا يهمه على الإطلاق. قدَّمنا لتاجر الإبل حسين عدداً من الهدايا الصغيرة لقاء استلام الرسائل ونقلها. من أجل طعام الفطور أرسل لنا عبد الله خبزاً بغدادياً ممتازاً أعدته زوجته وكمية من الفستق الحلبي ونوعاً من الملبَّس. كان العبد مطر، الذي كان يعمل في بيتنا حتى الآن، قد استبدل، بسبب ثرثرته، بعبد آخر اسمه خير الله. لكن هذا الأخير لا يمكن الاستفادة منه بأيِّ شيء بسبب غبائه: فهو لا يفهم هوبر ولا يفهمني ولا يفهم خادمنا محموداً، وهو لا يعرف أي كلمة على الإطلاق، ويفهم فقط عندما نطلب منه ناراً أو ماء؛ وكل ما يستطيع فعله هو إملاء الحفر الموجودة في الأرض بالطين والرمل ثم دقّها بيديه اللتين تشبهان يدي القرد. أمَّا العبدتان اللتان تساعدان في المطبخ فهما أكثر منه فطنة وذكاء.

حوالي المساء أبلغنا حمود المجراد أنَّ الأمير ينتظرنا مع غروب الشمس على طعام العشاء. وبينما كان حمود يصلِّي جاء الوكيل، الرجل المفوض من صاحب بيتنا، لكي يعتذر عن الشتيمة الموجهة ضد بيتنا وقال: إنَّه هو نفسه مشهدي ولكنَّه لا يستطيع معرفة الجهة التي قامت بهذا الفعل ولا سبب قيامها به. قطع حمود صلاته لعدَّة دقائق لكي يتفاوض مع الوكيل حول الحادث. وبعد أن غادر الوكيل البيت تابع صلاته. وبعد لحظات قليلة تمَّ تسليمنا غزالاً حياً جميلاً أرسله لنا الوكيل كهدية.

عندما ذهبنا إلى الأمير كان الشارع هادئاً تماماً؛ كانت الكتلة الرئيسة من الرجال القادرين على القتال قد توجَّهت عند الظهر إلى الغزو يتقدمها حامل الراية (البيرق). في القصر رأينا الأمير في مزاج طيِّب، وحيث الوجهاء الأربعة الذين سيبقون في المدينة على تلبية جميع رغباتنا. ثم قرئت علينا بعض الرسائل والجرائد التي وصلت من المدينة وأُعطينا بعضها الآخر لقراءتها.

كانت وجبة الطعام فيها بعض التبدل السار. بالإضافة إلى الأرز واللحم، الذي قطع الأمير منه بعض القطع بأصابعه ووضعها أمامنا بنفسه، كان هناك خبز مشروح ممتاز ونوع من الكرات اللحمية في حساء. بسبب افتقاري إلى مهارة الأصابع أحضرت لي ملعقة. لم يكن الطعام محضراً في مطبخ القصر وإنَّما في جناح الحريم. وقبل صلاة العشاء غادرنا القصر مع أفضل التمنيات بنجاح الغزو. رافقنا حمود المجراد إلى بيتنا. وبناءً على مطالبتي له بأن ينبهني إلى كل شيء، وخاصة إلى الأفعال التي تعتبر هنا مستهجنة، طلب منِّي عند الوداع أن أراعي العادات السائدة هنا أكثر ممَّا أفعل وقال: تحت تأثير رجال الدِّين الوهابيين يستهجن الناس هنا عندما يعبّر المرء عن سروره بصوت عال أو عندما يغني. في حضرته أستطيع أن أفعل ما أشاء، ولكن عليَّ ألَّا أغني أبداً بحضور أشخاص آخرين (باستثناء عبد الله المسلماني).

أخيراً جاء أيضاً محمَّد بن غانم لكي يُقدِّم لنا توضيحاً واعتذاراً عن بقع الدم أمام بيتنا. وقال: إنَّه هو نفسه كان الفاعل دون أن يدري: كان في المساء السابق قد داس في الظلمة على كسرة كبيرة من الزجاج أو ما شابه دون أن يشعر بذلك. وبعد ذلك وقف أمام بيتنا وقرع الباب عدَّة مرَّات طلباً للدخول ولكن دون جدوى. عندئذٍ بدا له وكأنَّه يدوس في جورة ماء فمسح رجله بيده ثم جفَّف يده المبلَّلة (الملوثة بالدم) على باب بيتنا. وبما أنَّ الباب لم يفتح رغم الطرق المتكرر ظنَّ أنَّنا نقضي المساء عند تاجر الإبل حسين، وهكذا توجَّه إلى باب بيته ونظَّف قدمه ويده، وهو يقف تحت المطر، بالعتبة والباب لكي لا يدخل إلى البيت بقدمين مبللين. وبعد أن قرع الباب هنا أيضاً قرعاً طويلاً دون جدوى، عاد إلى بيته كي ينام. ولم يلاحظ أنَّه مجروح في قدمه إلَّا في صباح اليوم التالي. ثم أظهر بطن قدمه فشوهد جرح طوله 3 سنتيمترات وعمقه نحو سنتيمتر واحد في أسفل القدم المكتنز باللحم الميت. ولكن لكي لا يلاحظ المرء مثل هذا الجرح إلَّا في اليوم التالي يحتاج طبعاً إلى جلد سليم!

الأحد 28 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. منذ مجيئنا إلى حائل (حايل) اتخذ الطقس صبغة شتوية: السَّماء مغطَّاة كثيراً أو قليلاً بالغيوم وتغطِّي قمم الجبال القريبة قبعات من الضباب، وتتلألأ الجدران الغرانيتية الملساء المتبللة،

عندما تسقط عليها أشعة الشمس، بلون فضي شاحب نتيجة المطر الرذاذي الخفيف.

في وقت مبكر من صباح هذا اليوم انطلق الأمير مع أوجه الوجهاء إلى الغزو وسيلتقي مع بقية الناس مساء في جبل سرَّاء. بعد الفطور قررنا زيارة سليمان القريشي، أخي الأمير من أُمّه. وعند فتح باب البيت شاهدنا بعض النساء غير المستعدات اللواتي ولّين هاربات وهن يصرخن بصوت عال. تمَّ استقبالنا في الطابق العلوي (روشن) من البيت وتمَّ تضييفنا تمراً رائع الطعم. كانت الأبواب الخشبية الفاتحة جميلة مطعَّمة بالحديد ومزيَّنة جميعها باللونين الأحمر والأسود.

في المساء دعانا عبد الله المسلماني لتناول طعام العشاء عنده، ولزيادة الجو الاحتفالي علَّق الساعة الفضية التي كنت قد أهديته إيَّاها[1]. خارج البيت وقبل الخروج إلى الغزو لم يكن يستطيع إظهارها لأنَّه لو فعل ذلك لأخبر عبيد بوجودها خلال ربع ساعة ولأبدى إعجابها بها بطريقة لا لبس فيها كي يستولي عليها ويضمها إلى مجموعة ساعاته[2]. أخرج هوبر من جعبته قنينة شامبانيا وطلب أن نشربها بصحة واهبها وهو الدكتور شرودر القنصل القيصري العام في بيروت. راقب مضيفنا ذو العقل المنفتح بشهية ظاهرة الطريقة الاحتفالية لنزع السدادة وشرب دون أي تأنيب ضمير الكأس بعد الأخرى. أملت عبثاً في أن يسكر؛ ولكن، وعلى الرغم من امتناعه عن الشرب فترة طويلة من الزمن، يبدو أنَّه قد حفظ درسه جيداً في بغداد. فقط عن طريق التجشؤ عدَّة مرَّات عبَّر عن انشراحه بصورة طبيعية.

قرَّرنا الصعود في اليوم التالي إلى قمة جبل السمرا[*] المجاور مباشرة

---

(1) انظر: ص205.

(2) انظر: ص200.

(*) قال شاعر من منطقة الرياض متشوقاً إلى أهله وذويه:

ليت من فارق سماح مع وروده ... فارق السمرا وشاف النايفات

ويقصد النايفات رعان وأنوف جبل طويق. (المراجع).

للمدينة وطلبنا لهذا الغرض من سلامة (وزير المالية) أن يؤمِّن لنا لهذا الغرض حمارين يكونان جاهزين الساعة الثامنة صباحاً.

الاثنين 29 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. طبعاً لم يأت الحماران. أرسلنا مرتين إلى سلامة ولكن دون جدوى. وبما أنَّ الساعة قد أصبحت في هذه الأثناء الثانية عشرة فقد تخلينا عن الخطة. في الساعة الثالثة طلبنا من خادمنا محمود كتابة رسالة إلى سلامة بالنصّ التالي: من المؤسف أنَّه منذ سفر الأمير، الذي سمعتم من فمه الأمر بأن تقدِّموا لنا كل مساعدة ودعم، لم تفعلوا شيئاً من أجلنا. وبما أنَّ الحمارين لم يكن تأمينهما ممكناً نرجو أن ترسلوا، على الأقل، من يحضر لنا إبلنا الموجودة في المرعى (مسافة يوم واحد من هنا) لكي يكون تحت تصرفنا الإبل الخاصة بنا. بعد إرسال الرسالة ذهبنا في الاتجاه الشمالي الغربي إلى خارج المدينة وصعدنا إلى تل «أمّ المساجد»؛ ومن هناك رسمت جزءاً من جبل أجا.

عند عودتنا التقينا في بيتنا مع عبد الله المسلماني الذي قال لنا: إنَّ سلامة جاء إلى هنا مرتين في غيابنا وشكا والدموع في عينيه من أنَّه يأسف أشد الأسف لأنَّه لم يستطع تأمين الحمارين، لأنَّ عبدين أخذاهما دون إذن، أحدهما إلى لقيطة والآخر إلى عقدة (وسوف يعاقبان أشد العقاب على ذلك!). حتى غداً صباحاً سيكون الحماران جاهزين بالتأكيد.

مساءً بعد طعام العشاء جاء الحدَّاد حسين، وجلب لي معه علبة الصفيح الكبيرة التي كنت أستعملها لحفظ المستنسخات الورقية للكتابات القديمة، والتي كانت قد أصيبت بأضرار مختلفة خلال الرحلة، وذلك بعد أن أصلحها وأعادها إلى حالتها السابقة. أعطيته مكافأة له أدوات عدَّة مختلفة وورق برداخ. ولما سألته عن مصدر الحديد الذي يحصل عليه قال: إنَّ جميع الحديد يأتي من الهند في السفينة عن طريق الكويت على رأس الخليج؛ وكذلك القطن والقهوة، ولهذا السبب تُسمَّى «بحري». أمَّا القهوة الأنعم من الجنوب العربي («يمني») فتجلب عن طريق الحجّ من مكَّة والمدينة، لكنَّها لا تنقل أبداً من اليمن نفسه على طريق البر وإنَّما تشحن بالسفن إلى جدة أو ينبع. عندما

استلقيت على السجادة لأخذ قسط من الراحة، بعدما شربت جرعة قوية من الماء، سحبني بقوَّة، ملؤه الخوف، إلى الأعلى ورجاني ألَّا أنام لأنَّني لو نمت سيدخل الماء إلى رأسي!! في ساعة متأخرة زارنا رئيس التشريفات المحترم مفرّج. في منتصف الليل سمعنا صوت قرقعة متواصل: كان الغزال داخلاً إلى القهوة وراح يتنزه بين الكؤوس والصحون ولم نستطع إخراجه منها إلَّا بجهد الجهيد.

الثلاثاء 30 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. في الساعة الثامنة صباحاً جاء مع الحمارين بدوي هتيمي اسمه عائد الدرزي. امتطينا الحمارين وخرجنا إلى النهاية الجنوبية للمدينة ووصلنا بعد نصف ساعة في شرق المدينة إلى أسفل جبل السمرا. تركنا الحمارين يرعيان في السهل وصعدنا إلى قمة الجبل الذي يرتفع فوق السهل إلى 400 ـ 500 قدم. كان المكان مناسباً جداً لتحديد الجهات والمواقع: في الغرب جبل أجا، في الشرق جبل سلمىٰ المغطَّى جزئياً من جبل الفتق. رسمت لكليهما منظراً طبيعياً مفتوحاً (بانوراما)[1] بينما كان هوبر يأخذ قياسات لزوايا مختلفة. وكان مرافقنا الخبير في شؤون المنطقة يعرف بدقة أسماء جميع القمم قمة قمة. ومن السهل كانت تبرز عروق غرانيتية غريبة الشكل تمتد بالتوازي من الغرب إلى الشرق.

بعد قضاء أربع ساعات على القمة نزلنا إلى أسفل الجبل، امتطينا الحمارين وذهبنا إلى حديقة للأمير محاطة بالأسوار تُسمَّى «حريميَّة»، ثم عدنا إلى المدينة عبر حي عينات المهدم وغير المسكون حالياً.

جاء لتناول طعام العشاء معنا ولوداعنا ذلك القحطاني الذي كان محتجزاً قبل الغزو وصار في وسعه المغادرة غداً. حتى ذلك الحين كان جميع البدو الغرباء محتجزين في المدينة لكي لا ينتقل أي خبر عن الغزو إلى الخارج. كانت شكاواه من التهاب أنفه تثير الضحك: كان يقول كل ربع ساعة خمس مرات على الأقل: انظر هنا! في رأسي ماء يسيل دوماً إلى أسفل إلى أنفي؛ وعندما أهزّ رأسي أسمع رجيج الماء والآخرون يسمعونه أيضاً. أكَّد له هوبر

---

(1) انظر الأطلس.

أنَّه لا يسمع أي شيء، وأنَّ عليه أن يكون مطمئناً أنَّه لم يدخل ماء إلى دماغه خلال النوم، ووعده بأن يعطيه فيما بعد دواء مفيداً لمرضه (كان دواء لا مفعول له على الإطلاق). ولتحريرنا من هذا الجو (المقيت) جاء علي المشرف العام على جميع العبيد. سألته عن عدد العبيد الموجودين هنا والذين هم جميعاً ملك الأمير ويسكنون في حي خاص («سوق العبيد») في شمال غرب المدينة. فقال: إنَّ عدد الرجال البالغين 160 رجلاً، بالإضافة إلى 30 طواشياً؛ وهذا يعني أنَّ مجموع العبيد صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، يصل إلى 1000 عبد وعبدة.

رحلة إلى عقدة

الأربعاء 31 أكتوبر/تشرين أوَّل 1883م. قفلنا باب البيت وتركنا الغزال وحيداً في الباحة بعد أن وضعنا له شعيراً وتمراً وماء. حمَّلنا الفرشات وعدَّة الطبخ على حمارين وأرسلناهما قبلنا برفقة ثلاثة سائقين مع خروف للذبح. وفي الساعة العاشرة والنصف انطلقت أنا وعبد الله وهوبر والخادم محمود على ظهور حمير وسرنا خلفهم. في الطريق أعطاني عبد الله قطعة من جريدة نخلة مقسَّاة بالنار لكي أحثّ بها حماري على الحركة. سارت الطريق عبر السهل باتجاه الغرب وأوصلتنا بعد ساعة ونصف إلى أسفل جبل أجا الأقرع تماماً وهنا انفتح أمامنا وادي عقدة بعرض 200م تقريباً مغموراً بالرمل الصواني الخشن. في الوسط كانت تبرز مجموعة الصخور «القعبَّر» التي بدت وكأنَّها تغلق المدخل.

خلف مجموعة الصخور انعطفنا نحو اليمين إلى نبع عويمر وجلسنا بعض الوقت في ظلّ أشجار النخيل. وكان هناك عصفور جميل، جسمه أسود ورأسه أبيض («أبو مغيرة»)، يتنقل بنشاط وأمان حول الماء. ولقد قيل لنا: بأنَّ النبع الذي كان قوياً في السابق قد ضعف جداً منذ ثلاث سنوات. في الساعة 12 تابعنا مسيرنا. وبينما كانت الصخور تقترب من بعضها بصورة متزايدة وصلنا بعد وقت قصير إلى جدار طوله نحو 50 متراً يغلق أضيق نقطة بين الصخور.



سد عقدة

على الجهة اليسرى انفتحت بوابة وخلفها كانت تقع بيوت واحة عقدة مختبئة في غابة من النخيل ومحاطة بسور من الصخور العارية. نزلنا في القصر الذي بناه هناك الشيوخ والخالي كلياً من المفروشات. في هذه الأثناء كانت الأمتعة قد أنزلت؛ وبينما كان المرافقون يمدون السجاجيد ويرتبون المقاعد ويذبحون الخروف قمنا نحن بزيارة بيتين وشربنا مراراً القهوة. في إحدى الحدائق كان هناك جذع نخلة كامل إحدى نهايتيه في النار. كان الجذع يشتعل ببطء وكان بين حين وآخر يدفع إلى الأمام حسب الحاجة. في المساء ظهر على قمة أحد الصخور القريبة وعل كان كما يبدو ينوي النزول إلى حفرة فيها ماء. فتصدى له على الفور صياد معه بندقية، وبعد أن اختفى رآه مرة أخرى لكنَّه عاد بعد زمن طويل دون أن يتمكن منه. كانت حالتي الجسدية اليوم غير جيدة على الإطلاق. كنت أعاني من وجع قوي في الرأس ومن شعور بالتخدير، كانت شفتي العليا وأنفي متورمان، يُضاف إلى ذلك أنَّ جرح قدمي ازداد سوءاً.

الخميس 1 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. في الصباح شعرت بارتياح بواسطة نزيف شديد في الأنف. من أجل الصعود هذا اليوم إلى «الفرع»، أعلى قمة في جبل أجا، قمت بعدَّة محاولات فاشلة لجعل صندلي يضغط أقل ما يمكن على الجرح في قدمي. وأخيراً وجدت أبسط وسيلة لتحقيق ذلك وهي الاستغناء كلياً عن الصندل. طلبنا لمرافقتنا دليلين يعرفان الطرق والأسماء هما

محمَّد العائد والمفضِّي. امتطى الاثنان أحد الحمير وامتطينا أنا وهوبر حماري الشيوخ، أمَّا عبد الله فقد بقي في القصر. انطلقنا في الساعة التاسعة والنصف من عقدة. سار الطريق باتجاه الجنوب الغربي عبر القاع الرملي لحوض الوادي؛ على اليمين واليسار بعض أشجار النخيل النامية بشكل عشوائي هنا وهناك. وبعد وقت قصير اقتربت الصخور من بعضها. وبعد ساعة من السير على ظهور الحمير نزلنا عنها وتركناها تسير أمامنا على طريق مريح أكثر. أمَّا نحن فقد رحنا نصعد إلى الأعلى بين الصخور الصوانية وعثرنا تحت كتلة صخرية على حوض ماء صاف تعيش حوله نصف دزينة من الضفادع الصغيرة السوداء. كان هذا الماء بالنسبة لنا دواء منعشاً. اعتباراً من هنا اضطررنا إلى المرور بصعوبة بين كرات صخرية كبيرة، إلى أن وصلنا إلى مكان لإطعام الحيوانات على شكل حوض («الجازية») كنَّا قد اخترناه لترك الحمير في انتظار عودتنا. بعد وقت قصير وصلت الحمير وأخذت تقضم برضا نبتة تشبه الحلفا («مصيع»). كان في وسعنا ترك الحمير هنا دون حراسة لأنَّه لا يمكن أن يخطر على بال أحد سرقة ممتلكات الأمير. كلَّما صعدنا إلى أعلى كان صعود الطريق المارة في الشعب الضيِّق يزداد حدَّة. على اليسار في الجدار الصخري



قمة الفرع

أشار الدليل إلى وجود ثقب يصعب الوصول إليه وصفه بأنَّه نبع. مع ذلك تسلَّقت إلى الأعلى: كانت المغارة، بقطر 30 متراً تقريباً وبارتفاع 15 متراً، مملوءة بالماء وكان على جدرانها طحالب ممَّا أثار دهشتي لأنَّها الوحيدة التي رأيتها خلال رحلتي بكاملها. بعد مسير نصف ساعة أخرى صعدنا إلى جرف

صخري وصارت مقابلنا الآن على اليمين جدران «الفرع» الصخرية الشديدة الانحدار والمزروعة بالكتل، تفصلنا عنها ثنايا الجبل.

على سطح مائل كان هناك موقع أبيض يلفت الانتباه تعرى نتيجة انسلاخ طري للصخور. قال الناس: إنَّ نجماً (نيزكاً) قد سقط من السَّماء قبل سنين على هذا الموقع وقذف الشظايا الصخرية إلى الأسفل؛ أمَّا الكتل الصخرية الأخرى المنتشرة هنا بكثرة فهي موجودة منذ القدم وقد قذفتها إلى الأسفل سفينة نوح التي لامست الجبل عند مرورها من هنا. وقيل أيضاً: إنَّ جملاً هارباً من عقدة قد مرَّ، قبل عدَّة أعوام، عبر ذلك المنفذ الضيِّق الشديد الصعود والموجود أمامنا مباشرة، وهو في طريقه إلى الجبل؛ إلَّا أنَّ المنفد كان شديد الانحدار إلى درجة أنَّني لم أصدق هذه الرواية. بما أنَّ الصعود إلى القمة كان يزداد صعوبة خلعنا جميع الملابس التي لا لزوم لها واكتفينا بالقمصان وبقبعة قطنية بيضاء («طاقيَّة»). وبعد تسلقنا آخر حائط مائل مؤلف من صفائح صخرية ملساء وصلنا، والعرق يتصبَّب من وجوهنا، في الساعة 12 و50 دقيقة إلى القمة التي كانت تكشف عن منظر بعيد المدى[1] يطلُّ على الكتل الصخرية الصوانية ذات التضلعات الضيِّقة والعارية تماماً. هناك بعيداً، في السهل الذي يشبه سطح البحر، كان من الممكن التعرُّف بسهولة على بيوت حائل (حايل). وكان يحيط بالأُفق الخطّ الأزرق الفاتح لجبل سلمى. لكنَّني لم أكن مهيئاً تماماً للتمتع بهذا المنظر الرائع بكل تفاصيله وجزئياته. إذ إنَّ العطش المؤلم أجبرني على النزول بعد وقت قصير إلى حفرة ماء صغيرة كنت قد شاهدتها في مكان عميق تحتنا على طريق الصعود. وبينما كان هوبر يقيس على القمة بعض الزوايا ويستفسر عن أسماء الجبال واحداً واحداً، قمت أنا في الأسفل برسم لوحتين في «صهوات فواز»[2]. شعرت بغبطة كبيرة أن أتجول وحيداً في هذه الطبيعة الجبلية الرائعة: لا أمتعة، وقليل من الثياب على الجسم، وفي يدي قضيب ودفتر للرسم، الضياع غير ممكن، وليس هناك أي

(1) انظر اللوحة المائية رقم 1 في الأطلس.

(2) انظر اللوحة المائية رقم 2 واللوحة المائية رقم 3 في الأطلس.

خطر ولا حاجة إلى العجلة، والساعة الوحيدة هي المعدة. عند وصولنا إلى الحمير في حوض «الجازية» كان لم يزل لدي متسع من الوقت لرسم الخندق الضيِّق المؤدِّي إلى عقدة بانحدار شديد. وفجأة تجمَّعت كتل من الغيوم الكثيفة وبدأ الرعد يقصف في الوديان ينذرنا بالانطلاق. نزل هوبر مع المرافقين بأقصى سرعة من قمة الجبل. فامتطينا ظهور الحمير التي كانت مرتاحة بعد خمس ساعات من الرعي الطليق. ومع مرور الوقت ازدادت السماء اكفهراراً، وعند حلول الظلام وصلنا إلى قصر عقدة.

بعد طعام العشاء جاء لزيارتنا أُناس من القرية عزفوا على الربابة وغنوا أناشيد محزنة. استمر هدير الرعد ولمعان البرق طيلة اللَّيل، ولكن لم يهطل سوى قليل من المطر، فالعاصفة المطرية الرئيسة هبَّت في شمال الجبال على «الرعيلة». في غمرة الظلام زارنا ضيف غريب، ضفدع، قمنا بوضعه في مكان مناسب خارج البيت.

الجمعة 2 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. بسبب المسير الطويل البارحة ساء بشكل محسوس وضع الجروح في قدمي ممَّا أرغمني على البقاء في البيت. استغليت الوقت للرسم. كانت السَّماء طيلة النهار مغطَّاة بالغيوم ولكن لم يهطل، على الرغم من الرعد القوي، إلَّا قليل من المطر. وفي اللَّيل جاء الضفدع البارد، الذي زارنا يوم أمس، إلى سريري ولقي المعاملة نفسها التي كان قد لقيها في المرَّة الأولى.

السبت 3 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. في الصباح تمَّ حزم أشيائنا السبعة وإفراغ القصر بالكامل مرة أخرى. في الساعة العاشرة وخمسين دقيقة انطلقنا على ظهور الحمير وبعد أقل من ساعتين وصلنا إلى مدينة حائل (حايل). وبينما مكث هوبر بعض الوقت في الطريق سبقتهم أنا مع الخادم محمود والعبد خير الله.

وما أن فتحنا البيت وأنزلنا الأمتعة حتى دخل إلى باحة الدار عدد كبير من البشر. وبينما كنت مشغولاً بتفريغ إحدى حقائب السفر، وكنت قد أسندت سيفي إلى الحائط، وأمرت الخادم بأن يعمل على دعوة الناس إلى مغادرة

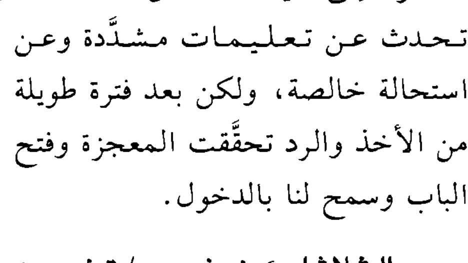
البيت، دخل البيت فجأة رجل حسن الهندام وفي يده سيف فخم ويرافقه خمسة من العبيد. فتش بنظرة غير ودية الفناء بكامله ثم ذهب على الفور إلى غرفة الاستقبال. ودون مقدمات وحتى قبل أن يحيّي طرح السؤال: أين هوبر؟ منزعجاً من تصرفه، ودون أن أستدير، أجبته: «هوبر ليس هنا، اخرج من البيت». فانفجر غاضباً وتفوه بفيض من الشتائم الشنيعة التي لم أفهم منها سوى: «يا نصراني، يا كافر، يا كلب». فقاطعته قائلاً: «لو كنت مكانك لخجلت من الدخول إلى بيت مسيحي، إلى بيت كلب، اخرج من هنا أو اذهب إلى جنَّتك أيُّها المسلم الممتاز»[1]. بعد ذلك وجَّه شتائمه إلى الخادم محمود ووصفه بأنَّه كلب مسيحي مقنع يستحق قطع الرأس. ولما استدرت استفزته نظرتي التي كانت أيضاً غير ودية. وصرخ والعروق منتفخة على جبينه: «تعالوا يا عبيد، اقطعوا رأسه!». ألم أقل لكم هذا مرة قبل الآن. وفي اللحظة نفسها استلَّ سيفه من غمده، فقفزت أنا أيضاً بأقصى سرعة وتناولت سيفي وهممت بضربه. وبينما كان الحاضرون يحاولون تفريقنا، وهم في حالة من الرعب والصراخ، أفهمني أحد مرافقيه بإشارة من وراء ظهره أنَّ عقله غير سليم. بجهد جهيد تمكَّن الناس من إخراج الرجل الغاضب من الدار ثم من تهدئتي. فصرخت خلفه وأنا استشيط غضباً: سأخبر الأمير بتصرفك «المحترم» وأروي له كيف أنَّ ضيوفه يهانون في بيته. وبعد ذلك أمرت بقفل الباب. بعد وقت قصير عاد عبد الله مع هوبر وأخبرني أنَّ هذا الرجل هو الأمير فهو المريض عقلياً، ابن عبيد الأب أي أخو حمود العبيد. وهو «طالما يكون الأمير في المدينة، يبقى محتجزاً في بيت واسع تحيط به الحدائق؛ فقط عندما يغيب الأمير وحمود عن المدينة يتجرأ على الخروج ومعه سيفه. وفي كثير من الأحيان تنتابه حالة من الصرع ممَّا يستدعي ربطه بالسلاسل. وبما أنَّ جميع هذه المعلومات لم تكن معروفة بالنسبة لي من قبل فإنَّني لا أعرف أيضاً، حتى الآن، لماذا سأل الرجل عن هوبر. كان المنحوس يريد زيارة هوبر كـ«حكيم» (طبيب) ويسأله عن علاج لحالته. فطلبت من هوبر أن يزوره غداً.

---

(1) مسلم «برنجي».

الأحد 4 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. عندما زار هوبر فهداً هذا الصباح أنكر جميع أقواله ونفى إطلاقاً الحادثة من أساسها ـ آلام الجروح في قدمي تشتد بشكل ملحوظ وتصبح شيئاً فشيئاً غير محتملة.

الاثنين 5 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. درجة حرارة الجو فقط 14 درجة مئوية. طلب اليوم الخادم محمود حلّاقاً ليحلق له رأسه. ولكم استغربت عندما سمعت الرجلين يتكلمان مع بعضهما باللغة التركية. فعلمت أنَّ الحلّاق كردي من سيواس، منشق تركي عن الحامية في صنعاء، وهو يقيم هنا منذ سنتين. ظننت أنّني سأقدم له خدمة كبيرة بأن أعطيته موسى حلاقة أوروبياً ممتازاً. لكنَّه لم يكن قادراً على استعماله بل فضَّل متابعة العمل بشفرته البالية المثبتة ببساطة على قطعة من الخشب ـ أمضينا السهرة في بيت عبد الله الذي نصب هوبر على سطحه لغرض الرصد الفلكي تيودوليته (جهازه لقياس الزوايا). تأخرت عودتنا إلى منزلنا حتى الساعة العاشرة. ولما عدنا كان باب الدخول إلى حيّنا قد أغلق. كان الحارس يغطُّ في نوم عميق ولما استيقظ



تحدث عن تعليمات مشدَّدة وعن استحالة خالصة، ولكن بعد فترة طويلة من الأخذ والرد تحقَّقت المعجزة وفتح الباب وسمح لنا بالدخول.



Fréhah فريحة

الثلاثاء 6 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. صباح ضبابي قاتم مع درجة حرارة لا تزيد على 15 درجة مئوية؛ طيلة النهار لم يصل من السماء شعاع شمس واحد. زينت جدران غرفة استقبالنا بلوحات أخرى ورسمت العبدة فريحة[1].

(1) يُسمَّى القميص الأزرق الغامق «ثوب»، ويُسمَّى غطاء الرأس الغامق أيضاً والذي يغطَّى به الوجه عند اقتراب رجل غريب «بوشيَّة».

جروح قدمي تزداد سوءاً. علاوة على ذلك تشكل ورم خبيث في بطن ساقي اليسرى يقول الناس عنه: إنَّ تشكله مفيد (وكأنَّ الإنسان بالضرورة ـ أو بسبب الطعام هنا ـ يجب أن يكون مملوءاً بالقذارة التي يجب عليه أن يشكر الله عندما تخرج منه!). وبالمناسبة لقد طبقت على فردة حذائي اليمنى اختراعاً مريحاً إلى أبعد الحدود: فتحت ثقباً كبيراً في جلد الحذاء فوق إصبع قدمي الصغيرة، وبذلك لم يعد الجلد يضغط على الجرح.

على الطريق إلى عبد الله رأيت من مسافة بعيدة الأمير فهد المجنون[1]. وبسبب ضيق الطريق اضطررنا إلى المرور بالقرب من بعضنا. كان معبّراً بكل فخر عن اسمه («فهد»)، شاهراً سيفه في يده رمقني بنظرة غاضبة وكأنَّه يريد أن يفترسني. أمَّا أنا فلم يكن معي أي سلاح، لكنَّني تجاوزته بكل إباء ورمقته بنظرة حادة في وجهه. كل واحد منَّا كان يقيس الآخر في ذهنه ويقول في سرِّه: إن أردت الهدوء فلا مانع عندي، ولكن إذا ما بدأت فأنا مستعد أيضاً لذلك.

الأربعاء 7 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. زارنا اليوم شيخ مشايخ بني عطيَّة، أو قبيلة معازة، واسمه محمد بن عطيَّة من منطقة تبوك مع أربعة مرافقين؛ وقد جاء إلى هنا لكي يحثُّ الأمير على القيام بغزوة ضد جيرانه الشماليين، قبيلة الحويطات، الذين صاروا شيئاً فشيئاً يضايقونه. كان الخادم محمود يعرفه من السابق، من الوقت الذي كان فيه يعمل كاتباً عند قبيلة الحج ومكلَّفاً بتوزيع الهدايا على البدو. وبما أنَّ الشيخ سيكون، ضمن ظروف معيَّنة، مفيداً جداً لنا عند قيامنا لاحقاً برحلة في الغرب، أردنا تكريمه أفضل تكريم ودعوته غداً إلى مأدبة احتفالية.

الخميس 8 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. لم تزل حيطان غرفة استقبالنا عارية جداً بالنسبة لي ولذلك قرَّرت تزيينها بمزيد من الرسومات. قمت أوَّلاً برسم كلمة «يا علي» بشكل أنيق وباللون الفضي الذهبي ضمن ميداليون (إطار بيضوي الشكل) أخضر على الجهة الجبهية لعمود في الممر.

---

(1) انظر: ص229.

ويُعدُّ هذا في الوقت نفسه التفاتة مهذبة تجاه صاحب البيت، الشيعي، الذي سيسر جداً عندما يرى لاحقاً هذه الكتابة.

عندما جاء مفرّج اليوم لزيارتنا طلبت منه الجلوس أمامي كي أرسمه. وكان على الفور مستعداً لذلك. الرجل العجوز ظاهرة متميزة، فهو من الناس القلائل هنا الذين يرفضون[1] صباغة شعرهم باللون الأحمر. مع العلم بأنَّ لحيته كثيفة وطويلة بصورة غير مألوفة عند البدو ولا شك في أنَّه يحتاج كل يوم إلى بعض الوقت كي يحافظ على شاربيه ممدودين أُفقياً. في السنين السابقة شارك في جميع الغزوات وأصيب بضربات مختلفة من السيوف أو الرماح أو البنادق. على الجهة اليسرى من جبهته تظهر ندبة عميقة («فلقة») ناتجة عن ضربة سيف.


مفرج

يُعدُّ مفرّج، إلى جانب الأمير وابن عمه حمود، أشهر شخصية بين جميع الشمّريين. عندما كنت أقوم، في وقت لاحق، بجولات إلى البدو كان يتعيَّن عليَّ أن أريهم، قبل كل شيء، صورة مفرّج في دفتري. وكانوا جميعاً يعرفونه على الفور ويصرخون: نعم، هذا هو! انظر! ها هما شارباه والفلقة على جبينه؛ وها هي عصاه[2].

بسبب دعوة محمَّد بن عطيَّة إلى العشاء مساء هذا اليوم شعرنا بارتباك

---

(1) لقد لفت انتباهي منذ اليوم الأوَّل الجيل الشاب الذي يعيش هنا في حائل (حايل). فالمرء لا يشاهد إلّا نادراً أُناساً مسنين. خلال الغزوات الكثيرة التي يتعيَّن على الرجل المشاركة بها في حياته سيكون محظوظاً ذلك الرجل الذي لا يفقد حياته خلال 20 أو 30 غزوة. اللحى الشائبة تصبغ عادة بالحناء وهكذا يبدو أنَّه لا وجود للناس المسنين.

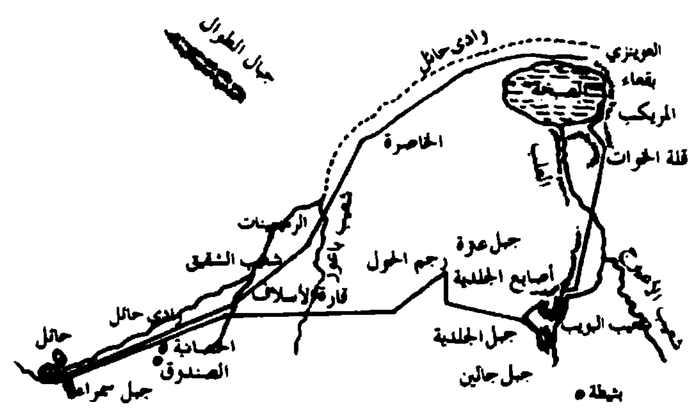
(2) التي يشير بها إلى البدو القادمين من بعيد والمخيّمين في المسحب أنَّ الشيوخ يدعوهم إلى الطعام في فناء القصر.

شديد لأنَّنا لم نستعلم في الوقت المناسب عمَّا سنقدِّمه لضيوفنا. خلال فترة ما بعد الظهر لم يكن من الممكن العثور على أي حيوان صالح للأكل لا في القصر ولا في أي مكان آخر. وأقرب خراف كانت في المراعي على بُعد أربع ساعات، على الأقل، من هنا. وهكذا لم يبق لنا أي خيار إلَّا ذبح غزالنا. شعرت بالأسف على هذا الحيوان الوديع. لا سيَّما أنَّه كان قد أصبح في الأيَّام الأخيرة أنيساً وواثقاً وقام صباح هذا اليوم بقفزات ملؤها المرح وبهجة الحياة. في المساء حضر محمَّد بن عطيَّة مع مرافقيه الأربعة. ناقشنا خطط رحلاتنا في الحجاز وعقدنا بناءً على ذلك ميثاق أخوة. وتمَّ عقد هذا الميثاق أو العهد بموجب مصافحة بدوية خاصة، وهذا يعني أنَّ الأيدي لم تتلامس بصورة سطحية كالمعتاد أو إنَّ الأكف لم تضرب على بعضها ثم تسحب بسرعة، بل يمسك كل طرف بيد الآخر كاملة ويشدُّ عليها، ثم يلفُّ كل طرف إصبعه الكبيرة حول يد الآخر. دار الحديث بصورة رئيسية حول فرص نجاح الغزو، خلال يومين، على أبعد تقدير، يجب أن يصل إلى هنا «بشير» الأمير. وأخيراً افترقنا على أمل الالتقاء بعد ثلاثة أشهر، ونحن في صحة جيدة، في الحجاز في منطقة تبوك.

في وقت متأخر من السهرة جاء أيضاً الحدَّاد حسين وطلب دواء لمرض ما. وبعد سؤاله بإلحاح اعترف بأنَّ الدواء ليس له وإنَّما لـ«خطيب» تقي جداً يخجل من أن يلجأ إلينا (نحن المسيحيين) مباشرة. كان هذا لطيفاً جداً من هذا الشيخ الوهابي ويذكرني بتصرف خجول مشابه كيف كانت تتم في بداية السبعينيات استعارة الكتب بصورة غير مباشرة من المكتبة القيصرية في ستراسبورغ.

رحلة إلى الجلديَّة وبقعاء

(٩ ـ ١٦ نوفمبر/تشرين الثاني)



الطريق من حائل إلى جبل الجلدية

الجمعة 9 **نوفمبر/تشرين الثاني** 1883م. لم تصل، طبعاً، في الوقت المناسب الإبل التي كنَّا قد طلبناها لتكون جاهزة في الصباح الباكر من هذا اليوم، بل تعيَّن إرسال شخص للبحث عنها في أحد المراعي. جلسنا عدَّة ساعات بين أكياس الأمتعة ومستلزمات النوم والأدوات المطبخية والمواد الغذائية مالّين من الانتظار إلى درجة أنَّ زيارة غانم المزعج جداً لقيت لدينا الترحيب. حوالي الظهر وصلت الإبل الثلاثة؛ كانت إبل محزنة حقاً: عرجاء منهكة القوى وسيِّئة التغذية. كان من المستحيل الحصول على أحسن منها، لأنَّ جميع الإبل القوية والقادرة، بما فيها أيضاً نوقنا الرشيقة التي اشتريناها في حينه في عرمان[1]، أخذت إلى الغزو الذي يقوده الأمير. بالمقابل كانت عدَّة

---

(1) انظر: ص17 أعلاه.

الرحل (الشداد) جميعها جديدة تماماً، فقط شداد ذلولي لم يكن راكزاً بشكل جيد ممَّا اضطرنا إلى تجليسه بعد الربع ساعة الأولى. في الساعة الواحدة بعد الظهر انطلقنا ببطء نحو المدينة. فضلاً عن الخادم محمود كان معنا دليل بدوي اسمه شاوردي. في بادىء الأمر كانت الأراضي بكاملها، كما هو الحال دوماً بالقرب من المستوطنات البشرية، خالية تماماً من أيٍّ نوع من النباتات باستثناء الحنظل(1) الذي كان ينمو بوفرة دون أن يمسّه أحد. حوالي الساعة الخامسة ظهر عند هضبتي «صندوق» و«حصنيَّة» موقع يحتوي على قليل من العشب والحطب ولذلك اخترناه مكاناً للتخييم. في السماء كانت هناك بعض الغيوم المريبة التي تنذر بهطول المطر ولكن في وقت متأخر من الليل فقط سقطت على وجوهنا ونحن نيام بعض القطرات الكبيرة. كان طعام العشاء يتألف من الأرز وقليل من لحم الغزال (بقايا من يوم أمس) والتمر والخبز المشوي في الرماد الساخن (قرص الملة).

السبت 10 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. شربنا القهوة في الصباح الباكر مع بزوغ الفجر. كان شداد ذلولي غير مناسب له إطلاقاً وكان موضوعاً على ظهره بشكل سيىء جداً إلى درجة أنَّني كدت أسقط، عند نهوض الذلول، مع الشداد والأمتعة في النار التي كانت لم تزل متوهجة. انطلقنا في الساعة السابعة والنصف. قال محمود للشاوردي بمنتهى الجد إنَّه سيكون مؤسفاً لو أضاع بقايا الأرز الموجود في الكيس الجلدي من يوم أمس ـ قُدِّر كميتها بخمسة أطباق ـ وأقنعه (الأمر الذي لم يكن هو نفسه يعتبره ممكناً قبل ذلك) بأن يتناولها واحداً بعد الآخر كل ربع ساعة. في الساعة العاشرة انعطفنا في «شعيب شقيق» وهو فرع من وادي حائل (حايل) الذي يصبُّ شرقاً في بحيرة البقعاء المالحة. في صفائح الصخور الرملية لمجرى الوادي المسطَّح كانت توجد هنا وهناك حفر مملوءة بماء المطر النظيف. دعانا هذا الوضع إلى النزول هنا وتحضير وجبة الطعام. كان هناك «شراري» بائس يرعى قطيعاً من الماعز بالقرب من المكان، فاستغل الفرصة السانحة وراح يساعدنا في جمع

---

(1) نوع من القرع له أوراق خضراء داكنة، مُرّ وغير صالح للأكل.

الحطب على أمل، وهو أمل مبرَّر حقاً، أن ندعوه إلى الطعام عندما يجهز. كان الرجل المسكين، كما يبدو، جائعاً جداً بحيث التهم كل ما في الصحن حتى آخر حبَّة. بعد صعودنا من الشعيب سارت الطريق في سهل رتيب من الحجر الرملي مزروع بحجارة صغيرة ملونة بألوان مختلفة ومزججة.

في الساعة الرابعة توقفنا للتخييم. وبما أنَّ قطرات من المطر كانت قد سقطت علينا مراراً في الليلة السابقة مددت فوق مكاني المعطف المطري المطاطي، ولكنَّني لم أحتمل البقاء تحته طويلاً بسبب البخار.

الأحد 11 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. انعطفنا من الجهة الشرقية باتجاه الشمال الشرقي ثم توجَّهنا إلى عدد من الصخور الرملية المدبَّبة ذات التشكُّل الغريب التي تبرز أمام الجلدية نحو الشمال وتحمل الاسم «أصابع الجلدية»[1]. وكان هوبر قد رأى خلال رحلته الأولى كتابات وصور حيوانات محفورة على هذه الصخور. وبعد بحث طويل عثرنا على هذه الكتابات والصور. كان هناك بين الكتابات عدد لا حصر له من صور الإبل والغزلان وبقر الوحش وصيد النعام وما شابه، جميعها كانت مرسومة بشكل أولي غير متقن ما عدا حصان يبدو أنَّ رسامه لديه بعض المواهب الفنية الأولية. أُقدِّم هنا نموذجاً من هذه الصور التي تتكرَّر مرة بعد أخرى.

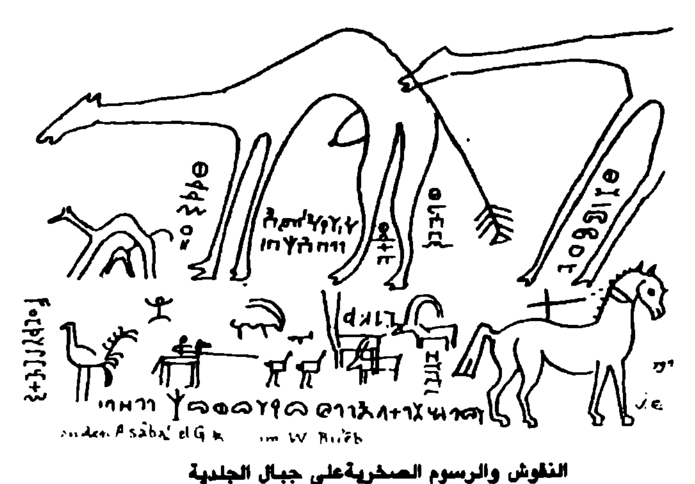
نتيجة استهتار خادمنا، الذي صدَّق ثرثرة البدو[2] بأنَّه يوجد في هذه المنطقة كثير من الماء، تعرَّضنا خلال النهار إلى حاجة ماسة للماء. ولو لم نكتشف بالصدفة البحتة رجلاً وحيداً في مكان بعيد ونسأله عن الماء لبقينا نبحث عنه فترة طويلة من الزمن. وهكذا بدا لنا الرجل كمنقذ حقيقي ووافق، بعد إهدائه كمية من التبغ، على الانعطاف عن طريقه ودلَّ مرافقينا البدو على مكان وجود الماء ـ على مسافة قريبة جداً[3] من هنا، كما قال. إلَّا أنَّ

(1) انظر الأطلس.

(2) عندما يسأل المرء بدوياً عمَّا إذا كان يوجد ماء على هذا الطريق أو ذاك يتلقَّى عادة الجواب: «واجد! واجد!»، ولكنَّه يمكن أن يشهد أمرّ خيبات الأمل.

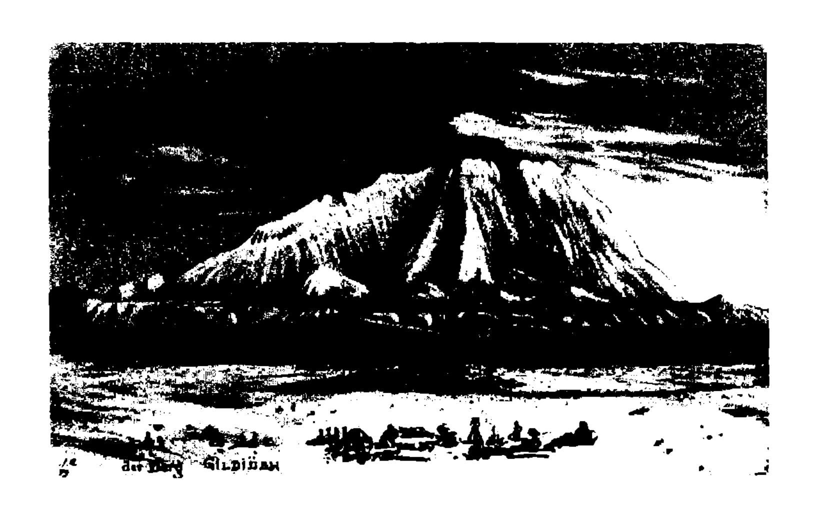
(3) «قريّب».

الشاوردي احتاج إلى ساعتين من الزمن حتى ذهب إلى هناك على ظهر الجمل وعاد ومعه قربة مملوءة بالماء من «قلات». خيَّمنا في مكان رائع في سهل مائل قليلاً على أنعم رمل في صحراء النفود، وأمامنا تبرز تحت ضوء المساء ذي اللون الأصفر الذهبي الكتلة الجبَّارة لجبل الجلدية.



النقوش والرسوم الصخريةعلى جبال الجلدية

كانت هناك كميات وافرة من الحطب بحيث إنَّنا أشعلنا في وقت واحد ثلاث نيران كبيرة. في العادة يسكن هنا الهواء غالباً مع غروب الشمس، أمَّا اليوم فقد ازداد شدَّة وتحوَّل إلى عاصفة جنوبية لم أشهد مثلها منذ أيَّام.



السموم في تدمر:

(آخر يوليو/تموز، أوَّل أغسطس/آب 1883م). كان الهواء يئزُّ عاصفاً حاملاً الرمل إلى مخيمنا. من أجل الحماية دخلت بالكامل تحت السجادة وغطيت رأسي كاملاً. وعلى الرغم من ذلك تسرَّب الرمل إلى كل مكان وملأ فمي وأنفي وأذنيَّ؛ في الساعة الثالثة صباحاً هدأت العاصفة، وكانت قد غطَّت مخيمنا بطبقة من الرمل سماكتها إصبعان.

الاثنين 12 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. كان من المقرَّر أن نتسلَّق اليوم الجلديَّة. ولما وصلت إلى أسفل الجبل ونزلت عن ظهر الجمل أدركت أنَّه من المستحيل أن أتسلَّقه بقدميَّ الجريحتين؛ وهكذا قرَّرت البقاء في الأسفل والتجول بين الصخور علني أجد كتابات قديمة؛ لكن هذا أيضاً سبَّب لي آلاماً شديدة، وبعد فترة قصيرة تخليت عن الفكرة وعدت ببطء إلى المخيم الذي لم يكن العثور عليه سهلاً بسبب كثافة الحطب. في الساعة الحادية عشرة نزل هوبر من على الجبل مضطراً إلى التخلي عن الصعود إلى القمة بسبب الانحدار الشديد.

بعد الظهر تابعنا مسيرنا وملأنا في الطريق قُربنا بالماء ووصلنا مع غروب الشمس إلى «شعيب بؤيب».

كان هناك راع يرعى عدداً قليلاً من الإبل اسمه عنيزان بن زايد. كان قد عاش زمناً طويلاً بين الرولة، الأمر الذي أثار، طبعاً، الاشتباه بأنَّه كان لديه سبب وجيه لأن يعيش بعيداً بسبب تصرف ما غير سليم. كما أنَّ عمله الحالي، وهو حراسة هذا العدد القليل من الإبل لصالح أُناس آخرين، هو في أعين البدو ليس علامة طيِّبة بل إنَّه يدعو إلى الريبة. بدافع الاستفادة الشخصية، أي على أمل أن ندعوه إلى المشاركة في طعامنا، نصحنا بأن ننزل في هذه المنطقة الغنية بالأعشاب ونقضي الليلة هنا. أمَّا هو فلا يستطيع أن يُقدِّم لنا شيئاً إلَّا حليب الإبل الطازج، إذا ما سمحنا له بذلك. فقلنا له: نعم، يمكنك جلب بعض الحليب[1] بعد وقت قصير عاد ومعه وعاء من الخشب مربع الشكل

---

(1) يجب على المرء أن يعلم ـ الشيء الذي لم أكن أنا أعرفه آنذاك ـ أنَّ حليب الإبل هو، بالنسبة إلى البدوي، ليس فقط أهم غذاء بل وفي الوقت نفسه أيضاً الدواء الطبيعي للأمراض الأكثر =

مملوء بالحليب وقدَّمه لي أوَّلاً. على الرغم من أنَّني كنت قد اعتدت إلى حدٍّ ما على حليب الإبل، وعلى الرغم من أنَّ الحليب بدا نظيفاً تماماً، شعرت بقشعريرة غير واضحة الأسباب لم أستطع تجاوزها. حاول هوبر تشجيعي على الشرب قائلاً لي، ما عليَّ إلَّا أن أحاول لأنَّني لا بُدَّ من أن أتعرَّف عليه مرة وسأصبح عاجلاً أم آجلاً مسروراً إن قدّم لي مثل هذا الحليب. لكنَّني كنت لم أزل غير واثق تماماً من هذه المسألة، إلَّا أنَّني، مع ذلك، وضعت الوعاء على فمي وأنا أنظر إلى هوبر. ولما ظلَّ جامد الوجه دون أي تعبير شربت جرعة ولاحظت أنَّ الحليب الفاتر كان جيداً فعلاً، لا بل إنَّ عليَّ أن أعترف أنَّني لم ألاحظ أي فارق بينه وبين حليب آخر. وانطلاقاً من رضاي التام عمَّا قمت به من بطولة وتناولت خلال توقفين أو ثلاثة كمية معتبرة منه. وفعل هوبر الشيء نفسه. بعد نصف ساعة قدَّم لنا الخادم محمود وجبة الطعام فلم نستطع تناولها على الإطلاق لا بل إنَّني شعرت بأنَّ ساعتي الأخيرة قد جاءت وأنَّني سأواجه النهاية نفسها التي واجهها الزنديق آريوس. بهذا الشعور بالضعف والوهن وقرب الأجل استلقيت تحت ضوء القمر الهادىء الرخيم ولجأت إلى النوم.

الثلاثاء 13 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. كانت درجة الحرارة في الصباح الباكر لا تزيد على 14 درجة مئوية. ومع طلوع الشمس تابعنا سيرنا باتجاه شمال الشمال الشرقي نزولاً إلى الوادي. هناك حيث يصبُّ شعيب إعيوِج القادم من اليمين يوجد برج متهدم، أحد بقايا مستوطنة مهجورة. توقفنا

= انتشاراً. بالإضافة إلى أمراض العيون (الناجمة عن الرمل وشدَّة الحر) وآلام المعدة (الناجمة عن الجوع الطويل ثم حشو المعدة فجأة بكميات كبيرة من الطعام)، هناك أمراض كثيرة الانتشار على رأسها الزحار وعكسه الإمساك الشديد. وهكذا تقدم الطبيعة في حليب الإبل الإمكانية للتوازن الأكثر فعالية. وما على المرء، كما في مياه كارلسباد (حمامات كارلوفيغاري في تشيكيا) ولكن بالعكس، إلَّا أن يعرف كيف يغيّر درجة حرارة المشروب بشكل صحيح حسب حاجته الشخصية. حليب الإبل الساخن له مفعول الراوند ضد الإمساك، والحليب البارد يوقف جميع حالات الإسهال على الفور. للأحوال العادية ولمتوسط الناس يُعدُّ الحليب الحامض والمنزوع منه الزبد (اللبن) أنفع غذاءً. إذا ما أراد المرء إيقاف ناقة عن الحلب يقوم بحلبها مرة واحدة كل يومين أو ثلاثة أيَّام. يُسمَّى مثل هذا الحليب الطازج «محيَّنة». وما قدَّمه لنا الراعي كان «محيَّنة».

هنا حتى الساعة الحادية عشرة. كانت الأرض مالحة ومغطَّاة جزئياً ببلورات جبسية كبيرة تتخلَّلها كمية من الرشراش[1]. في بعض المواقع كانت الأرض مستوية كحلبة الرقص وممهَّدة بشكل نظيف تماماً، وفي مواقع أخرى كانت تشكلات البلاطات الحجرية أصغر، وبعضها جعلته عوامل الحت والتعرية رقيقاً كالورق أو كومته فوق بعضه على شكل طبقات بسماكة 1 ـ 5 ميليمتر بحيث إنَّ المرء يمكن أن يظن أنَّه يسير في أنظف مستودع للنفايات الورقية في العالم. وبينما كان الهواء في الوادي نظيفاً ومنعشاً، كان على الهضبة محمّلاً بالرمل وزخَّات من المطر. في الجنوب على جبل الجلدية كانت هناك غيوم داكنة مع خطوط مائلة. لما وصلنا إلى السهل العالي رأينا أمامنا بصورة مفاجئة، في منخفض على شكل حوض بحيرة كبيرة بيضاء محاطة بأشجار نخيل داكنة اللون، بينها حقول الذرة مع آبار شبه مهدَّمة ومجموعات متفرِّقة من البيوت، وعلى تل صخري برج المراقبة «مريقب». كانت هذه قرية بقعا[2] الكبيرة مع بحيرتها الملحية («سبخة»).

بقينا ساعة ونصف نسير على الطرف العلوي للحوض ثم نزلنا بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى السبخة. في ذلك الوقت من السنة كانت البحيرة الملحية أقرب إلى المستنقع الملحي الذي يظهر فيه الملح كالثلج الأبيض. دروب غير آمنة، بعضها للحيوانات وبعضها للمشاة فقط، كانت تتقاطع مع السطح كخطوط رمادية فاتحة وعلى يمينها ويسارها تربة زلقة. كادت المطالبة بقصّ الطرف الأخير من النهاية الشمالية أن تؤدِّي إلى حدوث أمر سيىء. ذلك أنَّ ذلول هوبر جفلت من ضربة مفاجئة بالعصا فانحرف نحو اليمين ثم انزلق وسقط في الوحل القذر. ولكن ما سرني من هذا الحادث أنَّ الشاوردي الكسول والشره، الذي كان يركب ثلاثة أرباع النهار خلف هوبر كرديف، وجد نفسه مضطراً بعد ذلك السقوط إلى السير بضع خطوات على قدميه. امتدَّ الطريق طويلاً بصورة مزعجة ولم يظهر بيت الشيخ عبيد الذي كنَّا نبحث عنه. علاوة على ذلك

---

(1) وهو نوع من الحجر الحديدي يكون بعضه على شكل كرات يجمعها البدو ويصنفونها حسب حجمها ثم يبادلونها فيما بينهم حسب عيار بنادقهم ويستغنون بذلك عن الرصاص الغالي الثمن.
(2) انظر الصورة الملونة في الأطلس.

اكفهرَّ الجو وازدادت شدَّة العاصفة وراحت غيوم الرمال تتلاحق كأمواج الثلوج الشمالية في الريح العاصف. وأخيراً، ومع هطول المطر وسقوط ذلول هوبر مرة ثانية، وصلنا إلى بيت الشيخ عبيد. وفي الوقت نفسه وصل معنا راكب آخر تعطي ملامح وجهه انطباعاً متمدناً[1]. كان هذا الرجل تاجر من بغداد أو من السماوة جلب حمولة 200 جمل من الأرز إلى الأمير وحمولة 100 جمل إلى أُناس آخرين في حائل (حايل). أخذنا الشيخ إلى بيت الخطيب لكي نسكن هناك ونأخذ راحتنا. صحيح أنَّ الغرفة التي أعطونا إيَّاها كانت ضيِّقة ومنخفضة (بطول 6 أمتار تقريباً وبعرض 2,5 متر)، ولكنَّها حمتنا على الأقل من العاصفة والمطر. فقط من أجل تناول القهوة انتقلنا إلى المضافة العامَّة بينما كان الخادم محمود يحضر لنا طعام العشاء. بعد أن اعتدنا على العيش عدَّة أيَّام في العراء شعرنا بصعوبة في النوم في غرفة مغلقة، وفوق ذلك منخفضة بهذا الشكل.



بقعاء

(1) في مجتمع مغلق كالمجتمع البدوي لا يقتصر التجانس على اللباس بل يشمل أيضاً تقاسيم الوجه وحركات الناس، ولذلك عندما يظهر رجل غريب بينهم يلفت الانتباه على الفور. هذا الأمر لاحظته فيما بعد بشكل صارخ عندما مرّت قافلة الحجّاج الفرس في حائل (حايل).

الأربعاء 14 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. بما أنَّ المطر كان لم يزل يتساقط قرَّرنا تأجيل الارتحال إلى ما بعد طعام الفطور. في الساعة الحادية عشرة انطلقنا والسماء داكنة ملبَّدة بالغيوم الماطرة. ولما صعدنا على الجهة الشمالية الغربية على السفوح التي تحيط بحوض بقعا ظهرت أمامنا إضاءة خلّابة. ظهرت أمامنا صحراء النفود بلون كبريتي فاقع أصفر وتجمَّعت فوق رؤوسنا غيوم باللون النيلي تنذر بالسوء. وفي التبدل المتتالي للألوان، المقوَّى بتأثير الظلال المتلاحقة، بدت الطبيعة الرتيبة أصلاً شديدة التنوع وذات امتداد لا نهاية له. هبَّات شديدة لريح الشمال مزَّقت خلال وقت قصير حلَّة الألوان الرائعة إلى أشلاء متناثرة وغطَّت المنطقة الجرداء التي لا تعبّر عن أي شيء بلون سنجابي قاتم ـ ظهر خلفنا من حيث لا ندري ستة من «رجاجيل الشيوخ»[1]؛ كونهم كانوا قد كلفوا بمرافقة قافلة الأرز وبعد أن أصبحوا الآن لا لزوم لهم بعد وصولها إلى البلد الآمن، فقد سبقوا القافلة مسرعين إلى العاصمة. حيّونا دون أن يتوقفوا ووجهوا لنا أسئلة مختلفة وبالتحديد عمَّا إذا كنَّا نعرف شيئاً عن مصير الغزو. لكن الرياح السريعة كانت تحول دون أي تفاهم. وعلى جيشهم النشط[*] غابوا عن أنظارنا بسرعة يحسدون عليها؛ أمَّا نحن على ركابنا شبه المشلولة فقد تعيَّن علينا أن نبقى بلا حول ولا قوَّة تحت العاصفة المطرية المتفجرة. كانت زخَّات المطر الشديد تسقط عمودياً على رؤوسنا وكان الماء يتسرب إلى تحت المعطف المطاطي المنفوخ ويتصبَّب من شراشيب الحقائب الموضوعة على ظهور الإبل مثل الأوتاد المشدودة لآلة الجنك. عند النظر إلى هذه الكمية الكبيرة من المطر لم يستطع الشاوردي السكوت عن التعبير عن الأمل في أنَّ الربيع سيكون في هذه السنة مباركاً وغنياً بالعلف. لم يكن في وسعي أن أردّ على ذلك إلَّا بالقول: إن شاء الله! في الساعة الرابعة انتهى كلُّ شيء. بعد نصف ساعة انعطفنا عن الطريق إلى اليسار لكي نخيِّم. كان الرمل لم يزل رطباً لكن السماء أصبحت صافية. وبكلِّ امتنان

(1) انظر صفحة 136.

(*) الذلول ليس لها جمع من لفظها وتجمع ذلول على جيش في اللهجة العامية. (المراجع).

استدرنا حول نار أوقدت على عجل ورحنا ندفىء الأجزاء المتبردة من أجسامنا[1]. كما أنَّ حوائجنا كانت بحاجة إلى التجفيف. ولكن أين يمكن أن نجلس الآن وأين يمكن أن ننام فيما بعد؟ عند الحفر في الأرض فوجئنا بأنَّ المطر لم يخترق الرمل في هذا المكان إلَّا إلى عمق 10 ـ 12 سنتيمتراً. وهكذا كان من الممكن حلّ المشكلة بسهولة. بواسطة «المحماصة»، أي المجرفة ذات المقبض الطويل، حفر أحدنا بعد الآخر المكان الذي سينام فيه. وكان كل منَّا يحاول التفوق على من قبله في دقَّة العمل وإتقانه.

الخميس 15 نوفمبر/تشرين الثاني 1883م. كان الليل بارداً (10 درجات مئوية)، علاوة على ذلك كان كلُّ شيء رطباً ومغطًّى بطبقة سميكة من الندى، وفي الصباح كانت تتلألأ على السجاجيد قطرات كبيرة. في ضباب الصباح الخفيف فاجأنا سرباً من الحجل. فألقى شاوردي بعصاه نحوها لكنَّه لم يصبها. وحتى أصبحت أنا جاهزاً لإطلاق النار كانت قد أصبحت في مأمن. ولو تمكَّنا من صيد طير كهذا لكان قد أفادنا جداً بعد هذه الفترة الطويلة من الحرمان. إلَّا أنَّ ما آلمني أكثر أنَّني اكتشفت أنَّه لم يبق لديَّ أي شيء لأدخنه: إذ إنَّ الشريطين اللاصقين الإنجليزيين، اللذين أغلقت بهما، وأنا غير الخبير في شؤون الترقيع، الثقب الكبير في كيس تبغي بإلصاقهما عليه بعناية من الخارج والداخل، لم يصمد أمام مطر البارحة الغزير، فقد ضاع، دون أن ألاحظ، كل ما في الكيس من تبغ حرصت على الاقتصاد في استهلاكه وعلى حمايته بمنتهى العناية والحذر. وكوني كنت عبداً للتدخين وقعت في حالة من الضجر والكآبة. راودني شعاع ضعيف من الأمل عندما رأيت خلفنا مجموعة من الرجال من قافلة الأرز المنحلة يقتربون منَّا. أنا، الذي كنت أشتم البدو الذين يشحدون التبغ بلا حياء أو خجل، لم أتورع عن محاولة تجريب حظي في هذا الفن الذي لم أمارسه من قبل. وبالفعل فقد نجحت؛ أحد

---

(1) تذكرت أثناء ذلك كتب الصور في طفولتي كيف كنت أرى الفرنسيين في الحملة العسكرية على روسيا يلتفون حول النار.

الرجال أعطاني كمشة من «الشاوري» الفارسي الذهبي الأصفر الذي جلبه معه من الحلَّة. ومن شدَّة فرحي أهديته سكِّين جيب فحصلت عند ذلك على تبغ ملأ كيسي بالكامل بعد أن ربطت المكان الممزَّق بواسطة خيط كطرف السجقة. كنَّا قد شاهدنا على طريقنا يوم أمس بعض عظام الإبل. واليوم تكاثرت هذه العلامات المميَّزة للطرق المطروقة كثيراً. فمن قافلة الحجّ الفارسية الأخيرة كان لم يزل هناك جيفتان. كانت الحيوانات المفترسة قد التهمت اللحم وبقي الجلد فوق العظم سليماً تقريباً. أليس من الممكن الاستفادة من جلد كبير كهذا؟ لم أر ولم أسمع حتى الآن أنَّ جلود الإبل قد تمَّ تصنيعها في بلاد الشرق أو عندنا في مصانع الجلود. أم إنَّني على خطأ؟

مررنا بالقرب من بئر خاصرة ووصلنا إلى الصخرة المزدوجة «الرُميمينات». وبينما كنت أنسخ الكتابات القديمة الموجودة هنا مرَّت في المنخفض جماعات متفرِّقة من قافلة الأرز وهي تغني. في المساء شاهدنا غديراً وقد شكَّل ساقية معتبرة نتيجة المطر الغزير الذي هطل يوم أمس. نزل محمود والشاوردي لكي يُحدِّدا أفضل موقع للعبور. كنت في هذه الأثناء أتحادث مع هوبر الذي كان على يميني وكانت ساقي اليسرى متدلية إلى الجانب. لم يحتج ذلولانا إلَّا قليلاً من النهر كي يعبرا الساقية. أمَّا الذلول الثالثة، التي كانت تسير بدون راكب، فلم تعبر الماء إلَّا بعد ضربها بالعصا، إلَّا أنَّها عَبَرته باندفاع شديد ممَّا جعلها تتجاوزنا بعد بضع خطوات. وعند مرورها بسرعة بالقرب منِّي ضغطت قدمي الجريحة بين قطعتي أمتعة ممَّا جعلني أصرخ بأعلى صوتي من شدَّة الألم. على إصبع قدمي الصغيرة كان الجلد مفتتاً إلى قطع صغيرة وكان اللحم ممزقاً حتى العظم. كان هذا جيداً كالعمل الجراحي وكان له، كما تبيَّن لي بعد بضعة أيَّام، تأثير إيجابي على استعادتي القدرة على السير. بالقرب من شعيب الشقيق خيَّمنا في قارا الإسلاف.

الجمعة 16 نوفمبر/تشرين الثاني 1883. دفعنا برد الليل ورطوبته إلى الارتحال قبل طلوع الشمس. قمت بنسخ بعض الكتابات القديمة عن صخرة صعليكة وبعد ذلك سرنا النهار بكامله بسرعة ثم في النهاية بسرعة أكبر بحيث

وصلنا إلى حائل (حايل) مع الإبل المنهكة بعد وقت قصير من غروب الشمس. ولما أبلغ عبد الله بوصولنا حضر على الفور وزودنا ليس فقط بوجبة طعام وإنَّما أيضاً بأخبار كثيرة ومتناقضة عن سير الغزو. ولقد جعلني الجوع والحرمان الطويل أشعر بأنَّ لحم الجدي لذيذ أيضاً، لكن المتعة الحقيقية كانت الخبز البغدادي والتمر. وبعد أن قمنا بحفلة تنظيف جذري وشامل لجسمنا عدنا في وقت متأخر من الليل إلى الراحة المستحقة.

الجزء الثاني

الإهداء في الطبعة الألمانية

إلى صاحب الجلالة

أوسكار الثاني

ملك السويد والنرويج

بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتوليه الحكم

وكان قد أهدي إليه الجزء الأوَّل من هذا الكتاب

تقديم الجزء الثاني

في العام 1896م، عندما صدر الجزء الأوَّل من كتاب أويتنغ «يوميات رحلة في داخل شبه الجزيرة العربية» كنت وقتئذٍ على مقاعد الدراسة، ولم أكن لأتوقع أن تسند إليَّ في يوم من الأيَّام مهمَّة تحرير الجزء الثاني من هذه اليوميات. وفي العام 1913 استجبت عن طيب خاطر وسرور للدعوة التي وجهت إليَّ لتولي هذه المهمَّة.

لقد دام ترقب أصدقاء أويتنغ فترة طويلة حتى اكتمل صدور كتاب يومياته، فهم لم يروا فيه عالِم نقوش وخطوط قديمة فحسب، بل كانوا يحترمونه باعتباره رحَّالة لا يكل ولا يمل وشخصاً فاضلاً. في السنوات التي جمعتني به في مدينة ستراسبورغ الجميلة شهدت بذاتي الكيفية التي كان يعمل بها، وأحياناً كان يقرأ لي فصولاً أو وصفاً لحدث من مخطوطه [مخطوط يومياته] المكتوب بعناية وقد ناقشنا سوية كثيراً من مشاهداته، وغالباً ما كان يجري ذلك في مكتبه بقصر روهان. حيث حصل كثير من المستشرقين على معلوماتهم حول النقوش، وبذلك كنت على اطلاع على جزء من مضمون اليوميات. وفي الوقت ذاته كنت إثر رحلاتي في فلسطين وسوريا والبادية السورية العربية ومصر والحبشة، قد حصلت على رؤية شخصية للشرق، وكان بوسعي الولوج إلى صميم الحوادث التي يصفها أويتنغ، وعلى وجه الخصوص العمل في مجال النقوش في تلك البلدان.

إنَّ وصفه لما لاقاه ولانطباعاته ومشاهداته ينم عن شخصية الرجل الظريفة تماماً، وقد كان على وجه الإجمال دون تكلّف وعلى سجيته وطبيعته.

ومثلما كان يبتهج بكل زهرة صغيرة في الطبيعة، فإنَّه كان يهتم بجميع الأحداث الصغيرة في الحياة اليومية التي كانت تحيط به. وباعتباره رسَّاماً فقد تعلَّم المراقبة الآنية، وكان يجيد أخذ الأمور بروح الدعابة الطريفة ويصفها للآخرين. وإنَّ القيمة الرئيسية لليوميات تتجلَّى تحديداً في الرسم التفصيلي للحياة في داخل الجزيرة العربية، ويُضاف إلى ذلك الكثير من الرسوم والصور من واقع مثل هذه البلاد البعيدة.

مداخل جزيرة العرب ما زال بلاداً غير معروفة نسبياً[1]. إلَّا أنَّه في زماننا حقَّقت أَوْرَبة[2] الشرق خطوات ضخمة. إنَّ شبكة سكك حديدية تخطّ سوريا وفلسطين، بينما لم يكن توجد في 1900م سوى سكتين حديدتين قصيرتين، لا بل يجهز لربط دمشق والمدينة بالحصان الفولاذي [القطار] وسيلحق بذلك بطبيعة الحال القضاء على بعض العادات القديمة وأنماط الحياة وستتعرض البلاد والناس للتغيير في مجالات كثيرة. إنَّ التدوينات التي وضعها أويتنغ ستحتفظ بقيمتها، ولو أنَّها تخرج للعامة بعد ثلاثين عاماً من كتابتها لأوَّل مرَّة، ولذلك لم يكن القيام بتحرير الكتاب في نظري بمثابة واجب عزيز للبرّ بصديق بل واجب تجاه كل من يهمه معرفة الجزيرة العربية والعرب.

لقد اتبعت في التحرير الأسلوب التالي: إنَّ الفصول 9 ـ 13 كانت جاهزة للطباعة، وهي مكتوبة بخطّ أويتنغ. وأمَّا الفصلان 13 و15 فقد قمت بإعدادهما على أساس اليوميات التي دوَّنها أويتنغ أثناء الرحلة. وأمَّا في حالة الفصول 9 ـ 13 فقد دقَّقت في ضبط الكتابة ووضع علامات الوقف على نحو أدق. من يقرأ الجزء الأوَّل بعناية سيلاحظ بعد حين أنَّ ضبط الكتابة من جانب أويتنغ كان حسبما يتجلَّى له. ولذلك وضعت جدولاً للتباين في ضبط الكتابة حفاظاً على أسلوب أويتنغ في الكتابة، وذلك على أساس الجزء الأوَّل، ووجدت أثناءه أنَّ الإملاء الألماني موطن

(1) يقصد بأنَّها غير معروفة لدى الأوروبيين.

(2) يقصد تزايد التأثير الأوروبي في الشرق في مجالات مختلفة.

للاحتمالات غير المحدودة، وقد تمادى أويتنغ في الاستفادة من هذه الحالة على نطاق واسع.

فقد كتبت بعض الكلمات بحرف s وأحياناً مشدَّدة ss وأحياناً أخرى sz وكتب كلمات أخرى بحرفي tz وأحياناً z أو بحرف ck هنا وبحرف k هناك إلخ... وفي سبيل وضع شيء من النظام في ذلك اتبعت أسلوباً أقدم لضبط الكتابة الألمانية يعود إلى السنوات 1860 ـ 1880م وحرصت على أن أبقي على واحدة من الاحتمالات المتبعة في الجزء الأوَّل، إلَّا أنَّ هذا لم يتسنَّ لي تحقيقه على نحو كامل، في حالة اسم وزير المال في حائل الذي يكتبه أويتنغ ناصر سبحان، وهو يُدعى تبعاً لهس Hess ناصر السبهان، توجب أن أثبت منذ البداية الصيغة الأخيرة.

وعلى كلِّ حال فقد وضعت بين قوسين مركنين [ ] كل ما أضفته إلى كلمات أويتنغ الواردة في الفصول 9 ـ 13. وهي ملاحظات أدين بمعظمها للأستاذ الدكتور ي. ي. هِسّ J. J. Hess. فقد كان الأخير يعمل في القاهرة مع عربي من الدواخل يُدعى مُوَهِّق بن عجاج(*) وقد تكرَّم وأجاب على عدد كبير من أسئلتي إمَّا مباشرة أو بعد الرجوع إلى مجموعاته، والاستفسار لدى مُوَهِّق وأشير بحرف H إلى كل ما أخذته عنه وإنَّ ما أسهمت به شخصياً من توضيح الفصول 9 ـ 13 ينسحب على مسائل لغوية أو يخص النقوش.

لقد عملت بمزيد من الحرية والاستقلالية في إعداد الفصلين 14 ـ 15، لا شكَّ أنَّه كان بوسعي أن أدفع اليوميات الأصلية للطباعة، عندها كان هذان الفصلان سيظلان بمثابة عمل منقوص، إذ إنَّ هناك الكثير لم يحظّ من جانب أويتنغ بأكثر من إشارة عابرة وقد صيَّغت بعض الجمل بأسلوب البرقيات. وفي سبيل عدم ترك هوة كبيرة بين الفصول 9 ـ 13 والفصلين 14 ـ 15 سعيت أن أتابع العمل على النسق نفسه الذي اتبعه أويتنغ في تأليف مخطوطه الجاهز

(*) ينظر ص11 من كتاب [**أسماء بدو من وسط الجزيرة العربية**] لجوهان جاكوبهيس كما ينظر ص68 من كتاب **بدو وسط الجزيرة**. (المراجع).

للطباعة، وفيما إذا وفقت في ذلك، فإنَّه أمر متروك لحكم القارىء. وإنَّ فرصة التدقيق متاحة دوماً لأنَّ اليوميات الأصلية لجميع رحلات أويتنغ مع رسومه عن الشرق سيحتفظ بها في مكتبة جامعة توبنغن[1]. إلَّا أنَّ كل ما أضفته موضوعياً إلى الفصلين الأخيرين وضعته هنا أيضاً بين قوسين مركنين [].

لقد قام د. كرنكر D. Krencker بإعداد جميع الرسوم تقريباً على أساس الرسوم الأصلية بريشة أويتنغ، وقد قضى أيضاً مدة طويلة في الشرق. وأمَّا النقوش فقد توليت رسمها بذاتي. واتبعت في الفصول 9 ـ 13 البيانات الواردة في الأصل بدقة ووضعت في الفصلين 14 ـ 15 غالبية رسوم اليوميات. وأمَّا بشأن الأطلس فقد أحلت عدَّة مرَّات إلى الجزء الأوَّل وإلى مخطوط الفصول 9 ـ 13، ولم يكن بالإمكان إعداده لأسباب مفهومة.

تجدر بنا هنا الإشارة إلى عدَّة تفاصيل. إنَّ المذكور في ص171 باسم يود زوشّ هو رجل المال يوزف وزشّ أوبنهايمر Yoseoh Süss Oppenheimer الذي كان له دور مشؤوم باعتباره صاحب المشورة في الشؤون المالية في حكومة دوق فورتمبرغ كارل ألكسندر (1733 ـ 1737م) وجرى إعدامه بعد وفاة الدوق وما زالت ذكراه حيَّة في فورتمبرغ حتى اليوم.

إنَّ الأماكن التي زارها أويتنغ قام بزيارتها لاحقاً، بعد تسيير القطار[2] كل من جوسن Jousson وسافينياك Savignac، وتوفر لهما مزيد من الوقت وظروف عمل في الحجر والعلا أفضل ممَّا حظي به أويتنغ. ويعتبر مؤلفهما بعنوان: «بعثة في جزيرة العرب» Nission en Arabie. مرجعاً لا يمكن الاستغناء عنه لأولئك الذين يشتغلون بدقَّة في مجال الآثار والنقوش. وتجدر الإشارة هنا بأنَّهما قد نشرا أيضاً النقوش العربية في قلاع الأخضر والمعظَّم وتبوك وتأكَّدت من صحَّة البيانات التي قرأها أويتنغ.

---

(1) وضعت قائمة بها في آخر التقديم.

(2) يقصد خطّ حديد الحجاز.

وأخيراً أتوجه بشكري إلى السيِّد الرئيس ا. أويتنغ شقيق المؤلف وي. ي. هِسّ ود. كرنكر وشركة بريل في ليدن.

وليكن هذا الكتاب الآن ذكرى لأصدقاء أويتنغ وتذكيراً برحلاته ولينضم أيضاً إلى أصدقائه القدامى أصدقاء جدد بعد وفاته.

غوتنغن
في غرة نيسان/أبريل 1914م
إنّو ليتمان



الأمير محمَّد بن رشيد
بريشة يوليوس أويتنغ «عبد الوهاب» ١٨٨٥م

الفصل التاسع

حائل (حايل)

17 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م -
22 كانون الثاني/يناير 1884م

في يوم السبت 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م، ومباشرة بعد الاستيقاظ كانت الفكرة الأولى التي راودتنا: كيف سار الغزو؟ ولنوضح ماذا يعني الغزو على وجه العموم[1]. أي حملة السلب البدوية أو الحملة الحربية، وكيف يتم تفعيلها. وما هي احتمالاتها وآفاقها ونسمع فيما بعد خاصة كيف سارت حملة ابن رشيد[2] الحالية. يمكن أن يقوم بعض من أفراد البدو بالغزو وبذلك فإنَّهم يجتمعون من تلقاء أنفسهم ويتحمَّلون الخطر بذاتهم بحيث يرتكبون أعمال السلب والنهب على أموال وممتلكات قبيلة غريبة. مثل هؤلاء الغزاة يتفادون أن يسفكوا دماً طالما أنَّه ممكن بأيٍّ شكل من الأشكال، لأنَّ عمل السلب المجرَّد هناك ينظر إليه بأنَّه مشرف تماماً لا بل إنَّه بالنسبة لمعظم الفقراء الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بموجبها الحصول على قميص جديد أو معطف أو سلاح ودواب ركوب. ولكن إذا ما سفكت ولو نقطة دم واحدة أثناء ذلك فإنَّه قد يؤدِّي إلى معارك ثأرية بين عائلات وقبائل لا يمكن حلّها. على أنَّه يدور الغزو على نطاق واسع بين قبائل بأجمعها. وتتعلَّق قوَّة وثروة قبيلة مباشرة بعدد حملات الغزو ونجاحها. وقد تحدث أحياناً في سبيل مكانة شيخ كبير ونفوذه إذا لم يكن حرصاً منه على الكيفية التي يحسن بها رفاه أفراد قبيلته ويزيد عدد دواب قطعانها بأعمال [غزو] ناجحة وبالطبع لا يمكن أن ينظم الغزو إلَّا ضدّ أفراد قبيلة غريبة ومعادية، وعلى وجه العموم ضدّ هؤلاء الذين

---

(1) لقد انتقل الاسم العربي أيضاً إلى لغات الغرب بصيغة رزية Razzia المحرفة. حقاً فإنَّ غزو العمالقة جرى وصفه في سفر صموئيل الأوَّل **الإصحاح**، 30 [في العربية يشتق لفظ غزو وغزية من المصدر نفسه ولهما نفس المعنى. واللفظ الأخير انتقل في وقت من الأوقات إلى اللغات الأوروبية. بأن تلفظ (ر) مثل (غ) وعلى الأرجح انتقل ذلك من الجزائر إلى فرنسا].

(2) غالباً ما يلفظ الاسم في جزيرة العرب ابر رشيد.

لم يدخلوا حتى حينه في حلف أو لم يتفاهموا على دفع إتاوة، في وسط جزيرة العرب المالية يقوم نظام حكم منظَّم إلى حدٍّ بعيد بالنسبة للظروف البدوية في ظلِّ قبضة يد محمَّد بن رشيد القوية، وبذلك فإنَّ الغزو يُشكِّل عملية واسعة. وأمَّا ما يخص العناصر الأصغر المشاكسة على حدود دولة شمّر، فإمَّا أنَّه قُضي عليها أو ضُمَّت، أو أنَّها تدفع الزكاة دون تردُّد وبانتظام. إذ لا تؤخذ في الاعتبار سوى القبائل الكبيرة جداً والقوية مثل عنزة في الشمال، وعلى وجه الخصوص الرولة، وفي الغرب وِلْد علي وبلي وجهينة، وفي الجنوب مطير وحرب وقحطان[1]. وفي الجنوب الشرقي المنافس القديم ابن سعود في الرياض في الوطن الأُمّ للوهابيين. وينتشر هؤلاء بمجملهم على مسافة 500كم على الأقل من العاصمة حائل (حايل)، إلَّا أنَّهم يبدلون مواطن رعيهم على الأرجح على هذا القدر من المسافة، ويجب أن يوضعوا تحت الرقابة للحظة الحاسمة بناءً على ذلك لا يمكن التفكير بأقلّ من ثلاثة إلى أربعة أسابيع يستغرقها المشاركون في الغزو للعودة إلى ديارهم. ولا يمكن لأيٍّ شخص دون سبب وجيه الإحجام عن المشاركة الشخصية في الخدمة الحربية. وعلى كلِّ حال ينبغي عليه أن يدفع ضريبة الحرب ويمكن أن تكون مالاً، أو إقراضاً من السلاح والدواب، أو تجهيزات أخرى. ويجب أن يزوَّد الرجال بمواد غذائية (تمر) تكفي لمدة شهر، ولا يمكن أن يصطحبوا معهم من الدواب سوى تلك القادرة على تحمُّل الإجهادات غير العادية من كل النواحي. وما أن يُخطَّط لغزو حتى تحجب أية إشارة إلى ذلك عن الخارج[2].

وعلى كلِّ حال لا يعرف سوى الحاكم ومجلسه العسكري الجهة التي سيوجه الغزو ضدّها. في اليوم والمكان المحددين يحشد 4000 ـ 5000 من ممتطي الإبل، وما أن يظهر الأمير بذاته، حتى يتحرَّك الركب في سير مفكك، وتموج الصحراء يومياً على مدى 21 لا بل 22 ساعة بالجموع الحيوية، وهم يكتفون بساعتين للنوم، وإلى جانب ذلك ينبغي أن تعلف الإبل بتمر يابس أو

(1) يعتبر هِسّ الزكاة مثل الضريبة ويكتب أسماء القبائل على الوجه التالي: عنزة، روالة، وِلْد علي، بلي، جهينة، مطار (عند الحضر مطير). حرب قحطان.

(2) انظر الجزء الأول.

بضع حفنات من الدقيق، وتقوى الخيول بالشعير وتُسقى من الماء الذي يحملونه معهم.

وإذا ما حصل أمر مناسب، فإنَّه يبلغ في مساء اليوم العاشر من جانب أحد المستطلعين (العيون)[1] السريعين، بأنَّ القبيلة المعادية تنزل في الموضع والموضع الفلاني في خمس أو ست مجموعات على امتداد مسافة ساعتين حتى ثلاث ساعات، ويخشى أن يحملوا خيامهم ويرحلوا في الصباح الباكر، لأنَّ جميع المنطقة قد تمَّ رعيها برمَّتها. عندها يفعل كل شيء بحيث تتمّ مهاجمة العدو قبل انبلاج الفجر. وتدفع الدواب المكدودة إلى الإجهاد الأخير لتجربة القوَّة الحاسمة، ويجب أن يحصر العدو ضمن قوس واسع، ويقتحم ممتطو الإبل النجع مثل إعصار. وفي دقائق قليلة تنجم فوضى متداخلة من الناس والدواب تختلط فيها أصوات الرجال للدعوة للحرب وعويل النساء والأطفال وحنين الإبل، وهدم الخيام، وتنطلق الأغنام والماعز المسعورة عبر مواقد التجمع شبه الخامدة وتطرح أرضاً، وقد ذبحت أو ضربت بالسيف. ويهرع الفارون للنجاة في جميع الاتجاهات يحملون معهم ما استطاعوا جمعه في اللحظة الأخيرة، إلَّا أنَّهم يجعلون الإفلات منهم منهكاً. وقد امتطى أفضل الرماة بين المطاردين خيولهم[2] التي اقتادوها معهم دون خيَّال ويقنصون منهم ما اعتقدوا أنَّه مخبأ. وقد يفلت أفراد تحت جنح الظلام على ذلول مهمل وتهرب مئات من الغنم والإبل. ويختفي هذا مقابل الحشد الضخم المحاصر من الناس والمواشي، وقبل كل شيء تؤخذ من المهزومين الأسلحة والرقيق والفتيات والنساء، طالما أنَّهنَّ محطّ رغبة، ويدفع الرجال إلى البؤس شبه عراة وقد أخذ منهم مالهم وممتلكاتهم. ولا يترك شيء لهؤلاء التعساء، وحتى أتفه المعاطف وقدر مثقب، وأحقر أوتاد الخيمة، وقطعة خشب بطول قدم ينظر إليها بأنَّها جديرة بالجهد بأن تحمل إلى الديار كقطعة من الغنيمة. إلَّا أنَّ توزيع الغنيمة يتمّ على أساس الوجاهة ولا يعتد بالأداء إلَّا فيما بعد. في القديم كان

---

(1) يذكر هِسّ أنَّ عيون ابن رشيد أو ابن سعود هما مستطلعان يتقدَّمان غزو ابن الرشيد أو ابن سعود.

(2) انظر الجزء الأوَّل.

الأمر يتعلّق بالأكل والشرب فقط؛ ومن بعده الاستراحة والنوم. في البداية يصدر الشيخ الكبير الأمر بأن يذبح ألف رأس من الغنم أو الماعز دفعة واحدة ـ لأنَّه يحسب لمعدة كل خمسة من البدو واحداً منها ـ. وبإشارة يد تلتهب النار ويلتهم اللحم نصف ناضج، يُضاف إليه الجرعة الأخيرة من القربة، وبعدئذٍ النوم ثم النوم. ويقوم الحراس بإيقاد النار بحيث يحافظون على عيونهم مفتوحة بجهد جهيد وحتى تنتهي النوبة غير المحدَّدة تظلّ النرجيلة عامرة. تكون الإبل على درجة عالية من الإجهاد ممَّا يجعلها تترك الرعي، وتستلقي على الرمل برقابها الممدودة ويستلقي المقاتلون بينها يشخرون والسلاح في أيديهم، ولا يوقظهم لا ثغاء الغنم الجياع ولا شكوى النوق التي لم تحلب، إنَّه أفضل نوم لكتيبة مدفعية في كنيسة، وإذا مرَّ يوم الحساب بأبواقه من هنا قد لا يسمعها أحد: سبات لا حراك، مثقل بدوخة النوم.

أمَّا وضع المقهورين التعساء المنهوبين فمغاير تماماً. لقد ضاع المال والملك والمرأة والأولاد، وتركوا للجوع الشديد مجرَّدين من كل شيء يملؤهم التعطش للثأر واليأس، وليس في ذهنهم سوى التفكير كيف يمكن أن تدور الدائرة، وهذا يعني أين يمكن العثور على أقرب الحلفاء الأقوياء؟ لقد تمَّ إنقاذ بعض من رجال السباق الماهرين الذين قد يجتمعون ويقدمون قائلين ما يخالف. ساعد بقدر ما يمكنك المساعدة. ولم تمض ثمانية أيَّام حتى كان بالإمكان، في الشرق عند سفوح الجبال الزرقاء، مشاهدة الخطوط السوداء للخيام الصديقة وتمييزها بوضوح. والآن إلى أين توجهوا. من سيعثر عليهم أوَّلاً. متتبعين آثار [الأقدام] ينطلق الشبان الصغار وخلال 24 ساعة يقطعون مسافة 200كم. وما إن تتراءى لهم الخيام مع انبلاج الفجر حتى يغدوا هم ذاتهم طلائع غزو، ويتمّ التحقق منهم بعد حين من جانب من ينتظرون وصولهم بقلق وتوتر، فتجمع الدواب[1] أمام خيمة الشيخ ويحيط به الرجال الجاهزون لحمل السلاح ويروي الشبان بسرعة ما حدث. والحاسم هنا ليس الوصف المؤثِّر للتعاسة

---

(1) يحسب الأحباش أيضاً جدي لكل خمسة رجال انظر:

Littmann. **Publication of Princetan**. Expedition to Abyssiai vol. 4. P. 606, vol. 5, P. 9.

وإنَّما التطلُّع إلى غنيمة وفيرة. وما من أحد بحاجة إلى مشاورة طويلة لمشايخ القبيلة. إذ إنَّه قد حسم الأمر بالإقدام على المغامرة الخطيرة. خلال نصف ساعة تنجز جميع الترتيبات ويتمّ الركوب والانطلاق. وفي صباح اليوم التالي يلتقون مراسلاً سريعاً تابعاً لقبيلة ترعى مواشيها على مسافة أربعة أيَّام غرباً، ويتلقّون الأخبار بأنَّ أصحاب السلب قد اتجهوا شمالاً مع غنيمتهم، وفي الوقت ذاته تلقّوا التعليمات بحشد كل القوى في محيط الجبال على الجانب الشرقي، وأن يحاولوا سدّ المخرج من المعبر من جهة الشمال، في حين يتولَّى الأصدقاء الضغط على أصحاب السلب من الغرب والجنوب. وفي الحال يجري التوجه نحو الشمال الغربي. وفي اليوم الخامس أغلق المعبر من الجهة الشمالية، واحتلت الصخور واستلقى الرماة في ظلٍّ حماية معقولة. لقد أزفَ الوقت، فقد أخذت مجموعة من الإبل المحمَّلة تحشر نفسها خلف الشعيب الوعر الذي يصعب السير فيه، وأنذر أزيز رصاص البنادق بضغط المطاردين، وأخذ إطلاق النار ينصبّ من كل جهة على الجماعة المتوقفة. ولم تجد شيئاً محاولات بطولية في تغيير الموقف الميؤوس. وسقط صرعى بما فيه الكفاية، وإنَّ متابعة المقاومة لا تجدي شيئاً على الإطلاق. وجرى الاستسلام دون شروط وإخراج السلب. وقبل أن تميل الشمس للغروب تغيَّر الموقف. لقد غدا جماعة السلب المغرورون شحَّاذين عراة، وأخذوا يجرجرون معهم جرحاهم تحت جناح الليل تطاردهم أهزوجات السخرية من جانب المنتصرين الجسورين. البعض منهم يطلقون لعنات والآخرون يتمتمون: «لا قوَّة إلَّا بالله». وإذا ما نظروا وراءهم يشاهدون القتلى، وهذا يعني أنَّهم قد ستروا بكومة حجارة. وعليهم أن ينظروا كيف سيجري تقسيم الملك المستعاد إلى جانب الغنيمة. وتنتصب بين النساء إحداهن متغنية ارتجالاً ببطولات قبيلتها الجديدة. وتستمر حتى حوالي منتصف اللّيل حتى تخمد النار وتخفت الأغنيات.

1 ـ الآن كيف سارت الأمور في الغزو الأخير الذي قامت به شمّر. كان بشير الأمير الذي وصل في اللَّيلة الماضية قد بذل جهداً كبيراً رغم الحصافة الطبيعية في الحديث عن النتائج الضعيفة للغزو. كان هذا الغزو قد

توجَّه ضدّ مطير في القصيم[1] جنوبي وادي الرمَّة. في اليوم السابع أو الثامن، وقبل بزوغ الفجر اصطدم جماعة الأمير أوَّلاً بوحدة صغيرة من فرسان مطير كانت في طريقها إلى السلب. وأثناء تبادل إطلاق الرصاص فَقَد البعض حياتهم وتسنَّى لآخرين الفرار. أمَّا المجموعة الرئيسية من مطير فكانت تنزل مع قطعانها في سهل بعيد. وكان بوسعهم أن يلحظوا ركب شمّر من على مسافة ساعتين. وما أن شاهدوا الزحف حتى صدر على الفور إنذار عبر النجع بهدم الخيام وحزمها وبعثرة القطعان، ولم يعد بالإمكان التفكير بالإحاطة بهذه الجماعات المسرعة بالابتعاد عن بعضها البعض. وقد يصل عدد ما وقع في أيدي شمّر بضعة مئات من الإبل، وربَّما 3000 رأس من الغنم، وهذا يعني لا يزيد كثيراً عن طعام ثمانية أيَّام من اللحم. وأمَّا ما تمَّ الحصول عليه من الخيام والمؤن والسلاح والألبسة فلا يستحق الذِّكر كما يبدو. وباختصار فإنَّ الغزوة قد باءت بالفشل. لقد أحضر لنا رسول الأمير رسالة من حمود المجراد يذكر فيها خاصة جميع الأمكنة والجبال والوديان، وخاصة مواضع النجوع. ورغم أنَّ الرسالة تكتظّ بالأخطاء الإملائية إلَّا أنَّها كانت بالغة الأهمية لنا.

أثناء النهار رسمت كثيراً، وعند المساء وصل رجل يتوكأ على عكَّازين وقد أصيب قبل سنة ونصف بخمس طلقات في جسمه، وشفي أربعة من الجروح، وأمَّا الرصاصة الخامسة التي هشَّمت رأس عظم الفخذ الأيسر فما زالت في الجسم، وكانت تخرج من موقع الطلقة في موضع الورك شظايا عظمية وقيح كثير. ومن خلال الفحص السطحي بالمجس لم يكتشف أي أثر للطلقة. وفيما عدا الهزال الشديد فقد تعافى جيداً من الجروح. وكان منشرح الخاطر. ولكن كان الوقع عليه ثقيلاً عندما أُبلغ بأنَّه من المحال علينا، أن نضع له بديلاً عن قطعة العظم المهشَّمة والمتقيِّحة.

وما أن انصرف وهو يعرج، حتى حضر الشحَّاذ المتجول غانم وعاود التلويح بالمسدس. ماذا يجدر بي أن أقول؟ لا شيء. وكان يحلو لي تماماً أن يحضر مفرّج ويضع حدّاً للشحَّاذة.

---

(1) يذكر هِسّ: أنَّ مطير كانوا في الأصل في القصيم، إلَّا أنَّهم وحسبما قيل لي، رحلوا شرقاً.

لقد روى فيما يخص 200 حمل أرز، التي وصلت بالأمس بأنَّها تكفي ما بين 20 ـ 25 يوماً، ويزن الحمل قنطارين[1] ويحتوي ما بين 20 ـ 100 صاع. إذا ما كان الحجّ ضخماً فإنَّهم يحتاجون في القصر لإطعام الحجّاج والبدو في كل يوم حتى 800 صاع، وهذا يعني حوالي ثمانية أحمال جمل. لقد أبدى مفرّج رغبته، بأن يشاهد صورته[2]، وعبَّر عن رضاه التام عنها. كما رغب غانم وابنه محمَّد الذين حضرا في تلك الأثناء، أن يشاهدا الصور الأخرى لجوهر وعبد الله المسلماني[3]. وعندما تأمَّل غانم صورة عبد الله علَّق تعليقاً مقذعاً ومنحطاً (قواد ابن قحبة)[4] ولم أفهم التعليق وكذلك هوبر. ولسوء الحظ أنَّ عبد الله كان يقف لفترة طويلة أمام عتبة الأبواب المفتوحة متخفياً، وسمع كل شيء. وفجأة دخل وقد استشاط غضباً، وبدأت بين الاثنين شتائم عنيفة. لقد كالوا السباب لآبائهما وأولادهما. ووصم غانم بأنَّه يهودي[5]. فأجابه هذا: «على كلٍّ حال إنَّ أبي وأخي يهوديان، وعلى الأقل لي دين، ولكن من أنت حقاً إنَّك ابن شراري لا تعرف أباك (يا ولد الزنا)»[6]. لقد كان المشهد بالنسبة لنا غاية في الإحراج، وكذلك الأمر للعجوز مفرّج الذي سعى بوقاره الأبوي أن يحلّ النزاعات وبذل جهداً لإبعاد عبد الله عن غانم. وأخيراً غادر غانم البيت مع ابنه ومن بعده مفرّج. ولم يبق هنا لبعض الوقت سوى عبد الله

---

(1) لقد شرح لي بأنَّ الحمل يبلغ ما بين 150 ـ 200 وزنة، وهذا يعني ما بين 219 ـ 292 كغ وهذا ما يتفق مع بوركهارت ص359 Nurckhardt إذ يقول: إنَّ الجمل يحمل في الأسفار القريبة ما بين 3 ـ 4 وفي الأسفار البعيدة ما بين 4 ـ 5 قناطير. وإنَّ بياناتي تستند إلى أقوال العرب الحضر ويرى موهّف بأنَّه مبالغ فيه ونقرأ عند Leonards, **The Camels**, London 1894, P.187. بأنَّ الكبابيش في بلاد السودان يحملون وسطياً 300 وزنة ويبلغ الصاع في القصيم 3 مدود أي 3× 1,33 ليتر = 4 ليتر.

(2) انظر الجزء الأول.

(3) انظر الجزء الأول.

(4) وردت في هامش النسخة الأجنبية بالعربية.

(5) يا يهودي لعن الله والديك.. (كلام يجرح الحشمة انظر الأصل ص8).

(6) وردت أيضاً في هامش النسخة الأجنبية بالعربية.

بحيث يسترد أنفاسه. وإنَّ الترضية الوحيدة التي تمناها أن يعلم الأمير عند عودته بتصرف غانم من جانبنا.

أخيراً حضر أيضاً الحدَّاد حسين. وعندما وجدني منشغلاً بجروح قدمي أشار إلى ندب بعض الدمل على بطن ساقه اليسرى[1] مثلما هي عندي. وزعم أنَّها تنجم عن الماء، وقد استمرت لديه طيلة أربعين يوماً. وقد تحدَّث عن مسيحي قام منذ عهد غير بعيد بذبح نفسه في مكَّة، ثُمَّ عن مسيحي آخر لم ينزل مكَّة فحسب بل اشترى بيتاً فيها بتقديم رشوة إلى الشريف، ونتيجة لإلحاح الأهالي نصحه الشريف بذاته أن يرحل عنها ويتحول إلى جدة. إلَّا أنَّه ذبح أثناء الطريق على يد البدو. وبعد ذلك وقع قتال بين البدو والجنود العثمانيين. ونتيجة لهذه الأحداث ـ سقط في إثرها 50 قتيلاً من الجانبين ـ تقدَّم البدو حتى جدَّة دون عائق. ويقول: إنَّ هذه الأحداث وقعت قبل بضعة شهور. وعلى الأرجح أنَّها تمثل الخبر الذي وصل إلى دمشق في 25 آب/أغسطس 1883م بأنَّه اجتياح تتري لجدَّة من جانب البدو.

الأحد 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م، من كان يعتقد أنَّنا سنشهد هنا إضراباً؟ بالأمس صرَّح خادمنا محمود أمام عبد الله بأنَّه ينبغي أن يحصل على أجر أعلى، إذ إنَّ هوبر لم يبلغه في دمشق بأنَّ عليه أن يقوم بخدمة شخصين، وأنَّه يطلب لخدمة شخص واحد 300 غرش شهرياً (حوالي 3 ليرات نابوليونية) وللسفر إلى كل مكان. ولكن ليس لخدمة شخصين. وعدد الأجر الذي يطالب به حالياً 500 غرش أي ($4\frac{1}{2}$ ليرة نابوليونية). ولكن خاب ظنَّه لأنَّه لا غنى له عنه، وبعد حين أذعن. وبعد أن تجول في أنحاء المدينة لبضع ساعات مغروراً، عاد الساعة الثالثة بعد الظهر إلى البيت صامتاً، وسلَّم ـ مطرقاً ـ البندقية والمسدس ومفتاح البيت وما شابه ذلك، وغادر البيت مع بعض الأغراض. وإنَّ عبد الله الذي أشفق عليه وأمَّن له حجرة يأوي إليها، سيعمد إلى جعله يعود إلى جادة الصواب. في القديم كنَّا سادة وخدماً مع بعض. لقد أبلغنا الشيخ نايف بن عتيق من جبَّة في رسالة، بأنَّه لا يمكنه حالياً أن يلبي

---

(1) انظر الجزء الأول.

طلبنا بالحصول على واحد أو على زوج من بقر الوحش[1] (غزال كبير أبيض اللون)، لأنَّه لا يتوفر حالياً لديه إلَّا أنَّه سيسعى لتوفيره لنا في أقرب وقت. وقد أحضر الرسالة إلينا عامر بن غانم الذي التقيناه في وقت سابق في الجوف[2] بين عساكر الشيوخ. ثم أتى بعده أخوه محمَّد بن غانم واعتذر عن أبيه بقدر ما يمكن بسبب الحادثة التي سبَّبها مساء أمس لعبد الله في بيتنا.

بعد استمرار سقوط المطر طوال اللَّيل حدثت عاصفة عجيبة ما بين الساعة الثامنة والتاسعة، لقد غطَّى الماء بارتفاع نصف قدم الفناء بأجمعه، بحيث لم نجرؤ على السير أي خطوة بعد العتبة، ولم يكن بوسع هوبر الوصول إلى موضع بيته المعتاد تحت السقف، واضطر للبقاء في الطابق الأرضي. أثناء اللَّيل استيقظت على خشخشة عندما أخذ المطر ينفذ إلى الغرفة المجاورة من السقف وتتساقط نقطه على حقائبنا.

أبلغ رسول الأمير الآخر ويُدعى النتَّاف الناس في المدينة عن وصول الشيوخ غداً باكراً، وأعلن للنساء أنَّه قد حان الوقت بحيث يتخذن زينتهن بمناسبة عودة الرجال الوشيكة.

الاثنين 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. إنَّ ما أحدثه المطر من خراب أثناء اللَّيل في الفناء وفي السقف، جرى ترميمه في الحال من جانب العبيد. وقد أخبر عبد الله عن بيته بأنَّ الخراب تطرق إلى كل شيء فيه أيضاً وأنَّ ساقية عميقة تجري عبر السوق (البازار) في الشارع الرئيسي. حوالي الساعة 9 أقام الأمير ممتطياً حصانه بصحبة مرافقيه حفل دخوله إلى المسحب (ميدان القصر). بعد نصف ساعة وصلت الراية، ولمَّا كان المطر ما زال يتساقط رذاذاً، طلبت الاعتذار عن عدم حضوري حفل الاستقبال، منذ إصابة قدمي بالجروح التي تعزى إلى تكرار استعمال الماء البارد. التزمت بالوجل العربي من الغسل الزائد والبلل. عندما توقف تساقط المطر قمت بعدَّة زيارات لناصر السبهان الذي لم أجده في البيت، ومن بعده ليوسف العتيق وأخيه ناصر

(1) يذكره هِسّ باسم بقر الوحيش ويرد عند غراي E. Gray باسم أوضيحي.

(2) انظر الجزء الأول.

العتيق (أمين سرّ الشيوخ) وقد وهبتهم شفرة سيف وكسّارة إسبانية. ولكن من هو الذي صادفت في السوق أثناء مروري فيه راكباً وقد جثا على الأرض في أبهة تامة مثل تاجر إيراني يدخن نرجيلته، إنَّه خادمنا السابق، الرجل الحر حالياً محمود، لقد نهض بجدية احتفائية وحيَّاني مع كل واجبات الاحترام، وحييته مع كل تفضل. ويبدو أنَّه خلال الوقت القصير للأبهة قد فطن لما يمكن أن تجرُّ إليه لعبته السخيفة وإضرابه. ولكن أي كيان سيقيم بين البدو بليراته النابوليونية القليلة التي يحملها في جعبته، فالأمير يمكن أن يرحله إلى أسرته في معان باعتباره تركياً قصر الوقت أو طال. ومن المؤكد أنَّ عبد الله قد غسل مخه مع الوقت ولذلك سارت الأمور حسب المتوقع. فقد عاد بعد الظهر إلى خدمتنا وبعد أخذ ورد لمدة قصيرة وافق على العمل لدينا من جديد طبقاً للشروط السابقة. دون أي تغيير في الأحوال.

لقد أكمل حمود المجراد الأخبار الأولى عن الغزو بالرواية الشفوية التالية بقوله: توجَّه الغزو ضدّ قبيلة مطير. أثناء الطريق التقى عند الظهيرة عشرة من أفراد هذه القبيلة وبادروا فوراً إلى إطلاق النار، وأصابوا ثلاثة من خيوله الشيوخ. وفي إثر المطاردة التي بدأت على الفور جرى اللحاق بسبعة منهم، وقطعت رؤوسهم ببساطة. وأمَّا الثلاثة الآخرون فقد فروا دون أن يلحقوا بهم في اللَّيل واليوم الذي تلاه واللَّيلة الثانية. والسبب مفهوم، ويعود إلى أنَّ هؤلاء لم يمكنهم إبلاغ أبناء قبيلتهم بالغزو. وفي صباح اليوم الثالث وعندما كان الجميع بطبيعة الأمر شبه منهارين، وصلوا إلى سهل واسع لا يسمح باقتراب مستور، وكان مطير ينزلون في موضع بعيد منه. وكان أمامهم فسحة من الوقت للفرار إلى الجبال إلَّا أنَّهم اضطروا أن يخلفوا قطعانهم من الغنم والماعز. وزعم حمود أنَّ شمّر ذبحت منها 10,000 رأس في ليلة واحدة. ومتابعة لمجرى الأحداث فقد اصطدموا أيضاً بعدد من المحاربين الأعداء، وقتلوا عشرين منهم ببنادق المارتين. أثناء المطاردة ضلَّ حمود ذاته الطريق، وبناءً على أوامر الأمير اتخذت جميع الترتيبات بأن يقصدوا المكان ثانية. وقد عانى حصان حمود نتيجة الإرهاق، ويأمل بالحصول على بديل له من جانب الأمير.

في المساء تحدثنا كثيراً مع حمود حول خطط رحلاتنا في المستقبل. وهو يرى إذا ما كنَّا نرغب بالتوجه إلى سدوس وشقرا فإنَّ رسالة توصية وحيدة صادرة عن الشيوخ ذات قيمة أكبر من جميع الهدايا التي نصطحبها. وقال: «لأنَّه يجدر بك الآن أن تكون قد فهمت العرب». فإذا ما أهديتهم إبرة، فإنَّهم يرغبون بسكين، وإذا أهديتهم سكيناً، فإنَّهم يرغبون بمسدس وإذا كان لديهم مسدس فإنَّهم يحتاجون بندقية أيضاً، وإذا كانت لديهم بندقية فإنَّهم يتطلعون أيضاً إلى مدفع. وإنَّك تجد ذلك في حالتي، فقد أهديتني مسدساً وقد طلبت في الحال بندقية ذات فوهتين.

الثلاثاء 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. قام غانم بتسليم علبة فضية طلبها هوبر لساعته (كرونومتر)، وحصل بمقابلها على 15 ليرة مجيدية(*). وحصلت أنا على رأس غليون من تاجرين إيرانيين من باب التبجيل؛ عند الظهيرة كان علينا أن نتحمل زيارة طويلة من جانب الأمير ماجد الذي ورث أو تعلَّم جشع الاستجداء من والده حمود العبيد. في البداية أراد الحصول على وسادتي الهوائية، بعدئذٍ ورغم أنَّه حصل على مسدس موزر هدية منِّي، إلَّا أنَّه تطلَّع أيضاً للحصول على مسدسي الصغير بالإضافة إليه، ورفضت كِلا الطلبين. وكان العجوز قد حاك ثانية أقصوصة طريفة تماماً. في مساء هذا اليوم روى عبد الله، أنَّه أثناء النهار أرسل حمود العبيد رسولاً وأمره أن يقول له بأنَّه ترامى إلى مسامعه أنَّه قد تلقَّى ساعة هدية من جانبنا. والحالة هذه فإنَّه يرغب فقط برؤية الساعة، ونحن لم نعلم شيئاً عن ذلك. ومن المؤكد أنَّ لعبد الله كل الحق أن يخشى من الرؤية المجرَّدة لساعة حمود العبيد. لهذا السبب رأينا، أنَّه يجدر به أن يقول، أنَّه لم تهدَ له الساعة بل سلِّمت له من باب الإعارة المؤقتة للتباهي ولو أنَّنا لم نتوخ الكثير من هذه الحيلة. وقد أصاب الأمر الوحيد الصحيح حمود المجراد الذي انضمَّ إلى المجموعة مدلياً بنصيحته المؤلمة على كلٍّ حال بأنَّه من الحكمة أن يضع الساعة في أقرب الأوقات، وقدر الإمكان بلطف، عند

(*) الأصل: مجيدي وسنترجمها حيث ترد ليرة مجيدية باعتبار أنَّها ضربت في عهد السلطان عبد المجيد (1839 ـ 1861م) (المترجم).

قدمي حمود العبيد. لا شكَّ في أنَّ الجشع سيأتيه بهدية لا يستهان بها إلَّا أنَّ ساعة عبد الله ستنتهي في نهاية الأمر.

ودعنا اليوم الشيخ محمَّد بن عطية[1] إذ إنَّه سينطلق غداً متوجهاً إلى موطنه يرافقه عنيبر[2] الذي يجب أن يجبي الضرائب من القبائل الغربية.

الأربعاء 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. في الواقع قام حمود العبيد وفي حلكة ظلمة الفجر بزيارة عبد الله، وأخذ منه الساعة ببساطة، وسلَّمه بالمقابل ساعة أميركية غير صالحة، وربَّما لم يسلّمها عن طيب خاطر بل بسبب ما يُروى عنها. إذ كانت صورة الرئيس لنكولن ظاهرة على صفيحة الأرقام، وكان من مساوئها أنَّها تؤخر يومياً عشر دقائق. وكان بوسعي وبمعرفتي الميكانيكية الضحلة أن أصلح هذا العطب، وقمت بدهنها بالنفط بدقة نظراً لانعدام الزيت الأخف.

لقد قال حمود المجراد بكل سذاجة، إنَّه بعد أن مضى الغزو بنجاح، فإنَّه لا يضر في شيء حقاً، إذا ما قام مرَّة أخرى بتنظيف داخلي شامل لجسمه، وإنَّه لن يخشى من قوَّة أي دواء، وتلطف وأضاف إلى ذلك فيما بعد قوله إنَّه الأنسب ولا شكَّ أن تجري المعالجة في منزلنا. وأن نعطيه خلال عشر ساعات ثلاث نقط من زيت الكروتون مع السكر.

بعد الظهر أمر الأمير بإحضار كراس رسومي التخطيطية بحيث يشاهد صور مفرّج وغانم وعبد الله. وفي المساء استدعينا بذاتنا إلى الأمير والذي بدا مرهقاً وتبدو عليه علامات الشيخوخة. وأمر بوضع معادن مختلفة أمامنا. كان قد أمر أثناء الغزو بجمعها من أجلنا: أحجار ثمينة، رأس زجاجي، أصداف صغيرة متحجرة، وشظايا متوهجة، وكان لديهم شيء من الأمل أن يكون بينها شيء من الذهب. إنَّ صديقي السمج حمود العبيد الذي كان لي الشرف بالجلوس إلى جانبه استفسر فيما إذا كنَّا أثناء جولتنا نحو جلدية[3] لم نصادف فحماً حجرياً.

(1) انظر الجزء الأول.

(2) انظر الجزء الأول.

(3) انظر الجزء الأول.

وعدا عن ذلك أراد الحصول على معلومات عن المواد الانفجارية الحديثة (نتروغلسرين) ومدى تأثيرها وعن قنابل الاغتيالات وما يشابهها. ثم طلب أن تشرح له طبيعة واستعمال بندقية هوائية. وهي ملقاة كهدايا منذ سنوات عديدة في القصر دون أن يفهم أحد أسرار البندقية. وعند الوداع تفضَّل علينا الأمير بتقديم 50 من الليمون الحلو وجراب مليء بالتمر اليابس، كان قد جهز له خاصة في مدينة عنيزة. ورداً على السؤال فيما إذا كانت لدينا أية رغبة، طلبنا فانوساً من النوع الأكبر.

الخميس 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. لم نسمح للأمير ماجد بالدخول وهو الذي لم يدع وسيلة مبتكرة للاستجداء إلَّا وجرَّبها. ومن المؤكد أنَّه واحد من المشاعر الأكثر إزعاجاً أن يقف المرء هادئاً خلف باب، ويسمع في الخارج شخصاً يقرع الباب ذاته لمدة خمس دقائق مع انقطاعات وهو ينادي. وبالمقابل فإنَّه من المسلي النظر إليه خفية أثناء انشغاله بذلك. وهكذا فقد استمتعت بأن صعدت إلى السطح وانبطحتُ على بطني. وأشعلت غليوني وراقبت بهدوء جميع الارتسامات النفسية ودلائل السخط: غير معقول، لا بُدَّ وأنَّهم في البيت. وقد أكَّد الجيران أنَّهم رأوا قبل قليل الخادم محمود، وهو يدخل إلى البيت. وبالتالي فإنَّه على كلِّ حال في البيت. وربَّما على الأرجح كان في الفناء الخلفي، وهو لا يسمع ذلك. ولهذا يجب القرع بصوت أعلى ـ كل شيء هادىء، مزيداً من الإلحاح؛ الآن يجب أن يكونوا قد سمعوا هذا. إذاً يجب أن يكون محمود قد غادر البيت في الحال، وفي نهاية الأمر نفد صبر ماجد وانسحب مع عبيده. وما إن أصبح الشارع خالياً وكنت متأكداً أنني لن أقع في الحال بين يديه تسلَّلت إلى حدّاد الأسلحة غانم بحيث أشاهد السيف الذي طلبته منه، ومن هناك توجَّهت إلى ساحة المقبرة في شمال المدينة من الخارج حيث يدفن أبناء الأسرة الحاكمة وآخرون. لقد تمَّ نقش أسماء المدفونين هنا على حجارة خالية من الزينة، وقلَّما جرى نحتها، واتخذت النموذج التالي:

N^0:1[1]

عبد الله بن رشيد
رحمه الله
1843م

N^0:2[2]

توفي طلال بن رشيد
قدّس الله روحه
سنة 1284هـ
17 ذا
+1

N^0:3[3]

فيصل بن رشيد
رحمه الله
سنة 1278هـ

N^0:4[4]

توفي زيد بن طلال
قدّس الله روحه
سنة 1288
35ص

N^0:5[5]

هيا بنت
عبد الله بن رشيد

N^0:6[6]

1+
منيرة
البدر

غير بعيد عنها يقع قبر دفن فيه، حسبما روي لي فيما بعد، اثنان من أهالي المدينة ذبحا من قبل الحاكم الحالي أثناء توليه الحكم، ولم أكتشف شاهدات قبر باسم بندر ومتعب[7] ويوجد كثير من الحجارة دون كتابة عليها أو على الأقل

---

(1) عبد الله بن رشيد، انظر ج1، ص173 وما بعدها توفي يوم جمعة من العام 1843م.

(2) طلال بن رشيد، انظر ص274 توفي يوم 17 ذو القعدة 1284هـ/ 11 آذار/مارس 1848م إنّ الدُّعاء الذي يلي اسمه «قدّس الله روحه» يُذكَر عادة في حالة رجال الصوفية والأولياء من أرفع الدرجات. وقد استعملت هنا في حالة أشخاص وضعوا حدّاً لحياتهم نتيجة حالة من الاكتئاب والجنون.

(3) فيصل بن رشيد توفي 1278هـ/ 1861 ـ 1862م.

(4) زيد بن طلال توفي يوم 25 صفر 1288هـ/ 16 أيار/مايو 1871م.

(5) حاجة بنت عبد الله بن رشيد.

(6) منيرة [بنت] بدر [بن طلال].

إنّ العلامة الموضوعة فوق الاسم + 1 خاصة بأسرة ابن رشيد. إلّا أنّ العلامات لا توضع بجانب بعض، إذا ما وشمت على الإبل، إنّ علامة الصليب + (العرجاء) توضع فوق أعلى الفخذ فالساق اليمنى وأمّا الخط (المطرج) فإنّه يوضع على الساق اليمنى الأمامية، انظر حول علامات القبائل. إنّو ليتمان. دراسة عن فك النقوش الثمودية E. Littmann. Zur Entziffenurg der thamudi Schen Inschriften.

(7) ويلفظ أيضاً متعِب انظر دراسة هِسّ عن الأسماء البدوية Hess, **Beduinen name**, S.13.

علامة العائلة. في المساء استدعينا إلى الأمير، وقدَّمنا له مؤونة من البارود والخردق. وكي يخصني بلطف المعاملة رحَّب بي باسمي الأوروبي قائلاً: كيف خاطرك يا يوليوس أويتنغ؟ «وعندما قلت: إنَّني كنت اليوم في المقبرة، ونسخت هناك [كتابات] شواهد القبور، استفسر حمود العبيد عن طريقة الدفن السائدة لدينا وعن التحنيط، وإثر اختلاف وقع حول آية قرآنية استدعي الخطيب (شيخ البيت) وتطلب الأمر أن يورد مقطعاً طويلاً من القرآن الكريم لوضع الأمور في نصابها. وأمر الأمير اليوم بإحضار شاي فاخر من عند الحريم وجرى توزيع ليمون حلو كي يقطر فيه. وفي الختام أقيمت صلاة عامة حافلة.

الجمعة 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. إنَّ الأمير عبد العزيز، وهو في العادة إنسان لطيف، لم يكن ليتردَّد أثناء زيارته لنا من النبش في حقيبة سفري، لكنَّه على الأقل كان مؤدباً ولم يطلب الحصول على شيء.

جواباً على السؤال عن امتداد المفهوم الجغرافي لنجد قال حمود المجراد: تعد الأماكن التالية تابعة لنجد وهي:

1 ـ جبل النير	2 ـ الرسَّ	3 ـ الدودامي
4 ـ السِّر	5 ـ الشعراء	6 ـ عروا
7 ـ عرجا	8 ـ واسط	9 ـ حلبان
10 ـ أشيقر	11 ـ شقرا	12 ـ الخنوقة
13 ـ غول	14 ـ شبيرمة	15 ـ كبشان
16 ـ ضرية	17 ـ مسكة	18 ـ الحيد
19 ـ نفي	20 ـ وضاخ	21 ـ الأثلة
22 ـ الربقية	23 ـ دخنة	24 ـ الشبيكية
25 ـ الداث	26 ـ وادي سبيع	27 ـ وادي الدواسر
28 ـ أبو جلال		

قام ي. ي. هِسّ برسم خريطة دقيقة لنجد تظهر عليها جميع الأمكنة المذكورة هنا، لكنَّها لم تنشر بعد[1]. وأثبتت مناقشة جرت حول الأسماء بأنَّ

(1) أي حتى تاريخ نشر الجزء الثاني من الرحلة في العام 1914م (المترجم).

الأمكنة الأربعة الأخيرة (رقم 25 ـ 28) لا تتبع نجد. بعد الظهر مرَّ عليَّ ماجد واصطحبني إلى بيته. وفي المساء أثناء العودة من بيت عبد الله تأكدت مرَّة أخرى من وجود مستوطنة قمل في قميصي. وجرى نشر القميص في الريح على السطح وهو ما لا يتحمَّله هؤلاء اللئام [القمل].

السبت 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. في هذا اليوم وهبت عبد الله فنجاناً صينياً. وأمَّا التجَّار الإيرانيون (المشاهدة)، باعتبارهم شيعة، فإنَّهم في كل مكان ذوو آراء غير مناسبة تجاه المسيحيين. ويبدو أنَّ تنبيهاً من جانب الأمير قد بلغهم بأن يتعاملوا معنا بمجاملة. وعندما خرجت للتوجه إلى البيت دعاني جارنا من اليسار عايد ببالغ الخضوع بأن أدخل إلى منزله. لقد رفضت في البداية، لأنَّني كنت أنوي القيام بزيارة عبد العزيز. ونظراً لأنَّه لم يكن هناك أحد في البيت دخلت في طريق العودة إلى بيت عايد، فقد كان فرش غرفة الاستقبال بسيطاً بقدر ما يتصور المرء، إذ مدت حصير من القش على الأرض، ووضعت سجادة غير عريضة على نصف الحائط اليساري يحف بها مسندان لليدين من الطين[1] ويقوم إلى جانبه الموقد وبعض الأوعية القليلة، وإنَّني على قناعة بأنَّ المشهدي جعل هذه الحجرة ذات الأثاث الهزيل لاستقبال الضيوف من غير الشيعة، وعلى سبيل المثال فإنَّ الفنجان الذي أصبح نجساً لأنَّني شربت القهوة منه، لم يشرب منه على الإطلاق فارسي لا قبلاً ولا فيما بعد. وقد يكون الأمر موجهاً بأن يستبعد من خلال هذا الأثاث البسيط حجرة الاستقبال أي فكرة بشأن تكدّس الربح التجاري لدى الآخرين.

لقد استدعيت من هنا مع هوبر إلى حمود العبيد. وطلبت أن أشاهد سيوفه وبعضها شهير من القديم. وكذلك سيوف أبيه. وقد أخرجها من لفَّاتها القماشية التي سلّمت إليه وهي ملفوفة بها وروي عن واحد منها، بأنَّه بضربة واحدة قطع رأس وبتر ذراع أحد [المقاتلين]. كما طرح أمامنا خناجر مختلفة إضافة إلى قطع فخمة من البحرين وعمان، ولكن للأسف مع الجو القاتم وشبه الظلمة السائدة في قهوته [المضافة] لم أتمكن من الرؤية جيداً. وكان يسأل

---

(1) يُدعى زبر وكذلك مَرْكه، وفي حائل (حايل) زبر هو المقعد الطيني ومركه المسند الطيني.

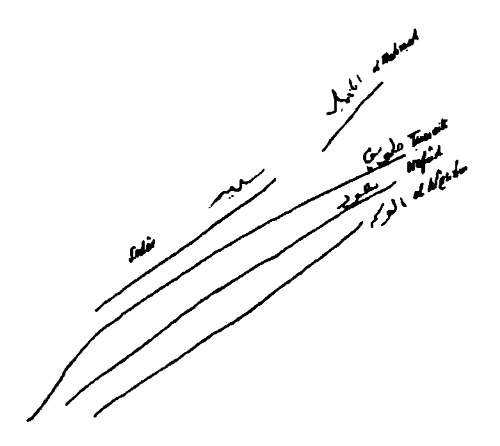
على الدوام ماذا يمكنه أن يهبنا. وقد رفضنا شاكرين لكل شيء. وما إن وصلنا حتى أرسل مع صديقنا عبد الله، وهو يستخدمه حالياً بكل أريحية باعتباره وسيطاً، لكل منَّا عباءة وقمبازاً هندياً، أي زبوناً، لا تقل قيمتهما عن 50 ليرة مجيدية ما يعادل 175 ماركاً. فكانت الملابس الاحتفائية التوراتية التي وهبني إيَّاها بالغة الطول بالنسبة لي ويجب أن تخيط من الأعلى أو تقصر كثيراً، بعد ساعة أقبل عبد الله أكثر من مرَّة رسولاً من طرف حمود والأمير فقد انكسر فنجان ياباني عندما كان حمود بصدد غسله في ديوان الشيوخ فأرسلت من باب المواساة فنجاناً من ليموج وآخر صينياً. وهم يعتقدون بأنَّ الفنجان الصيني الأصلي ينكسر إذا ما قدمت فيه شاي أو قهوة مسمومة ولذلك فإنَّه ذو قيمة عالية.

بعد طعام العشاء أقبل محمَّد بن غانم وقدَّم بعضاً من مشغولات ورشته الفنية كنت أجد دوماً في أخذ الماء من قربة معلَّقة بخابور خشبي (جازة) عن طريق فتح العنق المربوط بخيط عملاً صعباً ومزعجاً يتطلب تصرفاً معقداً، لذلك أعطيته صنبوراً من النحاس كنت قد جلبته معي وطلبت منه أن يصله من الخلف بقطعة أنبوب بحيث يدخل في عنق القربة ثم يثبته بإحكام بخيط. وجاء عمله غاية في الدقة، وفي الحال ظهرت فائدته المدهشة. عدا عن ذلك صنع لنا مشابك فضية، وكذلك طوقاً مطاطياً كبيراً مزوَّداً بقفل فضي وقد رميته منذ زمن طويل. لقد أحضر معه ابن ابنته عبد الله الصغير، وهو صبي لطيف في الخامسة من عمره وكانت فرحته كبيرة بما عرضت عليه من صور حيوانات وبما أعطيته من أقراص النعنع الصغيرة.

فجأة حدثت عاصفة مطرية، ولكنَّها لم تمس المدينة إلَّا قليلاً. حوالي الساعة 9,45 جاء حمود المجراد لكنَّه كان في مزاج سيىء بسبب الصيام وبسبب جوابي الرافض فيما يخص المنظار الميداني الذي وعد به الشيوخ بتصرف شخصي من جانبه دون سؤالي. ولقد قلت له: إنَّه بمثل هذا المزاج يفضل أن يبقى في البيت ولا يزور أحداً.

الأحد 25 **تشرين الثاني/نوفمبر** 1883م. في الصباح الباكر جاء عبد الله

من جديد، وبدأ حديثه بأنَّ حمود العبيد يريد أن يفصل لنا بعض القمصان. لقد كنت في ذلك الوقت منشغلاً بإعداد خريطة كبيرة للأمير تشمل أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى من الذاكرة عندما جاء الأنيق ووزير المال ناصر السبهان، وكان في غاية التشوق ليرى ما الذي سيكون عليه هذا الشيء. ولما كان تصرفه في غاية الغرور وحب الاطلاع فقد سألته عمَّا إذا كان بمقدوره أن يعدِّد أقاليم جنوب نجد حسب مساحتها وموقعها من بعضها على نحو صحيح. ودون أن يفكر ولو للحظة أجاب: «نعم» فسلَّمته ورقة وقلم رصاص وبعدها أعطاني مع بعض التردُّد ما رسمه عليها.



خريطة نجد كما رسمها ناصر السبهان

لقد ذكر أنَّ الغاية الحقيقية لزيارته أنَّه يريد الحصول لدينا على بعض المقصات، ويعتقد أنَّه يوجد في صناديقنا على الأقل عشرون قطعة منها، ويجدر بنا التحقق بدقة فقط. إلَّا أنَّ الأمر لم يكن على هذا الوجه. فلم يكن لديَّ سوى مقص وحيد. وقد استجدى هوبر من حمود مقصاً، أي إنَّه لا يمكن فعل شيء. وما إن انصرف حتى أمسكت قملة «محتدة المخ»[1] مثلما يقال

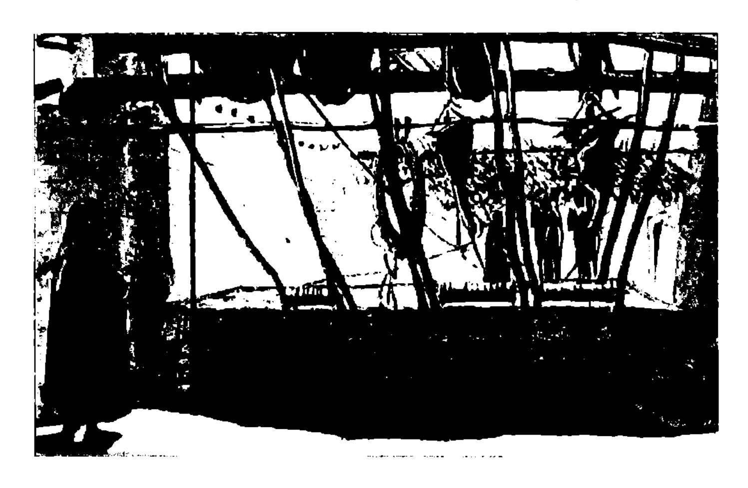
---

(1) لم أعثر على المعنى الدقيق لهذه العبارة الأمر الذي انعكس على ترجمة الجملة التالية لها (المترجم).

بلهجة ستراسبورغ. إنَّها تحفة فنية ولو أنَّني في الحال قمت بلصقها بصمغ عربي على ورق مقوى. لنلت بها بكل تأكيد نجاحاً كبيراً لدى هواة الجمع والمختصين.

حوالي الساعة الثالثة قمت بنزهة في الخارج عند بئر سماح. ولمَّا كانت عاصفة ترتسم على السَّماء من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية. فقد صعدت هضبة صخرية بحيث أستمتع بالمنظر. وبعدها بقليل أقبل الأمير مع حمود وشخص يُدعى عايد ممتطين الجياد ومن خلفهم عدد كبير من الأتباع سيراً على الأقدام متوجهين إلى المدينة. وما إن لمحني حتى ناداني «يا يوليوس، كيف خاطرك كيف خاطرك؟» وإثر ذلك أسرعت بالنزول من الهضبة للسلام عليه. وكان يركب جواداً أسود بهياً ويحمل خنجراً رائعاً ذا شفرة وقبضة ذهبيتين ولمَّا كانت الجياد مضطربة تابع سيره مع حاشيته بعد كلمات مختصرة.

وما إن صعدت إلى مقعدي الصخري حتى أقبل حمود المجراد من المدينة، واكتشفني على الفور وقد تسلَّق الهضبة وأثار استغرابه أن يجدني هنا وحيداً، وقال: إنَّه من الأفضل دوماً أن أصطحب معي شخصاً آخر فأجبته أنَّه يجدر به أن لا يقلق بشأني، ولكن لمَّا كنت الآن أستمتع بصحبته فليتفضَّل ويرشدني إلى بئر سماح.



بئر سماح قرب حائل (حايل)

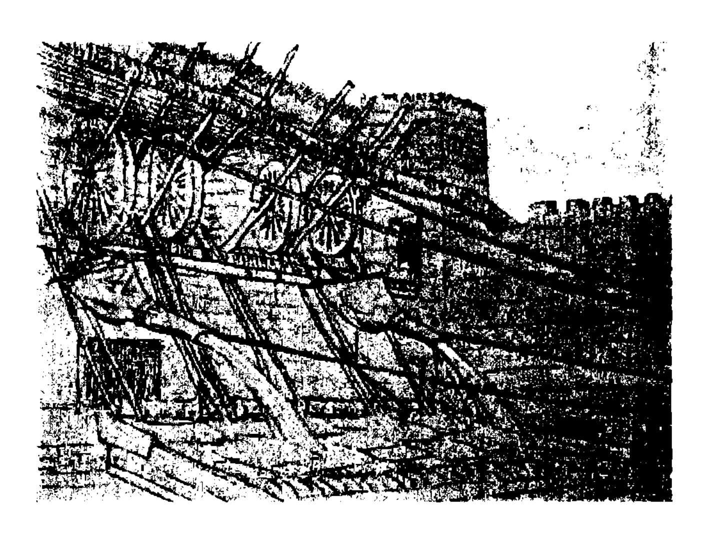
يقع بئر سماح على الجانب الجنوبي من حائل (حايل)، وهو عبارة عن **ضيعة** مجمعة وهو يضمّ:

1 ـ المقصورة الفعلية للبئر بعمق حوالي 25م عبر الصخور الغرانيتية الرخوة المتكسرة، يبلغ متوسط قطر الحفرة التي يسحب منها الماء في قرب جلدية أربعة أمتار.

2 ـ الطريق البالغ طوله 35م وتحفُّ به الجدران ويسير عليه جملان جيئة وذهاباً ليتمّ رفع القرب على عجلات خشبية.

3 ـ المبنى الطولاني القائم في الزاوية مع قاعة (روشن) في الطابق الأوَّل، ذات إطلالة على البئر والبستان الأميري المتاخم له وعلى الميدان خارج السور. وفي الطرف الآخر يؤدِّي درج إلى البرج العالي. وهذه القطع الثلاث مغلقة جميعها بأبواب. وفي الأصل فإنَّه معدّ لري البستان، لكن البئر غزير إلى درجة أنَّ الأمير يسمح بالسحب، وعلى حسابه الخاص من الفائض بحيث يستمتع سكَّان المدينة بدون مقابل بمياهه. ولهذا الغرض:

4 ـ أقيم حوض يتسع 40 متراً مكعباً بجانب مقصورة ينصبّ من مزرابين



بئر سماح قرب حائل (حايل)

على جدرانه الماء الذي جرى سحبه أثناء النهار، ويعبأ في قرب قبل أن

ينساب في قنوات البساتين. وتشغل نساء تجلب الماء ساحة البئر القسم الأعظم من النهار، ويتسم هذا العمل بتسلية وأحاديث كثيرة. وما من واحدة منهن على عجلة من أمرها، ومن الأصلح للماء أن يبقى [في وعائه] ساعة أو ساعتين قائماً أو معلقاً. وفيما عدا ذلك فإنَّه كما يقول الناس، بحرارة الأرض 28 ـ 29 يُسبِّب حمًّى لمن يشرب منه. على طريق العودة مررت برفقة حمود عبر البستان، وهو من دون عناية خاصة، يضمّ عدداً وفيراً من أشجار الكرمة والرمان والبرتقال والليمون والدراق وسواها من الأشجار المثمرة.

بعد تناول طعام العشاء كان علينا التوجه إلى القصر، حيث قدَّمت للأمير منظاراً وخريطة أوروبا[1] وهذه الأخيرة يجب أن تعلَّق بدءاً من الآن على الحائط في البهو ليزهو بها، وقد أهدانا مخطوطاً لقصائد عربية قديمة تُدعى المعلقات مع شرح لها، وعرض علينا أيضاً مخطوطة جميلة لقصائد المتنبي.

وقد قرأ من كليهما قصائد طويلة بصوت مرتفع، خلال ذلك دخلت سلحفاة تائهة إلى القاعة. فحملها عبد الله بملقط الفحم وأخرجها إلى الهواء الطلق.

الاثنين في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. إنَّه يوم مغبر. لقد أحضر حمود المجراد ابنه فهد البالغ اثني عشر عاماً وابن أخيه موسى بن علي وعمره ثمانية أعوام فأعطيت كلاً منهما كراساً صغيراً وأضفت إلى ذلك ليرة مجيدية.

كان بودي أن أضع بعض الرسوم التخطيطية لقاعة الاستقبال في بيت عبد الله. إلَّا أنَّ صاحب البيت كان مضطراً للذهاب إلى محله وتركني وحيداً. وبما أنَّني التزمت الهدوء التام أثناء الرسم اعتقدت زوجته بأنَّني قد خرجت، ونظرتْ بكل فضول من الباب إلى الداخل، فتصرفتُ كما لو أنَّني لم ألاحظ شيئاً.

إنَّ الحجّ الإيراني (قافلة الحجّ القادمة من مكَّة) يجب أن تصل ـ كما يُقال ـ إلى هنا خلال يومين. ليلاً، برق بعيد ومطر عند الفجر.

---

(1) انظر ما مرّ سابقاً.

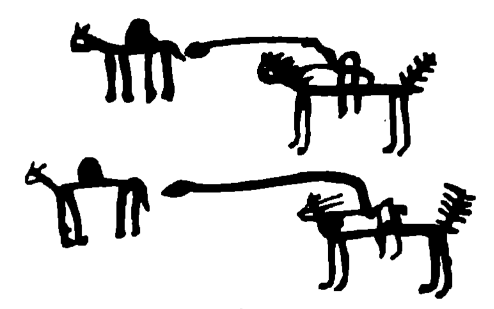
الثلاثاء 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. عندما كنت أخطو في فناء القصر الداخلي كي أقوم بزيارة الأمير عبد العزيز لمحت أنَّ الشخص الذي أنشد زيارته قد توارى على الجانب الأيمن حول الزاوية في طريقه إلى الأمير. لذلك سألت العبيد عند باب الأمير: هل عبد العزيز في البيت أم إنَّه ذهب إلى الأمير؟ وجاءني الجواب، كلا إنَّه في البيت، وبعدئذٍ بأعين عسلية متطلعة إلى الأعلى ورأس مرفوع قليلاً وطقطقة لسان ضعيفة أطلق الجملة البدائية المكملة «الشيوخ يقيء»[1]. لقد سرَّ عبد العزيز غاية السرور بالزيارة، ولم يدخر أي وجه للإكرام والمؤانسة إلَّا واتبعه. مكثت عنده بضع ساعات حيث تجولنا في أفنية مختلفة من القصر وفي المطبخ والسجن والبستان وتفرجنا أخيراً على الخيول.

بعد الظهر أكملت الرسوم التخطيطية التي بدأتها بالأمس في بئر سماح. في المساء دعانا الأمير ماجد لتناول الطعام على مائدته، لقد استقبلنا حقاً في بيته ولكن فيما إذا كان لا يثق تماماً بفنون مطبخه أو لأنَّه لا يريد أن يزعج نساءه، فقد كان علينا أن نقطع الشارع ونتوجَّه إلى القصر لتناول الطعام في الكهف المظلم لوالده البخيل. قام أربعة عبيد بحمل المائدة الضخمة وعليها أطباق الطعام إلى الداخل. ومن باب اللباقة تجاهي فقد جهز حساء لي من مرق اللحم وكان على الخادم محمود أن يحضر لي ملعقتي البيتية[2] لمزيد من الراحة، وبعد الفراغ من الطعام رغب ماجد بعرض بعض النماذج من فنِّه في الرسم وهو لم يرتقِ عن مستوى الفن الذي يمارسه البدو منذ قرون.

---

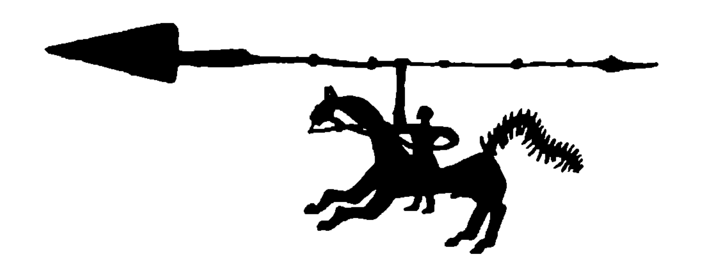
(1) هذا يعني أنَّ الأمير قد تناول اليوم دواء للتقيؤ، ولذلك لا يمكن زيارته اليوم. وهذا التقرير الشفوي في البلاط ينتشر في الحال في المدينة بأجمعها.

(2) كان عليَّ أثناء ذلك أن أتذكر عمَّال الزنك بمدينة توبنغن، عندما كانوا حتى في فترة دراستي يحضرون كل أحد وخميس لتناول الطعام المجاني في قاعة الطعام التابعة للمؤسسة، وكانوا يصطحبون معهم أدوات الطعام في جعبة، وما زالت الصورة تتراءى أمامي كيف كانوا يلحسون أدواتهم حتى تغدو نظيفة، ثم يعيدونها إلى الجعبة. وأمَّا ملعقة طعامي هنا، فقد قام واحد من العبيد هنا بتنظيفها بطرف كم قميصه.



من رسم الأمير ماجد

لم يكن بوسعي أن أدلي بأي رأي مأمول حول هذه الجهود، بل على العكس أكدت بأنَّ مثل هذا العمل الهابط سيجلب لتلميذ في أوروبا، على أعلى تقدير، أن يضرب عدَّة مرَّات على الرأس وأعترف بأنَّ ما يقدِّمه ليس بالكامل وأنَّه في مجال الرسم قادر على العطاء. وهذه العبارة دفعتني إلى مزيد من العمل على حشره في الزاوية إلى أن أبرز عمله الفني الثاني الذي عبرت عن مزيد من الرِّضا بشأنه.



من رسم الأمير ماجد

وحسب تصوري كان مسروراً تماماً عندما استدعي إلى صلاة الجماعة. وبعد الصلاة توجَّهنا إلى الأمير، ولذلك عدنا في وقت متأخر إلى البيت ولم يتسن لي النوم بيسر. ولم يكن ذلك بسبب القهوة الكثيرة التي شربتها، بل وبصورة رئيسية لأنَّ عبد العزيز قد عطَّر لحيته هذا الصباح إلى درجة أنَّني لم أعد قادراً على سحب رأسي من جرّاء هذه الرائحة الفواحة. وأخيراً قمت بعملية مختصرة، لقد نهضت ثانية ـ وهو ما كان يجب أن أفعله منذ وقت طويل ـ وغسَّلت بالصابون رأسي بالكامل، وجعلت الماء يسيل عليه كثيراً،

واستنثرت الماء من الأنف عشر مرَّات، ولبست فوق الرأس الذي حلقته بالأمس كوفية غير مستعملة. وبذلك حلّ الأمر.

الأربعاء 28 **تشرين الثاني/نوفمبر** 1883م. مع الصباح أقبل ناصر السبهان، فقدَّمت له الشاي وربَّما وضع فيه كثير من عصير الليمون. وفجأة ساوره الخوف فيما إذا كان فيه خمر أو عرق، ولم يجدِ تأكيد العكس في شيء، لا بل وقد تزايد تأنيب الضمير لديه، عندما أخذنا بالضحك حتى الألم الجسدي عَاجَل إلى الرحيل على وجه السرعة.

لقد أنجزت بعض الرسوم لدى عبد العزيز بن متعب، ومن بينها صورة الأمير ذاته[1]. في تلك الأثناء أحضر من عند الحريم ولد عمره سنتان واسمه طلال بن نايف. والده نايف (ابن الحاكم السابق طلال) توفي في العام 1868 ولما يبلغ 18 عاماً من العمر. وكان قد وقف في طريق مآرب الأمير ماجد للوصول إلى ولاية العهد، ولذلك فإنَّه قبل سنتين قتل على يد الأمير ذاته، أثناء ألعاب فروسية والمبارزة إذ أطلق عليه النار من بندقية لم تعبأ بطلقات خابية. كان بودي أن أرسم الولد، إلَّا أنَّ قلقاً كان يساورهم، بأنَّه قد يحدث له مكروه. وقبل كل شيء كان عليهم أن يسألوا الأمير، فيما إذا كان يسمح بذلك. وعلى هذا الأساس نأيت بنفسي عن مقصدي.

في هذا اليوم جرى ترميم سطح منزلي. ولحسن الحظ لم تعد العاصفة المطرية إلَّا بعد حلول الظلام.

في موعد متأخر من المساء حضر غانم وحمود المجراد والحدَّاد حسين، وقد أحضر الأخير معه ملقطي فحم وفولاذاً لاستخراج النار من شرر القدح، وحصل بالمقابل على مفتاح الطلقات وإحدى نصلات المناشير الكبيرة التي كان قد جهزها لي صديقي المستشار التجاري فرديناند شميد في نوينبورغ (ولاية فورتمبرغ) من أجود الفولاذ.

---

(1) انظر الصورة في يومية 3 كانون الأول/ديسمبر 1883م. جواباً على السؤال فيما إذا كان يقوم بترتيب جدائله بذاته قال: كلا بل أُمّه وأحياناً زوجته، وكم مرَّة يحصل ذلك، ربَّما كل ثلاثة أسابيع وعند الضرورة.

الخميس 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. اليوم وصلت قافلة الحجّ الإيراني، وهي في طريق العودة من مكَّة. ورتب نزولها على الأرض الكبيرة المسورة الواقعة شمالي بستان السماح. وفور نزولها أسرعت بالتوجه إلى هناك، ويجب أن أقر بأنَّني قد أصبت بخيبة أمل كبيرة، فلم أتصور أن تكون الحالة مزرية إلى هذه الدرجة. ففي هذه السنة غاب الإيرانيون الشيعة الذين يشكلون عادة المكون الرئيسي للحجيج العابرين إلى داخل جزيرة العرب. في كل عام يجلب الإيرانيون 8000 ـ 10,000 جثامين مخيطة في جلود، ينقلونها إلى كربلاء ومشهد(*) الواقعة على الفرات بحيث يدفنونها بجانب الجامع بقبابه المذهبة حيث يرقد الشهيدان الحسن (هكذا)(**) والحسين ابنيّ الخليفة علي في أرض مطهَّرة. ويرغب كثير من مرافقي قوافل الأموات بزيارة أرفع المقدَّسات الشيعية ومن ثم الحجّ إلى مكَّة والمدينة. ويتطلب الطريق إلى هناك مسيرة 60 يوماً ركوباً، وهو يمتد في خط مائل عبر الصحارى، ويمرُّ بمعظمه في منطقة أمير حائل (حايل). وفي الوقت المناسب يرسل أمير حائل (حايل) رجاله إلى النجف الواقعة على نهر الفرات، بحيث يحضرون الحجيج الإيراني ويتم نقلهم في ظلِّ مرافقة آمنة إلى الديار المقدَّسة في مكَّة والمدينة. وعلى الحجَّاج أن يدفعوا لقاء توفير دواب الركوب (الإبل) والماء والمرافقة 30 مجيدياً لطريق الذهاب والنصف للإياب، إذا ما اختاروا الطريق نفسها للعودة. وهذا يعني أنَّهم يدفعون ما بين 150 ـ 160 ماركاً. ويصل القسم الأعظم من هذه الأموال إلى صندوق الأمير. وهو مبلغ لا يُستهان به إذا ما تراوح العدد ما بين 800 ـ 1000 مشارك، وحتى عندما تسحب منه التكلفة.

وفي العام الماضي قام قائد مجموعة المرافقة بتولي ذلك على حسابه، وتصرف بغباء عندما حاول أن يبتزَّ الشيعة المكروهين بفرض بخشيش مرتفع وغير معقول قبل يومين أو ثلاثة أيَّام من عودة الحجَّاج إلى النجف. إلَّا أنَّ العدد الأكبر من الشيعة قد استنفدت مدخراتهم خلال زيارة الديار المقدَّسة في مكَّة والمدينة ـ إنَّ الابتزاز بأسلوب الورع يتضح من الصفحات التالية ـ

(*) مشهد هي مدينة النجف وتقع إلى الجنوب من كربلاء. (المترجم).

(**) دفن الحسن في المدينة بالبقيع، (المترجم).

وصرَّحوا أنَّهم غير قادرين بتاتاً على دفع أي شيء. وما تراه العين من الأكياس والجيوب الفارغة جعل الناس يستقبلونهم بقهقهات عالية.

«هذا هو المناسب، أيُّها الكلاب، لعنة الله على آبائكم. ولتهلكوا هنا في الرمل أو تنضحوا نقوداً وإنَّه لأمر واحد، سواء اخترتم العطش أو الجوع، إذا لم ترغبوا أو إذا لم يكن بمقدوركم فإنَّنا نأخذ جمالنا وقِرب مياهنا، وندعكم هنا قابعين، عندها انظروا ما تفعلون». وإنَّ التصرف غير المشرف طبقاً للمفاهيم البدوية جرى حلّه، بأن يقوم البعض من الإيرانيين من أصحاب المقدرة بدفع المبلغ المطلوب عن الآخرين. وعندما عاد الحجَّاج إلى بلادهم قدَّموا شكواهم إلى الحكومة. وفي حائل سلَّم قائد القافلة المبلغ الذي جرى ابتزازه، إلَّا أنَّه عوضاً عن المكافأة المتوخاة، ومكافأة براعته المالية زجر من جانب الأمير بسبب تصرفه المشين وغير السياسي في الوقت نفسه، وزجَّ به بلا تردُّد في السجن. وأوفد رسولاً خاصاً إلى الوكيل الإيراني في النجف مع كتاب، بحيث ينقله إلى طهران يعتذر فيه ويُبيِّن أنَّ السلب القذر جرى دون علمه تماماً، ودون رغبته، وعُوقب الفاعل، وإنَّه بذلك يعيد النقود إلى المتضررين، ويقدم الضمانة أنَّ الرعايا الإيرانيين مستقبلاً سيظلون آمنين ومحترمين، كما كان عليه الأمر حتى الآن، وستتم مرافقتهم تحت حماية البدو. وأرسل بلاغاً مشابهاً إلى مكَّة والشرفاء، وإلى الوكيل الإيراني فيها. ولكن وقبل أن يستلم الكتاب في طهران كان شاه إيران قد أرسل إلى الوكيل الذي يعتمده أمير حائل (حايل) في مكَّة بلاغاً مفاده، أنَّه بسبب المعاملة الغادرة لرعاياه، فإنَّه قرَّر منع رعاياه وحتى إشعار آخر من عبور الطريق الذي يمرّ في أراضي شمّر. وبقي الأمر على هذا الحال. وظهرت العواقب في هذا العام عند وصول ما يُدعى بركب الحجّ الإيراني.

لقد نصبت على المكان المذكور حوالى 30 خيمة، بعضها مدورة وأخرى طولانية، ويُضاف إلى ذلك جحور من كل صنف، لا تستحق اسم خيمة. وشاهدت مرحاضاً متنقلاً له جدران قابلة للطوي، وقد علّق غسيل فوق حبال الخيام أو ثياب أصابها البلل أثناء عاصفة ليلية بالأمس بحيث تجف. وقد وضعت ما بين الإبل والحمير المستريحة أكياس وبالات مخيطة من كل

نوع. إنَّ سلالاً غريبة مجدولة من قصب أحمر، ولها أرجل خشبية وسطحها مقوَّس من القماش بدت لي جديدة. على الجانب الأيمن من الباب في ركن كان يستند العلم المطوي. وأمَّا المشاركون في ركب الحجّ فلا يزيد عددهم بأعلى تقدير عن 150 شخصاً. بينهم 3 ـ 4 نساء مع زنجية، وبدا لي الناس بأنَّهم متحضرون وتختلف تقاسيم وجوههم بحدَّة ملحوظة عن تقاسيم البدوي. إنَّ هذه الثياب وقصّ اللحية، وطريقة السير شبه العسكرية، لم أشاهدها منذ مغادرتي دمشق. وكذلك السراويل العسكرية التركية. والطربوش والجزم ذات الرباط، والأحذية الإيرانية والجوارب، رغم أنَّه يزعم أنَّ أربعة تجَّار إيرانيين بين صفوف الركب، إلَّا أنَّه لم يتسن لي أن ألاحظ في أي مكان طاقية فارسية من اللباد أو فرو الخروف. كان معظم الرجال منشغلين بتجفيف ورقع أمتعتهم. وكان البعض يتجولون في المدينة للشراء. لقد بدوا جميعاً في حالة رضا، لأنَّه بوسعهم أن يرتاحوا لأوَّل مرَّة عدَّة أيَّام من عناء السفر.

حوالى الساعة السابعة مساءً حدثت أوَّل عاصفة مطرية، وكانت شديدة نسبياً، إذ إنَّ المطر أخذ ينزل من مواضع غير معتادة من السقف، وترطبت الكتب على سبيل المثال، وبعد الساعة التاسعة أتت العاصفة الثانية، ثم الثالثة حوالى الساعة ($10 \frac{1}{2}$) العاشرة والنصف وكانت الأغزر. لقد وقفت تحت الأبواب، وكان البرق يتتابع دون انقطاع، وأمَّا قصف الرعد فكان مرعباً، وكان الماء يتجمَّع أثناء تدفّقه من الأسطحة والدرج إلى الفناء. ودفعة واحدة انهمرت حبَّات البرد، وعلى وجه السرعة انتقلت بحيث أمكث خلف الأبواب المغلقة، واستمعت بابتهاج وارتعاد كيف كانت تتساقط على وجه الماء، وتتطاير في أجزاء محطَّمة عبر فتحة (فضوة) الجدار الممشوقة إلى القهوة. وكنت أشعر طوال ذلك بسرور طفولي بأنَّ هذه البلاد الجافة تتلقَّى أخيراً كمية هطل كافية، لتنتقع انتقاعاً جذرياً. ولا يمكن أن تبلغ في مقدارها أكثر من ذلك. وما إن خف تساقط البرد حتى فتحت الأبواب ثانية، والمطر ما زال ينهمر بغزارة. وقد انطفأ الفانوس نتيجة مجرى الهواء. وكان محمود يرغب أن يضيء البحيرة التي تشكَّلت في الفناء، إلَّا أنَّ الإضاءة القصيرة كانت كافية للتأكد من الخطر: إنَّ كتلة الماء التي يبلغ عمقها بكل تأكيد ارتفاع اليد وأخذ

مستواها بالارتفاع مع تساقط حبيبات البرد وأصبحت تُهدِّد في كل لحظة بأن تفيض على عتبة البيت. وعلى وجه السرعة لفّت السجاجيد، وكل ما هو مطروح على الأرضية، ورتبت فوق الموقد وعلى مسند الذراع الطيني للديوان. ومن حسن الحظ أنَّ المطر توقف الآن، ودفعة واحدة ما هذا؟ إنَّه صخب مريع في الجو. هل ستنفلت عاصفة جديدة، إنَّ محمود ينادي بصوت متهدج غامض: جاء السيل، جاء السيل[1]، لم أكن لأصدق ذلك في البداية، ورغم ذلك كان على حق، فقد تدفَّق الماء من الجبال، التي تبعد مسافة ساعة ونصف، على شكل سواقٍ ونهر، وسدٌ متبدل باتجاه المدينة. ولكن كيف ظهرت الصورة في صباح اليوم التالي. لقد جرفت خيام البدو خارج السور. وفي الأثناء لم يكن بمقدور الناس أن يلتقطوا من السيل الهادر أثناء اللَّيل ما يساوي ما جرفه المجرى الرئيسي على الطرف الشرقي للمدينة.

على مدى عدَّة أيَّام لم تكن حالة هوبر جيدة إذ إنَّه يشكو من حالة حمَّى جدية، وخاصة من ألم في الجزء الخلفي من الرأس ويهذي، لقد أعطيته الكينا في ثلاث جرعات، وكان عليه أن يجرب السفوف كي أتأكد من الوضع.

الجمعة 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1883م. أقبل حمود المجراد في وقت مبكر صباحاً. وقال: إنَّ الشعيب (حوض الوادي الجاف عادة في شرق المدينة) ملء حتى الضفة، وقد خرج الشيوخ حالياً وجميع أفراد حاشيته بحيث يتأملون المشهد النادر. وأبديت استعدادي للذهاب حالاً، لكنَّه لم يرغب بانتظاري: إذ إنَّني أسير ببطء زائد في نظره. (نتيجة التشققات في أصابع قدمي لم يسبق أن رآني أسرع الخطى، والآن شفيت التشققات). انتظر فقط أيُّها العبيط سألحق بك وأنفخ لك في الكير وبسرعة الريح مررت به إلى باب البيت، وأسرعت بالمشي بحيث أصبح يلهث في الخلف. وتركته ينادي دون اكتراث. شوية، اصبر، ثم أدرت رأسي إلى الخلف واستهزأت به قائلاً: «لا يمكنني انتظارك، فإنَّك تسير ببطء زائد في نظري». خلال عشر دقائق التففت حول الطرف الجنوبي من المدينة. في الواقع كان يندفع عبر الشعيب الضيّق

---

(1) لم يحصل هذا منذ ما يزيد عن عشرين عاماً.

بين الجبلين، أم الركاب والسمرا، اللذين يغطيهما الضباب، نهرٌ ربَّما يبلغ عرضه 60 متراً، وبعمق لا يقلّ عن مترين وإنَّ الرجال الذين يحتشدون على الضفة أكدوا أنَّه تراجع بمقدار ذراع تقريباً.

لقد خفق منّي الفؤاد عندما لمحت الماء المتموج في تدفقه، إذ إنَّني لم أشاهد مثل ذلك منذ وقت طويل. إنَّ عدداً كبيراً من الناس كانوا وقوفاً. وكانت النساء على الضفة يملأن قربهن من الشراب النفيس بينما كان الأطفال يمسكون بثياب أُمَّهاتهم.

عندما فرغت بعد الظهر من كتابة رسائلي إلى أوروبا، التي سيحملها معه ركب الحجّ الإيراني إلى بغداد. أقبل ماجد كي يخطف بعض علب بارود الصيد، وخريطة أوروبا التي رسمتها للأمير منذ وقت. إنَّ والده حمود العبيد يستغل حالياً مكانة عبد الله المشمول بالحظوة بنقل جميع الرسائل الشفوية وطلبات الاستجداء الموجَّهة إلى عنواننا. فقد أمر اليوم بأن يقول، لقد أكرمنا الجميع هنا، وقدَّمنا لهم الهدايا، ولكن لم نشمل في ذلك ابنه الثاني العزيز سليم. وبناءً على ذلك أرسل إليه المسدس الثالث، وذكَّرنا أنَّه الأخير، وردّاً على ذلك أرسل لنا في وقت متأخر من مساء اليوم ذاته كبشاً إلى البيت ويجب أن يذبح صباحاً.

ولمَّا كان المطر غزيراً في هذا اليوم، وكان بالإمكان أخذ الماء من جميع النقر، فقد توقف العمل في بئر سماح. ونتيجة لذلك سادت الحاجة إلى الماء طيلة النهار في البيت، ولا أعلم من أين جاء مرق اللحم الذي أرسل إلينا لنشربه.

حوالى العاشرة مساءً أتى حمود المجراد في مزاج مفزع، ولم أكترث به كثيراً، وعندما خرج كانت درجة الحرارة 8°.

السبت في كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. إنَّ حزن حمود العبيد، لأنَّنا ما زلنا لم نسلب بالكامل زهوتنا الأوروبية، يتزايد على نحو مضحك، ما زال لدى هوبر مرآة جميلة ولا يرغب أن يتخلَّى عنها، كما أنَّهم يعلمون بأنَّ لديَّ مسدساً من نوع موزر صغيراً (7مم). لقد عبَّر عبد الله بتردُّد عن ألم العبيد مبدياً كثيراً

من الاعتذار. لأنَّه يخشى أن نكون قد رأيناه بقربه. طيبنا خاطره، إذ إنَّنا نعرف ولا شك إذا لم يضع نفسه تحت التصرف لنقل مثل هذه المهام، ستوجد في الحال دزينة ممَّن يبدون استعدادهم عن طيب خاطر لأن يحصلوا على سترة حمراء. وهكذا انصرف بارتياح، إلَّا أنَّه لم يلبث أن ظهر مرَّة أخرى. واه، ماذا حصل من جديد؟ لقد أخرج من تحت المعطف علبة ملفوفة بقماش. إنَّ العُبيد يعرض عليَّ عرضاً عن مسدسي الصغير مسدساً آخر. لقد قلت بغباء: «إنَّ مسدسي مناسب لي تماماً، ولا أحتاج بديلاً له. وليحتفظ بهذه القطعة لنفسه، وليس لديَّ أي رغبة بمثل هذه الخردة المشكوك بأمرها». وبانتظاره لمثل هذا الجواب كان الاستفسار الجديد جاهزاً، ومفاده فيما إذا كنت أرغب بالحصول على نقود مقابله. كان بودي أن أفكر فيما إذا كنت بحاجة إلى شيء يمكن أن يساعدني به. سيرسل لي إلى البيت شيئاً ما. وخوفاً من أن أضع على عاتقي بضاعة رديئة غير مرغوبة وغالية والتي ستلزمني بواجب الامتنان وستزعجني يومياً بحكم وجودها، فقد سمحت لنفسي بإبداء ملاحظة دون التفكير فيها مبيناً أنَّ سترتي الطويلة الوحيدة (زبون) التي أحضرتها من دمشق قد أصبحت رثَّة بالتدريج، وفيما إذا كان حقاً من الغرور أن ألبس سروالاً جديداً، وأنا أفضل على كلِّ حال سروالاً من النوع الأبيض المزين بورود مذهبة على نسق السراويل التي تستورد من الهند لصالح الأمراء المحليين، ومثل ذلك الذي لدى ابنه ماجد، عندئذٍ لفَّ عبد الله علبته مبدياً سعادته التامة بالرأي السديد وانصرف مسرعاً. وعاد بعد نصف ساعة يحمل على ذراعه قميصين جديدين باعتبارهما مقدمة للهدايا المخصصة، ونوَّه بأنَّ العُبيد في غاية الأسف لأنَّه لا تتوفر حالياً في القصر سترات (زبون) بيضاء مزينة بالذهب، ولم يسفر الاستفسار عنها لدى التجار الإيرانيين عن أي نتيجة، وأبدى استعداده أن يسحب السترة من ابنه ماجد ويرسلها إليّ. وعلى كلِّ حال فإنَّه يتوفر لديهم في القصر عدد كبير من السترات الهندية والشامية، ومن بينها سترات حريرية حمراء، وربَّما كانت أجمل من البيضاء وأقل حساسية، وفيما إذا كنت لا أرغب بواحدة منها؟ فأجبت أنَّه لا يمكنني إبداء الرأي الآن، فقد تتاح لي فرصة بأن أراها فالأمر ليس مستعجلاً. رغم أنَّه توضح لي تماماً أنَّني

لن أتمكن من تخليص المسدس من سرقته، فقد اعتزمت أن أدع الرجل يتقلب قدر الإمكان على محك الصبر. وأسفت في هذا الخصوص على أمر، وهو أنني في هذه الفترة لم يتسنَّ لي أن أكحل ناظري بوجه هذا الوغد وبآلامه.

في المساء حضر حمود المجراد، وهو في حالة مقبولة أكثر من السابق مكث حوالى ثلاث ساعات. واستمريت حتى الثانية صباحاً في قراءة الجزء الأوَّل من فاوست[1]. لقد كان بالنسبة لي متعة احتفائية انتقلت بموجبها مرَّة ثانية إلى عالم آخر مغاير تماماً.

الأحد 2 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. نهضت قبل شروق الشمس، وبعد حين جاء عبد الله، هل هذا ممكن؟ هل جاء دون طلب؟ دون أمر جلل؟ ها هو هوبر يشكو ثانية من الحمَّى ومنظره لا يبعث على الراحة توجَّهت إلى مخيم الحاج من أجل التسلية وزرت السوق هناك، وإلى جانب ذلك أنجزت بعض الرسوم التخطيطية، وعند الظهيرة أردت الذهاب صحبة عبد الله لزيارة الأمير ماجد، إلَّا أنَّه ـ كما قيل ـ كان لدى الحريم في القصر، وبذلك عدنا متوجهين إلى بيت عبد الله بحيث نجلس على السطح تحت أشعة الشمس. وقبل أن نصعد الدرج نادى عبد الله زوجته الأصغر البغدادية[2] يازهاوة. وبكل سذاجة وطاعة خرجت على وجه السرعة من غرفة مجاورة ترتدي قميصاً أزرقَ فقط متوجهة نحوي بالضبط، لكنَّها تراجعت مطلقة صراخاً خفيفاً ومغطية وجهها بيديها، عندها صرخ زوجها مبيناً لها طلبه. وحسبما شاهدت فهي ذات عينين كبيرتين جميلتين، وهذه نادرة هنا وخدود وشفاه حمراء وأمَّا الشعر فلم تكن تضرّه بعض العناية[3]. وقد آلمني حقاً أنَّه قد سبَّب لهذه المخلوقة هذا القدر من الحيرة وقد غضضت النظر حسبما كان يتوقع ولا شك. وهكذا

---

(1) للشاعر الألماني الشهير غوته (1749 ـ 1832م).

(2) انظر يومية 5 كانون الثاني/يناير 1884م.

(3) إنَّ النساء لا يفهمن هذا على الإطلاق، وقلَّما يمكن تحقيقه اللباس والعادات ولو كانت نساؤنا [في أوروبا] مضطرة لأن تضع فوق رأسها قماشاً طويلاً وثقيلاً طوال النهار، وأن تسحبه عند اقتراب رجل غريب على الوجه تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، فإنَّهنَّ خلال فترة قصيرة ستفقدن الاكتراث وتدعن تسريح الشعر.

صعدنا الدرج صامتين. وما إن وصلنا إلى الأعلى حتى سأل بسرية: هل رأيتها. ودون أن أبدل في سحنتي أجبت: نعم وبعين واحدة. ثم جلسنا على السطح براحة، وتقاسمنا الاستمتاع بأشعة الشمس مع الذباب، ثم قرع الباب رسول من ماجد يطلب حضورنا إليه. وكان عليَّ أن أتكلَّم بإسهاب عن المدافع، وأن أرسم بعض الحيوانات وكان أربعة من إخوة ماجد يسمعون ويشاهدون باهتمام وبتواضع يتناسب مع سنّهم.

أمَّا النرجيلة التي أتيت بسببها ظهراً إلى منزل عبد الله فقد تمَّ استخدامها مساءً في التدخين عنده، وأتى هوبر برفقة حمود المجراد.

الاثنين 3 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. لقد أحضر المشاهدة واحداً من مواطنيهم يُدعى سليمان ميرزا، وقد أتى مع ركب الحجّ من المدينة قصد الزيارة. إنَّه وخاصة والده الذي يعيش في مشهد، والتقاه هوبر أثناء رحلته السابقة، يتمتعان بغاية الاحترام بسبب ثرائهما.

عند توجهي إلى مخيم الحجَّاج اعترضني مجهول في الطريق، ووضع ثلاثة أصابع من يده اليمنى أمام وجهي قائلاً: «شمّ هذا»! وبعد الإيماءة برأسي مستحسناً مسح لحيتي دون تردُّد بأصابعه. وأنا أقف، والدهشة ما زالت تتملكني تماماً، قال لي وهو يتابع السير: «أليس كذلك، إنَّه دهن الورد الفاخر وزباد»[1].

لقد حملت معي إلى الأمير عبد العزيز الرسم التخطيطي لصورة له في كرَّاس رسومي جعلتها بالألوان المائية؛ من هو ذلك الذي يشعر بالرضا التام عندما تعرض عليه صورته؟ لقد عرضها في قسم الحريم لطمأنة نفسه وتهدئة للفضول النسائي.

ولو أنّه لم يعانِ شخصياً من وطأة الخوف مثل قريبه حمود العُبيد الذي يرى في الصور بلاءً لا يمكن تلافيه لما فيها من ضرر وإثم إلَّا أنَّه كما يبدو

---

(1) إنَّه مرهم المسك. والواقع إنَّ الزباد هو عطر الزباد المرغوب جداً في الشرق ويؤخذ من قطة الزباد.

كان واقعاً تحت وطأة الفكرة أنَّ هذا الابن العم النبيل والعم يمكن أن يتستر بالأمير بحيث يُتخذ موقف ضده. وقابل بارتياح واضح عندما انتزعت أمام ناظريه الورقة من كرَّاس الرسوم التخطيطية مؤكداً له أنَّني لن أتكلَّم حولها لأحد ولن أدع أحداً هنا في البلد يشاهد الصورة. اقترح عبد العزيز جولة في البستان حيث قضينا فترة من التسلية، ورمينا الرماح والحجارة. ولمَّا كان البدو لا يستعملون الرماح في غير الطعن لم يشارك أحد في التمرين. وإنَّ أبرع ضربة صوبتها بالرمح أصابت وسط جذع شجرة نخيل. وطالما كانت الخيزرانة الطويلة طيلة ثوان تتأرجح مرتفعة في الجو جرى التعبير عن ألوان الإعجاب. لقد جرينا إلى الشجرة كي نشاهد إصابة الهدف. فالنصلة انغرزت بعمق فيها إلى درجة أنَّ العبد بذل جهداً حتى أخرجها منها، وتعرَّض



الأمير عبد العزيز

الحديد للاعوجاج، وكي يثبت على الأقل براعته بادر الأمير إلى سباق الجري. لقد نصحته أن لا يحاول ذلك لأنَّني وحتى إذا تركته يتقدم مسافة فإنَّني سأرميه بعد حين خلفي. وبعد ذلك سيطلق قوله دون ريب بأنَّه نشيط مثل غزال، عندها سأكون مثل فهد. عدا عن القمصان التي شمرت أطرافها عالياً والطاقيات، فقد خلعت جميع قطع الملابس. التقدم بعشر خطوات، واحد اثنان ثلاثة، انطلق، حفاة قفزنا فوق حرش الطريق، وسبقنا العبيد المرافقين بمسافات. وربَّما بعد ثمانين وثبة أمسكت به بجدائله. لقد كان كل منَّا دون نفس تقريباً؛ ولدى كل منَّا احترام متبادل بما فيه الكفاية، وإضافة إلى ذلك فقد عانت قدماي معاناة سيئة وسال الدم في مواضع عديدة، وسحبت من بطن القدم نثرة خشب. بعد الانتهاء من التمارين الجسدية، وفي ظلِّ الانطباع الآتي دخل معنا واحد من قبيلة عبدة العريقة إلى الديوان. وبدأ على الفور بالتباهي بتفوق

البدو الذي لا مثيل له على الجنود الأوروبيين(*)، رغم أنَّه لم يسبق له أن رأى واحداً منهم على الإطلاق. وحتى ولو كان لدينا أسلحة أكثر اكتمالاً فإنَّ العرب سيكونون في كل وقت قادرين على سدّ جميع الثغرات في صفوفهم عن طريق حشود جديدة من الرجال. لقد بذلت بداية جهدي في تصحيح تصوراته المتعجرفة والغبية، ولكن رأيت بعد حين أن أقلع عن ذلك. لأنَّه لا جدوى من النزاع حول الألوان مع أعمى. وقابلت بسكون معاند تماماً أحاديثه وتحدياته ودعمت ذلك بتحديق مؤقت وبمتعة لبعض الوقت، وبعد خمس دقائق فضل أن يخلي مكانه وينصرف، لأنَّ مثل هذا الحديث لا يمكن تحمُّله على الدوام إلَّا في دار المجانين. ويبدو أنَّ هذا الحل بالانصراف كان الأفضل بالنسبة لصاحب البيت فقد خشي على ما يبدو أن نتشاجر جدياً مع بعضنا.

في الساعة الرابعة أرسل الأمير في طلبنا. وكان يجلس أمام نار متقدة في عباءة مطرزة بالذهب ومبطنة بالفرو، ويجلس بجانبه حمود العبيد كالمعتاد، وقد ارتدى رداءً جديداً لا ذوق فيه. ولمَّا كان يبرز سروال حريري من تحت عباءة الأمير المبطنة بالفرو عبَّرت عن إعجابي قائلاً: «هل هذا من الحرير». فأومأ الأمير بالإيجاب. هذه خطيئة ولا شك. ما هو موقف شيخ بيتك من هذا الأمر؟ لقد رغب الأمير أن يعرف فيما إذا كنت أرسم في هذه الأيام، وأمر بإحضار كراس الرسم خاصتي. لم يكن يهتم بالطبيعة، كان يرغب أن يشاهد العبيد الذين رسمتهم، وكم كنت سعيداً أنَّ صورة الأمير عبد العزيز قد استبعدت من الكراس، والأرجح أنَّه قد بلغ مسامعه شيء ما. وقد أحضروا حصاة غريبة عثر عليها في معدة وبر (غرير الصخر) كانوا قد اصطادوه في العام الماضي ثم بدأ الأمير الحديث عن الأخبار التي وصلته من لدن الحجيج القادمين من مكَّة. وقد تقصَّى بإلحاح فيما إذا كنَّا لا نعلم ما الذي يعنيه ظهور السفينة الحربية الأوروبية ما بين ينبع والوجه من البحر الأحمر، وأثارت القلق. وقد قلنا له: إنَّها الكلمة الأولى التي نسمعها، وربَّما تشير إلى التفتيش عن محطة للتزود بالفحم الحجري. ثم تابع كلامه بأنَّ الباشا في مكَّة تحدث

(*) الأصل: المسيحيين. (المترجم).

مع قائد القافلة عبد الرحمن وأمره أن يسأل (الأمير)، ماذا يفعل الأوروبيان(*) اللذان يحتفي بهما ضيوفاً في حائل (حايل)، لا شكَّ أنَّ العثمانيين يخشون هنا أيضاً من تدبير مكيدة سياسية. من هناك توجَّهنا إلى الجانب الآخر حيث الخيول، وعبَّرت أمام الأمير عن رغبتي برسم حصانه الأسود، إلَّا أنَّه لاحظ في الحال، بأنَّه لا يناسبه (إطلاقاً من تخوف قائم على الاعتقاد بالخرافات)(1)، وبذلك لم أطرح هذا الموضوع ثانية. وبالمقابل رسمت بحضوره ذلوله المحبَّب وهو حيوان نحيف من السلالة العمانية. وأراد أثناء ذلك أن يرى الألوان التي أستعملها في الرسم. وقد عرضت علبة صفيح صغيرة تحتوي على ألوان مائية رطبة، لقد وجد هوبر خنجراً جميلاً لدى أحد الحجَّاج، وكلَّف ناصر السبهان أن يشتريه له. وما إن سمع الأمير بالأمر حتى أمره بأن يؤمنه على نفقته. وعند الوداع أكَّد علينا مرَّة أخرى أن نتكلَّم دوماً وإذا ما كنَّا نرغب شيئاً ما.

الثلاثاء في 4 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. أهديت الأمير ماجد عدداً من قطع الخشب المحفورة وتمثل جياداً، وفي طريق العودة استدعينا إلى حمود العبيد الذي قدَّم لي السترة (زبون) ذات المظهر الذهبي، أي خطوة أخرى إلى الأمام، فلترتدع داناوس. قمنا بعد الظهر بزيارة بعض التجَّار الإيرانيين.

الأربعاء في 5 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. لقد أمر الأمير بإحضارنا بسبب الرسائل الموجَّهة إلى أوروبا. ومن باب اللطف لم يشأ أن ترسل [الرسائل] مع القافلة العائدة بل بواسطة رسول سريع. وكنَّا قد جهزنا الرسائل بأن وضعناها في كيس من قماش الكتَّان وخيطناه، وأضيفت إليه رسالة موجهة إلى مراقب الحجر الصحي في مشهد الإمام علي بالنجف الواقعة على نهر الفرات، وهو الدكتور لوبيتش Lubitsch، وعلاوة على ذلك بكرة من الصفيح وضعت فيها بعض النسخ التي أعددتها لنقوش في (مردك وعرمان وجبَّة) وتمَّ

(*) الأصل: المسيحيان. (المترجم).

(1) لقد أفادني هوبر فيما بعد أنَّ العرب ـ ليس فقط هنا ـ في غاية سوء الظن، إذا ما نظر المرء إلى الحصان بتمعن، ويجدر بي أن لا أعود إلى الحديث عن الرسم.

لحمها. ووضعت القطع الثلاث أمام أعيننا مع بعضها داخل كيس من الكتّان ثم خيط وكتب عليه أمين سرّ الأمير والعنوان، وسلّم إلى مراسل سريع يفترض أن يسلّمه في النجف خلال 10 ـ 12 يوماً. ويرسل البريد من هناك إلى أوروبا عبر بومباي. كنت أعلق حول الرقبة قلم رصاص في علبة من عاج الفيل مربوط بخيط حريري أحمر، وإذا بحمود العبيد يتقدّم نحوي، وسأل ممسكاً بقلم الرصاص وبنظرة تنطق بالمغزى، عمّا إذا كان لديّ قلم آخر. وما إن نظرت إلى الرجل حتى قلت في نفسي: تباً لك أيُّها الشيطان، على الأرجح لم يكن بمقدوري أن أتمالك نفسي تماماً بحيث أحجب تعابير الوجه الملائمة لذلك. وقد وجّه له الأمير منزعجاً نظرة رادعة مع الكلمات: «إيه، هذا حقه»، أي إنّه يحتاجه لنفسه.

عقد أمام القصر مجلس كبير، وتوجّهت بعد تناول الطعام لزيارة عبد العزيز وغانم وعبد الله. وبلغني أثناءها أنّ شيوخ عتيبة[1] قد وصلوا أمس إلى هنا للتفاوض بشأن الأخوة أو الخضوع، ويبدو أنّ الغزوات كانت قاسية عليهم ومتكررة. وفي المساء وصل حسين تاجر الإبل وأملى عليّ معلومات عن الإبل بناءً على الطلب، أسماؤها، أمراضها، طرق سيرها وما يشابه ذلك، وقد اشترك الحدّاد حسين والخادم محمود في استكمال بياناته.

في هذا اليوم بدأ الأمير الصيام وهذا يعني التخلي عن الأكل والشراب طالما الشمس في السماء، كان الغزو ما قبل الأخير وقع في رمضان أي في شهر الصوم الفعلي (وهذا المرة في تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس). في حالة المرض أو السفر أو أثناء الحرب يعفى المسلم من الصوم، إلّا أنّه يجب أن يعوّض ما فاته في وقت لاحق مناسب أكثر. وهذا ما يفعله في هذه الأيّام غالبية الرجال القادرين على حمل السلاح. وعلى سبيل المثال فإنّ حمود المجراد يصوم اليوم الرابع عشر في هذا اليوم؛ نظراً لانعدام وجود مفكرة هنا فإنّه يحمل معه رقعة ورق يسجل خطاً عليها يومياً بعد غروب الشمس، ويتفادى الصائمون أي شخص يقترب منهم إذا ما كان يدخن بحيث لا يشمون

---

(1) تبعاً لحسين الذي عاش طويلاً مع رجال القبيلة فإنّهم يلفظون اسم عتايبة.

دخان التبغ[1]. وقد شاهدت اليوم شخصين كانا في هذه الحالة يسحبان الكوفية على وجهيهما. وحتى في حالة التبخير بروائح عطرية فإنَّهم يمتنعون عن الاستفادة منها ويرفضون بقولهم «إنِّي صائم».

الجمعة في 7 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. نادراً ما تسنى لي أن أحضر عند حداد السلاح غانم أو ابنه محمَّد، وأراقب مزاولتهما لفنهما، فالضيوف يرتادون منزله دوماً، ويتم استدعاء الرجل في كل مرة ويجبر على استقبال التنابل في قهوته[*]. وممَّا يثير الإعجاب أنَّه إلى جانب ذلك ينجز أشياء جميلة وحسبما شاهدت فإنَّ جميع نفايات عمله ترمى من وقت إلى وقت على الأرضية الطينية، وقد سألته ماذا يفعل بنفايات المعادن الثمينة التي تنجم عن النقوش والزخرفة. ماذا يجب أن يفعل بها؟ إنَّه يجمع القمامة مع بعضها ويجعلها في بلوعة (البلّاعة) في الفناء أو تطرح في مكان مخصص لذلك، لقد حاولت دون جدوى أن أوضح له أنَّ هذا لا يعدو كونه إسرافاً وحمقاً غير مسؤول، وبيَّنت له أنَّ الصاغة في بلادنا يجمعون النفايات بعناية وكذلك الأمر في المصانع، لأنَّها عندما يُعاد صهرها تغدو ذات قيمة كبيرة جداً. لا بل هناك حرفة تتولّى تنظيف الملابس، والأدوات والطاولات وأرضيات الحجرات ويتمّ استخراج المعدن الثمين من الماء الملوث، وإذا ما طهر الشيء بمفرده تافهاً، فإنَّه من خلال المجموعة ينجم الكثير منها، ولا يقوم الذين يغسلونها بعملهم والعناية بها دون مقابل فحسب، بل يدفعون المال في سبيلها. وقد ضحك الأب والابن باستهجان من هذه الأشياء التافهة. ومثل هذه التوافه لا تؤخذ في الاعتبار أثناء عملهم.

كنَّا ظهراً عند سليمان ميرزا[2] في زيارة وداع، ويبدو أنَّ جارنا ميرزا يرغب أن يعود إلى العراق في غضون عام، إلَّا أنَّني ألاحظ أنَّه قد سئم الحياة

---

(1) لعلّ هذا يعود إلى أنَّه في اللغة العربية، يُقال لفعل يدخن «يشرب»، وبما أنّ الشرب ممنوع فالتدخين ممنوع أيضاً، وكذلك الأمر في اللغة التركية، والعبارة نفسها كانت تستخدم في وقت مبكر في أوروبا، وإنَّ اليهود المتشددين يقلعون عن التدخين يوم السبت.

(*) القهوة في النصّ تعني غالباً المضافة (المترجم).

(2) مرّ ذكره سابقاً.

بين البدو، ويعرض عنها. بعد الظهر زرت الحداد حسين، لكنَّه لم يكن في البيت وتسنى لي بذلك أن أشاهد ورشته.

لقد أرسل ماجد أحد عبيده للحصول على علاج من آلام يعاني منها بسبب سنّه المنخور فأعطاه هوبر حمض الكربول مع التعليمات بأن يجعل نقطة على قطن ويضع كرة القطن الصغيرة في التجويف ويضغطها، ويضع فوقها قطناً جافاً، ولكن يجب أن يحذر أن تمس اللثة أو اللِّسان، لأنَّها كاوية، وما إن وصل الدواء إلى يديه حتى اجتاحه حب الاستطلاع فأمر أحد العبيد أن يمدّ لسانه بحيث يجرب أثر حمض الكربول.

لمَّا كان والده حمود العبيد فقد النابين من الفك العلوي، وبلغه أنَّه يوجد في دمشق أسناني(*)، ويرغب في أن يحضر من هناك سنين بديلين ليركبهما. وإنَّني أستغرب فعلاً أنَّه لم يأمر من زمن بعيد بخلع أسنان أحد العبيد بحيث يرى من تجربتها إذا كانت واحدة منها تناسبه. لقد كان من الصعوبة بمكان أن أوضح له أنَّ الفن يكمن بأن تتطابق الأسنان مع اللثة بدقة، وعدا عن ذلك عليه أن يرسل إلى المعالج الدمشقي نسخة من الشمع لفكِّه العلوي. وبالطبع فإنَّ الأنسب أن يسافر بذاته إلى دمشق. ولكن ما من شيء في العالم يمكن أن يستهويه على أنَّه خطرت بباله الفكرة ومفادها ربَّما يأتي الرجل إلى هنا. إذا ما أرسل إليه الذلول للسفر والهدية الأميرية، التي تبلغ 200 ليرة مجيدية (750 مارك). وقد استاء تماماً عندما عبَّرت عن شكوكي فيما إذا كان سيرضى بذلك : «ماذا تقول». إنَّه والعلم بيد الله كاف من أجل سنين؟ نعم بالتأكيد ولكن فكِّر بالأمر. إذا ما سار المرء راكباً بسرعة جنونية ودون استراحة، فإنَّه يحتاج من دمشق إلى حائل (حايل) 20 يوماً، وفي الواقع أنَّه يتطلب ثلاثين يوماً. ويصل إلى هنا مع معاناة من آلام ناجمة عن الافتقار [إلى الطعام المناسب] ويجب أن يستجم بعض الوقت. وحتى تجهز أسنانك وتركب تمضي عشرة أيَّام، ويحتاج للعودة 30 يوماً وبذلك يتطلب الأمر سبعين يوماً.

(*) الأصل: فنان أسنان وآثرنا هذا المصطلح لأنَّه كان سائداً في البيمارستان النوري بدمشق (المترجم).

خلال هذا الوقت يمكن أن يكسب يومياً بدمشق 4 ليرات مجيدية أي إنَّ مجموع ما يحصله في الفترة المذكورة 280 ليرة مجيدية (980 مارك) دون أن يهلك نفسه، ويتقرح من السفر في نهاية الأمر ولم يكن بوسعه مناقضة هذا الحساب التجاري، وإنَّني على يقين بأنَّ كل حجَّتي سينظر إليها بأنَّها نظرية رمادية وسترمى جانباً بالقول: «مجنون ومثير للسخرية».

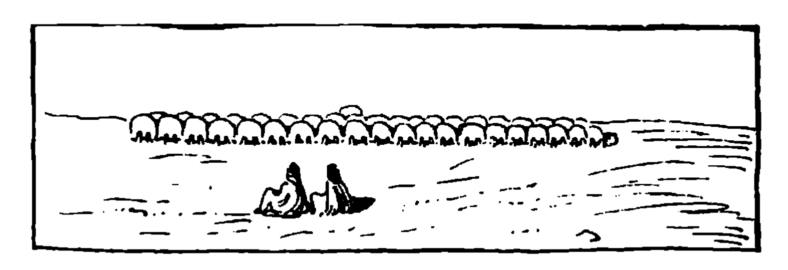
السبت 8 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. في الصباح أقبل الحدَّاد حسين الذي افتقدته بالأمس. لقد اصطحبني إلى ثلاث أشجار أثل قديمة على مقربة من منزله، وبعد أن رسمت إحداها بالألوان المائية أخذني معه إلى ورشته حيث رسمت ابن أخيه حمود بن خلف، وفي طريق العودة لمحت في حي سرحة شجرة نخيل ثبت جذعها حتى منتصفه ما بين ألواح وقوائم بالحبال، لقد ذكر لي حسين اسم المرض الذي تعاني منه الشجرة، وقدَّم لي شرحاً مسهباً له، لكنَّني لم أفهم منه الكثير، ورافقني حتى بيت عبد الله.

الساعة الثالثة بعد الظهر جاء من يبلغ بزيارة مفاجئة للأمير، وقد أقبل بعد ذلك على الفور يرافقه حمود العُبيد وعبد العزيز وبعض من خدمه الخاص. ولمَّا كان صائماً لم نتمكن من تقديم أي ضيافة له. بعد ربع ساعة اقترح أن نذهب إلى الفلاة باتجاه بئر سماح. سار الأمير في المقدمة مع حمود، وعلى مسافة نصف خطوة خلفه سرت وهوبر مع عبد العزيز يداً بيد، ثم سار في صفوف عريضة حشد من حملة السيوف والعبيد، عند بئر سماح أحدثنا جلبة، وباغتنا خمس نساء وقد استلقين على الأرض باستمتاع تحت أشعة الشمس. وعندما دخلنا أسرعن مذعورات إلى الأعلى، ولففن أنفسهن، ولم يكن العبيد لطفاء معهن عندما أبعدوهن، وقدَّم الأمير شرحاً عن البئر والبستان، ثم جلسنا القرفصاء بجانب جدار داخلي على الأرض العارية، وخلع أحدهم معطفه للأمير فقط وطرحه على الأرض، وبناءً على رغبته قمت برسم سريع لخادم أعور ولعبيد. من هنا سرنا في السهل باتجاه عقدة، أثناء الطريق نادى شحاذ عجوز الأمير فوقف وتبادل معه بعض الكلمات، ثم تابعنا السير مئات من الخطوات، مررنا بحائط حجري منخفض، فيه محراب يشير إلى جهة مكَّة. هنا اصطفوا في صفين للصلاة ووقف الخطيب على دكَّة مشكلة



مصلون وقوفاً

من بعض الحجارة وأمَّ الجميع في حين أنَّني جلست وهوبر بعيداً عنهم في الخلف



مصلون سجوداً

نتبادل أطراف الحديث، وبعد الفراغ من الصلاة جلس الأمير هنا مع حاشيته على الأرض أيضاً. واستفسر كيف يحصل أنَّ أُناساً يزعمون أنَّ الشمس ثابتة والأرض تتحرَّك، فقد أصغى باهتمام إلى برهان هذه النظرية التي قلبت العالم، وبدا بأنَّه لا يمكنه أن يتبعها تماماً لا بل قلق لأنَّه أشار وهو يتنفس الصعداء، بأنَّه لم يرد في القرآن ذكر لذلك، ومن الأفضل على كلِّ حال أن يظلّ كلّ شيء كما كان قديماً[1]، ثم أصدر الأمر أن يتمّ إحضار بعض الحمير من

(1) قبل خمسة عشر عاماً عندما وضعت فوق منصَّة وفي أعلى كاتدرائية مونستر في شتراسبورغ أجهزة للرصد الجوي من مختلف الأنواع وضح لي حارس البرج ويُدعى برنارد البالغ من العمر 83 عاماً بأنَّ جميع هذه البدع دون قيمة وهراء وأنَّ الحكمة تقتضي أنَّ لكل مجنون طاقيته. لقد جاء منذ زمن بعيد غريب وأراد أن يعلمه أنَّ الأرض تدور والشمس ثابتة. ما الذي يجب أن يُقال: منذ أكثر من 40 عاماً يرى يومياً أنَّ الشمس تشرق كل صباح هناك خلف الغابة السوداء وإذا بشاب غير محب للاطلاع يأتي ويروح على مثل هذا الرجل العجوز بمثل هذه الكذبة، ولكن لتعلم يا سيِّد أويتنغ أنَّه يمكن أن يكون هناك مثل هذه الدابة وقد أعدم الغريب، ووردت إليَّ هذه الحكاية من مصر. وجد حارس سكراناً يقف ليلاً في الشارع فقال له: «لماذا تقف هنا أيُّها الأزعر؟ فأجابه: سمعت مرة رجلاً يقول: إنَّ الأرض تدور، إلَّا أنَّني لا أصدق كلماته، ولكن الآن أرى كيف أنّ العالم يدور، وإذا =

المدينة للعودة ركوباً إلى البيت. وفي تلك الأثناء صادفنا في الطريق خطيب قرية عقدة، وكان عليه أن يقرفص في نصف دائرة وأن يتلو من القرآن شيئاً من الذِّكر الحكيم عن ظهر قلب. كما أتى شاب وقدَّم شكوى للأمير ووعد الأمير أن يهتم بالقضية؛ ثم أزاحوا الناس من الطريق جانباً، وعندما وصلت الحمير إلى الموضع انصرفنا وعدنا مع حمود المجراد سيراً على الأقدام إلى منزلنا، أمام البيت التقينا الأمير ماجد الذي أتعسنا ساعة أخرى كاملة حتى حلول موعد الطعام.

في المساء ذكر عبد الله بأنَّ حمود العبيد تكلَّم معه عن ساعة في حوزتي وبأنَّه أجاب بالنفي فلم يسبق أن رأى لديَّ ساعة، عندها كلَّفته أن يقول له: لديَّ ساعة بكل تأكيد وهي من نحاس عادي، ورغم ذلك لا أسلم بها. ألا يشبع مفترس الساعات؟[2]. كما أنَّه في كل وقت يولول في أذن قائد رحلتنا حمود المجراد ويقول له لماذا لم تعد تحضر لنا شيئاً من هوبر وعبد الوهاب؟ قبل بضعة أيَّام أعطيت عبد الله[3] ابن حميد الزهيري البالغ من العمر خمس سنوات حفيد غانم قلم رصاص صغيراً على شكل بندقية، وقد وضعت صدفة ونصلة سكين. (لقد قدَّمتها لي السيِّدة الفرديوبست في ستوتغارت بالإضافة إلى أشياء أخرى بحيث أقدمها هدايا أثناء الرحلة). وبلغني اليوم أنَّ حمود العبيد قد علم بهذه الهدية الظريفة فأسرع إلى غانم، وفي ظلِّ التأكيدات أنَّ لديه أيضاً أطفالاً وكان يجدر به وبإمكانه أن يهديهم بالدرجة الأولى، وبموجب ذلك أخذ اللعبة من يد الطفل، آه. هذا الإنسان.

الأحد 9 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. يبدي الأمير ماجد استيعاباً فنياً سريعاً مع أنَّه عادة دون ميول فنية، وعندما كنت أرسم هذا الصباح في قاعة الاستقبال لديه أخذ يناقشني لماذا تظهر الأعمدة الخلفية في الرسم أصغر،

= بالعقل يقول لي بدلاً من أن تتعب قدميك للوصول إلى البيت ماشياً، يفضل أن تبقى هنا واقفاً، وعندما ترى بعدئذٍ بيتك يمرُّ أمامك فلتذهب ولتمسك بإحدى نوافذه بحيث تدخل إليه. إلى اللقاء؛ في كتاب مائة حكاية وحكاية تأليف محمَّد أفندي عبد الفتَّاح. الإسكندرية، ص13.

(2) انظر الجزء الأول وبداية الجزء الثاني.

(3) ابن الحارس الشخصي للأمير.

وهي في واقع الحال جمعيها متساوية الطول، وطلبت منه أوَّلاً أن يغمض إحدى عينيه وبيَّنت له التناقص في الطول مع تباعد المسافة، وبعد حين فهم أيضاً الخطوط التي تتجه من الأعلى والأسفل في مركز العين (الأُفق) بحيث كان في وسعه قبل مضي عشر دقائق أن يتعلم أن يرى على نحو صحيح. وكان عليه أن يثبت ذلك من خلال رسوم سيقوم بإنجازها وذلك بوضع الخطوط والزوايا على الورق دون أخطاء، ثم جاء الخبر بأنَّ الأمير سيخرج مع الأمراء راكبين على الخيول، ففتح باب الدار وأخرجت الخيول الواحد تلو الآخر من الاصطبل المواجه للبيت وتمنطق الأمراء بخناجرهم ثم خرجوا إلى الشارع دون تكلُّف مرتدين السراويل الواسعة على الجسم العاري، بينما كنت وأشخاص آخرون من الحاضرين نشاهد ذلك.

كان بودي أن أسمع من غانم بذاته الطريقة التي اتبعها العبيد فعلاً في التوصل إلى أخذ لعبة قلم الرصاص في شكل بندقية. والأرجح أن يكون قد امتقع لون وجهي وغدا أصفر قبل الوصول إلى بيته، وزعم غانم أنَّ الذي أخذ الهدية من يد الحفيد لم يكن العبيد بل الأمير بذاته ولكن ما الذي يجعل الأمير يهتم بمثل هذا الشيء التافه. غادرت البيت في ظلِّ اللعنات، وتابعت اجترار انزعاجي فوق هضبة البويضة الواقعة جنوب شرقي المدينة.

الاثنين 15 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. في الصباح وقبل تناول الطعام خلف بئر السماح رسمت صورة لمنظر حائل (حايل) من الأعلى، وبعدها قمنا بالتفتيش عن ابن الذئب[1] في مغارته المظلمة، وكان على درجة من الوقاحة بأن وضع لي أمام أنفي وعلى الفور بعد الاستقبال قلم الرصاص البندقية بعد سحبه من الجيب وأخذ يتباهى به قائلاً: «انظر، إنَّه الآن لديَّ. لماذا لم تعطني إيَّاه في الحال؟ ولم أقوَ على تمالك نفسي إلَّا بشقّ الأنفس وأجبته: «لم أتصور على الإطلاق أنَّك يمكن أن ترغب بمثل هذه اللعبة التافهة، ورغبت أن أعطيها لهذ الصغير، لأنَّ هذا مبعث سرور لي، آه ما الذي جعلك تحب هذا القرد، إنَّه أبله تماماً، يا إلٰهي، يمكن أن يصاب المرء في

---

(1) انظر الجزء الأول.

الحال بالحمى الخضراء، وأعتقد أنَّه من المحال تماماً تقديم أي هدية شخصية لشخص في حائل (حايل) إذ إنَّه قبل أن تنقضي ثلاثة أيَّام تكون الهدية قد ارتحلت إلى القصر، ولا يعدو القصر أن يكون ميناء السعادة الكبير يلتقي فيه كل شيء طوعياً أو بالإكراه. إلَّا أنَّ الجشع الغادر لم يتوقف عند هذا الحد. فقد شرع [العُبيد] في كيل السباب حتى لحمود المجراد الذي قام كمكافح يقظ بنهبنا بفعالية تامة لصالح القصر واختص لنفسه بجميع الهدايا التي أعطيناها له. كما يبدو وأنَّه [العبيد] قد وشى بالرجل عند الأمير وأراد أن يجرب حظه لدي، لكن دون جدوى. لأنَّني لا أدع شيئاً يمس رفيقنا القديم، ودافعت عنه بكل جهدي.

في المساء استدعينا إلى الأمير في القصر، بعد تأدية الصلاة أحضر العديد من العبيد، وكان عليهم أن يعرضوا مهاراتهم، فقام أحدهم بتقليد أصوات جميع أنواع الحيوانات الممكنة ثم صلاة شيعي (إيراني) واختتمها بإيقاع عود عتيق.

وأمَّا الآخر فوضع اليد الفارغة تحت الإبط وقد أصدر بالضغط بالذراع الأصوات المحبَّبة، ولكن غير اللائقة، والتي يعرفها كل شخص منذ عهد طفولته.

وقام الثالث بتقليد شخصيات معروفة في المدينة في طريقة سيرهم وحديثهم وحركاتهم، وقلَّد بظرافة الإيقاعات الحزينة للربابة، وقام في النهاية بتأدية رقصة وطنية من بلاده، وكان الجمهور بأجمعه بمن فيهم الأمير يضحكون من أعماق القلب لهذه العروض التي تلامس حدود الحياء. وأخيراً جاء دور عبد آخر اسمه خُميس ويتمتع بقوَّة جسدية وكان عليه أن يرقص على رجل واحدة ويعض أثناء ذلك إبهام القدم الأخرى بعدئذٍ يقفز أمام وخلف العصى التي يمسكها بيده عمودياً ويضع الميزان على كرسي، وفي الوقت ذاته يحني الرأس نحو الأسفل، ويلتقط غرضاً بأسنانه عن الأرض ويرفعه. وإنَّ أفضل عرض يقدمه هذا العبد حسب تأكيدات الأمير يمكن أن يكون في النفود، وتحديداً من على سنام جمل

عندما يغرز الرأس في الرمل بقفزة وتظل الأقدام مرفوعة في الجو حتى يسقط. كان الشخص الذي يجلس بجانبي ابن عم الأمير حمود



بهلوان عربي

العبيد، ويبدو أنَّه من خلال ما شاهده من عروض القوَّة قد تزايد وعيه الوطني والإسلامي، لأنَّه أراد أن يضغط على ذاكرتي قائلاً: إنَّه في بلاد النصارى لا يوجد مثل هؤلاء الرجال الأقوياء والموهوبين. لبرهة نظرت إليه بهدوء، وقلت له: لتأمر أن يأتي الأمهر بين عبيدك ولنرّ فيما إذا كان يستطيع أن يثني ركبتي. وفي الحال أقبل اثنان بعد غمزة، وبكل غرور أدرت نفسي نصف دائرة على الجانب الأيسر، ومددت من بين ثيابي رجلي اليمنى عارية إلى الأمام، ودعوتهم أن يفعلوا بها ما بمقدورهم، وفي الحال ثبت أحدهم قدمه على ركبتي وأمسكني بقدمي وكعبي بحيث يطوي ركبتي. واستهزأت ضاحكاً من الجهود اليائسة وقلت له: «يمكنك الاستعانة باثنين آخرين، عندها لن تتمكنوا من الإتيان بشيء».

وعلى الفور اقترب اثنان، وشجعتهما على المشاركة، بينما أخذوا يضغطون كل شيء، ويطأون ويسحبون دون طائل، خطر ببال أحدهم بسرعته الجنونية اللجوء إلى مخرج غير مسموح به على الإطلاق، وبضربة كف غاضبة شل دفعة واحدة عضلة الفخذ ومالت الركبة وتهاوى الثلاثة نحو الخلف وساد مرح عام إلَّا أنَّ حمود ما زال غير راض عن ذلك وتساءل فيما إذا كان بوسعي أن أؤدِّي ما قام به عبيده من أعمال رائعة، أو أن أعمل شيئاً مشابهاً بالمقابل، قلت بكل تأكيد وطلبت عوداً من الأثل أو اثنين مثل تلك التي تستعمل في سقف البيوت، ويجب أن تكون بقدر الإمكان ملساء ومستوية، وليست غليظة كثيراً،

وعلى وجه السرعة جرى بعضهم وأحضروا نصف دزينة من العيدان، واخترت واحداً منها له عقدة، إلَّا أنَّ القشرة لم تكن مناسبة للغرض لذلك جعلت بالسكين بعض العقد ملساء، وطلبت من زوجين من العبيد وضع العصا على أعناقهم، وامتحنت الوضع المخلخل بعد أن طرحت المعطف والكوفية جانباً، وربطت القميص بحزام كان بالإمكان الشروع بالعرض، وأمرت: «تماسكوا» وبوثبة واحدة سريعة موجَّهة إلى البطن طرح العبيد أرضاً وجهز أربعة عبيد آخرين، وفي ظلِّ توتر الجمهور، وحبس الأنفاس عرضت لعبة لم يسبق أن جرى التدرب عليها منذ عشرين عاماً أو ما يزيد. وبالتأكيد لم يتحقَّق ذلك دون جراح مؤلمة في باطن ركبتي غير المحمية.



لعبة القلاب

أثناء تأدية عروض أخرى تثير الدهشة أعلن عن زيارة رجل معروف بتقاه يُدعى الخطيب عبد الله، وعلى وجه السرعة استدعاني الأمير قائلاً: البس، ولم يكن لديَّ سوى وقت ضيِّق، بحيث أحشر نفسي في عباءتي وأبلغ مكاني لاهثاً. عندها دخل الخطيب، مستغرباً، ودون أن يطلب شرحاً خطا نحو المكان المهيأ له. لقد سادت القاعة سكينة محيِّرة، وكان الجميع يتمنون بدلاً من الردّ على التحية أن يذهب الرجل الصالح في حاله، إذ إنَّ السهرة انقطعت على نحو مؤلم، وتسنى لي أن أفكر بهدوء بمسألة ذهاب مقدرتي الفنية قائلاً: أي براعة فنية فقدت، ولا أعلم ما إذا كان قد لاحظ من تلقاء نفسه، وأنَّ أحداً أسرَّ إليه، بأنَّ دخوله سبّب الضيق للجميع. إلَّا أنَّ الخطيب أراد أن يخاطبني فقال لي: إنَّه قد نسخ في جبل السراء على مسيرة يوم طويل باتجاه الجنوب نقشاً مكتوباً بحروف غير معروفة وأنَّه في وقت ما سيعرض عليَّ النسخة.

الثلاثاء في 11 كانون الأوّل/ديسمبر 1883م. لقد دهشت غاية الاندهاش أن أستلم في الصباح الباكر ورقة[1] حملها إليَّ رسول الأمير، وهي بخطّ الخطيب عبد الله. لا شكَّ أنَّه من النادر أن يمنح بدوي اهتمامه لرموز كتابية، إلَّا أنَّ المدهش تماماً أن يبادر بطوعية لنسخ هذه الحروف. وفي 27 كانون الثاني/يناير 1884م عندما وقفت شخصياً أمام الصخرة في جبل السراء تأكدت بنفسي من مدى الصواب والدقة التي توخاها الرجل أثناء عمله، إنَّ التراجع المستمر في حرارة الجو أصبح ملموساً على نحو واضح (درجة الحرارة 7°) لقد ارتديت اليوم قميصاً داخلياً وجوارب صوفية. حوالى الساعة التاسعة أرسل ماجد يقول: إنَّنا سنذهب إلى عبد الله، لنقوم بزيارته سوية. ومن هناك جرني معه إلى بستانه، أثناء الطريق استفسر عمَّا أخبىء في الجيب العلوي من قميصي، والمعلومة السرية هي: «إنَّ الكأس المطاطي للشرب القابل للطوي كان ذا وقع تحت نظره وذلك نظراً لفضوليته وجشعه إلى درجة أنَّه لم يستطع تمالك نفسه وباندفاعة سريعة استطاع أن يستأثر بنجاح بالشيء العجيب، ولم ينفع اعتراضي بأنَّه لا يخصه، وأنَّه يعطبه في خمس دقائق، وجرى سحب الكأس وشدَّه إلى درجة مستحيلة، ولم يكن بوسعي أن أشاهد العبث الصبياني فأشحت بنظري جانباً، ومن باب التعويض وعدني بكأس من النحاس أو طاسة من القصر يرسلها إليَّ لكنَّني أرفض مثل هذا القطع لأنَّه

صورة نسخة دقيقة في يومية 27 يناير/كانون الثاني أدناه

(1) كتب على الورقة: «وجدت مكتوباً على صخرة جبل سراء الماء الذي كان في بلاد طيّ ما صورته هكذا».

يصعب أن أضعها في الجيب واصطحبها معي. لقد أتيح لي أن أشاهد صقور الصيد في فناء مجاور لبيت ماجد. إنَّها ستة صقور مربوطة على مراكبها مشكلة لهذا الغرض. وقمت برسم واحد منها ومعه عبد يُدعى فنيسان وقد أسندت إليه مهمة العناية بطيور الصيد، وإلى جانب ذلك كنت أرغب أن أستمع إلى شرح عن أسلوب تعليم الصقر على القنص، إلَّا أنَّني أعترف بأنَّني غريب عن الموضوع ولم أفهم المصطلحات الخاصة به.



فنيسان وصقر

ويحتفظ الجماعة بلغة صيد لا يوجد قاموس يضم مفرداتها[1](*).

بعد الظهر توجَّهنا إلى حمود العبيد، الذي لا يمكنه أن يفوت فرصة

---

(1) صقر: صقور

برقع: براقع (طاقية جلدية) [تحجب عيني الصقر وقت استراحته. (المراجع)].

متكاكه: متكاكيك (رباط جلدي).

مركابة: (طبق للجلوس) [هذا اسمه بالعامية أما باللغة العربية فاسمه كندرة وجمعه كنادر وهو مجتمع البازي والصقر. (المراجع)].

سيخ: (طريقة الجلوس).

دس: (قفاز من جلد الثعلب الرمادي ويُدعى حصني مربط السلسلة).

ويدعون صقورهم بالأسماء التالية:

عرجان.

هزاع (ممزق الطريدة).

غنام (موزع الغنائم).

عزام.

سويد.

جردان.

ويذكر هوبر أسماء أخرى مثل خطاف، وصفاق (الذي يضرب بجناحيه) ويستعمل اسم سلوقي جمعها سلق لكلاب الصيد.

(*) ينظر كتاب **البيزرة**، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق 1409هـ، 1988م، ص29. (المراجع).

لاستجداء شيء ما في كل مرَّة. وفي هذه المرة جاء دور دبوس المشبك الذي أغفلته مغروزاً في عباءتي وقد وعدني عن طريق غانم أن يأمر بصنع دبوس مشبك آخر لأجلي، وأثناء طريق العودة صادفت أحد عبيد ماجد الذي ناولني كأساً زجاجياً عتيقاً للشرب بلون أخضر كريه وجواباً على السؤال: هل ما زلتم جميعاً تمطون الكأس المطاطي، أجاب: كلا لقد خرب وفي الحال بعد مغادرتك أخذ ماجد يشده بكل ما أوتي من قوَّة، ومزَّقه عن بعضه البعض، وحصل كل منَّا على قطعة منه، هذه، انظر. نعم هكذا هم الأوغاد. لقد حضر حمود المجراد وعبد الله لتناول طعام الغداء، وذكر الأخير أنَّ حمود العبيد قال له: «إنَّني أستحي فلتتكلَّم مع هوبر [ويبدو أنَّه يخجل منِّي أكثر] إنَّه يجب عليه أن يهديني أيضاً ساعة جميلة أو مسدساً أو بندقية» آه ألم يشبع هذا المخلوق، فيما بعد توجَّه هوبر إلى القصر كي يسلمه دواء موعوداً، وقد سألت حمود المجراد لماذا لم يذهب مع هوبر، فأجاب أنَّه غير مرحب به حالياً في القصر.

الأربعاء 12 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م، لم أكن قد نهضت منذ فترة طويلة بسبب برودة الجو الشديدة (درجة الحرارة 7°). قمت برّد زيارة المشهدي أحمد رشيد، وقابلت أيضاً أخ جارنا ميرزا الذي سافر إلى مشهد. وقدَّم أحمد بعضاً من الحلويات من بلاده مثل الصنوبر الأبيض والقناطي (عجينة حمراء) وفستق مُحلَّى كثيراً، وملبس ولوز محمَّص وغيرها من المكسرات.

اعترضت زيارة عبد العزيز، لكنَّني لم أتمكن من الدخول، فقد انكسر قفل الباب أو أنَّ بعض الأسنان بقيت عالقة بالدرباس وجاء الأمير بذاته إلى وراء باب داره ليعتذر. ولأنَّ تبادل الحديث بين شخصين لا يريان بعضهما لم يكن ممتعاً ولذلك قطعنا المحادثة بعد حين.

في الساعة السادسة والنصف استدعانا الأمير إلى القصر، وقد أبدى حمود العبيد، الذي لا يطيقني ولا أطيقه، ملاحظة للمرة الثانية، عندما أمر الأمير بإحضار كراس رسومي، بأن رسم الإنسان إثم، وما إن أجبته بأنَّه ليس

إثم لدينا، فذكرني قائلاً: إنَّك هنا ولست في بلادك، ولا أعتقد أنَّ الأمر انتهى عند هذا الحد فعلى الأرجح أنَّ المشايخ يدبِّرون مكيدة، وعندما نأى حمود جانباً لوقت قصير للصلاة ناداني الأمير إليه، وقال لي: لا تَخفْ، واستفسر ما الذي جعلك تفكر برسم فنيسان مع الصقر، وكانت مناسبة تماماً ليعلم أنَّ ماجد وإخوته طلبوا منِّي ذلك، لأنَّهم أرادوا أن يشاهدوا كيف يتم التعامل مع الألوان، إلَّا أنَّه وشوش في أذن هوبر إنَّه من الأفضل أن يقنعني أنَّه من الأفضل أن لا يرسم الناس هنا بعد الآن. وقد نصحني هوبر بأنَّه إذا ما سنحت الفرصة يفضّل أن ترسل يومياتي وكراسات رسومي إلى دمشق أو بغداد بحيث تحفظ بأمان. إنَّ الحماقات التي تنجم عن خرافات دينيَّة هي الأخطر وذات شرّ مستطير.

الخميس 13 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. في الصباح أقبل لزيارتي الخطيب صالح وحمود المجراد وناصر السبهان والإيراني أحمد رشيد ميرزا. وقد اتخذ الخطيب باعتباره عالم دين المكان الفخري على سجادتي، وعندما دخل الشيعي كنت شارد العقل، ودعوته ليأخذ مكاني (أي على السجادة نفسها بجانب الشيخ الوهابي) وقام هوبر بتصحيح خطئي الفج وأمسك الشيعي[1] بيده وأجلسه على سجادته في الجهة المقابلة بعد فترة قصيرة غادر الخطيب مع حمود.

لقد توجَّه هوبر بمفرده لزيارة ابن عم الأمير حمود العُبيد فكان استقباله تحت وطأة الخلاف معي يوم أمس وقال: قوم[2] (هذا يعني عداوة) إلَّا أنَّ هوبر هدأه بقوله: استغفر الله.

في هذا اليوم وصل إلى حائل (حايل) شراري اسمه مبارك موفداً من جانب جوهر في الجوف، وواصل السير ليلاً نهاراً على ذلول ليخبر الأمير بأنَّ عنزة تقوم بغزو على شمّر في المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من هنا، وفي الحال كان ينبغي أن يركب عدد من الرجاجيل ويشمِّروا عن ساعد الجد كي

(1) الأصل: المارق.
(2) يذكر هِسّ أنَّ قوم تعني: 1 ـ القوات. 2 ـ العدو.

ينذروا شمّر برمّتها بحيث يتربّصون باتجاه الغزو، وبذلك استدعي راعي [قائد] الجيش عايد الستر وتسلّم التكليف بأن يعمل حتماً على توفير الأمان لخيول الأمير وجماله أي أن يدعها أقرب إلى العاصمة وحتى في حالة عدم تعرّضها لخطر مباشر.



راعي [قائد] الجيش عايد الستر

عاد حمود المجراد خالي البال، والصحيح أنَّه لم يذكر لنا شيئاً عن الأمر، لكنَّه أمضى ساعة كاملة من النهار مع الأمير وحمود العُبيد، وبذلك يكون قد نال المسامحة. تناولنا طعام العشاء لدى عبد الله من باب التغيير.

الجمعة 14 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. لقد غدا حمود المجراد معانداً وغير مؤدب تجاهي؛ لقد أحضر الشراري مبارك إلى البيت، وطلب منه هوبر أن يُعدِّد له فروع بوادي السرحان. وإمَّا خادمنا محمود الذي تولّى تسجيل الأسماء العربية فقد زعم بعدئذٍ بأنَّ نصف البيانات كاذبة، وذلك بناءً على تدبير من المجراد، وقد راودني الشعور أنَّ الرجل قد كذب انطلاقاً من العادة والخوف والريبة.

جاء عبد الله على ذكر إعدامات عديدة سابقة بقطع الرأس حضرها بذاته في إحدى المرَّات، كان يجب أن يقطع رأس شخص ومع أوَّل ضربة على العنق سقط أرضاً. ونظراً لأنَّه لم يفقد الحياة، قام القاضي بحز البلعوم. وعندما سال دم كثير منه أعلنه ميتاً، وتركه ملقىً على الأرض، وبعد فترة من الوقت عاد إلى وعيه، وجرى الاستفسار لدى الأمير عمَّا يجب فعله، فأصدر الأمر بتركه على قيد الحياة، ولكن يجب أن ينصرف، وبعد ذلك خيطوا له الجلد، ثم غادر الرجل إلى القصيم، ويجري في الغالب قطع رؤوس 5، 6، 7 رجال دفعة واحدة ولم تتوقف هذه الإعدامات فعلاً إلَّا مع استقرار حكم

محمَّد بن رشيد، وإذا ما تسلَّم حمود العُبيد دفَّة الحكم، فإنَّه على الأرجح سيعاود قطع الرؤوس، وسيكون من الصعب أن يشاهد أوروبياً[1] في نجد.

اشترى أخ حمود العبيد فايد (فهد) من حاج إيراني ساعة فضية بقيمة 13 ليرة مجيدية (45 ماركاً)، وللأسف تظهر على ميناء الساعة صورة القيصر والقيصرة، وعندما دخل بها الجامع، وأخرج الساعة أمام الخطيب دون الحذر فقال له هذا: إنَّه إثم، وإنَّه لا يسمح له بالدخول إلى هنا، وهو يحمل مثل هذه الساعة حول جسده. وهو يحاول الآن أن يحيل الساعة إلى صديقنا عبد الله، بحيث يرى كيف يبيعها.

إنَّ عمران المشهدي الذي أقرضته قبل بعض الوقت 1800 فرنك قام اليوم بزيارة الأمير، وعرض عليه البضائع التي وصلت أخيراً من مكَّة مع ركب الحجّ فاختار منها لنفسه بعض الفوانيس بالطبع بلا شيء (مجاناً) وهذا الأسلوب يعتبر مريحاً للأمير بجبي رسوم من التجّار الإيرانيين الذين يحصلون على ثروات.

السبت 15 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. توجَّهنا ظهراً إلى عبد العزيز وفي المساء إلى الأمير، وعندما دخلنا كان الخطيب وجار الله قارىء الأمير قد قرأوا على وتيرة واحدة فصلاً من سيرة الرسول للقسطلاني الذي اشتريته في القاهرة لتقديمه هدية، وممَّا أثار استغرابي غناء قطعة من المعلقات التي تُعتبر تعليمياً لا مناص عنها، وكنت سعيداً عندما انتهى الغناء الاحتفائي لأنَّه لم يكن بوسعي أن أفهم أي شيء بسبب السرعة في الغناء. وعلى العكس من ذلك أضيف إليها أناشيد حربية وهجاء. وغيرهما من القصائد[2] التي تعود إلى

---

(1) في الأصل: مسيحياً.

(2) لقد ذكر الأمير على سبيل المثال أنواع الكماء التي تنبت هنا في البلاد في البيت التالي:

الخلاسي لراسي.

الجبيات لأم البنات.

الزبيدي للعبيدي.

البلوخ المشيوخ ـ للشيوخ.

ويُعدِّد هِسّ الأنواع التالية منها:

العصر الحديث، لقد طلب صديقنا عبد الله الحضور إلى الأمير. وبعد أن جلس بالانتظار بعض الوقت دخل إلى المجلس، وقرفص أمام الأمير. وذكر أنَّه قبل سنوات أقرض شخصاً 35 ريالاً وأنَّ الرجل قد توفي ويمتنع ابنه عن تسديد الدَّين، لا بل يتبجح بالنقود، ولذلك فإنَّه يرجو الحصول منه على رسالة (أمر بالدفع)، وكان على كاتبه أن يكتب ورقة في الحال وصبَّ شيئاً من الحبر على اليد اليسرى ثم غمس فيه خاتمه وختم الورقة وحملها عبد الله ومضى بها بعد حين. وقد أخذ الورقة إلى المدين وإذا لم يدفع بناءً على هذه الرسالة فإنه يحضره أمام الأمير الذي يرسل عندها كلاهما إلى القاضي.

الأحد في 16 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. ذهبت إلى ماجد ولكن دون أن ألتقيه، ومن بعده ذهبت إلى غانم. لقد جعلت اليوم خادمي محمود يملي عليَّ أسماء البنادق وقطعها، وفي المساء عندما جعل هوبر يُعدِّد له أنواع الملابس، وأمر محمود أن يكتبها له وانضمَّ حمود المجراد إلى الحضور. وقد أثار غيرته أنَّ شيئاً يحدث هنا من دونه. فكان يقول عند ذكر أية قطعة ملابس «بس» كي يختصر العمل في ذلك، ويضع حدّاً للملل، وكان يفضل الثرثرة.

الاثنين في 17 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. في الصباح أقبل ناصر السبهان مع ماجد وحاشية، وفيما بعد أرسل معجماً عربياً كبيراً[1] لأرجع إليه، وقام واحد من جيراني الإيرانيين محمود ن. ن. باصطحابي إلى منزله بحيث أشاهد عجيبة لم ترها عيني مطلقاً، بأن أدخن من غليونه الخاص. عند المساء أحضر حمود سنجارياً كان عليه أن يُعدِّد فروع قبيلته. إنّه يبعث على الضيق والملل والجزع من الضحك والشفقة، ولم يكن ليبدي مثل هذا الرعب أمام

= خلاسي: الكمأة الحمراء وهي قريبة من سطح الأرض بوركهارت Burckhardt 48، هوبر 62 الغيبة اسم نادر، الجباء الاسم المألوف، وهي حمراء من الخارج بيضاء من الداخل، وعميقة في الأرض. الزبيدي: كمأة بيضاء، بلوخ: كمأة حمراء.

(1) **إنَّه القاموس المحيط للفيروز آبادي**، وهذه النسخة المشكلة طبعت طبعة حجر في لكنو في الهند في عام 1298هـ/ 1881م في 4 مجلدات واشتريت في مكّة مقابل 6 ليرات مجيدية (21 ـ 22 ماركاً.

أعنف الجراحين بمنشار العظام والإزميل ومثقب المخ. وفي النهاية لم يكن بُدّ من أن ندعه يقفز، ولم يعتصر منه سوى القليل النادر.

في المساء طلبنا الأمير وكنّا نسمع أصداء الضحك من بعيد، فقد شرعوا في الزجّ بجميع العبيد في لعبة ركب القوارير مع رجل فوقها وإشعال شمعة في الوقت ذاته، وكنت قد عرضتها صباح هذا اليوم أمام ماجد وناصر إلى جانب موضوع التجربة كان يجلس الأسود الموهوب في أداء الإيقاعات[1] مترصداً أي إخفاق لمحاولة متعثر بحيث يحل مكانه.



لعب التسلية في حائل (حايل)

لقد أنهيت هذا الانشغال الأحمق بتقديم وعد أن أعرض عليهم شيئاً أكثر إثارة. إذ أخرجت سدادة فلين من قارورة، وأدخلت فيها إبرة خياطة مع الخرم، ودفعت من الأسفل بالميل سكينين في الفلينة بمقابل بعض، ثم جعلت عبداً يدخل، وكان عليه أن يسحب أمامه سيفاً منكساً نحو الأسفل شخصت أنظار الجمهور بأجمعها وقد حبست الأنفاس وتزايدت الدهشة عندما وضعت الإبرة مع ما يتبعها على ذروة السيف، ثم جعلت بالإصبع جميع العناصر تتحرَّك في حركة دائرية وتهتز. إنَّها لا تسقط ما شاء الله، لا قوَّة إلَّا بالله! لقد استفسر الأمير، فيما إذا كان حقاً توجد في البلاد الأوروبية[2] نقود من ورق، وكيف يتم التعامل فعلاً بها، وفيما إذا كانت كمية الورق بهذه القيمة، وما الذي يمنح الورق القيمة، وفيما إذا كان الناس لا يمتنعون عن قبول ورق

---

(1) ما مرّ عن ذلك سابقاً.

(2) الأصل: بلاد النصرانية.

عوضاً عن النقود، ولم أتمكن من الإجابة على الأسئلة إلّا من خلال أمثلة صبيانية: «إذا أمرت أن يكتب مثلاً على قطعة ورق: إنَّني آمر ناصر السبهان (وزير المالية) أن يدفع لحامله مبلغ 100 ريال، وتضع خاتمك تحتها، فإنَّ ناصر السبهان لن يتردَّد للحظة واحدة أن يسلِّم الرجل 100 ريال فضي في يده. إذاً يمكنك أيضاً القول: إنَّ قيمة تلك الورقة 100 ريال مثلها مثل النقود الفضية تماماً. إنَّ أمبراطورنا لديه الكثير من العمل، وإنَّه ينقل بعض المهام إلى كبار وزرائه. وهكذا فإنَّه ينبغي على وزير المال، وهو ولا شك أكبر بكثير من وزيركم ناصر السبهان، أن يضع اسمه وخاتمه على الأوراق النقدية، وبالتأكيد فإنَّه يضمن بشخصه أن يسير كل شيء على ما يرام. من حيث المبدأ فإنَّه بوسع كل شخص، إذا ما حصل على مثل هذه الورقة [النقدية] أن يذهب إلى بيت المال وأن يطلب إعطاءه مقابلها ذهباً أو فضة. إنَّ التجَّار لا يرغبون على الإطلاق أن يحملوا معهم معادن ثقيلة، بل يفضلون دفع الورق من يد إلى أخرى أو أخذها. نعم، نعم صحيح تماماً، ولكن أرغب أن أشاهد فقط قطعة [ورق] بطبيعتها، ومع الكلمات: «إنَّه بوسعك أن تراها في الحال. نهضت وذهبت إلى البيت وأحضرت من هناك ورقة مائة مارك. وقد تلمس الأمير الورق وتأملها من الوجه والظهر. ولم يكن صعباً أن يتعرَّف على 100 والتواقيع على الوظائف المختلفة (كبير الوزراء ورئيس الخزانة والمحاسب الخ) وهو يشير إلى الصبيان ذوي الأجنحة أو الملاكين الممسكين بالإكليل وأراد أن يعرف ما هذا، عندها أنقذت نفسي بأن زعمت بأنَّهم جنّ، «ماذا»، هل يظهر الجن بهذا الشكل، تعالوا جميعاً: الآن يمكنكم أن تروا الجنّ. وانطلقت الصيحة كيف؟ ما شاء الله، سبحان الله أو يا ستَّار، وأطلقوا العنان للفضولية وللقشعريرة الغامضة. وبالطبع فإنَّ كل فرد يجب أن يأخذ الورقة باليد حتى بأنّه اكتفى. ولمَّا كنت أمتلك أحدث المعلومات وأدقها عن الجنّ، أفضت دون اكتراث بجميع المعلومات المطلوبة. فالجنّ أكبر بكثير، والبعض منها مرعب من ضخامة جسمه، ولكن في هذه الحالة ولصغر مساحة الورقة [النقدية] لم يضع المرء سوى الأصغر منها، وعدا عن ذلك فإنَّها اختيرت من الجنّ الخير وسليم النية. وعلى كلِّ حال لم أستلم ورقة المائة مارك إلّا بعد

ثلاثة أو أربعة أيَّام، لأنَّ حمود العبيد جعلها تطوف على حريمه، ومن هناك استمرت الجولة لدى ماجد وعبد العزيز. . إلخ.

لقد أرادوا جميعاً أن يكحلوا ناظريهم بها وأن تقشعر أبدان نسائهم عند عرض صورة الجن عليهن.

الثلاثاء في 18 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. لقد كتبت اليوم العديد من تمارين اللفظ من مجموعات كلمات[1] تسبب عند تكرار لفظها السريع تلعثماً

---

(1) يورد المؤلف تمارين اللفظ التي سجلها ويضع لكل منها رقماً مسلسلاً، بعضها بطريقة غير مألوفة توخياً لتنبيهات اللفظ ويترجم كلاً منها، وفيما يلي التمارين التي سجلها:

1 ـ طحين حنطة طحين دخن.

2 ـ عمي طُرمان ذبح كبشه طبخ على كرش كبشه كشك.

3 ـ بررر يا مَطْيَّب كرش كبش عمي طُرمان لَطْبَخ عليه الكشك.

4 ـ قضيب القَيضَلنضَب وعَصاية العَيصَلنصَب وطيرٌ تقفقف وقف على قَفَى قفص من القصب الأصغر.

5 ـ سبع خشبات بُقص بسقف باب حبس حمص.

6 ـ ويصفون الأُمم المختلفة في الأبيات التالية:

ـ العربي غرفٌ من بحر.

ـ التركي نقرٌ في الصخر.

ـ الفرنساوي لمٌ من الجمر.

ـ الفارسي قَطبٌ من الزهر.

ـ الكري لمٌ من البعر.

7 ـ أصل لفظ عربس.

ـ تركي هونرس.

ـ فارسي شكرس.

ـ عجمي دوغرس.

ولم يعلم محمود ولا سواه معنى هذا البيت الأخير وربَّما كان قولاً مأثوراً، وهو بالفارسية، واللافت أنَّه ما من شخص في حائل (حايل) يعرف كلمة فارسية رغم وجود الإيرانيين بينهم. ومن ناحية أخرى قد لا يرغبون بترجمته من باب اللباقة لأنَّه يتضمَّن ترفع المسلمين عن سواهم، ويمكن ترجمته مع بعض التعديلات الطفيفة على النحو التالي:

العربية أقدم اللغات.

والتركية متميِّزة.

والفارسية حلوة مثل السكر.

مضحكاً، مثل عربة بريد كوتبوس «S Liegte Klötezle gleiglei Blaubeuren». وما يشابهها.

الأربعاء 19 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. لقد أثار دهشتي وقوف حمارين أمام منزلي يمتطيهما هوبر وعبد الله، بحيث يقومان بجولة في هذا اليوم باتجاه الشرق. في الساعة التاسعة توجَّهت إلى ماجد ثم إلى غانم، وعند الظهيرة استُدْعيتُ إلى حمود العبيد وكان حديثه عسلاً خالصاً، كان يستفسر جدياً عن ألمانيا فورتمبرغ، الألزاس. وتسهيلاً للتفاهم فقد ذكرت ما يلي: تتشكل ألمانيا من أربع ممالك هي: بروسيا وبلغاريا وسكسونيا وفورتمبرغ. وكل منها تُدار بذاتها، ولها ملكها الخاص، إلَّا أنَّ ملك بروسيا هو الأعظم بين الأربعة، وفي حالة الحرب فإنَّ الجميع تحت يده، ولذلك يلقب أيضاً بالأمبراطور وسبق لي أن قلت كلمة عن الألزاس لم يلبث أن التقطها ثانية. ولمَّا كانت لديَّ الأسباب ألَّا أطمئن إلى معلوماتي حول الوضع القانوني للرايخ فقد تفاديت كل امتحان بالقفز عن الموضوع والقول إنَّ الأيسر في حالة وقوع الحرب أن تقدم بروسيا على الاستيلاء على الألزاس. وأراد أن يعرف

= والعجمية[1] مثل زقزقة العصافير[2].

يبدو أنَّ هذا القول ذائع في الشرق، وقد عرفه صديقي يعقوب في اسطنبول، وبناءً على طلبي قام تلميذي هلموت ريتر، وهو حالياً في هامبورغ، بالاستفسار الإيراني الدكتور نيسان فأجاب بأنَّه يعرف الصيغة التالية:

أصل لفظ عرب است.

تركي هزاست.

فارسي شكراست.

كردي كوي خراست.

وعلى ضوئه يمكن تصويب نصّ أويتنغ، أوَّلاً يجب تكرار كلمة «لفظ» في السطر الأوَّل مرتين، ويعني السطر الأخير هنا: الكردية فشك الحمار، ولا أعلم فيما إذا كانت كلمة عجمي أو كردي هي الأصل، ولكن يجب قراءة «كوي خر» عوضاً عن «دوغر».

(1) لقد نبّهني الدكتور تشودي إلى أنَّ الأعجمية غير الإسلامية وضعت هنا مقابل اللغات الإسلامية الثلاثة.

(2) إذا كانت القراءة صحيحة، قد يفكّر المرء بطفر التي يجب أن تعني الطير.

كل شيء عن الأمبراطور غليوم الأوَّل وعمَّا إذا كان لديه كثير من الأولاد والجياد الجميلة وكم هو عمر الأمبراطور وبدا له مستغرباً أن لا يأخذ لنفسه زوجة جيدة لأنَّ النساء بعمر الخمسين عاماً يتوقفن عن إنجاب الأولاد.

الخميس في 20 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. في الصباح حضر جار الله الحماد وتحدث عن الحجّ الذي أدَّى فريضته، وقال: إنَّ الناس في مكَّة يعتقدون أنَّ الباشا[1] ذاته في نهاية الأمر مسيحي، وقد أكَّد ما بلغنا من عدَّة جهات بأنَّه في أحد أيَّام شعبان من العام 1300هـ (6 حزيران/يونيو ـ 4 تموز/يوليو) 1884م قد سمع في عموم الجزيرة العربية دوي ضخم. وفي كل مكان يزعم أنَّه لا يمكن أن يكون بعيداً، ولا بُدَّ وأنَّه طلقات بنادق من المدينة التالية، في خيبر وحدها جرى التأكيد بأنَّ فرقعة قد حصلت فوق المدينة مباشرة، وكما يبدو فإنَّ الأمر يتعلَّق بهبوط نيزك ما، ولم يتسن رصده.

بعد الظهر قمت ثانية بصعود هضبة صخرية خارج المدينة، كي أستمتع هناك بالهدوء فنادراً ما يُتاح للمرء هنا أن يمكث وحيداً، وما إن يخطو المرء خطوة خارج بيته دون خادم يسير وراءه، فإنَّ ما يلفت الأنظار إلى حدٍّ بعيد، أنَّ كل شخص ولو أنَّه لم يرمقه سوى مرَّة وبعين واحدة يشعر بأنَّه مندفع للاستفسار، ماذا تفعل؟ من أين أنت؟ إلى أين أنت ذاهب. لا بل يشعر بأنَّه من غير اللائق أن لا ينضم إليك كمرافق. وكنت دوماً أتخلص من الناس بأن أقول لهم: «أودّ الخروج أمام المدينة، كي أرى الجو والمطر». وبهذا التصرف المريب كانوا يظنون أنَّ حضورهم قد يؤثر على نحو غير مناسب. أثناء العودة عبر السوق ناداني ماجد الذي كان يجلس وسط عبيده في دكان مشهدي محشور، وقد أخبرني أنَّ الأمير أبدى استغرابه أمام حمود العبيد أنَّ عبد الله وليس شخصي قد رافق هوبر إلى الجبال. فقد أرسل الحمير لهوبر ولي وليس لعبد الله. أعتقد أنَّ غزو عنزة قد كبَّد شمّر خسارة عشرة أشخاص وثلاثة جياد.

---

(1) عون باشا والي الحجاز.

الجمعة في 21 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. الساعة التاسعة قبل الظهر أقام حسن مهنا حاكم بريدة حفل دخوله إلى حائل (حايل)، وهي زيارة متوقعة منذ أسابيع، واحتشد حفل من الناس وقوفاً لكي يروا المشهد. كان في الطليعة فارسان على ظهري جواديهما أرسلهما أمير حائل (حايل) لتحية ضيفه. الكاتب ناصر العتيق وفهد، ثم في الأعلى على الذلول حسن المهنا بذاته، ومن ورائه مرافقوه الثمانية على هجان تتراقص وتتدافع. فقد اختيرت دواب كثيرة من الخيل والهجن زينت وألبست على نحو رائع، واختلط في صفوفها كثير من العامة، وخلفها حشد من الأطفال.

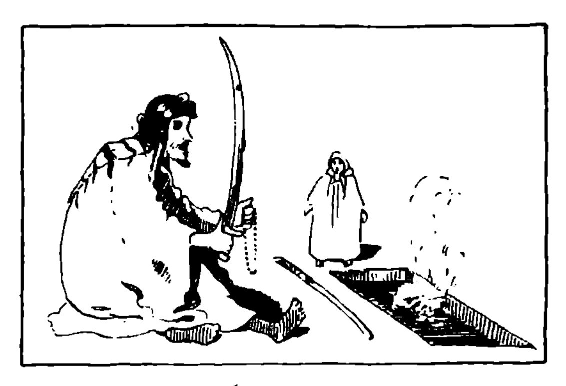


موكب دخول الأمير حسن مهنا في حائل (حايل)

قبل ظهر اليوم ذاته أتى ناصر السبهان يريد الاستخبار عمَّا إذا كنت قد رسمت حسن مهنا، لقد فكرت، نعم يا عزيزي، إنَّني لا أكشف لك كل شيء؛ وقلت له: «إنَّني لا أرسم هنا أي شيء، إنَّها النهاية إنَّكم في غاية الحمق، تعتبرون الرسم إثماً» فأجاب: «فقط في نظر حمود، والأمير في غاية الفطنة». وعلى وجه مشابه علَّق في حينه عبد العزيز. ونظراً لبرودة الجو قررنا أن ننقل موضع اجتماعنا إلى ما يُدعى قهوة المشتى (الصالون الشتوي) فالحجرة أكثر دفئاً إذ ليس لها مخرج إلى الفناء، خلال اللَّيل حدثت عاصفتان مطريتان.

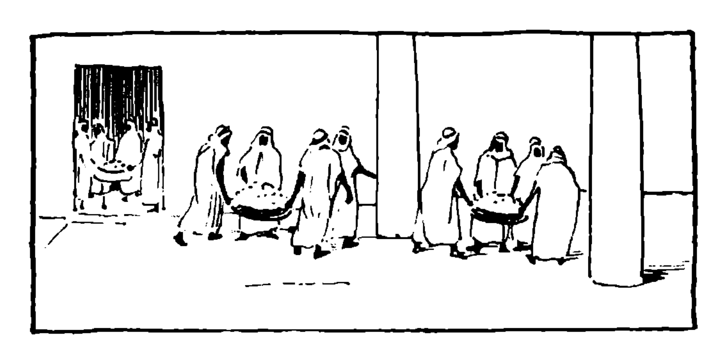
إنَّ سالم الابن الثاني لحمود العبيد قد حصل اليوم على زوجة للمرَّة الأولى، ولم يحي هذه المناسبة بحفل خاص، إلَّا أنَّه من باب الدلالة على أنَّ

أصبح الآن صاحب بيت دعا مجموعة من الضيوف للطعام مساءً، وكان علينا أن ننتظر طويلاً في حجرات والده حتى يتم الفراغ من تجهيز الطعام.



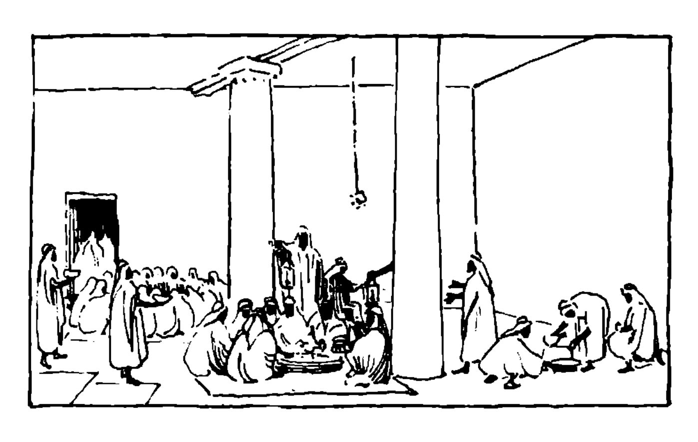
حمود العبيد معرّفاً بالسيوف

قام والده حمود العبيد بشغل وقتنا، بأن أحضر مجموعة من السيوف وأخذ يشرحها لنا، ويبدو أنَّ ذكرى الأعمال البطولية القديمة ما زالت تعنّ على باله بكل حيوية، وفي ظلّ دهشة سعود نجله ما قبل الأخير الذي يبلغ من العمر أربعة عشر شهراً نهض وأخذ يلوح بالنصلات المتأرجحة في عموم الحجرة، أيتها عفاريت! وأخيراً دعينا إلى تناول الوجبة، وكما يحدث عادة في حالة التدبير المنزلي في مرحلة الشباب، فقد كان الطعام بارداً تقريباً، كما أنَّه شائط نوعاً ما، وقد أدخلت خمسة مناسف من الأرز ولحم الماعز،



حمل الأطعمة

وقام حمود العبيد بتأمين الإضاءة بمصابيح، بينما كان آخرون يحملون طاسات الماء للعطشى.



الوليمة لدى سالم

ومن هناك استدعينا للحضور لدى الأمير، وعند الذهاب إلى هناك التقينا أمام الباب بحسن المهنا أمير بريدة، ويبدو أنَّه كان لا يبصر في إحدى عينيه، ولما جلسنا أخذت مكاني بينه وبين سليمان العجوز. وهذا الأخير، جاري من اليمين، أخبرني بأنَّه شاهد في أكثر من غزو في شرق جبل طويتس[1] قرب سدوس[2]، على مسافة 20 يوماً إلى الجنوب الشرقي من هنا خارج (من طالع) المدينة، عموداً تغطيه رموز كتابية غريبة، ومن باب المزيد من التأكد قمت بزيارة سليمان في اليوم التالي وكلي أمل بأن أسمع منه معلومات أدق، إلَّا أنَّه لم يكن لديه أي شيء يضيفه، واقتصر على القول بأنَّ كل شخص في المنطقة طولاً وعرضاً يعرف العمود ووعدني أثناء غزو قادم أن يأمر بنسخ قسم من الحروف، إلى أي شعب يمكن أن ينسب هذا العمود؟ هل هم الفينيقيون الذين أقاموا هذا النصب وهم في طريقهم من **الجرهاء** الواقعة على الخليج العربي[*] إلى البتراء؟ وقلَّما يمكن التفكير بالأنباط مثلهم مثل السبئيين والحميريين. وإنَّني أميل إلى التفكير بنصب يخلد نصر المحتلين الآشوريين الذين عبروا المنطقة، وعلى كلِّ حال يمكن أن يكون هذا العمود في غاية الأهمية لتاريخ الجزيرة العربية المبكر. ولكن لم يمكن أن يستغرق من الوقت

---

(1) يذكره هِسّ باسم ضلع طويق وهو الصحيح.

(2) انظر ما مرّ عن ذلك سابقاً.

(*) الأصل: بحر فارس. (المترجم).

حتى يتسنى لرحَّالة شجاع التوغل في تلك المناطق الخطيرة. إنَّ بلغريف Palgrave كان ولا شك هناك، إلَّا أنَّه لم يلاحظ شيئاً.

السبت في 22 **كانون الأوَّل/ديسمبر** 1883**م.** منذ بعض الوقت شكا صديقنا عبد الله من تزايد الروماتيزم، وقمت بلفّه بقميص رطب، ثم دثرته بخمس عباءات إلَّا أنَّ هذه الأخيرة كانت جامدة تفتقر للرخاوة، وعليه لم تكن المعالجة بالتعرق على الوجه الأكمل، ولذلك جاءت النتيجة أيضاً معادلة للصفر. لقد تاقت نفسي إلى ممارسة فن الألعاب النارية الذي لم أقم به منذ وقت طويل. بعد أن جهزت بنفسي غراء من الدقيق، أعددت من ورق الكتابة الملفوف حول قلم رصاص مدهون بالصابون أشكالاً مختلفة من الألعاب وأخذت من غانم برادة حديد وأمرت بطحن كسرات خزفية. وبتركيبها مع البودرة المحلولة في الكحول نجم خليط يشع شرراً متطايراً. وجعلت الألعاب الأنبوبية عنقاً ضيقاً ثم ربطتها وأضفت إليها فتيلاً. فنجمت قطع رائعة، ونظراً لأنَّ لصق الألعاب ما زال طرياً كان لا بُدَّ من تجفيف الرطوبة في داخلها بوضع العبوات عدَّة أيَّام بالقرب من الموقد.

الأحد في 23 **كانون الأوَّل/ديسمبر** 1883**م.** لقد صعدت وحيداً جبل أم الركاب مقابل السمرا، واستمتعت من هناك بمنظر جميل باتجاه الشرق والشمال الشرقي، وعلى قمة الجلدية والطوال، وعند النزول صادفت الأمير عبد العزيز مع الصقور.

لقد طلبت اليوم تفصيل صندل جبلي لي، لأنَّ عليَّ صياد الوعل الجبلي، وهو أخو حمود المجراد، سيصطحبني غداً إلى الجبال للصيد. كما طلبت في الوقت ذاته جزمة بدوية. في المساء خصنا بالزيارة تاجر الإبل الدمشقي محمَّد المعراوي وفيما بعد مشهدي.

الاثنين في 24 **كانون الأوَّل/ديسمبر** 1883**م.** لم تكن دقَّت الرابعة حتى حضر الصياد علي (بن إبراهيم بن موسى) المجراد وقد اصطحب معه ابن موسى وهو في الثامنة من عمره وابن أخته عبد الله بن عبد العزيز المجراد الذي أصابته عتيبة قبل ثماني سنوات في الحجّ بطلق ناري في الفخذ. وتوفي

في مكَّة بسبب جراحه(*)، وقد ربطت بباب الدار ثلاثة حمير، وفيما عدا البنادق والخرطوش تشكَّلت تجهيزاتنا من القهوة المدقوقة والدلَّة وفنجان، وشيء من العيدان الجافة وعلبة سردين وثلاثة أرغفة خبز وبعض التمر، وأضيف إليها بعض قطع الثياب، ومن دون تأخير جرى امتطاء الحمير. وفي ظلِّ ريح قارس سرنا راكبين في ظلمة اللَّيل باتجاه الجنوب الغربي إلى خارج المدينة ولم أرتد سوى قميص وجبَّة وكوفية وصندل. شعرت بالبرد الشديد، وبعد وقت قصير تجمَّدت ساقي إلى درجة أنَّني مع عدم وجود الركاب لم أعد أشعر فيما إذا كان صندلي ما زال في قدمي أو أنَّه قد سقط مع الحث الخفيف على الجري. ومن أجل وضع حدّ لهذا الغموض خلعت كلا فردتي الصندل ووضعتهما في الخرج، وقد نكون قطعنا مسافة ساعتين ركوباً عابرين السهل في الزاوية المدبَّبة باتجاه الجبال أمام مدخل إلى أحد الشعب نزلنا عن ظهر البهائم، وأنا واقف فوق رمل غرانيتي خشن بأقدام متجمدة لم يدر في خاطري أن أستمتع بالقمم الصخرية الساطعة تحت أشعة الصباح الأولى. ماذا يهمني فيما إذا كانت تبدو حمراء مثل الورد أو مذهبة. والأهم في نظري بداية تحضير شراب يمنح الدفء، وقد تناولنا مع القهوة خبزاً وتمراً. وبشيء من الحسرة فتحت علبة السردين السرمدية، التي صاحبتني في جميع رحلاتي على مدى ست سنوات في الغابة السوداء وفوغيزن في شنطة الظهر، لم يشاهد أصحابي السمك في حياتهم على الإطلاق، وقد يعتبرونه نوعاً من الديدان إلَّا أنَّهم أكلوه. بتقدير رفيع، لا بل إنَّهم لحسوا الآثار الأخيرة للزيت من العلبة، والآن لا بُدَّ من ارتداء الثياب المناسبة للصيد وهكذا ارتدى علي قميصاً بنياً وكوفية، ونظراً لما اعتراهما من الطبيعة والوسخ فإنَّهما لا يميزان عن لون الحجارة. أمَّا أنا فقد ارتديت قميص صيادين صوفياً رمادي اللون، وكذلك شأن السروال الداخلي ويُضاف إلى ذلك كوفية. وقد تركنا العباءات جانباً، وأمَّا حزام الطلقات فقد جرى التمنطق به وعلقت صندلي فوق كتفي بعد ربطه بخيط. وتقدَّم علي حاملاً بندقيته ذات الكبسولة وأنا أتبعه حاملاً مسدس لوفوشو والآن يمكن أن نبدأ الصيد وما ننتظره هو الوعل الجبلي.

(*) كيف يحضر وقد توفي في مكة قبل ثمان سنين. (المراجع).




في صيد الوعل الجبلي

في أحد الشقوق الجبلية كنَّا نصعد عمودياً ويبدو أنَّ عليّاً فكَّر بأن يدعني أسير في الوادي دون جدوى. وقد سرني فقط أنَّه مثلي لا بُدَّ له من وقت إلى آخر أن يسترد أنفاسه. وبعد مسيرة نصف ساعة اقتربنا من قمَّة الجبل. وتسلَّلنا بحذر نحو الحافة، وكان الاستطلاع برمته دون نتيجة رغم أنَّنا كنَّا نشاهد الانهدامات العارية باتجاه عقدة مفتوحة أمامنا، ولكن لم يظهر أي وعل جبلي فيها طولاً وعرضاً، ويبدو أن أحدث ضربة حظ كانت قبل يومين إذا لم تكن ثلاثة أيَّام.



صيد الوعل الجبلي، التسلل

وأما الفهود فقد شاهدنا الكثير من الآثار[1] الواضحة لأقدامها، وقد سرنا في أعداد لا تحصى من الانحناءات فوق الظهر الصخري جيئة وذهاباً، وتوجَّهنا شمالاً باتجاه جبل المردية وانبطحنا هناك خلف متراس[2]، وهذا

(1) تبعاً لهِسّ فإنَّ هذا الحيوان المفترس ما زال يعيش في الجزيرة العربية.

(2) الأصل: منتريس تبعاً لهِسّ المتراس عند عنزة جدار من الحجارة أو كومة حجارة يتخذ منه المقاتل أو الصياد ساتراً.

يعني في مخبأ صياد مع درع من الحجارة يحمي صدره، تتخلّله طاقات إطلاق غير ظاهرة، في الجدار المقابل مغارة وبر لكنَّه لم يظهر، لقد استخرجت من أحد الشقوق كريستالاً جبلياً جميلاً وأخذته لنفسي. وتنبت هنا بكثرة أعشاب الحوابو[1] التي يرعاها الوعل الجبلي ويفضّلها، وهناك أيضاً عشبة أخرى تُدعى جلوة[2]. لقد كسر عليّ الساق وأراني خشبها الأصفر ذا اللحاء الأحمر وأشاد بها كدواء للعيون إلَّا أنَّها تؤلم مثل ميل يحك العين ويدفع الماء إلى الخارج، ولما لم يكن لدينا ما نفعله هنا فقد أقلعنا عن هذا العمل إذ لا أمل من ورائه. لكن علي أراد أن يقوم وحده بمحاولة أخيرة وتوجَّه جنوباً وتسلَّق حافة وصولاً إلى الصدوع الشديدة الانحدار في الكشرية. وأمَّا من جانبي فقد نزلت إلى الوادي عبر شعيب قاس يصعب السير فيه. وبموجب الاتفاق فقد أعلمت بالغناء الأطفال بعودتي القريبة، وشاهدت وأنا في الأعلى مطلاً على المنخفض كيف كانوا يقومون بتحميص البن. ووصلت إلى جانب النار في الأسفل على وجه أسرع ممَّا توقعت، وأي متعة وفرها لي المشروب الأسود، وحتى عودة علي كان يجب أن تمضي ساعة. وكي أستفيد من الوقت انطلقت بعد استراحة قصيرة إلى السهل كي أرسم المدخل المؤدِّي إلى الشعيب ومن خلفه المردية ومسننات الكشرية، وعاد علي من الجبل دون أن يرى وعلاً جبلياً. وهو على شيء من الانزعاج لم يطلب سوى فنجان قهوة. ثم ركبنا الحمير، وكان الجو بارداً مع رياح. إلَّا أنَّ الطريق كان أقصر من ذلك الذي سلكناه باكراً. وفي المنزل كان ينتظرني عبد الله واصطحبني معه لتناول طعام العشاء وكان طعاماً فاخراً. وفيما بعد أرسل الأمير رأس وعل جبلي كبير وبلغ طول قرونه $4\frac{1}{2}$ أشبار.

الثلاثاء 25 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. كنت أعتزم اليوم أن أحتفل بعيد ميلاد المسيح بقيامي بمفردي بنزهة، وبالطبع لم يتسن لي مرَّة أخرى أن

---

(1) حوابو، يقول هِسّ: من المؤكد أنَّ هذا الاسم خطأ، وإنَّني أعرف حُواء، وتحديداً حواء الديب وحواء الغزال وحواء العرب، وربَّما حوابو تحريف من حوابوه أي هنا حُواء.

(2) جلوة، يذكر هِسّ إنّها مجهولة لديّ، وربّما جلاء، الكحل عموماً.

أغادر المدينة دون تعقيدات، فقد قبض عليَّ ماجد أوَّلاً في الطريق إلى غانم حدَّاد الأسلحة ثم ركض ورائي عبد ورجاني بتكليف من جانب مبارك(*) الفريخ حامل الراية (البيرقدار) بأن أحضر لديه وأشرب القهوة عنده. لكنَّني نفدت من هنا وانطلقت إلى الفلاة إلى جبل أم الركاب، هنا كان بوسعي أن أقتفي أفكاري وأبثّها إلى الأحباء في الوطن، إلى أشجار الميلاد المزينة، إلى فرحة الأطفال إلى الثلج في رقوده. ولو قيض لي لأهديت جميع أشجار النخيل المنتصبة عند أقدامي دون توان مقابل شجرة تنوب بيضاء. لقد نزلت إلى الوادي عبر القمة باتجاه جنوبي شرقي وعدت عبر حي لبدة إلى المدينة، أثناء مروري دخلت لزيارة رفيق الصيد يوم أمس علي المجراد، وطلبت منه أن يملي عليَّ أغنية كان قد غناها بالأمس وقد نظمها جاسر، صياد الوعل الجبلي، ومن هناك توجَّهت إلى الأمير كي أعرب له عن شكري على القرون التي وهبني إيَّاها بالأمس، وقد استفسر بأدب عن سيرورة يوم أمس، وفيما إذا كنت راضياً عن علي، وعندما تحدثت عن أغنية جاسر صياد الوعل الجبلي، طلب الاطلاع عليها مكتوبة، وأخذها من يدي وشرع بقراءتها بصوت مرتفع. «قف يوجد هنا نقص بيتين» وقد أملى علي فيما بعد أربعة أبيات أخرى لم يكن علي يعرفها أو أنَّه نسيها على كلِّ حال.

الأربعاء في 26 **كانون الأوَّل/ديسمبر** 1883م. قمت بزيارة الأمير عبد العزيز، وكانت الحجرة مليئة بالضيوف البدو، وعلى رأسهم راكان بن حثلين من قبيلة عجمان الذين ينزلون في شرق حائل (حايل) باتجاه الحسا. وعندما انطلقت من هناك وقعت في يدي رفيقي في الصيد علي المجراد، ومرَّة أخرى القهوة، وعندما خرجت من عنده توجَّهت إلى جبل السمرا أو بالأحرى إلى بروزاته الشرقية، ومن القمة إلى الأسفل كان بالإمكان مشاهدة الدمار الذي خلفه الماء قبل أربعة أسابيع من مجرى الوادي. وفي الأسفل كان الكرايمي وهو بستان نخيل جديد للأمير، ونزلت كي أشاهد الخراب من قريب. وولجت

(*) قال شاعر البلاط الرشيدي من قصيدة له:

لا صاح لمبارك وصوت لجفران   ياما انقطع في ساقته من ردوسي

يقصد مبارك الفريخ وجفران المفكلي الشمري **دليل الأسفار والمغازي**. (المراجع).

إلى داخله عبر فتحة واسعة في الجدار الطيني. وتنتصب الأشجار من الردم وما بينها بيت الحراس وفيه شقوق. ثم تابعت سيري من هناك إلى موضع أدنى في المجرى الجاف لساقية حائل (حايل)، وتترامى خرائب حي عينات السابق في خط ضيق مختلطة مع أشجار أثل أسيء التصرف بها ومع بئر منهار. لقد عدت إلى البيت ظمآناً وكنت أعرج من جرح في الكعب لحق بي نتيجة حجر أو كسرة زجاج أو ما يشبه ذلك.

الخميس 27 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. قبل شروق الشمس توجَّه هوبر إلى الأمير، ويبدو أنَّ خططاً ومكائد كانت تدبَّر لإبعادي لوحدي من البلاد والحيلولة دون زيارتي الحجر والعلا. مَنْ وماذا يقف وراء ذلك. في البداية شككت بأنَّ ابن عم الأمير حمود العبيد يقف وراء ذلك، هل يشعر بالقلق جرَّاء براعتي الموهوبة في فن السحر أو رسومي الآثمة.

بعد الفطور زرت ماجداً لكنَّني استدعيت في الحال للحضور إلى عند حمود العبيد الذي كنت أفكر أصلاً بزيارته كي أشكره على علبة الزباد[1] الفضية التي أرسلها لي بالأمس. وكان في غاية اللطف وطلب منِّي أن أزوره يومياً (يا ويلي، إلَّا هذا). أثناء عودتي إلى المنزل صادفت قحطاني واسمه خالد ولقبه (أبو ثلاثين) وكان والده يحمل أيضاً هذا اللقب. إنَّه رجل قوي لحيته بيضاء مثل الثلج أصله من الجنوب ويعيش منذ خمس سنوات في حائل (حايل)، ويستعمل من جانب الأمير لنقل الرسائل إلى ابن سعود في الرياض إذا ما كان ذلك ضرورياً. وقد أملى على هوبر (أي على الخادم محمود) أسماء قبائل وسط الجزيرة العربية وبطونها.

مساءً بعد الصلاة الأخيرة دعينا لزيارة الأمير حسن المهنا حاكم بريدة[2] الذي كان الأمير قد هيأ له منزلاً بجانب غانم حدَّاد السلاح، وقد ذهلت عندما رغا في وجهي ذلول بارك على أرض الممر القليل الإضاءة، وهو ذلول مهنا الخاصة، وجرى إيواؤها وتقديم العلف لها في البيت، ونادراً ما يحدث هذا.

---

(1) مرهم المسك من الزبيط من أنواع العطور الشرقية.

(2) مرّ الحديث عنه سابقاً.

كما دعي عدد من الأشخاص سوانا وأتى خادمنا محمود في قيافة ظاهرة ومع فانوس مضاء. وبعد حين امتلأت قاعة الاستقبال بالناس، ونظراً لأنَّ الجو أصبح حاراً نسبياً فقد خفَّف مهنا عن نفسه هذه الحالة بأن دفع الكوفية إلى الخلف حتى منتصف الرأس.



الأمير حسن المهنا

دار الحديث بالدرجة الأولى عن المطر وعن الكلأ الممتاز ثم عن أسماء خيولنا وأسعارها وأنسابها، وأرادوا أن يعرفوا شيئاً عن الغزلان لدينا، وعن الطواويس، والوعول الجبلية، كما أنَّ العمود قرب سدوس كان معروفاً لدى الأمير حسن المهنا، ووعد بأن يأمر بنسخ الرموز على يد أحد العارفين بالكتابة. بعد وقت قصير قصدنا منزل حامد زبيري وهو صهر غانم وصاحب المطرقة لدى الأمير، وقد جهزت القهوة ثانية، وقدَّم نوعاً من الليمون أو البطيخ مع السكر.

الجمعة في 28 **كانون الأوَّل/ديسمبر** 1883م. لم يكن هبوب الرياح يشجع على الذهاب إلى الفلاة ولذلك فإنَّ زيارة التجَّار الإيرانيين الغليظة عادة جاءت أقل غضاضة.

السبت في 29 **كانون الأوَّل/ديسمبر** 1883م. في هذا الصباح قررت دون أن أنبس بكلمة واحدة أن أقوم وحيداً مصطحباً بندقيتي فقط وشنطة ظهر برحلة إلى صيد الوعل الجبلي، كان هدفي المنيف الصخري في جبل أجأ. في البداية سار الطريق لمدة ساعة ونصف في السهل الأجرد، في مكان أقرب إلى الجبال عبرت مجاري مائية صغيرة شقت بين الصخور الناتئة المنخفضة المنبثقة من بين الرمل طريقاً في الاتجاه الشمالي الشرقي. وبعد حين انفتح أمامي

شعيب يُدعى الجبة، وقد ظهر فيه مأوى مسور بجدار، وكما علمت فيما بعد فإنَّ هذا المأوى كان مخصصاً لإقامة المصابين بمرض الجدري والجذام أي دار السقماء. وإلى اليمين تقع مغارة مليئة بالأسماء الحديثة، إنَّ الشعيب ذاته كان يزداد ضيقاً وأخيراً، ونتيجة لوحدة مكسوة بحرش جوّفت حوضاً صخرياً عميقاً، غدا غير صالح للسير ولذلك اخترت مجرى آخر يسير باتجاه الجنوبي الغربي، وحبذته لأنَّ الرياح الجنوبية الشديدة تجعل كل اقتراب نحو الحيوان البري من جهة أخرى دون أي أمل، وكي أصعد نحو الأعلى حاولت أن أسلك كثيراً من الدروب دون فائدة، واخترت شقّاً تبيَّن بعد تسلق لمدة قصيرة أنَّه مكتظ بكرات صخرية ضخمة، وهذا يعني الخروج مرَّة أخرى وحاولت السلامة هنا وهناك على الجدران الصخرية المائلة، بالسير إلى الأمام فقط،



خريطة الجبل المسنَّن

(1) الجبة (2) دار المصابين بالجدري (3) الجبل المسنَّن (4) المغوات

وها أنا أصل إلى مغارة ثانية حتى أنَّه في داخلها طحالب، وكانت النباتات الغضَّة في بعض المواضع تبدو وكأنَّها مستحجرة بسبب الرمل الغرانيتي المتطاير، وأنا أستريح عند مدخلها لم أجد في البداية أي إمكانية للتوغل داخلها. من الأعلى يمتد جدار حجري غير متصدع على شكل نصف قوس

واسع وفي قسم منه مائل ونزولاً نحو الوادي المتثاقل بدت الجدران الصخرية الصقيلة وكأنَّها تتقوس. كلا! يا لمتعة الحظ القوي Fortes fortuna juvat. إذاً ما عليَّ إلَّا أن أضع الصندل في شنطة الظهر، ثم السير عبر الأرضية الناعمة. وبمنتهى الحذر دخلت المساحة المائلة بحوالى 40 درجة ويداي ممدودتان وسرت هنا بيسر تام حافي القدمين.

وممَّا أثار استغرابي أنَّ الغرانيت كان يتفتَّت تحت أقدامي، ويشكِّل قشوراً رقيقة، والواضح أنَّه لم يمرُّ من هنا منذ وقت طويل لا إنسان ولا حيوان وبالتدريج أخذت تظهر كسرات كبيرة إثر خطاي وكنت أستمتع عندما كانت تنزلق في الأعماق، إلَّا إنَّ الأمر لم يعد مطمئناً مثلما هو الحال عندما راحت صفائح مترابطة تنكسر وتندفع متدحرجة، ولكن والحالة هذه فإنَّ أية خطوات أقوم بها كانت تحرك الطبقات الصخرية الواقعة فوقي فرميت بنفسي مذعوراً على الأرض. ومرَّت بجانبي سجادة حجرية رجراجة عن اليمين واليسار مندفعة نحو الوادي، وكنت فرحاً أنَّني خرجت منها فقط ببعض الخدوش في ذراعي ويدي، ولقد رميت نفسي مرتين على نحو مماثل، ومن بعدها وصلت إلى أرض صخرية متماسكة وحمدت قدري أنَّ التساقط قد انتهى دون ضرر بالغ، والآن يجب أن أتقصى هدفي، وأتسلق إلى فتحة إطلاق في القمة الصخرية، ولم تكن خيبتي بها قليلة إذ إنَّ جبل المنيف الذي ظننته قريباً جداً، وهو جدار مسنَّن عال ينتصب من هاوية عميقة، وكان عليَّ أن أعود مسافة إلى الوراء كي أراه، كل هذا كان واضحاً لي، فيما إذا كان ممكناً على الإطلاق ـ وهذا أمر مشكوك فيه ـ الصعود على جبل المنيف من جهة الجبهة العريضة؛ وقد يستغرق الوصول إليه ساعات أطول ممَّا لديَّ في هذا اليوم، وإذا لم أرغب أن أسلك في طريق العودة الطريق نفسه الذي أتيت منه، فإنَّه لم يبقَ أمامي سوى أن أسير باتجاه الشمال والشمال الشرقي في طريق متعرجة خلف إبر المشمرخة أي الجبل المسنَّن، وأن أحاول بشكل أو بآخر الهبوط من هناك. ولم أتمكن إلَّا بشقّ الأنفس من التحرك من الموضع على نحو بطيء، فقد اندفعت مسافة عشرين متراً في مجرى منحدر، وكنت متردِّداً فيما إذا كان عليَّ أن أستمر بالسير في هذ الطريق المثير للشكوك أو أن أتسلق ثانية صعوداً. وقد انحنيت

مثبتاً نفسي بيدي وقدمي مندفعاً إلى الأمام مستطلعاً مخرجاً وإذا بي ألمح فجأة عن اليسار، على مسافة 60 متراً في الأعلى، وعلين جبليين رائعين وقد أصبحا في اللحظة نفسها في مجال نظري، وهما يتلمسان خطواتهما على السفح الصخري المنحدر، عندها خفق منّي الفؤاد. ولم أكن في وضع يجعلني أتناول البندقية من على ظهري ولم أتمالك الجرأة على فك أصابع يدي أو قدمي. وأنا معبأ بالفضولية والغضب، كان عليَّ أن أراقب كيف أنَّ الخسيسين لم يقيما لي أقل وزن، لأنَّهما أدركا على الفور عدم مقدرتي على إلحاق الضرر بهما. وقبل أن يغيبا خلف الزاوية نظرا بوجهها نحو الخلف بلحيتهما اللئيمة، هذا إذا لم يمد أحدهما اللِّسان ويقهقه ضاحكاً؟ خذ أيُّها السافل!

لا فائدة من أن أهتم بالانزعاج من الاستهزاء الذي لحق بي وبأفكار الانتقام، فلديَّ ما هو أهم لإنجازه. في المقدمة يجب الخروج من المأزق اللعين، إذ لا يمكن التفكير بالهروب من الجانب ولم يبق أمامي سوى النزول إلى الأسفل، لكن الشعيب العميق ذا الكتل الصخرية لا بُدَّ وأن يظل ضالتي لكنَّه لم يكن بوسعي أن أكوِّن فكرة عمَّا هو قائم منها، وكنت قد قطعت مسافة وإذ بهاوية تبرز أمامي، وقد انتصب في المجرى عمود صخري، وامتد الصدع الصخري منحدراً نحو الأسفل. ومن باب الحذر وضعت البندقية والشنطة والعباءة عن كاهلي بحيث أتفحص الوضع بعناية. واقتنعت أنَّه لا بُدَّ لي من أن أحشر نفسي وأن أتجاسر على قفزة عمودية إلى الأسفل بحوالى $\frac{1}{2}$ 2م فوق كتلة صخرية، وهكذا تسلَّقت ثانية كي أحضر الأشياء التي تركتها واستطعت أن أحصل على البندقية التي ربطتها بخيط، وكذلك الشنطة والعباءة ثم نظرت برعب إلى الكتلة الصخرية، وقلت في نفسي ينبغي على عظامك أن تتحمَّل القفزة، وتفحصت مرَّة أخرى جميع المفاصل ثم قلت بسم الله وقفزت نحو الأسفل.

وحمدت الله بأنَّ العملية الجسورة قد نجحت لكنَّني فكَّرت بأن أسجل ما جرى على أنَّه تحذير لي في المستقبل ولكن ماذا يعني التحذير، وما إن أنقذت، حتى سار حبل أفكاري وراء الوعلين الجبليين، وقلت في نفسي: إنَّه من الأفضل اليوم وقد تأخر الوقت أن أدع أية محاولة أخرى جانباً، لكن

الفضول كان ينخزني نحو التعرّف على الأقل على مجرى قاع الوادي، وأن أستطلع قطعة أخرى نحو الجهة اليسرى صعوداً، وكان عليَّ أن أتقدَّم على السفح الخالي من المخاطر حتى نهايته، ثم اتجهت يساراً وتسلَّقت بجهد كبير بين كتل صخرية بارتفاع قامة الرجل، وبعد حوالى 20 دقيقة لم أعد قادراً على التقدم فقد كان الشعيب برمَّته مسدوداً بالصخور، ولم يكن بوسعي سوى أن أنتظر من بين الكتل، بحيث أتبيَّن أنَّه في الأعلى، في حوض مليء بالرمل المجروف تنتصب مجموعة من أشجار النخيل البرية، وترتفع خلفها جدران صخرية لا يمكن تسلقها، وبالطبع ليس هناك أي أثر للوعل الجبلي. وإنَّ الهبوط إلى المغوَّات لم يتم إلَّا بصعوبة ولم نتحرك من موضعنا إلَّا ببطء وأخيراً بلغت الحوض الرملي الذي يبدو مغلقاً تماماً، ومررت أكثر من مرَّة بمغارة صغيرة، عبر جبل منخفض ثم عبرت السهل بسرعة إلى البيت.

الآن صرت أستحق فعلاً الشراب والطعام والدخان والاستراحة بجدارة، إلَّا أنَّني لم أجد سوى ماء وتمر ودخان، فكل أمور التدبير المنزلي كانت موجهة لزيارة الأمير حسن مهنا حاكم بريدة، الذي كان يعتزم القدوم لزيارتنا بعد أداء الصلاة الأخيرة، قمنا باستعارة الأطباق والأقداح والسماور من عند عبد الله، ومن جارنا المباشر عمران استعرنا فوانيس وصواني نحاسية وأضواء **الاستياريك**. وألمح خادمنا محمود إلى أنَّه يُعدُّ أصنافاً ممتازة من فن طبخه، إلَّا أنَّه امتنع عن الإدلاء بأية معلومات أخرى، وباختصار يجب أن ينتظم احتفال فخم، بعد تناول الطعام البسيط لم أتمكن من مقاومة النوم، ولم أعبأ بكل الجماعة، لقد مضى وقت طويل بعد الصلاة ما زال الأمير وحاشيته يدعون الناس ينتظرون قدومهم، وإنَّ الاستعدادات العاجلة التي اتخذت لاستقباله كان بالإمكان أن تتم أخيراً بنوع من الهدوء، ولا يتطلب الأمر سوى ظهور شخصه. كانت ثلاثة من فوانيس النفط موقدة ومعلقة على الجدران وعلى طاولة صغيرة مخلوعة وضعت أيضاً ثلاثة فوانيس، وفي الفناء حيث يقف في خلفيته عبد الله وحمود المجراد بالانتظار وضع فانوسان طليا مجدداً بضوء الاستياريك، هل يمكن أن يُضاء بيت آخر هنا أكثر من ذلك، في اللحظة الأخيرة قررت أن أقيم لعبة مسرحية، وكان عليَّ أن أستحضر جميع مخزوني

من الألعوبات التي عملتها بذاتي وربّما كانت دزينة من الألعاب، وكان عليَّ أن أضيف إليها ألعاباً أخرى وعلى وجه السرعة وضعتها في أماكن مناسبة في الجدار والأدراج وقد درب عبدٌ على الألعاب النارية، وكان يتّقد حماساً ليقوم بمهمته، وأخيراً حوالى الساعة الثامنة والنصف وصل الضيوف وعددهم عشرة رجال، كانت روائح البخور والصموغ المرّ تتصاعد من حوض الفحم عند المدخل، وأخذت المفرقعات تطقطق من اليمين واليسار وسادت دهشة عامة وإعجاب، وبعد أن خطى أمير بريدة عبر الدخان متخذاً مجلسه فوق سجادة هوبر، وإلى جانبه راكان من العجمي وقد أخذت شخصين من الأخيرين ليجلسا على سجادتي، أثناء الحديث مع واحد من جيراني لاحظت وهو يدير رأسه أنَّ له من الأمام عند الخدين زوجين من الجدائل[1] متدليتين. وقد أجاب على سؤالي عن عدد جدائله بأن رفع باعتزاز، ودون أن ينبس بكلمة واحدة، الكوفية إلى الأعلى وأظهر لي رقبته، فعددت عشر جدائل، في البداية جرى تقديم الشاي الذي غدا مراً بسبب بقائه لمدة طويلة وعصير الليمون، وبإضافة كثير من السكر إليه لم يعد مستساغاً، إلّا أنّه مطابق تماماً للذوق العربي، وقد استغربت أنَّ الشيخ راكان كان يتبادل مع محمود بعض الكلمات التركية وعلمت بعدئذٍ أنَّه قضى في الأسر سبع سنوات في قلعة نيش[2]، قبل عشرين عاماً جرى استهواؤه من جانب مدحت باشا، الذي كفل له حريته وأمانه مقابل أن يقوم بالتفاوض بالأحسا[*]، على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، إلّا أنَّه اعتقل هناك في الحال ونقل إلى أوروبا. وفي إثر مثل هذا الغدر وخيانة العهد فإنَّ البدو يستفظعون الأتراك ويخصونهم بكره لا ينقضي، وهذا مفهوم. وبعد الشاي قدمت الليموناضة، ثم جاءت صينية كبيرة مترعة بفنون محمود في مجال الطبخ؛ شرائح ليمون مع السكر، حلويات، فطائر التمر بالجلاتين وهي نوع من المعجنات، وأضيف إليها أربعة أوعية من ماء السكر اللزج. في البداية جلسنا كل ستة إلى مائدة أو صينية وبعد أن أخذ الجميع كفايتهم جاء دور

---

(1) عادة ما يكون للبدوي أربع جدائل، اثنتان من الأمام واثنتان من الخلف تتدلى على الكتفين.

(2) تقع في صربيا وكانت حتى 1878م تحت السيطرة العثمانية.

(*) الأصل: حسا. (المترجم).

الآخرين. ونظراً لأنَّ أوعية ماء السكر قدمت إليهم في البداية فإنَّهم شربوها لافتقارهم إلى الصبر، وفعلوا الشيء ذاته مع المعجنات المحضرة من الشحم لأنَّه لا تتوفر لهم مثل هذه المناسبة في كل يوم والآن جاءت القهوة ثم التدخين وأخيراً الزباد (المسك) وفي هذه المرة لم يطوف محمود بالعلبة الفضية الصغيرة دون حذر معتاد، بل كان يذهب إلى كل شخص بحيث يغرز فيها الإصبع وأعطى لكل منهم الكمية التي يعتبرها مناسبة لمكانته، وبعد غسل الأيدي قدمت للجميع منشفة واحدة، وفي غاية الأدب والرضا، نهض جميع الضيوف للمغادرة، وكان بوسعهم أن يعثروا على صنادلهم بيسر، نظراً لأنَّ الفناء قد توفر له ضوء كافٍ. وإنَّ بعض المفرقعات المنسية استعملت لتحية الوداع وأحيت الأمل بإقامة حفل جديد، ثم انسحب الجميع بكل هدوء. وفي داخل المنزل استمر الوضع غير هادىء، لأنَّ غسل الأطباق والترتيب تطلب وقتاً طويلاً، وقد أرسلت فكرة أخيرة إلى وعولي الجبلية ثم نمت ملء جفوني.

الأحد في 30 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. عندما لا تشرق الشمس لا تراود ذهن المرء أفكار نيِّرة، إنَّنا في غاية الأسى طالما لم نقترب مطلقاً من هدفنا بزيارة الآثار القديمة والمقابر في الغرب. لقد احتفى بنا هنا فعلاً إلَّا أنَّنا نقبع في أسر حافل بالتكريم ولتسلية القصر. في هذا الوضع استلقيت على هضبة أمام المدينة في حالة من الخمول والاستياء.

الاثنين في 31 كانون الأوَّل/ديسمبر 1883م. أرسل الأمير ماجد عبداً ليبلغنا بأنَّه سيأتي مباشرة للزيارة، ولما لم يصل بعد نصف ساعة غادرت البيت وأمر هوبر بقفل باب الدار. بعدئذٍ صادفت ماجد في الشارع، وبيَّنت له أنَّ الوقت قد تأخر علينا، وتركته واقفاً، ومضيت في طريقي. وعوضاً عنه تعقَّب حمود المجراد أثري، وطلب منِّي بإلحاح أن أذهب إلى بيته، بعد احتساء القهوة وتدخين النرجيلة اصطحبت ابن أخيه موسى بن علي في نزهة حول سور المدينة. وفي المساء توجَّهنا إلى ماجد ولكن في القصر، أي أنَّنا كنَّا مدعوين إلى حجرات والده، في الوقت الذي كان هذا الأخير قد توجَّه إلى المسجد، انتظم جميع الضيوف في صفوف لأداء الصلاة ووقف خير الله إماماً فيهم، وكنت وهوبر وابن حمود العبيد الصغير الوحيدين الجالسين بجانب الجدران.

أثناء ذلك تجشأ أحدهم على نحو مريع، دون أن يزعج أحداً، فتبادلت وهوبر النظرات، ولكن لم أجرؤ على تكرارها.

الثلاثاء في 1 كانون الثاني/يناير 1884م. كم سررت لأنَّه لا يحتفل هنا بالسنة الجديدة، وليست هناك بطاقات معايدة أو قوائم المستثنين، ولا قرع الأجراس، الذي يخدش بعنف غشاء الأذن، ولا وجوه القطط التعيسة ولا زيارات النفاق لدى الرؤساء (وعند الضرورة لدى زوجاتهم). رغم الشعور المريح بأنَّني مبتعد عن سيئات المدينة، إلَّا أنَّه تجيش في صدري رغبة أن أنتقل لربع ساعة إلى مدينة ستراسبورغ الظريفة.

هناك يشرع الحلاقون قبل انبلاج ضوء النهار بشحذ أمواسهم بحيث تغدو بالغة الحدَّة، ويتأهب منظفو المداخن المغسولة ثلاث مرَّات بقصائد مستبشرة وتستعد بائعات الحليب وموقدو الفوانيس للقيام بجولات مفعمة بالآمال.

اسمع، ماذا يدوي هناك من بعيد، إنَّهم رماحون مزينون بخصلات شعر الحصان، ويتردَّد صدى خطواتهم على الجدران، وفي جادة القرقف تستعرض آنسات تعبق منهن روائح طيِّبة ومن مختلف مراحل العمر بملابسهن الجديدة، وتنتظر القلوب الشابة الخفاقة تحية لشباب درس الرقص. نعم إنَّها برتا المحبوبة حقاً، وباولا الطويلة وإميلي العذبة، وماريا المغيظة في الرقص والمستعدة لبيع روحها لحفل تقنعي طويل مثل ليل قطبي. ومارتا المدورة (وهي للأسف حالياً ذات خدود منتفخة شيئاً ما، وتفضل الاحتجاب)، لكنَّها رغم ذلك لا تمتنع عن الخروج للنزهة مرتدية الفرو، ويقف بعض من العابثين المعروفين في المدينة، وقد حملوا وردة في عروة الزر، حول زاوية الميدان، ويبدو أنَّ السيجار المعتاد لم يعد يعجبهم على نحو خاص. مختالون وموظفون متدربون وفي جيب المعطف هراوة أو قضيب من عظم الحوت يتصافحون باليمين رافعين الذراع ويسحبون الأيدي بحركة تثير الاشمئزاز، ولكن كيف هو الوضع داخل البيوت؟ منذ ثمانية أيام يعمد الأولاد إلى وضع عساكرهم الرصاصية بعيداً عن شجرة عيد الميلاد، ويقومون بالإطلاق عليهم بالبازيلاء

وهم في صفوف. **طالما أنَّ أحدهم لم يتوصل إلى طريق تثير مزيداً من الإعجاب**. وإنَّ رفيقاً أكبر عمراً كان يحمل معه شيئاً من البارود (**في كيس أدخل قسماً منه في جيب السروال**) ولن يخرج به إلَّا بعدما تذهب أُمّه إلى الكنيسة. وربَّما يفتقد عازف البوق الماهر الرأس وهو على ظهر جواده، لكن لن يكون عسيراً على موسيقي مثله أن يستمر بالعزف بحسِّه. وأما البنات الصغيرات مع حجرة ألعابهن ومطبخهن فيتخذن أفضل موضع في الغرفة، هنا تفوح رائحة سكر محروق مع حليب. هيه، يبدو لي أنكن لا تُجدن الطبخ، نعم، سيحاولن على وجه السرعة بذاتهن، عليكم فقط أن تصبروا قليلاً، إذ سيُضاف إليه اللوز، ما الذي ستحضرونه حقاً. إنَّها كريمة الشوكولاته، هل تعلمون ما هي؟ نعم وبكل تأكيد أيُّها القرود الأحبَّاء، إنَّه قليل. على كلِّ حال لقد فار نصفها، وانساح في النار، وفيما بعد لحست منها لويزا أربعة ملاعق قهوة، ولا تستحق أن تكون أكثر من فتاة لغسل الأواني، هذا غير صحيح؛ ملعقتان فقط، أيُّها الجشعون المقرفون، هل بمقدوركم أن تدخلوا المزيد في جوفكم، ألم تنفجر معدتكم. نعم (وبنظرة إلى الأُمّ) قبل أمس، لا بل اليوم نستطيع أن نعاود ذلك، وأنتم تقولون دوماً نعم اعملوا فقط بالروية يا أولاد، وأنتم لا تصدقون ما الذي يدخل ثناياكم، إذاً تعالِ إلى هنا يا إلزة العزيزة دعيني أحاول، هاتِ بوسه، هذه بسكوته، وأنت يا لويزة هل ستحضرين نجمة حلوى القرفة، كم كان بودي أن أنسى كل هذه الطفولة نعم ما زالت في جيبي حلوى عيد الميلاد.

الآن كفى أحلاماً، مع نهاية العام يجدر بي أن لا أبتعد عن الأفكار الأكثر جدية؛ إنَّ ما حققته في هذه الرحلة، وما أقدمت عليه يجب أن لا يكون أكثر من مدخل. ومن إرهاصات للعمل الفعلي، هل ستكون عن قرب ماثلة أمامي الآثار التي تحفُّ بها الحكايات في الحجر والعلا. هل سأجد ما أتطلع إليه، هل يمكنني إنجاز ما يتوقع منِّي؟

توجَّهت في الساعة التاسعة إلى ماجد، وما أن وصلت إلى هناك حتى أعلن الأمير عن زيارته وجاء مع حمود العبيد وحسن مهنا أمير بريدة وكثير من

الأتباع. وقد امتلأت القهوة بأكملها بالناس. وانكببتُ بعد الظهر على رسم الخرائط الخاصة بيوميات هوبر، لقد أمطرت بغزارة أثناء اللَّيل.

الأربعاء في 2 كانون الثاني/يناير 1884م. استمر تساقط المطر من السَّماء الرمادية دون انقطاع حتى الصباح واستمر الجو مكفهراً طيلة النهار، مثلما هو الحال لدينا في فصل الشتاء، وسالت السواقي في الطرق، ولا يمكن أن يعبرها المرء دون بلل في أقدامه. مكثت فوق هضبة صخرية في شرق المدينة داخل مغارة صغيرة، وتُدعى قبَّة علي. وسمعت من على مسافة 6 كيلومتر هدير تدفق المياه بين الصخور قادم من جهة جبل المنيف وبالطبع لم يكن بوسعي أن أبقى متوارياً فقد انضم إليَّ بعض الفتيان، وأخذوا يغنون أغاني لم أفهمها. وعندما عدت إلى البيت صادفت برغش شيخ الأسلم(*) من الحسا (مجمعة)، وقدَّم لنا معلومات عن فروع قبيلته، تولَّى محمود تسجيلها. ليلاً تساقطت الأمطار من جديد، وتشرب التبغ بالماء تشرباً تاماً.

الخميس في 3 كانون الثاني/يناير 1884م. من لم يجمع ماء المطر فإنَّه سيظل طيلة هذه الأيَّام دون ماء شرب، إذ إنَّ جدران البئر غدت رخوة إثر المطر إلى درجة أنَّ المرء لا يستطيع أن يشغل البكرات والصواري دون خطر الانهيار، منذ ثمانية أيَّام أعاني من اضطراب شديد ناجم عن الدم، وهذا يعني أنَّه نتيجة لكثرة كمية التمر في الغذاء. أمَّا الحكَّة بالأظافر التي لا يمكن تلافيها فليست دون نفع وعجب للاحتفاظ بفرشاة للمواضع التي لا يمكن الوصول إليها.

أخذ القحطاني خالد الملقب بأبي ثلاثين، الذي كان يجدر به أن يعدد لنا بطون قبيلته، يبذل المساعي بجدية كي نعتنق الإسلام. وقال: إنَّنا قد غدونا أقوياء ومرموقين وفي مستوى أمير، مثل أمير بريدة أو أرفع مستوى وإذا ما أصبحنا مسلمين تماماً لا ينحط مستوانا على الإطلاق، وبوسعنا أن نتزوج نساء من أنبل القبائل، وأن نجلس طوال اليوم في بستان نأكل من لحم الخراف ما نشاء، وإذا لم يرق لنا لسنا بحاجة لتحمل أعباء غزو. ويمكننا أن نمكث في

(*) برغش بن طوالة شيخ الأسلم من شمر. (المراجع).

البيت بكل هدوء. وتصلنا حصتنا من الغنيمة، «يومها قد أخجل» ومن بعد، وفي الجنَّة نحصل على سترات حريرية، وكل ما يمكن تصوره من المتع وما يحلو للقلب، لقد أفهمناه أنَّنا نولي الآن اهتماماً أكبر لبياناته عن قبائل قحطان وبطونها. وأخذ يذكر الأسماء بتأفف وبثغرات متقطعة، وربَّما أخطأ عن قصد، وكان الخادم محمود يكتبها وما بينها كان يعطي فسحة لضيق صدره بشرود جديد وتفكير بالفردوس، وكان يجب أن ينبه دوماً كي يبقى في الموضوع، ويسوقه حتى النهاية وحسب رأي الناس فإنَّ هوبر وشخصي صفوة المسيحية، وقلَّما لنا من المسيحية سوى الاسم وفي الواقع إنَّنا أقرب إلى الإسلام، وفي كلِّ الأحوال أرفع من الشيعة (وهم التجار الإيرانيون من مشهد الذين يعيشون هنا لفترة من الزمن). والذي لا يفهمونه، إنَّنا لم نعتنق [الإسلام] بالكامل بحيث نربح في الدُّنيا والآخرة، وعلى الطريقة نفسها أعرب لي موسى ابن الثامنة عن فائق تقديره بقوله: بأنَّنا مسيحيون، ولنا كتاب ودين، ولكن المشاهدة (التجار الإيرانيين) من عبدة الأوثان لعن الله آباءهم، وإنَّه يعلم من أبيه بأنَّنا نتساوى مع المسلمين، ولن نؤول إلى النار.

في هذا اليوم بدأ حسن مهنا أمير بريدة طريق العودة، وفي الغد سيغادر حسين تاجر الإبل، وعرض أن يحمل معه رسائل، ويفكر أن يقصد دمشق بعد شهرين، قمت بعد الظهر بزيارة عمران جارنا الإيراني.

الجمعة في 4 كانون الثاني/يناير 1884م. منذ مساء الأمس يتساقط دون انقطاع رذاذ الضباب (نفناف). ومنذ 24 ديسمبر/كانون الأوَّل لم تظهر عموماً أشعة الشمس، ونتيجة للمطر الغزير انهار جدار في بيت ماجد وأحدث صوتاً سمع صداه في القصر، وفي حي لبدة طمر شخص حتى رقبته، إلَّا أنَّهم أخرجوه وهو على قيد الحياة.

لقد أعلن عن الغزو الذي سينطلق قريباً وأرسلت الأفراس إلى كبار الشيوخ.

ولمَّا كنت أعاني الضجر فقد شكلت اليوم ضفادع وألعوبات ولكنَّها لم تجف نتيجة رطوبة الجو، لا بل لم تنجح، وسأنتظر حتى الغد، وإلَّا فأرميها وهناك تزول كل شماتة.

قمت بزيارة التاجر الإيراني علي صهر عمران. وفي المساء أتى علي وأحضر معه الذهب الذي اقترضه[1] في شكل فضة، وهذا يعني أنَّ بدل 90 ليرة نابوليون عوضاً عن 427 ليرة مجيدية ونصف وتجاه هذا المنظر احتاج فجأة مساعدنا حمود المجراد، ليرات مجيدية لشراء سجادة، ولم يكن بوسعي أن أزعم أنَّه لا يتوفر لديَّ نقود، وهكذا لا بُدَّ من أن أنقده الليرات المجيدية الست.

السبت في 5 كانون الثاني/يناير 1884م. لمَّا كان عبد الله قد ضرب زوجته الثانية زهادة البغدادية الجميلة، دون أن يصالحها بإهدائها قميصاً جديداً أو ما يشابهه، فإنَّنا نفتقد منذ عشرة أيَّام الخبز البغدادي اللذيذ، فلم يتوفر لدينا منذ أربعة أيَّام أي خبز، لأنَّ تنور عبد الله في الفناء من دون سقف، وقد خرب تماماً جرَّاء المطر، ولم يعد صالحاً للاستعمال. وفي هذا اليوم أيضاً تكتظُّ السماء بغيوم خفيفة مطرية (ديم)، ولم تظهر الشمس قبل الظهيرة، بعد الظهر احتسيت القهوة لدى عمران، وفي المساء جاء المشهدي مهدي للزيارة.

الأحد في 6 كانون الثاني/يناير 1884م. لقد شعرت هذا الصباح مرَّة أخرى بالقمل، وجاء التفلي[2] مغرياً وعلى الأقل 30 منها قتلت بالسحق أو بالنار. ووجدت كومة كاملة من العشوش [القمل] في ثنايا قميصي، وعند نشر القميص على السطح في الريح تهجره تلقائياً، قمت بزيارة قصيرة لدى ماجد، ولقد عبَّر أكثر من مرَّة عن الرغبة بمشاهدة زوج القفاز، وكان بوسعي أن أشبع فضوله.

هل سيكتب لنا أن نغادر هذه المنطقة في نهاية المطاف، قريباً تنقضي ربع سنة على مكوثنا هنا، ليس لهؤلاء الناس أي تصور للوقت، وأي فكرة عمَّا يسوموننا من عذاب، ماذا يجدينا أن يكون بوسعنا أن نأكل التمر والأرز ولحم الضأن بقدر ما نشتهي؟ وبأن ننام دون شغل البال المدة التي نشاؤها؟

---

(1) انظر يومية 11 كانون الأوَّل/ديسمبر.

(2) الأصل: الصيد.

إضافة إلى نيل بعض الهبات والتكريم. لذلك قصدنا الأمير لكي نعرض عليه، أنَّنا نرغب في التوجه إلى تيماء والحجر وتبوك، ونطلب منه السماح لنا بالمغادرة. ورأى الأمير أنَّه بشأن النقطتين الأوليين ليست هناك أي مصاعب، ولكن الذهاب إلى تبوك بالغ الخطورة، وعندما أبدى هوبر الملاحظة بأنَّ الأمر ليس بهذا التعقيد ابتسم الأمير قائلاً: هكذا لقد بلغه للتوّ الخبر بأنَّ محمَّداً بن عطية[1] بالتحالف مع عنيبر[2] ورجاجيل الشيوخ قد تعرَّضوا لغارة في منطقة غير بعيدة عن تبوك أثناء جمع الضرائب من جانب قوَّة كبيرة من بني عيسى (وهم بطن من بني صخر)، وجرى نهبهم بالكامل؟؟ وذهبت الزكاة (الضريبة) مقدرة بالليرة المجيدية 7000 في مهب الريح[3]. وتزايد تأثري بسبب خادمنا محمود الذي أمَّن محمَّد بن عطية بأن يعطي أسرته التي تعيش في معان مبلغ عشر ليرات نابوليونية.

في هذا المساء استدعانا الأمير لزيارته بعد طعام العشاء، وذلك لأوَّل مرَّة منذ 21 كانون الأوَّل/ديسمبر. وكان في غاية التجاوب، وكان ابن عمه حمود العبيد الذي قصدناه بعدئذٍ في غاية اللطف لدرجة تثير المخاوف، فقد ساء الدخان قهوته، إلى درجة أنَّه يثير حرقة في العينين. وعندما عدت إلى البيت جربت ألعوبة أوَّل أمس ربَّما جفَّت إنَّها حقاً ممتازة قوية ومقاومة، ويجب أن أركز على هذ الفن.

الاثنين 7 كانون الثاني/يناير 1884م. إنَّ البدوي في سنوات عادية لا ينظر مطلقاً بعين الرضى إلى المطر، ولو عاد الأمر إليه لكان ينبغي أن يهطل من السماء عشر مرّات أكثر، لكن الناس الآن يرون أنَّه كافٍ، ففي كثير من البيوت، حتى المتينة منها مثل بيت الأمير عبد العزيز، لم يبقَ موضع جاف يمكن اتخاذه للنوم. فقد أخذت الرطوبة مأخذها من جميع الأبنية إلى درجة أنَّ المؤذن لم يعد يتجاسر على الصعود على حائط، فكيف به بالصعود إلى

(1) انظر الجزء الأول.

(2) هذا العبد الجسور الذي عامل في حينه دوتي Doughty معاملة سيئة، بوسعي الآن أن أبرق إلى دوتي بهذا الخبر المثير للرضا.

(3) الأصل: ذهبت إلى الجحيم.

المئذنة، وكذلك الأمر لدينا فإنَّ المطر يهطل في أمكنة نادرة الاستعمال، فيجب علينا أن نبدل مواضع حقائبنا وصناديقنا، لقد انزلقت إلى الأسفل بعض الدرجات التي تؤدِّي إلى السطح. في هذا الصباح بعد سقوط البرد زينت قطعة من الجليد النقرة الكبيرة في الأرضية الطينية للحجرة الشتوية، التي جعلت في سقفها فتحة (سوامة)[1] لشفط الدخان.

هناك رجل وصل إلى هنا من خارج المدينة كان عليه أن يدع حماره يسير، وأن يخوض وحيداً في الساقية (السيل) العميقة، لم أخرج طيلة النهار من البيت ولم أجد ما هو أفضل من أن أشكل الألعوبات.

الثلاثاء في 8 كانون الثاني/يناير 1884م. استمر هطول المطر طوال اللَّيل دون انقطاع، وقد دخل الماء إلى مخزننا، حيث وضعت الصناديق ونزل من طابقين، وغدت الأرضية مثل مستنقع، ولحق زبونيٍّ سترتيَّ (زبون) الجديدتين المعلقتين على الحائط البلل والاتساخ من الماء الطيني المتسرب، بعد الظهر خرجت من البيت متوجهاً إلى الشعيب، ويبلغ عمق مائه المتدفق حوالى المترين، وتحدث الناس في حي لبدة عن انهيار عشرين بيتاً بالكامل، شاهدت واحداً منها كان قد جرف إلى بئر عمقه 17 قامة، وفي أعقاب ذلك جرت أعمال إنقاذ رائعة، كما تضررت معظم الأسوار بجانب بستان النخيل بالغ الضرر. وفي كلِّ مكان سقطت الفرضات وسدّت الطرق قطع من الآجر الطيني المكسرة، بين ثغرات أسوار البساتين، وبعد تسلق أكوام ذات مزالق وخوض برك عثرت على بناء مهجور، وفكرت بالأسباب التي تجعل مثل هذا العمل العمراني الفخم سابقاً يؤول إلى الانهيار. وأنا أمرّ سمعت قرقعة وضوضاء وعندها استدرت شاهدت بين الجدران القائمة ماء ووحلاً يتدفق من الأعلى. ولم أجرؤ على التقدُّم نحوه لأنَّ الأرض كانت موحلة. أمام المدينة من الغرب تعيش في خيام مجموعة من الناس، وكذلك في بساتين النخيل لأنَّ بيوتهم مهدَّدة بالانهيار، أو على الأقل غير قابلة للسكن في وضعها الحالي.

والأمير ذاته في القصر المتين ليس آمناً تماماً، فهو يدلف في كل

---

(1) يذكرها هِسّ باسم سماوة. وهو الصحيح.

المواضع، ومن باب الحيطة أقام خارج المدينة خيمة ضخمة بحيث يمكنه اللجوء إلى هناك عند الضرورة. إنَّ الضيوف الذين يفدون إلينا، يؤكدون لنا أنَّ بيتنا ما زال متماسكاً نسبياً. ومن المزعج أنَّ المرء لا يستطيع أن يدفع الأضرار عن نفسه لأنَّ الأدراج التي تؤدِّي إلى المصاطب الثلاثة لم تعد موجودة، وقد انزلقت الكتل الطينية تحت وطأة جذوع النخيل المائلة ولم تعد آمنة الجدران التي تستند عليها، سمعت أنَّ موعد الغزو قد تأجل أو أنَّه ألغي تماماً، وعرض علينا الأمير حجراً أسودَ، وحسب أقوال الناس فإنَّه هبط من الجو بعد ظهر أمس في حي العبيد. واستفسر عمَّا إذا كان هذا ممكناً فذكَّرته بسورة الفيل من القرآن الكريم: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

الأربعاء في 9 كانون الثاني/يناير 1884م. اجتذبتني روعة شروق الشمس إلى الفلاة، فوضعت بندقيتي على ظهري وسرت باتجاه الجبال مع هبوب رياح شمالية لافحة وكانت درجة الحرارة 4,55 مئوية، خلف جبل المشرمخة، سرت ثانية باتجاه المنيف في طريق معروف لديَّ ولم ألمح أي حيوان بري.

في هذه المرة صعدت الشعيب في الخلفية على نحو أيسر وتوغلت أيضاً في القسم الأعلى حيث الحوض وأشجار النخيل، وبعد أن تفاديت ثقوب الماء جزئياً، وخضت في جزء منها، وجدت نفسي أخيراً مباشرة تحت قمة المنيف، وما زال على ارتفاع 80 متراً أمامي، وقد تكوم مثل سور مغلق، وفي طريق العودة وأنا أحشر نفسي عند النزول بين الكتل الصخرية صادفت باندهاش رجلاً أسودَ، وكان مسلحاً أيضاً ببندقية، وهو بصدد الصيد، وفيما بعد التقيت رجلاً أسودَ آخر، وهما أيضاً لم يعثرا على وعل جبلي، وعندما وصلت إلى سهل مغوَّات في الأسفل، جلست خلف جدار صخري، وأخذت أدخن هناك محمياً من الريح واحداً من سجائري، وفيما بعد فتشت عن طريق جديد للعودة غير ذلك الذي أتيت منه، ولم أكن موفقاً

---

(1) سورة الفيل.

تماماً، ووصلت مع العصر (حوالى الساعة الرابعة) إلى البيت، ونتيجة للجوع الشديد لم أشأ الانتظار ساعة أو ساعتين حتى يجهز الطعام، فناديت خادمي محمود بأن يحضر لي أي شيئاً آكله. وعندما امتنع هذا بوقاحة عن تحضير الطعام، وأخذ يعلمني بأنَّه ليس وقت طعام، وأنَّه بوسعي الانتظار مثل الآخرين، فلتت منِّي دون إرادة كلمة: ملعون، وفي إثر ذلك تصرف محمود مثل مجنون، وأخذ يلوح بذراعيه، وأطلق فيضاً من الكلمات غير المفهومة، وقال: إنَّني وجَّهت إليه أكبر شتيمة بأن سببت دينه؛ ماذا؟ نعم وبكل تأكيد، وإنَّه يعرف ذلك من دمشق، إنَّه لشؤم عندما أقدم عموماً على السير معنا. وبعد أن هدأ الجو شيئاً ما، قلت له على هذا الأساس لن نتردَّد طويلاً في التفتيش عن خادم آخر، فأرسلته إلى الحجرة، وأخذت من مؤونتنا حفنة من التمر، وفي الحال دخل الخادم ثانية وطلب العفو، ووقف بالانتظار ومعه قهوة. وفي المساء استدعينا ثانية إلى الأمير.

الخميس في 10 كانون الثاني/يناير 1884م. أمضينا ليلة باردة وسجلت درجة الحرارة في الفناء 2°، ويُقال: إنَّ الجليد يسود جميع المناطق خارج المدينة، وعثر على أحد عبيد الأمير متجمداً في منطقة لقيطة، في هذ اليوم لست بحالة جيدة، ويبدو أنَّني نتيجة للجولة الجبلية التي قمت بها بالأمس مرتدياً قميصاً وعباءة فقط، ومع الريح، قد تعرَّضت لإصابة برد، ومن ظواهرها وجع رأس، في هذه الأيَّام الباردة سيظل قميصي الصوفي الوحيد، لأسباب معروفة، معلقاً على السطح الذي لا يمكن الوصول إليه، وإنَّ زيارة ماجد لم تكن موضع ترحيب من جانبي.

في المساء كنَّا مدعوين إلى مائدة عبد الله، في تلك الأثناء كانت قد تمَّت المصالحة مع [زوجته] البغدادية وتحدَّث صاحب البيت عن الجنّ، وذكر ببالغ الجدية ـ ما زالت القشعريرة تنتابه ـ إنَّه في وقت متأخر من اللَّيل في سوق بغداد، حيث كان يمتلك دكاناً، تعرَّض للصفع لمدة ساعة من الجن، ورغم أنَّه يعرف المنطقة وقع أثناء الظلمة في تيه، وكان رأسه يضرب في كل لحظة في زاوية، ولم تنفع في ذلك ما كان يُردِّده من أقوال مثل أعوذ بالله، سبحان الله، وجرجر

نفسه في اللَّيل بالكاد عبر الأزقة الموحشة ليصل منزله متورم الرأس، وكدمات زرقاء في الجسم. جهدت لأتمالك نفسي عن الضحك، ولو لم أسمع ذلك من فمه بالذات بأنَّه لم يكن يعرض عن تناول المشروبات الرُّوحيَّة على الأقل، لكان من المبرر أن يناقش تفسير يتجاوز العالم الحسِّي، إلَّا أنَّني لم أرغب بأن أدع هذه النقطة الخلافية دون مساس. فسألت فيما إذا لم يكن قد عمل في ذلك سوى القليل من العمل الصالح، أقسم الأيمان المغلّظة أنَّه كان صاحياً، وأنَّ الأمر لا يعدو أن يكون عقوبة له لأنَّه في السابق كان يشك في وجود الجن، ورأيت أنَّ مثل هذا النوع من الجزاء قد يكون بكل تأكيد مؤلماً ومؤسفاً، ولكن عمَّا كان يبحث ليلاً في مثل هذ السوق الخالي من الحركة. نعم إنَّه كان يقوم بالترتيب في دكانه، وعندما أغلقه لاحظ أنَّ الظلام الدامس قد ساد، وأنَّ السوق برمَّته خالٍ من الحركة ومقفل، وقد خشي الحارس من الطرق الغريب والصراخ المريع، ولذلك تردَّد طويلاً حتى فتح البوابة.

الجمعة 11 كانون الثاني/يناير 1884م. قررت أن أغيِّر في مظهري الإنساني لكي أُدخل تبدلاً مرحاً على الرتابة المقيتة لوجودنا. قبل انبلاج الصباح تأنقت قدر الإمكان لهذا الغرض، فارتديت قميصاً حريرياً مع أهداب حمراء وكوفية حريرية وصندلاً حريرياً والسترة الهندية الجديدة التي أخذتها من ماجد ولبست في القدمين جواربَ ذات حياكة ناعمة (لأوَّل مرَّة أرتدي الجوارب منذ أربعة عشر شهراً) وجواربَ صوفية، وجزمة بدوية حمراء ذات أهداب زرقاء، وقطعة حديدية حول الكعب وحلياً ذهبياً وزوقت العينين بكحل جميل، وثبّت اللحية برفق، هكذا تجولت في الشارع بعد تناول الفطور حاملاً السيف محيياً بلطف وبوقار كاملين الأهالي المندهشين. وأما ما سيحصل كان واضحاً، في غضون خمس دقائق كان قد وصل الخبر إلى الأمير، لقد أتيت عملاً لم يشاهد من قبل، ولا بُدَّ وأن يكون قد حصل شيء خاص وبالطبع أوفد رسولاً دون تأخير، وأبلغني بأن أذهب إلى القصر وكان بالانتظار هناك جميع حاشية البلاط، جرى تفتيشي وتلمس جسمي وكان عليَّ أن أقدِّم معلومات بالتفصيل، فبيَّنت بأنَّ اليوم عيد ميلاد شقيقتي، ورغبت أن أحتفل به على الوجه المعتاد، وفيما بعد

أرادوا أن يفهموا إذا كان المرء في أوروبا[1] يتجول طيلة النهار بهذه الثياب وهل تكفي الكلمات في تصحيح هذه النظرة الخاطئة، لذلك لجأت إلى الرسم، فطلبت أن يقدم لي ورق، وشرعت بإعداد بعض الرسوم. أثارت القبعة ذات الطرف العريض دهشة وإعجاباً (فيما إذا كانت من الحديد؟) بينما بعثت على الضحك القبعة الأسطوانية واللباس الرسمي، وأما لباس السياحة وشنطة الظهر والعصا الجبلية، وحذاء التسلق، وأحذية الثلج فلم تجد أي اتفاق في الآراء وظلَّت غير مفهومة، وعندما رغبت أن أشرح التزلج وتلعثمت في تعبيري بالعربية وجدت على وجوه مستمعي الذين يفتقرون إلى المفاهيم الفيزيائية الأولية، ما يوحي بأنَّهم يرمونني بالخداع، ولذلك توقفت مع الأسف لأنَّهم لا يفهمونها وحتى لو كنت قادراً على توضيحها بكلمات مألوفة، وقام الأمير بتحويل الحديث إلى الموسيقى مستفسراً إذا كانت لدينا أغانٍ، فبيَّنت له أنَّ قبائل وطبقات وأعماراً وأجناساً مختلفة لكل منها حسب تذوقها أغانيها المفضلة وكذلك التيروليون والجنود والصيادون والبحارة والطلّاب والفتيات العاشقات والأطفال ولم يكن بوسعي الإفلات من تقديم نماذج للاستماع[2]. ولكن باعتبار أنَّ الكلمات الألمانية ظلَّت غير مفهومة ولم يكن من اليسير ترجمتها بالعربية لم تخلق الأنغام أي انطباع خاص. ولكن عندما غنيت ليونوري من التروبادور مع نصّ عربي[3] مقحم وفي غاية البساطة أطربوا غاية الطرب بأجمعهم وطلبوا الإعادة، ورجاني الأمير ماجد أن أعلِّمه الأغنية في بيته، لكن لم يقيض لهذه الحفلة الصباحية أن تختتم على نحو محترم عندما عزف على أرغن دوار أحضر من خزانة القصر، بعد العودة إلى البيت خلعت ما ارتديته في هذه المناسبة.

دعانا الأمير لتناول طعام العشاء، وقدَّم الأرز ومرق اللحم ولحم الوعل

---

(1) الأصل: بلاد النصارى.

(2) لقد طفت عموم التيرول دخولاً وخروجاً. .إلخ، هيا بنا يا رفاق إلى الجواد، إلى الجواد. كان لي رفيق، في الغابة وعلى المرج، لقد ولدت في البحر، فلنسعد، إنَّ حبيبي يرحل ويرحل، بمقدار ما في السماء من نجوم.

(3) قم يا حبيبي من النوم يا غزالي يا غزال.

الجبلي (ليس لذيذاً في فترة الإرضاع) ونوعاً من نقانق اللحم وقد لفّ برقائق ووضع إلى جانب كل شخص وعاء فيه ليموناضة مرة، وفوقه طاسة للغرف منه، ووهبني الأمير قرون الوعل الجبلي، وطولها يزيد عن أربعة أشبار.

السبت في 12 كانون الثاني/يناير 1884م. مرة ثانية شروق شمس رائع، في الصباح الباكر أرسل ماجد عبداً يطلب قلم رصاص وبعض الألعوبات، وأرسلت إليه قائلاً: إنَّه سيحصل عليها خلال اليوم، وبالطبع لم يخطر ببالي أنَّه يمكن أن يشتري قلم الرصاص بالقطعة، وأنَّ عليه أن يعمل بذاته الألعوبات، وكما تبيَّن لي في اليوم التالي فإنَّ الطلب لم يكن سوى حجَّة، فقد كان يرغب أن يستدرجني إليه بحيث يحصل منِّي على ساعة غناء.

الأحد 13 كانون الثاني/يناير 1884م. في غضون ذلك أخذ ماجد يحاول ضمن أربعة جدران أن يتقن أغنية ليونوري، ومن المدهش أنَّ هذا الإنسان الموهوب (الذي أعتبره أيضاً قادراً على الإتيان بكل ما هو سيىء)[1] تمكن من حفظ جميع الإيقاعات وعلى نحو صحيح عدا الخاتمة حذفتها له عن قصد وتمرن عليها من جديد بمشقة مثيراً دهشة العبيد، وفي المقطع الختامي لم يجد النغم العميق، وفي كل مرة كنت أربت بشدَّة على الركبة وأصرخ عميق، عميق، وقلَّما أعتقد أنَّ هذه الكلمة العربية قد استعملت كمصطلح موسيقي من قبل إلَّا أنَّها كانت مدعاة للبهجة، وقام إخوة ماجد الأصغر منه بتقليدي، وما إن يقترب المقطع حتى يصرخوا «عميق، عميق» إزعاجاً لماجد، ولمَّا كانت ليونوري تصدح في أركان البيت على نحو رديء غادرت المكان وأرسلت إلى ماجد من باب احترام إمكاناته الموسيقية بعض الألعوبات.

الاثنين في 14 كانون الثاني/يناير 1884م. في الصباح الباكر أقبل ماجد مع أخويه سالم وسلطان للزيارة وقمنا بعدئذٍ بالتجول في الأحياء

(1) يُقال: إنَّه قام فعلاً، بدسّ السُم لعمه الأمير محمَّد بن رشيد في أواخر العام 1897م.

الشمالية الشرقية في المدينة لقد شاهد التاجر الإيراني عليّ أحزمة مطاطية وسألني بتخوف فيما إذا كانت من جلد الخنزير[1].

الثلاثاء في 15 كانون الثاني/يناير 1884م. قمت بزيارة حدَّاد السلاح غانم، وأمضيت بعض الوقت لديه بسبب إلحاحه واستجداءه، ولدى استفساري عن حفيده البالغ خمس سنوات من العمر[2] أجاب بما يلي: إنَّ الولد يعاني من كثرة القمل، وهو لدى الحريم وهن يفلونه ليخلصوه منها، وفي المساء دعونا شيخ التومان سند الربع مع رفيقين إلى وجبة شهية، وقد ضمت بعد القهوة والأرز مع لحم الخروف ما أضافه محمود من معجنات وسكر معقود، ولم يُزد بذلك الإعجاب فحسب بل والشهية. وبعد شرب الماء أطلق أحدهم جشأة أتبعها بترديد عبارة الحمد لله، إنَّ الشيخ الذي يمتلك مراعي في أسفل الشط (جنوب البصرة) أكَّد على تحديد وادي الرمة وبأنَّه يصب بعد الزبير أي أنَّه يقع أبعد إلى الشرق ممَّا هو في الخرائط.

بعد وداع الضيوف أخذت المجلدين من كتاب ريتر عن الجزيرة العربية، وقرأت ثانية الحملات ضد الوهابية، ثم ولمرات عديدة مجموعة الأخبار عن الأنباط وأقوال الجغرافيين والحجَّاج الشرقيين عن آثار مدائن صالح (الحجر). ويحتاج المرء إلى صبر الشرقيين ورضاهم إذا ما كان ينبغي التوصل إلى تنقية ما ذكروه في وصفهم، فالقليل منه ملموس واهٍ في الاعتماد عليه في المقاسات والوقت والاتجاهات يشمل كل شيء ويختلط بكل ما هو عديم القيمة ويدعو إلى اليأس. وممَّا أثار دهشتي على الدوام الكيفية التي كان يهتدي بها الفارس في ظل هذه الفوضى، والطريقة التي قومها بها، آه لو قيِّض لي أخيراً أن أكتسب خبرة منها على النحو الذي سلكه الثموديون[3] تجاه الأنباط مثل الجزء

---

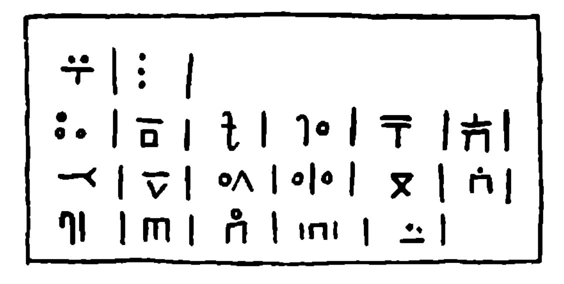
(1) انظر الجزء الأول.

(2) انظر ما مرّ سابقاً.

(3) كان الأنباط والثموديون قبيلتين مختلفتين، ويعود الأنباط إلى غرب الجزيرة العربية، بينما الأخيرون ينتسبون أكثر إلى شرقها، وطور الأنباط قوّة كبرى، وأسسوا دولة في شمال غرب الجزيرة العربية وجنوب فلسطين وشرق الأردن بدت مهدّدة للرومان ذاتهم وبلغت الازدهار خلال الفترة الممتدة من العام 50 ق.م حتى 50م وكانت عاصمتاها الحجر =

تجاه الكل، أمّا إذا كانت النقوش في الحجر [مدائن صالح] نبطية أو أنّها شيء آخر، فهذا أمر يصعب عليَّ حسمه في هذا التيه، لقد انقضى ثلاثة أرباع الليل عندما أطفأت فانوسي الخافت الضوء.

الأربعاء في 16 كانون الثاني/يناير 1884م. حوالى الساعة الحادية عشرة نهضت خجلاً من سريري. أثناء جولة في الشرق حول بساتين النخيل البعيدة زرت مقبرة ذلك الحي. وكانت الحجارة الخالية من الزينة تحمل على بعض منها أسماء مثل صالح بن إبراهيم بن مجراد 1296 وتحمل في أغلبها وسم القبيلة أو رمز الأسرة[1].



وسم القبائل على قبور عربية

[أورد من كراس يومياته النقوش التالية:

1 ـ شقرا رحمها الله.

2 ـ هندي بن ناصر.

= والبتراء في العام 104م دمر الرومان الدولة على يد لورنيليوس بالما، ودمج قسماً كبيراً منها في الولاية العربية، لقد أخذ الأنباط الكتابة واستعملوا اللغة الآرامية رسمياً وحافظوا عليها بعد القضاء على استقلالهم، وقد تطور الخط العربي من الصورة التي بلغتها الأبجدية الآرامية إلّا أنَّ الثموديين ظلوا ضمن حدود متواضعة ولم يشاركوا إلّا قليلاً بالحياة الثقافية العالم القديم وكانت لغتهم وكتابتهم عربية خالصة، وأنَّ نقوشهم في معظمها خربشات وتحتوي في الغالب على أسماء علم. وفي الحجر (مدائن صالح) اتصل الثموديون والأنباط مع بعضهم وكان بعض الثموديين يتبعون دولة الأنباط، عندما وصلت ذروة قوّتها (انظر يومية 25 آذار/مارس 1884م).

(1) انظر حول أسماء وسم القبائل ومعناها، ليتمان **دراسة في فك النقوش الثمودية** برلين 1904م، ص78 وما بعدها، **Litmann, Zur Entzifferung der thanudischen inschriften**.

3 ـ سليمان بن محمَّد (مع رمز القبيلة $\bar{\bar{x}}$).

4 ـ عائشة (مع رمز القبيلة ┴┬).

كان يستلقي في المسحب (الساحة أمام القصر) عشرة من الجمال الغريبة ولم أكن على علم بوسم (رموز) القبائل، وقيل لي: إنَّ عدداً من البدو وصلوا قادمين من الشمال وهم روالة وصقور وغيرهم، ويقدّم أولئك الذين يتبعون قبائل حليفة أخباراً عن المناطق التي ينزلها الأعداء، وما استطاعوا الحصول عليه من معلومات. ويحضر معهم أولئك الذين يتبعون الأعداء، وهم من الروالة والصقور، هدايا من الجياد أو سواها، ويحضر هؤلاء عموماً إلى هنا لأنَّ قبيلتهم ترعى في هذا الوقت عند تخوم شمّر في الوديان، وطالما أنَّ موفدهم يقيم لدى شمّر فإنَّه بوسعهم الرعي هناك دون أي اعتراض. وإنَّ أي هجوم عليهم في هذا الوقت يعتبر غير مشرف، وبالطبع فإنَّهم يرغبون خلال هذه الفرصة أن يسمعوا ويستطلعوا الكثير. وفي المساء قابلنا الحملة بالكامل ضيوفاً لدى الأمير، وبلغ الأمر بواحد منهم حدّاً من الوقاحة أن يدخن نرجيلة أحضرها معه، ولم يلتفت أحد من الحاضرين إلى هذه البداية المستهترة، إلَّا أنَّ الجميع شعروا بأنَّه خرق للعادات، ولذلك جاءت العقوبة في الحال، عند مغادرة القصر كانت الظلمة حالكة، وقلَّما اهتدى البدوي صاحب النرجيلة إلى الأدراج المؤدية إلى الباب، وما إن أغلق الباب وراءه، حتى طار مع أداته الأثيمة بيننا وارتمى في الساحة، وحاول بمساعدتنا أن يجمع أجزاءها المفردة ولكن الظلمة كانت حالكة، ولذلك طرقنا بقوَّة باب القصر وبلا انقطاع لكي نحصل على فانوس، ومرَّ بعض الوقت حتى ظهر من أعلى السور الحرس، ونادى أنَّه سيأتي في الحال، وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ يولول قائلاً: إنَّه ما زال يفتقد رأس النرجيلة والغطاء مرَّ به الشيخ الوهابي صالح وسأله، ما الذي حدث، ولماذا هذه الضوضاء فقيل له: إنَّ الشيخ فلان قد وقع مع نرجيلته وأضاعها، إلَّا أنَّه سيجدها إن شاء الله. وقد أجاب ذلك الشخص حانقاً وراضياً بالحظ التعيس: «إنَّني أقول لكم إن شاء الله لن يجدها وهو خير له».

الخميس 17 كانون الثاني/يناير 1884م. يرى هوبر أنّه بمناسبة الغزو

المتوقع قد جاء الوقت المناسب لتقديم بنادق الصوان[1] الإحدى عشرة للأمير، وبذلك سيكون من اليسير عليه أن يسمح لنا بالرحلة غرباً، وقد وافقته على الاقتراح وحمّسته على الشروع بالتفاوض بإلحاح، وهكذا توجَّه هوبر ـ لم أكن مستعداً لذلك ـ مصحوباً ببندقيتي يحملها عبد قبل شروق الشمس إلى الأمير ووضع عند قدميه البندقتين كإسهام من جانبنا في الغزو، وبعد ساعتين عاد حاملاً البشارة السارة بأنَّه بوسعنا خلال الأيَّام القادمة أن نبدأ رحلتنا المنشودة، ويجب أن نزوَّد بالدواب والزاد والمرشدين، لقد أحضر حمود المجراد صُليبياً[2] اسمه درويش البناقي من منطقة الحجرة (في منتصف الطريق ما بين هنا [حائل (حايل)] والعراق، ويعيش الصُلَيب مبعثرين بين القبائل حيث يحظون برعايتها ولكنَّهم لا يعتبرون منها، وهم مساكين جفولون ولا يربون سوى الغنم والحمير ويقومون بصيد الغزال والنعام، وكان على درويش أن يُقدِّم معلومات عن تقسيم قبيلته، وعن مواطنها في بادية الشام وجزيرة العرب. وقام الخادم محمود بتسجيلها لهوبر. وفي ذلك الوقت كان لديَّ فراغ بحيث أتأمل الصلبي وأرسمه. كان يرتدي جبَّة خاصة بالصُلَيب وتتشكل من جلود 15 حتى 20 غزالاً، وكانت الأكمام تضيق عند الرسغ وتصل حتى الأصابع، وهذه الجبَّة مقارنة بعباءة البدوي ليس لها الطول نفسه وغير مفتوحة من الأمام بل لها فتحة عند الصدر والعنق لارتدائها وتعتبر لديهم من الثياب الفخمة ويلبسون تحت الجبَّة قميصاً.

قمت بعد الظهر بزيارة حدَّاد السلاح غانم وصادفت لديه الأمير عبد العزيز الذي لم أجده في البيت، لقد سلَّمت حمد بن فاضل الزهيري صهر غانم، علبة فازلين من أجل بندقية الماوزر التي قدمتها للأمير، وبالإضافة إليها فرشاة أسنان عتيقة، وفي المساء جاء حربي واسمه فارس، ولم أحصل منه على شيء عن فروع قبيلته أو عن أسماء الشيوخ.

الجمعة في 18 كانون الثاني/يناير 1884م. لقد نهضنا في وقت

(1) يذكرها هِسّ باسم بندق أم زند، أو بندقية قداحي.
(2) الجمع صُليب أو صُلْبة.

مبكر فالأمل بالانطلاق قريباً حرك فينا النشاط، ولذلك قمت بترتيب كل شيء بحيث يكون بوسعي الانطلاق في الساعات القادمة بعد الظهر شربت القهوة لدى عبد الله وفي المساء سقط قليل من المطر من غيوم السماء الملبَّدة.

السبت 19 كانون الثاني/يناير 1884م. في الصباح قصدت ماجد ووالده حمود العبيد، وكان هذا الأخير تباكى بالأمس مرَّة أخرى بواسطة عبد الله قائلاً: إنَّنا قدمنا بنادق للأمير مراراً وتكراراً، وسأل عمَّا إذا كنَّا سنهبه شيئاً للغزوة المرتقبة، مسدساً مثلاً (آه منك يا من لا تعرف الشبع) وكان عليَّ أن أُعرب له عن أسفي، بأنَّه لم يتبقَ لدينا سلاح كي نقدِّمه هدية.

لقد زارنا فيما عدا الصليبي شخص يُدعى فهد بن غازي من قبيلة الدغيرات من منطقة جنوب مُستجِدة.

الأحد في 20 كانون الثاني/يناير 1884م. أحضر يوسف العتيق هتيمياً[1] لكي يذكر لنا أسماء فروع وخيام قبيلته. وأثناء الحديث تبيَّن أنَّ الهتيمي قد تعرَّض لمهانة واضحة وأخذ بالتباهي أمامنا نحن الغرباء، ولذلك لم يذكر سوى أعداد محدودة مبالغ فيها، وكان يوسف يحذف منها باستمرار، وأخيراً فرغ صبر يوسف. وقال له باحتقار: «إذا ما رأيت أمامك 100 من خيامكم فإنك لن تكون وقحاً فتزعم بأنَّها بيوت العربان، بل بوسعك أن تقول فقط هؤلاء هم هتمان» فالهتمان في نظر العربان دون مستوى الأنداد، وغالباً ما يأنفون منهم ويرمونهم بالتهمة بأنَّهم ـ على الأقل كسكَّان شواطىء ـ يأكلون السمك، وقبل كل شيء يعدّون (. . . .)[*] من بينهم، وفيما عدا الهتيمي وصل شمري قادم من بعيد اسمه دغيم، وقد وعدني أن يشرح لي الطريق من وادي نجران عبر وادي الدواسر حتى الأفلاج. وأخيراً قدَّم نفسه مرافقنا في الرحلة القادمة حيلان، الذي قرَّر الأمير أن يضعه تحت تصرفنا كمرشد في رحلتنا نحو الغرب، وهو رجل يتجاوز عمره 60 عاماً، وما زال قوياً وحيوياً،

---

(1) هتيمي الجمع: هتمان.

(*) إحدى القبائل العربية. (المراجع).

وحضر حتى الآن جميع الغزوات، ويحظى لدى الأمير بالتفضيل والتقدير في الاستطلاع. فهو يعرف جميع الطرق والمسافات والجبال والآبار، ويعرف أسماءها بكل تأكيد.

ها هم جميع معارفنا يفدون إلينا هاجسهم الحصول على البارود فضلاً عن البنادق والمسدسات، وتعتبر الاستعدادات للغزو أفضل مناسبة للاستجداء والإهداء، فقد أمر الأمير في هذه الأيَّام بتوزيع عدَّة آلاف من الليرات المجيدية على المشاركين في الغزو لتدبير أمور أسرهم ولتجهيزاتهم الشخصية، وكان بوسعنا أن نعتق أنفسنا بسعر أرخص: بعض علب الصفيح من البارود وبعض الخردة تكفي كتبرع. والأشخاص الآخرون مثل عبد الله يقرضون عدداً من البنادق.

الاثنين 21 كانون الثاني/يناير 1884م. بدأ الجو الآن، فقد أحضرت ثلاثة جمال أمام الباب الحمد لله وكان ما طلبناه أربعة ونحن بحاجة إلى أربعة حقاً: اثنين منهما لهوبر ولشخصي وجمل للخادم محمود وجمل للمرشد حيلان، رغم أنَّنا لا نصطحب معنا خياماً أو مواد رفاهية زائدة عن اللازم، وفرز لكل من الإبل ما يكفي من الحمولة، فإنَّها تحمل عدا عن الأشخاص أجزاء موزعة من الأمتعة، وهذا يعني سجاداً وأغطية ولباساً وأسلحة ومواد غذائية[1] وأطباقاً وأوعية وقرب ماء وحبالاً وأدوات وتيودوليت[2] والسداسية[3] وأدوية وكتباً وسلالمَ قابلة للفك بارتفاع 8 أمتار، وبالطبع كمية من الأشياء الصغيرة، وتمَّ إيواء الإبل مؤقتاً في فناء بيت مهجور، وعلى الأغلب كانت تعلف حتى الآن من علف كان يسرق من عند جارنا التاجر الإيراني، وعلى كلِّ حال فإنَّها ليست الإبل[4] الخاصة بنا التي اشتريناها من عمران[5] في

---

(1) كيس تمر، عكة سمن، أرز، بن، شاي، سكر، ملح، كيس صغير دقيق، علبة كاكاو، علبتان من دقيق الحساء، علبة تبغ، نراجيل.

(2) مقياس الأبعاد.

(3) أداة فلكية.

(4) فالزمل في وقت الهيج خطير لا يمكن استعماله.

(5) انظر الجزء الأول.

سبتمبر/أيلول الماضي بل ثلاث نوق مأخوذة من قطيع الأمير. في المساء أرسل الأمير عبداً لاستدعائي إليه بمفردي، وإبلاغي حرفياً أنَّه يجب أن لا أصطحب معي أحداً، وفي قاعة الاستقبال كان الأمير ذاته جالساً مع حمود العبيد وسليمان وصالح الرخيص، وبعد أن وضعت القهوة الجاهزة على الأرض، وأرسل الخدم إلى الخارج، بدأ الأمير يُبيِّن لي أنَّ هوبر ينوي التوجه إلى الحجر والعلا من دوني ويجدر بي أن أحترس. (ومثل البرق راودتني الذكرى، بأنَّني قبل بضعة أسابيع سئلت لدى غانم، حدَّاد السلاح، ومرَّة ثانية لدى ماجد، إذا كنت أستغني عن زيارة المدن الأثرية، الأمر الذي رفضته في الحال كسخافة دون أي تفكير). وقد أجبت الأمير في غضب زائد لا أفهم ماذا يقصد، وزعماً بأنَّني لم أفهم الألفاظ العربية جيداً، كرَّر حمود أو أعاد صياغة كلمات الأمير مرَّة أخرى. فأجبت: «إنَّني فهمت كلماتكم فهماً صحيحاً إلَّا أنَّه لا يمكنني أن أصدق ذلك، كيف يمكن لهوبر أن ينسج مثل هذه الأفكار، ألم أشترك معه في الرحلة برمَّتها فقط في سبيل زيارة تلك الأمكنة؟. ألم يكن رفيقي في الرحلة، لا بل ضيفي منذ البداية، وسيبقى كذلك حتى النهاية؟». فأخذ الأمير يهزُّ كتفيه، وغادرت القصر باستياء. [في الواقع فإنَّ هوبر التفَّ على رفيق رحلته، رغم أنَّه حقَّق معظم الرحلة على حسابه، ومنحه كامل الثقة، وهذا ما جرى تأكيده لمحرر أويتنغ شخصياً، وللأستاذ نولدكه، ويتضح من كتاب نولدكه[1].

إنَّ هوبر كان يصف أويتنغ أمام العرب بأنَّه خادمه[2] عندما عدت إلى بيتنا سألني هوبر ما الذي يريده الأمير، ولم أخف عنه شيئاً ممَّا تطرَّق إليه الحديث إلَّا أنَّني بينت له أنَّهم في القصر لن ينجحوا في زرع الارتياب والشقاق بيننا.

الثلاثاء في 22 كانون الثاني/يناير 1884م. في الصباح الباكر قصد

(1) **رحلة داخل الجزيرة العربية وكردستان وأرمينيا** براونشفايغ 1895م ص43.

Nolde, **Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien.** Braunschweig 1895.

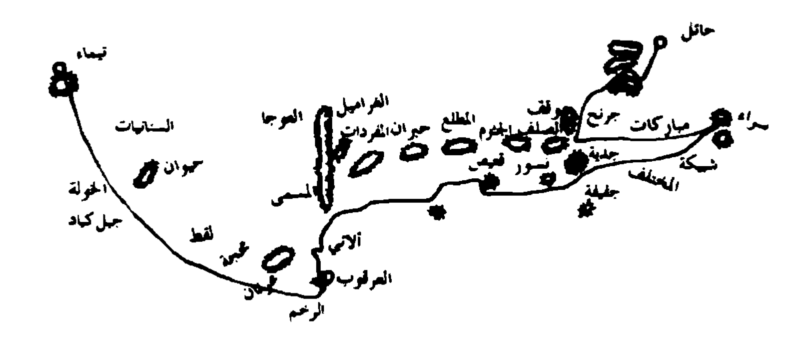
(2) انظر أدناه يومية 16، 25 آذار/مارس.

هوبر الأمير وأحضر من عنده رسائل توصية من بينها رسالة إلى الشرفاء في مكَّة، وحصل على استجابة بشأن الجمل الرابع، وقد تبيَّن من ذلك أنَّ خصمي الساكت حمود يرغب أن يبعدني إلى دمشق أو بغداد، وكلَّما كان هذا أقرب كان أفضل. حوالى الظهر توجَّه الأمير إلى الغزو باتجاه الشمال حسب الزعم. وفي المساء فرغنا من أعمال الحزم الأخيرة من أجل الرحلة الشاقة الحافلة بالأمل، فما الذي سيتمخض عنها؟

الفصل العاشر

الرحلة من حائل (حايل) حتى تيماء

23 كانون الثاني/يناير ـ 15 شباط/فبراير 1884م



[خط سير الرحلة]

الأربعاء 23 كانون الثاني/يناير 1884م. لم أنم إلَّا قليلاً جرَّاء القلق، وما إن انفلق الفجر حتى أخذت أفتش جميع حجرات البيت مرَّة أخرى. لقد وضعت هنا صناديقي وحقائبي العشرة والتجهيزات والمؤن والنفائس والنقود الأوروبية، والرفاه من جميع الأصناف الذي لم نكن بحاجة إليه في الرحلة التي نحن بصددها، وكان بودنا أن ندعها في حائل (حايل) لوقت لاحق وعلى الجدران التي رسمت عليها علقت قسماً من هدايا الأمير والألبسة الرسمية والأسلحة ورؤوس الوعول الجبلية وأشياء نادرة، وقد جرى توضيب وحزم كل شيء على نحو منسق، وبعد 4، 5، 6 أشهر يمكنني إن شاء الله أن أجد كل شيء، في الترتيب نفسه، وفي الفناء وضعت فوق بعضها الصناديق والحقائب جاهزة للتحميل، وكان ما تحتويه قد جرى التفكير فيه وحسابه على مدى أيَّام، وغربل على أساس الأكثر إلحاحاً، وتمَّ تبديل قسم منه ثانية ودقّق مراراً، وبذلك لا يمكن أن نفتقد شيئاً. فلماذا يساورني القلق، فيما إذا كنَّا نسينا شيئاً ما، قد يؤلمنا فيما بعد

افتقاده، ولنمتطِ ركابنا حالاً، فربَّما يدخل ما يشغلنا عالم النسيان، إنَّني الآن معبأ بالاندفاع إلى العمل، ومستعد لتحدي جميع الإجهادات والمخاطر. كانت الركاب جاثمة في الطريق تجترّ وأخذت تحن شاكية عندما أخرجت الأحمال المهيأة لها، ومن بينها سلّم طوله 8 أمتار مقسم قطعاً جرى طيّها. ولمَّا كان أهالي البلد قد خرجوا إلى الغزو، فلم يجتمع للوداع سوى عبد الله المسلماني وجيراننا الإيرانيون، وكي أنال قسطاً من الدفء فقد شبكت أصابع يدي وفركتها ببطء مع بعض ثم مددت كفي، لم يشأ جاري عمران أن يشاهد هذا المنظر ربَّما ذكرته بأداء الصلاة عند المسيحيين. وباختصار فقد فصل يدي عن بعضهما قائلاً: «لا تعمل هكذا، إنَّه سيىء». رافقنا عبد الله إلى خارج المدينة حتى بئر سماح وعانق هوبر للوداع طويلاً، إلَّا أنَّه لم يعتبر أنَّه من الضروري أن يمدّ لي يده للوداع، إذاً الأمر كذلك.

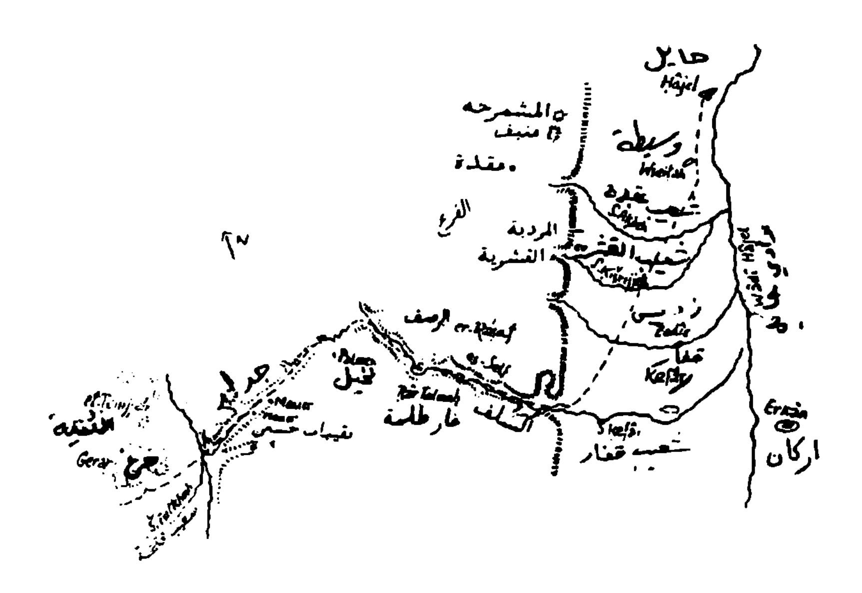
سرنا ممتطين ركابنا الأربعة في زاوية حادة باتجاه سلسلة جبل أجأ[1] الممتدة طولانياً، وقد تقدَّم حيلان باعتباره مرشداً يتلوه هوبر ثمَّ شخصي، وفي المؤخرة الخادم محمود. وكانت الريح تهبُّ من الجنوب باردة وشديدة عبر السهل، وحوالى الظهيرة بدت قرية قفار الكبيرة، وأقدر امتدادها بحوالى 3كم. وعندما نزلنا على وجه السرعة عند مدخل الجبال كي نحضر القهوة، انتهزت هذه الفرصة كي أكمل ارتداء ثيابي بقميص وسروال من الصوف أوروبيين، وحتى ذلك الوقت كنت أرتدي قميصاً بدوياً وعباءة وكوفية وعقال، كان الطريق يسير حتى الآن في الاتجاه الجنوبي الغربي، أما الآن فقد انعطف في الاتجاه الغربي الشمالي غربي نحو السلف[2]، وقد اخترنا موضعاً محمياً نوعاً ما للمبيت يُدعى غار طلمة، ومددنا أسرتنا أي السجادات وتدفأنا على وهج نار مضرمة[3].

---

(1) لقد لفظ حيلان اسم الجبل إيجا، **انظر المجلة الجغرافية** Zeitschriftf. Erdkunde 1865, N.F. 18, 243.

(2) ربعة السلف.

(3) على كلِّ حال كان الدفء أفضل ممَّا تعرَّضت له في 23 يناير/كانون الثاني 1857م في دير بلاوبويرون، في ذلك الحين كنت وراء نافذة ذات قضبان في حجرة غير مدفأة وحرارة 22° =



الخميس في 24 كانون الثاني/يناير 1884م. لقد شكَّلت برودة الليل قطعة من الجليد على سطح وعاء الشرب، وبعد أن تابعنا سيرنا في الاتجاه القديم لمدة من الوقت، انحرفنا وأخذنا بالسير على طريق حجري، ومررنا ببعض أشجار النخيل باتجاه الجنوب الغربي نحو مرتفع حيث يحظى المرء بمنظر رائع نحو الأسفل وعند مخرج الوادي مررنا بإبل ترعى في شعيب فتخة ثم صعدنا سفحاً رملياً باتجاه عقبة جبلية متشظية تُدعى جرغ، وكانت الأرض مغطَّاة بأزهار بنفسجية تُدعى تربة وبنبات العصنصل[1] العميق الجذور وتنغل بينه يساريع حمراء مثل لون الثعلب، عند سفح الجرغ وجدنا مكاناً محمياً من الريح خلف صخرة.

= بسبب محاولة بريئة لزيارة حانة ما بين الساعة السادسة والعاشرة مساءً، وفي أحد الجدران السميكة كانت فتحة مربعة بطول نصف متر ومن خلفها مدفأة غرفة طالب، وكان بوسعي أن أدفىء قدمي. ثم أقبل رفاقي بعد طعام العشاء في ساعة الاستراحة الثامنة والتاسعة وإلى جوار النافذة وأنشدوا لي من كتاب **الأغاني** الأنشودة الجميلة، إذ ما مات ورثة السماء الصغار ببراءتهم، فما من توبة، وقد شكرتهم وأسناني تصطك من وراء النافذة المفتوحة بالقوة على عزف الموسيقى قرب النافذة.

(1) عصنصل وكذلك عيصلان، يذكر هِسّ لم أسمع باسم عصنصل على الإطلاق، وهو من مشتقات عُنصل وهو نبات بصلي ينسب إلى مجموعة الزنبق.

الجمعة في 25 كانون الثاني/يناير 1884م. عند الاستيقاظ كانت بانتظارنا مفاجأة جميلة عوضاً عن أربعة جمال لم يتبق سوى جملين، ورغم أنَّنا كالمعتاد ربطنا الأقدام الأمامية للجمال عند ضرب الخيام كما هي العادة فقد هرب اثنان منها على ثلاثة أقدام للتمتع بالرعي في المرعى الوفير عوضاً عن البرد. وقد أمضى المرشد حيلان ساعة حتى تمكن من إعادة الفارين. تشكَّلت خلال اللَّيل في أوعية الشرب والنراجيل طبقة من الجليد بسمك سنتيمتر واحد وكذلك كان شأن قرب الماء فقد تجمَّد الماء فيها. مع هبوب الريح الجنوبية القارسة انطلقنا باتجاه غربي وقد ظهر خلف السهل شريط داكن من الأشجار تتخلَّلها بيوت بيضاء، إنَّها هدفنا لهذا اليوم قرية موقق وقد امتد الطريق بنا بعيداً أكثر ممَّا توقعنا وتطلب منَّا $4\frac{1}{2}$ ساعات حتى وصلنا إلى البيوت وتوقفنا عند بيت الشيخ بركة بن مريم.

مرَّة أخرى لم نتمكن من إدخال الإبل عبر الباب[1] فقد اضطررنا إلى النزول وتفريغ الحمولة في الخارج. ومع وصولنا تقريباً وصل أيضاً بضعة رجاجيل (عساكر)، ومن بينهم عنيبر[2] البالغ الجسارة، وهو حالياً متواضع إلى درجة لافتة. إنَّهم في طريق العودة من بعثتهم الفاشلة إذ إنَّه كان عليهم أن يقوموا مع محمَّد بن عطية[3] بجبي الزكاة من القبائل الغريبة، إلَّا أنَّ قوَّة كبيرة من الحويطات وبني صخر[4] باغتتهم وتمَّ نهبهم بالكامل، وفي هذه المناسبة فقد عنيبر عباءته الحمراء التي يتباهى بها. والحالة هذه كان عليه ـ كما وُشوِش في أذني من باب الشماتة ـ أن يظهر بملابس رثَّة لبدوي حقيقي بعد الانتهاء من الاستقبال والضيافة الأولى بالقهوة والتمر والسمن. أردت أن أرسم، وأن أنظر إلى القرية عن قرب. يُقال: إنَّ عدد سكَّان موقق في السابق كان 5000 ـ 7000 نسمة، ونتيجة طاعون أو كوليرا

(1) انظر الجزء الأول.

(2) انظر الجزء الأول.

(3) انظر الجزء الأول.

(4) انظر يومية 23 شباط/فبراير و4 آذار/مارس.

ورحيل الأهالي انخفض العدد إلى 1000 أو 1200 نسمة على أعلى تقدير. وتمتد البيوت والبساتين في شريط من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي على مسافة حوالى 3/ 4 الساعة. أما البيوت والنخيل والآبار فتمتد باتجاه الغرب، في القسم الشمالي الشرقي تمتد صفوف منتظمة من أشجار الأثل القديمة وأمامها مروج خضراء، وكانت في السابق بساتين تحفُّ بها أسوار، وهي الآن في حالة انهيار. وقبل ذلك كانت أشجار نخيل ضخمة ترسل جريدها شامخة نحو السماء تبثُّ شكواها. وقد عانت البيوت القديمة التي لم تلق العناية كثيراً خلال الهطولات المطرية الأخيرة.

حتى عودتي من الجولة التي قمت بها أصبح الجو السائد في بيت الشيخ صاخباً ويتسم بالحيوية، وكانت إبلنا باركة في الفناء وقد لطخت الأعناق والأفخاذ بالدم من الجانب الأيمن، وهذا يعني أنَّه قد ذبحت ذبيحة تكريماً للضيوف[1]، وقد ازدحم الفضوليون في القهوة دخولاً وخروجاً من ناحية كي ينظروا إلينا نحن الغرباء باندهاش، ومن ناحية أخرى كي يستخبروا عن تفاصيل حول نهب محصلي الزكاة. وفي الموقد كانت تشتعل قطع من شجر الأثل بطول خمسة أقدام. وكان بين أصحاب عنيبر شخص يُدعى نومان كلفة الأمير بتولي مرافقتنا من تيماء حتى تبوك. ولو قيض له أن يرتدي الزي الأوروبي، لكان سيعتبر في الدرجة الأولى حذَّاء أو مراقب الدوام، أما في الواقع فهو لص (حرامي) ولص جمال ذائع الصيت، وبهذه الصفة فإنَّه مهاب الجانب من بلي، فقد نهب منهم في آخر مرة قبل عامين جمل ركوب بديع (ذلول) وأحضره إلى حائل (حايل) هدية للأمير وعندما رفضه هذا باعه في العاصمة بمبلغ 44 ليرة مجيدية (حوالى 150 ماركاً). وإنَّ لباسه الرثّ حالياً يقصد منه إثارة الشفقة لدى عودته القريبة إلى حائل (حايل)، وبذلك يطلب من الأمير أن يجهزه من جديد ولو

---

(1) لكل قبيلة أسلوبها الخاص في التلطيخ بنحو متعارف عليه بين أهالي الصحراء ويعرفه حتى الأطفال، وبذلك فإنَّ كل شخص يعرف أين نزل الغريب آخر مرّة وحظي بالضيافة. إنَّه إذاً نوع من الإعلان عن الضيافة، وهو مطابق للصاقات العناوين البشعة التي تلصق في أوروبا على حقائب المسافرين.

أنَّ هدفه هذه المرة قد أحبط، فقد توجب عليه أن يعود منذ الصباح بحيث يرافقنا في رحلتنا نحو الغرب من حيث أتى للتوّ إذ إنَّه وجد حسابه لدينا.

في وقت متأخر مساء حمل طعام الضيوف عبيد في أيديهم جريد نخيل مشتعل وأحضروه من منزل الشيخ إلى القهوة. وقد وضع فوق الأرز رأس الضأن وقلبه وكبده ورئته. وفي الختام قدمت القهوة مرة أخرى، أثناء تناول الوجبة استبدلت مشاعل جريد النخيل التي استنفدت بجريد جديد، وما إن سددت رمقي حتى استأذنت على الطريقة الفرنسية، وهذا يعني أنَّني مددت سريري في أقرب ركن وغططت بعد حين في نوم عميق ودون أن أنزعج من الحديث.

السبت 26 **كانون الثاني/يناير** 1884م. قبل انبلاج الفجر ارتفعت من جديد أصوات ثرثرة الناس الداخلين والخارجين، حوالى الساعة التاسعة ودعنا رجال موقق وسرنا في اتجاه شرقي جنوبي شرقي ثانية نحو جبل أجأ.

كان حيلان ونومان يتبادلان الركوب والسير على الأقدام ويتقدمان علينا في السهل. وكان يمتد أمامنا من اليسار المكيسر، وهو فوهة بركان خامد، وفي الوسط الدريغ ثم إلى اليمين جبل طوال بيض الذي يتكوَّن من سبعة رؤوس بازلتية، ومن خلفها جبل السروال وهو يذكرني بجبل كليمون في فوغيزن. بعد الصعود لمدة ثلاث ساعات في شعيب جبلي[1] يتناوب فيه الغرانيت والبازلت وصلنا إلى السهل المرتفع حيث توجد مقبرة خالية من أية زخارف تابعة لقبيلة الدغيرات. بعد نصف ساعة انخفض السهل المرتفع وانفصلت الجبال عن بعضها وقد تفاجأنا تماماً عندما وجدنا أنَّنا تجاوزنا سلسلة أجأ الجبلية وأنَّنا ثانية في السهل العريض الذي يرتفع باتجاه الجنوب، والواقع بين سلسلة جبال أجأ وسلمى، وكنَّا قبل ساعة من شروق الشمس نهبط بجانب هضاب المباركات وقمت بالبحث عن نماذج من الحجارة، وأحضرت بعض قطع الكريستال الجبلي الجميلة وبعضها من اليشب ويكسو الأرض غطاء

---

(1) ريعة طوال بيض.

نباتي بديع يتشكَّل من نبات الكلح الدائم الخضرة الذي يمكن مقارنته مع الجزر الأصفر عندنا، إلَّا أنَّه بسبب مرارة طعمه تعافه جميع الدواب كغذاء. خلف الحطب الذي قام نومان بتكديسه طبقات كنَّا نستلقي قرب نار متأججة، ونتجاذب أطراف حديث ظريف وكانت تصدح طوال الليل أصوات البوم المقيتة من الشقوق الصخرية القريبة.

الأحد 27 كانون الثاني/يناير 1884م. لقد سرنا متمهلين عبر السهل باتجاه شرقي جنوبي شرقي في الأرض الرملية التي تتناثر فيها عروق الكوارتز ينمو فيما عدا الكلح، العشب الدائم الخضرة، نبات آخر يُدعى رُبْلَة يأكله البدو أيضاً. وكان هناك علاوة على ذلك كمية من الكمأة، وتكثر هذه الأكلة الشهية في الصحراء، مع بداية الربيع تدفع برأسها الرمل نحو الأعلى، وبذلك تكشف عن مكان وجودها. كانت عين نومان المدربة على كشف الكمأة تلمحها من بعيد، وبعد حين على وجه السرعة مؤونة ضخمة منها وأما لون درنها من الخارج فهو بني فاتح مائل إلى الحمرة، وهي متشققة مثل القرفة المدقوقة، وأما كتلتها فهي بيضاء وذات طعم لذيذ، لقد أكلناها دون أي معالجة مثلما ناولنا إيَّاها نومان، ونحن على ظهور الإبل. بعد أربع ساعات لمحنا جبل السراء هدف سيرنا لهذا اليوم. وكلَّما اقتربنا منه كلَّما ظهرت ثقوب المياه وحتى الآبار ومروج خضراء، ولم نتمكن من دفع الإبل إلى متابعة السير وترك هذه المراعي الرائعة إلَّا بالضرب، وقد تكون الساعة الثالثة عندما أنزلنا الحمولة عن الإبل وتركناها ترعى في فردوسها. نزلنا في الرمل عند ضفاف الساقية (شعيب السيل) التي تمتد ما بين جانبي الهضاب الصخرية لجبل السراء من الغرب نحو الشرق دون أن يتفجر منها مجرى، كان قاع الساقية الحقيقي ممتلئاً بردم من أنواع مختلفة من الصخور وكانت الدوارات مليئة بالماء جرَّاء الأمطار الشتوية الغزيرة، اختار خادمي محمود بركة أقل عمقاً ليستحم فيها، في الموضع الذي تتاخم الساقية مباشرة الهضبة الجنوبية توجد نقوش عربية وصور حيوانات منقوشة قمنا بنسخها، ومن أجل أن نُبيِّن مدى الدقَّة التي توخاها الخطيب عبد الله في

وقت سابق في نقلها أودّ أن أخبر هنا عن نسخي لها، وفي موضع أبعد في الأعلى يساراً نقشت صورة أسد[1] على كتلة صخرية[2].

---

(1) لقد اختفى هذا الحيوان منذ وقت طويل من الجزيرة العربية.

(2) قام بنسخ هذه النقوش حسب الرموز كل من A عبد الله (C,B) أيوتنغ (E, D) هوبر وهي تختلف عن بعضها، ومن العسير جداً التوصل إلى نصّ مقروء ومفهوم. لقد بذلت جهدي في العام 1904م في دراستي حول قراءة النقوش الثمودية Zur Entzifferung der tha inudischeu Inschriftenm P.66. أن أدخل إلى فهم هذه السطور الغامضة. ولكن حسبما أعلم لم يتناولها أي شخص وإنَّ مجموعها يتشكَّل من عدَّة نقوش إفرادية وإذا ما كتبت بحروف عبرية فيمكن أن تكون على الوجه التالي:

A	לעפף בן (ד)לות פסצע (רט)ב והשזק אל חיי	من عفاف بن دلوا (؟) وهو يعصر التمر (؟) وبشوق إلى حجيج.
B	ב"דד ודד כשא בתם	باسم الله سلام الكاشي إلى تيم.
C	הנהי סעדן אביהעת	يا نهج، فلنساعد أبو جتيعت.
D	בנהי תעלי רמצהבן הנה[י] בכ הסרר שמם מהעלי	باسم نهج مليَسْمُ رام سبحان، يا نهج منك السرور، تشرق الشمس (؟).
E	הרצו נקם והבנהי	يا رضو انتقم لوهب نهج، باسم نهج مصيبة لحاتر
F	בנהי בץ חתר ונמן	ونومان.

تختلف هذه القراءة عن قراءتي السابقة لها، فقد أخذت بالاعتبار بالدرجة الأولى قراءة ي. ي. هِسّ Y.Y. Hess وما زال حتى الآن الكثير غير واضح.

اعتماداً على المضمون يتضح أنَّ أُناساً يرجون آلهتهم العون أو الانتقام. ويذكر آخر ما الذي فعله وقتئذٍ وكيف أنّه كان مشتاقاً إلى صديقه. وقد يكون اسم هذا الصديق عوضاً عن حجيج، حُجيج أو تويج. واسم الإله رضو معروف وهو دون شك إله نجمة الصباح. إلّا أنَّ نهج الذي يتكرَّر ذكره ما زال يشكل لغزاً. وقد رأيت سابقاً فيه اسم الله العربي القديم إلَّا أنَّه بدا لي على ضوء ما يذكره هسّ وليدزبارسكي مشكوكاً فيه جداً.

لا يتعلق النقش المدون تحت صورة الأسد بالأسد ذاته بل بالوعل الجبلي من تحته، ويعني أنَّ الوعل ملْكٌ لأسحل وشامت، ويتكرَّر ذكر حالات يمتلك فيها شخصان الحيوان نفسه، وترد أيضاً أخبار عن اصطياد وعول جبلية والحفاظ عليها، دوتي **رحلات في صحراء الجزيرة العربية** ج 1، ص 613.

Daughty, **Travel, in Arabia Desert.**

تأكدنا من آثار أقدام ذئب وكذلك الحبارى وفي هذه الليلة سمعنا صوت البوم الشاكي ينطلق من الشقوق الصخرية.



منظر من جبل السراء



نقش ثمودي ورسوم

نقش ثمودي

الاثنين 28 **كانون الثاني/يناير** 1884**م.** صعدنا القمة الصخرية الشمالية، وجعلنا حيلان الخبير بالمنطقة يُعدِّد لنا أسماء الأمكنة، وقمت برسم منظر من الاتجاه الشرقي والجنوب الشرقي.

ولم نغادر السراء إلَّا الساعة الواحدة بعد الظهر باتجاه شمالي غربي. وبعد ساعتين مررنا بغوطة نخيل محطّ عناية جيدة، ووصلنا إلى حوض ساقية شبيطة[1] الجاف، وفجأة أخذت الناقة العشراء التي يمتطيها الخادم محمود تعرج. كنت أراقب الناقة من الخلف وزعمت أنَّ عظم الفخذ الذي يظهر منتفخاً يجب أن يكون مخلوعاً. في البداية لم يصدق الآخرون إلَّا أنَّهم اقتنعوا بذلك بذاتهم، وكي نراعي وضع الحيوان ونُخفِّف عنه نزلنا في أقرب مكان

(1) شعيب شبيكة.

مناسب في حصى الشبيتة. أثناء الليل تساقطت عدَّة مرَّات قطرات مطر من سماء بدت صافية.

الثلاثاء 29 كانون الثاني/يناير 1884م. في هذا اليوم سارت الناقة المريضة دون حمولة، فنقلت الأمتعة الثقيلة إلى ذلول حيلان ووزعت القطع الأخرى على ذلولي وذلول هوبر. وأخذنا نقترب ببطء في ظلِّ رياح جنوبية قارسة البرودة من سلسلة جبال الأجأ. ونحن نعبر العديد من عروق الكوارتز أجفلنا حبارى وطائراً من الجوارح (عقاب) في الوادي العرضاني (ريعة المختلف) نزلنا في موضع محمي قلَّما يبعد ساعتين من مكان نزولنا يوم 26 كانون الثاني/يناير ويشكل الشعيب الحدود بين الدغيرات الذين يسكنون شمالاً والعامود في المناطق الواقعة إلى الجنوب. وكان المرعى ضحلاً وبمعظمه خشبياً[1]، وأما الناقة المريضة فلم ترعَ وظلَّت مستلقية دون حراك، وفي الوقت الذي كان فيه حيلان ونومان يجهزان للفخذ المخلوع لبخة من الشعير والملح وبول الإبل قمت وهوبر بتسلق إحدى القمم باتجاه الشرق إلَّا أنَّنا لم نحظَ في الأعلى بالمنظر المرغوب. أخذ حيلان العجوز يرتجف من البرد وقد أسفت له؛ ليس لديه سوى قميص وعباءة وكوفية وما من شيء يتدثر به في الليل. وهكذا تخليت له عن إحدى سجاداتي الصوفية السميكة كي يلفُّ نفسه فيها مع أنَّني أعلم أنَّ الشكر الوحيد الذي سيخصني به أنَّه سيترك لي فيها على الأقل دزينة من القمل.

الأربعاء في 30 كانون الثاني/يناير 1884م. كان الليل على درجة من البرودة حتى أنَّني عند الصباح لم أعد أشعر بالدفء وما إن انبلج الفجر حتى لمحت مشهداً غريباً، فقد نهض العجوز من السجادة التي تدثَّر بها وركل الناقة بقدمه ومدها تحتها وهي تتبول وأخذ يبدل وضع قدميه بالتناوب تحت مسقط الماء الدافىء. أخ. أخ، أخ أف. آه.

وربَّما قصد من وراء ذلك عملية استشفاء إذ إنَّه كان عرض علينا بالأمس الكنب في أسفل قدمه، وسبق أن شاهدت شيئاً مشابهاً، وبدت لي بأنَّ سمكها

---

(1) فقط من أشجار العوشج تقريباً.

حوالى سينتمتر وملمسها صلب مثل القرن، وقد شكا من الشقوق العميقة التي لم تبرأ بعد وتُسبِّب له آلاماً ونصحه محمود بجدية أن يولج فيها قملة عندها ستتحسن.

بعد أن سرنا في شعيب وادي المختلف، انفتح أمام ناظرينا منظر جذاب على الجبال الأبعد وعن يميننا مخروط الحوشان البازلتي ومن خلفنا الدريغ ومن أمامنا ثلاثة جبال ذات شكل مخروطي، وأبعد منه إلى الأمام يقع جبل الجدية.

وعندما استدرنا أكثر نحو الغرب وبلغنا السهل المفتوح بعد أن تجاوزنا ظهراً جبلياً منخفضاً كنَّا تحت وطأة عاصفة رياح دون حماية وقد أظلم الجو بعد تشكل سحب غبارية ضخمة ولم تسمح إلَّا لفترة قصيرة برؤية قمتين من جبل النسير على سبيل المثال.

لقد سررنا بوصولنا إلى قرية جفيفا التي تتشكل من بيوت قليلة، ووجدنا هنا وراء الجدران ملجأ من الرياح العاتية، وكان يقف على سطح منزل الشيخ عثمان الدواس جميع الأهالي تقريباً، ومن بينهم بعض النساء السافرات، وهم يراقبون وصولنا. وفي داخل البيت كان يقبع ثلاثة ضيوف آخرين بجانب النار فأبعدناهم من أفضل الأمكنة وجلسنا فيها، وكانت القهوة أوسع من مثيلتها في موقق، إلَّا أنَّ الشيخ أبخل، كما أنَّه على ما يبدو غير واضح النوايا، من خلال تصرفاته تجاهنا. لقد قدَّم أوَّلاً القهوة الرديئة ثلاث مرَّات، وما إن ابتعد قليلاً حتى أبدى هوبر قصداً الملاحظة يبدو أنَّ الشيخ لم يعلم مكانتنا كضيوف، بعدها ظهرت قهوة ثانية وقدَّمت لنا أوَّلاً. وفي الواقع قدَّمت ما بين الساعة الرابعة والسابعة قهوة طرية خمس مرَّات، ومن بعدها قدَّم طعام العشاء، وعلى كلِّ حال فقد ذبح الشيخ لنا، ولكن لم يتوفر لديه لا أرز ولا تمر. وقد مدَّ اللحم المتبل على نحو مقرف فوق طبقة سميكة من أرغفة الخبز المشروحة، ومن أجل أن أسكت جوعي أكلت في الحجرة الأمامية لدى خادمي محمود حفنة تمر من زادنا الخاص واستسلمت للنوم، ولم أدقق حالة قملي.

الخميس 31 كانون الثاني/يناير 1884م. في الخارج كان الجو بارداً

رطباً ضبابياً وغير سار عموماً، وأعترف بأنّني كنت أفضل تماماً أن أبقى في مأوى. وقبل أن تتسنى لنا فرصة استئجار جمل جديد، لم يكن بوسعنا الانطلاق. لقد ركب حيلان ونومان وانطلقا معاً بحيث يسعيان للوصول على جمل لدى البدو الذين يرعون مواشيهم في المنطقة القريبة، بعد عدّة ساعات عادا مع بضعة رجال من العامود، وكانا يصطحبان جملين معهما، وكان أحدهما ضعيفاً لذلك لا يمكن استعماله، بينما قبلنا الآخر مع صاحبه شفق وتمَّ استئجارهما. ولمّا كانت شدّة الرياح الغربية في تصاعد قرّرنا أن نمكث هنا اليوم أيضاً. وتحقّقت لي راحة البال بحيث أتفرغ لترتيب كرّاس يومياتي وأن أرسم في الفلاة خارج القرية.

ما زالت مزارع النخيل فتية وتعود إلى السنوات الأخيرة من حكم الأمير طلال[1] أي إنّها من العام 1843م. في الفناء شاهدت محراثاً[2] بسيطاً في شكله وقلّما يمكن الوقوع على نموذج أكثر بدائية.

وتتشكل جدران البيت من طوب طيني وتصقف مائلة متناوبة الاتجاه.

---

(1) انظر الجزء الأول.

(2) بعد عودتي كتبت إلى مدير الأكاديمية الزراعية السابق في هوهنهايم والمتوفى الآن و. ل. راو الذي سبق له قبل سنوات أن اهتم بدراسة تطور المحراث وكتب لي عن هذه القطعة ما يلي: «كم أثار اهتمامي صورة المحراث وهو أكثر بدائية من كل محراث مصري قديم. لقد وقعت في المتحف البريطاني على بردي عليه رسم محراث له شكل مشابه تقريباً إلّا أنّه موائم أكثر للغرض. وعثرت بين الرسوم الهيروغليفية على رسم آخر مشابه، لكنّه ذو مسكتين مريحتين. وبتقديري فإنَّ المحراث العربي أقدم منهما، لأنَّ السلالات المصرية الأولى لا تعرف رسوماً لمثل هذه الأدوات، وسيتخذ لديَّ موضعاً شرقياً، وسأبرزه في المؤلف الذي أقوم بإعداده حالياً. هل حلّ لديَّ عن طريق محراثك السؤال الذي جهدت كثيراً بالتفكير منه، فيما إذا كان خارج شواطىء اليمن الواقعة تحت التأثير المصري أو الحكم المصري يمكن الحديث عن زراعة عربية. إنَّ المحاريث التي تُدعى عربية في شمال أفريقيا تعود إلى أصل قرطاجي قديم. ولمّا كان العرب في الغالب رعاة وأهل غزو، فإنّني أميل إلى نفي الرأي، ولكنّي الآن أؤيده ويشغلني الآن السؤال عن الحيوانات التي كانت تجرُّ المحراث، ولن يكون غير الجمل والأرض خفيفة» وأؤكد أنّني شاهدت في جفيفة جملاً يجرُّ محراثاً، والأرض هناك رملية ذات مواد ماسكة قليلة.

ويعلق حوض جلدي(*) بخابور خشبي في هيكل يحيط به طوق خشبي ويبلغ حوالى نصف متر مربع.

ويجري اصطحابه في الأسفار بحيث تسقى الإبل منه. وعلى الأرض مهباج القهوة (نجر)[1] وهو مأخوذ من حجر مائل للحمرة من القصيم(**)، مساءً جهز الخادم محمود الطعام لي ولهوبر وقام الشيخ عثمان بتقديم الطعام للآخرين، وكان البدوي شفق الذي دخل خدمتنا يدخن من غليونه المرقع بعر الإبل عندما لا يتوفر له التبغ، اضرب الصفح، لو عرفت هذا، لما سمحت للأمبراطور رودولف هابسبورغ أن يدخن أوراق الجوز قرب بنغن.

لم يكن شفق مجرد مدخن بل كان شاعراً أيضاً وقد ارتجل قصيدة يشكو فيها حاله وأنشد قائلاً: «هؤلاء السادة والصحبة القساة يشربون (يدخنون)[2] التبغ، ولكنَّني للأسف مستمر في التسلي بفضلات الدواب» وبهذا المزاح جعل قلوبنا ترقّ له حقاً، ممَّا جعلنا نقدِّم له خدمة لمصلحتنا عشباً أكثر إنسانية. وعلى الفور حذت به مشاعر الامتنان إلى أغاني أخرى لم أفهم منها إلَّا القليل. وبدا لي لافتاً ما جاء في قصيدة هجاء شهيرة تتعلق بنهب عساكر الأمير من جانب الرولة. لقد استمرت ثرثرة الشباب حتى منتصف الليل عند نار الموقد، ولم يكن النوم ممتعاً لأنَّه علاوة على ذلك كان يدخل المطر بين الحين والآخر من فتحة في الجدار ويبلِّل وجهي.

(*) يذكره هِسّ أيضاً باسم حاض، وكذلك حض البل [الإبل]. [وقلب الواو في وسط الكلمة إلى ألف إحدى لهجات البادية. (المراجع)].

(1) انظر الجزء الأول، يذكر هِسّ نجر بأنَّه المهباج. ويصفه بدقَّة بمقاله في **مجلة الإسلام**، ج4، ص318، Islam 319

(**) الأصح أنَّه من المذنب. [وهي إحدى مدن القصيم الآن 1434هـ. (المراجع)].

(2) جاء في قصيدة نادلر بائع الكتب القديمة ما يلي:

في كل حياتي

أعلم، وكل طفل يعلم، أنَّ كل شاب هنا في البلد لا يستطيع أن يحصل على دخان.

فإنَّهم يدخنون أوراق البطاطا وأوراق الجوز ومن يعلم أي شيء آخر.

وإذا ما كانت بابونجاً فهذا سيَّان، لذلك فالغليون الذي به أدخن ليس في نظري سوى أداة تدخين وإذا لم يتوفر للأمبراطور رودولف تبغ، فما وجه الضرر، إذا ما تذوق [سواه].

الجمعة 1 شباط/فبراير 1884م. لم يكن بمقدورنا أن نستمر في اصطحاب الناقة المصابة بخلع في الفخذ. ورأى عثمان شيخ فجيجا أنَّه لا يمكن أن يستفاد من الدابة، وما من شيء يصلح لها سوى الذبح، ويعرض مقابل ذلك ليرتين مجيدتين (7 مارك). ومن وراء ظهرنا اقترب من حيلان العجوز ووعده بخشيش قدره 3 ليرات مجيدية إذا ما أقنعنا بهذا التصرف، ومن المؤكد أنَّ الشيخ لن يذبح الدابة، بل سيستفيد منها في سحب الماء ويرعي الجدع بعدئذٍ عندها أوكلنا إلى شفق المسؤولية عن الدابة وكان عليه أن يرافقنا فقط حتى ننزل البدو التالي، وأن يأخذ الدابة عند العودة من جفيفا ويرسلها إلى المرعى.

وعندما انطلقنا حوالى الساعة التاسعة لحق بنا الشيخ عثمان وهو يعدو، وأراد أن يتفاوض من جديد بشأن الناقة، إلَّا أنَّه انصرف بعد حين، وبقي الأمر حسب القرار الذي اتخذناه بعد ذلك مررنا في منطقة غنية بالمراعي[*]. وإلى الساعة الثانية بعد الظهر صعدنا قمة هضبة[1]، يُقال: إنَّ نجع بدو يقع خلفها، إلَّا أنَّ هؤلاء كانوا قد رحلوا باتجاه غربي شمالي غربي، ثم سار حيلان لمدة ساعتين وفتش عنهم، ولكن دون جدوى.

وعندما مالت الشمس نحو الغروب، ووجدنا أنَّه من المشكوك فيه أن يكون البدو قريبين في المنطقة نزلنا في السهل المفتوح قرب صخرة القعص، إلَّا أنَّنا لم نكن هنا في حماية من الريح، وكانت الريح تنفذ ليلاً من تحت الغطاء.

السبت 2 شباط/فبراير 1884م. تشكّل صقيع سميك، وكنَّا نسمع أثناء اللَّيل على الدوام نباح الكلب، وفي اليوم التالي سمعنا أصوات ناس ولكن في البداية دون أن نلمح أحداً، لقد تناولنا في الصباح ما تبقى من أرز من طعام العشاء بالأمس وكان بارداً، وحصلنا على شيء من الدفء بشرب كأس من الشاي، ثم انطلقنا كي نتقصى مضرب البدو. في البداية شاهدنا من قمة هضبة بعض قطعان الغنم، وبعد حين بضعة من الإبل (عددها 25)، وأخيراً تسع

(*) كان هناك عشب أصفر وسليح بنفسجي وتربة ذات أزهار صغيرة وهي من أعشاب الربيع. (المراجع).

(1) تُدعى الضلعة.

خيام، وعند اقترابنا من الخيام اختبأ الرجال داخلها، ودفعوا بالنساء والأطفال فقط، بحيث يحمون أنفسهم من شرف زيارتنا. حوالى الساعة التاسعة والنصف نزلنا عند خيمة أوسع، ولم يكن بوسع ساكنيها الاختباء بعد ذلك. وما أن نزلنا حتى قدَّم لنا الحليب وقام الخادم محمود بتحضير القهوة، ولما كانوا قد ذبحوا من أجلنا حوالى الساعة العاشرة، كان لدينا متسع من الوقت لأن نرتاح بقية النهار، فقصدت إحدى الهضاب كي أشاهد منظراً من المنطقة، وكان بودي أن أرسم منظراً من النفود وجبال المسمأ والعوجة إلَّا أنَّ الرياح العاتية أحبطت ذلك وأجبرتني على النزول إلى الأسفل، بعد حين وجدت على أرضية مغارة صغيرة آثار ضباع وكان يتدلى من جدران المغارة كريستال كوارتزي جميل. وأنا أتوقع ليلة بالغة البرودة حقاً تذكرت الصانع التعيس الذي أباح لأسقف ترير لقاء غولدن واحد بسرّ الدواء الذي يحول دون الشعور بالبرد على الإطلاق. فقال: «أيُّها الأسقف الرحيم، يشعر المرء بالبرد بحسب الملابس التي يرتديها ها أنا أرتدي جميع ملابسي، ولذلك لا أشعر بالبرد ولو ارتديت أنت جميع ملابسك لما مسَّك البرد»[1] بعد هذه الوصفة الطبية استلقيت فوق موضع مبيتي، ووضعت فوقي جميع قطع ملابسي التي أمتلكها، وغطيت وجهي بغطاء وسادتي، وطلبت من محمود أن يلفني بالسجادة بإحكام، وأن يربط السترة البدوية المصنوعة من فرو الغنم حول قدمي ويثبتها بالخيط، وكنت سعيداً بالدفء الذي أخذ يسري في جسمي، وأنا آمن محصن بحجاب ضد السرقة وطلقات الرصاص فكرت بأنَّه إذا ما خطر للشيطان أن يستلقي بجانبي فما الذي يهمني؟ (آه أيُّها الشاب، دعك من التحدي فقد تتعرض لامتحان بسيط) وأنصتُّ، وإذا بشيء يرقص على سجادتي ويدبُّ ويشمّ، يا للعجب، لا أعتقد مطلقاً أنَّه هو الشيطان، وبعد النظر من خلال غطاء وسادتي وجدت أنَّه لم يكن مفيستو Mephisto ولا بيترو Bitru بل جرذ كبير أراد أن يؤدِّي زيارة لي، فنفخت عليه بقوَّة إلَّا أنَّه لم يختف إلَّا لبضع لحظات، إنَّ الحيوانات في

(1) هكذا في مخطوط الراهب الحافي الألزاسي يوحنا بولس Yohannes Pauli رقم 513 (= مكتبة الرابطة الأدبية Bibilio Hnek des litter. Vereins, Vol. 85 P. 266) وهو مشابه لما يذكر بوغيوس وبيبل أداعيا وآخرون Poggius. Bebel Adagia und Andere.

الصحراء تعاني جميعها من الجوع، كما أنَّها تشعر بالبرد، فقد كان يفتش إذاً عن جحر يتوارى فيه، وجد أخيراً ضالته بفرو الغنم عند أقدامي، وشعرت كيف كان يتسمر في الصوف. إنَّ هذا المخلوق المسالم عادة عرف تماماً أنَّني لا يمكن أن أتعقبه في الظلام، وطالما أنَّني لم أشأ أن أخرج نفسي من الحزام الدافىء رحت أدفع الحيوان بقدمي من وقت لآخر، لكنَّني لم أكن لأتجاسر على فعل الكثير إذ إنَّني سأكون معرضاً لأفقد الغطاء، وبذلك أغدو دون حماية، لكن الكنغر الصغير كان يصحو من حين لآخر. وكما تبيَّن على ضوء النهار أنَّه قد قرض سبعة ثقوب في الفرو.

الأحد 3 شباط/فبراير 1884م. إنَّ اليوم الأكثر برودة الذي شهدته في جزيرة العرب أصبح ورائي، فقد أشار ميزان الحرارة إلى الدرجة 5°، وإنَّني أنصح كل رحَّالة في الصحراء أن يصطحب معه فرواً طويلاً وكيس نوم. إنَّ البدو يتحملون البرد بمقاومة تثير الدهشة ورغم ذلك فإنَّ الأطفال كلَّما كانوا أصغر كلَّما كانت ثيابهم قليلة.



خيمة مع نساء وأطفال

لكي نشعر بشيء من الدفء طلبنا من محمود أن يحضر لنا شوكولاته ممددة كثيراً بالماء (الكاكاو) وأمَّا البدوي شفق الذي كان يتأهب للعودة مع ذلوله إلى جفيفا، فقد أكدنا عليه أن يبقي الناقة لهم مقابل ثماني [ليرات مجيدية] ذلك أنَّ الشيخ الذي استضافنا كان مستعداً لأن يعيرنا جملاً (زِملاً)(*) لنقل الأمتعة حتى المضرب التالي للبدو، وهو الآن في فترة الهيج، ومنظره مخيف يمشي في خطوات متقاربة وقد ربطت قدماه الأماميتان والهدير، يعلو

(*) الزِّمل اسم يطلق على الجمل الذكر. [بل على مجموعة الذكور من الإبل ولا مفرد له من لفظه. (المراجع)].

فمه، ويحركه نحو الجانب بلسانه المتورم[1]، ويصدر أثناء ذلك أصواتاً غريبة هادرة. بعد حين دخلنا النفود[2]، أي إنَّ الصحراء ذات الرمال المتحركة أصبحت تمتد أمامنا، وإن كان تشكل القعر لم يكن نمطياً بالشكل المعهود. كانت آلاف اليساريع الحمراء تتحرَّك على الرمل بالأمس وتبعث الحياة فيه، وأصبحت اليوم جثثاً سوداء تغطي الأرض، وحتى بعض النباتات الصغيرة يظهر عليها اللون الحزين ذاته. بعد أن شربنا القهوة عند الساعة الثالثة اقتربنا من جبال أوريك[*] الحجرية، حيث يقع نجع لعنزة. وكانت الجماعة بمجملها تثير انطباع الفقر، إذ يوجد لديها عدا عن قطعان الغنم حمار، وعدد قليل من الإبل، وقد طرح فوق أسطحة الخيام عشب أخضر، وقطع من أقط الغنم للتجفيف، لقد أخطأنا خيمة الشيخ لقلَّة الانتباه ونزلنا ضيوفاً عند أحد المساكين، ومع غروب الشمس عادت قطعان الغنم وشرع بحلبها، وأخذت النساء تحضر الزبدة بأن تخض اللبن في قربة وتنفخ الهواء فيه وتنقل القربة من هذا الجانب من الجسم إلى الجانب الآخر، وقامت نساء أخر بتعليق القربة بخيط فوق حامل ذي ثلاثة قوائم يُسمّى قنارة، وتؤرجح الكتلة جيئة وذهاباً، إنَّها الساعة الثامنة أخذت أتلوى جوعاً وأشعر بالدوار إذ إنَّنا لم نتناول أي شيء منذ شربت الكاكاو في الصباح الباكر وفنجان القهوة السوداء، وأخيراً وبعد أن أخذت من زنبيل التمر حفنة من التمر التهمتها بنهم وأنا مستتر وراء الأمتعة، قدمت بعض الأوعية الخشبية المليئة بنوع من اللبن، وذلك كي تخفف من نهم الضيوف أثناء الوجبة المنتظرة.

---

(1) في واقع الأمر ليس اللِّسان بل حوصلة الهدير التي يدفع بها الجمل أثناء فترة الهيج إلى الأمام، وهي حوصلة ملتصقة بالحلق يملؤها الجمل بالرغاء ويقذف به ثم يسترجعها ثانية بأصوات غرغرة. انظر **حياة الحيوان** لبريم Brehmis Thierleben 2. Aufl. III, P. 69.

(2) انظر الجزء الأول.

(*) ورد ذكر لجبال أوريك بقصيدة لأحد الشاعرين رشيد بن طوعان ومبيريك التيناوي الشمريين:

وغفا زبار أوريك مثل الهماميل ونشبت أرماح القوم بقطي الأصحاب

والتي مطلعها:

حر شهر بس الزماميل والخيل بين مقانيصه بفرات الأجناب

(المراجع).

حوالى الساعة التاسعة والنصف وضعت القصعة المنشودة مليئة بالأرز ولحم الضأن الذي أكلت منه كثيراً إلى درجة أنَّني خجلت من نفسي. وأثناء الحديث الذي دار بعد الطعام سألت كيف تسنى لهذا البطن من قبيلة عنزة الواسعة الانتشار التي تعتبر من الأعداء الألداء لشمّر، أن تدخل إلى هنا وسط منطقة شمّر، وعلمت أنَّهم قد أصبحوا حضراً قرب خيبر، بعد أن استولى العثمانيون على واحة خيبر من أمير حائل (حايل)، ولما خشوا أن يعود ابن رشيد ليستعيد خيبر أعلنوا خضوعهم للأمير، فقام من جانبه بوضع منطقة جبل المسمأ تحت تصرفهم كمراعي. لقد اشتريت منهم دبوساً يتكوَّن من عصا مأخوذة من خشب صلب مع حلقة في الأعلى وفي الأسفل كرة من الكوارتز مثقبة اصطناعياً بحجم تفاحة.

الاثنين 4 شباط/فبراير 1884م. وما إن سرنا راكبين لمدة نصف ساعة حتى قابلنا نجع بدوي آخر، ونزلنا هنا ضيوفاً، كي نتفاوض بشأن استئجار جمل حتى تيماء إن أمكن ذلك، ولما كان المضيف يعتبر نفسه ملزماً بتقديم طعام العشاء فقط، طلبنا من محمود أن يحضر لنا وجبة طعام كاملة بما فيها (القهوة والأرز مع فاصولياء مطبوخة وخبز) وتركنا ما تبقَّى منها للنساء، وأمَّا شيخ الأمس فقد بدأ طريق العودة مصطحباً جمله، بعد أن تناول معنا الطعام. وبدا أنَّه على عجلة من أمره، لأنَّه كان قد اتخذ في هذه الأيَّام زوجة جديدة.

لقد قررت أن أصعد واحدة من قمتي الوريك، وخضت في الرمل الرخو ساعة كاملة حتى تمكنت من الوصول إلى سفح الجبل، وكنت مسروراً عندما بلغت أرضاً صخرية صلبة. وتتشكل كتلة الجبل من غرانيت وكوارتز، إنَّ سطحها الصقيل كما لو أنَّه طلي بالورنيش، جعل من العسير تسلقه، وكان يتطلب مزيداً من الحذر، لقد فاجأت قرب القمة مباشرة أرنباً إلى درجة أنَّه كان بوسعي تقريباً أن أمسكه بيدي وعندما كنت أقف بجانب الجدار الأعلى مرَّ في الأسفل ثلاثة أشخاص يمتطون الإبل، ويحملون رماحاً ونادوني قائلين: «يا ولد، يا ولد»، إلَّا أنَّني لم أعرهم أي اهتمام، ولم أجبهم. ومن الأعلى رسمت منظر المسمأ والعوجة، وكنت في غاية السرور عندما لمحت الشكل

النمطي لأم سلمان قرب جبة[1] الذي يظهر بلون أزرق فاتح على الأُفق البعيد، وإلى أن عدت كان العطش قد أخذ منِّي مأخذه لأنَّ الشمس كانت أشرقت بقوَّة (°20 في الظل خلف الخيام). أثناء الحديث مساءً جلس مع الآخرين راع قرب النار وسألني ببالغ الجدية: «تعرف تحلب» وعندما أجبت على السؤال بالنفي قال: «إذاً ما الذي تعرفه» وعندما سألت ولداً من البيت ما هو اسم كلبه، فأجاب بدهشة: «ما أدري والله» في المساء لم يحدث ما هو هام، ولم يقدَّم طعام العشاء إلَّا في العاشرة، ولما كنت أخشى التأخير سلفاً استلقيت للنوم، وأكلت تحت الغطاء قطعة خبز. لقد أيقظوني فيما بعد، كي أشارك في تناول الطعام، واستغربوا أنَّني فضلت الاستمرار في النوم مستغنياً عن كل شيء. ومن باب الاهتمام عمل هوبر على لفّ قطعة لحم كبيرة لصباح اليوم التالي.

الثلاثاء 5 شباط/فبراير 1884م. في الصباح الباكر لم تتجاوز درجة الحرارة +1. بعد أن تناولنا فنجان شاي، عاد حيلان ونومان، بعد أن قاما بدورية، ومعهما بدوي يبكي، فقد ضغطا عليه كي يؤجر جملاً حتى تيماء غصباً عنه. ولما استلم الرجل النقود في الحال هدأ روعه، امتطينا الإبل وسرنا في أرض حجرية فوق جبل المسمأ مزروعة بخام الحديد الجيبي (رشرش)[2] ويجمعه البدو بديلاً للخردق الرصاصي، وهم يفرزونه حسب عيار البندقية، بعد حين انحرفنا جانباً، ودخلنا النفود، لأنَّ المرشدين البدويين لدينا اشتما رائحة نحر، وما إن مضت أربع ساعات على سيرنا حتى كنَّا وسط واد رملي[3]، وفوقه عدد من الخيام تابعة للفضيل العواجي، أي لبطن من ولد سليمان من عنزة، إنهم نماذج متميزة، وهم يجعلون التخمين قاب قوسين أو أدنى بأنَّهم قد يكونون أحفاد يهود خيبر[*]. إنَّهم جميعاً، وحتى النساء كانوا

---

(1) انظر الجزء الأول.

(2) يستخدم خام الحديد كخردة، ويُدعى صاتيم من الكلمة التركية صاچمه وكذلك رش في مصر، والرشراش أرض ذات ردم (انظر **مجلة الإسلام** ج5، ص117 Islam).

(3) يُدعى زقيحان.

(*) لم يبق من يهود خيبر لا قليل ولا كثير وقد نزحوا شمالاً بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم إنَّ يهود خيبر حضر أهل حرث وهؤلاء بدو أهل نجعة وترحال. (المراجع).

مستعدين للخدمة فأحضروا الحطب والماء، إلَّا أنَّهم كانوا يستجدون التبغ دون أن يعرفوا حدّاً لذلك. والأولاد حتى سنّ عشر سنوات كانوا عراة، ولا يلبسون سوى حزام من خيطان جلدية مزين في جزء منه بقطع عظام، وعلق أحدهم في الخيطان ملقطاً نحاسياً صغيراً (مليقط) وحسبما أفاد فإنَّه يستخدم في انتزاع الشوك من الأقدام. وكان يتجول قرب الخيام طائران من الجوارح، وقيل لي: إنَّ اسمهما حدّية.

في هذه المرة ظهر طعام العشاء بكمية وافرة قبل غروب الشمس. فلم يتورع حيلان ونومان عن أخذ قطعتين من اللحم لزادنا وضعهما نومان تحت عباءاته مثل راهب الصدقة وانصرف، ولم يكن المساء ولا الليل باردين كما كان عليه الحال حتى الآن.

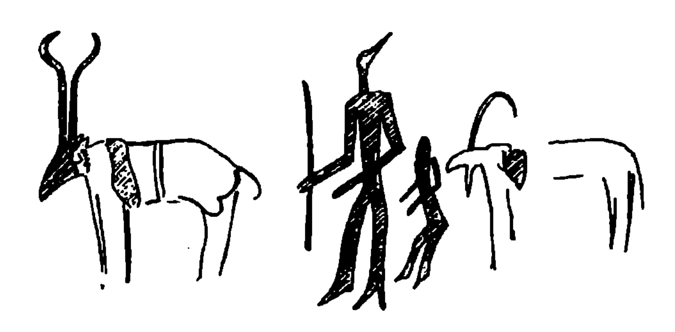
الأربعاء 6 شباط/فبراير 1884م. حوالى الساعة التاسعة ودعنا مضيفينا الكرماء، وقد امتد الطريق في أراضي جرداء لم ينبت فيها سوى القليل من الأعشاب، وتتشكل الأرض من حجر رملي أصبح موضعاً لنشوء العديد من المنخفضات التي تأوي برك ماء يبلغ قطر كل منها 100م أو يزيد، وإنَّ الإبل التي لم تسقَ منذ ما يزيد عن 14 يوماً لم تبد هنا أية رغبة في الشرب ويبدو أنَّها مكتفية بالرطوبة الكامنة في العلف الأخضر إلَّا أنَّها تتبول عشر مرات في اليوم، وفي كل مرة دقيقتان، ويبدو أنَّها لا تفقد ماء عن طريق التبخر عبر الجلد ومع الاقتراب من جبال المسمأ المنشودة أخذت تظهر تفرعاتها أكثر فأكثر. وقد أضفت الحياة على الشعاب عند سفح مجموعة صخور البهيم شجيرات[1] ذات أوراق مثل أوراق شجر الغار.

وفيما بعد باتجاه الغرب، في موضع يُدعى ألاي، توجد كتابات بالخط النبطي والخط العربي نقشت في الصخر وإلى جانبها أشكال حيوانات مختلفة نقشت بإتقان أكثر أو أقل وأقدم بعض النماذج منها، وقد اختار حيلان

---

(1) القِرِّي وقد شاهد فيما بعد في تيماء والذي يضع من عيدانه المزمار ويذكر هِسّ أنَّ الجرّي صنف من التين الأخضر ونقيضه التين العُربي الأحمر، وأمَّا المزمار الذي يوجد بكثرة لدى البدائيين لا وجود له كما يبدو هنا حتى ولا كأداة للعب.

ونومان هذا الموضع الذي يحظى بقدر من الحماية كموضع للنزول، وقد استفدنا ممَّا تبقَّى من ضوء النهار لنسخ النقوش.



رسوم صخرية عربية قديمة

الخميس 7 شباط/فبراير 1884م. انشغلنا طيلة النهار بنسخ النقوش وصور الحيوانات الموزعة في كل مكان على الصخور. وفي طريق العودة إلى مكان إقامتنا كان علينا أن نختار منخفضاً عميقاً ما بين جدران العرقوب الصخرية. والانحدار العمودي للصحراء الرملية، أثناء الليل ثارت الريح من فوقنا نحو الصدوع بينما كنَّا في الأسفل في شبه مغارة بجانب نار متقدة مستمتعين بالسكينة والدفء.

الجمعة 8 شباط/فبراير 1884م. بعد أن قمنا بتحميل الإبل وكنَّا في صدد التحرك قال نومان: إنَّه كما يتذكر، يوجد عدد كبير من النقوش في مكان يُدعى نضيم العرقوب وهو غير بعيد عن مكاننا الآن، وبعد أن صعدنا الجدار المنحدر في الرمل الرخو دلنا على مكان وجود النقوش على صخرة بارزة، ثم عاد مع هوبر.

بقيت نصف ساعة أخرى حتى أكمل نسخ النقوش رغم الرياح التي سبَّبت صعوبة العمل. ولما كنت قد جعلت الآخرين ينتظرون طويلاً، فقد صمَّمت أن أسرع قدر الإمكان في طريق العودة وقد استمتعت بالقفز فوق الهاوية الرملية مع ملابسي المتطايرة بوثبات طويلة. ولما رأتني الإبل الباركة اعتراها الرعب ونهضت وركضت مسعورة إلى ملجأ وعلى ظهرها

الأمتعة، كما لو أنَّها تعرَّضت إلى مباغتة من حيوان مفترس، وبعد أن أوقفت وركنت سرنا ملتفين حول جبال العرقوب من الشمال عبر الشرق نحو الجنوب ولم نتمكن من اجتياز النفود ذات الموقع المرتفع إلَّا بجهد، وفي الأعلى كانت تعصف الريح والغيوم، وعندما تساقط المطر والبرد، ولم نجد فوق السهل المرتفع أي ملجأ من العاصفة، عدنا باتجاه الصخور حيث وجدنا في الأسفل حماية بسيطة من العاصفة المطرية، وفي كلِّ الأحوال كانت العاصفة هنا قوية على نحو كافٍ، بحيث اقتلعت من رأس غليوني التبغ المتقد، ولم أشأ أن تقتلع منِّي هذه الوسيلة الوحيدة المتبقية لتمضية الوقت وتعزية النفس. فتابعت تدخين غليوني واضعاً الرأس تحت العباءة.

في ظلِّ الأمل الضئيل بتحسن الطقس كنَّا متواضعين بما فيه الكفاية فقررنا أن نقضي الليل هنا، ولما أبلغنا حيلان أنَّه اكتشف موضعاً قريباً من هنا يستطيع أن يجعله آمناً من المطر والبرد كي ننزل فيه، لم يجد لدينا في بادىء الأمر إلَّا قليلاً من الثقة بكلامه وتردُّداً في الميل إلى تبديل المكان المقترح فانتظر بخبث الاستراحة ما بين هبوب الرياح العاتية، وأقنعنا بملاحة حديثه بأن يجعلنا نقرر الانطلاق، حقاً لقد ظهرت في الأمام في المنطقة كتلة صخرية ضخمة من الحجر الرملي، وخلال بضعة دقائق كنَّا بجانب التشكل الصخري الذي انتصب على ارتفاع متر ونصف فوق الأرض على شكل سقف مسطح من جميع الجهات يمتد ما بين 4 إلى 5 أمتار. وكان بالإمكان تكويم الحطب من الأسفل نحو الأعلى على شكل جدار حماية، ونشرنا من ورائنا العباءات وثبتنا البنادق والسيوف، وهكذا لم يكن ليؤمل بموضع أكثر روعة للنوم.

السبت 9 شباط/فبراير 1884م. هل استثار حصننا المحصن اصطناعياً العاصفة إلى اندفاعات متجددة أثناء الليل؟ نعم إنَّ عناصر الطبيعة (الأربعة) تكره ما تشكله يد الإنسان، بعد عدد من الاندفاعات القوية هدمت الريح

الساتر المؤلف من الأغصان اليابسة برمته مع ما فيه من القماش والعصي والبنادق وألقت كل ما فيه فوق أجسادنا، وقد تخلصنا فيما وقع علينا دون أن نتعرَّض إلى أذى، إلَّا أنَّنا في ظلِّ الظلمة لم نهتم بالتأكد ممَّا إذا كان قد تحطم شيء ما بل لففنا أجسادنا على نحو أوثق وتركنا الريح والرمل يكنس الطريق أمامنا.

الأحد 10 شباط/فبراير 1884م. أثناء طراوة الصباح في جو صافٍ استمتعنا بمنظر رائع باتجاه الغرب، فقد سرنا راكبين، وقد جعلنا مخروط عرقوب العنز المنقط بالأسود والأبيض عن يسارنا، فوق أرض رملية ذات ميل قليل نحو الأسفل، وقد باغتنا ضبعة، وقفزت أمامنا مباشرة ولاذت بالفرار مذعورة، بعدما تجاوزنا جبال الخندوة استرحنا نصف ساعة في سهل نقرة الخرم، ثم سرنا في خطوات سريعة وبلغنا سلسلة مرتفعات الخرم ذات التشكلات الصخرية الغريبة مثل رحل الجمل الشداد وإلى يسارها من الأعلى تلك التي تُدعى الغراميل التي تنتصب من الرمل في شكل أضلاع وفرضات حجرية تشبه حصناً متعدِّد الأبراج، وبعد أن عبرنا المنخفض الشهير بمراعيه ويُدعى القمرة وبلغنا مرتفع معبر حلوان وجدنا أمامنا أراضي واسعة فيها قوالب من حجارة رملية ومنافذ وأعمدة وجدران وفطر وإبر وكرات كانت تفاصيلها الغريبة تتضح بشكل أدق مع تزايد الاقتراب منها، وفي البداية قصدنا مجموعة صخور المحجة التي يوجد فيها ـ حسبما قيل لنا ـ كثيراً من النقوش الكتابية. وكلَّما اقتربنا منها كلَّما انقسمت الكتلة على نحو يزداد خطورة ويكاد المرء يظن أنَّ البغودة الهندية[1] قد سحرت وحملت إلى هذه المنطقة.

تتألف مجموعة الحجارة الرملية في المحجَّة[2] من خمسة أقسام منفصلة:

(1) من كتلة مترابطة بارتفاع 30 متراً ذات جدران تنحدر عمودياً.

---

(1) بناء برجي بوذي.

(2) كلمة محجَّة اشتقها نومان من حكاية تقول: إنَّه في الزمن القديم كان يمرُّ من هنا طريق الحجّ.

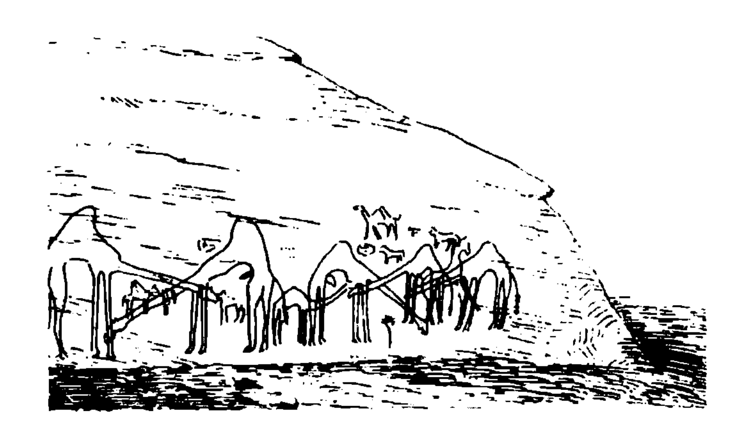
(2) من قاعة ارتفاعها 20 ـ 25 متراً.

(3) من كوة نصف مستديرة ارتفاعها حوالى 10 أمتار.

(4) من كومة صغيرة قائمة لوحدها. ومن مدخل يبلغ ارتفاعه حوالى 35م. وعندما نزلنا عند الركن الجنوبي الشرقي كنت مأخوذاً تماماً بالمنظر الماثل أمامنا. فقد نقشت مئات من النقوش الكتابية وبينها مشاهد صيد وحيوانات من جميع الأصناف، وحشد من الخيول، وعدد من الإبل بعضها أكبر من الحجم الطبيعي ولا أريد أن أقدم سوى بعض النماذج منها.

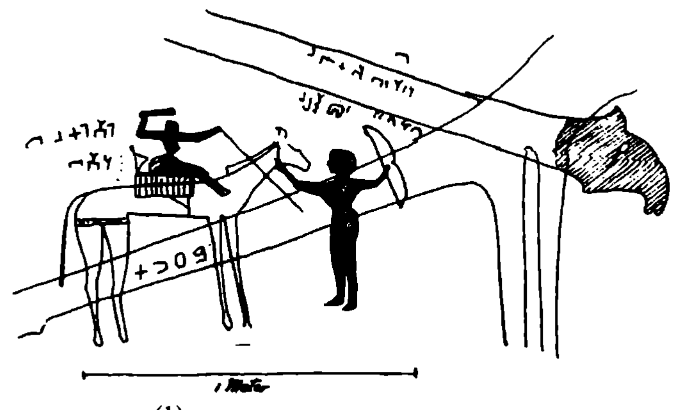
على الرغم من الرياح المعيقة إلَّا أنَّني حرصت على الاستفادة من ضوء النهار بحيث أنسخ بعضاً من الكتابات والرسوم ممَّا كان بالقرب منِّي ونظراً لعدم توفر الماء عادة بالقرب من المحجَّة، كانت صدفة طيِّبة أنَّ العجوز حيلان وجد بعد بحث لمدة قصيرة نقرة فيها ماء مطر كان كافياً لملء القرب.

الاثنين 11 شباط/فبراير 1884م. منذ الصباح الباكر شرعت ثانية بالرسم والنسخ وقد توصلت إلى الملاحظة التي غالباً ما تأكدت لديَّ فيما بعد



رسوم عربية قديمة

بأنَّ النقوش بالذات قد تآكلت بعوامل التعرية، وإنَّها في ظلِّ إضاءة متغيِّرة تظهر في صورة مغايرة تماماً، لقد نسخت في هذا اليوم 160 نقشاً، وهي تكاد تكون



رسوم ونقوش كتابية عربية قديمة[1]

بأجمعها أسماء علم، إنَّه سجل النسب المنقوش على الصخر للقبائل البدوية التي ترعى هنا قطعانها بالتوارث منذ آلاف السنين، أو تلك التي طردت أو أبيدت. وما عدا النقوش المقروءة توجد أكثر بكثير نقوش متآكلة أو مدمَّرة، وفيما كانت الدواب ترتع في المرعى أثناء النهار، نقل جماعتنا الأمتعة إلى قاعة كبيرة. كان عميّر، عم طلال، قد استدعى قديماً عنزة إلى هذا المكان كي يجمع من مشايخها الضريبة (الزكاة) وقد تكون الأمور سارت يومئذٍ على وجه مضطرب، في هذا المساء استرحنا بهدوء في القاعة، وقد تسلَّل إليها ضوء القمر الشاحب عبر الانحناء العالي للقوس فنوَّر مأوانا بضوئه السحري.

الثلاثاء 12 شباط/فبراير 1884م. انطلقنا في الصباح، مع شروق الشمس وبعد ثلاث ساعات نزلنا على مرج لَقَط، ويكاد يكون المرج الأخضر قطعة من بلادنا، فهو أخضر إلى درجة لم أشاهدها في عموم الجزيرة العربية، وقد أحاط ببركة صغيرة وقمت على الفور بالاستحمام فيها من باب الفرحة

---

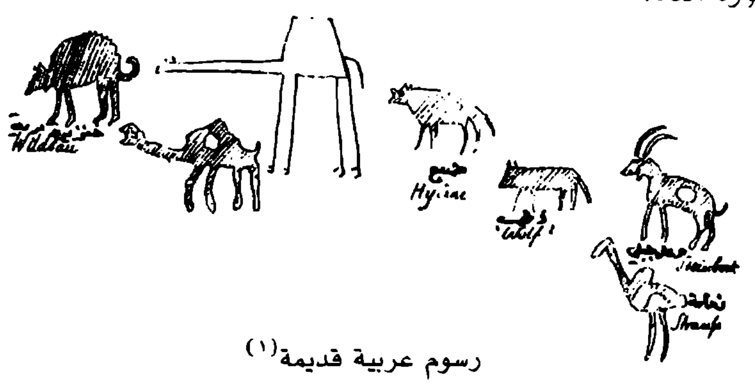
(1) إنَّ القسم الأعظم من النقوش غير واضح كلياً ولا يمكن فهمها دون تصحيح وتخمين ويبدو أنَّ النقش في الأعلى يميناً يعني:

הגהי בך חמג	آه يا مهج فلنظل بك رافلين.
בהסרר נם שלל	بالسرور، من شليل

لقد حدَّد هِسّ Hess معنى الكلمة נם = من، والنقش عن اليسار يجب أن يكتب كما هو عليه هنا.

العارمة بالماء الذي لم يكن صالحاً للشرب، وعلى الطرف كانت شواهد قبور لأربعة عواجي ذبحوا قبل ربع سنة أثناء غارة ليلية هنا.

يا ربِّ أفض علينا من بركاتك! وعلى جدار صخري طوله 200م وجدنا مئات ومئات النقوش: وقد اقتصرت في النسخ على تلك السليمة فقط (150 قطعة)، وعلى صخور أخرى كان هناك عدد من أشكال الحيوانات البدائية مثل المذكورة أدناه:



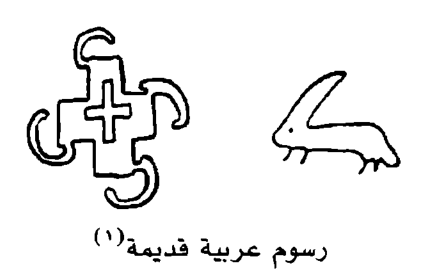
رسوم عربية قديمة[1]

كان الجدران العمودية لصخور الحجر الرملي الأبيض الأصفر (على الجانب الجنوبي وجزئياً في الجانب الشمالي) مطلية بطبقة بنية صقيلة، كما لو أنَّها ورنيش، وهذا يعني حسبما يقول الجيولوجيون: كما لو أنَّها قد زودت بطبقة حماية طبيعية، تعود النقوش النبطية والعربية القديمة، على الأقل، إلى 1500 عام، وعند خدشها أو جرح تلك القشرة يبرز اللون الفاتح للحجر وضَّاء، كما لو أنَّها تعود إلى أحدث الفترات. وهكذا تتداخل مع هذه النقوش الحديثة نقوش كتابية أقدم، وقد اكتسبت في إحدى مراحل التاريخ قشرة حامية لها بنيَّة اللون، كم من القرون تقع بين الصنفين وإلى أي ألف تعود الأقدم بينها؟ وما أشكو منه الآن أنَّني أثناء نسخ النقوش لم أسجل في كل مرة فيها إذا كانت صفراء فاتحة أم بنيَّة غامقة؛ في المناطق الفقيرة بالمياه لا ينصح مطلقاً بالمكوث طويلاً قرب

---

(1) في العديد من رسوم الحيوانات فتحة في الوسط مثلما هو الحال مثلاً في ألعاب مسرح خيال الظل التركي. وربَّما كان هذا في فترة ما قبل الإسلام بفعل التأثير اليهودي حيث الحذر الشديد عند رسم الأحياء.

الماء، لأنَّ الأفاقين والوحوش المفترسة تبحث وتجد هناك قبل أي مكان بغيتها لذلك ما إن أنجزنا العمل حتى بدأنا البحث عن مكان آمن، وقد سرنا حوالى الساعة بعيداً عن الطريق وشاهدنا خلال السير المنظر غير المعتاد لبركة تحرك الرياح سطحها على شكل أمواج. وأخيراً آوينا على نحو مقبول إلى مغارة من الصخر الرملي. هل يعود السبب إلى رداءة ماء اللَقَط أو سواه، إذ إنَّني ما إن استلقيت على السجادة حتى أصبت بدوار تام.



رسوم عربية قديمة[١]

الأربعاء 13 شباط/فبراير 1884م. بعد الطبخ سرنا طيلة النهار عبر مقالع للحجر الرملي حيث كان يغطي الأرض رمل كوارتزي بحبيبات متساوية كانت تومض مثل الألماس، وأمَّا الكتلة الجبلية البِرد والرؤاف الأبعد منها باتجاه الجنوب فكانت تشكلاتها تطغى على المنطقة برمَّتها بعد ذلك قمت بنسخ نقوش سليمة تماماً في منطقة تسباد (كباد). ونظراً لأنَّه لم تكن حماية من الرياح الغربية، فقد نزلنا حوالى الساعة الرابعة في بطين تسباد (بطين كباد) على تخوم سهل الخولة.

الخميس في 14 شباط/فبراير 1884م. بينما كانت منطقة الخولة ما زالت توفر علفاً كافياً لم نجد الدواب بدءاً من الظهيرة إلَّا مرعيةً فعلاً في أراضي السنانيات الموحشة، وكان علينا تحت جناح الظلمة أن نقوم بجمع عيدان الحطب الضئيلة بحيث نحضر قهوتنا ونطبخ أرزنا. وقد استلقينا للنوم بجانب بحيرة تشكَّلت من مياه الأمطار (خبرا)[2] ولم يتوفر لنا سوى القليل من الراحة.

---

(1) ممَّا يلفت النظر الصليب المعقوف والأرنب، فالأوَّل منتشر في جميع أرجاء العالم، أمَّا الأخير فكان ينظر إليه في العهود الوثنية في الشرق والغرب بأنَّه حيوان مقدَّس.

(2) خبرا يذكر هوبر بأنَّ الخبرا مستقر ماء مطر في منخفض طيني.

الجمعة في 15 شباط/فبراير 1884م. بما أنَّ حبَّات البن كانت قد نفدت لم يتبقَّ لدينا ما نحضره للفطور سوى الخبز في الرماد (خبز الملة). مع شروق الشمس تابعنا سيرنا كي نتخلص بسرعة من هذه القفراء الموحشة. واتخذنا من جبال غنيم التي بدت معالمها منذ مساء أمس نقطة للاهتداء لأنَّ هدفنا القادم وهو تيماء يقع خلفها. وبما أنَّ تيماء كانت مسقط رأس والد نومان فقد أسرع متقدماً الركب وبروح وثابة، وسعى إلى أن يحفزنا على سير حثيث كان قد مضى وقت الظهيرة عندما تجاوزنا الطرف الشمالي لغنيم، وقد باغتنا بين الصخور نساء فقيرات يجمعن الحطب، فولّين الأدبار مذعورات، ولم يهدأ روعهن إلَّا بعد مناداتهن لوقت طويل، وطمأنتهن بأنَّه لا داعي للخوف منَّا، وكانت تمتد أمامنا في حوض واسع واحة تيماء الغنية بأشجار النخيل، قبل ساعتين من دخولنا إليها توقفنا لنضفي على أنفسنا بما تبقَّى لدينا من ماء قدر الإمكان شيئاً من الحسن والنظافة، وذلك طبقاً للقول المناسب، إنَّ الفلَّاح يغتسل مرَّة واحدة كل أحد، ولكن أي اغتسال؟». خلال ثلاثة وعشرين يوماً لم نبدِّل قميصاً ولم نغتسل أكثر من مرتين، وفيما عدا القريتين موقق وجفيفا لم نشاهد بشراً على الإطلاق سوى ثلاث مرَّات من البدو، واليوم ونحن ندخل مدينة كان علينا أن نظهر بمظهر الأنيقين، أي أن نرتدي كل ما هو رسمي ممَّا يتوفر لدينا بأيٍّ شكل.

والآن كنَّا نقصد المدينة في جوّ من السير البهيج، وقد مررنا أوَّلاً بمجموعة من البيوت التي تحيط بها أسوار، ومن بعدها وصلنا إلى شعيب (حوض واد جاف) ونحن نبحث راكبين عن بيت الوالي عبد العزيز العنقري المعتمد من جانب ابن رشيد، ولما بلغ علمنا الآن أنَّه قد انتقل من بيته (القصر) الذي آل إلى الخراب بسبب مياه الأمطار كان علينا أن نطوف راكبين حول المدينة بأكملها تقريباً حتى دخلنا أخيراً عبر الأزقة المتعرجة الضيِّقة التي تحفُّ بها الجدران الطينية وبلغنا بذلك منزله المؤقت، لقد كانت الأبواب المؤدية إلى الأفنية منخفضة جداً إلى درجة أنَّه توجب علينا أن ننزل عن الإبل، وأن ندفعها بالضرب كي تدخل عبر البوابات الضيِّقة وقد اقتربت الساعة من الخامسة، عندما تمَّ إيواؤنا في البيت.

الفصل الحادي عشر

تيماء

15 ـ 20 شباط/فبراير 1884م

الجمعة في 15 شباط/فبراير 1884م. تُعدُّ تيماء بين أقدم مدن الجزيرة العربية المثبتة تاريخياً، إذ يرد ذكرها في الكتابات المسمارية[1]. وهي في العهد القديم معروفة بأنّها معبر للطرق التجارية وعقدة لها، وقد جاء في مقر أشعيا[2]، ـ في إشارة إلى بئر المدينة هداج الشهير في العالم ـ «هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكّان أرض تيماء». في الفترة ما بين عهد المسيح وعهد [الرسول] محمَّد كان يعيش هنا، كما هو الشأن في أماكن أخرى من الحجاز، عدد كبير من اليهود، وقد برز من صفوفهم شخص أصبح مضرب الأمثال[3] في بطولته ووفائه، وهو السموأل بن عادياء، فقد أمَّن مأوى في قصر الأبلق[4] الحصين قرب تيماء للشاعر امرىء القيس عندما كان يتعقبه المنذر صاحب الحيرة، وشملت حاشيته ابنته هند وابن عمه يزيد، كما وفَّر الحماية لثروته ودروعه وغيرها من الأسلحة وعندما كان الشاعر بصدد التوجه إلى أمبراطور بيزنطة وقف أمام القصر مع جيش الحارث بن ظالم الذي كان عليه بموجب تكليف من جانب المنذر أن يستولي على ثروة امرىء القيس من السموأل الذي وضع نفسه في حالة دفاع، فقد كان له ولد يافع، يقوم في ذلك الوقت برحلة صيد، ووقع في يدي المنذر وهو في طريق العودة، عندها سأله الحارث

---

(1) رولنسون ج2 ص53، 67 .Roelinson الُ تيماءَ، «مدينة تيماء» (أو مدينة التيماء) انظر وليتش أين تقع الجنَّة ص302 **Delitsch, wo lag das Paradies**.

(2) أشعيا 21، 14 أرمياء 25، 23 أيوب 6، 19 وكذلك اسمها في الآرامية، وفي المسلة التي عثر عليها هنا، وتعود إلى القرن 5ق.م. أما لماذا يزعم السكّان الحاليون أنَّ اسم المدينة في الزمن القديم كان توما فهذه مسألة لم أتمكن من تقصيها.

(3) أوفى من السموأل.

(4) الأبلق (أبيض وأسود) ولم أتمكن في تيماء من الحصول على معلومات عن موقعه، انظر ف. فوستنفلد، **منطقة المدينة**.

F. Wästenfeld, **das Gebiet von Mediua**. Göttingen 1873, P. 73.

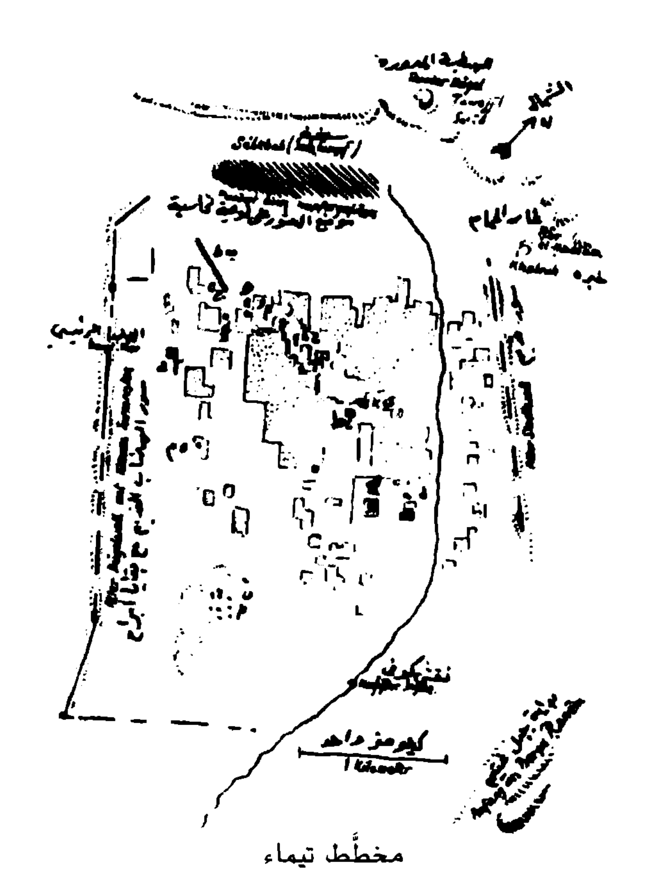
السموأل هل تعترف به؟ فقال: نعم إنَّه ولدي، وتابع السؤال، هل تريد أن تسلم ما وضع في عهدتك أو أقتله فقال له [السموأل]: اصنع ما شئت، فإنَّني لا أبطل وفائي، ولا أسلم مال من دخل في حمايتي، عندها ضرب الحارث الشاب فشقَّه نصفين ثم تابع سيره(*).

تقع واحة تيماء في منخفض عميق يمتد من الجنوب نحو الشمال، وتأتي مجاريه تحت الأرض من مكان بعيد لتتدفق في بئر هداج المذكور. وعلاوة على ذلك يتقاطع معه حوض ساقية (شعيب) جاف في العادة يصبُّ فيه ماء العواصف والمطر الشتوي، مشكلاً مستنقعاً ملحياً في الشمال. ويحيط بالمساكن من ثلاث جهات جدران اصطناعية من الطين والحجارة، أي إنَّها تحصينات قديمة. وما زالت تشاهد من أبنية العصر القديم أساسات معبدين هما قصر الداير ربَّما لطليحان، وقصر زلوم القديم، وقناة لجرِّ المياه في حالة خراب، وعدا عن ذلك يوجد في كومة الخبث آثار لصهر الحديد في القديم (أو إنَّها أفران لشوي الطوب) وفيما إذا كان القصر الأبلق(**) المشيد بالحجارة في المدينة ذاتها أو بالقرب منها هذا ما لم أتمكن من الحصول على معلومات

(*) لقد اعتمد المؤلف على النصّ الوارد في الأغاني ونورد هنا الرواية مختصرة كما جاء عند الأبشيهي، **المستطرف من كل فن مستظرف** 2/ 13، 14 حفاظاً على روح النصّ: «إنَّ امرؤ القيس الكندي لما أراد المضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعاً وسلاحاً وأمتعة تساوي هذا المال جملة كبيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة [الحيرة] يطلب الدروع. . . فقال السموأل: لا أدفعها إلَّا لمستحقها. . . فعاوده فأبى وقال: لا أغدر بذمتي، ولا أخون أمانتي ولا أنزل الوفاء والواجب عليَّ. . . فقصده. . . فدخل السموأل في حصنه وامتنع به فحاصره. . . وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك، فأخذه أسيراً، ثم طاف به حول القصر وصاح بالسموأل فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له: إنَّ ولدك قد أسرته، وها هو معي، فإن سلَّمت إليَّ الدروع والسلاح التي لامرىء القيس عندك رحلت عنك، وسلَّمت إليك ولدك، وإن امتنعت عن ذلك ذبحت ولدك، وأنت تنظر فاختر أيُّها شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي، وأبطل وفائي، فاصنع ما شئت. فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً». (المترجم).

(**) يذكر ياقوت الحموي 2/ 67: «والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي مشرفاً عليها» (المترجم).

عنه، كما أنَّني لم أتوصل من خلال مشاهداتي إلى أي مرتكز أعتمد عليه في ذلك. كانت أزقة المدينة ضيقة في الغالب إلى درجة أنَّ جملاً محملاً لا يمكنه أن يمرُّ فيها، تقوم ما بين البيوت فضاءات واسعة وبساتين تروى رياً كافياً وفيها أشجار النخيل، والكرمة والدراق والرمان.



مخطَّط تيماء

أ) القصر الداير
ب) القناة القديمة لجرّ المياه
ج) موضع العثور على نقود ذهبية
د) قصر قديم
هـ) قصر خراب
و) حقل عظام غير قديمة، قبور
ز) كاكاتوريوم
ح) عبد العزيز العنقري
ط) بئر كبير
ي) قصر.
ك) المعبد الرئيسي
ل) المبنى الرئيسي
م) طليحان: موضع العثور على المسلة الكبيرة
ن) مصهر الحديد القديم أو فرن شوي الطوب.

وحتى وقت قريب كانت تسود بين السكَّان، وهم حوالى 1000 نسمة

خلافات كبيرة وهم يميزون تبعاً للأحياء الثلاثة (الأسواق) التي تنقسم إليها المدينة:

1 ـ سوق العلي وعلى رأسه الشيخ ثويني بن رمان.

2 ـ سوق الماضي تحت زعامة الشيخ فهد الطلق.

3 ـ سوق الحمدة برئاسة الشيخ طالب العايد.

في هذه الأيَّام، وبعد أن أصبحوا ممَّن يؤدون الإتاوة لابن رشيد فقد كبح جماح الأقسام الثلاثة المتنازعة وذلك على يد والي الأمير عبد العزيز العنقري، وكانت لدينا رسالة موجَّهة من الأمير إلى هذا الشخص وقد نصَّ فيها على تقديم المواد الغذائية وما نحتاج إليه سواها.

وما إن نقلت الأمتعة إلى المنزل، حتى تدفق الناس إليه وقد شعرت بأنَّهم إلى حدٍّ ما محقون بذلك بسبب اللباس الخاص الذي كنَّا نرتديه، كما يفعل الناس في أوروبا أثناء زيارتهم حديقة الحيوان، عندما يعرض أمامهم أشخاص نادرون مثل أولئك من بلاد النار والتسمانيين، وهكذا يتفرجون علينا نحن أبناء البلاد الشمالية، وكذلك كمسيحيين باندهاش ومتعة، وكل ذلك دون أي خطر أو تكلفة.

منذ الفطور الناشف لم نتناول أي طعام، لذلك أخذت معدتي بالارتعاش، وشعرت بدوار في رأسي بعد احتساء العديد من فناجين القهوة السوداء التي تقدم تكريماً للضيف. وأخيراً حوالى الساعة السابعة أُدخلت قصعة الطعام يحملها ثلاثة من العبيد على ضوء مشاعل من جريد النخيل، وقد شارك في تناول الطعام فيما عدانا نحن رفاق الرحلة الخمسة، عبد العزيز الرمان، والخطيب عبد الله، وتاجران إيرانيان[1]، أحدهما شخص يرتدي زبوناً (قفطاناً) بهياً وهو متعجرف ومنتفخ اسمه سلطان[2]، ثم انضم ستة ضيوف

(1) لقد سمح لهذين المشهديين بالإقامة في تيماء بمزاولة الأعمال هنا لفترة مؤقتة يمكن إلغاؤها وهما بمثابة فرع للجالية حائل (حايل) التي تبدلهما بالتناوب.

(2) انظر ما سوف يُذكر عنه لاحقاً.

شرف آخرين، ولم يتسنَ لي أن أميزهم إلَّا في الأيَّام التالية، حوالى الساعة التاسعة والنصف أبدينا الرغبة بالخلود للراحة، إلَّا أنَّ هذا الأمر لم يجعل صاحب البيت ولا الضيوف ينصرفون، بل على العكس لم يشأ أي منهم الابتعاد مهما كان الثمن، وأخذوا يراقبون، كيف نجهز موضع نومنا، وأية ملابس أو حتى أسلحة نخلع وما يخرج منها، وفي أي وضع نستسلم للنوم وأي أغطية نتلحف بها، وما شابه ذلك وفي ظلِّ هذه التصرفات اللافتة كان الأمر سيَّان لدينا فيما لو شاءت دزينة أخرى من الأشخاص أن تأتي لإرضاء فضولهم وكل ما أمكنني سماعه، كيف اعترض شخص منع من الدخول اعتراضاً شديداً وقال لتبرير اعتراضه إنَّه لم يقطع مسافة استغرقت منه الأمس واليوم، ومن بعد لا يسمح له بالمشاهدة.

السبت في 16 شباط/فبراير 1884م. حوالى ساعة ونصف قبل الشروق خصَّنا الشيخ الطيب عبد الله أبو محمد من شقرا باللفتة غير المطلوبة[1] إذ جلس في الفناء جانب الباب وأخذ يتلو لمدة نصف ساعة سوراً كاملة من القرآن الكريم. وقد تعرَّفنا على عادة أخرى من عاداته أثناء النهار وهي أنَّه كان يملأ كل توقف في الكلامِ بعبارة لا إلٰه إلَّا الله، ومع الفجر أي حوالى ساعة قبل النهار أقبل الناس إلى الجامع ليقيموا فيه صلاة الفجر، وهو ملاصق للفناء حيث نقيم، وبعد عشر دقائق التقى الجميع في القهوة لدينا، فأفسدوا علينا بقية نومنا[2].

ذهبت من هنا إلى دوابنا المخلصة فنظرت إليَّ باستغراب عندما عبرت الأبواب إلى الفناء الصغير الذي جعل لإيوائها، حيث تحمل ثلاثة أعمدة طينية سقفاً يتشكل من جذوع غير مهندمة، ومن فوقها عيدان ذات أوراق يابسة، وكان يشقّ الأرض الطينية مجرى فيه شيء من الماء. منذ انطلاقنا من حائل (حايل) وحتى الأمس، أي على مدى 24 يوماً، فإنَّ الإبل بحسب رصدي

---

(1) الأصل: الملعونة.

(2) يلي ذلك نصّ باللاتينية في تسعة سطور لم أتمكن من ترجمته، انظر ص150 ـ 151 من الأصل الألماني. (المترجم).

المتاح بيسر، لم تشرب مرة واحدة على الرغم من توفر العديد من الفرص لذلك، وإنَّني أميل إلى الرأي بأنَّ هذه الدواب طالما يتوفر لها العشب الأخضر، كما هو الأمر هنا عادة في أواخر الشتاء والربيع، فإنَّها ليست بحاجة للماء ولا رغبة لها فيه. عندما خرجت من الفناء، وجدت بعض الأشخاص منشغلين بجملين طرحا على الأرض مكبلين وقد ألقيت في النار قطعة حديد محمَّرة وعليها سمة القبيلة (ميسوم) التي كانت تطبع على فخذ الجمل وهو يصرخ من شدَّة الألم ثم تعمق الوسمة بقطعة حديد أخرى متوهجة تُسمَّى «محور» تصدر روائح الحرق عنها. الآن بدأت مصاعب تجابهنا في السعي لتأمين دواب ركوب للرحلة إلى تبوك. وتبلغ حاجتنا الكاملة إلى خمس دواب اضطررنا إلى ترك واحدة في جفيفا[1].

لقد أُعيد الجمل المستأجر إلى أصحابه[2] وسيأخذ حيلان جملاً آخر ليبدأ طريق العودة إلى حائل (حايل)، وفي الواقع لم يتوفر لدينا سوى ثلاثة من الإبل، وكنَّا نرغب في أن نخفف عنها العبء حفاظاً عليها للقسم الثاني من الرحلة. وعندما بلغنا أنَّ الشرارات يرعون مواشيهم على مسافة يومين من هنا في الناحية الشمالية الغربية، وأنَّ الفقرا على المسافة نفسها تقريباً جنوباً أرسلت نومان على ذلولي إلى الفقرا، وجلّ ما آمله أن لا يقع في يد أحد اللصوص في الطريق، فقد مرَّ من هنا غزو لبني صخر منذ عدَّة أيَّام فقط وتوغل بعيداً باتجاه الجنوب، كما أنَّ سطام[*] بن فايز (من الرولة) شوهد هنا قبل يومين، فلعلَّ هذا صحيح فعلاً؟

حوالى الساعة العاشرة قمنا بجولة في المدينة، وأوَّل الأهداف التي قصدناها بئر هدّاج البديع إنَّها عين معروفة في عموم الجزيرة العربية والشام يشيد بها العديد من القصائد في وسط ساحة يخترقها نحو 80 مجرى مائياً مسوَّراً توجد في أرض صخرية طبيعية مع إكمالات مشيدة بحجارة، فوهة

(1) انظر ما مرّ عن ذلك سابقاً.

(2) انظر ما مرّ عن ذلك في أول الجزء الثاني.

(*) سطام بن فايز من بني صخر وسطام بن حمد الشعلان من الرولة. (المراجع).

مدوَّرة قطرها حوالي 20م. وعلى عمق 15م يشاهد المرء سطح ماء يُغذَّى من فروع متدفقة، وتقوم فوق الطرف الأعلى أعمدة متداخلة وعجلات خشبية وبكرات وحبال وغرب جلدية وتجهيزات للمجاري، ويقوم في كل من الاتجاهات الأربعة ما بين اثني عشر وخمسة عشر جملاً، أي حوالى ستين رأساً من الإبل، وعلى خط طوله حوالى 30م، بسحب الغروب جمع غرب من العمق طيلة النهار ودون توقف. وإنَّهم بذلك يوفرون ماء الشرب، ومن خلال قنوات التوزيع الصغيرة يمدون بالماء الذي لا غنى عنه، آلاف أشجار النخيل في هذه الواحة الشهيرة بغناها بالماء منذ القدم(*) . إنَّ حق الماء لأصحاب البساتين مضطرب كثيراً، ويشكل باعثاً على النزاعات، كما هو الحال في كل مكان، وإنَّ قناة الماء تتفرع حتى نهاية المجرى إلى مجار مختلفة صغيرة يمكن أن يغلق كل منها بالردم. والأمر المعتاد أنَّ المشتركين في مجرى واحد يتعيَّن عليهم أن يستأجروا ليوم كامل، أو لنصف يوم على الأقل جملاً لسحب القواديس، وأن يراقبوا بتخوف توزيع الماء في الفروع. وأمَّا أصحاب الإبل أو مستأجروها فيجلسون لهذا الغرض عند طرف الخط الذي يسير عليه الجمل، ويسهمون في حثّ الجمل القادم أو تسريعه بخفة مليئة بالعلف، وفي تلك الأثناء يقوم الفتيان من أفراد الأسر بمراقبة المجاري التي تمرُّ في الطرق ومراقبة السدَّات، وعندما اقتربت من مجموعة من هؤلاء الأشخاص، وأنا بصدد إنجاز رسم تخطيطي، وقفوا احتراماً وأفسحوا لي المكان المفضل. وبدأوا على الفور حديثاً بحيث يحصلون من فمي على تأكيد غرورهم المبرر، وسألوني فيما إذا كانت توجد مثل هذه العين في بلادي أو حتى سيل (ساقية جارية)، وفيما إذا كانت لدينا بساتين وما يشابه ذلك. وعندما سمحت لنفسي بالملاحظة، أنَّه توجد في ألمانيا 4000 أو ما يزيد من السواقي والأنهار، التي يجري ماؤها طيلة العام في البحر دون أن يُشرب، وأنَّ البلاد برمَّتها عبارة عن بستان وأرض مزروعة، صحيح أنَّه لا يوجد فيها

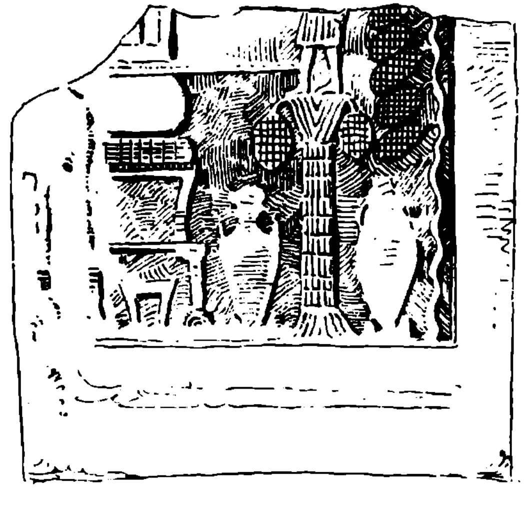
(*) العهد القديم، أشعيا، الإصحاح 21/ 14، هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكَّان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه، (المترجم).

نخيل، ولكن غابات وأشجار مثمرة تزرع ما بينها الحبوب وينبت العشب في كل الأرجاء، ولا يسمح للمرء أن يرتحل كيفما يشاء لأنَّ كل الأراضي محدَّدة، أو إنَّها ذات سياجات وجدران، عندها قال أحد فرسان المغازي العتيقين من تيماء ـ لا يمكنني القول إنَّه مغرور ـ إذا كان كل ما تذكره عن بلادك صحيحاً فلماذا هجرت تلك البلاد أصلاً؟ «احم، وعلى كلٍّ حال حيث لا يوجد تمر ولا توجد جمال، ولا بدو، وحيث لا يمكن للمرء أن يرتحل حيث يشاء، فإنَّ مثل هذه البلاد ليست جديرة بالتطلع إليها». وأخذ الآخرون بالنظر إليه وإلى أنفسهم وإليَّ، لقد خرجت على نحو سليم ولكن بصورة متبجح أو محتال لحق الضرر بمكانته في تيماء، وهكذا مكثت ساكتاً مستغرقاً في تدخين غليوني، وكنت سعيداً عندما حضر هوبر، بعد إنجازي الرسم، واصطحبني طبقاً للموعد.

وكنت أتوقد وقد نفد صبري، كي أتأكد من وجود نقوش نبطية أو آرامية قديمة في القصر الفعلي سبق لهوبر أن عرضها عليَّ في يوميات رحلته الأولى، والتي قدَّرتُ أنَّها تعود إلى القرن الخامس ق.م. على أبعد حد وذلك في تقرير موجَّه إلى وزير التعليم الفرنسي، وفي كل مرة كنَّا نصادف نساء في الأزقة الضيِّقة، كن يقفن وقد أشحن بوجوههن إلى الجدار، ويدعننا نمرُّ من وراء ظهورهن، كانت الأمطار قد ألحقت بالقصر دماراً كبيراً، وهو مهجور حالياً لهذا السبب، ويُقال: إنَّ جدرانه الطينية من الخارج والداخل تضمّ ثلاثة أحجار عليها نقوش، في الجدار الخارجي الشرقي وربَّما على ارتفاع ستة أمتار عن الأرضية دمجت حجرة تلفت الانتباه، ولمَّا كانت لم توضع على قاعدتها نحو الأسفل بل مائلة إلى الجانب تطلب الأمر منِّي كي أتمكن من رؤيتها جيداً ورسمها أن أميل برأسي جانباً، إلَّا أنَّني شعرت بالدوار نتيجة الغذاء التعيس خلال الأسابيع الماضية فسقطت مرتين على الجدار، وعند صيانة البناء ينبغي أن يؤخذ الحجر من الجدار الآيل للانهيار لصالحنا.

إنَّ الأمر بمجمله لا يعدو أن يكون مشهداً للتضحية: رجل يقف على ذروة شجرة نخيل متتدلية عراجينها، ومن خلفها تتسلق شجرة كرمة قرب البنية،

وعلى جانبي النخلة جرتان كبيرتان وضعتا على حاملين منخفضين، وهما يحتويان على موسم الخمر والتمر الأخير، ويوجه الرجل نظره نحو اليسار باتجاه كومة متعدِّدة الطبقات من المناضد والوسائد، وفي أعلاها فوق تحفة تمثال الإله: وهو جالس مفكر[1]، وهناك حجران آخران عليهما نقوش[2] وأمّا ما أمكن الوصول إليه بطريقة أسهل فكان بإمكاننا إخراجه من مكانه ونقله إلى المنزل.



تمثال في تيماء

بعد العصر قمت بجولة إلى حوض الساقية (شعيب) في أعلى المدينة، حيث نقشت العديد من الكتابات الكوفية نقشاً رديئاً، وفي طريقنا إليها عثرنا على الكثير من كسرات الفخار المشوي، والأوعية الحجرية، ومن بينها قطع جميلة من حجارة الزينة، ومكثنا مدة طويلة عند بئر هدّاج ثم قمنا بزيارة جار الله اليوسف ويتسم بيته بعناية بالغة الدقة، فقد زينت الأرض والجدران بسجاجيد كبيرة، تمّت حياكتها هنا بطريقة لها نمط خاص. وذكر لي أنَّ سعر

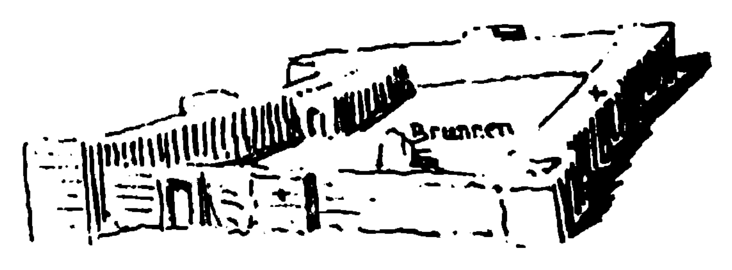
---

(1) لا أستبعد أن تكون هذه الصورة ذات علاقة مع النقش الآرامي القديم الوارد في جامع النقوش السامية Corpus inscriptionum Seuniticacrum, 2 = 114 وإنَّ المضحي المذكور هناك معنان بن عمران وعلى العرش صورة الإله صليم محرام.

(2) Corpus inscript, Semit, 2 = 114, 336.

سجادة بطول ستة أمتار يبلغ 30 ليرة مجيدية (حوالى 100 مارك) من هنا توجهنا إلى تناول طعام العشاء عند وجيه آخر اسمه عبد العزيز الرمان، هنا تنامت إلى مسامعنا الأخبار التي كانت تدور حول أشخاصنا قبل وصولنا إلى تيماء بمدة طويلة، فالخطيب كان يعلم أنَّ عبد الوهاب ليس اسمي الحقيقي، وأنَّني قد رسمت صور مفرّج وجوهر، وأنَّنا قدمنا للأمير بنادق يمكن للمرء أن يقتل بها شخصاً دون أن يصدر لها صوت، وأنَّ بإمكان هوبر أن يخفي نفسه إلخ. كما حكي لنا عدا عن ذلك أنَّه قد وصل إلى هنا رجل من القصيم قادم من مصر وقطع المسافة في 40 يوماً. وقد حمَّل جمله 16 بندقية حصنت كل منها بمائة رصاصة، وبالإضافة إلى ذلك (خرطوش مارتين) بينما كان يسير خلفه على قدميه. وإنَّ الأسلحة تعود إلى ثورة عرابي وهي مرسلة هدية إلى أمير حائل (حايل).

الأحد في 17 شباط/فبراير 1884م. ما إن فرغنا من تناول الفطور حتى أحضرنا ثويني الرمان إلى الطعام، فقدَّم التمر مع أرغفة الخبز المشروح، وبالإضافة إليها سمن طازج وساخن ولبن للشرب. ولما كنت أمر في الفناء عند الوداع وقع نظري على عدد من المزامير من خشب قرِّي، وكما يُقال: فإنَّها شائعة الاستعمال هنا، وما إن انتهينا هنا حتى دعانا فهد الطلق إلى بيته للطعام، وقدَّم لنا التمر والخبز والزبدة واللبن، وكان من بين المدعوين حدَّاد سلاح بارع اسمه زيدان، وقد اخترته كمرافق للجولة في المدينة لمعرفته بالأمكنة ولاهتمامه بأغراضي، ولم أندم على ذلك، وما إن انتهينا من الطعام حتى توجَّهت معه بمفرده إلى غرب المدينة، حيث كانت تيماء القديمة على عمق قامتين (باع) في الأرض حسب قوله، وأثناء التجول البسيط في الأرض الرملية التقطت كسرات زجاج وكسرات برونز وقد علاها صدأ سميك، وقطع من الأرضية الملاطية وحجارة الزينة، ويبدو أنَّ القناة المتجهة شمالاً والمطلية بالكلس كانت مصممة لجرِّ الماء إلى السبخة. ثم تابعنا سيرنا جنوباً إلى قصر الداير، وهو مبنى كبير مربع الشكل ذو أبراج في الزوايا وفيه بئر مردوم.



قصر الداير في تيماء

من هنا قادني إلى بيت يُدعى طليحان ويقع على مسافة خمس دقائق باتجاه الجنوب، وعثرت فيه على الحصيلة الأكثر غرابة في رحلتي العربية. عند الباب الداخلي الثاني للقصر (العزبة) عن اليمين استعمل حجر كقائمة للباب في وضع معكوس، فجعل الرأس من الأسفل ولم يظهر في البداية الجانب الضيق منها وعليه صور (رأس الملك أو الإله والكاهن) ويعرف هذا الحجر في الأوساط العلمية في زمننا باسم مسلة تيماء[1]. وما إن شاهدت الأحرف المنقوشة حتى حاولت إخفاء اغتباطي قدر الإمكان وشرعت بنسخها على الورق بهدوء نفسي مصطنع. وقدَّمت لصاحب البيت[2] هدية نقدية عن طيب خاطر. بعد أن طلبت من زيدان الحضور عندي في الصباح الباكر عدت على وجه السرعة إلى البيت وأنا مجهد وفي غاية الانفعال، كي أبلغ هوبر عن الاكتشاف الجديد، وأُبيِّن له مدى أهمية النقش، الذي يعود بكل تأكيد إلى القرن السادس ق.م. وسيعمل في الغد على إخراج الحجر من موضعه ونقله إلينا في المنزل، في المساء كنَّا مدعوين لدى ثويني، وبعد ذلك شربنا القهوة عند عبد العزيز الرمان، وكنت أفضل مائة مرة أن أبقى في المنزل بحيث أدرس النقش في النسخة الورقية.

الاثنين في 18 شباط/فبراير 1884م. كانت تراودني الأفكار بشأن المسلة طيلة الليل، وحرمتني من النوم، فنهضت قبل طلوع الفجر، وتناولت النسخة الورقية لدراستها على ضوء الشمس ومع انبلاج ضوء النهار كنت قد خلصت بعض حاجياتي من القمل، ثم تبعت حدَّاد السلاح زيدان للقيام بجولة

---

(1) Corpus inscriptionum Semiticarum. 11 = 13.

(2) عقل أو عقيل كلا الاسمين محتمل انظر هِسّ، أسماء البدو، 8، 10 Hess, **Beduinernamen** 10 ،8 .

في المدينة، ذهبنا أوّلاً إلى بيت الخطيب محمد العتيق حيث دمج في البناء حجر عليه نقش آرامي، وذلك في داخله وعلى عتبته الحجرية. ثم سرنا عبر مقبرة في وسط الجزء الجنوبي الشرقي للمدينة الحالية، تبرز من أرضها بقايا أعمدة تعود إلى معبد قديم، كما يلاحظ على مسافة عنها خَبَثَ أفران الصهر القديمة وأوعية فخارية مدهونة، وفضلاً عن ذلك فخ نصب للضبع وفيه جيفة. ولما عدنا إلى منزل زيدان قدَّم لي فأساً حجرياً أسود كهدية كان يستخدمه في اختبار الفضة والذهب، وهو يمتلك فيما عدا ذلك أوعية فخارية من العصر القديم ولكن دون قيمة فنية.

عند عودتي من الجولة كان يقف في الفناء سبعة أشخاص كانوا ينزلون مسلة طليحان، وقد نفحتُ كل واحد من الحمالين ربع مجيدي، وأعطيت المالك ليرة مجيدية ونصف (حوالى 5 مارك). وبعدما أخذ الغرباء أجرهم وغادروا المنزل، كان بوسعي عندها الجلوس وتفحص الحجر بالتفصيل، ولقد تذكر هوبر أنَّه قد شاهد الحجر في رحلته الأولى في العام 1880م، لكنَّه لم يعره أي اهتمام.

يبلغ ارتفاع الحجر 1,10م وعرضه 0,43م وسمكه 0,12م وهو مدوَّر في الأعلى ويحمل على الجانب الأيسر الرفيع صورة الإله صليم في حجم صورة هيئة رجل ذي لحية يرتدي ملابس آشورية وعلى رأسه القبعة الملكية الآشورية العالية، ويحمل في يده اليسرى سيفاً، وتبدو اليد اليمنى وكأنَّها ممتدة لحماية الكاهن وقد بسط فوق الإله قرص الشمس المجنح، بعدئذٍ تحت هذه الصورة تظهر صورة أصغر لشخص يوصف بالكتابة المجاورة بأنَّه كاهن صليم شيزيب وهو أيضاً يرتدي الطراز الآشوري وحليق الرأس في وضعية مقدم الضحية أمام مذبح مزين برأس ثور. ونفذت الكتابة والأشكال بمهارة تكاد تكون رفيعة المستوى، ولما كان الحجر في قسمه العلوي قد وضع على رأسه في الأرضية، فقد ناله شيء من الضرر وخاصة في الأسطر 5 ـ 8 ويمكن في الزمن الحاضر التوصل إلى النصّ مع شيء من اليقين التقريبي[1].

---

(1) كان النشر الأوَّل التجريبي على يد نولدكه في تقارير جلسات الأكاديمية الملكية الروسية للعلوم . Sitzungsberichte D.K. Akademie D.Wiss 1884, Nr. 35

والمقصود إذاً أنَّ الذي قام بتجهيز المسلة هو كاهن يُدعى صليم شيزيب بن بطوسيري تكريماً لإله أحضره من الخارج إلى تيماء واسمه صليم هجم ويقصد بذلك أن يعلن بأنَّه أدخل عبادة الإله الجديد بموافقة آلهة تيماء المحليين (صليم محرم وشنجلة وأشيرا) وأنَّ الملك والآلهة الأولين سيدفعون إلى معبده أعطية سنوية للطقوس قدرها موسم 21 نخلة وأنَّهم في ذات الوقت يعترفون به ونبله بأنَّهم كهنة الإله الجديد.

1 ...... בשת IIZ ......
2 ..בםימ]א צלם [זי מחרם ושנגלא
3 ואש]ירא אלהי תימא לצלם זי
4 [הגם] ... שמה ביומא זן [בת]יבא
5 .... זי
6 ....
7 ....
8 ....א להן .... [סותא ז'א
9 זי [הק]ים צלמשזב בר פטסרי
10 [בבית צ]לם זי הגם להן אלהי
11 תימא צ]דק[ו לצלמשזב בר פטסרי
12 ולזרעה בבית צלם זי הגם וגבר
13 זי יחבל סותא זא אלהי תימא
14 יסחוהי וזרעה ושמה מן אנפי
15 תימא והא זא צדקתא זי [הבו]
16 צלם זי מחרם ושנגלא ואשירא
17 אלהי תימא לצלם זי הגם א'
18 מן חקלא דקלן ⸗ ¦¦¦ ומן שימתא
19 זי מלכא דקלן IIII II כל דקלן
20 IZ [כל] שנה בשנה ואלהן ואנש
21 לא יה[נ]פק[צלמשזב בר פטסרי
22 מן ביתא זנה ול[זר]עה ושמה
23 בכ[ו]ריא בבי]תא זנה [לעלם]

التر جمة[1]

«1 ـ . . . . . في عام 22 من [حكم الملك]. . . 2 ـ [خوَّل في تيماء] صليم [محرم وشنجلة 3 ـ وأشـ]يرا آلهة تيماء، صليم 4 ـ [هجم] في هذا اليوم تيماء 5 ـ . . . الذي . . . . 7 ـ . . . . . 8 ـ . . . . لذلك هذه المسلة، 9 ـ التي قام بتشييدها صليم شيزيب بن بطوسيري 10 ـ [في معبد صـ]ليم هجم لهذا خوَّل آلهة. 11 ـ تيماء صليم شيزيب بن بطوسيري 12 ـ ونسله في معبد صليم هجم. وكل من 13 ـ يحطم هذه المسلة فلتمحُ أثره آلهة تيماء 14 ـ هو ونسله واسمه من أرض 15 ـ تيماء وهذا الامتياز الذي منحه 16 ـ صليم محرم وشنجلة وأشيرا 17 ـ آلهة تيماء لصليم هجم. . 18 ـ العقارات 16 نخلة ومن ملكية التاج 19 ـ التابعة للملك 5 نخلات 20 ـ والموسم السنوي لواحد

(1) تمَّت الترجمة على أساس ضبط نهائي لاحق [وتصويبات طفيفة من جانب المحرر].

وعشرين [شجرة النخيل] ولا يحق لا للآلهة ولا لأيٍّ شخص 21 ـ أن يستبعد صليم شيزيب بن بطوسيري 22 ـ من هذا المعبد ولا نسله ولا اسمه 23 ـ باعتباره هنا في هذا المعبد [إلى الأبد]».

وعلى الجانب الضيق تحت الصورة كتب «صليم شيزيب الكاهن» بما أنَّني قبل الشروع بالرحلة المشتركة كنت قد اتفقت مع هوبر ونحن في ستراسبورغ أن لي الحق باصطفاء حجر عليه نقش من كل ما يكتشفه أو نكتشفه معاً من الأثريات القابلة للنقل، وأعتبره ملكاً شخصياً للمجموعة التي أعمل عليه لصالح الحكومة. في حين تبقى له بقية الحصيلة وعلى هذا الأساس تفاهمنا على أن يدع لي مسلة طليحان[1] يبدو أنَّ نقل الحجر الذي يمكن أن يزن حوالي 150كغ، قد اقترن بمصاعب واستدعى إجراءات لتوزيع وتثبيت الحمولة على سرج الجمل، وتمَّ خلال النهار نقل أحجار آرامية أخرى إلى منزلنا، وربَّما كان من الأفضل أن لا نحمل معنا جميع الأحجار أثناء رحلتنا في الحجاز بل أن نؤمن نقلها إلى حائل (حايل) عبر منطقة غير محفوفة بالمخاطر. بعد الظهر اصطحبوني إلى بيوت وبساتين مختلفة حيث يزعم وجود أحجار عليها نقوش، ولم نجد أي أثر للنقوش، على أنَّ النيَّة الطيِّبة كانت ملموسة، والناس ليس لديهم فكرة عن ماهية الحروف، ومن الخطأ الفادح أن يبدي المرء في مثل هذه الحالات خيبة الأمل أو الاستياء أو التأنيب، لأنَّ مثل هذا التصرف يعرِّضه للخطر أن لا يعرّض عليه الناس شيئاً على الإطلاق.

الثلاثاء في 19 شباط/فبراير 1884م. صباحاً دعانا محمد العلوي، وهو مرافق سابق لهوبر، للطعام، ووجدنا لديه بيتاً نظيفاً على وجه استثنائي مفروشاً بسجاد جميل وحتى الأولاد الذين كانوا يقومون على الخدمة نشأوا على النظافة والدقَّة، وعلى سبيل المثال فإنَّ ولداً صغيراً قام من تلقاء نفسه بوضع منديل على المهباج بعد استعماله. والفناجين النظيفة أساساً جرى خضّها بالماء ثانية أمام أعيننا، ثم جفّفت ووضعت على الصينية النحاسية على

---

(1) إثر حادثة قتل هوبر المشؤومة في 30 حزيران/ يونيو 1884م اختلف الأمر فقد جرى نقل الحجر. بفضل جهود د. لوستالو القنصل الفرنسي في جدة إلى متحف اللوفر بباريس.

شكل دائرة، ووضع في الوسط الفحم والبخور، ومررت الفناجين إفرادياً فوق المبخرة ثم قدّمت القهوة، وكما هو معروف تعتبر الجزيرة العربية بلاد البخور منذ القديم.

ولما لم تكن لدينا أية دعوة أخرى لهذا اليوم، توفر لديَّ الوقت لأتفرغ للعناية بجسدي، وهذا يعني أن أغتسل على أتمّ وجه وأن أحلق رأسي بإزالة الشعر بالكامل، يا لتعاسة موسى الحلاقة إنَّه أميل إلى منشار ناعم، ويا لتعاسة الرأس.

لقد طلب منِّي هوبر أن أرسم النقوش التي عثر عليها في سجل يومياته، وحرص على التخفيف من وزن الأحجار وتصغير حجمها بالنحت بالإزميل وبالتكسير من الظهر، كم شكوت وكرَّرت الشكوى لأنَّنا لم نتمكن لا بالوعود ولا بالتهديد الصريح من شراء عمود يحمل نقشاً كان قد استخرج قبل بضع سنوات من بئر هدّاج الكبير، كما أنَّه لم يسمح لنا أن نطَّلع عليه كي نقوم بنسخه. ويُدعى مالكه الحالي سلامة العايد وهو رجل معاند استطاع التملُّص من أي مطالب أخرى بالفرار المفاجىء إلى الصحراء كي يحضر العشب.

دعانا مضيفنا عبد العزيز العنقري لتناول طعام العشاء وأوحى لنا الخادم محمود بأنَّ الطعام فقد تبل على نحو مريع بالتوابل، كي لا نأكل كثيراً، لا شك في أنَّه كان قد تبَّل للغاية، ولكن على الأقل كان قد أضيف لحم إلى الأرز، وهذا ما لم أتوقعه في حالة هذا البخيل. وعندما سحبت بعدئذٍ بالصدفة حلقة مطاطية ممزقة من الجيب تعرَّضت للسؤال من جانبين ـ مثلما حصل في السابق ـ فيما إذا كانت من جلد خنزير.

الأربعاء في 20 شباط/فبراير 1884م. كان الخطيب عبد الله من شقرا، وإذا لم أخطىء لا ينام ليلاً أمام حجرتنا، وأراد أن يحفنا عند الفجر أي الواحدة والنصف قبل شروق الشمس بلفتة من جانبه، فتلا لمدة 20 دقيقة بصوت عال بعض سور القرآن الكريم، آه حبذا لو كنتَ هادئاً، كم كان بودي أن أكافئك لو أخفيت تقاك. في الساعة الثامنة قصدنا بيت شخص يُدعى طالب العايد لتناول الفطور للمرة الثانية، ومن عنده إلى جار الله لتناول القهوة. بعد

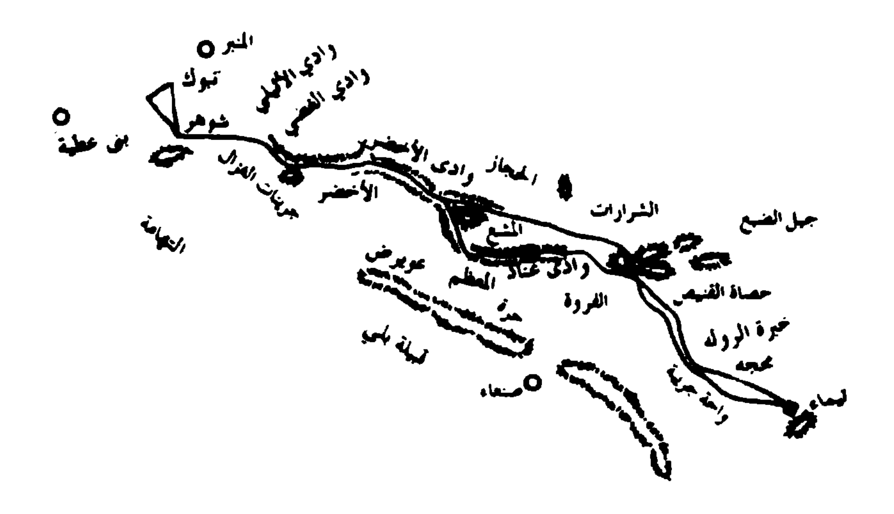
ذلك انفصل هوبر عنَّا ليذهب إلى منزل محمد العتيق، كي يحصل منه على حجر من عتبة بيته لقاء تسليمه ليرتين مجيديتين.

عند الظهيرة عاد نومان بعد غياب خمسة أيَّام ومعه أربعة رجال من قبيلة الفقرا وأربع من الإبل حصل عليها من منطقة الحجر على طريق الحجّ. وعندما ظهر أمامهم لأوَّل مرة لاذوا بالفرار، لأنَّهم خشوا أن يكون من جماعة السلب ومن طلائع الغزو. وقد طلبوا عن كل جمل من تيماء إلى تبوك والعودة عشر ليرات مجيدية (37 ماركاً) وبالإضافة إلى ذلك قميص لكل واحد منهم كبخشيش، ولا نحتاج إلى تبوك سوى جملين، وأما الآخران فإنَّهما لمرشدنا السابق حيلان الذي سيبدأ طريق العودة إلى حائل (حايل) في هذا المساء، ويحمل معه رسائل إلى الأمير وإلى حمود العبيد وعبد الله المسلماني.

الفصل الثاني عشر

الرحلة من تيماء إلى تبوك والعودة

21 شباط/فبراير ـ 6 آذار/مارس 1884م



الخميس 21 شباط/فبراير 1884م. نعتزم اليوم الانطلاق [في الرحلة] إلى تبوك وهذا يعني أنَّ الحال يقتضي أن نقوم بسرعة بتجهيز الحاجات اللازمة للسفر مدة 14 يوماً. إنَّ مضيفنا عبد العزيز العنقري أظهر البخل والمعاندة، ولم يعطنا مؤونة لا أرز(*) ولا قهوة ولا سمن، واقتصر على الدقيق والتمر، ولم نحصل على هذا الأخير إلَّا بعد مشادة وتهديد صريح بأنَّنا سنبلغ الأمير بصنيعه، عندها سينتقم منه، وكما تبيَّن لنا في المساء فقد كان التمر فاسداً وآخذاً في التخمر وقلَّما يصلح للأكل، كما أنَّ التاجر الإيراني سلطان[1] حقير

(*) قال الشيخ محمد بن مهلهل الشعلان من شيوخ الرولة:

عب السبيل من أصفر اللون طه	الشاوري يحلا عن الكبد عله
لولاه يجلا ملة ما نمصه	كيف للأقلط على النار دله
من كيس قرم ضاري ما يدسه	تلقاه مجدوع على جال حله

ولم يعلم أن الأمراض الظاهرة والباطنية كلها من الدخان الشاوري. (المراجع).

(1) انظر ما مرّ عنه سابقاً.

تافه، قبل ثمانية أيَّام أرسل كي يدفع مبلغ سلفاً مقابل كمية التبغ الإيراني (الشاوري) كان بصدد التوريد، إلَّا أنَّه مع الوعود الواهية لم يحضر أحد حتى اليوم، أما آن للشيطان أن يحضر هذا الشيعي الكريه، من أين سأحصل الآن على ما أدخنه؟ آه يا شفق، إنَّني أفكر بك(*).

حوالى الساعة العاشرة كان انطلاقنا ولم نصطحب معنا كثيراً من الأمتعة، وكنَّا خمسة أشخاص أنا وهوبر والخادم محمود ونومان وعواد بن غنيمة شيخ الحجور من الفقرا.

لا شك في أنَّ الفقرا الآخرين كانوا يرغبون بمرافقتنا إلى تبوك، ولكن ما إن أبلغناهم أنَّه لا تتوفر لدينا مواد غذائية فائضة حتى فقدوا الرغبة في السفر، وكان علينا أن نتخلَّى عن المخطط بأن نتوجَّه إلى تبوك بالانحراف شرقاً نحو الطويل (على مسافة يوم من الجوف)، وذلك لأنَّ الشيخ بيَّن لنا أنَّ الفقرا هم أعداء الشرارات، وأنَّ هذا الطريق يمرُّ في منطقتهم، وقال: إنَّ هؤلاء قد «يذبحونه»، ويفضل أن يعود في الحال، وحتى لو ملأنا ذلوله ذهباً فإنَّه لا يذهب معنا، ولذلك سرنا بعدئذٍ باتجاه غربي شمالي غربي وكانت عن يميننا في البداية بقايا سور المدينة القديمة، التي تميل إلى الهضاب الرملية، ونحو الشمال باتجاه السهل مع السبخة. وبعد ساعة مررنا بمنظار بني عطية، وظهرت أمامنا من بعيد سلسلتان جبليتان هما من اليسار فردة ومن اليمين ضبع، عند الساعة الواحدة والنصف تاخمنا خبرا ماء واسعة تُدعى خبرا الرولة. وكانت الأرض دون أي غطاء نباتي والريح تهب عاتية من الغرب ونزلنا حوالى الساعة الثالثة والنصف في «شِفى محجَّة».

الجمعة 22 شباط/فبراير 1884م. بعد شرب فنجان من الشاي انطلقنا مع الشمس، وعبرنا سهل جريدة، وعلى مسافة بعيدة مرَّت أمامنا غزالة بيضاء مثل الثلج، إنَّها بقرة الوحش، حوالى الساعة الحادية عشرة عثرنا على شيء من الكلأ عند عدد من أشجار الطلح التي تشكل بدءاً من هنا طابع طبيعة الحجاز، وعلى وجه السرعة جهزنا خبزاً في الرماد، وكنَّا نبغي متابعة السير.

(*) عواد بن غنيمة شيخ الحجور من قبيلة الفقرا. (المراجع).

وما إن نهض جمل هوبر حتى جمح بسبب أفعى ظهرت في طريقه فهوى عليه هوبر بالعصا وأصابه بالخطأ فوق عينه، عندها قذفت به الذلول بعيداً ووقع على رأسه، فقفزت بسرعة من فوق ذلولي، كي أهتم به، إذ إنَّه فقد الوعي لبعض الوقت وأخذ يشكو من آلام باطنية. وبعد نصف ساعة تبيَّن أنَّه قادر على متابعة السير، وأنَّه بإمكانه امتطاء الذلول، والسير بحذر، إلَّا أنَّني أقنعته بعد ساعة أن ينزل مرَّة أخرى ويستريح. وقد انبطح على بطنه وخففت عنه هذه الوضعية معظم الألم، وفي ظلِّ ريح تتزايد شدّتها اقتربنا من سلسلة جبال فردة وتوجَّهنا إلى الشعيب (ريعة حصات القنبص) الذي يعبر الصخور وفي الطرف الخلفي منه هيأنا المأوى للمبيت في تجويف جانبي، واستفدنا من ساق شجرة يابس غدا لونه أبيض فضياً من أشعة الشمس في إشعال نار ضخمة.

السبت 23 شباط/فبراير 1884م. هل كان السبب الجمر القريب أو كمية القهوة التي احتسيتها، إنَّني وباختصار لم أنم بعمق. في نصف الليل نهضت مرة أخرى، وأشعلت غليوني ثانية، بالجمر وفي الصباح ونحن نجهز الخبز للفطور قام الشيخ عواد بحلب ناقته لنا، بعد الفطور سرنا لمدة ساعتين ونصف في سهل فقير بالغطاء النباتي وكانت الأرض مزروعة بأحجار غريبة، ها هي قطع مثل خشب الجوز المعرق، ثم كسرات سوداء مخروطية الشكل، وفي جزء منها مثقوبة، وفيما بعد أكوام من ألواح الحجر الرملي، تعرت عنها قضبان أو بالأحرى خوابير، وهذه الأخيرة أطلق عليها عواد اسم «دود أيُّوب»[1] لأنَّ [النبي] أيُّوب السعيد بشفائه نفض هنا في الصحراء الدود عن جسده فتحجرت الديدان فيما بعد. وفي أعلى نقطة ينفتح المجال لمنظر يمتد بعيداً.

أمامنا وباتجاه غربي تقع سلسلة العويرض [حرة العويرض]، وعن اليمين باتجاه الشمال تجاور قمة «عناز» ثم رؤوس «الأثلاب»، كما ترتفع على مسافة أبعد من الخلفية تماماً بلون أزرق فاتح قمم وتر وشيبان وحرة بني عطية

(1) انظر التفاصيل أدناه (يومية 3 آذار/مارس) يجب أن يكون لدى أيُّوب المبتلى الكثير من هذه الحشرات القادرة على التكاثر.

المسننة، وعندما عدنا للانطلاق ثانية نبهنا الشيخ عواد على آثار غارة تعرض لها الفقرا قبل خمسة أيَّام من جانب بني صخر والشرارات. وعند النزول في شعيب[1] أعناد رمي للدواب في البداية علف جيد ولا شيء بعدئذٍ. ودفعة واحدة لاحظنا، وقد اعترانا الرعب التام أنَّ الأرض امتلأت خيولاً وجمالاً، وأخذ عواد يقهقه قهقهة عالية ويقول: مضى زمن طويل، ها هو عنيبر وقد انسحب وأخذ يتكلم برضى واضح عن مجرى الأمور على الوجه التالي: قبل ما يزيد عن شهرين كان عنيبر (عبد أمير حائل (حايل) وجابي الضرائب لديه) بالاشتراك مع الشيخ الكبير محمد بن عطية[2] ـ بعد أن انتهت مهمتهم لدى القبائل الغربية ـ في طريق العودة إلى موطنهم وعددهم الكامل اثنا عشر رجلاً عند غروب الشمس كانوا قد فرغوا من الطبخ في الأرض المسالمة وإذا بخيَّالين وثلاثة، وفي الحال أقبل عدد أكبر من الخيَّالة على ظهر خيولهم، وقد أتوا عبر المنحدر الرملي موزعين شاهرين بنادقهم، ولم يتوفر للمهاجمين الوقت كي يجهزوا أسلحتهم للإطلاق، عندها ناداهم عبطان، شيخ العيسى من بني صخر: قفوا، ها هم بنو صخر والفريجات بجانب بعض، وإذا ما قتلتم واحداً من خيولنا فإنَّكم ستضيعون بأجمعكم «بارد؟ بارد؟»[3]. وفي إطار التقدير الحقيقي للوضع، نزل في الحال إلى الميدان 35 رجلاً على ظهور جيادهم، و50 رجلاً على الإبل الذلول وألقى المباغتون الأسلحة وصاحوا «بارد». وعادوا وراحة الأيدي التي تحمل الأسلحة المنكسة ممدودة إلى الأمام. وفي البداية أخذت منهم الأسلحة وربطت الأكياس المملوءة بالفضة. هنا بدأ الجزء الأصعب من الصفقة. خلال ساعتين ونصف عدّوا نقود الضريبة بالكامل حتى آخر ليرة مجيدية، وبلغت 7000 ليرة مجيدية صحيحة، وأما توزيع بقية الغنيمة فتصرفوا فيه على نحو إجمالي ما الذي يجب أن يفعله القائد عبطان للابتهاج بعباءة عُنيبر القرمزية، لم يكن بحاجة لإخفائها مثل عخان(*)، بل كان في وسعه في الحال أن يلبسها بذاته مبتسماً.

(1) انظر ما مرّ عن ذلك سابقاً.

(2) انظر الجزء الأول وأول هذا الجزء.

(3) بمعنى التخلي عن المجابهة.

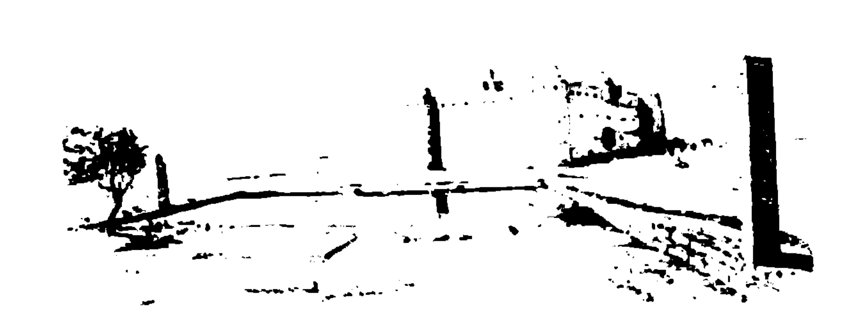
ونتيجة لحمأة الجو فقد شملت المشاورات للتفاصيل وحتى القميص، وأشير باستهزاء إلى قلعة المعظم للحجّاج، ويجدر بهم أن يجهزوا أنفسهم مجدداً من الأتراك ويحصلوا من هناك على القمصان والمعاطف وغيرها من الحاجيات قبل بضعة أسابيع ونحن في موقق كان بوسعنا التأكد بأم أعيننا من أنَّ التعويض المتاح كان ضخماً. تابعنا سيرنا بسرعة نسبياً منشرحين بما سمعناه من الحكاية وبلغت سرعتنا 7500 خطوة في الساعة، ونتيجة للسير الخبب الذي اتبعناه تزحزح الرحل أو الشداد إلى الخلف كثيراً وتطلب الأمر أن أنزل عن ذلولي وأعيد رحلها (شدادها) من جديد، وقد هبَّت الريح عاصفة عندما كنَّا نتقدَّم بين الجبال الركامية الجرداء، وعندما بلغنا المسير امتدت أمامنا صورة بديعة ذات أطيار، فقد كان المنظر يمتد إلى السهل عبر الشعيب الممتلىء بالرمال المتحركة حيث تظهر قلعة المعظم للحجَّاج مع بركتها وشجرة الطلح الوحيدة.

بعد نصف ساعة نزلنا بجانب القلعة، ووقفنا خلف الجدران حماية من العاصفة العاتية، وبالطبع بذلنا مرة أخرى جهداً كي تدخل الإبل إلى الفناء الداخلي من فوق الأدراج العالية، وكان مد العلف لها أفضل وسيلة لاجتذابها، واستقبلنا آمر القلعة الخالية حامية عسكرية ويُدعى سي محمد أبو عمر الشرقاوي الفاسي إنَّه رجل عجوز لطيف مغربي من جماعة عبد القادر(**) مثل معظم حراس القلاع على طريق الحجّ، وله زوجتان وولدان وصهر ويُضاف إليهم رجل يُدعى أحمد، وقُدم تمر وقهوة للترحيب. وفيما بعد حوالى المساء أحضر الأرز. وكانت القلعة، إذا ما صحت قراءتي، قد شيّدت في العام 1031 للهجرة الموافق 1622م، وهي تشكل مربعاً منتظماً

(*) العهد القديم، يشوع 7/ 21 «رأيت في الغنيمة رداء شنعارياً نفيساً ومائتي شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً وأخذتها وها هي مطمورة في الأرض في وسط خيمتي والفضة تحتها. (المترجم).

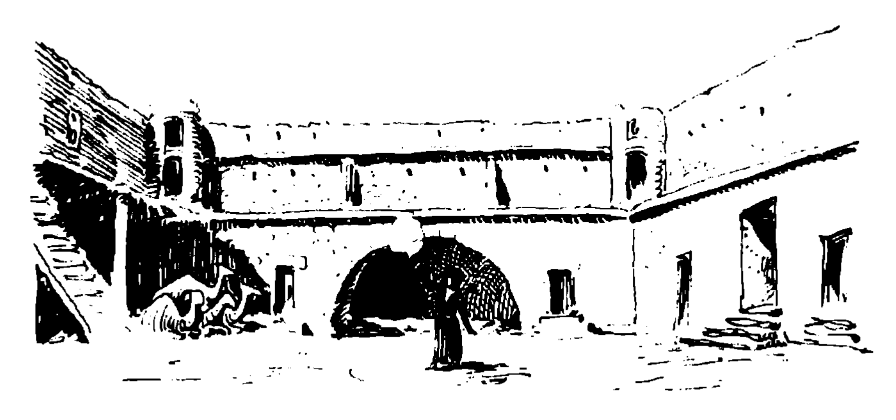
(**) يقصد الأمير عبد القادر الجزائري (1808 ـ 1883م) الذي قاد الثورة ضد الفرنسيين في الجزائر، وعاش بعد 1847م في المنفى واستقر مع حاشيته في دمشق وعاش فيها حتى وفاته (المترجم).

مع أبراج في الزوايا انهارت قبابها جزئياً. ويغلق المدخل بباب ثقيل ملبَّس بالحديد، وفي الفناء قاعتان ذات أقواس ثم عدَّة غرف مغلقة واصطبل مفتوح، ويصعد درج حجري إلى محيط الطابق الأوَّل وهو يضمّ الحريم والمطبخ. كما يصل ممشى ضيِّق تماماً ما بين كل اثنين من الأبراج في الزوايا ويعتبر ممشى دفاعياً. وعلى الجانب الجنوبي ترتفع شرفة تستخدم كمرصد، وتمتد خارج القلعة بركة بطول حوالى 60م ويقوم على طرفها عمودان مربعان عليهما نقوش متآكلة، وعند الزاوية الجنوبية الغربية شجرة طلح، ونتيجة للأمطار التي تساقطت قبل شهر فإنَّ البركة مليئة هذه المرة بالماء حتى الحافة في حين أنَّه أثناء عودة قافلة الحجّ في العام الماضي لم تكن فيها قطرة ماء.



قلعة المعظم

كان العلف لإبلنا مكوماً في الفناء، وما إن تناولنا طعام العشاء وغابت الشمس لتوها حتى ورد الخبر بأنَّ ضابطاً عثمانياً يتولَّى مهمة التفتيش على القلاع الواقعة على طريق الحجّ قد ظهر من بعيد وهو عائد من العلا وسيسافر أيضاً إلى تبوك. وللاحتفال الأوَّل بدخوله المتوقع عبأ أحمد عدداً من المسدسات القديمة، وكما يبدو فإنَّه يفتقر إلى الإعداد العسكري، وخوفاً من أن ترتد الطلقات نحو الخلف فقد أطلقها في الجو وأشاح بوجهه جانباً.



فناء قلعة المعظم

بعد وقت قليل ظهر الضابط في الفناء وهو حسن آغا آمر قلعتي تبوك وزمرد، وهو مثل آمري القلاع الواقعة على طريق الحجّ من دمشق إلى مكّة له بيت مع الأسرة في دمشق، وهو يتوجَّه إلى هناك الآن إلى أن يأتي موسم الحجّ القادم بعد ستة أشهر، من حيث الوجه يشبه يود زوس **Yud Süss** حسبما كنت أرسمه وأنا في سنّ الصبا قلَّما خصنا بالتحية، لأنَّنا لم نعتبر أنّه من الضروري أن ننهض أمامه واقفين. وقد جلس متباهياً نوعاً ما إلَّا أنَّه صعد بعد حين مع رجاله الخمسة إلى الطابق العلوي، حيث هيأوا له طعاماً وقهوة، وبقي جواده في الفناء، وهو منظر لم نستمتع به منذ وقت طويل، وظلَّت الإبل في الخارج. كان من بين رجاله شخص من طنجة يُدعى عبد السلام، وكان قد عمل في شقّ قناة السويس. إكراماً لنا أخذ يقص علينا عن الزمن الذهبي عندما كان في بور سعيد ويكسب يومياً خمسة وسبعة فرنكات ويستعمل في حديثه خليطاً من الكلمات الإسبانية والفرنسية يصعب فهمها.

الأحد 24 شباط/فبراير 1884م. في الصباح قبل شروق الشمس وما إن شربت القهوة حتى انطلقت قافلتنا، في المقدمة الخيَّال على ظهر جواده ثم نحن مع ركابنا الخمس، وفي الخلف الجنود الستة مع سبع ركاب. وبعد مرور بعض الوقت تعرَّفنا على «درب الحجّ»، وهو يتكوَّن من عدد متباين من الدروب المطروقة كثيراً، ربَّما كانت 50 أو ما يزيد وهي تتلوى متوازية عبر السهل الذي تنمو فيه أشجار الطلح. بعد ساعتين، وفي قاع (وادي) الرُّمة

ظهرت للعيان من بعيد بعض النقاط السوداء إنَّهم عرب مع بغال(*) وغنم، وهم مزائدة من مساكين بني عطية بينهم رجل أعمى في وجهه مرض مريع سبَّب له تشويهاً خبيثاً، لكنَّه رغم ذلك كان يدخن نشواناً غليوناً من فمه المتآكل، نزلنا على الشيخ عايد أبو فحيمان وكان بود الخادم محمود أن يشتري منهم السمن اللازم، إلَّا أنَّهم لم يرغبوا الاستغناء عنه قائلين: إنَّه ليس بحوزتهم سوى القليل منه، وعندما عرض عليهم محمود طبقاً من التبغ بالمقابل، لان موقفهم، ولم يستطيعوا المقاومة. ولما كان قد جرى الذبح من أجلنا، فقد استمرت الاستراحة طويلاً من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة والنصف. ومن هنا تحركنا باتجاه الشمال في سير بطيء، إلَّا أنَّنا استجبنا بعد ساعة لإلحاح مرافقينا، ودخلنا نجع بدو آخرين في قاع واد(1) لم يضربوا خيامهم إلَّا منذ الأمس، إنَّهم من السعيِّد وهم أيضاً من بني عطية وشيخهم سالم الأعرج.

قبل يومين فقط [تعرَّضوا] للغزو ولم ينجوا منه إلَّا بشقِّ الأنفس. ونظراً لأنَّ جمالنا كانت قد لطخت بخط عريض من الدم على طول الجانب الأيمن من العنق وبخط آخر من الخلف للتذكير بأنَّ المضيف السابق قد ذبح لنا، فإنَّ هؤلاء المساكين اعتقدوا أيضاً أنَّ عليهم أن يذبحوا من أجلنا، وكان استعمال الخط الطويل متداولاً لدى عرب الغرب يظهر في أنماط متباينة ويتخذ في الوقت ذاته رمزاً لكل قبيلة من القبائل.

شكا هوبر من آلام في الظهر، ولهذا تخلينا في هذا اليوم عن متابعة السفر وصعدت بمعية الشيخ عواد هضبة قال: إنَّ اسمها طوِّيل، وفي الطريق التقطت بعض الخنافس المبرقعة بالأبيض والأسود، ووضعتها في الحال في الكحول، وقد أحضر طعام العشاء قبل غروب الشمس، ولدى السعيِّد نموذجان من مهباج البن الخشبي، وكان أحد البدو يدخن من رأس غليون خشبي لم يتبقَ له منه سوى النصف.

في خيمة شيخ هليّل، حيث نزل حسن آغا مع رجاله توضح بعد حين من

(*) بل هي حمير إذ لا تعرف البغال بوادي الجزيرة العربية. (المراجع).

(1) قاع الرُّمة ويذكر هِسّ أنّه ذو أرض طينية خالٍ من الحجارة والرمل وبلا غطاء نباتي.

مجرى الحديث، أنَّ هليّل يبتز مرشدنا نومان، وكذلك الشيخ عواد من الفقرا في معرفة الأماكن وأسمائها، ولكن غمزة عين كانت كافية للتفاهم مع هوبر ومن دون أي تكلُّف أبدي هليّل استعداده على الفور أن يرافقنا إلى تبوك وفي العودة منها إلى تيماء.

الاثنين 25 شباط/فبراير 1884م. في الساعة السادسة والنصف ومن دون فطور امتطينا ركائبنا وأخذت قافلتنا تزداد وجاهة فأضيف إليها عدا عن الشيخ هليّل أربعة خراف وزوج من الماعز تزود بهم الضابط حسن آغا من عند مضيفنا وفيما إذا دفع نقوداً بالمقابل أو حصل عليها بالمجان (بلاش) أو بالغصب، فهذا أمر لم يكن في وسعنا معرفته، وإذا ما سارت الأمور على هذه الشاكلة ستنشأ بعد حين ورطة، بعد ساعة مررنا بصخرة خنصر في وادي الصافي وكانت عن يميننا ويسارنا حجارة رملية صفراء وحمراء وكان حوض الوادي مغطًّى بالمقذوفات البركانية، وفي النهاية ممتلئاً تماماً بفيض قديم من اللابة وكانت شقوقها وقطعها الوعرة تشكّل عقبات عصيّة على الركاب والدواب وبعد أن ملأنا القرب من باب الحيطة من نقب ماء، وشرعنا في نزول منحدر (لحف) فيض اللابة ظهرت عن اليمين بركة قديمة امتلأت حالياً بالرمل، وقد شيّد جدار اعتراضي يربط بين جانبي الوادي فذكره هليّل باسم جسر. كاد أن ينتصف النهار حتى تيسر لنا جمع شيء من العلف والحطب، وقد جهزنا على وجه السرعة خبزاً وأكلنا بعض التمر. إنَّ رداءة الدقيق والتمر الفاسد تماماً، وهو أكثر رداءة من تمر العنقري، جعلت حالتي على درجة من السوء ممَّا اضطرني إلى النزول ثلاث مرات عن ظهر الذلول خلال فترة بعد الظهر بحيث تقيأت كل الوخم من معدتي، رغم أنَّنا ـ إذا ما غضضنا النظر عن فيض اللابة ـ قد سرنا طوال اليوم بسرعة تصل حتى 7200 خطوة في الساعة، إلّا أنَّ الليل كان قد حلَّ عندما نزلنا عند قلعة الأخضر[1].

(1) يرد في النقش الخاص بالمبنى بجانب الباب بأنَّ الفراغ من بناء القلعة كان في العام 938هـ/ 1531/ 1532م.



قلعة الأخضر

نظراً لأنَّ حالتي ما زالت تحت وطأة سدّ النفس من إجهادات التقيؤ، لم يصعب عليَّ التخلي عن طعام العشاء، لقد شربت بضعة أكواب من الشاي، واستلقيت للنوم. وأنصت قليلاً، فالحديث كان يدور بلهجة دمشقية خالصة وحصل محمود من حسن آغا على تمباك (تبغ) من نراجيلنا. هطل قليل من المطر أثناء الليل.

الثلاثاء في 26 شباط/فبراير 1884م. في الساعة السابعة صباحاً كان الركوب والسير، وممَّا أثار استغرابي أنَّ الجماعة قد اغتسلوا عدة مرات ليلاً وانضمّ إلى حسن آغا في طريقه إلى دمشق ابنه كمال. وبعد ساعة كانت الاستراحة للفطور، في حين أنَّ المجموعة الرئيسية قد استمرت في مسيرها صعدنا نحن هضبة قرينات الغزال، وقد استمتعنا من فوقها بمنظر بعيد في الشمال الغربي يرتفع في السهل جبل منفصل يُدعى المنبر. وينظر إليه كموقع متقدم لسلسلة جبال الشرورة، وتوفر الجبال في الغرب منظراً رائعاً يحمل اثنان منهما، هما شيبان ووتار، حقولاً ثلجية ضخمة، ورغم بدء تساقط الرذاذ لم أشأ التلكؤ في رسم المنظر من الأعلى، بعد ذلك حاولنا الالتحاق بالقافلة على طريق أقرب، ولكن أكثر وعورة، وكان اللقاء مع جماعتنا دون توقع فقد سلكنا طريقاً جانبياً، عندها أناخ الشيخ هليّل الإبل، وجهز الجميع الأسلحة ضد العدو الموهوم. وانقلب الخوف صفاءً وضحكاً، حوالى الساعة الثالثة ضربنا الخيام في وادي غضى الذي اكتسب اسمه من غناه بأشجار الغضا.

الأربعاء في 27 شباط/فبراير 1884م. في الساعة السادسة مع شروق الشمس انطلقنا، وكانت كسرات حجارة بجميع الألوان تغطي سطح الأرض، وبعد ساعة ونصف نزلنا في وادي الأثل أو الأثالي، وهو ينحدر من مجاري شيبان ووتار ولايه ويبلغ عمق حوض الساقية الجاف حالياً ما بين 3 ـ 9م يمتلىء بحصى المور المختلطة برمل رمادي مجروف، وتنتصب على الضفاف أشجار الأثل وسواها من الشجيرات، بعد أن شبعت الدواب تابعنا سيرنا عبر السهل باتجاه شمالي غربي، وسرنا عبر نجع قديم يغطي أرضه بعر الإبل، وسأل هوبر هليّل لمن يعود هذا النجع، هل هو لكم؟ فأجاب: نعم إنَّه لنا.

حوالى الساعة التاسعة اقتربنا من سلسلة مرتفعات مسطحة تُدعى شوهر، وتعلوها هضبة مخروطية، وقد شاهدت باندهاش مجموعة من البيوت الحجرية الصغيرة[1]، ويجب أن لا تكون آثاراً لمدينة بل أضرحة، ورغم مناقضة هوبر عبرت عن التخمين بأنَّ شوهر كانت مقبرة لتبوك الواقعة على مسافة ثلاث حتى أربع ساعات شمالاً.

بعد أن صعدنا المرتفع صار بإمكاننا أن نرى بوضوح تام أنَّ البيوت السكنية الموهومة، لا يمكن لصغرها أن تشكّل مسكناً بل كانت أبراجاً متواضعة للأضرحة ويتراوح ارتفاعها ما بين مترين وثلاثة أمتار، وهي مبعثرة على ألسنة هضاب ضيِّقة، دون أي نظام، وتتوسط الأرض التي تتراوح مساحتها ما بين 3 حتى 4كم^2 الهضبة المدوَّرة، ويبلغ عدد بيوت الأضرحة على الأقل 200 قطعة وتنقسم الأحجار الرملية المستعملة في البناء بذاتها إلى ألواح قلَّما تطلبت النحت، وهي منضدة تنضيداً، فوق بعضها دون ملاط، وتتخذ الأبراج جميعها تقريباً شكل مربع، والقليل منها مدوَّر الشكل، والبعض منها يظهر على شكل غرفة بارتفاع متر واحد، وقد سقفت في الأعلى بألواح أكبر، وجرى توسيع البعض ببناء حتى خمس حجرات، وعندما قمنا بأعمال حفر سطحية لم نعثر على عظام، ولا على ملحقات

---

(1) انظر أدناه ص444، مدافن (أضرحة) تيماء.

القبور. كما أنَّه لا توجد نقوش أو أية أدلَّة تفيد في الكشف عن [طبيعتها]. وهي تشبه تماماً ما يُدعى بالنواميس المعروفة في شبه جزيرة سيناء وأعتقد أنَّني وقعت في الغرب على بقايا سور مترابط، وكانت تقوم هناك أيضاً كثير من البيوت الحجرية التي بنيت فوق الكومة، وبينها كمية من الكسرات الفخارية الحمراء.

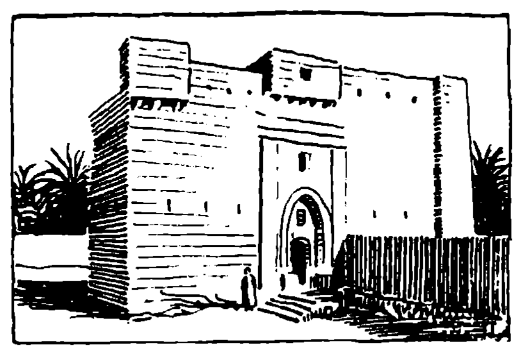
من هنا ركبنا وسرنا في خطوات سريعة نحو تبوك التي بانت من بعيد منذ الصباح عن اليمين تنتصب أمامنا في السهل مجموعة العريق الصخرية، وعن اليسار غابة نخيل، وما بينهما قلعة الحجَّاج مع كومة من الأكواخ الطينية قلَّما تطرق إليها الخراب، وفي الشمال جبل المنبر.

أمَّا أنَّ تبوك[1] كانت تتمتع بمكانة في التاريخ العربي القديم لا يُستهان بها، فهذا أمر لا يمكن تلمسه من خلال الوضع التعيس للبيوت الطينية التي تبلغ حوالى الخمسين مهجورة تماماً، ولم يتبقَ أحد من سكَّان المدينة، وفيما عدا حامية القلعة التي تبلغ خمسة جنود لا يوجد من عالم الأحياء سوى بعض الكلاب التي تثير الشفقة وليس لواحد منها سوى ثلاثة أرجل، إذ إنَّه فقد الرجل الرابعة في فخ للضباع، أثناء أوقات الطعام تتجمع قطط شبه جائعة ومثيرة للشفقة وكانت بعض الديكة البعيدة عن الأنظار والمحفوفة بحماية جديدة تعلن الفجر بصياحها.

حسبما يرد في النقش الذي يعلو مدخل القلعة بلونه الأزرق على لوح من القيشاني، فإنَّ قلعة الحجَّاج شيّدت أو جددت في العام 1064هـ/ 1659م، وتقع وسط بستان نخيل مهمل كلياً بجانب بركة تستمد ماءها من عين طبيعية، وتبعاً لما يؤكده خادمنا محمود، فإنَّ الماء غير صحي، وهو نافع للنساء فقط، وبالمقابل فإنَّه يوجد بئر في القلعة ذو ماء عذب.

---

(1) يذكر ياقوت 2/ 15، «أنَّ ابن عريض اليهودي قد طوى بئر تبوك لأنَّها كانت تنطمّ في كل وقت» أي إنها تتهدم.



قلعة تبوك

عندما نزلنا في القلعة استقبلنا القائد الحالي محمد آغا بلطف، واصطحبنا إلى الداخل، لقد دار الحديث أثناء تناول القهوة المعتادة، وباقترابنا من العالم شبه المتحضر، عن أحداث في دمشق وفي شرق الأردن ومعان وعند ذكر وادي موسى (البتراء) بين الحين والآخر ولا يبعد كثيراً من هنا لم يكن بوسعي أن أخفي إلَّا بشقّ الأنفس شوقي إلى العاصمة القديمة لأعزائي الأنباط، وأن أطرح بحصافة السؤال، إذا كان بالإمكان القيام بجولة إلى هناك عبر منطقة الحويطات المعادين، برفقة نومان من شمّر وعواد من الفقرا وهليّل من بني عطية، وأخبرني آمر تبوك أنَّه قبل بضعة أيَّام قام الشيخ الكبير محمد بن عطية[1] بغزوة ناجحة على فرع من الحويطات تعرَّضوا أثناءها للسلب الكامل، ولم يفر منهم سوى ستة فرسان، وهذا المصير نفسه يمكن أن يحل بنا عند أي اشتباك من جانب الحويطات التواقين للثأر.

في المساء عزف المغربي عبد السلام الموسيقى على قيثارته المغربية، وغنى على أنغامها أغاني مؤثرة، لم أسمع مثلها منذ وقت بعيد، وهي على عكس الأغاني البدوية الرتيبة الحزينة تكاد تعكس وقعاً غريباً.

الخميس 28 شباط/فبراير 1884م. كان من المؤمل في هذا اليوم أن نزور آثار مدينة تقع على مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات إلى الغرب من تبوك ولكن عندما هبَّت ريح عاتية بالغة البرودة، قررنا العزوف عن هذا المقصد وأن نعمد إلى تبييض يومياتنا. ولما كان حسن آغا يعتزم متابعة طريقه مع رجاله إلى

(1) انظر الجزء الأول.

دمشق في الغد كتبنا رسالة سيحملها معه موجَّهة إلى محمد سعيد باشا رئيس موكب الحجّ من دمشق إلى مكَّة[1]، نشكره فيها على استقبالنا ضيوفاً في القلاع، وقد كتبت على بطاقة تعيسة، لأنَّه ينبغي أن أستعمل الورق بحرص زائد، أخبرت فيها بشارة أصغر (الإداري في بيت نائب القنصل الألماني بدمشق لُوتيكه Lütticke) بأنَّني ما زلت على قيد الحياة، وأقيم حالياً في تبوك، وبحالة جيدة، وقد سلَّمت البطاقة بدقة إلى العنوان الموجهة إليه حسبما علمت بعد ربع سنة.

الجمعة في 29 شباط/فبراير 1884م. عندمات تراجعت شدَّة الرياح والمطر بعد الظهر، توجَّهنا إلى الهضبة الصخرية العريقة المذكورة أعلاه ولم يتيسر لنا اكتشاف أي أثر يدلُّ على أنَّ المدينة السابقة لتبوك الحالية كانت تقع هنا. ووجدت على الصخور بعض النقوش العديمة الأهمية وإلى جانبها صورة رجل علقت عليه جميع أنواع الأسلحة وعلى نحو أبعد فتاة محلولة الشعر مع مقص عن اليمين واليسار.

على مسافة بعيدة غرباً (بزاوية 14° جنوباً) شاهدنا من تهامة جبلاً ثلجياً سامقاً يشعُّ من بعيد وذكر هليّل أنَّ اسمه الدبغ.

أنذرتنا عاصفة مطرية تجتاح الجنوب بضرورة العودة إلى القلعة وما إن انتهى طعام العشاء الذي أحضر في ضوء النهار حتى أظلمت السماء فجأة، وانهمر مطر غزير مرفوقاً ببرق ورعد، وكان بوسعنا أن نتحمل بكل هدوء انهمار المطر، الذي استمر ساعة ونصف قابعين في قاعة مفتوحة على الفناء ذات أقواس عالية.

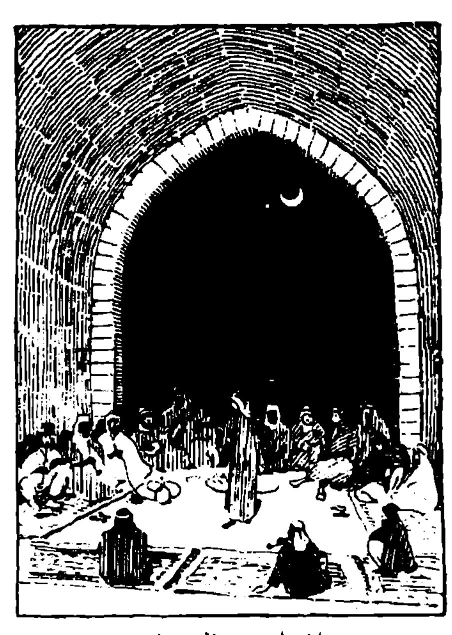
ولما كانت السماء قد أصبحت صافية تماماً بعد انحسار العاصفة المطرية اعتزم هوبر أن لا يفوِّت حساب عبور الزهرة خلف القمر المحسوب سلفاً والوارد في الغرب في الكتاب السنوي لمكتب الأطوال Annuaire du Bureau des Longitudes أو في تقويم الملاحة Nautical Almanach، وكانت قد جهزت الأدوات وأخذ هوبر ينظر عبر المزواة (تيودوليت)، وعهد إليَّ بمراقبة مقياس

---

(1) الاسم الرسمي محمد سعيد باشا محافظ الحجّ وكيلار أميني.

الزمن (خرونومتر)، ونبهني إلى أنَّه ينبغي أن أسجل الثانية ببالغ الدقة عندما يصيح «توب Top» كعلامة على حدوث تماس بين الهلال والزهرة. كنت فخوراً بالوظيفة التي أسندت إليَّ، ولكن في الوقت ذاته كنت أتابع بتخوف وتحرق، أنا ذاك الفلكي التعيس، ودون هوادة عقرب الثواني، وحسب رأيي كانت النصف ساعة، التي لم يجرؤ خلالها أفراد الجماعة أن ينبسوا بكلمة واحدة، عملاً يثير الأعصاب تماماً، واستمر هذا الوضع فاتحنا هوبر بأنَّ الكوكب لم يمر بالقمر بل من تحته، وهكذا فإنَّ السيِّدة الزهرة في تبوك اعتبرتنا مجانين.

قررنا أن ننظم سهرة فكاهية (مسامرة) من باب التعويض، فأخذ المغربي القيثارة في يده، وشرع يعزف ألحاناً وأغاني من موطنه، وكان على شخص آخر ـ قد أشاح بوجهه من قبل ـ أن يعثر على أشياء مخبأة، مثل مسبحة أو قطعة نقود، وما شابه ذلك. وفي ظلِّ تفاهم صامت مع الشخص الذي يفتش عن الأشياء المخبأة كان المغربي يعزف بما يتناسب مع الإشارة، فيسرع بوتيرة العزف عند الاقتراب ممَّا هو مخبأ وبالطبع حاول المرافقون البدو كشف مفتاح حل اللغز دون جدوى من خلال تصرفات وحركات المشاركين في اللعب، وتزايد اندهاشهم وانزعاجهم عندما قمت وهوبر بقراءة أفكارهم بطريقة معهودة، وطلب الخادم محمود ذراعه ذراعه وراء ظهره بإحكام، ثم فكَّ الحبال تحت سترة الفرو التي تحف به، بعدئذٍ انتحيت جانباً، وأحضرت


المسامرة في تبوك

من خرجي طبقاً من الصفيح ولونته في الأسفل بالأسود بدخان شمعة متقدة، وناديت فتى من الحلقة، وكان ينظر إليَّ بجدية نظرات ثابتة ويقلد بدقة جميع

الحركات التي تعمل أمامه. وقام بطلاء وجهه باللون الأسود بيديه مرفوقاً بضحك المشاهدين الزائد وشارك به الفتى أيضاً، وبالطبع بعد وضع مرآة أمام وجهه.

إنَّ الألعاب الفنية، التي لم تتوضح لمرافقينا من البدو، خلقت لديهم الشعور بالسذاجة، ووخزهم الفضول هذا إذا لم يكن قد أثار في السرّ الظنون بسحر شيطاني، لذلك وجدت أنَّه من المستحسن في الختام أن لا أدع حل اللغز محجوباً عنهم.

السبت في 1 آذار/مارس 1884م. أُتيحت لي الفرصة بأن أحصل على رأس غليون نحت من الحجر، وذكر لي أنَّه يُدعى حجر الهلال، ويُقال: إنَّه متوفر في تهامة.

لقد بدأنا اليوم طريق العودة إلى تيماء، وبعد السير لمدة ساعة تامة باتجاه الجنوب استرحنا عند عين رائس حيث شكَّلت مجموعة من أشجار الأثل متشابكة على نحو طريف فوق بركتي الماء تداخلاً جذاباً لم أجد أثناء رحلتي العربية أبدع منه، وعلى مقربة منها كانت بعض أشجار النخيل وبقايا قليلة من أحجار منحوتة، ومن هنا توجَّهنا ثانية نحو مدينة الأموات شوهر. لم تقدم أعمال الحفر في اثنين من الأبراج حتى الصخرة الكبيرة أي دليل بشأن زمن حجرات الدفن أو أصلها. وفيما عدا بعض بقايا العظام العديمة الأهمية، لم نقع في أي موضع إلَّا على آثار الضباع وأفعالها، في حين كانت عواصف مطرية مختلفة تترامى مع بعضها في الجنوب عبر جبل الدباسيات، الذي تقع شوهر على بروزاته الشمالية، تابعنا سيرنا باتجاه الشرق عبر وادي الأثالي في وادي الغضى بالقرب من مضرب خيامنا يوم 26 فبراير/شباط بحيث نقضي الليل فيه. وما إن استلقيت عند طرف حرش سجادتي التي مددتها حتى اندفعت العاصفة المطرية مدفوعة برياح غربية، ونفذ البلل إلى جسدي مخترقاً العباءة والقميص، وكان همّي الوحيد أن تظل الأمتعة مع السجادة جافة، وعندما مضى الأسوأ مددت سريري على الأرض المبللة

ونمت بعد أن أكلت بعض حبات التمر، لا شك في أنَّها أمطرت ثانية فيما بعد، لكن لم تكن بقوَّة المطر الأول، وكان أقل إزعاجاً لنا.



أشجار الأثل

الأحد في 2 آذار/مارس 1884م. قبل انبلاج الفجر أيقظنا هليّل على خبر مفاده أنَّه سمع من جهة الجنوب رغاء إبل، وعلى الفور امتطى ذلوله ليستطلع، وبعد فترة قصيرة أبلغنا بأنَّهم جماعته، أي بنو عطية وقد انطلقوا ليلاً من الأخضر، ونزلوا هنا، وكان علينا بالطبع أن نقبل الاستضافة التي عرضت علينا وأن نتوجَّه إلى النجع، بينما كنَّا نسير عبر الحرش كان يتزايد ظهور الإبل، وحسب بيانات هَلَيّل فإنَّ لديهم 1200 رأس من الإبل. وأثناء الطريق جرى حلب النوق بناءً على طلبه، وقدَّم لنا حليب طازج، وحتى وصولنا إلى وسط النجع كانت النساء قد نصبن العديد من الخيام ونزلنا في أفضل خيمة وصلناها، كي نتخلص من الازدحام، وكان همّي الأوّل أن أُبدل قميصي، وأنشره فوق شجيرة شوكية في الريح والشمس. لماذا[1]. رويداً رويداً تدفق كثير من الناس نحونا كي يرحبوا بنا، أو على الأقل يرونا، وكان عليَّ أن

---

(1) انظر الجزء الأول.

أعرض تكراراً صورة مفرج من كرّاس يومياتي[1]، لأنَّهم جميعاً سمعوا بها وعبَّروا عن رغبتهم في رؤيتها. حوالى الظهيرة وصلت خيمة شيخ القبيلة وبعدها مباشرة وصل الشيخ بذاته وهو صقر أبو علي أخو محمد، ولم أعلم إلَّا هنا، أنَّ حامل هذا اللقب ليس محمد بن عطية حسبما قيل لي في السابق، رغم أنَّ محمداً يمثل القبيلة تجاه الآخرين باعتباره الأكثر لباقة بين أفرادها، ولما كان محمد صديقنا من السابق[2] فقد أسرع نحو تبوك بحيث يحضرنا من هناك حسبما علمنا هنا، وكان علينا بالطبع أن نتحول إلى خيمة صقر، بينما كنت أنظر إلى دوابنا اكتشفت أمراً محزناً، فقد قُطع من سرج كل منها حزام جلدي والحلقة النحاسية وسرقت كلها، وجاء الخبر محرجاً لصقر لا بل مخجلاً حسب وصفه، وفي هذا الإطار من يستطيع أن يكشف الفاعل، ومن يريد أن يفشي به، ومع المساء أعلن حنين الإبل عن عودة الإبل المبعثرة.

لقد شاهدت باستغراب غُرابَيْن على عنق وسنام الإبل وهما يدأبان على الحركة جيئة وذهاباً، وقد أفادوني أنَّ الغربان، ولكن أيضاً السنونو، ترافق قطعان الإبل الكبيرة، وتلتقط من الدواب القرادات المليئة بالدم بحجم حبة الجوز وتسحبها من الجلد بمنقارها القوي[3].

قام هليّل بالذبح على شرف الضيوف، ولو عرف لكان ذلك في الوقت ذاته احتفاءً بعيد ميلاد نولدكه Nüldeke، ولم يكن بالإمكان تأمين الخبز والأرز ولذلك أحضرت قطع اللحم المسلوق في قدر دون مرق، وعندما أردت أن أستسلم للراحة قدّمت لنا القهوة للمرة الثانية، ممَّا جعلني بطبيعة الحال أفقد القدرة على النوم، رغم حلول الليل استمرت الحياة في النجع ناشطة جداً، وظل الحلب مستمراً دون توقف، وإلى اليمين واليسار من خيمتنا كانت ترتفع أصوات اجترار وتجشؤ الإبل وتتعزز بالقرقرة الناجمة عن بلع العلف الأخضر، لقد تعوَّدت تدريجياً على موسيقى الصحراء، وكنت بصدد النوم، وربَّما كان

---

(1) انظر الجزء الأول.

(2) انظر الجزء الأول.

(3) انظر ما مرّ عن القراد في الجزء الأول، ويتناول الشعراء العرب هذا العمل المخلص الذي يؤدِّيه الغراب.

حوالى منتصف الليل، وإذا بالحيوية عادت من جديد، لقد وصل رجال على ظهور الإبل، وتوقفوا أمام خيمتنا، إنَّه محمد بن عطية وولده، بالأمس عندما كنَّا نستريح قرب رائس، كان ينزل على مسافة ساعة شرقاً، وقد سار من هناك إلى تبوك، ولما أخبروه هناك بالطريق الذي سلكناه، استدار على وجه السرعة كي لا يضل السبيل إلينا، لقد أحضر هليّل حليباً وتمراً وحُضرت القهوة للمرة الثالثة، سواء كنَّا راضين أم كارهين تعيَّن علينا أن لا نتجاهل اللفتة الكريمة، وكان علينا أن نشارك في المسامرة لمدة ساعتين، وأخيراً أتيح لنا الخلود إلى الراحة، وفي تلك الأثناء استمر الحديث في الخيمة المجاورة بين محمد وأخيه صقر وأخبره بالتفصيل عن مغامراته الأخيرة مع بني صخر والحويطات.

الاثنين في 3 آذار/مارس 1884م. رغم أنَّ محمد بن عطية قد بذل جميع جهوده للاحتفاظ بنا يوماً آخر في ضيافته، إلَّا أنَّه بدا لنا أنَّ الأنسب أن لا نؤجل العودة إلى تيماء مدة أطول، بعد أن ضغطنا في يد الشيخ هليّل 8 ليرات مجيدية (30 ماركاً) بتكتم اعترافاً منَّا بمرافقته وقيادته، ودعناهم، إلَّا أنَّ هليّل ارتأى ألَّا يدعنا نسير وحدنا وأصرَّ على مرافقتنا حتى تيماء. في البداية سلكنا تقريباً الطريق نفسه الذي سرنا عليه قبل بضعة أيَّام، على الطريق الذي يُسمَّى درب خبّيني وصادفنا مرة أخرى كما في 23 فبراير/شباط طبقات الحجارة الرملية مع ما يُسمَّى دود أيُّوب، وكانت هذه البلاطات مزروعة بخوابير متآكلة ومتكومة هنا وهناك. وقد شدت منذ القديم أنظار الحجَّاج المسلمين الذين يذكرونها مراراً وتكراراً، وهكذا جاء عند ريتر في كتابه الجغرافيا[1] وجاء في كتاب جيهان نامه (حاجي خليفة)، غسل أيُّوب الدود من جسده، والتي تحجرت فيما بعد وجمعت... ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا النوع من المستحجرات غير معروفة فيما عدا ذلك» كما ويرد في تقرير رحلة الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي[2] أنَّ هناك منطقة بين مدائن صالح

(1) الجزء الثامن (الجزيرة العربية 2) ص437: (18 قلعة الحجَّاج والمقصود الأخضر)، الأخيضر.

(2) **مجلة جمعية الاستشراق الألمانية**: ج16، 1862م.

Zeitschrift d. deutschen nirgenl, Gesellschaft.

والأخضر قرب «الأقيرع ويُسمَّى مفارش الأرز لأنَّ أرضه كثيرة الحصى الصغار البيض فتشبه الأرز ويُسمَّى الدار الحمراء أيضاً»(*) . وبالمناسبة فإنَّ أيُّوب لم ينفض هنا دوده، فحسب بل في منطقة النقرة في بلاد شرق الأردن، وتحديداً في منطقة دير أيُّوب، في هذا المكان فقط تتخذ الحجارة اللون البنفسجي، وإنَّ فتسشتاين في دراسته عن دير أيُّوب في حوران وبلاد الأردن[1]، يذكر حوله: قال مرشدنا: «لقد استند أيُّوب إلى هذه الصخور عندما جاءه الرَّبّ بينما كان جماعتي يصلون العصر في هذا الموضع أحضر لي سعيد حفنة من الرواسب والحصى المدوَّرة البنفسجية اللون تقول عنها الحكاية بأنَّها ديدان متحجرة سقطت على الأرض من خراجات أيُّوب، وقال لي: خذها معك ذكرى من هذا المكان علَّها تعلِّمك أن لا تنسى الله في الهناء وأن ترضى بقضائه في الشقاء». رغم أنَّ تكرار هذه الكلمات في فم الرجل قد أضعفها وحوَّلها إلى مجرَّد عبارة فارغة فإنَّها لم تعدم أثرها لأن تعبِّر عن الحالة الخاصة بالمنطقة وبعد أن تزود مرافقي أيضاً بدود أيُّوب غادروا الصخرة، وهذه الديدان تشكل جزءاً من حكاية أيُّوب الحوراني والناس في المنطقة يعرفونها ويحترمونها وقام مرافقنا المسيحي من شمسكين بتخبئتها في كم قميصه الواسع وربطها واستشهد ببعض الأبيات من قصيدة يرد ذكرها فيها . . .».

إنَّ النماذج التي شاهدتها وأحضرتها معي في معظمها مائلة للحمرة وبنية فاتحة، وعدد قليل منها فقط أسود، وضعتها في مجموعتي من الأثريات القديمة التي سلَّمتها لمكتبة ستراسبورغ. في 20 تموز/يوليو 1908م. كتب لي الأستاذ بنكّه Benecke بجامعة ستراسبورغ الذي طلبت منه تقرير خبرة حول قيمتها وجاء في تقريره ما يلي: «إنَّ مثل هذه الأشياء التي لا يدلُّ شكلها على أي كائن حي، وليس لها بنية، لا تفسح المجال لتفسير أكيد. في الحالة

(*) آثرنا أن نضع النص الأصلي، انظر عبد الغني النابلسي، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي القاهرة 1986م، ص483 (المترجم).

(1) ملحق لتعليق دليتش حول أيُّوب قسم 2، ص563.
Anhang zu Delitsch Commentar zu Hiob 2. A.S. 563..

الواردة فإنَّ منظر الحجارة يوحي بأنبوب عمودي تحجر وهو منتصب وامتلأ فيما بعد بالحجارة. إذاً الأمر يتعلق بأثر فقط، ومثل هذه الأنابيب تعتبر ظواهر معتادة في الأحجار الرملية ذات التشكل القديم وخاصة من عصر الكامبريوم وأطلق عليها زالتن Salten اسم سكوليتوس Scolitus واعتبرت بمثابة أنابيب دودية. ولذلك يمكن أن يكون هذا التفسير صحيحاً؛ وعندئذٍ ستكون التسمية «ديدان أيُّوب» مناسبة تماماً. وممَّا يلفت الانتباه في القطع التي أرسلتها لي وجود حلقات عرضانية لا تظهر على القطع غير العربية من مجموعتنا، لكن القطع العربية تنتمي دون شك إلى حقبة جيولوجية أحدث؟...»[1].

كلَّما اقتربنا من قلعة الأخضر، حيث وجدنا قبل أيَّام قليلة عشباً أخضر وفيراً، كنَّا نلاحظ أنَّ المنطقة كلها قد رعيت بالكامل عند مرور أصدقائنا بني عطية فيها. ناداني الخادم محمود عند موضع كانت عدة من الإبل قد تمرغت فيه في اليوم السابق؛ انتبه! هناك في الأمام توجد «مراغة»[2]، وبما أنَّ الريح كانت شديدة ولأنَّني لم أفهم المصطلح الغريب استدرت نحوه وصرخت: «ماذا تعني؟». وفي اللحظة نفسها خرَّ ذلولي على الأرض فجأة ممَّا جعلني أطير في الهواء مسافة مترين أو ثلاثة إلى الأمام لكنَّني نهضت على الفور دون أن أصاب بأيِّ أذى وأشبعت الذلول ضرباً الذي كان قد استلقى على جانبه وأحدث ضرراً كبيراً في حقائب الأمتعة نتيجة الضغط الزائد. وما أن أعدتها إلى الوقوف على أرجلها حتى سقتها عمداً إلى مكان مشابه ووجهت لها، من أجل شحذ ذاكرتها، عدَّة ضربات أخرى. في الساعة الثالثة وصلنا إلى قلعة الأخضر.

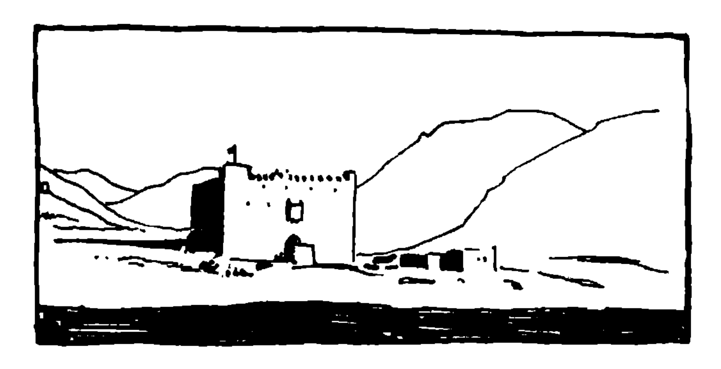
تحدّد الكتابة الموجودة فوق الباب سنة البناء 983هـ (1532م). كان

---

(1) ترد تسمية سكوليتوس Scolithus أيضاً عند يوهانس فالتر Yuhs. Walther في كتابه **تاريخ الأرض والحياة**. ليبزيغ 1908م ص203 وما بعدها، وأما هـ. دي لاباران Lapparant فيدعوها على نحو مغاير إذ إنَّ التيجيليت نوع من الأنابيب الشعرية الرملية ويبدو أنَّ اسم تيجيليت العربية Tigilites arbica يعود إلى ستانيسلاس مونييه Satanislas Meunies.

(2) إنَّ «مراغة» تعني موضع التمرغ، عندما تلاحظ الإبل انخفاضاً في الرمل يتولد لديها التصوّر بأنَّها قد توفّرت لها الآن مناسبة رائعة كي تأخذ قسطاً من المتعة والراحة، ويبدو أنَّها ممتعة فعلاً.

هناك بئر داخل المبنى يسحب منه الماء بواسطة دولابين يجرّهما حماران أو بغلان ثم يجرّ إلى ثلاثة أحواض مسوَّرة تقع خارج المبنى(*) ، كان طعام العشاء هذا اليوم يتألف من الشعير المخلوط مع قليل من العدس.



قلعة الأخضر

الثلاثاء في 4 آذار/مارس 1884م. اشترى مرافقنا الشيخ عوَّاد من الناس في القلعة خمس قطع من القماش الأزرق الغامق لنسائه بقيمة ليرة مجيدية واحدة لكل قطعة (3,70 مارك)، وحصل لكل قطعة على الخيوط الزرقاء اللازمة لها. حوالى الساعة السادسة والنصف انطلقنا ومررنا بخطوات سريعة (حتى 7500 خطوة في الساعة) عبر المنطقة التي سلب جميع العلف منها، وكدنا ننحرف لندخل وادي الصاني إلَّا أنَّ الشيخ هليّل لم يشأ ذلك، وكانت لديه شكوك لم يرغب في تلك الأثناء الإفصاح عنها، وأشار إلى اللِّسان المرتفع عمودياً أمامنا والناجم عن فيض الحمم البركانية اللابة التي سبَّبت لنا متاعب كثيرة يوم 25 شباط/ فبراير وقال: قد يكمن هناك أعداء وفي ذلك الحين كان مزاجي جاهزاً للمشاجرة وقلت: إنَّه قد يكون من الأفضل أن نتوجَّه إلى هناك حاملين البنادق في اليد عندئذٍ سنرى من هو المعلم، عندها امتعض الشيخ: «كيف نتمكن من السير ركوباً في هذا الوعر؟ لا شك في أنَّ

(*) يذكر عبد الغني النابلسي في كتاب **رحلة الحقيقة والمجاز** ص484: «وقد اشتهر أنَّ هذا البئر حفره الخضر عليه السلام، يزوره الناس ويتبركون به ولهذا سُمِّي هذا المنزل الأخضر وبالأخيضر». (المترجم).

الأوغاد يتربصون مختبئين وراء كتل اللابة، فلنمر به بسكينة ولنطلق النار بعدئذٍ باتجاه الخلف»، والآن يفصح صراحة، إنَّه يود الآن أن يقول لنا: عموماً ما أُبلغ به في تبوك، ولم يخبرنا به قبل الآن كي لا نقلق دون داع، ومفاده أنَّ أبا ذراع مع ثمانية من رفاقه الجسورين من بلي يتجولون في أنحاء المنطقة، بحيث يقبضوا علينا وقد تسنى لهم بعض الصيد المجزي وفيما يخص طبيعة الأرض فإنَّها هنا مناسبة له، وكما علمت بعد عدَّة أيَّام في تيماء، فإنَّ الشيخ يتمتع بأنف يشتم جيداً، وفي الواقع فإنَّ الأفَّاقين قد كمنوا هناك فعلاً، وبعد التمعن الهادىء كان علينا أن نوافقه، أي إنَّنا انحرفنا، وبكل تأكيد دون أن يشاهدونا يساراً، واتجهنا مباشرة شرقاً في وادي المشع، ومن بعده في كثير من الانحناءات بين الجرف البركاني وصخور الحجر الرملي صعوداً، وأخيراً سرنا من المعبر إلى وادي أبي ثور في ضوء النهار نزلنا هنا مباشرة أمام مغارة صغيرة من الحجر الرملي في بقعة ما زالت حتى الآن لم يتم رعيها، وفيها وفرة من الكلأ أمام المغارة وداخلها كانت هناك آثار خطى وروث الضربون[1] في الجنوب كان تساقط المطر يمتد من الشرق نحو الغرب، وكان الموضع الذي نزلنا فيه يوم 24 شباط/فبراير، وهضبة طِويِّل لا يبعدان على أبعد تقدير أكثر من ساعة باتجاه الجنوب الغربي وكان جبل سالوب (أو سالوم؟) في الشمال.

الأربعاء في 5 آذار/مارس 1884م. انطلقنا قبل شروق الشمس وبعد وقت قصير وقعنا على آثار أقدام خمس من الإبل واثنين من المشاة الذين يجب أن يكونوا قطعوا حوض الوادي بسرعة كبرى، وتبعاً لآثار الأقدام فإنَّ اثنين من الإبل حسب عمق الأثر، كانا يحملان شخصين (مردفين)، وإلى جانبهما كان اثنان من المشاة يمشون ممسكين بطرف الخرج تبلغ خطوة كل منهما مترين. من المؤكد أنَّه حسن أبو ذراع مع ثمانية من رفاق السلب وأنَّهم قد تأكدوا من الرمل الذي لم يمس من أنَّنا لم نمر من هنا بعد، وقد أسرعوا

---

(1) في موضع آخر وصف خطأ بأنَّه كلب بري، أما الوصف الذي قدَّمه مرافقونا البدو فلم يكن واضحاً، إذ قالوا بأنَّ حجمه ما بين الكلب والقط وشعره قصير وأسود على الجسم؛ إلَّا أنَّه أبيض على البطن ويهاجم أيضاً الناس.

على ما يبدو كي يباغتونا في موضع مناسب في شعيب جبل فردة لأنَّنا حسب تخمينهم سنأخذ الماء من هناك، لذلك نصحنا مرافقونا من البدو أن نلتف حول جبل فردة فنمر على الطرف الشمالي باتجاه الجانب الشرقي.

على الطرف المسطح لهضبة البيَّاضيَّة التي وضعناها على يسارنا شاهدنا آثار (جرّة) أقدام بقرة الوحش، هذا يعني غزالاً كبيراً أبيض ذا قرون حادة مستقيمة بطول متر. وقد باغتنا بعد وقت في منخفض من الأرض الحيوان ذاته، وأخذ يعدو بقفزات مجنونة.

كان بالإمكان وبعد مضي أسابيع على الغزو مشاهدة آثار أقدام جياد الحويطات وبني صخر المتحالفين الذين قاموا بسلب عنيبر ومحمد بن عطية، أثناء الطريق تمهلنا في موضع وفير الكلأ، فقد نما هنا بكميات كبيرة نبات يُدعى الكحلة أو الكحيلة أيضاً ذو أوراق شوكية وَبَريَّة وأزهار زرقاء جميلة وهو يطبخ أيضاً ليؤكل كخضرة. وقبل أن ندنو من فردة نزلنا في واد صغير يُدعى وادي البازود حيث باغتنا ثلاثاً من الظبا روعها ظهورنا المفاجىء ولاذت بالفرار، اجتزنا بسرعة كبيرة المنحدر الشمالي والشرقي لجبل فروة ثم وصلنا أوّلاً على الجهة الجنوبية إلى مدخل شعيب حصات القنيص.

عندما نزلنا على جانب المجرى تحت سقف صخري عند موضع فيه أعشاب وفيرة كان الليل قد حلَّ، لا شك في أنَّ كلاً منَّا كان يعاني من وطأة العطش، ولم يتجاسر أي منَّا على الذهاب إلى نقرة الماء (ربَّما كانت على مسافة كيلومتر واحد في الأعلى) ليجلب الماء، ولم نتمكن من عصر أكثر من ليتر ماء من القُرَب مهما حاولنا بأنَّه نزر يسير لستة أشخاص[1]. وكنَّا أمام الخيار إمَّا أن نوزعه إلى بضع جرعات للشرب أو نستعمله في تحضير القهوة والجميع أخذوا بالخيار الثاني بعد ذلك استلقينا للنوم والبندقية على الذراع والسيف في اليد، بحيث نكون جاهزين لكل الاحتمالات، وتناوب البدو على الحراسة كلٌّ بدوره طيلة الليل ويبدو أنَّه لم يكشف أمرنا، ربَّما لأنَّه لم يرمقنا أحد، لا أعلم، ولربَّما لم تتوفر لديهم الجرأة للهجوم.

---

(1) لي ولهوبر وللخادم محمود ولنومان وللشيخين هليّل وعوَّاد.

الخميس 6 آذار/مارس 1884م. يُصادف هذا اليوم عيد ميلاد حضرة صاحب البلاد كارل ملك فورتمبرغ. لقد تذكرت حزيناً الوطن، وسرت الطريق ساكتاً أعاني العطش، وقد ربطت الكوفية على فمي وأنفي ورحت أتقصى بنظري تواقاً فيما إذا كانت «خبرا» الرولة[1] تظهر على مدى النظر، إلَّا أنَّنا سرنا بعدئذٍ ساعات طويلة وأخيراً أصبح المنخفض في متناول النظر.

أسرعنا عندئذٍ الخطى وكلنا أمل ورجاء. إلَّا أنَّنا لم نجد نقطة ماء، فالبحيرة التي كانت قبل 12 يوماً حوالى 100 خطوة مربعة وعمق نصف متر جفَّت بالكامل وتشقَّقت القشرة الطينية على الأرضية والتفَّت حول نفسها مشكِّلة قطعاً متناثرة مثل نعول أحذية عتيقة في كلِّ مكان، أمام هذا المنظر راح كلٌّ منَّا ينظر إلى الآخر ولما سئل نومان عمَّا إذا كان يعرف موضع ماء آخر أجاب بفظاظة: إذا لم يعد يوجد ماء في الخبرة الكبيرة، فإنَّه سيكون أندر بكثير في المواضع الأخرى، عندئذٍ تابعت السير قانطاً وأخذ سقف الحلق واللِّسان يدفع لي بأجسام غريبة في الفم. وكان هوبر والبدو أكثر منِّي تعوداً على تحمُّل العطش. فالصحراويون لا يعتقدون بأنَّ الله قد خلق الإنسان والإبل كي يتعودا على تحمُّل العطش. على مسافة ثماني ساعات ظهرت قمَّة جبل غنيم في الأعلى، وهي السلسلة التي ترتفع شامخة فوق واحة تيماء، إلَّا أنَّ هذا كان سواء لديَّ، كما أنَّه لم تغويني إلَّا قليلاً الآثار الطرية لأقدام أربعة من الفرسان، وعندما التهبت حرارة الظهيرة، ووصلت الذروة صرخ فجأة هليّل، هنا في الأمام يوجد ماء، وجاء تأثير ذلك مثل شرارة البرق، فانتزعت طاسة الشرب النحاسية من الخرج، وألقيت مقود ذلولي إلى نومان، وقفزت إلى الأسفل، واندفعت نحو الخبرا جثوت أمامها ودفعت بوحل القاع جانباً ثم ملأت الطاسة بأقصى سرعة وشربت ما استطعت شربه، وفعل رفاقي الشيء ذاته «الحمد لله» قلتها من الصميم، ثم ملأنا القُرَب لكي يكون معنا بعض المؤونة وبعد ذلك سمح للإبل، التي كانت حتى الآن تحاول عبثاً ودون صبر التقدُّم إلى هذا الطرف أو ذاك، بأن ترد الماء، فاندفعت إلى وسط البركة

---

(1) الخبرا تعني منخفض قليلة العمق تحول أرضيتها الطينية من أن يغور الماء، انظر أعلاه ص383 هامش 2.

وأدلت برؤوسها في داخلها وشربت مثل شفاطة عبر عنقها الطويل الماء الموحل بكامله خلال وقت قصير لا يصدق، ثم أشرأبت رؤوسها نحو الأعلى تعبيراً عن الرضى، الآن آلت المتعة إلى النهاية. استفدت من الاستراحة القصيرة كي أتخلص من ضيف لم أشاهده منذ ستة أشهر إنَّه البرغوث الذي اصطحبته معي من العالم شبه الحضري في قلعة الأخضر.

كان علينا أن نسعى الآن للوصول إلى تيماء قبل حلول الليل، لقد ملأ نومان صدره بالأمل البهيج بأن يدخل مسقط رأسه المحبَّب مساء اليوم، وكان يغني دون كلل أغنية تلو الأخرى، على مسافة خمسة كيلومترات غرب تيماء وصلنا إلى برج يُدعى «قُصَيْر». وكان بالإمكان كسر حجر من الجدار بيسر يحمل نقشاً بخطّ شبه عربي ثم تحميله، وعلى حجر آخر نقشت صورة شخصين وهما يحرثان على ثور كدن أمام جرَّافة.

ولمَّا كانت قد بدأت تظلم بشدَّة، وسقطت بعض قطرات المطر، حثثنا الخطى قدر الإمكان، بحيث كان بوسعنا أن ننزل لدى الوالي عبد العزيز العنقري مع حلول اللَّيل الفعلي بسلامة ونحلّ في مأوانا السابق، لم يكن الرجل مسروراً بوصولنا، ولم يسرع بالنهوض من موضعه لاستقبالنا، ويبدو أنَّه كان ممتعضاً منذ التهديد بأنَّنا سنشكوه إلى الأمير، وكان قد استلم كتاباً منه في تلك الفترة، وجاء الأثر طيِّباً في أعقاب ذلك، فقد أمر بالذبح لأجلنا حتى في الليلة نفسها، وهو ما لم أتوقعه مطلقاً من هذا الشحيح. وحتى الانتهاء من أعمال الطبخ لم يتناول الحديث موضوعاً آخر سوى الغزوات المختلفة التي حصلت خلال الـ 14 يوماً من غيابنا، وقد مرَّت عن يميننا وشمالنا ولم تحقّق شيئاً، وإنَّ حسن أبو ذراع قد تقصَّى مع ثمانية من رجاله من بلي آثارنا، وكان يبغي الحصول على أمتعة مليئة بالذهب، حسبما كان يعتقد عموماً. وعند المساء سادت الشائعة بأنَّه قد ذبحنا، وكان علينا حتى تقديم الطعام أن نتحمَّل لمدة ثلاث ساعات مثل هذه الأحاديث، قبل الذهاب إلى النوم استجدى منِّي نومان كوفية وقد وهبته إيَّاها كذكرى.

الفصل الثالث عشر

تيماء

7 ـ 13 آذار/مارس 1884م

الجمعة في 7 آذار/مارس 1884م. قبل ساعة من شروق الشمس عاد الخطيب الأبله عبد الله[1] من شقرا إلى الإعلان عن علمه وتقاه بتلاوة سور من القرآن الكريم في الفناء، آه كم نُعاني كي يرضى بالسكوت. من أجل الفطور أحضر صاحب بيتنا سمناً ولبناً ولكن من دون خبز، وأضيف إلى ذلك تمر من أسوأ الأنواع، وفيما بعد جاء ضيوف آخرون من بينهم التاجر الإيراني سلطان بوجهه الذي لا يُطاق في نظري، وكنت مسروراً عندما خلَّصَنا حدَّاد السلاح زيدان من هذه الجماعة، وأرشدنا في قصر الداير إلى بعض النقوش[2]، بينما توجَّه هوبر من هنا إلى المنزل، تفحصت مع ضيدان السور القديم غربي المدينة الغربي يقوم عليه جدار حجري يبلغ عرضه متراً تقريباً، وفي أحد المواضع كانت لم تزل تظهر أساسات برج مربع، ولمَّا كان صندلي قد تآكل سرت طريق العودة بطوله حافي القدمين، وعدت إلى المنزل بعد ثلاث ساعات مجهداً وظمآناً، في تلك الأثناء كان هوبر قد اهتم بتأمين إبل لمتابعة الرحلة، إلَّا أنَّ عقدة ظهرت في التعاقد إذ لم يتيسر لنا في المدينة بأجمعها تأمين أكثر من ذلول واحد قوي، وطلب صاحبه مبلغ ستين ليرة مجيدية (حوالى 200 مارك)، ونظراً لأنَّنا لم نقرر في الحال، طلب منَّا فيما بعد مئة ليرة مجيدية مقابله، لذلك يجب أن يتوجه غداً نومان والشيخ عوَّاد من الفقرا إلى نجعهم لكي يستأجروا لنا إن أمكن إبلاً قوية؛ في المساء جاء ضيدان ثانية وأحضر لي معه رأسي غليون مصنوعين من الحجر[3].

السبت في 8 آذار/مارس 1884م. كنَّا مدعوين لتناول طعام الفطور عند

---

(1) انظر أعلاه، ص391.

(2) انظر أعلاه، ص396.

(3) انظر أعلاه، ص412.

فهد الطلق هنا حضر أيضاً الشيخ محمد العتيق، الذي كان المشهدي (الإيراني) قد حرَّضه علينا، كان يحذوه الأمل الخاوي بأنَّنا سنشتري حجره بأيٍّ ثمن، الساعة العاشرة انطلق نومان وعوَّاد إلى الفقرا.

حوالى الظهر انطلقنا راكبين مع عبد العزيز الرمان وشخص يُدعى عطا الله إلى الحوض الشرقي لتيماء، وكنَّا في الوقت ذاته نرغب بتجريب ذلوله (السريع) الذي اشتريناه فيما بعد فعلاً مقابل خمسين ليرة مجيدية (180 ماركاً). بعدما خلفنا عن يسارنا السبخة الملحية، وعبرنا مجرى الوادي وصلنا إلى سور المدينة القديم الذي يمرُّ في شرق وشمال المدينة، وغير بعيد عنه من الخلف يحد المنخفض جدار صخري يسير مقوَّساً يُدعى غار الحمام وفي شعابه الممزَّقة وجدنا عدداً من النقوش الثمودية والكوفية، وكان من المحال وضع نسخ عنها على الورق، نظراً للرياح العاصفة، ولذلك اكتفيت بنسخها.

الأحد في 9 آذار/مارس 1884م. في الصباح كنَّا عند ثويني على مائدة الفطور، وحضر هنا شخص يعرض علينا ثانية جملاً للبيع، وكان عليه أن يحضره لكي نتمكن من مشاهدته، بعد ذلك أحضر شخص آخر إلى المنزل «حجراً عليه نقش»، وقد أصيب بخيبة أمل عندما علم أنَّه ما من شيء مكتوب على الحجر، بعد الظهر تزايد هيجان العاصفة إلى درجة أنَّه لم يعد من الممكن الخروج إلى الفلاة.

إنَّ التبغ الذي أحضرته معي من حائل (حايل) نفد الآن، ولذلك يتوجب عليَّ أن أذعن الآن؛ طوعاً أو كرهاً إلى التبغ المحلي الأخضر، إلَّا أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة، إذ ينبغي أوَّلاً أن تتم تنقيته بعناية لأنَّه مخلوط بكل ما يخطر على البال من أنواع الشوائب الموجودة هناك ومنها: التربة والحجارة الصغيرة ولحاء النخيل والصوف ونوى التمر وبعر الغنم وما يشبه ذلك.

بعد التخلص منها يمكن أن يحسب المرء أنَّه خسر ثلث ما لديه، وعدا عن ذلك فإنَّ التبغ لا يشتعل إلَّا إذا كانت الجمرة فوقه، بالطبع لا يمكنني إلَّا أن أكون راضياً عمَّا حصلت عليه مجدداً، لأنَّهم أكدوا لي أنَّ ما سأحصل عليه

من تبغ في العلا سيكون أسوأ بكثير، إذ سيتردَّى الوضع في المستقبل أكثر فأكثر.

إنَّ الناس في تبوك مكتفون بالخبازي، وفيما عدا ذلك لا يحصل المرء على شيء. أمَّا المشهدي الخبيث سلطان فإنَّه قرأ حالتي النفسية وفكَّر في التوّ أن يستغلها، وعرض عليَّ «من باب الصداقة» ـ يا ابن الكلاب ـ صاعاً من التبغ الشاوري الأصفر الفاتح مقابل ليرتين مجيدية (7 مارك). وعندما رفضت هذا مع الملاحظة أنَّني لم أدفع في حائل (حايل) أكثر من 4/ 3 ليرة مجيدية على الإطلاق، قال لي باستهزاء: «فلتشترِ تبغك في حائل (حايل) إذاً، والآن صار يساوي 3 ليرات مجيدية». وعندما سقطت قطعة فحم متوهجة على ثيابي، وخرج منها الدخان صرخ الجميع طبقاً للتقاليد المحلية «عبد الوهاب عريس».

بعد الظهر التقينا في منزلنا ضيوفاً لعبد العزيز العنقري أربعة من كبار فرسان السلب وغلمان النهب من بدو شمّر كانوا قد وصلوا الآن من جوبة بقيادة شيخهم ضيف الله(*) المعيقل على ذلولين كي يقوموا بأعمال نهب في منطقة بلي، ويأملون في أن يقبضوا على حسن أبو ذراع، وهذا ما نتمناه نحن أيضاً، وفي المساء وصل أيضاً أربعة من الهتمان (هتيمي) وهم بصدد تجريب حظهم مستفيدين أيضاً من الربيع وقام ثويني بإيوائهم، وقد تناولنا طعام العشاء مع مجمل هذه العصابة، وكان في غاية السوء شعير وذرة مدقوقة؛ ولكن دون خبز أو سواه من المكملات، وعندما سمح لنا بالعودة إلى منزلنا رتبنا مأوانا في الفناء، وتركنا حجرة الضيوف للسنجاريين الأربعة، وكان أحدهم يشخر شخيراً من الدرجة الأولى: يسحب إلى الخلف بعمق مع حشرجة ليدفع إلى الأمام يغطّ ويصفر، وظلَّ طوال الليل يظهر براعته في ذلك.

الاثنين في 10 آذار/مارس 1884م. في الصباح وضع عبد العزيز العنقري أمامنا تمراً ولبناً فقط، وذلك لبخله كي يوفر الحطب الغالي اللازم للطبخ، أي سجن في بلادنا يقدِّم غذاءً أفضل لنزلائه ممَّا نحظى به نحن هنا في بيت الضيافة هذا، إنَّ كلمات النفاق التي يطرى بها المضيف أثناء حمل

(*) والد غريب المعيقل العقيد المشهور من سنجارة من شمر. (المراجع).

الطعام: «أنعم الله عليك» كان لها وقع السخرية القاطعة إلَّا أنَّه تقبلها دون أن يرف له جفن، كما أنَّ الخطيب عبد الله المدعو للطعام أيضاً أعرب عن شكره بالتمتمات الممكنة وخلَّل أسنانه بعود مدبَّب الرأس.

بعد انسحاب قادة المغازي مصحوبين بتمنياتنا بالبركة قصدنا شخصاً يُدعى محمود العلاوي، الذي كان بانتظارنا على القهوة. في الطريق كانت بساتين النخيل التي مررنا بها توفر منظراً جميلاً، ما بين أشجار النخيل التي تربط بينها فروع الكرمة كانت تنمو أشجار الدراق، وفي ذلك الوقت كانت تكسوها أزهار رائعة، حتى عودتنا إلى المنزل كان الخادم محمود قد أنهى الغسيل، وهيأ لنا خبزاً إحراجاً للمضيف. تولّى نصّار، زنجي البيت، المساعدة في حزم الحجر الآرامي الكبير بلحاء النخيل، والقماش وبسجادة بدوية دفعت مقابلها أربع ليرات مجيدية. وأمَّا الأحجار الأخرى فهي في الفناء منذ الأمس محزومة وجاهزة للنقل. وأمَّا الزنجي فقد أبدى رغبته بأن يسمح له بالسفر معنا قائلاً: إنَّ تيماء بلاد رديئة، وأشار أثناء ذلك إلى بطنه الفارغ، وإذا ما سمح له بالسفر معنا فإنَّ بطنه سيمتلىء، ويصبح منتفخاً تماماً.

في المساء تناولنا طعام العشاء عند عبد العزيز الرمان: أرز مع خبز، وسمن مسلي وبيض مسلوق جامد وهي وجبة افتقدناها طويلاً، أثناء المسامرة أُلقيت قصائد قديمة تتعلَّق بتيماء، إلَّا أنَّني لم أفهم منها شيئاً تقريباً كما تحدثوا عن هيكل عظمي مع جمجمة جرى استخراجها من طين أحد البساتين من موضع عميق، وكان الجلد ما زال سليماً.

الثلاثاء في 11 آذار/مارس 1884م. اليوم، ويا للعجب تجرأ العنقري البخيل على أن يقدم على الفطور أرزاً بالإضافة إلى التمر، وأثناء الطعام امتلأت القهوة بالمتفرجين، وعلى الأغلب طلبهم العنقري بذاته لكي يكونوا شهوداً صامتين على الضيافة السخية التي يوفرها لضيوفه، قام عطا الله الذي اشترينا منه الذلول بإملاء بعض أبيات الشعر المتعلقة بتيماء، وقد سردوا خرافات غامضة حول التاريخ المبكر للمدينة! قالوا: إنَّ المدينة تعرَّضت في الماضي إلى ثلاث كوارث دمّرت أثناءها بالكامل، وفي كل مرة كانت تعمر

بالسكَّان من جديد. وكانت في الأصل بلاداً للمسيحيين، عدا عن ذلك حكم هنا شيخ كبير هو بدر بن جوهر، وفيما بعد دخل بنو هلال البلاد، كما أنَّه صكّت هنا عملة كتب عليها: «ضرب في توما» لأنَّ توما الصيغة الأقدم لاسم المدينة، ورغم إعطائهم وعداً بتقديم هدية نقدية سخية، لم يتسنَ لي الحصول على أي قطعة نقدية من تلك التي يزعم أنَّها ضربت هنا، نظراً لأنَّه لا يمكن مطلقاً الحصول هنا على حجرة أو على الأقل فناء قابل للقفل، فسكَّان القرية بأجمعهم يعتبرون بأنَّه من حقوق الإنسان حلول الضيوف في كل لحظة وكذلك الأشخاص الطارئين مثلنا. في هذا اليوم عانيت من وطأة هذا الوضع عندما شعرت بالحاجة بأن يقوم خادمي محمود بحلق شعر رأسي بالكامل وجعلته أيضاً يغسلني تماماً من رأسي حتى أخمص قدمي وأن يقوم بالعمل في الفناء المكشوف، وأخذ شخصان من الضيوف الحاضرين في القهوة بالنظر عبر الباب، إلى ما يجري في الداخل. كلُّ شيء كان جديداً بالنسبة لهم، لماذا الإسفنج، وحتى ذلك الحين لم يكونوا سمعوا باسمه، ما هي فرشاة الأسنان وفرشاة الذقن، وكذلك وعاء الغسيل والمنشفة للتجفيف، ولدى السؤال ممَّا يتكوَّن شعر الفرشاة، تفاديت أن أفسِّر لهم شعر الخنزير، وبيَّنت لهم أنَّها تؤخذ من الغزلان في بلاد الأوروبيين(*) وتناولوا بعدئذٍ الفرشاتين في أيديهم باندهاش وارتياح، بهذه المناسبة إنَّ أصابع قدمي تتعرَّض للتغيُّر التدريجي، فلم يعد ملمسها من الأسفل مثل أربعة مكعبات موزاييك مضغوطة، وامتدت طولاً، وأصبحت أصلب ولديها المقدرة على أن تتحرك إفرادياً إلى الأعلى والأسفل والجانب، وباختصار إنَّها مضحكة تماماً، وأشعر بالشفقة عندما أفكر بأنَّها ستعود مرَّة إلى الانضغاط داخل الحذاء ذي الجلد المبطن.

بدأ الإلحاح لاستجداء عقالي، منذ أن خبروا ـ ولا أعلم ممَّن ـ أنَّ لديَّ عقالاً آخر جديداً تماماً جاءني خمسة أشخاص عنيدين بالطلب، بأنَّه يتوجب عليَّ أن أهديهم العقال الذي أرتديه عادة زاعمين أنَّه، على كلِّ حال، لم يعد لائقاً بي بما فيه الكفاية.

(*) الأصل: المسيحيين. (المترجم).

بعد الظهر قصدنا برفقة عبد العزيز العنقري المكان الواقع في جنوب شرق منطقة المدينة حيث كانت في السابق[1] بقايا أعمدة، في هذا الممر اعترضنا المشهدي سلطان، وزعم بأنَّه يعرف حجراً كبيراً عليه نقش، كان يريد أن يعرضه على هوبر، ولكن لا يُسمح لي أن أكون حاضراً، والواقع أنَّ هوبر أبدى ملاحظة على سبيل المزاح قائلاً: لا يهم في شيء إذا ما كان عبد الوهاب[*] حاضراً، فإنَّنا نعصب له العينين، عندما وصلنا إلى مكان المعبد القديم ـ تقوم حالياً في موضعه مقبرة ـ أطلعنا العنقري، إضافة إلى أجزاء الأعمدة المكشوفة، على بعض المواضع الأخرى زاعماً بأنَّ أحجاراً مشابهة مخبأة في الأرض تحت هذه المواضع، وفيما إذا كان معبد الإله صليم هُجَمْ[2] مشيداً هنا ـ وهو غير مستبعد مطلقاً ـ فهذا ما لا يمكن التحقق منه إلَّا في وقت لاحق من خلال حفريات يجريها رحَّالة باحث أكثر حظاً منِّي. وغاية ما يحلو لي بالطبع أن أباشر بذاتي الحفريات في الحال، إلَّا أنَّ التظاهر بالخشية من خرق حق السكينة للأموات جعلني أرفض ذلك كي يظهر الموضوع عادياً، ولا يؤثر على أي عرض لإجراء الحفريات فيما بعد على مسافة حوالى 100 خطوة إلى الشرق كانت تظهر آثار بناء مشابه ربَّما كان معبداً أيضاً.

في المساء تناولنا طعاماً فاخراً على غير العادة: أرز مع لحم مقلي (وهو في غاية الندرة) أضيف إليه كثير من الكمأة التي، على كلِّ حال، لم تنظف تماماً من كسرات الحصى، وكان الخطيب الطيِّب عبد الله يدفع أثناء الطعام بأفضل القطع إلى أمامي، وحضر فيما بعد طلق بن فهد، كي يدعونا باسم والده إلى الطعام غداً، وقد تكلَّم عن أوعية نحاسية استخرجها بذاته من السبخة في الشمال، ويمتلكها في بيته.

الأربعاء في 12 آذار/مارس 1884م. كان المعبد أوَّل ما شغل ذهني، إذاً فلنذهب في الحال إلى المكان نفسه وكانوا يوم أمس قد أزالوا الركام عن

---

(1) انظر ص401.

(*) الاسم الذي عرف به المؤلف أويتنغ أثناء الرحلة (المترجم).

(2) انظر أعلاه، ص399 وما بعدها.

قطعة من عمود هناك، وقد علمت الأسطوانة الأدنى في نصفين وهي الوحيدة المتبقية منه، ويبلغ محيطها 210سم، ووضعت فوق بلاطات حجرية دون ملاط، وحال قرب المقبرة الحديثة دون تعرُّضها للتعرية.

انطلاقاً من هذا المكان قصدنا قصر الداير كي نتفحص حجراً ذكره المشهدي تكراراً ووصفه بأنَّه قطعة قيِّمة بسعر مئة ليرة مجيدية، والحجر ذاته يقع في الركن الشمالي الشرقي من المبنى، يرتفع موضعه حوالى متراً واحداً عن الأرض، مدموج في بناء السور، وطوله حوالى متر واحد ويحمل نقشاً بخطّ كوفي رديء.

في المساء أكلنا لدى فهد أرزاً أضيفت إليه توابل كثيرة، وعندما عدنا إلى المنزل، وجدنا نومان ومعه بدوي من الفقرا هناك، وقد اشترى ذلولاً مقابل 68 ليرة مجيدية، وسار كلاهما اليوم سيراً حثيثاً لقطع المسافة من منطقة القرع إلى هنا. ولهذا كانت الدواب مجهدة جداً، وإذا لم يتسنَ لنا تأمين جمل قوي خامس، لن نتمكن من اصطحاب الأحجار الثقيلة معنا، بل يجب أن نفكر بتأمين نقلها إلى حائل (حايل) في فرصة سانحة، وندعها مرتبة مع قطع الأمتعة الكبيرة المتروكة لأوقات أنسب.

بعد الصلاة الأخيرة جاءني من يسلب وقتي، وزعم المشهدي أنَّ الأوروبيين في الغرب(*) لم يخترعوا على الإطلاق جهاز الإبراق (التلغراف)، وأنَّ المرء في العراق كان يستعمل هذا الفن في العصر القديم العابر، ولما كان تشكيك آخر قد تعالى من جانب آخر اعتبر نفسه صاحب البيت العنقري ملزماً بأن يؤيد صديقه الإيراني وأكَّد أنَّ البرق كان معروفاً لسليمان بن داود.

الخميس في 13 آذار/مارس 1884م. بعد أن ذاع الخبر في المدينة بأنَّ نومان قد دفع 68 ليرة مجيدية مقابل الذلول، أحضرت إلى بيتنا ثلاثاً من الإبل وطلب أصحابها أسعاراً لا حياء فيها، فأصرينا على قرارنا، أن نترك مبدئياً الحجارة ذات النقوش هنا، وتخلينا عن شراء دواب أخرى، إلَّا أنَّ تجارة الإبل المتوخاة كانت مدعاة إلى توافد كثير من الفضوليين إلى البيت ممَّن لا

(*) الأصل: مسيحيو الغرب. (المترجم).

علاقة لهم بالأمر على الإطلاق، واكتظَّت القهوة (المضافة) بالناس. وقد توخوا ولا شك جميعاً أن يحضروا دفع النقود، وأن يحظوا على الأقل بالنظر إلى الفضة الكثيرة، بعد صرف النظر عن الشراء لم يتبقَ سوى دعوة الناس إلى مغادرة المضافة على وجه السرعة. وما إن انسحبوا حتى شعرت بعبء كبير على جسدي، فانتحيت جانباً، وشرعت بالتفتيش عن القمل في درزات خياطة قميصي.

لما كان علينا أن نغادر تيماء في هذا اليوم، وأن نتابع السفر إلى الحجر، قمنا بتفحص جميع الأمتعة مرة أخرى، وبتحميل الإبل وفحص الأسلحة وتأمين الزاد وقِرب الماء، وباختصار أصبح جاهزاً كل ما هو ضروري للانطلاق دون تأخير. وأمَّا الحجارة ذات النقوش فقد سلّمت إلى عبد العزيز العنقري للاحتفاظ بها في قصره مؤقتاً.

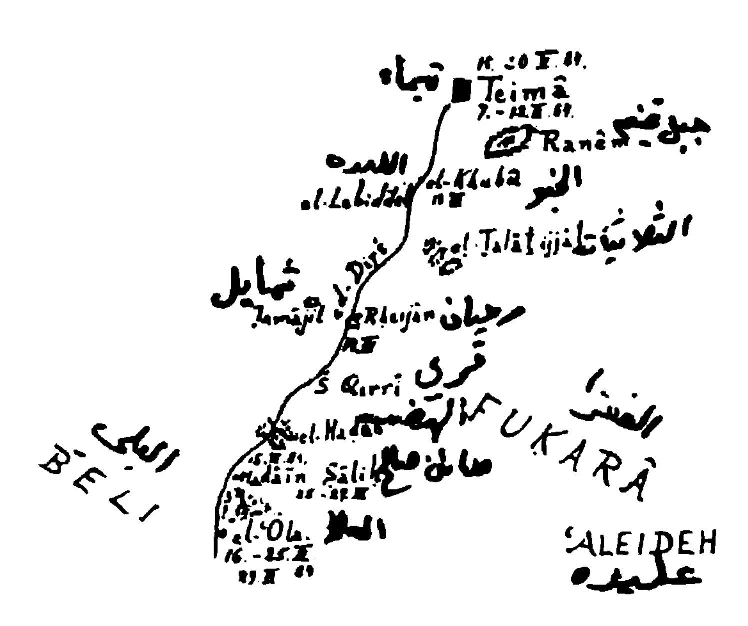
قبل أن نتمكن فعلاً من الانطلاق أحضرنا إلى بيت شخص يُدعى غيث بن دواس إلى وجبة طعام فاخرة بالنسبة للظروف المحلية، وهذا الرجل هو مرافق هوبر في رحلته الأولى، وكان غائباً عن تيماء الأسابيع الأخيرة، ولم يرجع إلَّا بالأمس، وكان من اللطف أن يجعل الطعام يقدم في موعد مبكر عند الساعة الثالثة بعد الظهر، بحيث نستطيع أن نقطع اليوم مسافة معتبرة من الطريق، في الساعة الرابعة عدنا إلى الحي حيث ننزل وودعنا شاكرين مضيفنا عبد العزيز العنقري والوجهاء الحاضرين الآخرين وغادرنا تيماء بعد ثلاثة أرباع الساعة(*)

(*) [لقد أظهر الرحالة لؤمه بوصم والي تيما بالبخل رغم إكرامه إياه.(المراجع)].

الفصل الرابع عشر

تيماء ـ الحجر ـ العلا

13 ـ 30 آذار/مارس 1884م



الرحلة من تيماء إلى العلا

الخميس في 13 **آذار/مارس** 1884م [تكملة]. عندما غادرت قافلتنا المدينة كانت الشمس قد مالت كثيراً نحو الغرب، كنَّا أربعة أشخاص أنا وهوبر والخادم محمود ونومان مرشداً، وعلى أربع من الإبل، وكنت في حالة من المتعة على سنام ذلولي المتمايل، عندما خلفنا البيوت الأخيرة وراءنا دخلنا مرة ثانية الصحراء إلى العالم الحر، إلَّا أنَّ صدري أخذ يضجُّ بالأفكار، بأنَّني في كل خطوة أقترب من الهدف الفعلي لرحلتي، وبأنَّني في الأيَّام التالية سأجد أمام ناظري الأماكن التي أتوق إليها، أضرحة الحجر وآثار العلا، ولم أهتزّ إلَّا قليلاً عندما فاتحنا نومان، بأنَّنا سنمرُّ مسافة يومين في مناطق غير آمنة تماماً، لقد كنت معبأ بطاقة زائدة، ولم أتطلع إلى ما هو دون الإجهادات والمخاطر من كل صنف، كان الطريق يمتد من حوض تيماء، الذي تطل عليه

من الجنوب الشرقي سلسلة جبل غنيم المطلّة على جميع المنطقة، عبر منخفض يتزايد ارتفاعه ببطء حتى يبلغ 100 متر. ويبلغ عرضه كيلومتر واحد، وطول ما بين 3 حتى 4 كيلومترات، وتنتشر فيه في صفوف، وعلى وجه منتظم، أكوام من الحجارة والتراب. وفي بعض الأحيان يميز المنظر بيوتاً حجرية منهارة مربعة الشكل ومنخفضة، مثلما هو الحال في مدينة الأموات شوهر[1]. لو أنَّ أهالي تيماء خلال الوقت الفراغ الذي أمضيته هناك نوهوا لي بوجود هذه المقبرة القديمة، وعلى الأرجح يمكن الحصول هنا على أدلّة في غاية الأهمية حول أقدم سكّان المدينة، ألّا يمكن أن تكون مشاهدة هذا القبر أو ذاك مخبأة هنا، وكانت تحذوني الرغبة أن أنزل هنا لأقوم بفحص بعض المواضع القريبة، إلّا أنَّ هوبر وحده اعترض عليَّ قطع السير، وكان عليَّ أن آخذ اعتراضه في الحسبان ولو على مضض.

تابعنا السير بعد حلول اللّيل في البداية دون ضوء القمر، ونزلنا بعد ساعة من شروق القمر حوالى الساعة التاسعة في موضع خفي نوعاً ما يُسمَّى «خبو»[2].

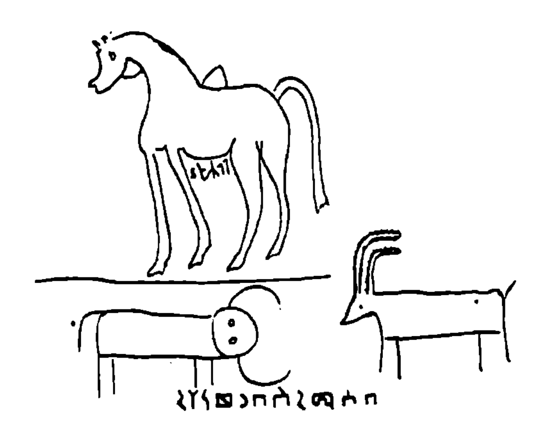
الجمعة في 14 آذار/مارس 1884م. انطلقنا مع الشروق كان منخفض اللبدة الذي امتدَّ طريقنا فيه مدَّة أربع ساعات تختطه أعداد لا تحصى من صخور الحجر الرملي الصغيرة الغريبة. وإنَّ الأشكال الغريبة يمكن تفسيرها من خلال تأثير الرياح، التي بعواصفها الرملية تكنس بالدرجة الأولى الطبقات اللينة بينما تشكل الطبقات الأصلب ألواحاً بارزة كثيراً أو تشكلات نادرة.

حول الظهيرة سرنا في أرض قارا الدغش، حيث توجد أعداد من أشكال الحيوانات من جميع الأنواع رسمت على جدران صخرية بنية، كما توجد نقوش ثمودية كثيرة. ونظراً لخطورة المنطقة لم نتمكن من المكوث هنا لمدة طويلة وجعلت الريح العاتية عملية النسخ عسيرة للغاية.

---

(1) انظر أعلاه، ص415.

(2) أي مخبأ.



رسوم ونقوش ثمودية(*)

عند غروب الشمس ومع هبوب رياح متصاعدة القوَّة وصلنا إلى جوار موضعين للماء، ويُقال: إنَّ الأوَّل يتكوَّن من 12 بئراً ويُدعى رحيَّان، وأمَّا الموضع الثاني فيتشكَّل من ثلاثة ثقوب للماء، ويقع خلف جبل العشارة ذي الحجارة الرملية مع برج مراقبة في الذروة ويُدعى ثمايل. هنا استرحنا كي نطبخ شيئاً ما، وكي تستمتع الدواب بالعشب الوفير، وأمَّا المبيت بجانب موضع الماء، فإنَّه دائماً محفوف بالمخاطر، لذلك قررنا بعد بضع ساعات متابعة السير راكبين وكان يمتد أمامنا منخفض تنعدم فيه أي تربة خصبة ويتألف من أرضية ذات صخور رملية مكنوسة تماماً وخالياً من الشقوق أو التصدعات.

بعد وقت قصير حلَّت ظلمة حالكة، لأنَّ القمر لم يطلع إلَّا بعد الساعة التاسعة والنصف، لعلَّ المرء يتوقع ما سبق أن نوَّه لي في حائل (حايل)، أنَّه على الجدران الصخرية الملساء، التي تشكل تحدياً للناظر، توجد عن اليمين واليسار رسوم ونقوش؛ ومن تلقاء نفسي قرَّرت تجاهل هذه النقوش لأسباب غاية في الإقناع:

(*) تتضمن العلامات الثمودية المنقوشة تحت الحصان اسم الفنان الذي كان يُدعى على الأرجح لحيان أو ربَّما لحكان، تحت الثور والوعل الجبلي يوجد نقش آخر ليس له علاقة مع الرسوم. في نصّ النقش ما يمس بالحشمة لذلك آثرنا حذفه ومن يهتم به يمكنه الرجوع إلى ص210 من الأصل الألماني (المترجم).

1 ـ الظلمة التامة وعدم توفر ضوء.

2 ـ لا ينصح على الإطلاق بالنزول في منطقة خطرة وأن يعرِّض المرء نفسه للظهور.

3 ـ كما أنَّ الإجهاد الناجم عن السير لمدة تزيد على اثنتي عشرة ساعة ركوباً يعتبر أيضاً بمثابة عذر.

الساعة الثانية عشرة ليلاً نزلنا عن ظهور ركابنا، وأمضينا نصف ساعة أخرى بجانب نار مستورة، ثم استلقينا للنوم مجهدين.

السبت 15 **آذار/مارس** 1884**م.** قبل نصف ساعة من شروق الشمس كنَّا ثانية فوق أشدة إبلنا، وأخذ الطريق ينحدر ببطء على شكل زقاق عريض. ودفعة واحدة لمحنا أمامنا على اليسار بدوياً يحمل بندقية، ولم يتوقف رغم مناداتنا له، بل حثَّ الخطى بأسرع ما يستطيع، وقد اجتاحه الخوف وتسلق كتلة من الحجر الرملي وأشار بذراعيه باتجاه الشرق. أمام ذلك ساد لدينا الاعتقاد بأنَّه يمثل نقطة حراسة هنا، ولذلك جهزنا الأسلحة. وكي نُبيِّن له نوايانا السلمية أرسلنا نومان سيراً على الأقدام، ودون سلاح نحو الأعلى، تبيَّن أنَّه فقير، أي من قبيلة الفقرا، يعرفه نومان منذ القديم، وهي قبيلة لم يتم إخضاعها من جانب أمير حائل (حايل) إلَّا في الوقت الأخير، وما زالت تعتبر غير موثوقة. ولكي نبعث في نفسه الجرأة ولا نبلبل ذهنه تابعنا سيرنا ببطء بحيث يتشجع على الإقدام، ويسير مع نومان خلفنا نحن الثلاثة، وأن ينضم إلينا لمسافة من الطريق. وكان يرتدي قميصاً وسترة جلدية وكوفية، ومسلحاً ببندقية، ويحمل عوضاً عن الرمح عصا ذات عقفة في الأعلى كتلك التي يشاهدها المرء على صور اجتياح سجن الباستيل.

بعد ذلك بقليل شاهدنا من بين الصخور وعلى مسافة ثلاثة إلى أربعة كيلومترات باتجاه الشرق خيام الفقرا تسطع عليها الشمس المشرقة في وسط قطيع من الإبل يزيد عدده على ألف دابة منتشرة في منطقة واسعة. ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلينا ثلاثة من البدو، ووجهوا لنا الدعوة بأن ننزل عندهم، وقد رفضناها شاكرين، وبعد أن أرضوا فضولهم لمدة ربع ساعة

وأشبعوا نظرهم برؤية أسلحتنا انسحبوا ثانية إلى ذاتهم، وهم مغمومون دون شك فلم يكن بمقدورهم أن يسلبونا نحن المسافرين الغرباء والأغنياء إذ إنَّ الذي يرافقنا ويحمينا من قبيلة الشمري الصديقة (نومان). ولمَّا كانت لدينا كل الأسباب ألَّا نكون بالغي الثقة، حدّنا من باب التضليل عن طريقنا إلى طريق التفافي يساراً ينحدر بداية إلى الأسفل، ثم يعبر ثانية مسنداً رملياً (سنيِّد) بجانب الجبل صعوداً ثم لمدة خمس ساعات عبر متاهة من الصخور[1]، مثل كواليس يصل ارتفاعها حتى 150م. إنَّها طبيعة صخرية مبعثرة ذات مراع ضخمة دسمة ولو كانت في أوروبا لاندفع إليها السياح.

ويبدو أنَّنا تهنا لمدة من الوقت عن المعبر الصحيح، وأرغمنا لأن نسلك منحدراً خطيراً عبر شعيب رملي منحدر. ولمَّا كان وزن جسمي يبلغ 99 رطلاً، فقد تجاسرت أن أبقى على ظهر الجمل، بينما نزل الآخرون من باب الحذر. وعندما بلغنا الأسفل وجدنا أنَّ الأمتعة والرحل الشداد (الراحلة) قد انزلقت نحو الأمام، الأمر الذي اقتضى تنزيلها وتحميلها من جديد.

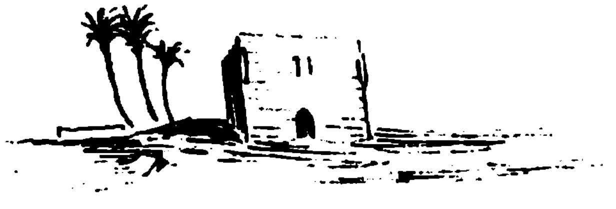
سرنا ركوباً، والسلاح باليد على الدوام، عبر الشعاب الساكنة سكينة القبور في رمل أصفر ذهبي متقد. بين الحين والآخر كانت تتبعنا فقط غربان جائعة بنعيقها المريع... آه أيتها الطيور الشريرة المشؤومة... إنَّني أفهم موسيقاك ربَّما فكرت في أن تنقري منِّي العينين في هذا المساء، ولكن إن شاء الله سيخيب أملك. منذ غروب الشمس يوم أمس لم نأكل شيئاً. لذلك ابتهجنا عندما قال لنا نومان عند مخرج الشعيب: إنَّه منذ الآن فصاعداً ليس هناك ما نخشاه وبوسعنا أن ننزل بكل راحة وأن نأكل خبزاً يجهز في الرماد إضافة إلى حبات التمر القليلة. يؤشر الذباب الكثير إلى اقترابنا من الحجر والعلا المعروفة بكثرة الذباب فيها.

حوالى العصر سرنا عبر السهل التي تبرز في وسطه قلعة الحجّاج الجديدة مدائن صالح مع شجرات نخيلها الثلاث ومن خلفها نحو اليسار يظهر

---

(1) يذكر هِسّ أنَّ الهضبة ج هضاب تطلق على الجبال ذات الأحجار الرملية أو الغرانيتية.

على شكل حذوة حصان المخروط الصخري مع الأضرحة وبقايا الحجارة القديمة.



قلعة مدائن صالح

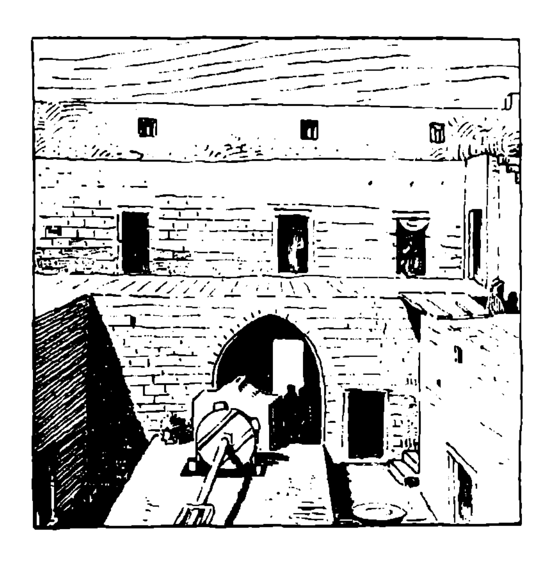
استقبلنا في القلعة استقبالاً ودياً للغاية. فقد حضر حميدة نائب الأمير ثم حاجي مبروك وحاجي حسن وحاجي مصطفى وهم مغاربة أقحاح، أي من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. أمَّا الآمر الفعلي محمد علي فيقيم في دمشق حالياً، وهو ذاته الذي قام قبلاً بنهب دوتي Dougty[*] وأخذ منه بندقيته، وعدا عن ذلك حضر بدوي يُدعى محمد الأزرق من الفقرا. ورمى أمام الدواب عشب كثير، وذبح من أجلنا، وكنت أتحرق شوقاً لأسير على الأقل عدة مئات من الخطوات، لأبلغ المدافن الصخرية الكبيرة التالية لنا، لأنَّه ورغم المعلومات التي قرأتها في جغرافية ريتر Ritter[**] حول المنطقة فإنَّها لم تتوضح لديَّ الرؤية حول الكتابة واللغة التي صيغت بها النقوش الكبيرة. ولم يرافقني إلى الصخور سوى اثنين من الرجال ودون رغبة منهم، وذلك بسبب الخطورة. لقد شعرت بارتياح يصعب عليَّ وصفه عندما تأكدت من أنَّها تعود إلى الأنباط هذا الشعب التجاري العظيم في العالم القديم، في أقل من نصف ساعة كنَّا قد قطعنا المسافة[1]، وكانت الشمس تميل نحو الغروب، عندما عدنا ثانية إلى فناء القلعة. وكان يسمع من عدَّة حجرات بكاء الأطفال المألوف، ويُضاف إليه ثغاء الغنم، ومأمأة الماعز، بينما كنَّا ننتظر الطعام، ملأ الحاجي مصطفى من أتباع الطريقة السنوسية الوقت بأن وضع المسبحة بين أصابعه يدفع حباتها

(*) تشارلز دوتي (1843 ـ 1926م) رحَّالة إنكليزي جاب شمالي الجزيرة العربية (المترجم).

(**) كارل ريتر (1779 ـ 1859م) جغرافي ألماني ألف كتاب **جغرافية العالم** ويعتبر إلى جانب فون هومبولت مؤسس علم الجغرافية الحديث (المترجم).

(1) انظر مزيداً من التفاصيل حول هذه الآثار فيما يلي من الكتاب.

مئات المرات مردِّداً العبارات نفسها[1]، خلال المساء كرَّر العبارات الفارغة(*) على الوتيرة نفسها مرتين أيضاً. إنَّها عادة سمجة لمن لا يشارك فيها. هنا لا مناص لي من أن أمتدح أهالي التيبت بأصوات صلواتهم(**) الأقل إزعاجاً.



فناء قلعة مدائن صالح

إثر الحرارة والثرثرة بجانب النار المتقدة، وفي الوقت ذاته للابتعاد عن تمتمات الحاجي مصطفى لم أرتب موضع نومي تحت القاعة ذات الأقواس المؤثثة كديوان، بل استلقيت فوق الممر الدفاعي للقلعة. هنا في المنطقة تكثر نباتات الطرثوث أي العصا الغليظة وهي نباتات لها جذور عميقة ذات خيوط غبارية أرجوانية غامقة، لها نصاب في الأرض طوله على الأقل قدمان، ويطلق عليها المرء عادة زب الأرض Penis Terrae. وحسب فيتينغ Fitting فإنَّها النبات الذي يُدعى Cynomorium Coccineum.

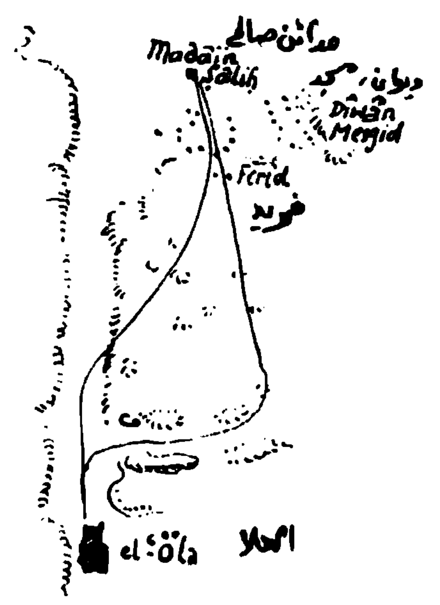
---

(1) انظر الجزء الأول.

(*) في رأي المؤلف. (المترجم).

(**) في الأصل: طواحين صلواتهم. (المترجم).

الأحد في 16 آذار/مارس 1884م. انطلقنا في الصباح مع الشمس دون السلالم التي حملناها معنا منذ تسعة أشهر، والتي اعتبرها هوبر غير ضرورية. وقد انضمَّ إلينا أيضاً الحاجي حسن والحاجي مصطفى ومحمد الأزرق وبدوي كان ينتظر صحبة الجماعة كي لا يتعرَّض للنهب على طريق قصير يستغرق ثلاث ساعات. وعلى كلٍّ حال فإنَّ التخوف من أن يكون وصولنا إلى القلعة بعد ظهر أمس قد خضع لمراقبة البلوات(*) القابعين في الجبال، جعلنا نختار طريقاً التفافياً يستغرق ساعة أكثر من الطريق المباشر، ويمرُّ الطريق الأخير عبر شعيب يوفر مخبأ مريحاً للمشردين وقطّاع الطرق في الحرش، الذي يقع خلفه وسار طريقنا على شكل قوس نحو الشرق، وكان مرافقونا يقفزون



رسم توضيحي لموقع العلا ومدائن صالح

فوق كل تل مع البنادق كي يرصدوا الطريق ويتفحصوه. بعد الساعة العاشرة وصلنا بسلامة إلى نهاية الشعيب الذي كنَّا قد التففنا حوله. وكما تبيَّن فيما

(*) البلوي هو أحد أفراد قبيلة بلي، ويُطلق على عدة أفراد منهم البليان. [ويجمع البلوي على البلويين. (المراجع)].

بعد، فإنَّ بعض الأوغاد كانوا قد كمنوا هنا حقاً طوال الليل كي يقبضوا علينا. أيُّها الأوغاد، هذا ما لم يتيسر لكم والحمد لله، بعد ربع ساعة لمحنا بساتين نخيل العلا، ولم يبق بيننا وبينها سوى خرائب المدينة القديمة، وهي أكوام من الحجارة لا شكل لها، في الصخور عن اليسار تقع كوات الدفن مع النقوش. في الساعة العاشرة والنصف سرنا ركوباً إلى العش ذاته في العلا[1]. والقرية ذاتها تقع في منخفض واقع بين جبلين من الصخور الرملية وهو غني بأشجار النخيل والماء، وهذا ما يجعل القرية موضعاً لداء الحمى، كما أنَّها معشَّة للذباب بسبب طريقة البناء الضيِّقة وحشر البيوت إلى جانب بعضها ولا يمكن تصور ما هو أسوأ منها، وبالطبع فإنَّها تكتظّ بالغبار والقذارة. جميع البيوت ذات طابقين، ويؤدِّي درج من القهوة أو الديوان إلى الطابق العلوي، ومنه إلى سطح صغير في الخارج في وسط القرية صخرة مع القلعة القديمة، وإذا ما صعد المرء عليها فإنَّه يلاحظ وجود مدينة ذات ثلاث طبقات:

1) في الطبقة الأدنى طابق القبو.

2) يقوم فوقه الطابق العلوي.

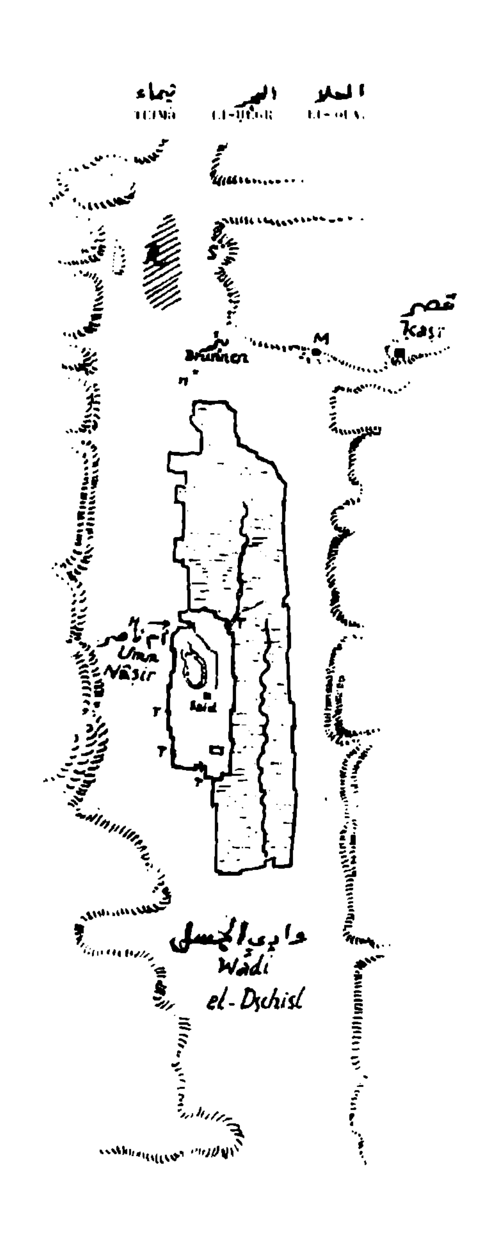
3) في الأعلى مدينة الأسطحة التي ترتبط تقريباً مع بعضها البعض لأنَّ معظم الأزقة مسقوفة جزئياً[2] والبيوت مشيدة عادة من الحجارة، واستعملت فيها مواد كثيرة من البناء القديم، من بينها أحجار منحوتة بديعة من الزمن القديم تحمل زخارف مختلفة، على سبيل المثال الصورة في ص453[3] كما

---

(1) يكتب الاسم بالعربية العلى، العلا وحتى العلة ويرد في الخرائط العُلا وعند شتيلر Sitieler علّي **Alli**، وقد نشر وصف مختصر لها مستقى من يومياتي في العام 1889م في كتاب:
D. H. Müller, **Epigraph.** Denkmler Arabien; P. 8-11.

(2) انظر مقالة:
die Sauten in Arabien, **in der Osterreichisehen Monatsschrift fior den Orient**.16 (1890) P.71-74.

(3) حجارة شبيهة من الشمال الأفريقي انظر مجلة:
Recueil de notices et mem. de la soc, Archéol du Departement de Cinstantine, Vol. 23, 1883- 1884 Constantine 1885 P.1-11.



مخطط العلا

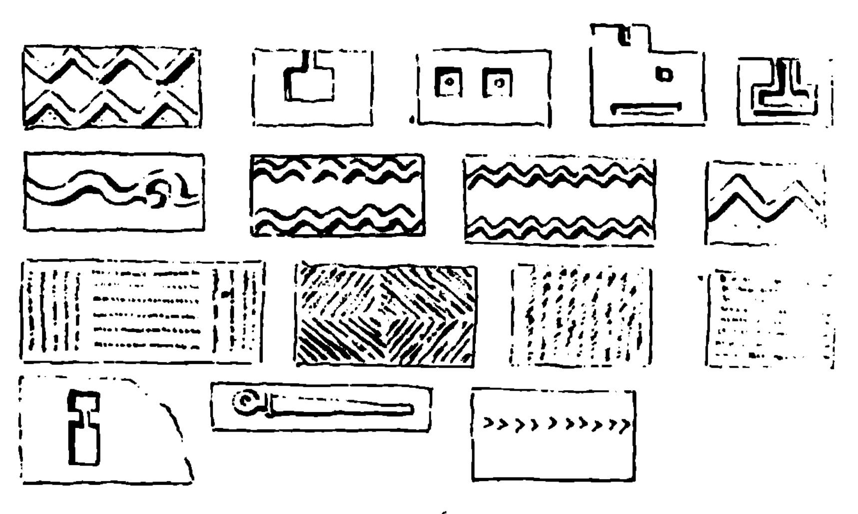
H) المدخل الرئيسي للمدينة

M) وجه مومياء مشوه

S) خبث

R) آثار

أنَّها تحمل نقوشاً كثيرة حصرت منها حتى الآن 21 نقشاً، نسختها جميعها وما عدا حجر نبطي واحد فإنَّها جميعاً حميرية، ويتراوح عدد السكَّان ما بين 1000 ـ 1200 نسمة بينهم كثير من السود بمن فيهم سعيد والي الأمير عليها



زخرفة الأحجار في العلا

فهو أسود أيضاً، ويذكر من بين الأعيان القاضي موسى ثم شخص يُدعى عبد الله، وهو من مواليد دمشق، ويمارس التجارة. وعدا عن هؤلاء نذكر الشخص المثقف نسبياً الذي حدثني عن حملات هرقل وعن قيصرية والقسطنطينية، لا شكَّ في أنَّ الميل إلى الزهد لدى السود أثَّر على زي النساء والرجال هنا، ويرتدي العديد من الرجال ثياباً زرقاء مثلما هو الحال لدى النساء، ولكنَّهم يضعون لها كثيراً من الأزرار النحاسية من الأمام وحتى الأسفل ويرتدون فوقها عباءة بيضاء مع درزات حمراء، كما تعلق النساء كثيراً من حلق الأذن والأنف الضخمة مع قطع نقدية فيها، وتطرز شالات الرأس في أسفلها بالخرز، وإذا كان الأهالي قادرين فإنَّهم يخرجون مسلحين، لأنَّ بعض أفراد قبيلة بلي يكمنون مباشرة أمام أبواب المدينة لسلب أي شيء في هذا اليوم، مباشرة بعد وصولنا الساعة الثالثة بعد الظهر عرَّى هؤلاء امرأة من ثيابها بالكامل وكانت تجمع علفاً من بداية مزارع النخيل وهؤلاء القتلة يذبحون إنساناً دون تفكير من أجل الحصول على زنبيل تمر. أثناء رحلة هوبر الأولى إلى

العلا كان ابن الشيخ وهو صبي في الثانية عشرة من العمر، يلعب مع رفيقه على مسافة ثلاثين خطوة من باب المدينة في موضع شاهدته بنفسي. وعندما مالت الشمس للغروب دخل الفتيان إلى الباب من الداخل، إلَّا أنَّ ابن الشيخ تخلف بضع خطوات عن رفيقه، وكان يحمل معه بالطبع سيفاً لمجرَّد اللعب، فجأة قفز اثنان من الأوغاد عليه لانتزاع السيف منه، ولمَّا كان ما زال يمسك بالسيف بيديه، عضَّه أحدهما في أصابعه عضَّة مزَّقت اللحم ثم سحبا السيف من يده وعرياه من ثيابه بالكامل.

تؤدِّي المدينة وحدها الإتاوة للأمير، أمَّا الفقراء الذين يرعون قطعانهم إلى الشرق من المدينة فيدفع قسم منهم الإتاوة له، وأمَّا القسم الآخر فإنَّه ما يزال يرتحل دون أن يعلن خضوعه، إلَّا أنَّ كلا الجانبين هما في حلف مع بعضهما البعض. وإلى الغرب من المدينة ينزل البلي ويرعون في الجبال، وقد اقتربت سيطرة الأمير معهم، بعد أن أعلن جيرانهم الشماليون بنو عطية خضوعهم له. وفي الجنوب ينزل بنو عكيدة الذين تعرَّضوا منذ عامين إلى السلب على يد بني وهب.

يميل السكَّان إلى الارتحال، والغالبية منهم يجدون أنفسهم لمدة طويلة في بلاد الشام وخاصة دمشق، لا بل البعض في اسطنبول وهكذا سأل عجوز في القهوة، عمَّا إذا كنَّا سنذهب إلى اسطنبول فأجبنا: نعم، إلَّا أنَّه ليس من المؤكد، وربَّما خلال عام، عندها قال وبكل سذاجة: هكذا سترون هناك ولدي، وأود أن أعطيكم رسالة إليه وستقابلونه.

مع اقترابنا من المدينة الصغيرة أقبل ما هبَّ ودبَّ من الأهالي الفضوليين يحملون بنادقهم، إنَّه حشد كبير من الأتباع كان في ازدياد مضطرد، ويتحرك بيننا وخلفنا وبذلك كنَّا ندفع في زحمة الأزقة المسقوفة الضيقة، إلى أن نزلنا في فناء صغير قلَّما اتسع لجمالنا الأربعة، واستقبلنا سعيد الأسود والي الأمير، إنَّه شخص مغاير تماماً لابن الكلب العنقري الشحيح في تيماء الذي لم نستطع الحصول منه على شيء، وكدنا أن نموت جوعاً عنده. وضعت أمتعتنا في بيت شبه منهار، وأغلق عليها، وأما نحن ذاتنا فقد ذهبنا إلى الديوان الذي كان

مكتظّاً بالضيوف إلى درجة الاختناق، وبعد تناول قهوة الاستقبال صعدنا الدرج إلى الأعلى، حيث قدَّم لنا تمر فاخر مع زبدة، وأثناء ذلك عمد إلى عبد بكش الذباب عن وجوهنا دون توقف، ورغم ذلك فإنَّها بعد خمس دقائق كانت دزينات منها تسبح في وعاء اللبن [ومثل ذلك حدث لمحرر اليوميات في تدمر، حوالى نهاية نيسان/أبريل 1900م وما إن وضع طبق نظيف على الطاولة حتى غدا في الحال أسودَ، إذ غطته على الفور طبقة أو طبقتان من الذباب].

لقد اغتبط سعيد غاية الاغتباط بقدومنا، وكان ينتظر وصولنا منذ وقت طويل وكان في غاية الاستعداد للخدمة، وأولى الاهتمام بجميع المؤن المرغوبة للرحلة.

بعد الظهر فاتحني هوبر بموضوع أجَّله مدة طويلة لأسباب غير مفهومة، فتفاجأت به غاية المفاجأة، ومفاده أنَّ الأمير لا يرغب بعودتي إلى حائل (حايل) ولهذا السبب فإنَّه شخصياً يرغب في أن ينفصل عنّي، كي يحضر أغراضنا التي تركناها في تيماء[1]، ويبدو أنَّ حمود، الذي بلغته كلماتي الساخطة من خلال غانم بن باني، قد أصبح عدوي اللدود، واستعمل جميع الوسائل لدى الأمير بحيث يؤمن طردي على نحو لائق. لو أنَّ هوبر أبلغني ذلك في حائل (حايل) لما كنت تفاجأت، وكان بوسعي أن أصطحب بذاتي في الحال أغراضي الخاصة. [لم يكن هوبر بعيداً عن هذا الموقف الذي اتخذه الأمير، وإنَّ قراءة لما بين السطور أعلاه تفضي إلى أنَّه لم يسلك سلوكاً مستقيماً في حائل (حايل)[2]]. والحالة هذه كان في نيَّة هوبر أن يأخذ طريقه إلى جدة عبر خيبر، ويمرُّ بالمدينة، وأن يقابلني هناك ثانية، بينما أتوجه أنا من هنا بصحبة شيخ من قبيلة بلي، سيعمد الآن إلى إرسال من يحضره، وأمكث في البداية في الحجر (مدائن صالح) كي أنسخ النقوش، ثم أجوب بعدئذٍ مع الشيخ بلاد قبيلة بلي غير المتمدنين باتجاه الغرب نحو مدينة الوجه، ومن هذا الميناء الواقع تحت السيادة المصرية، قد تتوفر بسهولة وسيلة السفر على متن باخرة إلى

---

(1) انظر ما مرّ عن ذلك سابقاً.

(2) انظر أيضاً الهامش عن السلم ص483.

جدة، ومن هناك بوسعي القيام برحلة إلى الطائف أو أن أعود مباشرة إلى بيروت عبر قناة السويس(*) وأمَّا هوبر فكان يرغب أن يعود بعدئذٍ من جدة إلى حائل (حايل)، إلَّا أنَّها كانت مجرَّد أحلام مستقبلية زرقاء.

كان علينا بداية التفكير بعواقب انفصالنا، فتقاسمنا النقود أوَّلاً وكانت حصة كل منَّا 270 ليرة مجيدية (تعادل كل منها $4 \frac{3}{4}$ فرنك) ثم تقاسمنا السيجار، وحصل كل منَّا على 25 قطعة، ولم ندخن في الوقت الأخير سوى خرطوشة واحدة من النبتة النفيسة كل 6 ـ 7 أيَّام، ثم جاء دور المواد الغذائية، فحصل كل منَّا على علبة سردين، ونصف الكمية الموجودة من الشاي. وقمت شخصياً بشراء دلَّة قهوة وخرج[1] أمَّا الورق والكينا والحبر وورق النسخ إلخ فقد جرى تقسيمه بالطريقة نفسها. وأخيراً أوقدت النار على السطح وكان بوسعنا أن نتنفَّس ثانية هواء نقياً نوعاً ما.

الاثنين في 17 آذار/مارس 1884م. في هذا اليوم بدأت العمل في الحال، فالنقوش العزيزة لم تترك لي أي وقت للراحة، فكما أشرت أعلاه يوجد في العلا عدد كبير من الحجارة ذات النقوش مدموجة في [جدران] البيوت والأسوار، أثناء تجولي اليوم في المدينة اكتشفت العديد من مثل هذه الأحجار، وممَّا فاجأني أنَّها جميعاً بالخط الحميري [كما تبيَّن لاحقاً، فإنَّ هذه النقوش الحميرية أو العربية الجنوبية تعود إلى فترات مختلفة متفاوتة القدم. وتعتبر العلا ملتقى خطوط الروابط بين العربية الجنوبية القديمة والعربية النبطية، لهذا السبب فإنَّ هذه النقوش ذات أهمية عظيمة في تاريخ شمال الجزيرة العربية وقد نجم عنها أنَّ الاسم القديم للمدينة كان دِوَان[2]، وقد ورد هذا الاسم في العهد القديم تكراراً[3][4]. وفي الزمن عندما كانت دول المقيمين والسبئيين مزدهرة في

(*) الأصل: السوسي. (المترجم).

(1) تظهر في الشكل الوارد في الجزء الأول صورة الخرج بوضوح.

(2) M. Lidzbarski, **Ephemerie für Semitisch Epigrophik** 3 = 273.

(3) أشعيا 21/ 13 وما يليه، آرميا 25/ 23.

(4) انظر ما مرّ سابقاً.

الجنوب العربي كانت تعيش هنا جالية في الجنوب العربي لتؤمن تجارة المرور بين الجنوب العربي وبلاد الشام. إنَّ روَّاد التجارة العربية الجنوبية عاشوا في العلا مثلما فعلوا في الحبشة، وهم الذين نشروا هنا حروف العربية الجنوبية، في البداية كتبوا لغتهم العربية الجنوبية بكتابتهم الجنوبية الوطنية، واكتشف عدد من هذه النقوش. ولكن فيما بعد ـ وهذه نتيجة مفاجئة للدراسة اللاحقة للنقوش التي عثر عليها حالياً ـ نشأت دولة عربية شمالية في العلا كتبت لغتها الخاصة بالرموز التي جلبت من الجنوب العربي، وتبعاً للأسماء التي يتكرَّر ذكرها في النقوش فقد درج المرء على تسمية هذا الشعب اللحيانيين (بنو لحيان) ولغتهم اللحيانية. ويبدو أنَّ زمنهم يتطابق مع زمن السيادة البطلمية على مصر. وإنَّ الدليل الأكيد على ذلك سيكون اسم، تلمي الذي يرد في النقوش، هذا إذا ما كان متطابقاً مع الاسم بطليموس، وعلى كلٍّ حال تعتبر النقوش اللحيانية أحدث عهداً من المعينية السبئية وأقدم من النبطية وسأتكلَّم عنها فيما بعد في يومية 25 آذار/ مارس وقد تعود إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد.

بالطبع قمت في الحال بنسخ جميع النقوش التي عثر عليها هذا اليوم، ولمَّا كنت قد شرعت بنسخ النقوش القريبة من الأرضية فقط، فإنَّ العمل كان سهلاً نسبياً، ومع ذلك فإنَّه في اليوم التالي سيكون الوضع أفضل بكثير. ونظراً لأنَّني كنت مصحوباً بحشد كبير من الناس، فمن الطبيعي أن ينشأ ازدحام رهيب وأنا أنسخ، وما من أمير يمكن أن يحظى بأكثر من هذا العدد من المرافقين.

في المساء وصل أيضاً حيلان موفداً إلى تيماء كبشير من جانب الأمير، وكان عليه أن يزور أمكنة أخرى، فحمل بشارة الأمير في رسالة، وكان في قيافة غير عادية: إذ كان يلبس قميصين وزبونين وعباءتين، وبالإضافة إليها أربع كوفيات على الرأس، واكتظَّت القهوة بأجمعها بالناس، وكان يقف كثيرون خارجها في الفناء، بحيث يسمعون خبر النصر من فم الرجل الذي يتلو رسالة الأمير وهذا يعني من فم خادمنا محمود.

جاء في الرسالة التي أمر هوبر محموداً أن ينسخها له ما يلي: «إنَّ أمير

حائل (حايل) الذي أظهر أنّه في حملة ضد الشمال قوامها حوالى 270 رجلاً على صهوات جيادهم، وحوالى 5000 شمّري على ظهور إبلهم انعطف بقواته فجأة تجاه الجنوب عبر مجمع في شرق جبال طويق على مقربة مباشرة من



تلاوة البشارة بالنصر

سُلفه في وادي الرمَّة وصادف هناك 27 رجلاً من استطلاع الأعداء، فطوقوا وقتلوا في مكانهم، ولم يدعوا سوى اثنين من المشاة على قيد الحياة، كي يستخبروا عن مكان معسكر الأعداء، ومع انبلاج الفجر وغير بعيد عن هذا الموضع هاجموا المعسكرات الموحدة لرجال ابن سعود أمير الرياض الوهابي، وعتيبة الذين فرّوا في تشرين الثاني/نوفمبر، وكان في صفوف المجموعة الأوّل ثلاثة من أبناء عم ابن سعود وقتلوا في الحال، وأمّا ما غنموا منهم فكان التالي: 7 أحمال إبل من احتياطي البنادق، 37 حصاناً، 16 خيمة وقطيعين من الإبل (في كل منهما 200 رأس من الإبل)، وغنموا من عتيبة: 8 قطعان إبل، وخياماً، وكثيراً من الغنم، وعبيداً، وكذلك 7 رايات أرسل منها الأمير اثنتين إلى القصيم خصّ بهما بريدة وعنزة للتفرج عليهما. وراية إلى الروالة، وأما الرايات الأربع الأخرى فقد أمر برفعها على المسحب في حائل (حايل) رمزاً للانتصار».

[إنَّ ما جاء في نصّ بشارة النصر هذه يكاد يتطابق مع تقارير حروب ملك أكسوم التي قادها في القرن الرابع الميلادي، وأمر بنقشها على ألواح

حجرية وقام المحرر بترجمة هذه النقوش في الجزء الرابع من البعثة الألمانية إلى أكسوم].

من الآن فصاعداً سيعلن العتيبة خضوعهم جميعاً، وسيقوم ابن الرشيد، قصر الزمن أو طال، بتقويض العرش الصوري الهشّ للوهابيين المتشددين ولكن الضعفاء، عندها سيستولي ابن رشيد، بحكم الأمر الواقع، على المنطقة الوهابية القديمة بكاملها ويرث حكمها، فقط مع الفارق بأنَّ حكومته ستكون أفضل، وسيسود في ظلِّه نظام أفضل، وبعد حين سيتوطد قدمه على كلا البحرين، وسيغدو سيِّداً على نصف شبه الجزيرة العربية. [هذه النبوءة لم تتحقَّق، بل تمكَّن فيما بعد ابن سعود من قهر ابن رشيد، وطوَّر نفسه إلى قوَّة كبرى، في خريف 1913م أخبرت الجرائد بأنَّه تقوم حتى الخليج العربي(*) واستولى على القطيف، وهو بصدد إخضاع عمان ومسقط، ويُقال: إنَّ لديه خطَّة لاستعادة السيطرة على مكَّة والمدينة].

الثلاثاء في 18 آذار/مارس 1884م. في الصباح تناولنا القهوة لدى القاضي موسى، وبعدها كتبت شيئاً ما، إلَّا أنَّني لم أتمكن من الاستمرار في هذا العمل، إذ إنَّه كان عليَّ أن أفكِّر دائماً بنقوشي، وهكذا مضيت بعد حين إلى النسخ ثانية، وأثناء عملي تأكدت بدقة كم يجدر بمن يشتغل بالنقوش في شبه جزيرة العرب أن يتغلب على كثير من العوائق والمشاق، ولو أنَّه يهزأ بها بحماسه لفنه وشغفه بحب البحث ثم يحمل غنيمته الورقية عائداً إلى وطنه، وهو أسعد وأكثر اعتزازاً من صياد اصطاد أربع عشرة طريدة وأمر بحملها إلى البيت.

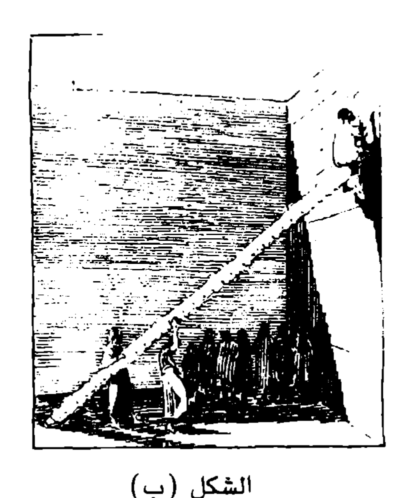
ليس في عملية النسخ التي تتم داخل المتحف على أرض الوطن، من براعة إذ إنَّ الحجر يوضع أمام الناسخ على نحو مريح والورق والماء والفرشاة، وكل شيء في متناول اليد بالراحة، ولا يحتاج المرء سوى أن يتناولها كما أنَّ الريح لا تخطف أوراق النسخ من يده، ولا يحتشد حوله مئات من جمهور المتفرجين المهتمين الذين يغرسون باستمرار رؤوسهم ما بين الذراعين والقدمين،

(*) الأصل: الخليج الفارسي. (المترجم).

بحيث يرون على نحو أوضح سير العمل، ونتيجة لحمقي، وبناءً على نصيحة هوبر فقد تركت السلم في مدائن صالح، ولم يتبقَ أمامي عند نسخ النقوش العالية إلَّا أن ألجأ إلى إحدى الوسيلتين إمَّا أن أصعد على ظهر خادمي محمود (انظر الشكل أ) أو أن أركب على جذع نخلة مرتدياً القميص فقط (انظر الشكل ب)

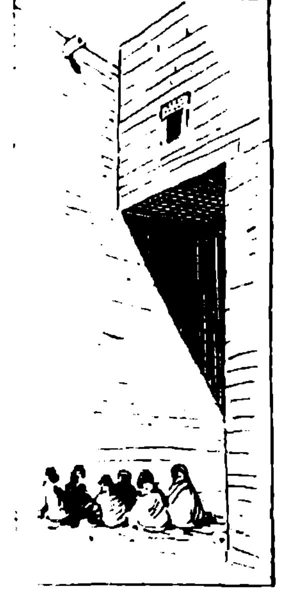


الشكل (أ)



الشكل (ب)

إلَّا أنَّ أكثر الوسائل إحباطاً كانت تلك التي لجأت إليها في بيت يبلغ ارتفاع ممر مدخله ثمانية أمتار، فيه حجر حميري مدمج في الحائط بجانب كوة نافذة ضيِّقة (انظر الشكل).



ولمَّا كانت فتحة النافذة بالغة الضيق فقدت الأمل بالوصول إلى غرضي، عندما أذن لي بدخول البيت المظلم صعدت إلى الطابق العلوي، بحيث أتفحص المكان، وكانت النافذة على مستوى أرضية الغرفة، ودفة الشباك تتحرك فقط حتى الزاوية اليمنى عبر الداخل وقلَّما سمحت سعة النافذة التي يبلغ ارتفاعها 50 ـ 60سم باندفاع الجسد، لقد طرحت نفسي على البطن أوَّلاً، ودفعت

الجسد حتى النصف تقريباً، ثم استدرت لأستلقي على الظهر. ووضع مرافقي عبد الله بن إسماعيل مويز الورق، الذي كان قد ترطب من ذي قبل، على الصدر من هنا نحَّفتّ نفسي وسعيت إلى أن أثبِّت نفسي على حجر من هبات الريح الشديدة وفي الوقت ذاته كان عليَّ أن أمسك بالفرشاة التي دُفعت إليَّ وأن أنجز عملي بقدر ما أستطيع.

وهكذا تسنى لي أن أنجز ثلاث نسخ حجرية، وأثناء العمل كله كان على مرافقي، أن يجثو على الساقين حتى لا أفقد التوازن، وأسقط من النافذة، إنَّ مواطني العلا ذوي المروءة كانوا يهزون رؤوسهم استهجاناً من البداية العجيبة التي تفتقر للحكمة، وكانوا يفكرون في أنفسهم، بأنَّ الحجر يجب أن يخفي ثروات عظيمة من الذهب والفضة، وإنَّني أسحبها منه من خلال ورقي، أو أنَّه يتضمن الإرشادات للعثور عليها. وأمَّا أنا شخصياً فقد عدت بعد إنجاز العمل بصدر منتفخ إلى قصر نزواتنا.

لقد انعقدت في القهوة محاكمة بهيجة، كانت القاعة مليئة تماماً بالناس ودفعة واحدة تدفق مزيد من الناس إلى الداخل إلَّا أنَّهم صعدوا بعد حين الدرج إلى الأعلى، وفي الطابق العلوي انبعث صراخ حاد إنَّها المحاكمة، فالرجل لم يرغب بتسديد الضريبة، وزعم بوقاحة تامة أنَّ الأمير في حائل (حايل) لا يطلب منه شيئاً، فهو ليس أميره، وله أمير آخر ربَّما أمير خاص، وكي يصبح النزاع على شيء من الواقعية، ويتخذ طابعاً أكثر جدية أحضرت عبر القهوة عصا خشب تُدعى خَشَبة أو حبس وأثَّرت في حينها كوسيلة ترويع، فأعرب الرجل عن استعداده للدفع وطلب أن يُتاح له إحضار المال من البيت وأرسل معه اثنان من الدرك، وعندما كان على مقربة من الباب ولَّى هارباً وبالطبع فإنَّ عمل المحاكمة قد مدّد، وإذا ما عاد ثانية إلى العش أو أتى إلى بيته سيزجّ في السجن حتى يدفع.

في المساء كنَّا مدعوين لتناول الطعام عند شخص يُدعى عبد الله، وكان الطعام بمقاييس الظروف المحلية شهياً تماماً، فقدم طبقاً من الأرز، وعليه بصل محمر وبيض مفتت تفتيتاً دقيقاً، ثم لحم ماعز، وصعدت بعدها

إلى سطحنا ودخنت واحداً من 25 سيجاراً التي في حوزتي الآن وتأملت بحزن الدخان المتصاعد لأنَّه لم يبق لديَّ سوى 24. كانت الليلة باردة نسبياً.

الأربعاء في 19 آذار/مارس 1884م. في الصباح جهز كل شيء لمغادرة هوبر، وسلَّمته رسالة إلى الأمير جاء فيها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام من يوليوس ايتينك الي فخر الامراء الكرام محمد الرشيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعده يا سيدي وصلنا الي العله واستقمنا عند سعيد العلي لاجل ينظر لنا رفيق مأمن يوصلنا في الحجر ويوصلنا الوجه ولله الحمد وصلنا تيما وتبوك والحجر الي ان وصلنا العلا لم يحصل لنا ثقله وحزنا جميع الهنا والسرور في انظاركم ربنا يجزاكم عنا خير حيث عند ما كنا في حايل اعرفتونا في المعرفه وطرقونا بالأفضال وكذالك في اي محل لقينا يعملو لنا الاكرام ويحشمونا حسب انظاركم ربنا يديم لنا وجودكم وينصركم على اعداكم ويديم عزكم منع اعدى سلامنا الي حمود العبيد والي عبد العزيز المتعب والي

الرشيد جميع وما حواه مجلسكم العامر ودمتم في ٢٢ جا سنة ١٣٠١
داعيكم يوليوس ايتينك

كان حيلان يرغب بأن يسلك الطريق نفسه الذي اتخذ هوبر. رافقنا الأهالي بأعداد كبيرة حتى الباب، وجرى وداع ودي وتمنيت لهوبر من كل قلبي، بأن تنتهي رحلته الخطيرة بالتوفيق. وتأثرت كثيراً بأن أرى صاحبي الذي ارتبطت معه في بلاد الغربة البعيدة ارتباطاً وثيقاً وتقاسمت معه السرَّاء والضرَّاء، وهو يتوجه إلى المجهول ما الذي سيشهده في قادم الأيام، الآن أصبح كل منَّا يعول على نفسه، والمخاطر تتهددنا من كل النواحي، وإنَّ تمنياتي لهوبر لم تتحقَّق، إذ إنَّه قتل في 29 تموز/يوليو من السنة ذاتها، على أن أملي المحفوف بالخوف من أجل نهاية موفقة لرحلتي قد تحقَّق، والحمد لله.

إلَّا أنَّني لن أستعجل النتائج، بعد وداعي هوبر جلست على السطح كي أرتب يومياتي.

بعد الظهر نقلت أوَّلاً أمتعتي من السطح إلى البيت، لأنَّ سعيداً ذاته لم يعتبرها آمنة هناك، ويرى أنَّ الاحتمال قائم بأن تتعرَّض السرقة ليلاً، حوالى الساعة الواحدة صعدت الصخرة متخفياً ومعي العبد مرزوق وهي تقع في وسط

مكان مقفر يُدعى أم ناصر[1]، وقمت هناك بنسخ نقش حميري ثم نزلت الطريق الخطير مع النسخ ثانية، ووجدت في هذا الإطار بالتسلسل أربعة نقوش جديدة، من بينها نقش نبطي جيد «من السنة الأولى لحكم الحارث ملك الأنباط، وكان تصرف مرافقي العبد مرزوق أثناء العمل بارعاً ومساعداً، وأما الأهالي الواقفون حولنا من جميع الأعمار فكانوا في غاية الإزعاج من الفضولية والوقاحة، وطالبوا جميعاً بالبخشيش. ولم تصادفنا هذه الكلمة ثانية إلّا على درب الحجّاج، ومن حسن الحظ أنّنا لم نسمعها لوقت طويل، وكان أحدهم من الوقاحة بمكان، بأن يطالب بالبخشيش، لأنَّه من بلاد النصارى عندها بصقت وقلت، أنت لست من بلاد النصارى، ولكنَّك واحد من الكذابين.

في المساء تناولت طعام العشاء عند سعيد وكانت الوجبة بسيطة جداً عناصرها من الأرز والخبز فقط.

الخميس في 20 آذار/مارس 1884م. في كل صباح يسمع هنا في الجبال غناء الرعاة، وهو ذو إيقاع موسيقي نسبياً حتى على الأذن الأوروبية، ويظن المرء أنَّه في منطقة البترول، حقاً إنّها المنطقة الجبلية تعلّم أبناءها مثل هذا الغِناء.

غالباً ما يعثر على آثار في خرائب العلا القديمة، وتُدعى الخريبة وقد كشف عنها المطر، وهكذا أحضر إليَّ اليوم صباحاً على سبيل المثال وعاء فخاري عثر عليه بعد المطر الأخير.

تناولت الفطور في بيت غريب ثم شربت القهوة عند القاضي موسى، كما حصل في مرّات عديدة، وأنا أوجه اهتمامي الآن إلى ثياب مرزوق الماهر، الذي قدَّم لي بالأمس خدمات مفيدة وممَّا أثار انتباهي شخصياً على الأقل، إنَّ هذا الإنسان كان يتجول مرتدياً فقط قطعة قماش شفافة، وهكذا عمدت إلى كيس نقودي واشتريت له قميصاً بقيمة ليرة مجيدية.

بعد الظهر أقبل بلوي أي بدوي من قبيلة بلي حاملاً الخبر بأنَّ غزواً أتى بالأمس من الشمال، وفكَّرت فوراً بهوبر وحيلان وكلي أمل أن لا يكونا قد وقعا

---

(1) انظر المخطط أعلاه، ص452.

في أيدي رجال السلب، وبعد حين أخذت تدور حول الغزو مختلف الإشاعات [ويمكن أن تقوم على أساسها دراسة المنهج التاريخي، فشهود العيان والناس الذين سمعوا من شهود عيان، أو أشخاص يعتمدون على ما سمعوه من الأخيرين، يروون هذا الشيء على نحو ويرويه آخرون على نحو مغاير، وهذا الوضع يمكن أن ينسحب على الروايات المحلية حول أقدم حقبات التاريخ العربي]. إذاً في البداية ورد الخبر بأنَّ حيلان ورفيقه، وهو المرافق شمْلاني[*] من قبيلة بلي، قد سلبا مع دوابهما وجميع ما في حوزتهما، وهذا الشملاني ذكر فيما بعد على نحو أدق أنَّه الشيخ سليمان بن رفادة البلوي، وهو يقيم في الوجه ومن الرعايا المصريين. ولكن فيما بعد روي بأنَّ رجال السلب أعادوا حيلان وحاجياته باستثناء ناقته الذلول لأنَّها تحمل وسم الهُتَيم. وأخيراً قيل: إنَّ هذا الخبر الأخير ليس صحيحاً[1] [لا يعلم محرر هذه اليوميات على أي أساس تقوم «عدم صحة الخبر» فيما: 1) إذا كان حيلان يمتلك ناقة بوسم الهُتَيم أو 2) إذا أخذ من حيلان هذه الناقة فقط أو 3) إذا كان الخبر برمَّته خطأ. في الحالة الأولى ما زال كل شيء غير محسوم، وفي الحالة الثانية أعيد إلى حيلان كل شيء وحتى ناقته، وفي الحالة الثالثة لم يحصل على أي شيء بالإطلاق] وسنسمع عن مصير هوبر، مزيداً من التفاصيل في يومية 25 آذار/مارس.

فيما بعد أخذت أتجول في المكان المقفر أفتش عن النقوش، وكانت حصيلة هذا اليوم ثمانية نقوش جديدة حقاً، ولكن يا للهول، هاهما نقشان على درجة من الارتفاع لا يمكنني الوصول إليهما دون سلم، السلم، السلم، لو كان لديَّ سلم.

في هذا اليوم أيضاً أنزلت أمتعتي أثناء النهار من السطح إلى البيت لأنَّه ما من شيء هنا آمن من اللصوص الذين يسيرون فوق الأسطحة. قبل بضعة سنوات أتى تاجر من دمشق إلى هنا، وقد سرقت من على السطح حمولة جملين بأكملها دون أن يظهر منها أي شيء.

(*) شملان: من فروع قبيلة عنزة. (المراجع).

(1) قارن رواية مماثلة للأخبار في الجزء الأول.

أمضيت المساء في الأسرة (!). قبل أربعة أو خمسة أسابيع رزقت حلوة(*) زوجة سعيد بطفل، وهي تشكو آلاماً شديدة في البطن من الجانب الأيسر، وكان هوبر قد أعطاها قبل مغادرته دواء لا مفعول له، في هذا اليوم وعندما كنّا للحظة وحيدين طلبت أن أفحصها على نحو أدق، ويبدو أنَّها تعاني من التهاب في الرحم، وعرضت عليَّ نصف ليرة مجيدية إذا ما ساعدتها في التخلص من آلامها فأوصيتها بلصقات باردة ولفات على البطن، أهدتني حماتها دبسة (أو المرأة الأولى للشيخ) سلة قذرة فأعطيتها بالمقابل نصف ليرة مجيدية.

قدم لنا مع طعام العشاء أرز مع عدَّة قطع من أضلاع الجدي والخبز والحليب الحلو.

الجمعة في 21 آذار/مارس 1884م. لم يشهد هذا اليوم أحداثاً كثيرة، فتهيأت لي فرصة أكبر كي أتأمل في الذباب والقذارة في العلا بصورة خاصة، وفي حياة مدينة في وسط الجزيرة العربية بصورة عامة.

في الصباح التأمت جلسة كبيرة لتناول القهوة لدى سعيد، والصراخ الملازم لها يعتبر بكل تأكيد من مكملاتها [إنَّه تداخل مريع للأصوات، ويتذكر المحرر في الخصوص حديث البربر حيث يتكلَّم عشرة ليسمع شخص واحد].

في داخل بيت عبد الله مويز[1] نسخت نقشاً واحداً حميرياً، ثم ورد الخبر بأنَّ هوبر قد عاد ثانية إلى الحجر، وسينطلق اليوم من هناك.

عدا عن ذلك شهدت اليوم مثالاً مدهشاً يُبيِّن أنَّ المرء مهما أسرع في نسخ نقش من النقوش لن يكون مسرعاً بما فيه الكفاية، قبل أن يتعرض للدمار جرَّاء الصدفة والغباء، إذ إنَّني بالأمس أثناء السير بجانب سور المدينة اكتشفت نقشاً قرب الأرضية، وذلك بجانب ملعب للأطفال، وبالطبع أقبل الأطفال نحوي في الحال، وعندما توقفت للحظة بحيث يحفظ مرزوق الحجر في ذاكرته كي نأتي في اليوم التالي وننسخه، اليوم وعندما تقدَّمنا ومعنا مواد النسخ كان الحجر قد تعرَّض للضرر على نحو يرثى له، فقد قام الأطفال الجهلة بضربه بالحجر من كل

(*) الأصل: خلوة، ويعلق المحرر بأنَّ المقصود بكل تأكيد حلوة وليس خلوة. (المترجم).

(1) انظر أعلاه، ص461.

جوانبه، ومن حسن الحظ أنَّه حجر عليه نقش عربي غير ذي أهمية حسبما تبيَّن لنا [لقد كان على المنوال نفسه حال نقش نبطي قصير في بصرى، قام المحرر بنشره ضمن النقوش النبطية[1] ولحسن الحظ أعد نسخة عنه قبل تدميره، وقام المحرر في العام 1900م، بنسخ نقش آخر على حجر أجمل وذلك في سيغ الواقعة، في جبال حوران، ونشره في ضمن النقوش السامية[2] وأثناء زيارة ثانية للموقع الأثري وجدت أنَّه قد حطم بالكامل وفتت إلى قطع، وكان قصد الأهالي أن يتأكدوا فيما إذا كان يحتوي على ذهب أو فضة، على أنَّ الحالة الأبرز تتمثل في تاريخ نقش مسا الشهير الذي اكتشف في العام 1868م في شرق الأردن، وهو بالغ الأهمية لتاريخ الشرق القديم، إذ قام البدو بتدميره بأن عُرِّض الحجر إلى حرارة حامية، ثم صبَّ عليه ماء بارد. والآن عودة إلى الذباب والقذارة، إنَّ الذباب هنا بالأكوام، ونادراً ما يمكن الفراغ من النسخ دون أن تنحشر ذبابتان، ثلاث، أربع، عشر ذبابات ما بين الورق الرطب والحجر، وبالطبع تنسخ معه. أثناء تناول الطعام وخاصة التمر قلَّما يدخل المرء اللقمة في فمه دون أن يحظى ببعض منها، وإذا لم توضع دلَّات القهوة على الفحم مباشرة يجب أن تغطى بخرقة ويغلق غطاؤها وأن يُسدّ البوز كذلك بخرقة بإحكام، كان استقبالنا الأوَّل في العلا الذي وصفته أعلاه بمثابة فأل للأيَّام القادمة. من الصعب أن يتصوَّر المرء القذارة والغبار في العلا إذا لم يشاهدها بنفسه، كل القمامة، كل القذارة، كل البراز ملقى في الطرق والأفنية، موزع على نحو نابغ، كي يجد المرء في كل خطوة فرصة للدخول فيه، ويمتزج الغبار بمليارات من البكتيريا وأكثر ويحف بالمرء من كل النواحي، إنَّه يدخل في الفم والأنف والعينين والأذنين لا بل وفي مسامات البشرة يراه المرء ويلمسه ويشمه لا بل يعيشه ويبدو أنَّ للقذارة قدسيتها التي لا تمسّ مثل الخنزير.

حوالى المساء ذهبت مع عبد الله مويز إلى بستانه بجانب العين الفاترة التي تبلغ درجة حرارة مائها 28,5°، تعيش فيها كثير من الأصداف الصغيرة من النوع الطويل والمدبَّب مثلما هي في تيماء، بعدئذٍ تناولنا طعام العشاء في بيته.

---

(1) **Nubutaean Inscriptions**, Leiden 1913, P.58.

(2) **Semitic Inscripion** New York 1904, P.90.

السبت في 22 آذار/مارس 1884م. كان صباحاً بارداً في هذا اليوم يحتفل في بلادنا ألمانيا بعيد ميلاد الأمبراطور، ولكن من هو الأمبراطور الألماني، وما هي ألمانيا، بالطبع لا يعرف البسطاء هنا أي شيء عنهما، ولذلك لم يكن مفيداً، وليس بالإمكان أن أشرح لهم شيئاً عنهما. نعم كان من الممكن أن أفترض نوعاً من الدراية في حائل (حايل) على الأقل، لم يتسنَ لنا البدء بنسخ النقوش المكتشفة حديثاً إلَّا بعد قدوم مرزوق بعد ظهر اليوم وكان أحد النقوش عالياً على ارتفاع لا تبلغه شجرة نخيل، أين السلم؟ نعم السلم، الذي كان يصل إلى هذا الارتفاع، إلَّا أنَّه محفوظ في مكان آمن في قلعة مدائن صالح، آه يا هوبر أي بلاء أوقعته نصيحتك، آه منِّي، أنا الحمار، عندما اتبعتُ نصيحتك. فلم يكن بمقدوري بلوغ نقش مرتفع جداً إلَّا بخطر حياة حقيقي، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ الجذع الذي أركبه لم يكن ثابت الرأس، وخشيت أن ينكسر من النصف.

في هذا المساء كان الشخص، الذي رويت عنه أعلاه وفرَّ دون دفع الضريبة، يجلس في القهوة ثانية، بعد أن عاد من منفاه في قلعة مدائن صالح بموجب رسالة أمان من جانب سعيد. وكان يجلس مرتاحاً بجانب نار القهوة عند سعيد أبي علي، ويسعى إلى التحالف معه واستمر المشهد أيضاً في صباح اليوم التالي في القهوة، لكن صاحب البيت في ظل الشكوى والصراخ نسي للأسف طهو القهوة. كانت حرارة الجو خانقة وشعرت بسرور بالغ عندما استطعت بعد الانتهاء من القهوة الجلوس على السطح في الجانب الآخر.

الأحد في 23 آذار/مارس 1884م. في الصباح ساد جو حار خانق، وفي السماء ظهرت غيوم كثيفة وكان جو العاصفة المطرية يلفُّ الأرض.

إنَّ انشغالي اليوم يخصُّ كالمعتاد النقوش. في البداية اقتنيت الحجر النبطي الذي يعود تاريخه إلى السنة الأولى من حكم الملك الحارث[1] مقابل ليرة مجيدية، ثم أمرت بنحته إلى ثلث وزنه الأصلي مقابل 2/ 1 ليرة مجيدية، كي يغدو نقله أيسر. وسعيت إلى أن أحصل أيضاً على حجرين آخرين عليهما

(1) انظر أعلاه.

نقشان لحيانيان. ولكن صاحب الحجر الأوَّل امتنع عن التنازل عنه مقابل ليرة مجيدية، وأمَّا الحجر الآخر، الذي يبدو أنَّه مأخوذ من مذبح صغير [المعبد]، فقد أملت في أن يتيسر لي الحصول عليه مقابل ليرة مجيدية، وفي الواقع حصلت عليه في مساء اليوم التالي. ولمَّا كان موضعه [في الجدار] عالياً جداً، اقتضى الحال أن يفكك أوَّلاً من مكانه في ظلِّ صعوبات بالغة.

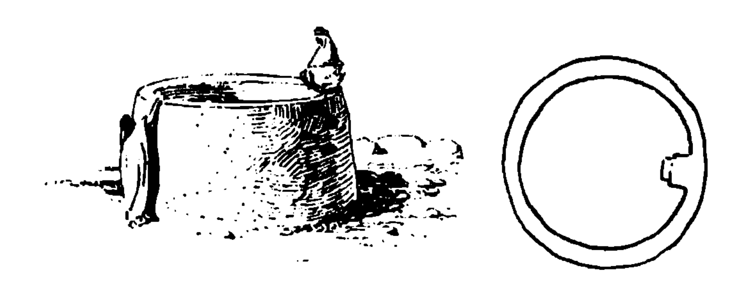
في هذا اليوم بلغ عدد النقوش التي نسختها في جبل العلا النقش رقم 50، ثم أُبلغت بالإضافة إليها عن نقشين في بستان النخيل، واستطاع العبد مرزوق، وهو عبدي الشخصي، بالاستعانة بأنواع البخشيش أن يبدي مهارة كبيرة بأن اكتشف نقشين نفيسين، وأبلغ عن نقوش عربية أخرى لكنَّها كانت عديمة الأهمية. وفي الغالب كان يستدعى إلى بيوت أو إلى جانبها زعماً بوجود نقش، وفي معظم الحالات لم تكن سوى أحجار منحوتة نحتاً خشناً أو أحجار تحمل نوعاً من زخرفة خام. ولكن يجدر بنا الحرص على أن لا يحبط الناس كي لا يمتنعوا عن عرض أي شيء بعد ذلك. كان الذباب في هذا اليوم مجنوناً، ويتأتى هذا من اقتراب هطول المطر الذي انهمر بغزارة وفيرة منذ الساعة الرابعة بعد الظهر وكان مصحوباً بدوي الرعد ولذلك نقلت اليوم أيضاً موضع مبيتي من السطح إلى البيت.

الاثنين في 24 آذار/مارس 1884م. الآن كان عليَّ أن أتعرَّف أخيراً بذاتي على آثار العلا القديمة، فمنذ أسبوع كنت محتجزاً بين أسوار العش البديع، ولو لم تشغل وقتي النقوش بصورة كاملة تقريباً لما استطعت أن أتحمل البقاء كل هذه المدة هناك. جميع الأيَّام كنت أتوق إلى القيام بنزهة خارج الأسوار وأن أمتطي [ظهر الدابة] وأتجول في جميع أرجاء حقل الآثار.

صباحاً مع شروق الشمس وصل إلى قهوة سعيد 23 رجلاً من المسلحين بالبنادق واستغرق بعض الوقت وصول جميع قطعان الغنم والحمير والنساء والأطفال، وأرادوا جميعاً أن يستفيدوا من الفرصة النادرة بأن يبحثوا لمدة ربع ساعة عن الكلأ خارج أسوار العلا. وأخيراً حصلت الهجرة، سار في المقدمة عدد من المستطلعين الذين كانوا ينبطحون أرضاً عند أي ارتفاع في الأرض كي

يستطلعوا المكان. وبالفعل ظهر بعض رجال السلب (البواردية) من قبيلة بلي، إلَّا أنَّهم حولوا اتجاههم تدريجياً مع اقتراب الجيش الكبير.

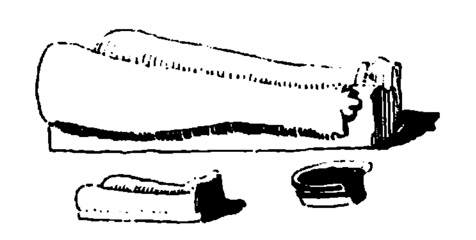
ليست الآثار (الخريبة) سوى كومة مفككة من الحجر الرملي الأحمر تقع فوق تل صغير في واد ما بين جبال عالية، عن اليمين والشمال بعض أشجار الطلح وبينهما الكلأ، وفي وسط الآثار يوجد وعاء مستقر في الصخرة منحوت من حجر رملي طبيعي، وهو ذو حجم هائل وله من الداخل ثلاث درجات مكسرة ويطلق عليه الأهالي اسم حلاوية النبي صالح. وحسب رأيهم فإنَّه الوعاء الذي تبعاً للأسطورة كانت تسقى منه بالحليب ناقة النبي صالح المباركة[1].



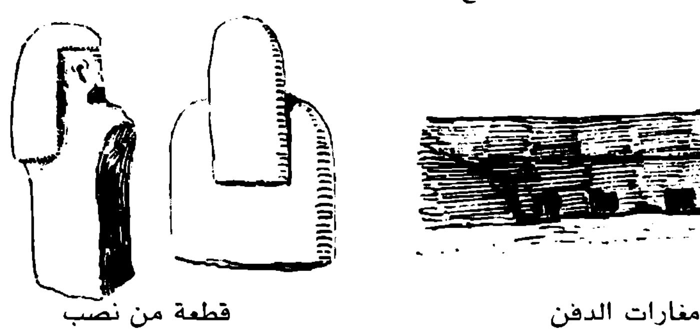
حلاوية النبي صالح

إنَّ كل شيء هنا يذكّرني بقوَّة بحوض دير كنيسة ماورس الذي يقع على مسافة ساعتين عن تسابرن Zabern في الألزاس وسط الغابة. وفيما بعد وجدتُ بين الخرائب زوجاً من عظم الساق لأحد النصب يبلغ حجمه ضعف الحجم الطبيعي وكذلك في حجم أصغر وكان لم يزل يظهر على الزوج الأكبر علامات الصندل، كما كانت تتبعثر بعض بقايا أوعية من حجر صخري مخطط، وأحضر لي الفتيان قطعاً من نصب صغير له زي شعر مصري، ويبلغ ارتفاع القطعة 30سم، وربَّما كان عظما الساقين الصغيرين تابعين لهما.

(1) يحلّبوا فيها الناقة.



قطع [أثرية] في العلا



قطعة من نصب

مغارات الدفن

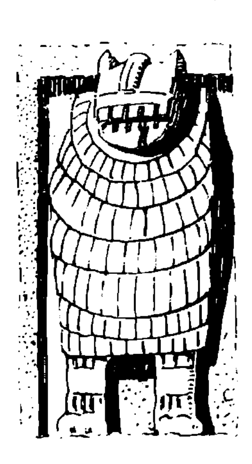
إنَّ مغارات الدفن هنا بسيطة جداً (انظر الشكل)، وما زالت تحتوي بعض بقايا عظام وخرقاً من أكفان الجثامين وشذرات من خشب التوابيت. وصادفت على السفح كثيراً من الخبث الأسود المائل إلى الخضرة، وحدَّدت موضع العثور عليها على المخطط أعلاه ص452.

علاوة على ذلك عثرت على عدد من النقوش، وفيما عدا نقش نبطي قصير يحمل اسم رجل واسم أبيه[1]، فإنَّها جميعاً سامية جنوبية أي معينية ولحيانية وجرى تناول هذه النقوش أعلاه ص456 ـ 457. إنَّ النقوش التي عثرنا عليها مناسبة تماماً كي تبيّن الانتقال من الكتابة الأصلية المعينية السبئية إلى الكتابة السامية الشمالية ـ القديمة.

سلكت طريقي من الشمال نحو الجنوب، لأنَّني خمَّنت وجود آثار من العصر القديم على الجدران الصخرية. وزعم مرافقيَّ أنَّه لا توجد نقوش في

(1) إنَّ هذا النقش مصور في دراسة أويتنغ عن النقوش النبطية في الجزيرة العربية، ص13، Euting, **Nabatäische Inseriften aus Arabien**, 44. وهي منشورة أيضاً في جامع النقوش السامية، رقم 121. والأرجح أنَّ قراءتها على الوجه التالي: النفج بن عبد.

المنطقة الجنوبية الغربية، ونصحوني بإلحاح بالعدول عن هذه المنطقة، لأنَّها خطيرة، إلَّا أنَّني لم آخذ ذلك بالاعتبار، بل تابعت طريقي برفقة أربعة مسلحين، بينما كان مخيم مرافقي في الوادي يتنقل بالموازاة معي، واتخذت قراراً أن لا أندم على شيء، لأنَّني عثرت على حائط صخري في أربع كوات، بيَّنت موقعها في ص452، أعرضه في الشكل التالي، إنَّها أربعة وجوه لمومياء مشوَّهة في كل منها زوجان، يذكِّران في نصف منها بأشكال مصرية وفي نصف الآخر بأشكال مكسيكية، ولها فم مبرقع ويوجد ما بين الزوج الأوَّل نقش سليم لم أشاهده بالكامل بسبب ضيق الدرب فلم أتمكن من الرجوع إلى الخلف، وللأسف لم أصل إليه لعدم وجود سلم لديَّ.





وجها مومياء مشوَّهان ونقش معيني(1)

لقد كتب الكثير حول هذا النقش(2) القائم ما بين صورتي المومياء،

---

(1) إنَّ النقش الوارد ما بين الصورتين أضافه المحرر حسب النسخة التي أعدها له الأبوان جوسن وسافينياك Jaussen, Savigac والمنشورة في **Revlie Biblique**, 1912, P.80. وذلك لأنَّ نسخة أويتنغ غير كافية.

(2) انظر مولّلر، نقوش أثرية من شبه جزيرة العرب.

D. H. Müller, **Epigraphische Denkmäler aus Arabien**, P.51.

مورتمان، إسهامات في دراسة النقوش المعينية.

J. H. Mordtmann, **Beiträgezur Minaïschen Epigraphij**, P.57.

مجلة الكتاب المقدَّس **Revue Biblique**, Nouvelle Serie 9 (1912). P.80

=

ولكن لم يتأتَ التوصل إلى قراءة حاسمة للنصّ وشرح مطمئن إلى حدٍّ ما، إلّا بعد أن قام الأبوان جوسن وسافينياك بإعداد نسخة له. وقام بهذا الأخير [القراءة والشرح] لِدتسبارسكي M. Lidzbarski الباحث المرموق في النقوش السامية، وبموجب شرحه أودّ أن أورد فيما يلي ترجمة للنصّ الكامل على الوجه التالي:

«هانىء بن وهب إيل من قلَح انظر فلتحل لغة تكرح وَوَدّ على من يغيِّر في هذا القبر على مدى السنين والشهور».

إنَّه إذاً نقش قبر معيني مع اسم المدفون، وتهديد بالعقوبة باسم الإلٰه المحلي من الجنوب العربي. وسنرى أدناه أنَّ النبطيين قد فعلوا الأمر ذاته باسم آلهتهم فعبارة «على مدى السنين والشهور» تعني إلى أبد الآبدين.

وهناك نقوش أخرى غير مناسبة من حيث موضعها إذ إنَّها منقوشة على ارتفاع ما بين 10 ـ 15 متراً ولا يمكن الوصول إليها إلَّا من الأعلى من جهة الحصن الذي يبلغ ارتفاعه نصف ارتفاعها.

قصدت مضرب مرافقي في الأسفل، وأنا متعب مجهد حيث جرى تحضير قهوة حلو وقهوة، أي ماء سكر وقهوة صحيحة، ثم تابعنا سيرنا إلى البيت، وكانت تقع أمامنا العلا مع بساتين نخيلها وجدرانها الطينية(*) وهضبة أم ناصر في الوسط، وعندما اقتربنا لاحظت على الأسوار زخرفة مسنَّنة وزخارف متنوعة (الشكل ص473).

كانت عودتنا تشبه موكب نصر حقيقي، وعمَّت الفرحة الجميع، لأنَّ البعثة حقَّقت نجاحاً دون اصطدام مع رجال السلب وسيئي السمعة، وقد سعدوا بأنَّهم كانوا خارج المدينة، وسعدوا بالعودة إلى ديارهم. ها هي القطعان

= لبد سبارسكي، نظرة في النقوش السامية.

M. Lidzburski, **Ephemeris für Semitische Epigraphik** 3, 274.

(*) يذكر النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص422، فأقبلنا على منزلة العلا، ورأينا البيوت والقلعة ذات الشهرة في الملأ قال الشيخ إبراهيم الخياري: «العلا منزل مذكر بطيبه، مثير ما أسكنه الوجد من الغيبة شاهدنا به النخيل الباسقات والفواكه الطيبات» (المترجم).



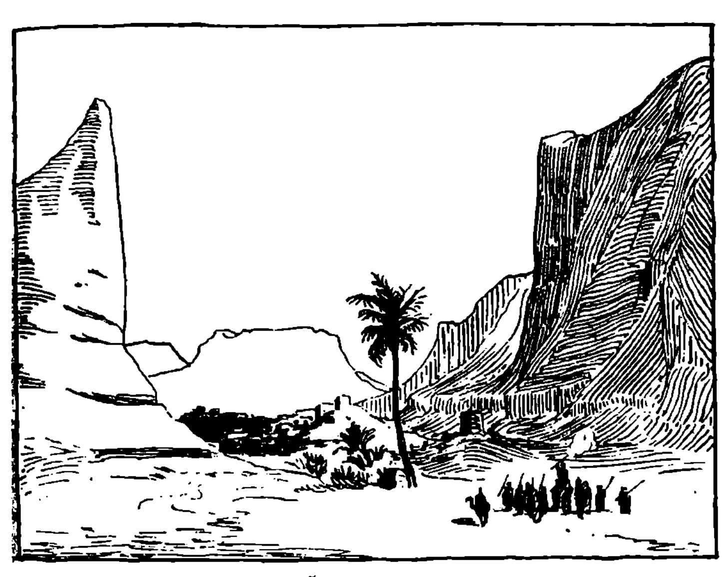
العلا من الشمال

تنطلق في الأمام مسرعة نحو الخارج، ثم أتيت راكباً على ذلولي وقد جنّ جنونه بسبب الذباب، ومن خلفي سعيد الحاكم ومن ثم جميع حملة البنادق في صف واحد وكان أحدهم يرقص أمام الصف، وآخرون يمشون في طابور ويطلقون نار بنادقهم نحو بعضهم، وكادت واحدة أن تصيب أذني؛ وفي كل لحظة كنت أعتقد أنَّ الرصاصة التالية ستخترق رأسي من القفا والمخ لتخرج عبر الجبين، أثناء إطلاق النار سقط أخمص بندقية أحد الجنود.



زخارف مسنَّنة على سور العلا

عندما وصلنا البيت صادفت مرافقي القادم من السفر إلى مدينة الوجه واسمه غضيَّان، وهو أخو شيخ مشايخ بلي مرزوق بن رويحل. بعد مفاوضات مختصرة أبدى استعداده لأن يوصلني إلى الوجه مقابل عشرين ليرة مجيدية، وما زال الأمر يتطلب تأمين جماعة خاصة للحماية بحيث نسير بأمان. وما زال الشخص في سنّ الشباب ويثير انطباعاً طيِّباً، وكان يصطحب خادماً مهلهل المظهر يُدعى عبيد يمتطي ذلولاً أوضح اللون.



العودة من الآثار

في المساء أُحضر إليَّ في البيت المذبح الصغير، وعليه النقش اللحياني، وكنت قد تفاوضت بالأمس بشأنه، وشعرت بالرضى التام عن هذا الاقتناء، وظلَّ لوقت طويل زينة مجموعتي وهو محفوظ الآن في مكتبة جامعة مقاطعة ستراسبورغ [وتبيَّن فيما بعد أنَّ شكله غاية في الأهمية. ويرد في الجزء الثاني من منشورات بعثة أكسوم الألمانية في ص52 و101 للمقارنة مع الأشكال الزخرفية من الحبشة].

لم تنهمر غيوم العاصفة المحدقة مطراً على العلا ذاتها، بل إلى الشمال والشرق من البلدة. استسلمت للنوم، وأنا في غاية الرضى عمَّا حقَّقته في هذا اليوم.

الثلاثاء في 25 آذار/ مارس 1884م. كان يجب أن نتوجه اليوم إلى الحجر، محطّ أشواقي. أجل، هناك موطن النقوش الفخمة، وكانت الأخبار الأولى والأدق عنها قد وصلت إلى أوروبا عبر الرحَّالة دوتي **Doughty**، وهي النقوش التي أثارت توقي لرحلتي في الجزيرة العربية. وكنت أتأمل أن أجد فيها كثيراً من الإيضاحات حول تاريخ العرب والأنباط.

قمت أوَّلاً بنسخ ثلاثة نقوش سامية جنوبية، تقع على مسافة نصف ساعة في بساتين النخيل باتجاه الشمال، وبعد ذلك جهزت كل شيء للرحيل.

نتيجة للتأخير المعهود استغرق جمع الأغراض حتى وقت الظهر. وأثناء ذلك أتى شخص لم يكن يرتدي سوى قطعتي قماش ضيقتين واحدة حول الأعطاف وأخرى على الرأس، وكان للتوّ قد خرج من بلي. رافقنا حشد من الناس حتى أمام الباب، ثم ودعت العلا ونقوشها وأهاليها الفضوليين وذبابها وقذارتها. وكان الكثير ممَّا وجدته فيها طريفاً وهاماً، ولكن أشياء أكثر طرافة وأهمية ما زالت بانتظاري. إلَّا أنَّ هذا لم يكن الوداع الأخير من العلا، فقد كان عليَّ أن أكرره مرة أخرى بعد أيَّام قليلة مثلما التقيت هوبر أيضاً مرة أخرى وكتب لي أن أودعه، وجاء في المثل: «المدروز مرتين يكون أمتن». هذا المثل يتأكد هنا لأنَّ وداعي من هوبر للمرة الثانية، ومن العلا كان نهائياً وعلى مدى الحياة.

حوالى الساعة الثانية عشرة غادرنا وسار غضيَّان في المقدمة مع رديفه عبيد على ظهر الذلول الموضحا، وسرت راكباً في أعقابهما، وكان بإمكاني السير مع البلوي في هذه المرة شمالاً عبر الشعيب الذي يُهدِّد أمانه عادة أبناء قبيلته. وفي 16 آذار/مارس التففنا حوله بكل حذر، وهذا الشعيب يُدعى العذيب وتنمو فيه أشجار نخيل بري وحرش كثيف، وتوجد بينهما آبار مفردة، ولذلك فهو يصلح على نحو ممتاز كمخبأ لرجال السلب. وقمنا بالانحراف يميناً خلف الشعيب عبر مجموعة تلال القرضية.

بعد مضي حوالى ساعتين مررنا بصخرة تغطيها نقوش من مختلف الأنواع، هذا الجدار الصخري مع نقوشه ذات الحروف الآرامية القديمة والثمودية والنبطية والإغريقية واللاتينية يعتبر نصباً لتاريخ الهجرات المتبادلة. وتعتبر جميع هذه النقوش بمثابة نقوش تذكارية؛ فشعوب الزمن الماضي ينقلون أسماءهم للأجيال التالية ويقول المثل الألماني: الحيطان دفاتر المجانين(*). ولكن نحن علماء النقوش والخطوط القديمة نسعد لأنَّ أيدي البشر في الزمن القديم غطَّت الحجارة والجدران بأسمائهم، ولتكن الأخبار التي نقلوها إلينا، في البداية دون معنى، ولا تنمُّ عن شيء ولكن الرموز القليلة تفضي في الغالب

(*) في الأصل: «أيدي المجانين كلطخ الطاولات والجدران». (المترجم).

إلى أهم الاستنتاجات التاريخية واللغوية، وإلى تلك المتعلقة بتاريخ الحضارة والدِّين والكتابة.

رأينا أعلاه أنَّ اللغة والكتابة الآرامية قد حاولت في القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد أن تجد موطىء قدم لها هنا في شمال شبه الجزيرة العربية، ويشكِّل نقش تيماء الرمز الدائم لهذه المحاولة. وكان واحد من الرجال، الذين استخدموا هذه الكتابة قد سار في هذا الشعيب وخلَّف الذكرى التالية:

نقش (خربشات) آرامي

ويعني بالترجمة: «معْنَللهِ وعمه»، وهناك عربي يفضل الكتابة واللغة العربية الوطنية كتب تحية لصديقه وكتب اسمه الشخصي على الصخر.

نقش (خربشات) عربي شمالي قديم

وكما يظهر فإنَّ هذا النقش لم يكتب بوضوح، ويمكن أن تعاد كتابته بحروف عبرية كما يلي:

לבבת׀חבב׀	لبابات، سلام
ואנ׀נעמה׀בנ׀כנעה	وأنا نعمة بن كنعة

ولكن لم يكن متيسراً تغيير الحرف الأوَّل وعوضاً عن حرف ל يقرأ ח وبذلك إمَّا أن يترجم السطر الأوَّل: إنَّني أحيي الحبيب أو لقد حييت صديقاً إلَّا أنَّ معظم النقوش تعود إلى العهد النبطي[1].

(1) ربَّما كان كلا الاسمين متضمنين فيه «معنا الله، نعمه» انظر أويتنغ، **نقوش نبطية من الجزيرة** =

[لقد اعتاد المسافرون العابرون أن يكتبوا أسماءهم أو أسماء آبائهم ويُضاف إليها كلمة شلام (تحية) إمَّا أن تحفر أمام الاسم أو بعده. أو أن تنقش سطحياً. ويستعمل اسم الأب الطريقة نفسها التي تستعمل بها الكنية في أوروبا. ومن هذا تتسلسل إلى الخلف كثير من أسماء الآباء كما يرى المرء من كثير من أسماء يانسن وبيترسن وكريستيانسن إلخ ومن الأسماء الإسكوتلندية مع Mac والإيرلندية O' والسلافية أوف Off وفيتس Witz، والآرامية يان وغيرها. وإنَّني أورد هنا كأمثاله:

نقش (خربشات) نبطي

جاء في النقش الأوَّل:

سلام! سعد اللَّهِ بن أسد

وجاء في النقش الثاني:

إياس بن كليب، سلام[1]!

إنَّ الأسماء عربية قحة رغم أنَّ الكتابة نبطية، ويعتبر اسم سعد الله فألاً فالولد الذي يُسمَّى بهذا الاسم يجلب الحظ لوالديه، وأمَّا أسد فإنَّ الولد الذي يُسمَّى به يجب أن يكون شجاعاً كالأسد. والأسماء مثل ليون ليو معروفة لدينا في هذا الزمان، وأمَّا إياس فإنَّه العطاء، وفي كثير من اللغات يعتبر الطفل بمثابة عطاء الله، وكليب تصغير كلب، وهو صيغة دلع لكلب، وفي العبرية كليب تعني كلب. ويمكن أن يفسر هذا الاسم على وجهين مختلفين. إنَّ اسم «كلب الله» معروف لدى الساميين منذ الزمن القديم والحديث، وقد فسر الاسم من جانب البدو للمحرر على الوجه التالي: بأنَّ من يحمل الاسم يجب أن

= **العربية** ص13 ـ 14. Euting, **Nabat**. Inschr. aus Arabien. **وجامع النقوش السامية** Corp. Inscrip. Sewitie, 22

(1) لقد نشر النقشان في كتاب أويتنغ، **النقوش النبطية** ص13، 46، 50.
Euting, **Nabatäsche Inschriften**, P.13. 46, 50.
انظر أيضاً **جامع النقوش السامية** Corp. Inscript. Semitic. No. 313, 315.

يظلَّ مخلصاً لله إخلاص الكلب لصاحبه، ومن ناحية أخرى فإنَّ الكلب في الزمن القديم كان مهاباً باعتباره حيواناً نزقاً وقوياً. وإذا ما سُمِّي الولد كلب، فإنَّه قد يكون قوياً وخطيراً لأنَّ العرب تُسمِّي أبناءها لأعدائها، وعبيدها لها ذاتها[1]، وهذا يعني أنَّ أسماء الأولاد تعني صفات خطيرة، بينما أسماء العبيد تعني خواص مفيدة. ولهذا تستعمل أسماء العبيد في الغالب للدلال[2].

إلى جانب جميع هذه الأسماء السامية تجذرت أيضاً بعض [الأسماء] الأوروبية منذ الزمن القديم، ها هو الإغريقي كاسيدروموس واللاتيني تيتوس.

MNHCΘH KACCIΔPOME	BENEFIC TITUS
نقش (خربشات) بالإغريقية	نقش (خربشات) باللاتينية

[يرد اسم كاسيدروموس في صيغة المنادى وغالباً ما تستخدم هذه الصيغة عوضاً عن حالة الرفع بشعوبُ الشرق التي دخلت بتماس مع الإغريق، لأنَّ هؤلاء سمعوا أنَّ الأخيرين ينادون على هذا الوجه. ويبدو أنَّ تيتوس كان بنفِيكاريونس أي إنَّه كان جندياً يتمتع بميزات خاصة، تتمثل في أنَّ الضابط المخوَّل أعفاه من الخدمات المعهودة وعيَّنه للعمل في المكتب. أيُّ ناسٍ كان كل هؤلاء الذين نتكلَّم عنهم الآن، وماذا كانوا يفعلون هنا في حجر، أتخيل في ذهني صورة هذه الوديان وقد دبَّت فيها الحياة على نحو مفاجيء. هنا يسير تاجر ممتطياً ظهور إبله ومعه بضائعه وخدمه عبر الشعيب، فيستريح بجانب واحد من الآبار، وينظر إلى الصخرة، ويرى الأسماء. وعلى وجه السرعة يذهب إلى هناك ويكتب أيضاً اسمه عليها تغيب الصورة. انظر ها هي قافلة كبيرة قادمة، عرب مظفرون ومحملون بالغنيمة. إنَّهم ينشدون الانتعاش بالبرودة في ظلِّ جدار صخري، ويريدون أن يسقوا دوابهم، وأن يطفئوا ظمأهم.

---

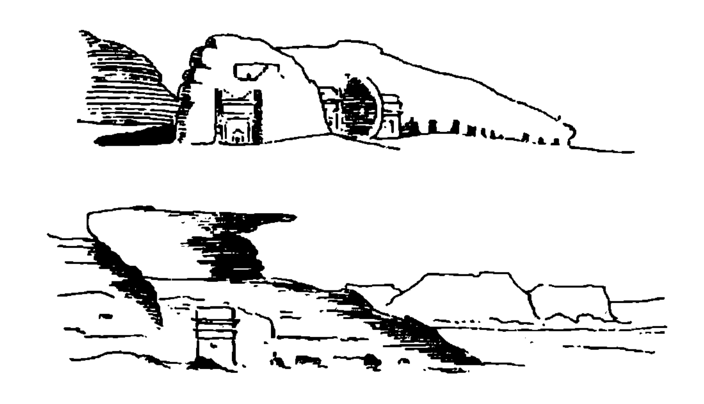
(1) انظر هِسّ، **أسماء بدوية في داخل الجزيرة العربية**، ص7 Y. Y. Hess. **Beduinennamen**.
[وانظر كتابه **الأصمعي** للدكتور عبد الجبار الجومرد، طبع مكتبة المتن في بغداد فقد جاء هذا رداً من الاصمعي على أبي عبيدة عندما عاب هذه من جانب العرب وهي تسمية الأبناء بالأسماء غير المستحسنة وتسمية العبيد بالأسماء اللطيفة. (المراجع)].

(2) بلغريف، **رحلة في الجزيرة العربية** Palgrave, **Reise in Arabien Leipzig** 1867, P.39.

وبسرعة تتشكَّل حلقات صغيرة ويوقدون النار، وتبدأ المسامرة الصاخبة، ويشاهد أحدهم الرموز الكتابية على الصخر، ويتساءل عمَّا تعنيه، وهنا ينشأ حديث محتدم حولها. ويحضر المرء كاتباً يقوم بحسم السؤال. ثم ينصبُّ عليه الطلب أن يسجل أيضاً أسماء الحاضرين «الكتاب الصخري». ولكن من هو تيتوس؟ هل كان نبطياً يخدم في الجيش الروماني، وتعلَّم اللاتينية، واتخذ اسماً لاتينياً، ثم في أواخر أيَّامه عاد إلى موطنه، والآن وهو يقوم بنزهة أراد أن يجرب فنه؟ أم أنَّه كان رومانياً بالفعل وقدم إلى هنا؟ أو أنَّه كان مشاركاً في حملة فاشلة تحت قيادة إيليوس غاللوس Aelius Gallus في العام 24 ق.م؟].

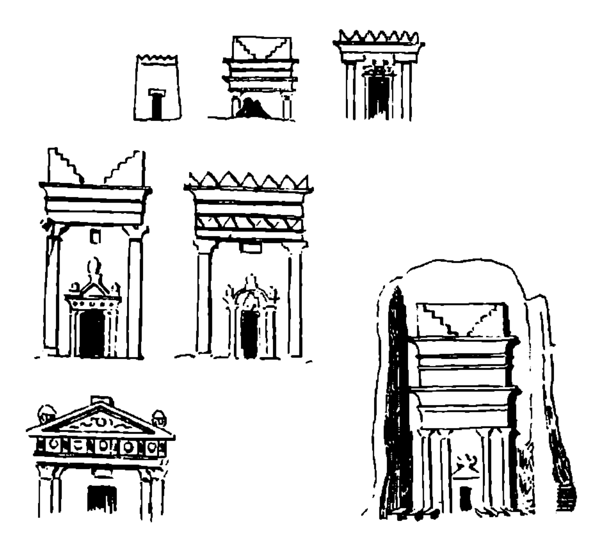
أجل، لقد مكثنا وقتاً طويلاً للغاية بجانب هذا الجدار الصخري، وألحَّ مرافقي على الإسراع ولم تكن لديه أية رغبة في التوقف. ولم يرغب على الإطلاق في السماح بنسخ النقوش شرقي الطريق، وبذلك توجب عليَّ موجعاً أن أدع بعض النقوش من دون نسخ لأوصي بها باحثين لاحقين أكثر حظاً منِّي.

الآن اقتربنا من أبنية الأضرحة الرائعة في مدائن صالح، الأبنية ذات النقوش النبطية الطويلة، وفي دراستها يتجسَّد الغرض الرئيسي لرحلتي وربَّما يسمح هذان الرسمان التوضيحيان السريعان بعرض مظهر هذه القبور الصخرية عن بعد.



جدران صخرية مع أضرحة في مدائن صالح

عندما كنَّا قرب الأضرحة نزلنا وتركنا ركابنا ترعى تحت نظر عُبيد، وهرعت إلى مواضع الأضرحة، وشرعت بالرسم بسرعة، إنَّ القبور الفعلية في الصخر والجوانب الأمامية ذات زخرفة متنوعة وحليات معمارية تبرز من الجدار الصخري. وربَّما تظهر الرسوم التوضيحية المدرجة أدناه الأشكال الرئيسية لهذه الواجهات[1]، ويُدعى الأجمل والأكبر بينها فريد[2]. وهو الشكل الواقع في أسفل الصورة من اليمين.



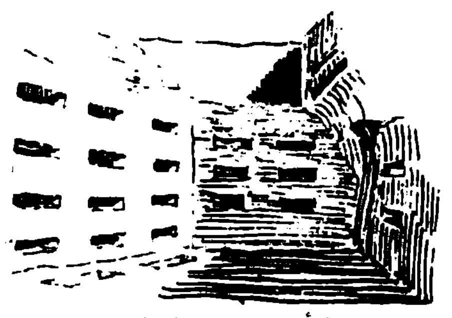
واجهات الأضرحة في مدائن صالح

ولنلقِ نظرة إليه من الداخل، فنجد مستودع الأموات مثل أدراج فارغة أو مثل كوات مطروحة بوضعية معترضة، ومنحوتة في الجدار الصخري. كما توجد نماذج منفردة على الأرضية وهي مثل توابيت دون أغطية.

---

(1) تتيح صور هذه الواجهات بالطبع المجال للتوصل إلى تصور أكثر أمانة وتفصيلاً من الرسوم أعلاه، وهي منشورة في كتاب جوسن وسافينياك. **بعثة في الجزيرة العربية** Jaussen, Savignac, Mission en Arabie، وإنَّ قيمتها الفنية بالمقارنة مع صور البتراء التي درسها عالم الآثار بوخشتاين O. Puchstein في مقالته عن واجهات المدافن النبطية O. Puchstein, die nabatäischen Grabfossaden.

(2) ترد صورة أدق للنصب في كتاب جوسن وسافينياك اللوحة XXXIX 29



الأضرحة من الداخل

أمَّا النقوش النبطية الكبيرة والفخمة التي نشرتها وترجمتها في كتابي «نقوش نبطية من الجزيرة العربية .Nabataische Inschriften aus Arabien» فتعلو المداخل المؤدِّية إلى الأضرحة، ويظهر موضع واحد من مثل هذه النقوش على نحو أوضح في الشكل الوارد في ص478. ولكن لا تحمل جميعها نقوشاً بل جزء منها، وفي حالات أخرى توجد كوات في المواضع التي يتوقع وجود نقش فيها، وربَّما كانت في السابق داخلها لوحة من المرمر أو البرونز. وجميع نقوش هذه الأضرحة نبطية، وهكذا فإنَّنا قد أتينا من النقوش الحميرية في العلا إلى النبطية في الحجر. ولذلك فإنَّه يبدو أنَّ العلا كانت موضع تخزين للبضائع التي كانت ترد من الجنوب، وأنَّ سادة التجارة هناك كانوا من المعينيين والسبئيين، بينما كان مركز الآراميين أو العرب الآراميين في الحجر، وقد يجري في كلي المكانين أو ما بينهما تبديل الحمولة أو تبادل البضائع بين الجانبين. ولكن ينطرح السؤال أيضاً، عمَّا إذا كانت المدينتان قد ازدهرتا في الوقت ذاته؟ أو عمَّا إذا لم تكن الحجر قد حلَّت مكان العلا الأقدم في أهميتها؟ [على أنَّ شيئاً يعتبر أكيداً وهو أنَّ الكتابة واللغة العربية الوطنية، التي تُدعى الثمودية، وكذلك النبطية المأخوذة من الآرامية قد وجدتا إلى جانب بعضهما حتى القرن الثالث الميلادي في هذه المناطق، فلدينا الآن كتابة على قبر في الحجر من العام 267م، وهي تبعاً لمحتواها نبطية مع تلون عربي وتحمل أيضاً كتابة ثمودية جانبية].

ولكن من هم الثموديون، بنو ثمود، الذين ما زال ذكرهم مستمراً

بين العرب؟ فالسكَّان يعتقدون بأنَّه رغم بقايا العظام البشرية والقطع من التوابيت، فإنَّ أبنية الأضرحة هذه كانت مساكن الثموديين القدماء، لكن هذا الاعتقاد يعبر عن تقاليد متبعة منذ زمن قديم واستمر على عين المكان، بل يعتمد على ما جاء في القرآن الكريم فحسب، إذ يرد فيه ذكر شعب ثمود والمساكن التي نحتوها في الصخر وعن كفرهم عندما امتنعوا عن اتباع عظة النبي صالح وجاءت عقوبتهم بزلزال وجاء هذا في الآيات 71 ـ 76 من سورة الأعراف، وفي الآية 80 وما بعدها من سورة الحجر)، إذاً يجب أن تكون قد ذكرت حوالى 600م بأنَّها أبنية أضرحة وقد اختفت في ظلِّ الحرب، بل تقول الأسطورة من عهد النبي بأنَّ هذه الأضرحة كانت مساكن للثموديين، وأنَّ النبي في سفره نحو الشمال قد توقف في الحجر والعلا، وربَّما لم يكن اسم الأنباط في القرن السادس الميلادي معروفاً تماماً هناك، فيما ظلَّ في مناطق أخرى وفي الشام وفي أدنى بلاد ما بين النهرين مستمراً حتى زمن متأخر، ومن المؤكد أنَّ قبيلة من الثموديين سكنت في العهد الوثني في تلك المناطق، وإنَّ الاسم ذاته يظهر على ما يبدو في نقوش من صنف محدَّد. وجرينا حالياً على إطلاق اسم الثمودية على مثل هذه النقوش ولكن الاسم ليس سوى علاج مؤقت.

قبل أن نغادر هذه المناطق لهذا اليوم، نرغب بأن نتجول هناك وأن نحيي بلاد الجبال بالقول إلى اللقاء.

لقد دخلنا والحالة هذه إلى قلعة مدائن صالح، وكم كان اندهاشي كبيراً عندما التقيت هناك هوبر ومحمود ونومان والوجوه الذكية المعروفة لجمالهم. في اليوم الذي تعرَّض فيه حيلان للنهب لم ينج هوبر من الغزو الثاني إلَّا بشقِّ الأنفس، وأمضى اللَّيل وبعض ساعات ما قبل الظهر مع الدواب في مخبأ.

لقد تمَّ له من خلال الترقُّب أن ينقذ نفسه بالوصول إلى القلعة، ولكنَّه علم هناك أنَّ خمسة عشرة رجلاً من بلي يتربّصون به وبصناديقه وما فيها من الذهب، ولمَّا كان أسيراً في القلعة حاول أن ينسخ نقوشاً من الأضرحة، إلَّا

أنَّه وجماعته اضطروا إلى الفرار، لأنَّ بلي كانوا يلاحقونهم. أثناء الطريق وإثر العدو انحلت الحبال من حول السلم، وسقط من على ظهر الجمل، وكان بالإمكان إخفاؤه بين الصخور[1]. في هذا اليوم بعث لي هوبر رسالة إلى العلا بواسطة مراسل، ولكنَّه لم يتمكن من مقابلتي ولم نصادفه أثناء الطريق.

لقد التقيت في القلعة ايضاً علي بن سعيد الذي عاد من غزو الأمير. وكان عليه أن ينقل رسالة حمود العبيد إلى عبد العزيز العنقري في تيماء.

وتبدأ الرسالة بالكلمات التالية: سلام من حمود العبيد إلى الحمار العنقري في تيماء، ثم أخذ يحاسبه لأنَّه قد أساء ضيافتنا ولم يحسن التعامل فيما يخص الأحجار، وفي الوقت ذاته أصدر له الأمر أن يرسل إلى حائل (حايل) أحجارنا المحزومة، وكذلك الحجر المأخوذ من القصر وحجر الخطيب، وفيما عدا ذلك قطعة العمود الذي شُكِّل بحيث تدقُّ به القهوة.

كان مرافقي البلوي غضيَّان قد طلب منِّي إجازة أثناء اللَّيل كي يعود بسرعة إلى العلا مع علي بن سعيد، وهذا يعني أن يحملا معهما للحماية طعام الحفل الذي كان متوقعاً إذا ما عاد الابن، وقد أخذ معه شخصين لقاء ليرة مجيدية لكل منهما، وكانا ينتظران هنا مرافقة.

الأربعاء في 26 آذار/مارس 1884م. كان هذا اليوم عظيماً، إذ إنَّه يفترض أن أبدأ فيه العمل في نسخ نقوشي النبطية التي يتعلق بها نجاح رحلتي برمَّتها لا سيَّما أنَّه عُثِر ثانية على السلم الذي خبأه هوبر. ومن حسن الحظ أنَّ الذباب في هذا اليوم كان أقل ممَّا كان عليه في الأيَّام السابقة، ولكن الريح، الريح. نعم عندما أجلس على ظهر الذلول وأسير عبر صحراء الله الخالية الفسيحة، فإنَّني أُحبُّ وقتئذٍ نسمة هواء طرية، أو حتى عندما تدفع هبَّة هواء قوية شراع زورقي، عندها أكون أيضاً في غاية الرضى. ولكن الريح التي

(1) يلفت المحرر النظر إلى ما يلي: لقد تسبَّب هوبر بأن يبقى السلم، وعاد هوبر إلى مدائن صالح، لأنَّه تعرَّض للإغارة. وقام هوبر بنسخ نقوش كان أويتنغ يرغب بنسخها، لأنَّه لم يكن لديه ما يفعله سواها، لقد ضاع السلم من هوبر، لأنَّه تعرَّض للغارة مرة ثانية، وقام بإخفائه ورغم ذلك هرب من الأعداء بسرعة الركض خبباً، انظر أعلاه ص455.

أصبحت خلال هذه الرحلة خليلتي الأليفة، والتي عمّدتها بسبب مَكْرِها باسم «ريح النسخ». إنَّها تدفع إلى البكاء وفقدان الأمل والسرعة الجنونية، وإذا ما وقف المرء أمام نقش جميل، وملزمة الورق المبلولة في يده، عندها يأتي الرفيق التعيس ويعصف أولاً بالملزمة جيئة وذهاباً، ويدفعها إلى الأمام والخلف. ولكن انتظر إنَّنا لا نسمح بأن نقهر، وإنَّ ورقنا المصنع خصيصاً لهذا الغرض صامد؛ لا يمكنك أن تمزقيه مع كل هبَّاتك. والحالة هذه ما أن تستريح الريح للحظة، حتى ينشر المرء الورق على الحجر ببالغ السرعة، وهو يمدُّ يده ليخرج الفرشاة لينفض الورق، وإذا بالملزمة ـ الله يلعن الشيطان ـ تطير باستهزاء وازدراء من الحجر نحو الأسفل وقلَّما يمكن تثبيتها، والأمر سيَّان فيما إذا احتفظ المرء بالملزمة أو لم يحتفظ بها، ويشرع بالمحاولة للمرة الثانية في هذه المرة يتصرف بمزيد من الذكاء بعد أن يضع المرء ملزمة الورق على الحجر يثبتها بكلتي يديه على الحجر. ولا يزيح اليد عن الورق. وينتظر المرء ثم ينتظر وينتظر آملاً في أن تأتي لحظة تخفّ أثناءها هبَّات الريح، ومثل «ريح النسخ» هذا يهبّ في هذا اليوم.

حوالى الساعة الحادية عشرة عاد غضيَّان من العلا، وفي الساعة الثانية عشرة انطلقنا جميعاً خمسة رجال راكبين على ظهور الإبل واثنان مشاة. قصدت أولاً المجموعة الشرقية من الأضرحة الصخرية. أثناء النسخ كان عليَّ أن أخلع جميع الملابس، كي لا تعيقني، واحتفظت بالقميص فقط وربطته بحبل حول الجسم، ومن باب الحشمة كان عليَّ أن أصحب الطرف الخلفي منه نحو الأمام وأن أعقده بالحبل وبالطبع فقد لفحت الشمس بشدَّة على العنق وبطنة الساق وعلى الذراعين العاريين إذ إنَّني ربطت الأكمام في الأعلى، وفي حالة بعض النقوش المنفردة لم يصل السلم الطويل إليها الذي يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار. كنت أقف تحت تمثال الصقر تحت السقف ولم أتمكن من نسخ سوى جزء فقط لأنَّه كان يحجبها عن النظر، وهذا الجزء فقط لأنَّني كنت أقف تقريباً عمودياً تحت اللوحة وبشكل غير كافٍ، ووجدت في أضرحة إفرادية مصابيح الأموات وقطعاً من التوابيت الخشبية.

حوالى الساعة الرابعة اختتمت عملي، لقد ناضلت في سبيل نقوشي مثل

أسد في سبيل فريسته وعلى الأقل قمت ـ بطبع ـ بعض النقوش الفخمة على نحو جيد، وقد نقلتها جميعاً على أوراق مضاعفة، وللأسف لم يكن بمقدوري أن آخذ العرض الكامل للملزمة، لأنَّها لا يمكن على الإطلاق أن تظل ثابتة على الحجر، ولذلك شققت كل ملزمة إلى أربعة أقسام ووصلت كل قطعة بقطعة، إلى أن تغطي كل الحجر، وكان يجب أن يتم على عجلة زائدة وقد عانى التناسق والمنظر الجميل للنسخ من هذه العملية، ولكن لم يتأثر وضوح الحروف المنسوخة والحمد لله. ووجدت أنَّه من العملي جداً أثناء هذا العمل أن تضم بعض من الأوراق المبلولة وتوضع في خرج عازل للماء وترفع على السلم.

لقد استعد هوبر مساءً وجهَّز كل شيء للمغادرة في الصباح الباكر قبل الفجر، بحيث لا يستطيع مرافقي من بلي رؤية الاتجاه. وأراد أن يتجه شمالاً باتجاه الفقرا الذين كانوا قد دعونا يوم 15 آذار/مارس، ولكنَّنا لم نقبل وقتها دعوتهم.

الخميس في 27 آذار/مارس 1884م. في الصباح وقبل شروق الشمس سار هوبر راكباً، وترافق الوداع مع التمنيات المتبادلة، وقد ساورني ثانية شعور غير مطمئن ومخيف مثل يوم 19 آذار/مارس، إلَّا أنَّ هذا الشعور تداعى بعد حين إثر أفكار أخرى، وقد يقدر القارىء بأنَّ هذه الأفكار تتعلق بالنقوش، وبالطبع سار مع هوبر محمود ونومان الكلب قد أخذ منِّي ـ حسبما تبيَّن لي بعد فوات الأوان ـ شكام جملي السميك الثقيل والجميل مقابل شكامه الهزيل.

بعد الفطور بقليل جاء عبد مبعوثاً من سعيد حاكم العلا وأحضر الرسالة التي وجهها هوبر إليَّ في العلا[1]، ورسالة من سعيد إلى هوبر، وفي الوقت ذاته أوصى سعيد بأن يقول لي أن أخبره عن ساعة عودتي إلى العلا عندئذٍ سيأتي ليلاقيني مع عدد من حملة البنادق.

بعد تناول طعام الفطور سرت راكباً مع كلٍ من البلوات، أي من أفراد قبيلة بلي، ومع مبروك وابن أخيه وخالد، وتوجَّهنا ثانية إلى الآثار، وفي

(1) انظر أعلاه، ص462.

البداية إلى الموضع حيث خبأنا بالأمس السلم وعدداً من النسخ، التي لم تكن قد جفَّت تماماً. وكانت الريح في هذا اليوم رحيمة قليلاً، وكنت أرتدي أثناء النسخ قميص صياد مع سروال صياد وهذا يعني قميصاً وسروالاً داخليين، في حالة جميع النقوش في هذا اليوم كان السلم كافياً لبلوغها على ارتفاع ستة أمتار، أي إنَّني اضطررت إلى وضع ثلاثة قطع فقط من القطع الأربعة التي يتشكَّل منها السلم.

في الجانب الشرقي من حقل الآثار توجد مغائر كبيرة يُسمِّيها الأهالي ديواناً[1] ومسجداً وقد نسختُ هناك كثيراً من النقوش، وفي الديوان وخلفه يوجد عدد من الكوات على ارتفاع مترين.



كوات قرب مدائن صالح

في الساعة الرابعة بعد الظهر عدت متعباً تقريباً وظمآناً إلى القلعة، وفي المساء استمر قلقي لمدة طويلة وبقيت يقظاً من الإرهاق والتفكير بعملي والمستقبل الغامض.

الجمعة في 28 آذار/مارس 1884م. هذا اليوم أيضاً كان مكرَّساً لنقوش الحجر، لكنَّه اليوم الأخير، وهذا يعني أنَّه كان عليَّ أن أبذل كل ما لديَّ من قوى؛ لكي أفرغ منها وكان يرافقني أيضاً شخصان من البلي، بالإضافة إلى حميدة وابنه الشاب خالد والعبد مبروك، وكان يجب أن تدرس بالكامل الأضرحة الجنوبية والشرقية، ويعتبر الفريد الأجمل بين جميع الأضرحة والأكثر زخرفة.

ومن المؤسف أن تهب اليوم مرة أخرى ريح قوية، إنَّها ريح النسخ

---

(1) كانت هذه الكوات على الأرجح معبداً نبطياً؛ انظر جوسن وسافينياك، **بعثة إلى الجزيرة العربية** ص405 وما بعدها.

الملعونة، إلَّا أنَّني لم أسمح لها بأن تخيفني، ولم أتراجع عن أي نقش دون أن أحقق هدفي، فقط في حالة واحدة كانت فيها الريح أقوى منِّي؛ كنت في الأعلى على السلم أقف أمام واحد من الأضرحة الضخمة وكانت الريح تزمجر دون انقطاع، فبذلت جهوداً يائسة حيث أضع الورق على الحجر، وأن أثبته عليه ولكن دون جدوى. وعاودت ذلك مراراً وتكراراً، إلَّا أنَّ هبَّات ريح جديدة حملت الأوراق على الحجر، ولمَّا كان هذا النقش إضافة إلى الظرف غير سليم فقد توقفت عن هذا العمل الذي لا أمل منه كي لا يضيع منِّي المزيد من الوقت. وعندما نزلت عن السلم انتزعت منِّي الريح، مع زمجرة انتصار، ثلاث أوراق، إلى أين مضت بها؟ إلى قواعد التماثيل الموجودة في الأعلى من اليمين والشمال على واجهة الضريح. وبذلك كان بوسعي أن أدرك تماماً غدرها.

بعد الظهر استرحنا قليلاً لنشرب القهوة، لقد كانت انتعاشة مقوية على العمل المجهد.

عندما أنجزت عملي بصورة نهائية، وأحصيت صف المنجز، تبيَّن لي أنَّني قد نسخت 26 نقشاً من النوع الأفضل، مع أنَّ الوصول إليها اقترن بمصاعب جمَّة باستثناء ذلك النقش الوحيد الذي لم تسمح لي الريح بالوصول إليه، وعلاوة على ذلك فقد رسمت عدداً لا بأس به من النقوش الصغيرة.

على أيٍّ وجه اغتنت معارفنا من خلال النقوش حول اللغة والكتابة والأسماء والعادات والتقاليد والتاريخ الخاص بالعرب الأنباط، إنَّ القيام بوصف ذلك ليس له مكان في اليوميات، وربَّما يجدر بالقارىء الرجوع بشأنها إلى المدخل الذي كتبته لمؤلف بعنوان «النقوش النبطية Nabatäische Inschriften» أو إلى الفصول الخاصة بها في كتاب جوسن وسافينياك، بعثة في الجزيرة العربية Mission en Arabie، ولكنَّني سأورد هنا ترجمة لواحد من النقوش الطويلة وأقرن معه بعض الملاحظات، إنَّه النقش رقم 2 بين نقوشي النبطية وهو في جامع النقوش السامية رقم 197 Corpus Inscriptionum Sewiticarum وعند جوسن وسافينياك ص156 رقم 8 وقد جاء فيه حرفياً ما

يلي: «هذا الضريح أمر بعمله عائذ بن كحيل بن الكسي لشخصه بذاته ولأولاده ولأحفاده وللشخص الذي يبرز من يد عائذ وثيقة أصيلة سارية المفعول بالنسبة له، ولمن سمح عائذ في حياته أن يدفن فيه. في شهر نيسان من السنة التاسعة من حكم الحارث ملك الأنباط الذي يُحبُّ شعبه. وليلعن دوشرا ومنوة وقيساة كل من يبيع أو يشتري أو يرهن أو يهدي أو يؤجر أو يكتب عنه أي نصّ آخر أو أن يقبر فيه أي إنسان باستثناء المذكورين أعلاه، وهذه المغارة الخاصة بالأضرحة ونقشها مصانة لا يجوز مساسها تبعاً لطبيعة مقدَّسات الأنباط والسلاميين إلى أبد الآبدين».

ليست هذه سوى نوع من وثيقة الوقف لمغارة الضريح، وإنَّ معظم النقوش الطويلة الأخرى قد صيغت بصورة مشابهة، ويرد فيها صاحب الوقف مع اسمه واسم أبيه[1] ويذكر أيضاً بين الحين والآخر لقبه مثل قائد الفرسان وما شابه ثم ترد أسماء أفراد من الأسر الذين خصص لهم هذا الضريح بعد ذلك يأتي التاريخ، بعدئذٍ يُشار بدقة إلى من يحق له أن يضع جثة في القبر وأحياناً مع بيانات جزئية، ومن يتصرف بصورة مخالفة سيتعرض إلى لعنة الآلهة أو ينبغي عليه أن يدفع، مثلما هو الحال في آسيا الصغرى على سبيل المثال، غرامة محدَّدة، وفي الغالب تسرد المخالفات بالتفصيل الدقيق. وهذا يُبيِّن أنَّ مثل هذه الأمور تحدث في الغالب وإلَّا لما منعها المرء من باب الحيطة وفي الأخير يُشار ولا شك كما هو الحال هناك إلى عدم جواز انتهاك الضريح وكذلك النقش، وفيما عدا ذلك يذكر أيضاً نُحَّات الحجر الذين نفذوا عمل الضريح.

لقد حكم الملك الحارث الرابع من العام 9 ق.م حتى العام 60م. وإنَّ نقشنا يعود إذاً إلى العام 1 قبل الميلاد، ذلك في الشهر نيسان أي أبريل، وكان الحارث يلقب بفيلو باتريس، أي من يحب وطنه، ويكمن في هذا اللقب شعور بالاستقلال ومناهضته للرومان الذين يحكمون العالم، وتعود جميع نقوش الحجر تقريباً إلى زمن حكمه، ومن خلال ذلك يتبيَّن أنَّ دولة الأنباط كانت تشهد ازدهاراً في ظلِّ حكمه.

---

(1) انظر أعلاه، ص477.

إنَّ دوشرا ومنوة وقيساة هم آلهة عربية، ويُدعى دوشرا عند الإغريق والرومان دسارس وهو الإله الرئيسي لدى الأنباط، ويتطابق مع باخوس وديونسيوس، وأما مناة فهي إلهة القضاء والقدر، وتذكر في القرآن الكريم في سورة النجم.

وإلى جانب الأنباط يذكر أيضاً السلميون الذين يسمون بالنبطيّة «قوم سلم» ويعرفون لدى القدماء بأنَّهم حلفاء الأنباط، ويتكلَّم عنهم سطيفانوس البيزنطي، وتعرف مصادر يهودية اسمهم، وفي شمال دولة الأنباط في مدينة أم الجمال الكبيرة إلى الجنوب من بصرى يذكر أحد أفراد هذه القبيلة[1].

أثناء اللَّيل ذهب العبد مبارك إلى العلا كي يخبر سعيداً، بأنَّنا سنغادر مدائن صالح في صباح اليوم التالي، ويجدر به أن يلاقينا مع مسلحين، ولكن في الليلة نفسها المظلمة بدأت أيضاً قوى مظلمة تلعب لعبتها المشؤومة التي ما لبثت أن تطورت إلى مأساة كبيرة، وكان الأشخاص المعادون في هذه المأساة ثلاثة من رجال السلب من قبيلة جهينة الذين وصلوا اليوم ليلاً إلى القلعة وأعلن عن وصولهم نباح الكلاب العالي من بعيد.

السبت في 29 آذار/مارس 1884م. حوالى الساعة السابعة صباحاً غادرنا مدائن صالح، كنت أشعر بالغبطة والارتياح وقلت عن طيب خاطر كلمة الوداع الأخير لهذا العش المقفر، وللمنطقة المقفرة، لأنَّني قد أنجزت عملي وفرغت من مهمتي وبلغت غايتي ولكم أتمنى لو قُيِّض لي أن أكون الآن آمناً في الوجه. من حين لآخر كنت أنظر إلى الرفاق الغامضين الذين انضموا إلينا، إنَّهم رجال السلب الثلاثة من جهينة على ظهر جمليهما، لقد بدوا لي مثل غراب البين، ولم تكن نظراتهم لتنبىء بما هو طيِّب لقد سرنا في الطريق نفسها الذي سلكناه يوم 25 آذار/مارس ويطلق عليه درب الجندي[2]، مقابل الصخرة حيث عثرت سابقاً على النقوش الإغريقية[3] وجدت اليوم نقشاً نبطياً ترجمته كما يلي:

---

(1) انظر ليتمان، نقوش نبطية Littman, **Nabataean Inschriptions, Leiden** 1913. P.42.

(2) إنَّه على الأرجح الطريق العسكري لأنَّه الطريق المباشر الذي تسير عليه القوات.

(3) انظر أعلاه، ص478.

ܐܠܗ ܒܪ ܚܪܡ ܫܠܡ

نقش (خربشات) نبطية

«آلِه بن حرام، سلام»[(1)].

إنَّه سلام وداعي من الجزيرة العربية، ومن عملي في مجال النقوش، ويُضاف إلى ذلك أنَّه جاء من «ابن حرام» فهل يمكن أن يكون هذا مؤشراً إلى ما سيحدث؟ حرام وحرامي لهما وقع متشابه جداً وكلاهما يشتق من الجذر نفسه.

أثناء الطريق صادفنا نباتاً يابساً أبيض مثل الثلج، يشبه هراوة عربية، ويُدعى برنوق، في وادي عديب[(2)] نزل حملة البنادق الذين أرسلهم سعيد لملاقاتنا. بدءاً من هناك كان بوسعي أن أعيد المسدس إلى موضعه، لقد كان اليوم حاراً للغاية، وكانت السماء مغطَّاة بطبقة من الغيوم، وبذلك زادت وطأة الغيظ وأصبحت العيون تتألم إذا ما نظرت في الضوء المبعثر.

في الحال بعد وصولي إلى العلا كان عليَّ أن أشتري كل الأشياء الممكنة التي كنت أتوقع أن يمنحني إيَّاها سعيد دون مقابل، واشتريت تمراً ودقيقاً وتبغاً وطاستين إضافة إلى الزي النسائي المحلي إلخ، إنَّ العبد مرزوق[(3)] الذي كان في السابق خدوماً ونجيباً استغل غيابي كي يفتش عن نقوش، وبالفعل اكتشف في بستان النخيل ثلاثة أحجار حميرية، وقد عكفت على نسخها، إلَّا أنَّه تبيَّن لي أثناء ذلك أنَّني كنت قد نسخت نقشين منها.

لقد وصل من بلي اثنان من إخوة غضيَّان أحدهما أكبر منه ويُدعى سالم وآخر أصغر ويُدعى محمد وهما يبغيان أن يرافقونا في السفر إلى الوجه.

خلال المساء تلبَّدت السماء بأكملها وأثناء اللَّيل هبَّت عاصفة مثيرة

---

(1) انظر أويتنغ، **النقوش النبطية** Euting, **Nabat. Inschripten**, P.13. N;12. جامع النقوش السامية رقم 309 إلَّا أنَّ النقش هناك ما زال غير مقروء بشكل صحيح.

(2) انظر أعلاه، ص475.

(3) انظر أعلاه، ص463.

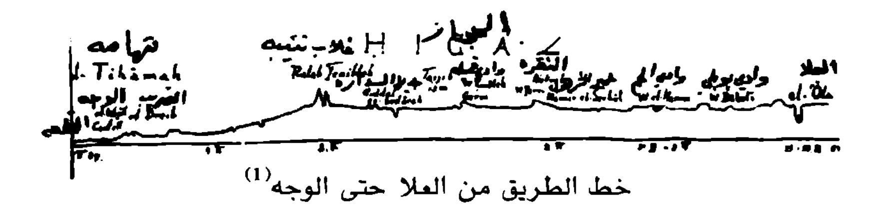
للذعر. إنَّ غبار العلا الذي سعيت أن أقدِّم صورة باهتة عنه أعلاه شكَّل دوامات في أحجام لا تصدق فوق الأسطحة وكان عليَّ أن أحمل سريري من على السطح إلى البيت في الأسفل.

الفصل الخامس عشر

الخاتمة

الرحلة من العلا إلى الوجه

30 آذار/مارس ـ 15 نيسان/أبريل 1884م



خط الطريق من العلا حتى الوجه[1]

الأحد في 30 آذار/مارس 1884م. إذاً يتوجه النظر الآن نحو الوطن، بدءاً من اليوم ينبغي أن تسير الطريق فعلاً نحو الوطن، إلَّا أنَّه يجدر بي أن لا أستسلم إلى آمال بالغة السرور، إذا لم أنعم بالأمان، بكل تأكيد كنت في غمرة الشعور السار بأنَّني لا أحتاج إلى العودة مرَّة أخرى إلى عش الغبار والقذارة، حسبما يطلق على العلا، وكان هذا يعني الكثير، وبالطبع حصل في الصباح عندما كنت أريد الانطلاق بعد الفطور مباشرة، كثير من التأخير، هنا ينقص هذا وهناك ينقص ذاك وهذا الحمل غير متوازن في جانبيه وذلك الجمَّال غير موجود في المكان اللازم، وهناك جمل لا ينيخ وآخر لا يرغب بالنهوض، وكل ذلك يقدم مادة لنقاشات حامية لا شك في أنَّ النقاشات استغرقت زمناً أطول بكثير ممَّا استغرقه التحميل ذاته.

وأخيراً بلغ الأمر الحدّ الذي مكَّننا من الانطلاق، وكانت قافلتنا تتشكَّل من شخصي وغضيَّان وسالم ومحمود وعبيد، وكان لدينا أربع دواب، وودعت

(1) نظراً لأنَّ الخريطة بخطّ أويتنغ غير متوفرة، وضعت المحطات على خط الطريق الذي رسمه بذاته ويتوضح الطريق من خلال الخريطة العامة.

على وجه السرعة سعيداً ثم انطلقت نحو باب العلا، وسرنا ركوباً أوَّلاً في وادي الجل العريض باتجاه الجنوب ثم انحرفنا غرباً كي ندخل شعيب أم الهشيم، وفيما بعد في شعيب أبو بلي الكبير، وفي الطريق حضرنا الشاي والخبز، وأثناء ذلك قتلت أفعى سامة بطلقة مسدس ولم ننزل للمبيت في وادي الحم إلَّا بعد غروب الشمس.

الاعتداء يوم 30 آذار/مارس 1884م(1)

التقرير الأوَّل

«قمنا مرة أخرى بتحضير الشاي، وأكلنا التمر، ومن خبزنا، وكنَّا في صدد الاستلقاء للنوم، وكان يفترض أن يتولَّى سليم وعبيد الحراسة عند مدخل الشعيب، بحيث يحذراننا من غارات جهينة، بعد وقت قصير جداً عادا راكضين نحونا يصرخان بأصوات رعب مريعة وطلبا منِّي أن أدافع عنهما وقالا: إنَّ هناك في الأمام ستة عشر رجل من جهينة، وقد عرفاهم من خلال قدح النار لإطلاق بنادقهم، ويجب أن يعلم المرء أنَّ غضيَّان وعبيد قد سبق لهما أن قتلا في السابق عدداً منهم، وينبغي أن يظلا دائماً على استعداد لكل طارىء قفزت من مكاني بالقميص ومعي المسدس، وركضنا إلى الأمام، وسترنا أنفسنا خلف حرش، وأطلقت من مسدسي طلقة في الهواء أوَّلاً، إنَّه صراخ فظيع. فصاح غضيَّان: «يا بلي، يا جهينة» لكي يعرف من أي قوم هؤلاء، ثم ضللناهم بإثارة ضجَّة حرب كبرى، وبنداء للرجال كما لو أنَّنا عشرون شخصاً، وقد أشار لي أصحابي إلى حرش يفترض أن يكون بعض الأشخاص قد اختبأوا وراءه، فأطلقت ثلاث طلقات وأصبت بحول الله واحداً من هؤلاء الكلاب في كتفه حسبما تبيَّن فيما بعد، وكان هذا على مسافة عشر

(1) أورد هنا حول هذا الاعتداء، الذي سيبقى في ذاكرة كل شخص من أصدقاء أويتنغ، بما اتسم به وصفه من حيوية، تقريريه بدقَّة دون أي تغيير تحريري فيهما، ويقتصر التدخل على علامات الوقف والإملاء، والتقرير الأوَّل متضمن في سجل اليوميات في يومية 30 آذار/مارس والثاني في النهاية بعد يومية 20 نيسان/أبريل.

خطوات، وهذا يعني أنَّ الطلقة استحكمت، ويُقال: إنَّ غضيَّان أصاب شخصاً آخر خلال هذا المشهد القتالي أطلقت خمس مرات ووفرت في ذخيرتي، وللأسف فقدت ست خرطوشات مسدس بسبب ثقب في جيبي، ولا أمتلك الآن سوى تسع طلقات، وأمَّا كبسول البنادق فلا أمتلك منه شيئاً، وفي تلك الأثناء كان محمد وعبيد قد حملا الإبل، وسرنا على ضوء القمر الشاحب ذي الأربعة أيَّام نتلمَّس الطريق لمدة ثلاث ساعات إلى مضرب خيام بلي، وكان هؤلاء ينزلون وادي الحم، ولاحظنا بالإضافة إلى ذلك بعض مواقد النار، وكانت الكلاب تنبح، ونزلنا على مسافة حوالى 200 خطوة من الخيام.

لقد أمضينا ليلة قلقة وأحضروا لنا في منتصف اللَّيل شيئاً من الحليب للشرب».

التقرير الثاني

«يجدر بي أن أصف الاعتداء من جانب جهينة في يوم 30 آذار/ مارس على نحو أكثر دقَّة.

ونحن نخرج من وادي أبو بلي كانت الشمس تميل إلى الغروب وسرنا عبر سهل وفير الكلأ، وعن اليمين من فوقه طريق للمشي كثيف نسبياً بأشجار الطلح الشوكية[1]، ولم يرغب مرافقي بالنزول، بل متابعة السير طوال اللَّيل حتى الوصول إلى خيامهم الواقعة في الجبال والتي تبعد من ثلاث إلى أربع ساعات، ولم أتمكن من دفعهم إلى تجهيز طعام العشاء عند مدخل وادي الأنفس إلَّا بالتهديد بتخفيض البخشيش. وكنَّا قد نزلنا وراء بعض أحراش الغضى[2]. وكان القمر يشرق بضوء خافت فوق الطبيعة، لقد جلست مع غضيَّان وأخويه الأصغرين لوقت بجانب النار وفي نفسي رغبة في الاستلقاء للنوم، عندما أعلن سالم أخو غضيَّان الأكبر والخادم الأعور عبيد أنَّهما سيرجعان إلى الخلف 50 خطوة، ويستلقيان ويحرسان بحيث لا يقترب أي

(1) إنَّها أكاسيا سيال Acacia Scyal.

(2) إنَّها على الأرجح نوع من الأثل Tamarix.

شخص مشكوك فيه، ولم تمضِ خمس دقائق على ذهابهما حتى عادا راكضين، كان الهلع يسيطر على عبيد بينما طلب منِّي سالم بإلحاح أن أتناول السيف والمسدس والبندقية إذ ينزل بالقرب منَّا عشرة أو أحد عشر من الحرامية، في البداية اعتبرت هذا اختلاقاً، واعتقدت أنَّهم افتعلوا هذا المشهد كي يروا إن كان الخوف سيعتريني وأوافق على رغبتهم في متابعة السير ليلاً حتى خيامهم. ولذلك حافظت على هدوئي نسبياً وأعطيت السيف لسليم وكانت لديه بندقية، وأما غدارتي ذات السبطانة الواحدة (هدية من العم غوتلوب ماير) فأعطيتها إلى غضيَّان، وأما أنا شخصياً فقد أخذت أجري بالقميص فقط، ومعي المسدس، وكنت في المقدمة أصدر الأوامر (يا الله، وين الكلاب، بسم الله)، وفي الوقت ذاته، أخذ مرافقي يصرخون بصوت عال مع نداء بالأسماء لجميع الأشخاص الذين يخطرون في البال (اسمعوا لدينا درك، دعوني أبدأ بتقديم الشكوى ضدكم) سألت سالم، أين هم هؤلاء الأشخاص فقال: قف، قف، إنَّهم مباشرة خلف الحرش، لقد رأيتهم وهم يقدحون النار، كي يشعلوا فتيل بنادقهم. فأطلقت ثلاث طلقات مسدس وراء بعضها البعض في الحرش دون هدف، وناديت عبيد في الخلف بأن يأتيني بخرطوش للمسدس ذي الاثنتي عشرة طلقة، ثم أطلق الاثنان الآخران بندقيتهما، بعد ذلك سادت حالة من صمت المقابر، ولم يكن بوسعي أن ألبي الطلب بحشو البنادق ثانية لأنَّه لم تتوفر لديَّ ذخيرة للبندقية لقلَّة الحذر من جانبي، ولم ألاحظ إلَّا فيما بعد، أنَّ الكبسولة لم تشتعل وأنَّ هذه العبوة لم تنطلق، وأمَّا المسدس فقد لقمته وأطلق مرة أخرى طلقة أو طلقتين، عندها قفز غضيَّان صائحاً: «يا بلي يا جهينة»، وتوجه نحو الأمام ـ الأمر الذي لم أستوعبه ـ وهو يقول لي: إنَّه ينبغي أن أمتطي ذلولي الذي كان أعيد تحميله في تلك الأثناء وأن أسير إلى الأمام. بعد فترة وجيزة عاد وهو يحمل الخبر، بأنَّهم من جهينة، وقد أصبت واحداً منهم في كتفه المندفع نحو الأمام وهو يصوب فنزلت الطلقة إلى الرئة وأصيب آخر في الرأس ربَّما كان هو الذي أصابه، وعندما سألته من أخبره بكل ذلك لم يكشف عنه ولم يشأ الاعتراف بأنَّه كان مع جهينة جماعة من قبيلته (بلي)، وقد دخل مع هؤلاء في حديث على وجه السرعة، لكن رجح عندي فيما بعد أنَّ

الجماعة ـ يا للعار ـ كانوا فقط من بلي فيما عدا الثلاثة من جهينة الذين عرفناهم في مدائن صالح، وبذلك أخذنا نخب لساعات في الليل دون توقف تقريباً حتى وصلنا خيام الشيخ مرزوق.

ولم نحصل على شيء من الوضوح حول القضية إلَّا في صباح اليوم التالي من خلال شاب من بلي يُدعى محمد الذي سار بعدئذٍ معنا حتى «طيّب اسم» لقد كان أفراد جهينة ثلاثة وهم الذين كانوا وصلوا إلى قلعة الحجلا ليلاً ونبحت عليهم الكلاب والذين تناولوا معنا طعام العشاء، وساروا معنا حتى العلا، كم كان عدد رجال جهينة الآخرين، وكم كان عدد بلي أثناء الغارة، هذا ما لم أتمكن من استنباطه، لقد كمن الأوغاد بما فيه الكفاية تحت أشجار الطلح تلك على يمين طريقنا، حيث أردت النزول. وبعد أن تركوا ركابهم تسلَّلوا في اللَّيل. وهكذا فشلت خطتهم، لم أكن قبل ذلك أتصور على الإطلاق، أنَّ المرء يمكن أن لا يشعر بأيٍّ نوع من تعذيب الضمير وأن ينعم بنوم مريح عندما يتسبَّب في قتل شخص أو بالأحرى شخصين (هذا بالطبع باستثناء حالة الحرب) وقد يعود هذا إلى أنَّني لم أرَ الجثث.

لقد قاموا بدفن القتلى في الليلة ذاتها وبقيت كومة تراب[1] وبقعة دم كبيرة تدلُّ وحدها على مكان حدوث المعركة».

الاثنين في 31 آذار/مارس 1884م. تقرَّر مصيرنا، لقد قتلتُ واحداً من جماعتي، بين إخوة وأبناء قبيلة الرجل، الذي سقط نتيجة إصابته بطلق ناري من جانبي، أصبحت خارج نطاق حماية القانون. وإنَّ واجبهم المقدَّس أن يأخذوا الثأر منِّي، وتجاه ذلك كان عليَّ أن أبقى حذراً، ولحسن الحظ أنَّني كنت لدى قبيلة حليفة لي يقوم بينها وبين أعدائي[2] تارات دم.

في الصباح قبل شروق الشمس انتقلت إلى خيمة بلي، ولكن لم يقدم لي أي طعام بل قدم شيء من الحليب الحلو للشرب وجاء إلى عندي بعض

---

(1) ويرد حولها في مخطوط أويتنغ لليوميات، كومتا حجارة، وهذه الأصح ولا شك أنَّ البدو يدفنون موتاهم بأن يجعلوا فوق الميت كومة حجارة.

(2) رغم أنَّه لم يذكر في أي موضع بأنَّ القتيل من جهينة، إلَّا أنَّه هو المفترض.

الشيوخ الفضوليين وكثير من الحثالة الفقراء، ولمّا كان هؤلاء البلويين لا تتوفر لديم قهوة، وأنا أيضاً لم يعد لديَّ منها، فإنَّني كنت مضطراً إلى أن أقدم الشاي ضيافة، ولكن لم يكن لديَّ سوى القليل من السكر، ولذلك قدّمت الشاي بدون سكر، وخلال فترة ما قبل الظهر تجمَّع الناس عندي وكأنَّها وليمة لهؤلاء الحثالة الفقراء، وشارك في ذلك بلوي شاب يُدعى محمد كان بالأمس من بين رجال السلب (الحرامية)، وقد روى بأنَّ الغارة برمَّتها كانت بترتيب من اللصوص الثلاثة الذين سرت معهم من الحجر حتى العلا. هؤلاء الأوغاد الذين بدو لي آنذاك في الحال بأنَّهم رهيبون وسمجون لقد احتفلوا بي اليوم كبطل بسبب عمل البطولة الأعمى في مساء الأمس. وأبدوا جميعاً الرغبة بالتفرج على سلاحي وهي رغبة من الشيوخ لم أستطع رفضها.

أثناء جميع الأحاديث والزيارات نشأ في داخلي شعور شديد بالجوع، لم يكن الشاي الخفيف كافياً لإسكاته. وأخيراً حوالى الساعة الثانية بعد الظهر أحضر لي مضيفي أرزاً مع اللحم وبذلك توقف الجوع شيئاً ما.

كان فضول النساء والأطفال والرجال مقيتاً، عندما طردتهم كي أغتسل وأتخلص من جزء على الأقل من غبار العلا فوجَّهوا أنظارهم إلى جميع شقوق الخيمة لينظروا إلى داخلها واستغلت امرأة مع ابنتها وجودي بمفردي لبضع دقائق كي تشرح لي مرض ابنتها بسذاجة لا يمكن تصورها، وعلى وجه العموم وجدت أنَّ النساء وقحات إلى درجة غير معهودة والأطفال صاخبون وجميعهم يمارسون الاستجداء إلى أبعد الحدود، وخاصة فيما يتعلق بالتبغ. هؤلاء هم إذاً الناس النبلاء الذين تورطت في العيش معهم وأصبحوا إذاً أصدقائي وإخوتي وربطتني بهم مسألة أخذ الثأر من جهينة.

في المساء أمرت بتحضير الخبز من دقيقي الخاص، وأكلت إلى جانبه بعض التمر، ثم استغرقت في النوم رغم الثرثرة بجانبي حول النار.

الثلاثاء في 1 نيسان/أبريل 1884م. كان ينبغي أن أمضي هذا اليوم أيضاً في المنطقة نفسها المقرفة، لقد كان بودي شخصياً متابعة الرحلة بالسرعة الممكنة واستيقظت لهذا الغرض قبل شروق الشمس، ولكن لم أتمكن من دفع

مرافقي إلى ذلك، وأصروا على قضاء هذا اليوم أيضاً مع جماعتهم، وقد حمل هؤلاء جميع الخيام وكل أداة، إذ إنَّهم نقلوا مضربهم إلى وادي الحم، على مقربة مباشرة من المكان الذي وقعت فيه الغارة يوم 30 آذار/ مارس، وعلى وجه العموم يحرص البدو على أن لا يكون مضرب خيامهم التالي بعيداً عن السابق قدر المستطاع.

أثناء الطريق نزلت مع جماعتي في مكان جانبي وأكلنا هناك بعض التمر دون إزعاج.

بعد استراحة قصيرة في ظل رائع تابعنا السير ثانية، وحوالى الساعة التاسعة وصلنا إلى موضع مضرب الخيام الجديد، في هذا المكان كان بانتظاري يوم آخر مليء بالعذاب في وسط هؤلاء الحثالة من رجال السلب البلي الأفظاظ والمستجدين.

وبالطبع دار الحديث مرة أخرى تكراراً حول الغارة، وقيل لي: إنَّ الشخص الذي قتلته يُدعى سليمان بن سلامة، وإنَّ الطلقة أصابته في الكتف ونزلت نحو الأسفل إلى الرئة، وخرجت من الظهر، وإنَّ الشخص الآخر الذي قتله صدفة غضيَّان أصيب في الجبين وتوفي في الحال. في هذا الصباح شاهد جماعتنا القبرين على عين المكان، كما رأوا إضافة إلى ذلك كثيراً من آثار الدم. وأمَّا أنا شخصياً فلم أشاهد أرض المعركة على الإطلاق، يا للغرابة، ربَّما كان الخوف من الدم أو ربَّما الشعور بالخطر المحدق بي هما اللذان حالا بيني وبين أرض المعركة.

في الصباح الباكر عند الانطلاق كان شخص مقرف يجلس بجانب النار، وأصر على عدم الاستجابة للدعوات المتكررة كي يذهب واستمر قابعاً، بعد ذلك وعند مضرب الخيام الثاني تقدَّم وقال: «إنَّني أخو ذلك الذي ذبحته[1] بالأمس فقلت: يا الله، أنا رميته بالرصاص، لم أطلب قدومه، لماذا كان يريد الإغارة عليَّ؟ بعدئذٍ بالغ في الوقاحة، وأراد أن يتلمَّس كل شيء، وفي آخر المطاف اضطررت إلى طرده بالتهديد بالمسدس، وفيما بعد سعى أن يحسن من

---

(1) وردت في هامش الأصل «في المتن» رميته بالرصاص.

سلوكه. وأراد أن يعتمد صداقة معي، وهذا ما لم يحظَ به بالطبع، إنَّني أخشى فقط أنَّ الأوغاد قد يكمنون لي في موضع من الطريق، ونظراً لثقل نومي قد أقع بسهولة ضحية لهم، إنَّها عموماً أعجوبة، إنَّني نجوت من الثأر في الوقت الذي يعرف عنِّي أخو القتيل أدقِ التفاصيل.

كان الشيخان مهنا الواسطي ومرشد بن رفادة يستجديان التبغ على نحو مريع، وأتوقع أن لا يتوفر لدينا بعد يومين ما ندخنه، إنَّها فكرة فظيعة، وعدا عن ذلك فإنَّ جميع هؤلاء التعساء كانوا يرغبون بلمس كل شيء؛ كل غرض أمتلكه ينتقل من يد غير مغسولة إلى أخرى، لا بل إنَّهم تفحصوا الشدَّاد، أي رحل الذلول[1] عشرين مرة في اليوم من جميع الجوانب، كل شيء أثار فضولهم سجادتي، وثيابي وحتى القميص الذي ألبسه على جسدي.

بعد الظهر كنت أراقب الكيفية التي كان الشبان يسددون بها، فقد ثبتوا ورقة على الصخرة اتخذوها هدفاً للتصويب، وينبغي أن أعترف أنَّهم سددوا تسديداً صحيحاً نسبياً، وهو ما لم أكن أتوقعه بعدئذٍ انشغلت بالخياطة، فقد رثيت أوَّلاً ثقب جيبي المقيت الذي كلَّفني ضياع بضع خرطوشات ثم تفحصت بإشفاق زبوني[*] فقد اكتظَّ بالثقوب التي نجمت عن الاحتراق بالفحم، وتنتظر اليد الماهرة، هل يجدر بي أن أصلحها أم أدعها؟ كلا لقد كان عددها كثيراً، وفضَّلت التخلي عن ذلك وعدم التجاسر على عمل لا فائدة منه.

كان عليَّ مرة أخرى أن أنتظر طويلاً جداً حتى يقدم الطعام، وعندما استمر تأخر الطعام فضلت أن آكل قطعة خبز قديم، وأن أخلد إلى النوم.

الأربعاء في 2 نيسان/أبريل 1884م. عندما قوضت جميع الخيام قبل شروق الشمس، كنت في غاية السرور، فلم أذرف دمعة واحدة على البلي

---

(1) يرد الوصف الدقيق له في كتاب يوليوس أويتنغ، دراسات شرقية مهداة إلى تيودور نولدكه Y. Euting, **Orientalische Studien, Theodor Nöldeke gewidmet.** انظر ملاحظة هِسّ حوله في **مجلة الإسلام** Der Islam, Vol. 4. 1913, 314- 316.

(*) يقصد القميص، ملابس داخلية. [الزبون ثوب فضفاض مفتوح من الأمام وهو أعلى الملابس وليس داخلياً. (المراجع)].

الذين رحلوا مع خيامهم في اتجاه جنوبي شرقي ونبست شفتاي بلعنة الارتياح، ولكن ما من أحد سمع ذلك، فقد كنت وحدي واعياً للغتي الباطنية أما نحن الآخرين أي غضيَّان والشيخ مرشد وعبيد ومحمد الذي كان في ليلة الغارة مع جماعة جهينة، فقد مكثنا بعض الوقت في مكان قريب بانتظار قدوم قافلة من ستة جمال ستذهب معنا إلى الوجه، إنَّهم يبيعون هناك السمن، وما شابهه، ويشترون بالمقابل سلعاً أخرى خلال وقت الانتظار تناولنا الشاي والخبز والتمر.

عندما أُعطيت الإشارة بأنَّ القافلة ما زالت بعيدة وهي تتقدم نحونا سرنا مباشرة نحو الغرب عبر شعيب صغيرة ووصلنا بعدئذٍ عبر معبر إلى وادي الحم ثانية ومررنا بموضع نزولنا للمبيت ليلة 30 آذار/مارس ومن وادي الحم أتينا إلى وادي الشلُّل حيث نزلنا عند فتحة ماء تُدعى أبو حمادة وملأنا القُرَب ماء وحضرنا الشاي وأكلنا شيئاً من الخبز.

ثم تابعنا السير وكانت الشمس تحتجب نسبياً خلف الغيوم والضوء متناثر والجو ضاغط، والغريب أنَّ الإبل بجلدها السميك أكثر حساسية من الخيول تجاه الذباب اللعين، فتنتهز كل فرصة من وجود شجيرة أو مؤخرة جمل بحيث تحشر خشمها وتبعد عنها المنغصات بين الحين والآخر كانت تتصاعد هبَّات رياح قوية، ونحن نسير في شعيب شرهوت أخذت السماء تتلبّد بالغيوم، وفي وادي رباعة في موضع يْدعى الحمير نزلنا وحضرنا الخبز وأكلنا التمر وشربنا الشاي، ومع غروب الشمس بدأ هطول المطر، وأخذ ينهمر بغزارة أثناء الليل، ممَّا أثار قلقي بشأن النسخ، إذ إنَّها كانت ملفوفة فقط بورق وبقميص، وكانت موضوعة في خرج جمل عتيق، ومع هطول المطر أدرجتها أيضاً بإزار السفر (بلَيْد) على وجه خاص ووضعتها طيلة الوقت تحت غطاء سريري، إنَّها دون أدنى شك أنفس من كل شيء أحضرته معي من رحلتي، وبذلك فهي تستحق أن أحفها بالرعاية كما تحنو الأم على ولدها، وكما يرعى العربي حصانه الأصيل.

الخميس في 3 نيسان/أبريل 1884م. صباحاً قبل شروق الشمس

حضرت الشاي ثم انطلقنا على الفور، لن أتلكأ إذا ما قيض لي في هذا اليوم قطع مسافة طويلة اقترب بعدها من هدفي النهائي ومن التحرر من هؤلاء المرافقين الذين سئمت صحبتهم. لقد نزلنا من معبر النقرة الصخري الموحش إلى وادي فري العريض[1] وفضلت أن أنزل عن ظهر ذلولي بسبب انحدار الطريق وبعد أن عبرنا وادي قميلة لاحقاً استرحنا بعد مسيرة ثلاث ساعات بجانب موضع فيه ماء يُدعى المليحة، هناك حضرنا الخبز وأكلنا التمر وشربنا الشاي.

بعد الظهر صعدنا معبراً يُدعى «طيب اسم» ووجدنا هناك الماء الجاري وبجانبه بعض أشخار النخيل البرية والاسم مختذل ولا شك من طيبة الاسم أو الطيبة الاسم، وهذا الاسم بالذات يتكرَّر وروده كثيراً في البلدان الناطقة بالعربية ولقد سعى الأستاذ كليرمون ـ غنو Clemont- Ganneau[2] أن يُبيِّن بطريقة ظريفة، أنَّ هذا الاسم بصفته اسم مكان مشتق من نبات صغير يُدعى بهذا الاسم، ومن جهة أخرى أشار روبرت هارتمان R. Hartmann إلى أنَّ الأمكنة التي تحمل أسماء غير محبَّبة يغير اسمها إلى طيب اسم أو الطيبة[3] من قمة المرتفع نزلنا إلى شعيب عجيب، عسير لا تسلكه الإبل إلَّا بصعوبة بالغة ووصلنا بعد ذلك إلى جذِّيل السدارة ووادي القدير حتى اقتربنا من الجبلين المتشكلين على نحو ساحر وهما غلب والثنبَّة وبتنا في الصُّفاح.

الجمعة في 4 نيسان/أبريل 1884م. الآن شرعنا بالسير السريع ودون توقف آه، ما زال يوم واحد، ما زال مبيت ليلة معكم أيُّها الأوغاد، بعدها، غداً غداً، آه ليس في وسعي أن أختلق أصدقائي، لم يعد لي مزاج للطبيعة ولما يدور من حولي. كنت أصر على المضي قدماً وأردت أن أبتعد عن الناس إذ كان منظرهم في كل دقيقة يبلبل أفكاري.

---

(1) يذكر المؤلف اسماً آخر له وادي ثري.

(2) مجلة **Recueils d'Archéokgie Orientale**, 2. P.21.

(3) انظر **مجلة جمعية المستشرقين الألمان.**

Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. 65, P.536.

قبل شروق الشمس انطلقنا وبعد شروق الشمس صادفنا كثيراً من الحمام البري والأرانب، وأثناء الطريق تفحص مرافقي متشككين بعر الإبل الطري، وتراجع مزاجي منخفضاً إلى درجة كبيرة، وعندما كنَّا نهبط فيما بعد شعيباً منحدراً، وأرسلنا عبيد مع القِرَب ليحضر الماء، سمعنا فجأة أصواتاً، ماذا حصل؟ هل هم من جهينة الذين يلاحقوننا، هل كان المطالبون بالثأر يتعقبون أثري. هل غدا كل شيء الآن دون جدوى، هل أغرق في الأمواج في اللحظة التي أرى فيها الشاطىء المنقذ قريباً أمامي؟ عندها عقدت العزم على أن لا أبيع حياتي بثمن بخس، إلَّا أنَّ غضيَّان طلب منِّي بداية ليرتين مجيدتين كي يهدىء الأعداء عند الضرورة، فأعطيته إيَّاها. وبعد حين تبيَّن أنَّ قافلة من قبيلة عنزة كانت تقصد الوجه أيضاً، إلَّا أنَّ غضيَّان احتفظ طبعاً بالليرتين، وكان لدى عنزة 180 جملاً وهم مثل مرافقي يبغون بيع سمنهم مقابل الأرز والقهوة وغيرها، وكان غضيَّان والشيخ يعرفون معظمهم الرجال، بعد ساعة استرحنا قليلاً ثم تابعنا السير مع جميع الأشخاص، وهم بمجملهم من كثير أو قليل يطلقون حناجرهم بعبارة هيك هيك الملعونة[1] ومن بعدها غناء مريع.

كان الطريق رتيباً جداً، في المساء تجمع في وادي ليله ما هبَّ ودبَّ حول النار، وهم يأملون بأن يستجدوا من عندنا قهوة وتبغاً وبما أنَّ هاتين المادتين لم تتوفر لدينا، فقد انسحب معظمهم بخيبة أمل، ومكث بجانب النار شيخ وثلاثة من البليان ممَّن كانوا مع الحرامية الخمسة عشر الذين كانوا قد كمنوا في مدائن صالح لصديقنا هوبر[2]، وقد سألوني، فيما إذا كان صحيحاً أنَّ هوبر يمتلك بندقية تطلق 20 رصاصة، فأجبت كلا إنَّه يمتلك بندقيتين تطلق كلٌّ منهما 30 رصاصة لأنَّني تركت لديه بندقيتي.

ليلاً تساقط كثير من الندى وقد أقلقني مرَّة أخرى بسبب نسخي.

السبت في 5 نيسان/أبريل 1884م. قبل ساعة من شروق الشمس كانت

---

(1) انظر الجزء الأوَّل.

(2) انظر أعلاه.

القافلة بأجمعها تشق طريقها، وحضرت شاي على وجه السرعة وشربت، من يستطيع أن يصف بهجتي، هل رأيت حقاً نوارس البحر؟ آه أيتها الطيور الحبيبة، يا من تحملين البشرى البهيجة، إنَّ بول دي لاغارد **Paul de Lagarde** يحسدكم على حريتكم وينشد[1]:

وعندما تلمح النورس البحر
وهو يرسل الموجة تلو الموجة إلى الشاطىء
وتتكرَّس في الخارج موجة على موجة أخرى
فإنَّها تنقض بسرعة
عائدة إلى البحر مثل طفل
لا يخاف البحر
وعلى ذلك البحر الجبَّار
تلقي نظرة مطلقة صرخة المتعة
ثم تحلق وتحلق وتنظر

وأما أنا فأشكر لكم تحيتكم من البحر التي نقلتموها إليَّ باكراً في هذا اليوم لقد قطعنا مسافة طويلة قبل أن نتوقف لتناول فطور سريع الآن انتهى الطعام السرمدي الخبز والتمر والشاي. ويمكن الآن أن نتناول الأشياء الشهية، كم كان طعم الشوكولاته وبسكويت ألبرت لذيذاً في فمي.

حوالى الظهر وصلنا إلى الشعيب الذريب، حيث سحب الماء بسرعة من حفر الماء (البلع)[2] وسقيت الإبل، وبعد حين ظهرت خلف الشعيب قلعة الوجه الواقعة على درب الحج المصرية والتي وصلنا إليها بسرعة ثم بعد حوالى ساعتين، شعرت بهما وكأنَّهما سرمديتان، وصلنا إلى مدينة ميناء الوجه ذاتها، وهي تحت السيادة المصرية، يا لهذه المشاعر! آه لقد تسنى لي أن أرى البحر ثانية، كميات من المياه، آه تهلَّت تهلَّت.

(1) انظر **كتابات ألمانية**. **Deutsche Schriftenm göttingen** 1892, P.291.

(2) يذكرها في **الكشاف العربي** الملحق بهذا الجزء باسم بلاعة جمعها بلع.



قلعة الوجه

إنَّه وحده من ذاق الجفاف والعطش في الصحراء، وعلى مدى أشهر لم يشاهد نهراً أو ساقية أو عيناً، يعي روعة نعمة الله الماء الذي لا تشبع العين من منظره، نعم يشعر بأنَّه يرتع بمباهج الفردوس.

والآن كان عليَّ أن أعود إلى شبه إنسان حضري، وفي أعماق قلبي كنت سعيداً أنَّني تخلَّصت الآن من البدو، لأنَّ ميلهم إلى الاستجداء والاستئثار والكذب وقذارتهم وجلافتهم وعدم انقيادهم وصلت لديَّ إلى ذروة القرف، إنَّ انعدام إحساسهم بالوقت وإلحاحهم على الضيف يدفع إلى القنوط وقذارتهم لا توصف، وليس لديهم أي تصور بأنَّ الماء إذا ما كان يعجُّ بالوسخ، غير صالح للشرب، وإذا ما اتسخت السجادة بالتراب والرمل، فإنَّ ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة لهم، وإذا ما نهضوا فإنَّه من الطبيعي أن ينفضوا عباءتهم بما فيها. وإذا ما سأله المرء فيما إذا كان الماء متوفراً في الطريق فإنَّهم يقولون واجد، واجد أي بوفرة، وإذا ما وصل المرء إلى عين المكان فإنَّه قلَّما يجد ما يكفي لملء مطرة ميدانية؛ وإذا ما سأل المرء فيما إذا كان موضع المبيت ما زال بعيداً، فإنَّ الجواب يأتي قدامنا، قدامنا وبالطبع لن يكون وراءنا، وإذا ما سأل كم يبعد فيأتي الجواب قريب، قريب ويفهم منه بأنَّه قرن بقرة ويمكن أن يكون 3، 4، 5، 6 وأيضاً ثماني ساعات، وفي بعض الأحيان مسيرة يومين.

هكذا كنت أشعر وأفكر بالبدو وقتئذٍ عندما كنَّا على مقربة من الوجه وبالطبع كنت في الأيَّام الأخيرة تحت وطأة هذه النماذج التعيسة لهذا الصنف،

وفيما بعد عندما تبخر الانزعاج جاء حكمي أخف وطأة ولم أخفِ جوانبهم الطيِّبة[1].

والآن قمت وكذلك أثناء الطريق بعملية صيد للقمل، وبعون الله ستكون الأخيرة، إنَّ الاقتراب من مدينة الميناء، كان مدعاة لخفقان صدري الصحراوي الجاف أعلى فأعلى، ها هو حقاً البحر، وهناك بعض الساريات، وها هو خيال على ظهر حصانه، لقد شاهدت طربوشاً وسترة مصرية وقمصاناً نظيفة. يا إلٰهي أي ندرة، الآن أصبحت نقوشي في أمان. ولم أعد أخاف من الناس. وكانت فرحتي كبيرة كبيرة تفوق كل حد.

في الواقع كان يجب أن أتوقف هنا لأنَّه هنا تنتهي رحلتي في «داخل شبه الجزيرة العربية» إلَّا أنَّني أود أن أقدِّم تقريراً مختصراً عمَّا صادفني في الوجه، وأي طريق سلكته في عودتي إلى أوروبا.

عندما بلغنا باب الوجه كانت ترابط هناك قافلة عنزة الكبيرة، التي كانت تسبقنا بعض الشيء، وقد تجمَّع هناك حشد كبير من الناس بحيث يبادلون منتجاتهم الصحراوية، وكان يقف أمام الباب حارسان، ولما كنت أبدو مثل بدوي متسخ لم يشاءا في البداية أن يدعاني أدخل، وقد تطلب الأمر بعض الشروح. لقد نزلت عند محمد شحاتة، ولقبه البديوي، وهو رأس عائلة ثرية ذات فروع متشعبة على نطاق واسع، ووضعت هناك أغراضي، وبعد قليل طلب منِّي وكيل الحكومة المصرية أن أتوجَّه إلى دار الحكومة، هناك وأنا محاط بمجموعة من الناس تمَّ استجوابي بمنتهى الدقة: من أين وإلى أين وإلخ... وجرى تسجيل كل الأقوال من جانب الكاتب أحمد أفندي، وبعد أن سار كل شيء على ما يرام، كان بوسعي أن أنسحب، في تلك الأثناء كان البديوي قد أمر بتوضيب حجرة صغيرة مباشرة قرب البحر بجانب القهوة وقد أنزلت أمتعتي هناك وسجادتي إلخ ووضعت فوق دكَّة، والحالة هذه كان بمقدوري أن أغتسل اغتسالاً تاماً، وهو ما أحتاجه حقاً. مع غروب الشمس

---

(1) انظر الجزء الأول ويحكم بلغريف على مصداقيتهم على نحو مماثل انظر ج 1 من رحلته، ص 3، 33، 50، 51، 145.

اصطحبني البديوي العجوز إلى طعام أميري، لم أرَ مثله منذ أن كنت في دمشق أي منذ شهر آب/أغسطس، حساء مع ملاعق، بيض، دجاج بالفرن، لحم مقلي، خبز، وعليَّ أن أعترف بأنَّه لم تقدم لي سابقاً وجبة أفخر منها.

من المعلوم أنَّ شبه الحضارة الشرقية تتميَّز ببركة البراغيث الكبيرة، وقد خبرتها ثانية في هذا اليوم ليلاً، بعد أن كنت قد نسيتها تقريباً. فبعد ساعة من الصراع العديم الجدوى طلبت أن يوضع سريري بجانب البحر مباشرة إلَّا أنَّني أخذت قسماً من أغراضي إلى هناك.

الأحد في 6 نيسان/أبريل ـ الثلاثاء في 15 نيسان/أبريل 1884م.
لقد توجب عليَّ أن أنتظر في الوجه أسبوعاً كاملاً ثم يومين آخرين قدوم سفينة تحملني إلى مكان أقرب إلى أوروبا، إلَّا أنَّ هذا الانتظار كان امتحاناً جميلاً لمدى صبري وفي الوجه لا توجد خطوط ملاحية على الإطلاق فقط في أثناء الحجّ تأتي باخرة مصرية لنقل الحجَّاج، وبذلك كان عليَّ أن أنتظر سفينة شراعية مسافرة بالصدفة وكانت في الميناء سفينتان صغيرتان من نوع سنبوق إلَّا أنَّهما لم يرغبا بنقلي إلى جدة، وأما بشأن السويس فقالا: إنَّهما يحتاجان في ظلِّ الريح الحالية إلى 10 ـ 20، لا بل 25 يوماً، لذلك قرَّرت الإبحار إلى القصير على الجانب المصري، وتستغرق الرحلة إلى هناك ثلاثة أيَّام ثم أركب الجمل إلى قنا على نهر النيل والسفر من هناك إلى القاهرة، ومن القصير يمكن أن تأتي سفينة في كل يوم.

حاولت والحالة هذه أن أبيع جملي بسعر مناسب إلَّا أنَّ جميع جهودي باءت بالفشل لأنَّ الناس عرفوا أنَّني أريد السفر وينبغي عليَّ أن أبيعه وهكذا استمروا ثابتين ولم يكن بالإمكان الحصول على أكثر من 25 ليرة مجيدية مقابله[1]، وأخيراً سلمته للبدو لقاء هذا السعر، وتخلصت بذلك من واحد من همومي، وحدث هذا بعد يوم من وصولي، وفي اليوم نفسه ودعني أصحابي من البدو بعد أن اقتنصوا بعض البخشيش، وداعاً أيُّها البدو، ارجعوا إلى صحرائكم وخيامكم التي تنتمون إليها.

---

(1) كم دفعت في شرائه انظر الجزء الأول.

طبعاً تعرَّفت بعد حين على جميع أعيان الوجه من أبناء البلد والغرباء ومنهم قائد القلعة (طوبجي باشي) والدكتور حسن أفندي والكاتب أحمد أفندي والقاضي والتاجر محمد عوَّاد، الذي تعلَّم في السابق الإنجليزية والفرنسية في السويس، وهذا الأخير أهداني عوضاً عن ملقطي النار اللذين ضاعا منِّي ملقطاً من النحاس من صنع الغجر (شكل خلاوية). إنَّ الشيخ سليمان بن رفادة[1]. أثار اهتمامي على وجه الخصوص، وقد صادفته عند وصولي في دار الحكومة. وفي اليوم التالي قام بزيارتي، وهو ذلك الشخص الذي قام بسلب حيلان حسبما ورد في يومية 20 آذار/مارس، وهو كبدوي جميل القسمات، وكان يرتدي ثياباً أنيقة، كوفيته من حرير، عباءته بيضاء مثل الثلج وخفيفة، وتحدثنا عن بلاده والنقوش، وذكر لي أمكنة فيها نقوش صخرية في منطقة بلي؛ القصير الكركمة وأم قريَّات، وروى لي عن كركمة، إنَّها مطابقة لـ«قصر الكريم سعيد» ولا تبعد عن الوجه سوى مسافة يوم واحد باتجاه الجنوب، وكان غضيَّان قد ذكر لي من قبل أمكنة أخرى؛ الخضير، الثروة، السرحة، هضب الثعلب، غصيف. لقد ودعني سليمان بن رفادة وركب مرتدياً ثيابه المدنية متوجهاً إلى مضرب خيامه التي تقع في ذريب، إلَّا أنَّه أتى مرة ثانية إلى المدينة يوم 12 نيسان/أبريل وفي يوم 13 كان عليَّ أن أحضر لديه وليمة بدوية مترعة بالطعام[*].

كانت لي جولات من الأحاديث مع البديوي العجوز حول البلاد والنقوش، إنَّه ذلك الشخص الذي رافق قديماً النقيب برتون Burton إلى بلاد مدين[2]. وقال لي: إنَّه على مسافة يوم من الوجه باتجاه الشمال يوجد جبل من المرمر يُدعى رابغ وتوجد هناك أعمدة وكثير من النقوش، وعلى مسافة ثماني ساعات منه تقع «بدع» وهي تكتظ بالنقوش. وزار النقيب برتون المواقع، إلَّا أنَّه لم يفهم منها شيئاً. وعلى مسافة يوم جنوبي الوجه يقع جبل كبريت وفيه آثار قديمة، وهو شخصياً لم يلاحظ أية نقوش هناك.

---

(1) يكتبه في المتن سليمان بر رفادة.

(*) الأصل: التهام بدوي ضخم. (المترجم).

(2) انظر: Burton, **The Land of Midian**.

وممَّا يثير الضحك الكيفية التي تستعمل بها كلمة أنتيكا في الوجه، هناك لا يفهمون تحت هذا الاسم الأشياء العتيقة فحسب، بل النادرة والجديرة بالمشاهدة من كل الأصناف، سآخذ شداد ذلولي معي لكي أعرضه في موطني باعتباره أنتيكا، ولذلك يسألني أحدهم فيما إذا كنت أنوي شراء أنتيكات.

فأجبته أريد أن أراها أوَّلاً، فما الذي أحضره الرجل؟ لقد أحضر صدفاً ومرجاناً، إنَّ الطريقة السنوسية تتابع توسع انتشارها في المنطقة باستمرار.

قبل خمس سنوات لم يكن هناك سنوسي واحد في الوجه، أما الآن فإنَّ داعية سنوسياً يقيم كل ليلة ساعة ذكر في الجامع يزاول فيها الأخوة في الطريقة ذكرهم، هؤلاء المشدوهون[*] ينشدون أوَّلاً ببطء، وفيما بعد أسرع لا إلٰه إلَّا الله حتى يفقدوا الوعي، ثم بعد ذلك لمدة خمس دقائق الله الله، الله، وبعدها يطلقون كلمة حي، حي، حي، وما يشابهها، ولا أفهم كيف يمكن لهذه الصيغة من العبادة أن تنتقل بالعدوى وتؤثر بهذه السرعة. لقد أعجبني أذان المؤذن وهو أفضل، فهو ذو صوت جميل للغاية، إلَّا أنَّ الذي أعجبني غاية الإعجاب أغاني صيادي السمك الذين ينطلقون كل صباح بزوارقهم، وفي الواقع إنَّه أوَّل غناء جميل سمعته في الشرق.

في 14 نيسان/أبريل وصلت أخيراً السفينة التي يجب أن تبحر إلى القصير واسمها نسيم الفرج وقبطانها سليمان محمود وحمولتها 110 طن وعدد ملاحيها ثمانية عشر بحاراً ويمكنها أن تأخذ عشرة مسافرين.

في 15 نيسان/أبريل صباحاً وصلتني تحية الوداع الأخيرة من الصحراء العربية، لقد كانت قافلة جمال كبيرة قدمت من مكَّة عبر المدينة وقد سميت المورِّعي[1]، وقد أحضرت معها جمالاً من قبيلة حرب وكانت قد باعتها في الطريق أو ستبيعها في الوجه لا بل في مصر.

في المساء كان بإمكاني أن أصعد أخيراً إلى متن السفينة بعد أن ودعت جميع أصدقائي في الوجه. وعلى ظهر السفينة جهزت مأوى لي، حوالى

(*) الأصل: المجانين. (المترجم).

(1) يبدو أنَّه من العاملين في مجال السفر.

الساعة الواحدة ليلاً رفعت السفينة المراسي وأبحرت باتجاه شمالي غربي على طول الشاطىء.



لقد قضينا ثلاثة أيَّام كاملة فوق الماء، وفي الغالب كان يسود سكون في حركة الريح بعد ذلك رسونا في خليج عنتر وخليج الدميغة وكان الناس على ظهر السفينة يتذكرون جيداً الصديق د. كلونتسينغر Dr. Klunzinger وكانوا يدعونه كولوسنغرا.

في 20 **نيسان/أبريل** حوالى الساعة الثانية عشرة وصلنا أخيراً القصير، ومضى وقت طويل نسبياً حتى قامت الشرطة الصحية بإنجاز عملها وأحصي جميع البحارة والمسافرين، وحتى سمح لنا أخيراً بالنزول إلى البر.

والآن استغرق وصولنا إلى قنا خمسة أيَّام على ظهور الإبل ثم في الباخرة إلى أسيوط وبالقطار إلى القاهرة وعبر بور سعيد إلى يافا والقدس وبيروت وإزمير وأثينا وبتراس وتريست ثم ألمانيا. هذه هي رحلتي العربية.

خاتمة الجزء الثاني

والسلام على من قرأه وقال السلام على مؤلفه(*)

(*) كتبها المؤلف بالعربية. (المترجم).

كشاف عربي

أثل	: اتل، اتُله. أثل للجمع وأثلة للمفرد شجر معروف يُستعمل لتسقيف المنازل قديماً.
أخر	: تراجع.
آه	: نداء الاستياء.
برد	: بارد، التخلي عن المجابهة، بواردية: مسلحون للدفاع بالبنادق.
برقع	: بُرقع طاقية من الجلد للطيور المعدة للصيد كالصقر والشاهين.
برك	: بركة حوض ماء من صنع الإنسان.
برنق	: برنوق عشب بري ينبت في فصلي الشتاء والربيع.
بس	: كافي.
بشر	: البشير، حامل البشارة.
بقر	: بقر الوحش وبقر المنازل والمزارع.
بلاش	: دون مقابل.
بلخ	: بلوخ، كمأة بيضاء ويُقال لها الزبيدي.
بلع	بلاعة ثقوب الماء، عين.
بندق	بندج أم زند أو بندجين قداحي. بندقية تعمل بقدح الحجر.
بوم	: بوم (اسم طائر) ليلي مفترس للطيور الصغيرة.
بيت	: الخيمة.
بيرقدار	: حامل الراية.
ترب	: تربة (نبات) ربيعي.
ترس، مترس	: جمع متاريس، مخبأ الصياد ومتاريس المحاربين.
تظّ	: تظيظ خنفس الروث.

تك، متكاكه : حزام، رباط جلدي.
جبأة جبات : نوع من الكمأة وهو أردأ أنواعها.
جرّ، جِرِه : أثر الأقدام.
جرد، جردان : اسم صقر (تبعاً لهِسّ اسم جمل).
جسر : جسر.
جلوة : اسم نبات.
جاز : جازه، وتد خشبي.
جيش : جمال (إبل) اسم جمع لمفرد ذلول وهي نوع من الإبل تُستخدم في الأسفار والحج.
حبر : حبارى (طائر) يُصاد للأكل بالصقر وبالبندق والجمع حبارىٰ.
حبس : السجن.
حجر : نوع من الأحجار.
حدى : حدية، الحدأة، أبو الخطاف (طائر).
حرم : حرامي جمع حرامية وهم اللصوص.
حصن : حصني، الثعلب.
حطب : حطب (خشب للحرق).
حق : حقه (يخصّه).
حمل : حِمل الجمل ما يحمل على الجمل لواحد وجمعه حمول.
حوبى : اسم نبات مأكول للإنسان والحيوان.
حور : محور، حديد محمًّى يُستعمل في تثبيت البكرة لجذب الماء من البئر.
حوض : إناء جلدي محمول على أعواد قوية يُستعمل لسقيا الماشية [إبل وغنم].
حال : كيف حالك.
خبر خبرة، منخفض مائي يستقر به ماء المطر وينبت أنواعاً كثيرة من الشجر والعشب.
خرج : خرج عبارة عن وعاء من الصوف يقوم مقام شنطتين متعادلتين مع ظهور الإبل.
خشب : خشبة تستعمل لتقييد السجين داخل السجن.

خطر : كيف خاطرك أي كيف حالك.
خطف : خطَّاف، اسم صقر.
خلص : خلاسي، نوع من الكمأة.
خلف : ما يخالف.
خلا : الخلوة، الغَجَر، النَّوَر للجمع وخلوي للمفرد.
خنجر : خنجر عريض سلاح يدوي أبيض.
دبس : دبوس، هراوة.
دِس : جلد يلفّ على اليد عند حمل الصقور باليد.
دود أيُّوب : [نسبة إلى حكاية] النبي أيُّوب.
ديم : الغيمة الماطرة بدون برق ولا رعد.
ذكر : الذِّكر.
ربّ : ربابة آلة موسيقية بدائية.
ربحل رُبلة (نبات) ربيعي.
ربط : مربط السلسلة، إنَّه رباط جلدي مع سلسلة للصيد بالصقر.
ربع : يربوعه وتبعاً لهِسّ جربوع حيوان بري من الثدييات الصغيرة.
رجل : رجاجيل وتعني عساكر.
ردَّ : رُدِّه، اسم كلب.
ردف ردیف، مردف، دابة ركوب يمتطيها شخصان.
رشرش : خام الحديد الجيبي.
رعى : راعي الجيش.
رقب : أم الرقيبة، نوع من الخنفساء.
ركب : مركابه، طبق ذو قاعدة يثبت بالأرض فيقع عليه الصقر [مجثم البازِ].
ركا : مركا، مسند من الطين.
زب : زب الأرض (نبات) فطري.
زبد : زبيدي، إنَّه نوع من الكمأة تبعاً لهِسّ.
زبر : زبير، دكة طينية.
زبن : زبون ثوب مفتوح من الأمام مع بعض الإضافات.
زمل : زِمل جمع لكلمة جمل ولا مفرد لزمل من لفظها

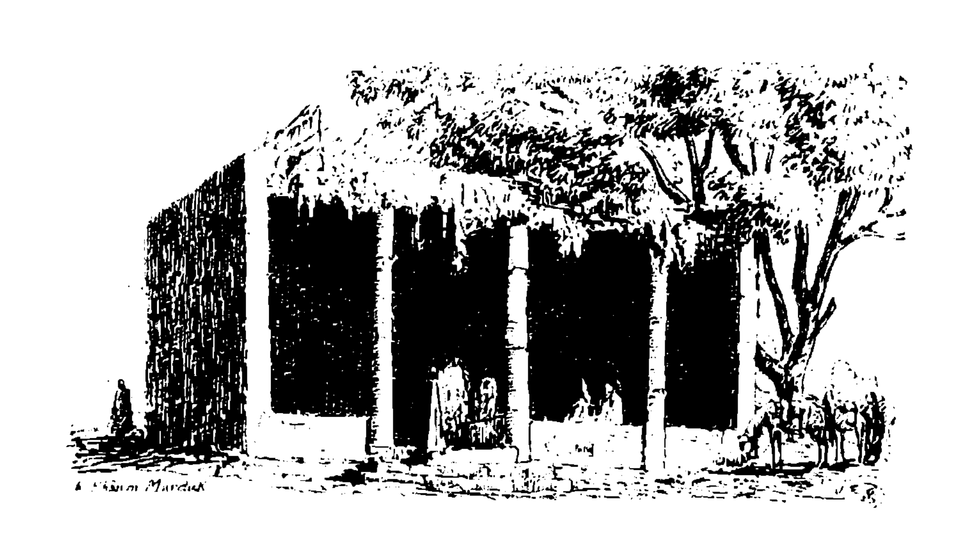
زنا	:	ولد الزنا شتيمة وهو الولد المنتج خارج إطار الزوجية.
سبح	:	سبحان الله أي تنزه الله.
سبخ	:	سبخة أرض لا يتسرب من خلالها الماء.
ستر	:	يا ستَّار.
سطح	:	سطحه، اسم كلبة.
سلح	:	سلاح (تبعاً لهِسّ سليح) نوع من الأعشاب البرية.
سلق	:	سلوقي جمعه سلق، كلب الصيد.
سمر	:	مسامرة.
سنبر	:	صنوبر، حب الصنوبر.
سنبوك	:	سنبوك [نوع من السفن] الصغيرة.
سند	:	مسناد، منحدر رملي.
سود	:	سويد اسم صقر واسم رجل.
سوق	:	بازار.
سوم	:	سماوه، فتحة الدخان (سماوي تبعاً لهِسّ).
سيخ	:	سيخ، مثبت الطبق الذي يجلس عليه الصقر.
سيل	:	السيل الماء المجتمع من المطر بكثرة.
شلّ	:	شِلّه، اسم كلب.
شلح	:	شلحه، اسم كلب.
شيء	:	شوي (شوية تبعاً لهِسّ) ببطء.
صدف		أصداف.
صفر		صفارة.
صفق		صفَّاق (اسم صقر).
صقر	:	الصقر، من الطيور الجارحة .
طرثث		طرثوث (نبات) بري فطري.
طرف		طُرفه، اسم كلبة.
طلح		شجرة الطلح البرية.
طاق	:	طاقية لباس الرأس المعروف.
ظربان	:	ضِربون، ظرمبون، ضرمبون، ظرمبان، نمس كريه الرائحة.
عرج	:	عَرجان اسم صقر.

عزم : عزَّام اسم صقر.
عشب : العشِب النباتات البرية.
عشج : عوشج (عوسَّج تبعاً لهِسّ) نبات بري شائك ويُقال إنه شجر الفرقد.
عصنصل : نبات بري يشبه البصل.
عقب : عُقاب طائر مفترس ويُسمّى ملك الجو لشجاعته.
عوذ : أعوذ بالله.
عين : عيون، مستطلعون.
غرمل : غُرمول جمع غراميل، شكل مخروطي مدبَّب.
غصب : بغصب، بالقوَّة.
غضا : شجيرة تحتطب.
غنم : غنَّام، اسم صقر واسم إنسان.
عيصلان : اسم نبات = عصنصل يشبه البصل بل يعتبر من فصيلة البصل.
فجر : الفجر آخر الليل.
فستق : الفستق.
فضا : فضوة، فتحة في السور.
قحب : ابن قحبة، شتيمة ابن زنا.
قدس : قدس شيء مقدس محترم كثيراً.
قدم : قدَّام، أمام.
قرب : قريب أحد أقارب الإنسان.
قرد : القراد حشرة صغيرة تلصق بالإبل.
قري : اسم شجيرة.
قنط : القناطي، معاجين حمراء.
قود : القواد، شتيمة.
قوي : القوَّة، قوَّة الرجل، لا قوَّة إلَّا بالله.
قاء : الشيوح يقي.
كحل كحالة، كحيلة مربط من مرابط الخيل العربية الأصيلة.
كلخ : نبات.
كمأ : تُسمّى، كمأة نبات فطري مأكول للبشر.
لبس : مليبس (ملبس).

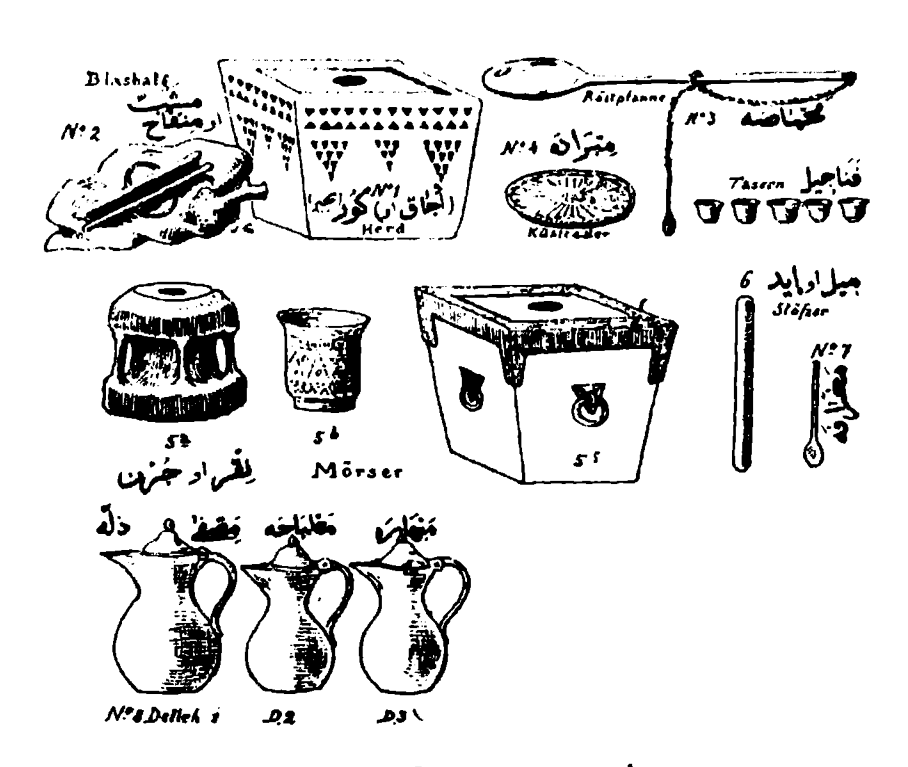
لبن	: لبن مخيض.
لهف	: اللُّهُف (سفح يظهر عليه تدفق الحمم البركانية).
لقط	: الملقاط (مليجيط تبعاً لهِسّ) عبارة عن سيخين من الحديد يُستعمل في إصلاح الجمر من النار.
مرغ	: المراغة مستراح الإبل.
ميل	: قلم الزينة لكحل العينين.
نتف	: نتَّاف.
نجر	: نجر، المهباج.
نعم	: أنعم الله عليك.
نمر	: النمر.
نمس	: نواميس، أبنية الأضرحة.
نوب	: النوبة المرة الواحدة.
هزع	: هزَّاع اسم صقر واسم رجل.
هضب	: هضبة جمع هضاب وهي الجبل المنفرد.
هيدا	نداء الجمَّالين.
وبر	: الوبر حيوان بري ثديي مأكول.
وجد	: واجد، متوفر.
وسم	: وضع سمة القبيلة، ميسم قطعة من الحديد تسم بها كل قبيلة.
وعر	: الوعر المرتقى الصعب.
وين	: أين.
يا	: يا الله، إلى الأمام.

ملحق صور

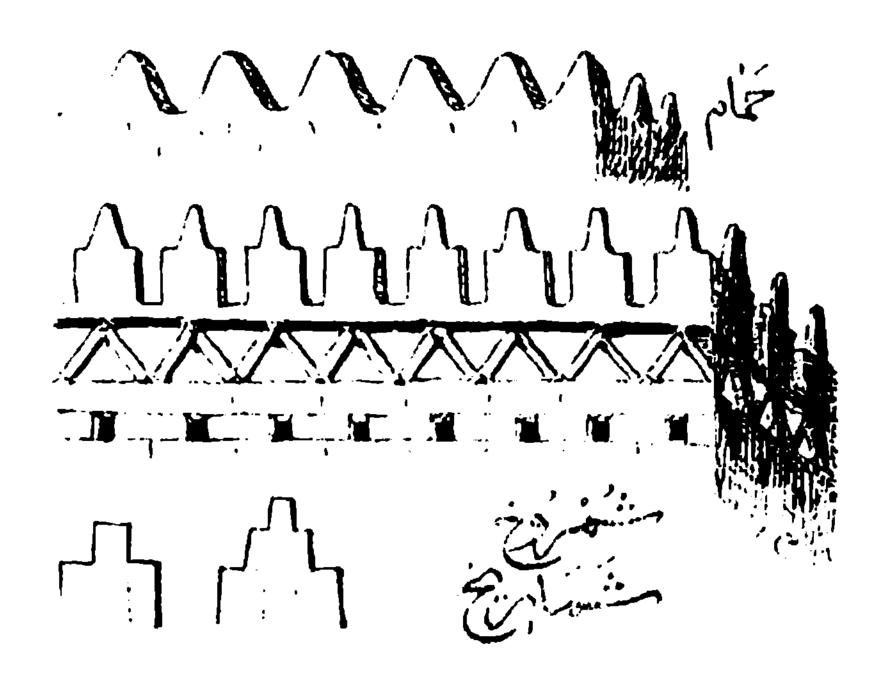

جبل الدروز
تل شيحان
الزيتون





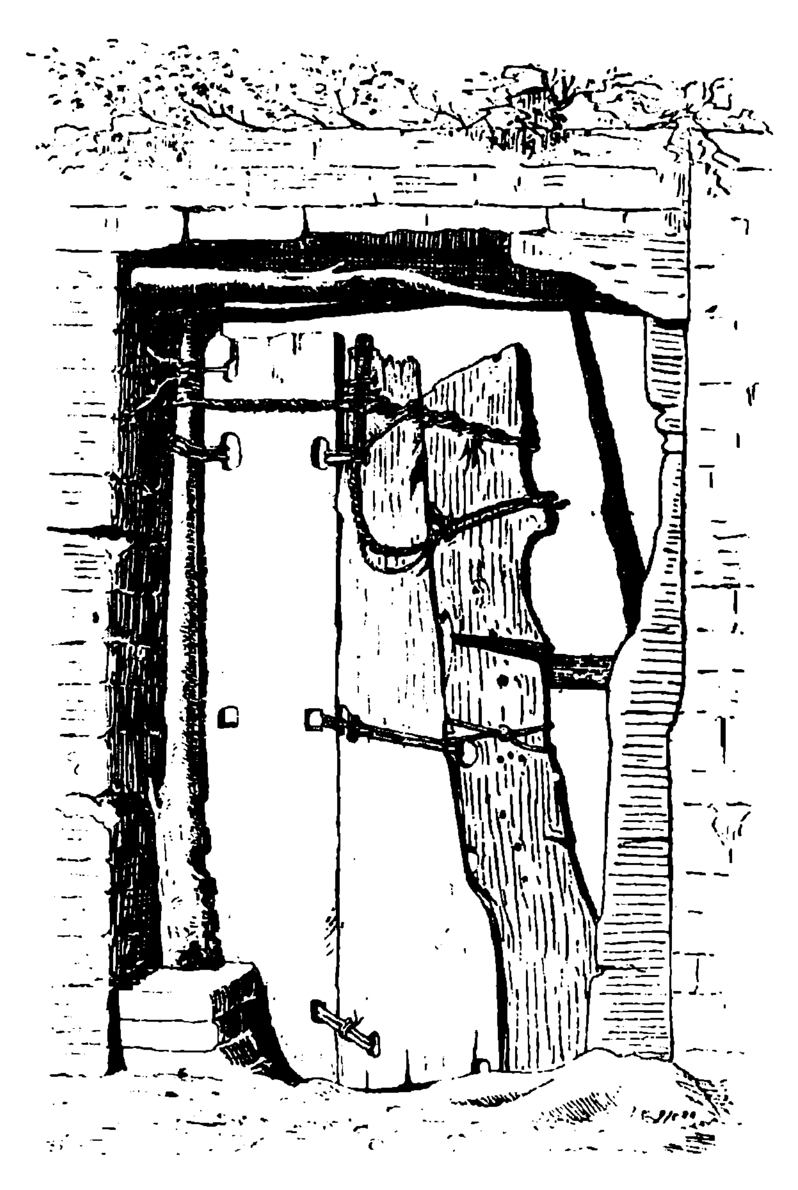


أدوات عمل القهوة

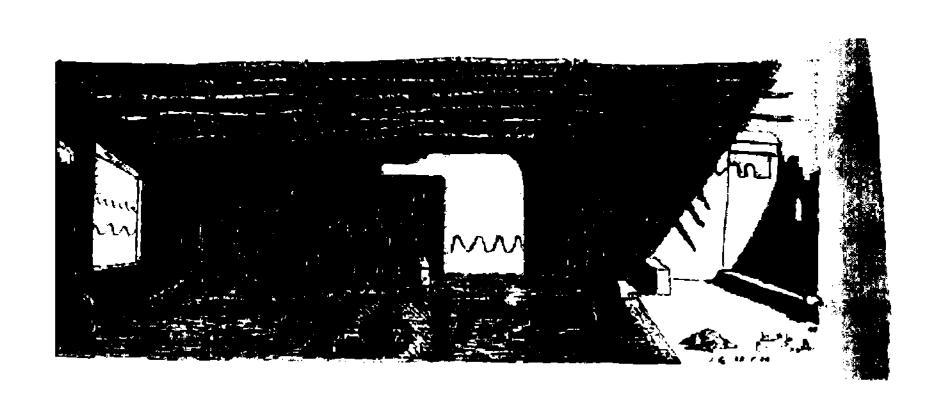


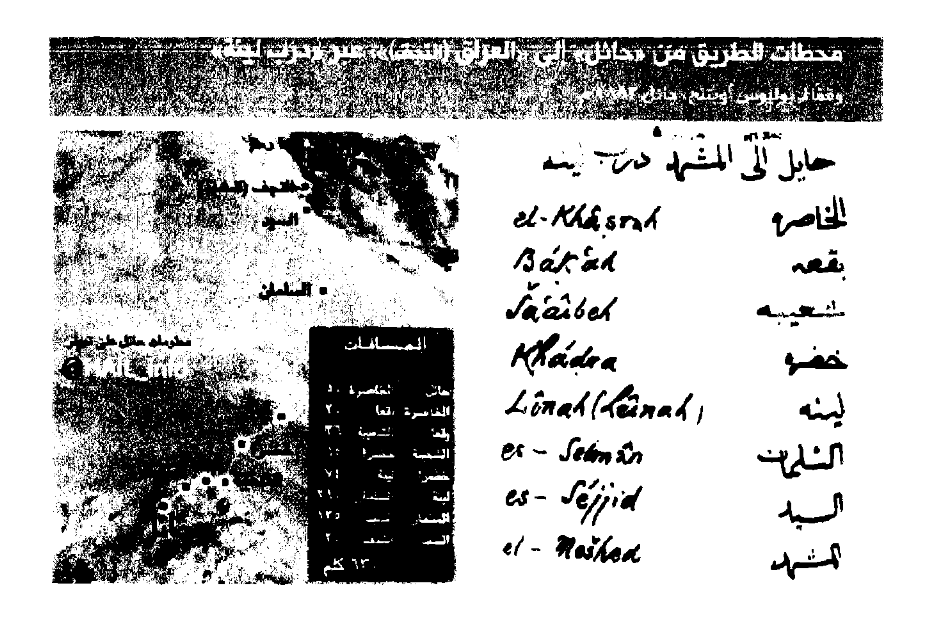


جبل قصر الضباع



أحد الأبواب الخشبية في بلدة كاف




محطات الطريق من «حائل» الى «العراق (النجف)» عبر «درب لينة»
حايل الى المشهد درب لينه
el-Khâsrah الخاصره
Bák'ah بقعه
Šaâibeh شعيبه
Khâdra خضره
Lînah (Lînah) لينه
es - Selmân السلمان
es - Sejjid السيد
el - Mashed المشهد
المسافات

الفهارس

فهرس الأعلام

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

فهرس البلدان والأماكن

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ك

ل

هـ

و

ي

فهرس الشعوب والجماعات

ت

ث

ج

ح

د

ر

س

ش

ص

ظ

ع

هذا الكتاب

كان رفيقي في الرحلة السيِّد كارل هوبر (اغتيل بالقرب من جدة في 29 يوليو/ تموز 1884م)، المولود في الإلزاس وحامل الجنسية الفرنسية بالاختيار، والذي كان قد جاب هذه المنطقة قبل بضعة أعوام وكانت خبرته ومعرفته للمناطق والأمكنة عوناً كبيراً لي؛ وعلى الرغم من أنّه كان لديه تكليف رسمي من الحكومة الفرنسية للقيام بالرحلة وحصل أيضاً على أموال مختلفة لهذا الغرض، فإنّه كان ضيفي بدءاً من ستراسبورغ (22 مايو/أيار 1883م) وحتى انفصالنا بكل مودّة (19 مارس/آذار 1884م) في العلا.

كان غرضي من الرحلة ينصبُّ في المقام الأوّل على الآثار والكتابات والنقوش الأثرية القديمة. كنت أريد في هذه البلاد التي توغل فيها قديماً المحتلون الآشوريون والتي ظلّت تجارة البلدان المشرقية والجنوبية إلى البحر المتوسط قروناً عديدة تنقل عبرها على ظهور الإبل - دراسة آثار التاريخ ما قبل الإسلام في صيغة الكتابات والتماثيل والشواهد التاريخية المتبقية من ذلك الزمان. ولقد نشرت النتائج العلمية في هذا الاتجاه بأهم أجزائها.

لكنّني في هذا الكتاب أردت أن أُقدِّم للجمهور الأوسع وصفاً لمشاهداتي وانطباعاتي الشخصية التي يمكن أن تكون - على الرغم من صبغتها الشخصية تماماً - ذات أهمية من جوانب مختلفة.


AL Warrak Publishing